دراسات إسلامية

الدكتور فهمي سعد

العامّة في بغداد

في القرنين الثالِث والرابعِ للهجرة

دراسة في التاريخ الاجتماعي

دار المنتخب العربي

الدكتور فهمي سعد

العامّة في بغداد

في القرنين الثالث والرابع للهجرة

دراسة في التاريخ الاجتماعي

دار المنتخب العربي
للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1413هـ - 1993م

دار المنتخب العربي
للدراسات والنشر والتوزيع
ص. ب : 113/6311 ـ بيروت ـ لبنان

توزيع

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام
هاتف : 802428 -802407 -802296
ص. ب : 113/6311 ـ بيروت ـ لبنان
تلكس : 20680- 21665 LE M.A.J.D

مقدمة

عرف العالم العربي الحديث جملة من التطورات الاجتماعية كان من مظاهرها انتشار المفاهيم الديموقراطية والدستورية ، وقيام الحركات القومية وظهور الأحزاب واعتماد أنظمة انتخابية تستند إلى الكثرة العددية.

وقد تركت هذه التطورات أثرها على كتابة التاريخ التي شهدت تحولاً في بعض أهدافها ووسائلها. فازداد الاتجاه نحو التأريخ الاجتماعي الذي يركز على دراسة تاريخ الشعوب ، وتطور اتجاهاتها ، وأحوالها الإجتماعية والحيوية ، وطرق ووسائل معيشتها. وقد تعزز هذا الاتجاه في كتابة التاريخ العربي والإسلامي بقيام جماعة من كبار الباحثين ، كان لهم فضل الريادة في هذا المجال. وبخاصة بعد أن أتخمت المكتبة التاريخية بدراسات تأخذ طابع التراجم والطبقات السياسي والتاريخي ؛ وهذا النوع من الكتابة التأريخية لم يعد له أي قيمة، لا سيما بعد تطور العلوم الإجتماعية والعلوم المساعدة. فالإنسان العربي اليوم بات يمجّ دراسة الشخصيات التي قدمها لنا السلف على أنها نماذج وقدوات تربوية، في ظل ثورة تربوية يعيشها القرن العشرين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الإنسان، مهما كان شأنه، وعلى أي مستوى، لم يعد معزولاً، بل هو يعيش في مجتمع ذي طابع دولي يتفاعل معه، ويعيش علاقات داخل مجتمعه، يتجاذبها العديد من الأفكار وقوى الضغط الإقتصادي والنفسي والإعلامي والسياسي.

أمام ذلك، تبين لي أن التاريخ الإسلامي هو تاريخ المدينة، حيث تجمعت الكثافة السكانية، وهو ما توقفت عنده أدبيات العصور الوسطى، ولم تعالج مجتمعات الريف والبداوة إلا حين تكون هذه المجتمعات، مضرب مثل ساخر أحياناً، أو غير طبيعي في أحيان أخرى.

ولقد رأيت أن دراسة العامة في القرنين الثالث والرابع الهجريين، يمكن أن تشكل نقطة البداية لتطور دور العامة في المجتمعات الإسلامية، وبخاصة أن بغداد كانت أول عاصمة عربية ضمت كثافة عالية من السكان المتعددي الأصول العرقية، والذين خاضوا تجربة العيش ضمن ظروف جديدة في عاصمة تكاد تكون عالمية تختلط فيها الثقافات القديمة.

ووجدت أن من واجبي دراسة هذا الموضوع عبر خمسة محاور:

1 ـ طبوغرافية بغداد.

2 ـ المؤسسات البغدادية وتطورها.

3 ـ مجالات العمل والأشغال البغدادية والحاجات المادية وأصناف العاملين فيها.

4 ـ الأفكار والعقائد وموقع العائلة والفرد وموقفهما منها.

5 ـ المجموعات البشرية المنظمة داخل المدينة، سواء أكانت هذه المجموعات كبيرة أم صغيرة، وسواء أكان تنظيمها عفوياً أو مقصوداً.

ولقد وجدتني أمام مدينة شادها مؤسسها أبو جعفر المنصور عاصمة ملكية تضم رجال الإدارة والجند. إلاّ أنها ما لبثت أن تحولت إلى مدينة كبرى ضمت أنواعاً شتى من السكان، واستقبلت العديد من أصحاب الحرف والعبيد يعملون في أسواقها ويلبون حاجات القصر والسكان المتزايدة يوماً بعد يوم، مستفيدين من توسع مجالات الإنتاج ولزدهار الحركة النقدية. وأدى الأمر إلى قيام طبقة من الخاصة الملتفين حول القصر الملكي، فيما تشكلت طبقة العامة من معظم سكان المدينة من حرفيين ومهنيين.

إلا أن الحياة في هذه المدينة لم تلبث أن ناءت تحت وطء مشكلات الامبراطورية، فالحروب الداخلية وخاصة حروب الخلافة بين الأمين والمأمون في نهاية القرن الثاني، ثم حرب المستعين والمعتز في منتصف القرن الثالث، كانت تجري في محلات بغداد وشوارعها، تاركة الخراب والدمار يخيمان على جميع مرافقها، هذا فيما ظهر العيارون كقوة شعبية أساسية.

كان لظهور حركات التمرد في سواد العراق كبير الأثر في الحياة العامة داخل بغداد. وكان أخطر هذه الحركات، حركتا الزنج والقرامطة، كما أن قيام حركات التمرد في المقاطعات التي انتهت بخروج مصر والمشرق نهائياً من قبضة الخلافة، وقيام أسر حاكمة تستأثر بموارد هذه المقاطعات، أدى إلى حرمان بغداد من موارد اقتصادية ومالية،

فنشأت مشكلات إجتماعية لم يوجد من رجال الإدارة من يتصدى لحلها بشكل جذري. وانعكس ذلك في ضعف الخدمات التي كان على الدولة أن تقدمها، وظهر الفقر في بغداد بصورة واضحة فانتشر فيها اللصوص والمكدون. مما ساهم في إذكاء الفتن الداخلية، وأدى التدخل البويهي في شؤون الحياة العامة إلى تهاوي القوة الإقتصادية في بغداد، وقيام فتن مذهبية بين البغداديين.

ولدى دراسة هذه النقاط رأيتني أمام مهمات على نوع من الصعوبة، وبخاصة في تقميش مادة الموضوع التي تتوزعها مختلف ألوان التراث العربي المتاحة لنا.

ولدينا من الإثبات أن المؤلفين في العصر العباسي قد أولوا العامة اهتمامهم، فقد أشار الجاحظ إلى رسائل عديدة في موضوعات شتى، فقد معظمها، من غش الصناعات والمعلمين واللصوص والزرع والنخل والزيتون والأعناب والتثمير والتجارة (الحيوان ج1، ص3، 4، 7). ونعرف أن أحمد بن الطيب السرخسي وضع العديد من المؤلفات من بينها ما يتصل بالعامة بصلة مباشرة مثل «كتاب الأغشاش» و«صناعة الحسبة الكبير» و«كتاب غش الصناعات» و«الحسبة الصغير» و«كتاب اللهو والملاهي» وكتاباً آخر في «الغناء والمغنين» وآخر في «الطبيخ» (ابن أبي اصيبعة، طبقات الأطباء، ط. الحياة، ص294).

وأمام فقدان معظم الأصول التي تعالج موضوعات اجتماعية، وجدت لزاماً عليّ أن أتجه إلى كتب التاريخ وكتب الأدب والبلدان استنطقها. وكانت المصاعب جمة، لأن هذه الكتب غير مبوبة وغير مبنية على موضوعات مستقلة.

ووجدتني أمام هذه الحالات من المعلومات التي كانت تشح أحياناً حتى تبلغ القطرات، وتغزر أحياناً أخرى حتى تبلغ السيل، مضطراً إلى أن أقبل بالحالات الفردية، محاولاً ربطها داخل الإطار العام للأحداث الاجتماعية، معتمداً في تفسير الظواهر قاعدة الابتعاد عن أي فكرة مسبقة حول تفسير التاريخ، مقترباً من الفترة التاريخية موضع الدرس، متحاشياً ما أمكن التعميمات التي يمكن أن تنزع عن البحث جديته وخصوصيته.

وأخيراً أرجو معذرة القراء الكرام في أي تقصير، وأسأل الله المغفرة وحسن الثواب.

فهمي سعد

الباب الأول

بغداد عاصمة العباسيين

الفصل الأول: طوبوغرافية بغداد.

1 ـ تمهيد

2 ـ دوافع بناء المدينة

3 ـ موقع المدينة

4 ـ منطقة بغداد القديمة.

الفصل الثاني: بناء بغداد وتطورها حتى نهاية القرن الرابع الهجري

1 ـ المدينة المدورة

2 ـ شكل المدينة ومساحتها

3 ـ وصف البناء

4 ـ تطور المدينة

5 ـ الجانب الشرقي وأبنية البويهيين

الفصل الثالث: سكان بغداد الأوائل

الفصل الأول

طوبوغرافية بغداد

تمهيد

أصبحت مدينة بغداد مدينة كبرى تعج بالسكان بعد مضي أقل من نصف قرن على بنائها[1]. لذا فإنه من المفيد لدراسة العامة وأهل الأسواق أن نلم بظروف بناء المدينة، وأسواقها، وتوزيع سكانها على الأحياء.

ارتبط بناء بغداد بقيام السلطة العباسية. فبعد سقوط دولة الأمويين سنة 132هـ/749م. بويع لأبي العباس السفاح في الكوفة، ثم لم يلبث أن انتقل إلى معسكر عباسي في «حمام أعين» قريب من الكوفة، وأقام فيه أشهراً، ارتحل بعدها إلى مدينة «الهاشمية» في قصر الكوفة، ومنها إلى الأنبار[2]، التي توفي فيها سنة 136هـ/753م.

وقد رافق قيام الدولة العباسية جملة من الأحداث الداخلية المهمة، منها: حركات الارتداد التي قادها عمّال السفاح في قنسرين والبثنية وحوران والموصل[3]. ومنها حركات التمرد على المنصور عقب مقتل أبي مسلم الخراساني، كحركة سنباذ سنة 137هـ/754م، وحركة عبد الجبار الأزدي سنة 141هـ/758م[4]، وغيرهما من الحركات التي هددت الحكم العباسي في خراسان.

وبرز النشاط العلويّ مستهدفاً الإنتقال من دور المساند للعباسيين إلى دور الشريك

---

(1) ابن الفقيه الهمداني، بغداد مدينة السلام، بعناية صالح احمد العلي، (بغداد 1977 وزارة الإعلام)، ص 60.

(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (القاهرة، 1966 دار المعارف). ج 7، ص 431، 470.

(3) المصدر نفسه، ص 442، 447.

(4) انظر، تاريخ اليعقوبي، (بيروت، 1960، دار صادر) ج 2، ص 360.

والبديل، مما حمل السفاح على ترك الكوفة عاصمة علي بن أبي طالب، ومركز تجمع العلويين، سيّما أنها قد عرفت أول محاولة للإستيلاء على السلطة دون العباسيين بمساعدة أبي سلمة الخلال، أحد قادة الدعوة العباسية، الذي اتهم بمحاولة البيعة لأحد العلويين[5]؛ وهذا شرخ كبير يصيب التحالف الهاشمي.

لكن العباسيين حاولوا كسب الوقت، فكان توجههم واضحاً في استرضاء العلويين وأهل الكوفة منذ خلافة السفاح. فقد زاد الخليفة في أعطيات أهل الكوفة مائة درهم، وتودد إليهم داود بن علي[6]، وسمى أبو العباس وأبو جعفر مدينتيهما بـ«الهاشمية»[7]. ويبدو أن هذه السياسة لم تترك آثاراً إيجابية، فلم يأمن السفاح على نفسه من أهل الكوفة، كما أحس المنصور بأنهم يفسدون عليه جنده[8] وانتهى النشاط العلوي إلى خروج محمد وإبراهيم، ابني الحسن العلوي، في كل من المدينة المنورة والبصرة في سنة 145هـ/762م.[9].

في سنة 140هـ/757م. ثارت الراوندية ضد أبي جعفر، فخرج يفتش عن عاصمة له فانحدر إلى جرجرايا، ثم صار إلى قرية بغداد، ثم مضى إلى الموصل ثم عاد إلى بغداد[10]. هذه الرواية التي تتردد كثيراً والتي صورت أبا جعفر تائهاً من عاصمته هاشمية الكوفة، باحثاً عن عاصمة جديدة له، تحمل الكثير من المبالغة. فإذا كان صحيحاً أن أبا جعفر تنقل باحثاً عن موضع ملائم يبني فيه عاصمته الجديدة، بعد أن وجد نفسه مضطراً للتخلص من أنصاره الراوندية الذين هددوا حياته، والذين بلغ عدد من انخرط منهم في حرسه 600 أو 700 رجل[11]، إلا أنه ليس مقبولاً أن نوافق على أن هذه الحادثة، على خطورتها، كانت السبب الرئيسي في بناء بغداد.

لقد أدرك أبو جعفر المخاطر التي أحاطت بخلافته، والتي بدت وكأنها لا تهدد

---

(5) المصدر نفسه، ص 349، 360.

(6) الطبري، ج 7، ص 426 ـ 428.

(7) انظر حول هاشمية الكوفة وهاشمية الأنبار G. LESTRANGE Baghdad During the Abbaside Caliphat, (New York: Curzon Press, 1972) pp. 6 - 7.

(8) ابن الفقيه، بغداد، ص 30،
انظر أيضاً، الطبري، ج 7 ص 614.

(9) أنظر الطبري، ج 7، ص 552، 622.

(10) المصدر نفسه، ص 614، أيضاً: ابن الفقيه، بغداد، ص 29.

(11) الطبري، ج 7، ص 505، أنظر أيضاً: البلاذري، أنساب الأشراف. بعناية عبد العزيز الدوري (بيروت، 1987، فرانتس شتاينر)، القسم 3، ص235.

سلطته كخليفة وحسب، بل تهدف إلى تقويض حكم الأسرة العباسية. لذا عمد إلى البحث عن مكان لعاصمة جديدة تكون تعبيراً عن سيادة أسرته، فاختار لها موضعاً عند التقاء نهر ديالى بنهر دجلة، حيث توجد بوابة الشرق التاريخية، التي تؤدي إلى مدن الشرق وما وراء النهر الواقعة على تخوم الصين[12].

لقد كان ابن الفقيه مصيباً في تقديره لظروف بناء بغداد، وأن المنصور اختار موضعها، فيما «كانت خراسان تتمخض، وفي أكتاف الشام جماعة من بني أمية يحاولون طلب الملك، وبالحرمين طالبيون يرون أنهم أحق الناس بالملك[13]».

دوافع بناء بغداد

تابع المنصور سياسة الحكام العرب الذين أقاموا عدداً من المدن منذ عهد الخلفاء الراشدين حتى مطلع العهد العباسي. إذ أن الإسلام كدين وكمؤسسة، احتاج إلى عمارة المدينة لتستطيع الجماعة الإسلامية ممارسة واجباتها الدينية[14].

جاء بناء بغداد متوافقاً مع رغبة العباسيين في الاحتفاظ بالسلطة والتخلص من حلفائهم الطالبيين، والإنتقال بالحكم إلى مرحلة الحكم العباسي الصرف[15]، واعتماد سياسة ترمي إلى إقامة تحالفات جديدة في مجتمع يضم عناصر قومية ذات ثقافات مختلفة، في وقت كان فيه المجتمع الإسلامي يخرج من التنظيم القبلي إلى التنظيم السكني، باتجاه قيام مجتمع متماسك تتوفر فيه شروط الإستقرار السياسي والإجتماعي[16].

وقديماً كانت الوظيفة الحربية للمدينة لضمان السيطرة على المناطق المجاورة، وقد ورثت العمارة الإسلامية هذا التقليد. وفرضت حاجة الفتح، رجالاً ومهمات، أن تكون المدينة على شكل رباط الجند، بحيث يكون الدفاع عنه أسهل من الدفاع عن المعسكر المكشوف[17].

---

(12) M. Lombard, L'Islam Dans sa Première Grandeur, (Paris, 1971) p. 46.
أيضاً، لسترنج، بلدان الخلافة العباسية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، (بغداد، 1954) ص 24.

(13) بغداد، ص 87، 88. X. de Planhol, Le Monde Islamique, (Paris, 1957) pp. 7-9. Le Strange, Baghdad, pp. 1-4.

(15) أنظر، مؤلف مجهول، اخبار الدولة العباسية، بعناية عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، (بيروت 1971) ص165.

(16) انظر، فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، (بيروت، 1970) ص 27. وأيضاً.
Piguleveskaja, Les villes de l'état iranien aux époques parthe et sassanide, (Paris, 1963), p. 97.

(17) أنظر، نقولا زيادة، الحسبة والمحتسب في الإسلام، (بيروت، 1962) ص 14، جمال حمدان، جغرافية =

ففي أثناء حركة الفتوح العربية، أقام العرب خارج أسوار دمشق ومرو، وعند تمصير العرب للمدن ـ المعسكرات، لا سيما في الكوفة والبصرة وواسط، روعي فيها أن تكون متوافقة والنظم العشائرية، مجانبة للترف[18].

وفي بغداد، روعيت الأهداف العسكرية عند بنائها، فهي موضع معسكر صالح، تحميها أنهار لا يصل إليها عدو إلاّ على جسر، وشكل نهرا دجلة والفرات سوراً وخندقاً طبيعيين[19]. وقد لاحظ ابن الفقيه أهمية موضع بغداد، ونسب إليه دوراً مهماً في تمكن المنصور وخلفائه من القضاء على الثورات الداخلية، ورد غزوات الروم والإنتصار على بابك[20].

وتبدو المظاهر العسكرية واضحة في بناء المدينة المدورة وطريقة تحصينها. فقد احيطت بسورين وخنادق، وجُهِّز السور الداخلي بدعامات، وجهزت أبواب المدينة الأربعة بدهاليز كبار تنحرف عن الأبواب الخارجية[21] لتعطي المدينة قدرة دفاعية ضد الغزاة. فحين يعبر هؤلاء يضطرون إلى الإنحراف نحو اليسار للعبور من مدخل ثان، مما يجعل جوانبهم اليمنى مكشوفة للسهام الموجهة إليهم، إذ كان الجنود يحملون التروس بأيديهم اليسرى[22].

ولعل الخندق الطاهريّ قد حفر لأغراض عسكرية، ترمي إلى إحاطة المياه بمدينة المنصور من كافة أطرافها، حتى تكون جزيرة، تحدها دجلة من الشرق، والصراة من الجنوب، والخندق الطاهريّ من الشمال والغرب[23].

ولا شك في أن إمكانات الوظيفة الحربية تتأثر بحجم المدينة، لأن نواة السكان العسكرية لها حدها الأقصى. ويقتضي ذلك إقامة توازن بين مساحة المدينة وعدد المدافعين

= المدن (القاهرة، 1972) ص 22، عبد الرزاق حسين، نشأة مدن العراق وتطورها (القاهرة، 1973)، ص 32 ـ 33. أيضاً Le Srange, pp. 1-3.

(18) Al-Ali, Sale, A., Fondation of Baghdad, in: Islamic City, edit by Hourani, Stern (Oxford, 1970) pp. 86-87. Planhol, le monde islamique, pp. 7-9.

(19) ابن الفقيه، بغداد، ص 29، 32. الطبري، ج 7، ص 617.

(20) بغداد مدينة السلام، ص 88.

(21) المصدر نفسه، ص 35، الطبري، ج 7، ص 617، أيضاً: عبد الرزاق حسين، نشأة مدن العراق، ص 67.

(22) طاهر العميد، المظاهر العسكرية في بناء بغداد المدورة، مجلة كلية الآداب، (بغداد، 1969)، العدد 12، ص 303 ـ 311.

(23) مصطفى جواد وأحمد سوسة، دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً، (بغداد 1958)، ص 78.

عنها. ويفسر هذا اتخاذ مدينة المنصور الشكل المدور، إذ يقل هذا الشكل بنسبة 37, 11% عن الشكل المربع في الأرض الواحدة[24]. وقد لاحظ ابن الفقيه أخطار توسع مدينة بغداد على الأمن فيها، إذ قدر مساحتها بأربعة فراسخ في أيامه[25] (القرن الثالث)، وأنها تحتاج إلى أربعة وعشرين ألف رجل لحراستها، كما أنها تحتاج إلى مائتين وأربعين ألف درهم يومياً نفقات عسكرية، هذا عدا ما تحتاج إليه من نفقات التموين الغذائي[26].

كذلك ترتبط الدوافع الإقتصادية بالدوافع العسكرية في بناء المدن، إذ أن المواقع الإستراتيجية العسكرية كانت غالباً استراتيجية بالنسبة إلى التجارة والنشاط الإقتصادي[27]، لذا كان نزول المنصور في منطقة بغداد، وهي منطقة كانت قد عرفت عدداً من العواصم التي اشتهرت بازدهارها التجاري[28]، كما أنها كانت مزدهرة زراعياً، نتيجة لتقاليد عريقة في العناية بمشروعات الريّ. ففي العهد الكلداني، أنشىء في جوار منطقة بغداد سد كبير قيل: إن طوله بلغ نحو 50 كيلومتراً، تجمع فيه المياه الزائدة لاستخدامها في الريّ، وأنشىء سد نمرود القديم على دجلة في رأس ما يسمى بالدلتا حيث السهل الرسوبي[29]. وفي العهد الساساني، كانت قناة النهروان الواسعة، التي يبلغ عرضها 400 قدم، وعمقها خمسة عشر قدماً، تروي كل المنطقة الواقعة شرقي دجلة، وعرف جزؤها العلويّ بالقاطول الكسروي، كما كانت تنساب إليها مياه نهر ديالى وتسقي طسوج المدائن. وكان الشاذروان الأسفل وسيلة هامة لتسليط المياه على الحقول، وتنظيم كميات المياه المطلوبة للريّ[30].

هذه المشاريع المائية أدت إلى ازدهار الزراعة، حتى أن «أميان مرقلان» الذي زار العراق في القرن الخامس الميلادي، وصفه بأنه غابة خضراء من أقصاه إلى أقصاه[31].

---

(24) كمال الدين سامح، العمارة في صدر الإسلام، (القاهرة، 1964، المؤسسة المصرية العامة) ص 56 ـ 57.

(25) الفرسخ الطولي 6 كلم، أنظر، هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، نقله عن الألمانية، كامل العسلي، (عمان، 1970)، ص 94.

(26) بغداد مدينة السلام، ص 78.

(27) أنظر، جمال حمدان، جغرافية المدن. ص 34.

(28) LASSNER. The Caliph's Personnel domin. in The Islamic City, p 106, Douri, Encyclopedie de L'Islam, Nouvelle Edition, EI² (Paris 1965) T.I, p. 922.

(أحمد سوسه، فيضانات بغداد، (بغداد، 1963) ج 1، ص 202، 203.

(30) المرجع نفسه، ص 204، أيضاً: فؤاد سفر، التحريات الأثرية في منطقة مشاريع الري الكبرى في العراق، مجلة سومر، مجلد 16، العدد 1 ـ 2، (بغداد ـ 1960) ص 5، 9.

(31) أحمد سوسه، ص 204.

ويـورد أدامس أرقاماً دقيقة عن منـطقة ديـالى، ففي العهد الـسـاساني، كـان يـسكن هذه المنـطقة 3417 نفـسـاً كحدٍ أقصى، فيـما بلغت الأراضي المزروعـة فيها 8 آلاف كليـومتراً مربعاً في العهد نفسه، في حين أنها هبطت إلى 6 آلاف كلم^2 في العهد الإسلامي[32].

ولا شـك في أن هذه الشروط الـزراعية الجيـدة ، كانت دافعـاً إلى تحديـد موضـع بغداد. فقد سبق للسفاح أن اختار الأنبار عاصمة له، وكـانت إهراء العـراق، بها تجمـع أنابير الحنطة والشعير والقتّ والتبن، وكان الأكاسرة يـرزقون أصحـابهم منها[33]، فكـان من الطبيعي أن يختار أبو جعفر موضع مدينته في تلك الأراضي الواسعة، المجهزة بأنـظمة الري، وحيث لم يغادر الفلاحون أراضيهم بل تابعوا زراعتها، مما مكن الخليفة من توزيع القطائع على رجاله وسمح لهم باستثمارها[34]، خاصة وأنهم كانـوا يُصرّون على الحصـول على قطائع صالحة للزراعة[35]. ضف إلى ذلك رغبة الخليفة في موضع يرتفق فيـه الناس ولا تغلو عليهم الأسعار ولا تشتد فيه المؤونة[36].

لم يغب عن أبي جعفر الإهتمام بمناخ عاصمته، فقد قيل: إنه سأل عن شتاء بغـداد وصيفهـا، وعن الأمطار والبق والهـواء، وسأل سكـان المنطقـة عن الحر والـبرد[37]. وقد لاحظ ابن الفقيه أن بغداد تقع في موضع تنقـسم فيه الفصـول الأربعة بـوضوح، لبعـدها عن المناطق القطبية، ولوجـودها في وسط مـا بين المشرق والمغـرب، كما أنها وسط مـا بين خط الاستواء ونهاية العمارة في الشمال[38].

والـواقـع أن بغـداد من المنـاطق التي تسجـل فيهـا حـرارة عـاليـة جـداً في فصـل الصيف[39] وتقل فيها الأمـطار التي تتساقط معـظمها مـا بين شهـري تشرين الثاني وآذار

---

(32) ADAMS, Robert, Land Benhind Baghdad (Chicago, 1965) pp. 86-87.
X. Planhol; **Les Fondements Géographiques de L'histoire de L'Islam,** (Paris, 1965, Flammarion) p.75.

(33) ياقوت الحموي، معجم البلدان، (بيروت 1957، دار صادر) ج ب، ص 257.

(34) حول ملكية الأرض في منطقة بغداد، أنظر الخـطيب البغدادي، تـاريخ بغـداد (بيروت د.ت، دار الكتـاب العربي) ج 1، ص 7 وما بعدها، إذ يذكر المؤلف أن عمر بن الخطاب ترك قـسمة السـواد. أنظر أيضـاً:
X. De Planhol, les fondements géog. p. 54.

(35) البلاذري ـ أنسـاب الأشراف، ج 3، ص 217/.

(36) أنظر: الطبري، ج7، ص 615 ـ 617.

(37) المقدسي، أحسن التقاسيم، (ليدن، 1909)، ص 119، أيضاً الطبري، ج 7، ص 617.

(38) بغداد مدينة السلام، ص 85 ـ 86.

(39) المصدر نفسه، ص 31.

(نوفمبر ومارس). إلا أن موضع المدينة يتحلى بميزات مناخية منها: قلة الرطوبة رغم الجفاف والحرارة المرتفعة، وهو ما يجعل مناخها عملياً، أفضل من مناخ المدن الساحلية في الشرق الأوسط، حيث لا ترتفع أرقام درجات الحرارة إلى أكثر من 30 ـ 33 درجة في الصيف إلا أنها مشبعة بالرطوبة التي تصل نسبتها إلى 70 ـ 80% بين منتصف شهر حزيران ومنتصف شهر تشرين الأول(يونيو ـ أكتوبر)[40].

موقع المدينة

احتلت بغداد موضعاً فريداً في حوض الرافدين، وقامت حيث يكون اقتراب النهرين بعضهما من بعض على أشده، وقدر لها أن ترث عواصم العراق القديمة التي قامت في تلك المنطقة من بابل إلى طيسفون وإلى سلوقية[41].

فقد لجأ المنصور إلى السهل الرسوبي العريض، الواقع بين وسط العراق وجنوبه. ويمتد هذا السهل المحيط بنهري دجلة والفرات، على شكل مستطيل، بين مدينة سامراء على نهر دجلة، ومدينة الرمادي على نهر الفرات من جهة الشمال، وفي الشرق، يحاذي الحدود الإيرانية حتى الهضبة الصحراوية من جهة الغرب. ويراوح ارتفاع أراضي هذا السهل عن سطح البحر بين صفر و100م، ولا يزيد ارتفاع بغداد عن 32 ـ 36 متراً، وهي التي تبعد 550 كلم عن الخليج العربي[42].

ويحيط بهذا السهل من الشمال والشمال الشرقي، سلسلة جبال زغروس التي يخترقها ممر برّيّ، وهو طريق همذان ـ كرمانشاه ـ خانقين، الذي جعل منه الإنسان جسراً يربط الهضبة الإيرانية ببلاد ما بين النهرين ومن ثم بسورية وفلسطين[43]. ويكتسب نهر ديالى الذي يجتاز تلك السلسلة أهمية خاصة، نتيجة لتوزعه إلى سبعة فروع[44]، فيندفع

---

(40) انظر: E. De Vaumas. **Introduction Géographique à L'histoire de Baghdad, (Arabica. 1962)** p.233.

حيث يسجل معلومات إحصائية عن مناخ بغداد الحديثة، فيذكر أن معدل الأمطار السنوية هو 46 مم، بمعدل شهري بين 18 ـ 30 مم في خلال 5 أشهر.

(41) انظر جمال حمدان، في مقدمة كتاب «القاهرة»، كتاب الهلال (القاهرة 1969)، ص 17

A. Douri. EI². p. 922.

(42) أحمد سوسه، **فيضانات بغداد**، ج 1، ص 131 ـ 32. أيضاً: LASSNER, op. cit. p. 106.

(43) E. de Vaumas, introduction géog. p. 233.

(44) **معجم البلدان**، ج 2، ص 7.

نحو سهول ما بين النهرين مقترباً من بغداد، رابطاً عبر واديه بين هذه السهول والهضبة الإيرانية[45]. وقد نوّه ابن خرداذبة بشبكة الطرق التي انتشرت حول طريق بغداد - خراسان[46]، والتي أتاحت ازدهار بعض الواحات في مناطق الأنهار التي تخرج من المرتفعات، مثل همذان، وإصفهان التي كانت تصلها طريق القوافل بمدن فارس في الجنوب، وبمدن الري في الشمال[47].

كان للرافدين دور مهم في إخصاب العراق. فبين منبعه من المرتفعات الجنوبية الشرقية في تركيا، وبين مصبه في شط العرب، يمرّ دجلة بمدن وقرى عديدة، مستقبلاً روافده العراقية، مشكلاً شرياناً رئيسياً للمواصلات والري، فيصل إلى محلة الشماسية ويشق بغداد، مجتازاً مناطق عرفت نظم الري منذ القديم[48]. ويبعث الفرات الحياة على جانبيه في المسافة الطويلة التي يقطعها من منابعه في شرقي تركيا، وفي مروره داخل الأراضي السورية، ثم في مسيره الطويل داخل العراق، الذي يبلغ ألفاً ومائتي كيلومتراً[49]، فيمر بالرقة والأنبار والكوفة، حيث يشكل المورد المائي الوحيد للمنطقة الواقعة غربي العراقي[50].

وكان الرافدان طريقين أساسيين من طرق التجارة العالمية. فتمر عبر الفرات جميع منتجات بلاد الشام وسواحل البحر المتوسط وما وراءها، فيها تمر عبر دجلة وروافده البضائع الواردة إلى الموصل من أرمينية وأذربيجان، وكان هذان الرافدان يربطان العراق بـ«بحر الحبشة» عن طريق ميناء الأبلة، الذي يتصل من جهة بساحل الأهواز، ثم يمتد على الساحل الفارسي، حيث موانىء دورق وماهروبان وسيراف وتيز ومكران وديبل، ومن الجهة الأخرى، يتصل بموانىء الشاطىء العربي حيث موانىء اليمامة وعمان ومهرة والشحر، ومنه طريق الاتصال بالصين[51].

---

(45) M. Lombard, op. cit. p. 46.

(46) المسالك والممالك، بعناية دي غويه (ليدن، 1889) ص 19.

(47) Lombard, p. 46.

(48) أنظر، سهراب، عجائب الأقاليم (فينا، 1929) ص 118، أيضاً، احمد سوسه، فيضانات، ج 1، ص 110.

والشماسية في أعلى بغداد، نسبت إلى بعض شماسي النصارى، أنظر معجم البلدان، ج 3، ص 361.

(49) احمد سوسة، فيضانات ج 1، ص 107، أيضاً Devaumas p. 235.

(50) سهراب، ص 119، معجم البلدان، ج 4، ص 241، احمد سوسه، فيضانات، ج 1، ص 108.

(51) ابن الفقيه، بغداد ص 81 - 82.

لقد وعى المنصور أهمية موقع مدينته التي اتخذها عند المفاصل الواضحة لتضاريس جنوب العراق، حيث مداخل الأنهار والفتحات الجبلية والبوابات، وحيث مسالك التجارة العالمية التي شكلت خط الحياة عبر سلسلة من الموانى البحرية. قال المنصور: «هذه دجلة ليس بينها وبين الصين شيء، يأتينا فيها كل ما في البحر، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية؛ وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة»[52].

منطقة بغداد القديمة

قامت بغداد في منطقة يقترب فيها الرافدان بعضهما من بعض، مما سهل تبادل المياه بينهما، وانتشار شبكة من الشرايين المائية التي سهلت قيام عدد من القرى، وهو ما يحمل على الترجيح بقيام صلة وثيقة بين أنهار بغداد وبين تطور تشييدها في مختلف أدوارها العباسية[53].

كان الجانب الغربي من منطقة بغداد، حيث أقيمت مدينة المنصور، يروى من نهر كبير يتفرع من الجانب الأيسر لنهر الفرات، عرف في العهد الفارسي باسم «الرُّفَيْل» وعرف في العهد العربي باسم «نهر عيسى» نسبة إلى عيسى بن علي عم المنصور[54]. وعلى فم هذا النهر قامت قرية «المحوّل»، حيث توجد حواجز تمنع من جري السفن إلى بغداد، فيحوّل ما تحمله إلى سفن أخرى[55]؛ وعند المحول ينشطر الرفيل إلى شطرين، يذهب أحدهما إلى منطقة بغداد حيث يضيع في داخلها[56]، وهو الذي احتفظ بالإسم القديم للنهر[57]. والشطر الآخر وقد سماه اليعقوبي نهر «عيسى الأعظم» نظراً لقدرته على استقبال السفن الكبرى[58] وينتهي هذا الفرع إلى دجلة في منطقة بغداد، حيث كان يقوم قصر ساساني عرف بقصر سابور، وهو الذي بنى عيسى بن علي العباسي قصره في

---

(52) الطبري، ج 7، ص 614.

(53) جواد وسوسة، دليل، ص 2، انظر أيضاً: E. De Vaumas. p. 231.

(54) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 92، أيضاً، جواد وسوسه، ص 3 ـ 5، أيضاً: Le Strange, p. 71.

(55) الاصطخري، مسالك الممالك، (ليدن، 1927) ص 85، سهراب، ص 123، جواد وسوسة، ص 6، 7، 73.

(56) جواد وسوسه، ص 65.

(57) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك، (حيدر آباد الدكن، 1357) ج 7، ص 39. انظر أيضاً، هلال بن المحسن الصابي، الوزراء، بعناية عبد الستار فراج (القاهرة، 1958) ص 280.

(58) البلدان، ص 250.

موضعه[59].

ويتفرع من نهر عيسى الرئيسي فوق المحول نهر الصراة، وكان ينساب شمال فرع الرفيل فيجريان متوازيين نحو الشرق، ثم ينتهيان إلى دجلة، في داخل المنطقة التي أقيم فيها الجانب الغربي من بغداد[60]. وقد وصف لوسترانج مجرى نهر الصراة فقال: إنه يصل إلى الجهة الجنوبية من المدينة المدورة عند الجسر القديم، بالقرب من باب الكوفة، حيث ينحرف حول سور المدينة، فيمر بحذاء باب البصرة ويستمر جارياً نحول الشمال الشرقي مسافة قصيرة، حتى يصب في دجلة تحت حدائق قصر الخلد، التي تقع خارج باب خراسان[61].

ومن الأنهار التي كانت في موضع بغداد القديم، نهر كرخايا، المتفرع من الرفيل، والذي كان يروي قرية الكرخ القديمة[62] ومنها نهر دجيل الذي يتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجلة مقابل القادسية[63]، ويتفرع منه نهر بطاطيا الذي يتوزع إلى ثلاثة فروع تسقي طَسّوج قطربلّ[64]. وكان الجانب الشرقي من منطقة بغداد يستقي من عدة فروع من «النهروان» أهمها نهرا الخالص وبين[65].

كانت هذه المشروعات المائية ما تزال قائمة في العهد الإسلامي؛ ويذكر الخطيب البغدادي أن النبط سكان السواد قبل فارس هم الذين استنبطوا الأرض، وعمروا السواد، وحفروا الأنهار العظام فيه، ومنها: نهر الصراة العظمى، وأبّا، ونهر سورا، ونهر الملك، كما يذكر أيضاً أن الفرس حفروا الأنهار الصغار، كوثا، والصراة، وكل سيب العراق، ثم حفروا النهروان الذي كانت مياهه مهمة بالنسبة للجانب الشرقي، فإذا قلّت عطشوا، وإذا كثرت غرقوا[66]. ويذكر الإصطخري اعتماد هذا الجانب من بغداد على مياه النهروان وتامرّا، وأن مياه دجلة كانت تقصر عن العمارة

---

(59) أنظر: البلاذري، فتوح البلدان، بعناية صلاح الدين المنجد، (القاهرة 1956 ـ 59، مكتبة النهضة المصرية) ص 304 ـ 5، أيضاً معجم البلدان، ج 4، ص 117.

(60) ابن الجوزي، مناقب بغداد، (بغداد، 1342هـ، مطبعة دار السلام) ص 18، سهراب، ص 131، أحمد سوسه، فيضانات، ج 1، ص 266.

(61) **Baghdad**, p. 50.

(62) البلدان، ص 238، مناقب بغداد، ص 19.

(63) سهراب، ص 134.

(65) الاصطخري، ص 84.

(66) تاريخ بغداد، ج 1، ص 57.

وتنضح بالدواليب[67].

يدلنا ذلك على أن أرض بغداد عريقة في القدم؛ بل وتذهب المصادر التي بحثت في اسم بغداد إلى أنه اسم لقرية قديمة. وبعضها يشير إلى أنه فارسي الأصل، فيما تقول مصادر أخرى بأصله الآرامي[68]. إلا أن المنصور رفض تسمية المدينة باسمها القديم وسماها «مدينة السلام» تيمناً بجنة الخلد[69]، وكان هذا هو الإسم الرسمي الذي يذكر في الوثائق وعلى المسكوكات والأوزان[70].

ويروي المصنفون أن المنصور أقام مدينته في موضع كانت تقوم فيه قرية للفرس عرفت بـ«سوق بغداد» يقام بها في كل سنة سوق عظيمة، يجتمع بها التجار في ذلك الموسم[71]. ويتحدث الطبري عن «سوق البقر» التي افتتحها المثنى بن حارثة الشيباني سنة 13هـ/72م، ثم يذكر أن العرب نزلوا إبّان الفتح العربي للعراق في بغداد، وأقاموا مزرعة يقال لها «المباركة»، عوضهم المنصور عنها وأرضاهم عند بناء مدينته[73]. ويعتقد اليعقوبي أن بغداد لم تكن مدينة في الأيام المتقدمة إلى أيام الأكاسرة والأعاجم، وإنما كانت قرية من قرى طسوج بادوريا، وأنه لم يكن ببغداد إلاّ دير للنصارى النسطورية عرف في العهد الإسلامي بالدير العتيق[74].

وإذا كانت بغداد محدثة في الإسلام، إلا أنها قامت في منطقة عامرة بالقرى. من هذه القرى، «الخطابية» وكانت لقوم من الدهاقين، وقريتا «الوردانية» و«الشرفانية»[75] وجميعها من طسوج[76] قطربل شمال الصراة العظمى[77]. ومن القرى «بناورى» من

(67) المسالك والممالك، ص 84.

(68) تاريخ بغداد، ج 1، ص 58 ـ 62، أيضاً ابن رسته، الأعلاق النفيسة (ليدن 1892) ص 18. أيضاً الدوري، E.I^2, p. 921، وانظر الطبعة العربية الجديدة، دار الشعب، ج 7، ص 386.

(69) Saleh Al - Ali, op. cit. p.92

(70) Douri, E.I^2, I. op. cit.

(71) ابن الجوزي، مناقب، ص 6 ـ 7، أيضاً الخطيب، ج 1، ص 25 ـ 26.

(72) الطبري، ج 7، ص 618.

(73) المصدر نفسه، ص 619.

(74) البلدان، ص 235.

(75) الطبري، ج 7، ص 620.

(76) طسوج: الناحية، أنظر، ادي شير، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة، (المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1908)، ص 12.

(77) طاهر العميد، بغداد مدينة المنصور المدورة (بغداد 1967)، ص 94.

رستاق[78] «الفروسيج» من بادوريا[79]. ثم قرى «قطفتا» و«براثا» و«ورثالة» و«الكرخ» وقد نسبت إليها محلة الكرخ، التي أنشئت في الجانب الغربي من بغداد[80].

إلى ذلك كانت منطقة بغداد غنية بالأديرة التي كانت قائمة قبل المنصور. ومنها عمر صليبا على الصراة، الذي بناه جماعة أقاموا فيه، ثم نزله المسلمون عند بناء المدينة[81]. ويذكر الشابشتي دير الجاثليق أو دير كليلشوع على نهر الرفيل الذي جدد بناؤه في العهد العباسي، وكان في بغداد دير الثعالب عند باب الحديد، وبقربه دير كليليشوع[82].

وفي الجانب الشرقي من منطقة بغداد مقابل قرية «سوق بغداد» قامت قرية تسمى «سوق الثلاثاء» التي كان يقوم عليها سوق لأهل كلواذى وأهل بغداد، قبل قدوم المنصور، في كل شهر مرة في يوم الثلاثاء. وإلى الشمال من سوق الثلاثاء كانت تقوم قطيعة المُخَرِّم، كما كانت تقوم فوق هذه القطيعة مقبرة قديمة للمجوس[83].

---

(78) الرستاق، السواد والقرى، ادي شير، ص 71.

(79) الطبري، ج 7، ص 619 ـ 20.

(80) الدوري، E.I², p. 921، جواد وسوسه، ص 11، العميد ص 12، 94.

(81) جواد وسوسه، ص 9.

(82) الديارت ط 2 باعتناء كوركيس عواد (بغداد، 1960) ص 42، 28.

(83) ابن الفقيه، بغداد، ص 58. أنظر أيضاً، معجم البلدان، ج 3، ص 283، سوسه، ص 268.

الفصل الثاني

بناء بغداد وتطورها

قر رأي المنصور وحدد المكان الذي أزمع على بناء مدينته فيه، فوجه في إحضار المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والزرع والمساحة وقسمة الأراضي، حتى اختط مدينته سنة 141هـ/758م، وجعلها مدورة[1]، وابتدأ المنصور العمل ببناء المدينة سنة 145هـ/762م. بعد أن اجتمع لديه مائة ألف من الفعلة وأهل المهن، ، من صناع ونجارين وحدادين وحفارين، استقدمهم من الأمصار[2]. وأشرف على البناء عدد من المهندسين الذين عملوا في بناء المدينة منهم: عبد الله بن محرز والحجاج بن أرطاة، الذي كان مسؤولاً عن تنفيذ المشروع، وعمران بن الوضاح وشهاب الدين ابن كثير[3]، واستشار المنصور أيضاً نوبخت الذي كان مرافقاً للخليفة مختصاً به، وما شاء الله بن سارية اليهودي[4] والطبري، وهم من المنجمين أصحاب الحساب[5]، وقد ساهموا جميعاً في أعمال التخطيط والدروس المتعلقة ببناء المدينة.

قسم المنصور مدينته إلى أربعة أرباع، وقلد القيام بكل ربع رجلاً من المهندسين. وهناك احتمال شديد بأن المنصور أوكل حراسة الربع إلى ثلاثة رجال: أولهم قائد، وثانيهم مولى، وثالثهم مهندس. ويذكر اليعقوبي أن المنصور قلد الربع من باب الكوفة

(1) البلدان، ص 238.

(2) البلاذري، فتوح، ص 361، الطبري، ج 7، ص 614، الخطيب، ج 1، ص 66 ـ 67، البلدان، ص 239.

(3) الهمذاني، بغداد، ص 36، أيضاً: اليعقوبي، البلدان، 241.

(4) أنظر، القفطي، تاريخ الحكماء (ليبزغ، 1903) ص 409، ابن النديم، الفهرست (مطبعة الاستقامة، القاهرة، د.ت) ص 396.

(5) البلدان، ص 238، 241، أنظر أيضاً عن الحسّاب، ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء (مكتبة الحياة، بيروت، 1965)، ص 192، ويظهر أنهم كانوا يتعاطون أعمال التنجيم المبني على الحساب.

إلى باب البصرة وباب المحول والكرخ وما اتصل بذلك كله المسيب بن زهير والربيع مولاه وعمران أبي وضاح المهندس[6]. ويذكر ابن الفقيه موالي المنصور الذين شاركوا في الإشراف على المدينة، فكان منهم: الربيع الذي تولى باب خراسان، وأبو أيوب الخوزي وزيره الذي تولى باب الكوفة، وعبد الملك بن حميد، الذي تولى باب البصرة، وابن رغبان الذي تولى باب الشام[7]. واستعان المنصور ببعض من وصفوا بالفضل والعدالة والثقة والأمانة، منهم أبو حنيفة النعمان الذي كان يعد اللبن بالقصب[8].

وكان لا بد من استكمال بعض الاستعدادات، فحفرت الآبار، وشقت القناة التي تأخذ من كرخايا، وأجريت المياه إلى داخل المدينة للشرب وضرب اللبن وبل الطين[9]. وبعد أن تمت الاستعدادات، أمر المنصور عماله بخط المدينة وحفر الأساسات وضرب اللبن وطبخ الآجر[10].

شكل المدينة ومساحتها

تتفق المصادر جميعها على شكل المدينة المدور، ويعطي حماد التركي، أحد معاوني المنصور، تفسيراً لمعنى التدوير، تبناه فيما بعد وكيع القاضي، وهو أن لجوء المنصور إلى الشكل المدور كان تعبيراً عن حرصه على المساواة بين موظفيه في القرب منه[11].

وتختلف الروايات في تحديد مساحة المدينة. فيذكر اليعقوبي[12] أن المسافة بين الباب والذي يليه تبلغ خمسة آلاف ذراع بالسوداء[13]، أي ما يوازي 2500 متر تقريباً، فيكون محيط المدينة يوازي 10 كلم تقريباً، وتكون المساحة حولي 8 كلم^2 تقريباً.

أما الخطيب البغدادي فإنه يقدم عدة روايات متباينة، فحسب أولى الروايات تبلغ

---

(6) اليعقوبي، البلدان، ص 341.

(7) بغداد، ص 41.

(8) ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص 8.

(9) البلدان، ص 238.

(10) ابن الفقيه، بغداد ص 32.

(11) البلدان، ص 238، ابن الفقيه، بغداد ص 35، الخطيب البغدادي، ج 1 ص 72.

(12) البلدان، ص 238.

(13) يقدر محمد ضياء الدين الريس الذراع السوداء بـ 69، 50 سم، أنظر، الخراج والنظم المالية (القاهرة، 1961) ص 298، فيما يعتبر هنتس أن الذراع السوداء، تساوي 54,04 سم، أنظر المكاييل والأوزان الإسلامية، ص 88.

مساحة المدينة المدورة مع أسوارها 1.60 جريباً[14] أي 254720م^2 أو ما يزيد قليلاً عن 1/4 كلم^2[15]، وحسب الرواية الثانية تكون المساحة أكثر بقليل من 5، 12 كلم^2، وهذه الرواية تحدد قطر المدينة بميلين[16] وتحدد رواية ثالثة المسافة بين الباب والآخر بميل واحد، [17] أي أن المحيط يبلغ 8 كلم، فتكون مساحة المدنية المدورة أكثر بقليل من 5 كلم^2. وتعطي رواية رابعة طولين لقطري المدينة المدورة، أحدهما يبلغ 800 ذراع والآخر 600 ذراع فتكون مساحة المدينة المدورة حوالي 400 ألف م^2، وتجعل رواية خامسة قطر المدينة 2200 ذراعاً، أي أن مساحة المدينة المدورة أقل بقليل من كيلو متر مربع واحد.

أما ابن الفقيه الهمداني فيقدر مساحة بغداد بجانبيها في أيام المستعين (حوالي 250هـ/864م) بأربعة فراسخ مربعة[18] أي حوالي 24 كلم^2[19]، وفي عهد إمارة الموفق قيست مساحة الجانبين فكانت 43750 جريباً[20] أي حوالي 70 كلم^2 تقريباً.

ويقدر شترك Streck مساحة مدينة السلام بكاملها بخمسة أو ستة أميال مربعة في الوقت الذي اعتلى فيه المهدي سدة الخلافة[21]، ويقدر لومبار مساحة بغداد مع أرباضها بتسعين كيلومتراً مربعاً (10× 9)[22].

والخلاف في تقدير مساحة بغداد مرتبط بتحديد أطرافها. والغريب في الأمر هو وجود التباين في تحديد أبعاد المدينة المدورة التي كان بالإمكان قياسها. أما الروايات التي تعطي أرقاماً عالية عن مساحة بغداد، فإنها تدخل فيها الأرباض والمحلات في جانبي المدينة. وهذا التباين في تحديد مكان بغداد وحدودها، أسهم في إعطاء التقديرات المختلفة حول مساحة المدينة.

---

(14) تاريخ بغداد، ج 1، ص 69.

(15) اعتبر هنتس، ص 96 أن الجريب يساوي بالتحديد 1952م^2.

(16) تاريخ بغداد، ج1 ص 69، والميل يساوي 2 كلم، أنظر هنتس، ص 95.

(17) تاريخ بغداد، ج 1، ص 71، 72، 73.

(18) بغداد مدينة السلام، ص 78.

(19) الفرسخ 6 كلم حسب هنتس، ص 94.

(20) تاريخ بغداد جـ1 المصدر نفسه، ص 60.

(21) دائرة المعارف الإسلامية، دار الشعب، ج 7، ص 375.

(22) Lombard, L'Islam, p. 129.

ولدينا ثلاث روايات عن موضع بغداد وحدودها. فرواية ابن الطقطقى تقول: بأن المدينة قريبة من مشهد موسى والجواد[23] (الكاظمية) وهي المقبرة التي بنيت في أول عهد بغداد والتي عرفت بمقابر قريش[24]. وهناك رواية أحمد بن حنبل التي يحدد فيها بغداد من الصراة إلى باب التبن[25]، ثم رواية الخطيب البغدادي نفسه، والتي يقول: «عنى أحمد بهذا القول مدينة المنصور وما لاحقها واتصل ببنائها خاصة، لأن أعلى البلد قطيعة أم جعفر دونها الخندق، يقطع بينها وبين البناء المتصل بالمدينة، وكذلك أسفل البلد من محال الكرخ وما يتصل به يقطع بينه وبين المدينة نهر الصراة وهذا هو حد المدينة وما اتصل بها طولاً. فأما حد ذلك عرضاً، فمن شاطىء دجلة إلى الموضع المعروف بالكبش والأسد، وكل ذلك متصل بالأبنية، متلاصق الدور والمساكن[26].

ويبدو مفهوم حدود بغداد عند ابن حنبل بالمعنى الضيق متوافقاً مع ما اشتهر عنه، من أنه كان يعتبر أرض بغداد دار غصب ولا يأكل من غلتها[27]، فكان من الطبيعي، وهو صاحب مذهب لقي الكثير من التأييد بين البغداديين، أن يجعل حدودها ضمن منطقة المدينة المدورة وما قرب منها. أما روايتا ابن الطقطقى والخطيب البغدادي فمتقاربتان أشد التقارب في تحديد أعلى بغداد، أي حدودها الشمالية، وزاد الخطيب بأن أوضح الحدود الجنوبية التي تنتهي عند نهر الصراة، وهذه المنطقة التي يعتبرها الخطيب رقعة بغداد هي ما اصطلح على تسميته منذ القرن الثالث بالجانب الغربي[28].

أما نفقات البناء، فيذكر الخطيب البغدادي روايتين: تقدر أولاهما النفقات بـ 18 مليوناً من الدراهم، بينما يهبط هذا الرقم في الرواية الثانية إلى أربعة ملايين وثمانمائة وثلاثين درهماً، وهو جملة ما أنفقه المنصور على بناء المدينة والجامع وقصر الذهب والأسواق، إلى أن فرغ من بنائها[29]؛ هذا مع تقتير المنصور على العمال ومحاسبتهم

---

(23) الفخرى في الاداب السلطانية، (بيروت، 1966) ص162.

(24) تاريخ بغداد، ج 1، ص 120.

(25) المصدر نفسه، ج 1، ص 71.

(26) المكان نفسه.

(27) المصدر نفسه، ج 1، ص 4، 5، 6.

(28) ومنذ نهاية القرن الثاني، صار في بغداد ثلاث كتل عمرانية، الجانب الغربي ويضم المدينة المدورة وأرباضها التي قامت عند أبواب المدينة، ثم الكرخ أو الشرقية في شرقي الصراة، ثم الرصافة وهي ما عرف بالجانب الشرقي، أنظر، الخطيب البغدادي، ج 1، ص 81.

(29) تاريخ بغداد، ج 1، ص 69.

بشدة[30]. وكان أجرة الأستاذ من الصناع في اليوم تراوح بين قيراط وخمس حبات[31] والروزجاري[32] من حبتين إلى ثلاث حبات.

وصف البناء.

شيدت مدينة المنصور على شكل حصن كبير، وقد تألفت من ثلاثة عناصر معمارية هي: التحصينات والأسوار الخارجية، ثم المنطقة السكنية الداخلية وفيها شوارع منظمة ومتناسقة، ثم وسط المدينة، وهو على شكل ساحة كبرى، ضمت قصر الخليفة والجامع وقصور أولاد الخليفة والدواوين.

كان على القادم إلى المدينة المدورة أن يجتاز أولاً الخندق المحيط بسورها، وتجري في هذا الخندق المياه التي جرّت إليه من نهر كرخايا[33]. وكانت تقوم على حافة الخندق الخارجية فسحة بمثابة رصيف له. ورصفت حافتا الخندق بالآجر والجص[34]. ويقوم على هذا الخندق سدة أو مسناة تدور حول السور كله، مشيدة من الآجر والصاروج[35]. ويلي هذه المسناة «السور الأول» وهو سور الفصيل[36]. وكان عرض هذا السور من أسفله 18 ذراعاً، وعرضه من أعلاه ستة أذرع. وكان لهذا السور أربعة أبواب، وهي: باب الكوفة، وباب البصرة، وباب خراسان، وباب الشام. وزودت كلٌ من أبواب المدينة، بدهليز معقود بالآجر والجص[37]. ويلي هذا السور فصيل عرضه مائة ذراع بالسوداء، ترك خالياً لأغراض دفاعية، بعد أن زود بأبراج ضخمة وشرافات مدورة[38]. ثم يلي هذا الفصيل السور الرئيسي المبني من الآجر؛ وارتفاعه ستون ذراعاً، وعرضه عند قاعدته 90 ذراعاً، وفي أعلاه 25 ذراعاً[39]، وفيه الأبراج الضخمة. وأقيم عند كل باب من أبوابه الأربعة قبة خضراء تشرف على المدينة، وعلى رأس كل قبة تمثال تديره الرياح

---

(30) الطبري، ج 7، ص 652.

(31) أنظر، فالتر هتس، المكاييل والأوزان الإسلامية ص 10، حيث القيراط = 182 من الدراهم = 4 حبات.

(32) الريس، الخارج، ص 367، وهو الفاعل اليومي.

(33) البلدان، ص 239.

(34) ابن رسته. ص 108.

(35) البلدان، ص 239.

(36) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 74.

(37) ابن الفقيه بغداد، ص 35، البلدان، ص 238 ـ 239.

(38) البلدان، ص 239، أيضاً: جواد وسوسه، ص 50.

(39) البلدان، المكان نفسه.

لا يشبه نظائره، وبني حول كل قبة مجلس قد رفع بالأساطين من خشب الساج يجلس فيها الحراس[40]، ويصعد إلى هذه القباب على عقود مبنية بالجص، وبعضها بالآجر، وبعضها باللبن، وقد عملت آزاجاً بعضها أعلى من بعض[41].

ويلي السور الداخلي الكبير فصيل ثانٍ عرضه 300 ذراع (155م)، ضم الشوارع والسكك والدروب والطاقات المعقودة بالآجر والجص، فيها كواء لدخول الشمس والضوء، ولا يدخل منها المطر؛ وينتهي هذا الفصيل بسور ثالث يفصل الرحبة، التي يتوسطها القصر والجامع، عن منطقة الأسوار، التي كانت تؤلف دوائر ذات مركز واحد هو القصر[42]. وكان على القادم من خارج بغداد إلى داخلها أن يجتاز خمسة أبواب يحيط بها الحراس، بابان في كل من السورين الخارجي والأوسط، وباب يؤدي إلى الرحبة[43]، وقد استخدم المنصور في بناء أبواب مدينته أبواباً قديمة نقلها من واسط وهي أبواب الحجاج، واستخدم باباً جيء به من الكوفة، وآخر جيء به من الشام[44].

جعل المنصور على أبواب المدينة مما يلي الرحاب، الستور والحجاب، وعلى كل باب قائداً في ألف، ولا يدخل أحد من هذه الأبواب إلا راجلاً، باستثناء المهدي، وداود بن علي عم المنصور، الذي سمح له بأن يحمل في محفة، نظراً لمرضه[45].

وقامت الطاقات على جانبي الطريق الرئيسي الذي يبدأ من السور الخارجي حتى رحبة المنطقة المركزية، بلغ عددها ثلاثة وخمسين طاقاً، سوى طاق من المدخل إليها الذي كان عليه باب ساج كبير في فردين، وعرضها خمسة عشر ذراعاً، وطولها من أولها إلى الرحبة التي بين هذه الطاقات الصغرى مائتا ذراع[46]، وقامت الأسواق في تلك الطاقات حتى 157هـ/773م، حيث أمر المنصور بإخراجها إلى الكرخ، وأنزل حرسه في غرف هذه الطاقات[47]. وهو أمر يحمل على الشك أكثر مما يحمل على التساؤل: إذا كان عدد الطاقات في كل باب أربعة وخمسين طاقاً، أي أن خلف كل طاق غرفة ينزلها الحرس

---

(40) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 74، ابن رسته، ص 108.

(41) البلدان، ص 239 ـ 240.

(42) المكان نفسه، أيضاً: أحمد سوسه، فيضانات، ص 210.

(43) البلدان، ص 239، فيضانات، ص 211. أيضاً ابن الجوزي، مناقب، ص10.

(44) ابن الفقيه، بغداد، ص 42.

(45) ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص 10 ـ 11، الخطيب، ج 1، ص 78.

(46) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 76.

(47) ابن الفقيه، بغداد، ص 38.

عرضها 7 ـ 8 أمتار، فكيف يمكن لهكذا غرفة أن تستوعب عشرين حارساً؟ وإذا كان على نصف هذا العدد أو ثلثه أن يداوم في نوبته في الحراسة، فإن ذلك يبقى كثيراً، مما يحملنا على الشك في صحة عدد الحرس على كل باب، ما دامت المصادر لم تعط أي تفصيل حول تنفيذ هذا الحرس لمهماته.

أما المنطقة السكنية فقد امتدت حول سور الرحبة، خلف الطاقات داخل الفصيل الكبير الذي يلي الرحبة مباشرة. وفي المنطقة السكنية تنتشر السكك التي لم تكن أي منها تتصل بسور الرحبة حيث دار الخلافة[48]، ويعتقد أن هذا المنع تم بعد أن علم المنصور أن بغال الروايا والراكبين كانوا يدخلون منطقة القصر، إذا أمر الناس بتحويل أبوابهم إلى فصلان الطاقات، ومنع دخول الرحبة إلّا للمشاة[49].

ضمت الرحبة التي اعتبرت مركز المدينة، قصر باب الذهب الذي كان بمثابة مربع طول ضلعه أربعمائة ذراع، وتعلوه قبة خضراء عليها فارس على فرسه وفي يده رمح، وقد بقيت هذه القبة حتى تهدمت في سنة 329هـ/940م[50].

وكان مسجد المدينة يلاصق القصر، وهو على شكل مربع بطول مائتي ذراع للضلع. وقد أصاب هذا المسجد بعض التطور في فترات مختلفة. فالرشيد نقضه وأعاد بناءه بالآجر والجص، بعد أن كان مبنياً باللبن[51]. وفي سنة 260هـ/873 ـ 874م، أمر مفلح التركي أن تزاد في جامع المنصور الدار المسماة بدار القطان، التي كانت قديماً ديواناً للمنصور، وجعلها في الجامع ليصلى فيها. وأعيد توسيع هذا الجامع في سنة 280هـ/893م في عهد المعتضد، بعد أن رأى ضيق المسجد العتيق بالمصلين، واضطرار هؤلاء إلى الصلاة في أماكن لا تجوز الصلاة في مثلها[52]. وفي سنة 303هـ/915م. أصيب هذا الجامع بأضرار بالغة بعد أن انتقل إليه حريق شب في سوق النجارين بباب الشام[53].

ثم بنى المنصور على شاطيء دجلة، مما يلي باب خراسان، قصر الخلد تيمناً بجنة

---

(48) البلدان، ص 241.
(49) الطبري، ج 7، ص 652.
(50) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 107، 73.
(51) مناقب بغداد، ص 20.
(52) المنتظم، ج 5، ص 21، 143.
(53) المصدر نفسه، ج 6، ص 130.

الخلد، ونزله سنة 158هـ/774م، وجهزه بنفق طوله فرسخان، يستخدمه في حال محاصرة القصر[54]. وقد نزل الرشيد هذا القصر ومن بعده ولده المأمون[55] أما قصور أولاد المنصور فكانت تحيط بقصر باب الذهب والمسجد على شكل حلقة، وتدور دواوين الحكومة حول قصور الأمراء الأصاغر[56].

تطور المدينة

وزع المنصور على بعض مواليه وقواده المخلصين قطائع بجوار الأبواب خارج مدينته، ومنح جنوده الأرباض ليبنوا عليها دورهم، ووهب آل بيته بعض أطراف المدينة[57].

وقد نمت هذه الأرباض وأصبحت مجموعات سكنية لها ما للمدن من خصائص، وقامت معها المساجد والمدافن والأسواق. أما عشرات الآلاف من العمال الذين استقدمهم المنصور من الأمصار ليعملوا في بناء المدينة، فقد نزلوا بعض أماكن الجانب الغربي من دجلة. ويفترض استقرار هؤلاء العمال وجنود المدينة، أن تكون لهم مساكنهم، وبالتالي أن يكون بناء بغداد الكبرى قد تم من الخارج إلى الداخل. ويعزز هذا الترجيح ما نعرفه من تأثر المنصور بالنظام المعماري عند الساسانيين الذين اختاروا عاصمتهم في طيسفون ـ المدائن، والتي كان يخدمها السوق الرئيسي الموجود على الضفة الأخرى في سلوقية، إذ أقام المنصور عاصمته الإدارية في منطقة التقاء نهري دجلة والصراة، وجعل إقامة رجال إدراته في أماكن بعيدة عن تجمعات الشعب، احتياطاً من عمليات التخريب[58]، وكانت هذه الدور نوىً لقيام الأرباض التي عرفت بأسماء كبار القادة ورجال الإدارة[59].

وكان نقل الأسواق إلى الكرخ سنة 157هـ/773م، عاملاً أساسياً في اتساع هذه

---

(54) الطبري، ج 8، ص 56، الخطيب البغدادي، ج 1، ص 80، ويمكن لهذا الخبر أن يساعد في تحديد مركز بغداد المدورة إذا رجحنا أن النفق يجب أن ينتهي إلى قصر باب الذهب.

(55) مجهول، العيون والحدائق، بعناية دي خويه، (ليدن، 1871) ج 3، ص 318.
انظر أيضاً المسعودي، مروج الذهب، (القاهرة، 1967، كتاب التحرير)، ج 2، ص 311.

(56) البلدان، ص 240.

(57) انظر أخبار القطائع في: البلدان، ص 242 وما بعدها، أيضاً، البلاذري، فتوح البلدان، ص 362 ـ 63، وابن الفقيه، بغداد، ص 44 ـ 51.

(58) Lassner. The Caliph. Per. pp. 105 - 106.

(59) انظر ابن الفقيه، ص 44 ـ 51.

القرية القديمة، حتى أصبحت محلة كبرى[60]. وتذكر المصادر أسباباً عدة لنقل الأسواق من طاقات المدينة إلى الكرخ، من هذه الأسباب: محاولة محتسب بغداد يحيى بن زكريا استغواء العامة[61]، ومنها الضجة التي تحدث بالأسواق، ومنها الخوف من تسلل الأعداء والجواسيس عن طريق الأسواق. فعمرت هذه المحلة، بعد أن كانت مقراً للظباء والأرانب[63]، وأمر المنصور أن يبنى لأهلها «مسجد يجتمعون فيه يوم الجمعة، لا يدخلون المدينة، ويفرد لهم»[64].

الجانب الشرقي

تعود الأسباب الاستراتيجية والعسكرية لتبرز من جديد في بناء الرصافة في الجانب الشرقي من دجلة، ويرى البعض أن تأسيس العمران في الجانب الشرقي يرجع إلى التاريخ الذي أسست فيه المدينة المدورة في الجانب الغربي[65]. وقد شرع ببناء الرصافة التي عرفت أيضاً باسم «عسكر المهدي»[66] حيث وضع المهديّ جنده فيها ليكون من في خارج مدينة المنصور عوناً في قمع الإضطرابات التي قد تنشب داخلها. وجهزت الرصافة بسور وهدف وميدان وبستان، وأجري لها الماء، وأعطي القواد فيها القطائع[67].

كانت الرصافة تقع مقابل مدينة المنصور على وجه التقريب[68]، في مكان قرية قديمة تدعى «سوق الثلاثاء»، حيث عقد المنصور جسراً فوق دجلة من جهة «باب خراسان» يصل بين الجانبين الشرقي والغربي من مدينته، وعرف هذا الجسر باسم «الجسر الكبير»[69] وعند وفاة المنصور (159هـ/775م)، لم يكن بناء الرصافة قد تم. فكان الجامع أول ما بناه المهدي في هذا الجزء من بغداد[70]، حيث كان اتجاه القبلة فيه

---

(60) أحمد سوسه، **فيضانات**، ج 1، ص 212.

(61) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 79.

(62) أنظر الطبري، ج 7، ص 653.

(63) المصدر نفسه، ص 620.

(64) الخطيب، ج 1، ص 80.

(65) **فيضانات بغداد**، ج 1، ص 227.

(66) الخطيب، ج 1، ص 83.

(67) ابن الجوزي، **مناقب بغداد**، ص 13.

(68) سوسه، **فيضانات**، ص 212، الدوري، $E.I^2$, p. 923.

(69) سوسه، المرجع نفسه، ص 227، أيضاً Led Strange p. 176.

(70) ابن الجوزي، **مناقب**، ص 21.

صحيحاً أكثر منه في المسجد الجامع في بغداد، كما كان هذا الجامع أكبر وأجمل من جامع المنصور[71].

وقام بالقرب من الجامع القصر المعروف بـ«قصر المهدي» وقيل: إن الرشيد هو الذي شيد قصر الرصافة، ولكن الراجح أن الرشيد قد جدد أو وسّع في قصر أبيه المهدي[72]. ويعتقد لوسترانج أن هذا القصر، الذي أصبح نواة للجانب الشرقي المتنامي، لا بد أنه بني في عهد بناء المدينة المدورة للمهدي ولي العهد[73].

وقد توسع هذا الجانب من بغداد، وامتد في عهد الرشيد من باب الشماسية إلى المخرم[74]، كما امتدت رقعة الجانب الغربي ما بين قطربل والكرخ[75]. ويورد اليعقوبي بإسهاب الكثير من القطائع التي أقطعها المهديّ لرجاله في منطقة الرصافة والأراضي المجاورة، حيث قامت محلات الشماسية والمخرم ومحلة أبي حنيفة[76]، والمحلة الأخيرة قامت حول المقبرة التي دفن فيها أبو حنيفة صاحب المذهب الحنفي الذي عرف باسمه. وقد عرفت المقبرة فيما بعد باسم مقبرة الخيزران (زوج المهدي)[77]. وفي جوار محلة أبي حنيفة قامت محلة «سوق يحيى» كما قامت محلتا الخضيرية والشماسية شمالاً[78].

وكان معظم سكان الشماسية قبل بناء بغداد من النصارى، ونزلها النساك والرهبان والزهاد، إذ كان الرهبان يشيدون أديرتهم بين الأشجار والمياه الغزيرة في المواضع المنقطعة عن الناس[79]. وقد زاد نزول السكان النصارى في الجانب الشرقي بعد ازدياد الفتن التي كانت تقع بين الحين والآخر في الجانب الغربي، فكانوا ينزلون ناحية الزندورد، وفي محلات سوق الثلاثاء، وفي الشماسية، ودار الروم[80].

---

(71) Le Strange, p. 188.

(72) Ibid p. 189.

(73) Ibid p. 170.

(74) E.I² p. 924.

(75) معجم البلدان، ج 1، ص 462.

(76) البلدان، 252 ـ 253، أيضاً ـــ Le Strange .. 190.

(77) Le Strange .. 191.

(78) أحمد سوسه، فيضانات، ج 1، ص 228.

(79) أنظر، جان موريس فيه، أحوال النصارى في خلافة بني العباس (دار المشرق، 1990) ص 51.
رفائيل بابو إسحق، أحوال النصارى في عهد الخلافة العباسية (مطبعة شفيق، بغداد، 1960) ص 26.

(80) إسحق، ص 23.

وقد ازدهرت الشماسية بعد أن بنى فيها البرامكة قصر الطين في محلة سوق يحيى. وعرفت هذه المحلة أشهر الطرق، منها طريق البردان، ومنها شارع الميدان الممتد إلى سوق الثلاثاء[81].

ولم تلبث بغداد أن تعرضت للدمار، فكانت أولى الضربات التي تلقتها، أثناء الحرب بين الأمين والمأمون. ففرض جند المأمون حصاراً حول المدينة سنة 196هـ/811م. دام أربعة عشر شهراً، ونصبت المجانيق بين الفريقين وكثر الحريق والهدم في الجانبين الغربي والشرقي حتى درست محاسنها، وهدمت دورها ونهبت أخشابها[82].

بعد انتصاره وظفره بالخلافة، عاد المأمون إلى بغداد سنة 204هـ/819م. ونزل القصر المعروف بالجعفري، نسبة إلى جعفر البرمكي، وسمي القصر بالمأموني، فأضاف إليه ميداناً للخيل واللعب وحيراً لجمع الوحوش، ووهبه فيما بعد لحميّه الحسن بن سهل، وصار يعرف بالقصر الحسني، ولم يلبث هذا القصر أن أصبح مقراً للخلفاء بعد عودة الخلافة من سامراء إلى بغداد 279هـ/892م[83].

تعرضت بغداد مرة أخرى للفوضى والدمار أثناء النزاع بين المستعين والمعتز سنة 251هـ/865م. فقد أمر المستعين الذي فرّ إلى بغداد من سامراء، بمدّ السور حول بغداد الشرقية وهو السور الذي عرف بسور المستعين[84]، ودمرت المنازل والدور التي كانت خارج هذا السور لضرورات الدفاع، كما تعرضت للدمار الأحياء الشرقية من الشماسية والرصافة[85].

ومنذ خلافة المعتضد 279هـ/892م، أصبح الجانب الشرقي مقر الخلفاء. كان المعتضد بنّاء جيداً، فقد استولى على القصر الحسني وأعاد ترميمه. وتحول الجزء الجنوبي من الجانب الشرقي إلى مركز النشاط السياسي، بعد أن أقام إلى جانبه قصر الثريا سنة 280هـ/ ووصله بالقصر الحسني[86]، ثم بنى قصراً فوق الشماسية عرف بالفردوس[87]،

---

(81) المرجع نفسه، ص 28 ـ 29.
(82) المسعودي، مروج الذهب، ج 1. ص 316، 319، 321.
(83) ياقوت، معجم، ج 2، ص 3 ـ 4.
(84) أحمد سوسه، فيضانات، 229.
(85) الطبري، ج 9، ص 303.
(86) المنتظم، ج 5، ص 144.
(87) معجم البلدان، ج 2، ص 77.

ولكنه توفي قبل إنجازه، فقام المكتفي بإتمامه وزاد به المقتدر[88]. وبنى المكتفي جامع القصر بالقرب من التاج، واستعمل آجر القصر الأبيض في المدائن لإكمال بناء «التاج»[89].

إن أهمية هذه القصور هي في أنها قامت في منطقة غير آهلة، تقع على بعد ملحوظ من محلة الرصافة والمحلات الأخرى الآهلة في الجانب الشرقي. فأصبح قصر جعفر البرمكي والقصران الآخران: الفردوس والتاج، أشبه بمدينة عرفت بـ «دار الخلافة»، تحف بها البساتين الكبرى، وقصور أصغر حجماً من الأولى[90].

وقد أورد ياقوت رواية عن زيارة رسول ملك الروم إلى بغداد في أيام المقتدر سنة 305هـ. وتضمنت هذه الرواية وصفاً لمباني دار الخلافة.

استعرضت بعثة صاحب الروم جند الخلافة الذين امتدوا من أعلى باب الشماسية إلى مسافة قريبة من «دار الخلافة». وعندما دخلت البعثة إلى هذه الدار، مرت بدار نصر القشوري الحاجب، ثم حملت إلى دار الوزارة التي كان ينزلها علي بن الفرات[91]. وتقول رواية أخرى: إن رجال بعثة صاحب الروم أدخلوا من دهليز باب العامة الأعظم إلى الدار المعروفة بخان الخيل، وهي دار أكثرها أروقة بأساطين رخام. ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش، ثم إلى دار بين بساتين في وسطها بركة رصاص قلعي وحواليها نهر رصاص قلعي، وحول هذه البركة بستان بميادين فيه نخل، وفي جوانب البستان أترج ودستانبو[92] ومقفع، وغير ذلك. ثم أخرج الوفد من هذه الدار إلى دار الشجرة، وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة، أكثر قضبان الشجرة من الفضة، وبعضها مذهّب. بعدها أدخل الوفد إلى قصر الفردوس، الذي كان في دهاليزه عشرة آلاف جوشن[93] مذهبة، ثم أخرج إلى ممر طوله 300 ذراع، علقت فيه آلاف الخوذ والبيض والدروع. ثم أخرج الوفد بعد أن طيف به ثلاثة وعشرين قصراً إلى الصحن التسعيني أدخل بعدها على المقتدر الذي كان يجلس في التاج؛ وأخرج الوفد

---

(88) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 99.

(89) Le Strange, p. 252 معجم البلدان، ج 2، ص 75.

(90) أنظر Le Strange, p. 242.

(91) تاريخ بغداد، ج 1، ص 100 ـ 101.

(92) دستنبوا: نوع من البطيخ الأصفر ذي الرائحة، أنظر، ادي شير، ص 63.

(93) الجوشن، الصدر والدرع، ادي شير، ص 105.

بعد انتهاء زيارة دار الخلافة من باب الخاصة ومما يدل على ضخامة دار الخلافة، وتقول الرواية: إن الوفد ومرافقيه استراحوا في سبعة مواضع واستقوا الماء[94].

ويحتمل أن يكون داخل نطاق التاج، ذلك البستان الصغير الذي غرس بالنارنج الذي كان يجلس فيه القاهر، والذي زينه بغروس جميلة وأعجب به فيما بعد الخليفة الراضي، وجعل يداوم الجلوس والشرب فيه[95].

في عهد السيطرة البويهية على بغداد، تحولت دار الخلافة إلى إقامة الخلفاء وفقدت هذه الدار سلطتها لصالح دار أخرى أنشأها البويهيون.

وتابع بعض الخلفاء إقامة مباني خاصة داخل دار الخلافة، فأنشأ المطيع (334هـ ـ 363هـ) دار الطواويس، والدار المربعة، والدار المثمنة[96].

أفاض الجغرافيون العرب بوصف دار الخلافة وملحقاتها. فذكروا أبواب سورها، ومنها باب الخاصة الذي عرف باسم باب بدر غلام المعتضد، وكان يدخل منه من سمت منزلته[97]، ثم باب العامة، وهو باب حديد عظيم، أخذه المعتصم بالله بعد فتحه عمورية 223 هـ، وجُعِل أحد أبواب دار الخلافة بعد بنائها، وقد عرف هذا الباب باسم «باب عمورية»[98]، كان موجوداً في عهد الخطيب البغدادي توفي سنة 463 هـ، وهو الباب الملاصق للمسجد الجامع بالقصر[99].

ويبدو أن باب الخاصة لم يتجاوز تاريخه منتصف القرن الرابع من حيث البقاء، فلم يعد يذكر باسمه بل حل محله باب بدر[100]. إلا أن ياقوت يذكر أن هذا الباب استحدث من جديد في خلافة الطائع سنة 363هـ/973م[101].

ويذكر ياقوت، حريم دار الخلافة، وكان بمقدار ثلث بغداد، وهو في وسطها ودور

---

(94) أنظر، الخطيب، ج 1، ص 101 ـ 15.

(95) المسعودي، مروج، ج 2، ص 570.

(96) معجم البلدان، ج 2، ص 422، 423.

(97) ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع على سماء الأمكنة والبقاع، (دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1954) ص 1322.

(98) أنظر، ابن الطقطقى، الفخري، ص 231، أيضاً: معجم البلدان، ج 2، ص 251.

(99) تاريخ بغداد، ج 3، ص 344.

(100) مصطفى جواد، في التراث العربي، (بغداد، 1975) ج 1، ص 93.

(101) معجم البلدان، ج 1، ص 307.

العامة محيطة به، وله سور يتحيز به، ابتداؤه من دجلة وانتهاؤه إليه كهيئة نصف دائـرة، وفيه باب الغربة من جهة الغرب، ثم بـاب سوق التمر وهو بـاب شاهق البنـاء أغلق في أول أيام الناصر لدين الله (توفي سنة 622هـ/1225م) ثم باب البدرية ثم بـاب النوبي، وعنده باب العتبة التي تقبلها الرسل والملوك ثم باب العامة وهو بـاب عمورية أيضاً، ثم يمتد نحو ميـل فيه بستـان قرب المنظرة التي تنحـر تحتها الأضـاحي، ثم باب المـراتب في شرقي الحريم، وجميع ما يشتمل عليه هذا السـور من دور العامـة ومحالهـا وجامـع القصر الذي تقام فيه الجمعة يسمى «الحـريم» ويشتمل حـريم دار الخلافـة على سـور آخر تقـع خلفه دور الخلافة التي بدت كمدينة كبيرة[102].

أبنية البويهيين

بعد أن تحول الجـانب الشرقي إلى مركـز السلطة العباسيـة، فإن البـويهيين 334 ـ 474هـ/ 945 ـ 1055م، الذين سيطروا على بغداد، وقلصوا سلطات الخليفة، أقـاموا في ذلك الجانب، فأنشأوا فيه المباني والقصـور المستقلة بهم، في مقابـل أبنية دار الخـلافة، مؤكدين سلطتهم، التي حلت محل سلطة الخليفة ووضعت حداً لمراكز النفوذ الأخرى.

كان من أولى المنشآت البويهية قصر بناه معز الـدولة سنـة 350هـ/961م. بجوار باب الشماسية في آخر بغداد[103]. وكان معز الدولة عند دخوله بغداد سنة 334هـ، قـد أقام في دار مؤنس[104]. إلا أن الأمير البويهي عزم، بعد مرضه، على أن يخرج من بغداد ويبني لنفسه مدينة، وحال دون ذلك قلة الأموال، فقرّ رأيه عـلى أن يبني له قصـراً حصيناً في مكان صحي في باب الشماسية[105]. اختار البستان المعـروف بالصيمـري الذي كـان منـزلاً لابن شيرزاد، آخـر أمراء بغـداد، فعمل لـه ميدانـاً على دجلة متصـلاً بين القصر والبستان الشارع على دجلة، وأقام سوراً حول القصر، وبنى مسنـاة عظيمـة من حدّ رقـة الشماسية إلى بعض الميدان، وبلغ ما بناه منها ألفاً وخمسمائة ذراع، وعرضها نيف وسبعون آجرة كبيرة[106]. وقد اشترى معز الدولة العقارات المجـاورة إلى حدود «ربيعـة الدور»،

---

(102) معجم البلدان، ج 2، ص 250 ـ 51.

(103) الخطيب البغدادي، ج 3، ص 320.

(104) محمد بن عبد الملك الهمداني. تكملة تاريخ الطبري، ج 1، بعناية البرت كنعان، ج 1 (بيروت 1961) ص 148.

(105) مسكويه، تجارب الأمم (، مصر، 1914 ـ 15) ج 2، ص 183، أنظر أيضاً المحسن بن علي التنوخي، نشوار المحاضرة، بعناية عبود الشالجي، (بيروت، 1971) ج 1، ص 139.

(106) الأجرة الكبيرة عند اليعقوبي، البلدان، ص 238، ذراع في ذراع، ويقدرها كروزيل بـ 108، 51سم في =

وقلعت الأبواب الحديدية التي على مدينة المنصور، والتي بالرصافة، وعلى شارع نهر المعلى، ونقلها معز الدولة واستعملها في بنائه. كما أنه نقض قصور الخلافة بسامراء وسور الحبس المعروف بالجديد وبنى به داره وبالآجر الذي استعمله وطبخه بالأتاتين. ووثق معز الدولة بناءه وبالغ في الإحكام، وجعل له أساسات على عمق 36 ذراعاً. وكان مبلغ ما كلفه البناء حتى وفاة صاحبه 356هـ/966م، 13 مليون درهم، سوى ما لم يشتره من الأثاث[107]. وكان أن انتشرت بعد ذلك القصور على الشاطىء الشرقي لدجلة بين طرف الشماسية وباب البردان.

ويبدو أن الأسوار التي أقيمت في الجانب الشرقي حول دار الخلافة والدار المعزية، قد أسهمت في حماية أجزاء من بغداد الشرقية عند الفيضان الذي أصاب المدينة 367هـ/977م[108]. إلا أن الفيضان عاد سنة 466هـ/1073م، فضرب الدار المعزية، وهدم حريم دار الخلافة ثم دخل إلى هذه الدّار ففعل بأكثرها مثل ذلك[109].

ومن الأبنية التي قامت في عهد معز الدولة، الجسر الذي أقامه بباب الشماسية ليربط الدار المعزية بالجانب الغربي من بغداد. وكان هذا الجسر يقوم على السفن. ويذكر مسكويه أن عضد الدولة أمير بغداد منذ سنة 367هـ قد أصلحه واختار له السفن الكبار المتقنة، وزاد في عرضه حتى صار كالشوارع، وحصنه بالدرابزينات[110].

وأمر معز الدولة ببناء مارستان مكان السجن الجديد، وخصص له مستغلات غلتها خمسة آلاف دينار في العام[111]. كذلك أقام سبكتكين، حاجب معز الدولة، لنفسه داراً قوراء واسعة عرفت باسمه، هدمها عضد الدولة(372 ـ 376 / 977 ـ 982م). ولم يبق منها إلا البيت الستيني الذي هو وسط أروقة من ورائها أروقة في أطرافها قباب معقودة. وجعل عضد الدولة البيت الذي في هذا الدار داراً للعامة، وجعل البيت

= **A Short Account of Early Muslim Architecture** (Libraire du Liban, 1968) p. 163.

ويعتبرها روفائيل بأبو إسحق، أحوال نصارى بغداد، ص 77 بأبعادها الثلاثة 6 × 26 × 5 سم. وهي مقياس ما وجد منها في كنائس الحيرة.

(107) انظر: نشوار، ج 1، ص 138 ـ 39، المنتظم، ج 7، ص 87، **تجارب الأمم**، ج 2، ص 183، Le Strange, p. 232.

(108) **المنتظم**، ج 7، ص 87، أحمد سوسه، **فيضانات**، ج 1، ص 281 ـ 82.

(109) **المنتظم**، ج 8، ص 284 ـ 85.

(110) **تجارب الأمم**، ج 2، ص 406.

(111) **المنتظم**، ج 7، ص 33.

برسم جلوس الوزراء، وما يتصل به من الأروقة والعتاب مواضع للدواوين، وجعل الصحن مناماً لديلم النوبة في ليالي الصيف. وقد غرم عضد الدولة على ذلك مالاً كثيراً، فابتاع دوراً كثيرة ونقضها ورمى حيطانها بالفيلة، وجر إليها المياه من نهر الخالص، وبلغ ما كلفه البناء حوالي عشرة ملايين درهم[112]، فأسمى عضد الدولة داره «دار المملكة» بالمقارنة مع القصر الحسني الذي كان يدعى «دار الخلافة»[113]. ولم تلبث أن خربت هذه الأبنية في عهد جلال الدولة (410هـ) وبقي ما بناه عضد الدولة متماسكاً، حتى استولى طغرلبك الغزي (السلجوقي) على بغداد سنة 448هـ فجددها، ثم أحرقت سنة 450هـ وأعيد بناؤها فيما بعد ودعيت «دار السلطنة»[114]. وقد وصف أحد الكتاب الفرس، وهو حمد الله، المعروف بالمستوفي القزويني (ت 730هـ) دار السلطنة في الجانب الشرقي من بغداد بأنها إحدى أعاجيب الدنيا[115].

والواقع أن بغداد أخذت في التقهقر منذ مطلع القرن الرابع حيث أخذت الفتن تعصف بها، فقامت حروب أهلية كانت شوارع بغداد وأحياؤها مسرحاً لها، بعد أن كان الجانب الغربي قد تعرض لتخريب بالغ أثناء الحرب بين الأمين والمأمون. كما أن حوادث الغرق المتكررة من فيضان دجلة والفرات كان لها أثر بالغ في تخريب قسم من مدينة بغداد، فقد كان يصعب حماية المدينة من أخطار الفيضان، ولعل أشهر هذه الفيضانات ذلك الذي وقع سنة 330هـ والذي تهدمت على أثره الطاقات في المدينة المدورة القريبة من باب الكوفة[116].

وفي نهاية القرن الرابع الهجري أشرفت معالم المدينة المدورة على الاختفاء، وتداخلت بعض أقسامها مع سائر الأبنية المجاورة في محلات بغداد التي قامت وراء الأبواب الأربعة للمدينة. ووصف المقدسي بغداد في الربع الأخير من القرن الرابع للهجرة بقوله[117]: «أما المدينة فخراب، والجامع فيها يعمر في الجمع، ثم يتخللها بعد ذلك الخراب، أعمر موضع بها قطيعة الربيع والكرخ في الجانب الغربي».

---

(112) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 105 ـ 107، أيضاً: Le Strange, pp 234 - 234.

(113) Le Strange, p. 233.

(114) الخطيب، ج 1، ص 105 ـ 106، أيضاً:

(115) Le Strange, p. 235, 347, وكتاب تاريخ كوزيده، وتعني المنتخب.

انظر حول المستوفي يعقوب سركيس، مباحث عراقية، (بغداد، 1955) ص 328.

(116) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 76.

(117) أحسن التقاسيم، ص 120.

الفصل الثالث

سكان بغداد الأوائل

كانت المدينة المدورة عاصمة ضمت دواوين الموظفين، كما كانت معسكراً للجند[1]. فحول الرحبة التي ضمت القصر، قامت بيوت أولاد المنصور وبيوت من يقترب من خدمته من عبيده، وقام بيت المال، وخزانة السلاح، وديوان الرسائل، وديوان الخاتم، وديوان الجند، وديوان النفقات، وغيرها من الدواوين[2]. وأقطع الخليفة القطائع لمواليه وقواده[3] وأخذهم بالبناء فصارت دروب المدينة تنسب إليهم، وأقطع آخرين منهم على أبواب المدينة، وأقطع الجند الأرباض، وأقطع أهل بيته الأطراف[4].

تعطي المصادر بعض التفاصيل حول أسماء الطاقات والسكك والقطائع. فيذكر اليعقوبي بعض أسماء تلك الطاقات والسكك بين أبواب المدينة وأسماء من نسبت إليهم، وكلهم من أهل بيت المنصور ومواليه[5]، ويقول البلاذري: إن الخليفة بنى للمهدي، قبل إنزاله الجانب الشرقي، قصره الذي يعرف بقصر «الوضاح» وهو مما يلي باب الكرخ[6].

وفي الأرباض، أمر المنصور أن يسمى كل درب باسم القائد النازل فيه، أو الرجل النبيه الذي ينزله، أو أهل البلد الذين يسكنونه[7].

(1) فاروق عمر، العباسيون الأوائل، ج 2، (دمشق، 1973)، ص 20.

(2) البلدان، ص 240.

(3) البلاذري، فتوح البلدان، بعناية صلاح الدين المنجد، ص 361.

(4) تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 374.

(5) البلدان، ص 240 ـ 41.

(6) فتوح البلدان، ص 361.

(7) البلدان، ص 242.

أما البلاذري فيعطينا بعضاً من أسماء أصحاب القطائع داخل المدينة وخارجها[8] ويضيف الخطيب البغدادي شيئاً من التفاصيل حول حدود القطائع وامتداداتها[9].

أما الجند، فقد جعلهم المنصور على أبواب مدينته الأربعة، ألفاً على كل باب[10]، ويعني ذلك، أن المدينة[11]، المدورة ضمت أربعة آلاف جندي، وهو ما يوازي تقريباً عدد الأسرات التي نزلت المدينة كما جعل في كل سكة شكلها جلة القواد الموثوق بهم في النزول معه، وجلة مواليه في الأمر المهم[12].

وبين أسماء السكك، يورد اليعقوبي تسعاً وعشرين منها، عرفت بأسماء موالي المنصور[13]. ومن بينها ما هو منسوب إلى المروروزية، نسبة إلى مرو الروز[14]، وهم جماعة حاربت مع المنصور عند نشوب الثورة العباسية، ثم شاركت إلى جانبه في القتال ضد الملبد الخارجي بجيش كبير (138هـ)، روي أن عدده بلغ تسعة آلاف من المروروزية، ثم شاركت في قمع حركة عبد الجبار الأزدي الذي ثار على أبي جعفر في خراسان سنة 141هـ[15]، وشاركت في قمع حركة أستاذ سيس (151هـ)، وكان أبو خالد أحد زعماء الراوندية من مرو الروز[16]، ويذكر ابن الجوزي أن المنصور بنى للمروروزية مسجداً صلى فيه واستسقى الماء[17].

بالإضافة إلى المروروزية، كان في بغداد ستة وعشرون ألف جندي خراساني يقيمون حول المدينة المدورة[18]؛ فقد كان الخراسانية عماد الدولة[19]، فهم شيعتها

---

(8) فتوح البلدان، ص 363 ـ 64.

(9) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 85.

(10) المصدر نفسه، ص 77.

(11) S. AL - ALI, **Fond. of Baghdad**, p. 94.

(12) البلدان، ص 241.

(13) صالح العلي **op. cit**, p. 94.

(14) مرو الروز أو مرو الروذ هي مدينة قريبة من مرو الشاهجان، أنظر، **معجم البلدان**، ج 5، ص 113، وابن عبد الحق، **مراصد**، ج 3، ص 1262.

(15) الطبري، ج 7، ص 463، 498، 510. وكان عبد الجبار صاحب شرطة المنصور ثم عزله وولاه خراسان واستعمل أخاه عمر على الشرطة بدلاً منه، أنظر، **تاريخ اليعقوبي**، ج 2، ص 389.

(16) اطبري، ج 8، ص 28، 113، أيضاً Al - Ali, p. 94.

(17) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج 6، ص 366.

(18) الطبري، ج 7، ص 638 ـ 39.

(19) الخراسانية، مصطلح أطلق على جند خراسان من العرب والعجم، أنظر، فاروق عمر، ص 129، وما يليها.

وأنصارها وأهلها الذين بذلوا أموالهم في سبيلها، وجادوا بدمائهم دونها[20]، واعتبروا بغداد «خراسان العراق»[21] فأصبحت موطنهم الذي ينتسبون إليه. وقد راعى العباسيون الأوائل دور الخراسانية، وشدد المنصور في وصيته للمهدي بضرورة الإهتمام بـ«أهل خراسان» بناة الدولة وحماتها[22]. ويبدو أن الخراسانية حافظوا على تشكيلاتهم داخل جند الخلافة في بغداد، واحتفظوا باسمهم حتى منتصف القرن الثالث[23].

كان بناء الجيش الخراساني وتنظيمه متوافقين مع التنظيم الطوبوغرافي لبغداد في عهدها الأول، إذ كانت الأبواب الأربعة والأرباض التي قامت حولها مقدمة لظهور الأرباع في المدينة[24].

نزل الخراسانية في بغداد في رُبع باب الشام الذي يمتد فيه شارع كبير ضم الدروب الطوال التي تنسب إلى أهل بلدٍ من البلدان، ينزلون في جنبيه جميعاً. ففيه ربض عبد الله البلخي وأهله أهل بلخ، وأهل الختل، وأهل بخارى، وأهل اسبيشاب، وأهل أشتاخنج، وأهل كابل شاه، وأهل خوارزم، ولكل أهل قائد ورئيس.

وفي الجزء الشمالي من المدينة، قام ربض دار الرقيق الذي كان فيه رقيق أبي جعفر، وإلى جانب هذا الربض قام ربض الكرمانية، ثم قطيعة الصغد، ثم قطيعة ماهان الصامغاني وأصحابه، ثم قطيعة مرزبان الفاريابي وأصحابه.

وفي شرقي المدينة امتد الربع من باب خراسان، حيث تقع قطيعة عبد الملك الجرجاني وأصحابه الجرجانية، ثم قطيعة الأفارقة، وقطيعة الديلمي، وقطيعة البغيين[25].

وفي العهد الأموي بلغ عدد الجند العربي في خراسان أربعة وخمسين ألفاً عند تمرد قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة 96هـ. وكانوا مقسمين على سبع فرق، كانت واحدة منها من الكوفة، والفرق الباقية تشكلت من قبائل البصرة ومن تميم وبكر والأزد وعبد القيس

---

(20) الطبري، ج 8، ص 92، 103.

(21) فاروق عمر، **العباسيون الأوائل**، ج 2، ص 17 ـ 18.

(22) الطبري، ص 111، 125.

(23) أنظر الطبري، ج 8، ص 38، الجاحظ، رسائل، بعناية عبد السلام هارون (القاهرة، 1964)، ج 1، ص 9.

(24) S. Al - Ali, **op. cit.** p. 96.

(25) اليعقوبي، **البلدان**، ص 248 ـ 249.

وأهل العالية[26]. ويعتقد أن هذا التقسيم ترك أثره على تقسيم الجيش العباسي في بغداد، فاحتفظت الفرق بتشكيلها الإقليمي وبقائدها. وأصبح هذا التقسيم على مرّ الزمان، وبأشكال أخرى، نواة لوحدات عسكرية خاصة متكاتفة في الدفاع عن مصالحها المالية والسياسية الخاصة.

عسكر الأبناء خارج المدينة المدورة. وتسميهم المصادر بأسماء عدة، فهم «أبناء الدعوة» و«أبناء الكفاية»[27]، كما عرفوا باسم «أصحاب الاسورة والأكاليل» و«أبناء الملوك وألفاف السيوف»[28].

وكان للأبناء دور في حرب الخلافة بين الأمين والمأمون، فحاربوا إلى جانب الأمين وصاروا إحدى القوى الرئيسية في بغداد حين أفلت زمام الأمر بها[29]. ويبدو أن عددهم كان كبيراً في العاصمة بغداد. فيذكر الطبري أن الأمين وجه عبد الرحمان الأبناوي في عشرين ألفاً من الأبناء، بينهم خيرة فرسانهم، وأهل البأس والنجدة والعناء منهم[30]. وكان الأبناء يتقنون اللغة العربية، وكان منهم من يقول الشعر[31].

وليس لدينا رأي موحد حول أصل الأبناء، ويعتقد صالح أحمد العلي أنهم أبناء الجنود الذين نزلوا بين العرب في مدن أقاليم خراسان وأواسط آسيا[32]. ويرى برنارد لويس أنهم من الخراسانيين الذين شملهم اللقب عند دخولهم في خدمة الدولة العباسية وأصبحوا أبناء بالتبني لها. وقد ظل الأبناء جماعة ذات نفوذ حتى القرن الثالث الهجري قبل أن يخمل شأنهم بازدياد سلطان الجند التركي[33].

ونزل الأفارقة في ربض خاص يقع شرقي المدينة المدورة[34] وشكلوا جزءاً من جيش المنصور، وقاتلوا إلى جانبه حين خرج إبراهيم الطالبي بالبصرة سنة 145هـ،

---

(26) الطبري، ج 6، ص 512، ابن الأثير، الكامل، (بيروت، 1967، دار الكتاب العربي)، ج 4، ص 140.

(27) الطبري، ج 8، ص 147، 130، المسعودي، ج 2، ص 316.

(28) الطبري، ج 8، ص 411، 414.

(29) المصدر نفسه، ص 497.

(30) المصدر نفسه، ص 412، 423.

(31) المصدر نفسه، ص ج 8 ص 417، 496.

(32) Fond. Of Baghdad, p. 98.

(33) دائرة المعارف الإسلامية، دار الشعب، ج 1، ص 193.

(34) اليعقوبي، البلدان، ص 249.

وقاتلوا إلى جانب الأمين، وبرز دورهم في زمن المأمون سنة 202هـ[35]. وقد توافد الأفريقيون إلى الشام والعراق في أيام الأمويين والعباسيين من شمالي إفريقية، ويذكر ابن الأثير أن موسى بن نصير غزا إفريقية سنة 89هـ وسبى منها الكثير، فكان خمس السبي، وهو حصة الخليفة، ستين ألفاً[36]. وورد الأفريقيون على بغداد على شكل جزية فرضت على برقة وقيمتها ثلاثة عشر ألف دينار، يبيعون فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه[37]، وقد استخدمهم العباسيون بعد أن أثبتوا أنهم مقاتلون مشهود لهم بالشدة والأمانة[38]، ويبدو أن شمال إفريقية بقي يصدّر الأفارقة إلى بغداد في القرن الثالث[39].

ولدينا الكثير من الإشارات للموالي الذين نزلوا بغداد. فأسماء السكك والقطائع تدل على أسماء موالي أبي جعفر، الذين استخدمهم في قصره أو في إدارته. وترد كلمة «موالي» مقرونة ببني هاشم والصحابة من قريش. كما ترد مقرونة ببني العباس وقوادهم من «شيعة بني العباس وقوادهم»[40].

يورد الخطيب البغدادي أسماء القطائع والسكك والقصور وينسبها إلى أصحابها، فيذكر سكة شيخ بن عميرة، وكان قائد الحرس، وقصر وضاح المنسوب إلى وضاح الشروي، مولى المنصور، وقصر عبدويه، من وجوه الدولة، ودار أبي زيد الشروي، مولى علي بن عبد الله بن عباس[41].

ولم يكن المنصور يقبل أن يخدم العرب في قصره، ولا تعطي المصادر أسماء عرب عملوا خدماً في قصر المنصور، بل العكس، فقد ذكر الطبري أن المنصور رفض استخدام خصي في قصره لخدمة حرمه لأنه عربي[42]. ولعل ذلك عائد لعدم قبول استبعاد العرب، وهو مبدأ استنه عمر بن الخطاب[43].

وكان للموالي حظ كبير في العصر العباسي بعد أن كانت لهم مشاركة فعلية في

---

(35) الطبري، ج 7، ص 639 وج 8، ص 448، 457، 474، 559.
(36) الكامل، ج 4، ص 112.
(37) فتوح البلدان، ص 264ـ 265.
(38) الجاحظ، رسائل، ج 1، ص 192، 195.
(39) المصدر نفسه، ص 211.
(40) الطبري، ج 8، ص 128، 196.
(41) تاريخ بغداد، ج 1، ص 87، 89.
(42) تاريخ الرسل والملوك، ج 8، ص 69.
(43) أنظر، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 139.

أحداث الثورة العباسية. ويذكر صاحب «أخبار الدولة العباسية» أسماء موالي أبي العباس، الذين انتقلوا إليه بعد وفاة أخيه إبراهيم الإمام، والذين عملوا أمناء لسر أبي العباس، ومن هؤلاء من شارك بتحديد ساعة الصفر لبدء الثورة العباسية، وهم أبو موسى مسلم بن سلم، وصالح بن الهيثم، وصالح بن مجالد، ومهلهل بن صفوان، وسابق، الذي حمل وصية إبراهيم الإمام إلى أبي العباس[44].

كان اجتماع الموالي حول بني العباس بمثابة رد فعل على واقعهم في العهد الأموي، الذي نظر إليهم على أنهم «علوج سفلة عبدة سنانير»، كما استهواهم شعار العباسيين بالدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه، وإحياء ما أحيا القرآن وإماتة ما أمات[45].

عاش بعض الموالي داخل القصر، وعاشروا أبناء الخلفاء والأمراء العباسيين. وقد تمكن المثقفون منهم من أن يحرزوا مكانة عالية[46]، وتسلموا والوزارة وإدارة الدواوين، وتغلغلوا داخل الجيش. ورغم مشاركتهم الفعالة في الثورة والحكم، بقيت كملة «مولى» تستخدم للدلالة على الأشخاص أو الجماعات أو الجند[47]. علماً أن هذا المصطلح بات التحلي به يعني القرب من الخليفة والمركز المرموق وكان في بغداد درب يعرف باسم درب الموالي[48].

وضمت القطائع وأحياء بغداد وأرباضها جماعات من العرب، من بني العباس والكثيرين من أنصار الدعوة وبعض الجماعات العربية التي هاجرت إلى العاصمة.

وزع المنصور القطائع على أهل بيته، فأقطع عبد الوهاب بن إبراهيم بإزاء باب الكوفة على الصراة السفلى، وأقطع العباس بن محمد الجزيرة التي بين الصراتين، وأقطع الشرويّة، وهم موالي محمد بن علي العباسي، دون سويقة عبد الوهاب مما يلي باب الكوفة، وأقطع إسحق بن عيسى بن علي على الصراة العظمى من الجانب الشرقي، وأقطع المنصور ابنه جعفراً على شط دجلة، حيث قام الجانب الشرقي من المدينة، وهي الرصافة التي بناها المهدي، وأقطع المنصور أيضاً إخوته وقواده في الجانب الشرقي بعد أن أقطع من بالجانب الغربي[49].

---

(44) مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص 410.

(45) المصدر نفسه، ص 287.

(46) أنظر، ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج 3، ص 135 ـ 37. (بيروت، 1973).

(47) صالح أحمد العلي، . Fondation p. 95.

(48) تاريخ بغداد، ج 3، ص 105. وتنبغي الإشارة إلى أن مصطلح «مولى»، اكتسب لاحقاً، معنى المقرب من الخليفة.

(49) اليعقوبي، البلدان، ص 242 ـ 44، 245، 251، الخطيب البغدادي، ج 1، ص 95.

كان أبو جعفر شديد العناية ببني العباس، وكان كريماً بعطائه لهم، وقيل إنه فرق على جماعة من أهل بيته في يوم واحد عشرة آلاف درهم. وأمر للرجل من أعمامه بمليون درهم، وكان أول خليفة أعطى مليوناً من بيت المال، حتى صارت تجري في الدواوين[50]، وجعل المنصور العديد من العباسيين قواداً وحكاماً للأقاليم[51]. وأوصى ابنه المهدي بالعباسيين «أهل بيته» وحثه على إظهار كرامتهم، وأن يقدّمهم ويكثر الإحسان إليهم، وأن يعظّم أمرهم ويوطيء الناس أعقابهم، ويوليهم المنابر[52]. وقد عمل المهدي بوصية أبيه، فردّ في سنة 160هـ على أهل بيته وغيرهم قطائعهم التي كانت مقبوضة عليهم[53]، ثم أقطع بعضاً منهم نهر الصلة، ووقف عليهم غلته[54].

يشير إحصاء تم في عهد المأمون، إلى تزايد عدد العباسيين، إذ بلغ عددهم في السنة المائتين للهجرة ثلاثين ألفاً في بغداد وحسب[55]. وكان عدد من خصص بمساعدات المقتدر في مدينة بغداد أربعة آلاف شخص، هذا عدا أولاد المتوكل وذريتهم وأولاد الواثق والمهتدي والمستعين وسائر أولاد الخلفاء، ومن في قصر أم حبيب، وأولاد الناصر (الموفق)[56].

ومن العرب الذين نزلوا بغداد **أصحاب المنصور وأنصاره**، ويسميهم الطبري الخاصة، ويقابلهم بالموالي[57]، ويكون ترتيبهم بعد العباسيين مباشرة[58]. وكان عدد أصحاب المنصور سبعمائة رجل[59]، وأقطعهم قطيعة على نهر الصراة دعيت «قطيعة الصحابة»، وكانوا من سائر قبائل العرب من قريش والأنصار (أنصار النبي) وربيعة ومضر ويمن[60]، وجعل المنصور لولده المهدي صحابة من أهل بيته، وأجرى لكل منهم خمسمائة درهم[61].

---

(50) الطبري، ج8، ص 84 ـ 85.

(51) Al - Ali, op. cit. p. 95.

(52) الطبري، ج 8، ص 103.

(53) المصدر نفسه، ص 134، ولا يذكر الطبري أو غيره تفصيلات حول قبضها ومتى تم ذلك.

(54) المصدر نفسه، ص 167.

(55) المصدر نفسه، ص 545.

(56) الصابي، **الوزراء**، ص 25.

(57) **تاريخ الطبري**، ج 8، ص 203.

(58) المصدر نفسه، ص 368.

(59) المصدر نفسه، ص 64، 96.

(60) **البلدان**، ص 243.

(61) الطبري، ج 8، ص 37.

ويعطي الخطيب البغدادي بعض المعلومات عن أصحاب المنصور، فيذكر منهم أبا بكر الهذليّ، وله مسجد ودرب، ومحمد بن يزيد، وشبة بن عقال، وحنظلة بن عقال، وكانت لهم دور خاصة بهم، ومسجد عرف في عهد الخطيب البغدادي باسم الاستخراجي[62].

عالج عبد الله بن المقفع مسألة صحابة المنصور في رسالة عرفت باسم «رسالة الصحابة». وتعطي هذه الرسالة انطباعاً بأنها تدافع عن الأرستوقراطية العربية، وضرورة وجود رجالها في مراكز القيادة في الإدارة العباسية إذ تقول: «ومما يذكر أمير المؤمنين أمر فتيان أهل بيته وبني أبيه وبني علي وبني العباس، فإن فيهم رجالاً لو متعوا بجسام الأمور والأعمال، سدوا وجوهاً، وكانوا عدة لأخرى»[63].

ويظن بأن ابن القفع وضع الرسالة بناء على طلب من أعمام الخليفة، أولاد علي بن عبد الله[64]، نظراً للعلاقة التي كانت بينهم وبين ابن المقفع، الذي اتهمه الجاحظ بأنه كان وراء خروج عبد الله بن علي على المنصور[65]. وتمضي الرسالة بمهاجمة أصحاب الخليفة وتصفهم بالفساد وضعف الرأي والعجز، وأن واحدهم «غبر عامة دهره صانعاً بعمل بيده، إلى أن تمكن من الأمر، فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار، وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب، ويجري عليه من الرزق الضعف مما يجري على كثير من بني هاشم وغيرهم من سروات قريش»[66].

واهتم المهديّ بأن يحشد حوله جماعة يتيمن بهم[67]، فحمل جماعة من العرب في سنة 160هـ وعددهم خمسمائة من الأنصار ليكونوا له حراساً بالعراق، وأجرى عليهم أرزاقاً سوى أعطياتهم، وأقطعهم عند قدومهم إلى بغداد، قطيعة عرفت باسمهم «قطيعة الأنصار»، كانت قريبة من منازل البرامكة[68].

والملاحظ في الإهتمام بالصحابة والأنصار، أنه محاولة عباسية لإضفاء الطابع

---

(62) تاريخ بغداد، ج 1، ص 86.

(63) مجموعة أعمال ابن المقفع، (بيروت، 1960) مكتبة البيان، دار القاموس الحديث، ص 218.

(64) فاروق عمر، عبد الله بن المقفع في تخليط المؤرخين، بحوث في التاريخ العباسي، (بيروت، 1977)، ص 281.

(65) رسائل، ج 2، ص 202.

(66) رسالة الصحابة، ص 215.

(67) تاريخ بغداد، ج 1، ص 88.

(68) الطبري، ج 8، ص 33، الخطيب البغدادي، ج 1، ص 89.

الإسلامي على نظام حكمهم، وإلغاء فترة الحكم الأموي، ووصل الحكم العباسي بفترة الحكم الإسلامي الأول وجعله جزءاً متمماً له.

وكان في بغداد عند إنشائها ثلاث فرق عربية من مضر ويمن وربيعة[69]. وكثر الأعراب في بغداد في عهد المنصور في حطمة[70]، فأجرى عليهم العباس بن محمد بن علي خبزاً كان يفرق فيهم[71]. وذكر ياقوت الحموي أعراب الحطمة الذين كانوا ينزلون بقطربل وغيرها من قرى سواد بغداد[72].

ويبدو أن بعض جماعات من العرب استقدموا إلى بغداد كالأصحاب والأنصار، وجاء البعض الآخر عن طريق الهجرة إلى العاصمة الجديدة، إذ يذكر اليعقوبي أن العديد من العرب من مدن البصرة والكوفة وواسط قد انتقلوا إلى بغداد، وكان في المهاجرين جلة من وجوه العرب ومياسير تجارهم[73]. وازداد العرب في بغداد حتى كثروا في القرن الرابع، ونزل جماعة منهم بباب حرب[74].

والخلاصة أن المنصور أنشأ عاصمة ملكية في مركز عرف التقاء الحضارات القديمة، وحول المجمع الذي ضم قصر الخليفة وقصور الأمراء ومراكز الإدارة والحرس، نشأت مجمعات سكنية كبرى نتيجة لاستقدام الخليفة للأعداد الكبيرة من العمال، ونزوح كثير من الناس إلى العاصمة الجديدة، ممن تجذبهم أضواء السلطة، والثروة، والشهرة، التي يسبغها البلاط على المتصلين به.

وتميزت هذه المجتمعات السكنية بخاصتين هامتين:

1 ـ قيام ارتباط بين مختلف الأنواع العرقية والدينية، وبين أماكن الإقامة.

2 ـ اكتساب كل مجمع سكني لنوع من الشخصية الخاصة، سواء من حيث المستويات الإدارية التي تمثلت بالأرباع، وإنْ من حيث المستويات المعيشية، حيث ظهرت

---

(69) الطبري، ج 8، ص 38.

(70) تقع على فرسخ واحد من بغداد منسوبة إلى السري بن الحطم أحد القواد، أنظر معجم البلدان، ج 2، ص 273.

(71) البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق الدوري، ق 3، ص 281 ـ 82.

(73) معجم الأدباء، بعناية مارغوليوث (القاهرة 1023) ج 5، ص 190.

(73) البلدان، ص 235.

(74) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 321. (بيروت، 1971).

تجمعات سكنية غلب عليها أصحاب الهيئات الحرفية والمهنية تارة، أو أبناء الدين الواحد والمذهب الواحد تارة أخرى؛ وهو أمر سهل لهذه الهيئات تماسكها ووفر لها مستوى أعلى من الأمان.

الباب الثاني

السياسة والادارة في بغداد

الفصل الرابع: الوضع السياسي

الفصل الخامس: الوضع المالي

القسم الأول: النفقات

القسم الثاني: الواردات.

الفصل السادس: إدارة بغداد

1 ـ الجيش

2 ـ الشرطة

3 ـ السجون

4 ـ البريد والأخبار

5 ـ القضاء والمظالم.

الفصل الرابع

الوضع السياسي

عـرفت بلدان الخلافـة العباسيـة منذ مـطلع القرن الثـالث، سلسلة من الأحداث الاجتماعية والسياسية والعسكـرية، حملت في طيـاتها أسبـاباً لتـدهور السلطة. ومن هـذه الأحداث: حرب الخلافة بين الأمين والمأمون، وحـركة الـزنج، ثم حـركات القـرامطة. وكانت نتيجة هذه الأزمات أن دفعت بالجند التركي إلى صدر السلطة.

كان وصول المتوكل إلى الخلافة (232هـ/828م) على يد وصيف وغـيره من القادة الأتراك بمثابة وضع اليد على كافة مؤسسات الدولة[1]. كما كان سقوط الخليفة نفسه قتيلاً تحت سيـوف الأتراك (247هـ) إنـذاراً واضحاً لكـل من تسول لـه نفسـه الخـروج عـلى إرادتهم، فأصبح الخليفة كالأسير بين أيديهم[2]. فهم يعينونه بقوة سيوف قادتهم وبـرماح جنـودهم[3]، ولهم السـيطرة عـلى ماليـة الـدولـة[4]. ولم يتحمـل المستعـين تعنت الجنـود الأتراك، فحاول الوقوف بوجههم ووضع حد لسيطرتهم، فكان هذا التصدي سبباً لقيـام حرب أهلية جديدة 251هـ/865م، وعم الـدمار في أراضي السـواد، وشلت الزراعـة، ولاقت بغداد مصيراً سيئاً من الدمار، بعد أن لجأ إليها المستعين[5].

انتهت مقـاومة الخلفـاء بمقتل أربعـة منهم وهم المتوكـل والمستعين والمعـتز وآخرهم المهتدي 256هـ/870م، الذي حاول الاستنجاد بـالعامـة ضد تحكم الـترك في مقدرات

---

(1) BOWEN, Ali Ibn ISA The Good Vizir, (Cambridge, 1928) p. 3.

(2) فاروق عمر، الخلافة العباسية في عهد الفوضى العسكرية، . (بغداد، 1973) ص 37 .

(3) ابن الطقطقى، ص 22 .

(4) أنظر الطبري، ج 9، ص 244 ـ 46 .

(5) المصدر نفسه، ج 9، ص 288 .

الخلافة[6]، بعد أن فشل بضرب قادتهم بعضهم ببعض[7].

كان المعتمد، الذي خلف المهتدي، ضعيف الشخصية، مقبلاً على لذاته[8] فغلب عليه أخوه الموفق، حاكم بغداد وعام المشرق، وولي العهد منذ 260هـ، وقام بأمر الملك، وضبط الجيش، على كثرة ما كان يلقى من اعتراضاتهم[9]، وتراجع دور الترك السياسي في هذه الفترة. وساعد في ذلك، سيطرة الرجل القوي موسى بن بغا على القادة الأتراك[10]، وقيام حرب الزنج 255 ـ 270هـ/868 ـ 883م التي هددت مصير الخلافة ودور الأتراك معاً، فانصرف الجند إلى معالجة تلك العاصفة.

أدت حركة الزنج إلى نتائج خطيرة، ولاحظ ذلك المؤرخ المجهول، إذ اعتبرها من أصعب الحوادث التي أضرت بالإسلام[11]. وكشفت هذه الحرب عن خلل النظام الاقتصادي والاجتماعي السائد، والذي سمح لعلي بن محمد باستغلال تلك الفئة الكبرى من العمال الزراعيين[12] الذين استقدموا من شرق إفريقية، وفتحت الباب واسعاً أمام فئات إجتماعية للتعبير عن نقمتها، فشارك بنو المهلب في البصرة في قيادة الثورة ضد السلطة، وانضم إلى الزنج مئات الأكراد والأعراب والصعاليك[13].

وكانت نتائج الحرب شديدة الوطأة على أهل السواد، فتخربت أراضيهم وخسروا وسيلة الانتاج الأساسية، وهاجروا إلى بغداد[14]، وأصيبت الدولة في أعزّ مواردها الاقتصادية، ونزلت بالبلاد شدة عظيمة. وما انتهت الحرب، إلاّ وقد خلّفت وراءها بداية تفكك الامبراطورية، فقد تمكن الصفّاريون من الإستقلال في جنوب إيران، كما تمكن أحمد بن طولون من الاستقلال بمصر[15].

---

(6) العيون والحدائق، ج 4، ص 7 ـ 8.

(7) المسعودي، مروج ج 2، ص 464.

(8) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، بعناية ملورد، (دار الكتاب الجديد، بيروت، 1962)، ص 34.

(9) العيون والحدائق، ص 11، 13، 30.

(10) BOWEN, p. 5.

(11) العيون والحدائق، ج 4، ص 58.

(12) أنظر الطبري، ج 9، ص 314، العيون والحدائق، ج 4، ص 17.

(13) أنظر، ابن الأثير، ج 6، ص 9 ـ 10، عبد الجبار ناجي، تاريخ الطبري مصدراً عن ثورة الزنج، مجلة المورد، (بغداد، 1978) م 7، ع 3، ص 62 ـ 63.

(14) ابن الأثير، ج 6، ص 20، 50.

(15) عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، (مطبعة السريان، بغداد، 1945) ص 115.

ثم كانت خلافة المعتضد (279هـ/892م) الذي سبق أن عمل مع أبيه الموفق، وكان بارعاً في القتال، محبوباً من الجند، فتمكن من ضبطهم، وأخذ ضباطه بلزوم الطريقة المثلى، فصلحت البلدان، وسكنت الفتن وهدأ الهرج[16]، حتى سمي السفاح الثاني، لتجديده ملك بني العباس[17]. وفي أيامه نشطت حركات القرامطة، إلا أنه تمكن من توجيه ضربات قوية لهم في سواد الكوفة، وحاربهم في اليمامة والبحرين[18].

وعادت حركات القرامطة إلى نشاطها في عهد المكتفي 289 ـ 295هـ/ 901 ـ 907م، فظهروا في بادية الشام وسورية[19]، كما ظهروا في العراق في منطقة السماوة، وانضم إليهم جماعة من الأعراب، حتى خرج إليهم الحسين بن حمدان وهزمهم، فتراجعوا إلى منطقة الكوفة، ودخلوا في حرب عصابات طويلة ضد السلطة العباسية[20].

أما بغداد، فقد عانت في القرن الرابع من اضطرابات سياسية وعسكرية، تلقت بعدها ضربة قاسية لسياستها كعاصمة امبراطورية، فتحولت إلى عاصمة لدولة اقتصرت فيها سلطة الخليفة على بغداد وسواد العراق[21].

جابهت عهد المقتدر (295 ـ 320هـ/907 ـ 932م) صعوبات متعددة قامت بدورها في تصديع كيان الدولة، منها: وقوع الخليفة الصغير (13 عاماً) تحت تأثير مجلس وصاية مؤلف من بعض القادة العسكريين شاركت فيه السيدة شغب أم المقتدر، وخاطف، ودستنبويه، أم ولد المعتضد، وأم موسى القهرمانة[22]. ومن المصاعب عودة الصراع بين رجال الإدارة والمدنيين وبين الجند والذي انتهى بعودة الجيش إلى التدخل في

---

(16) **العيون والحدائق**، ج 4، ص 40 ـ 62، 75، **المنتظم**، ج 5، ص 23، المسعودي، ج 2، ص 495.

(17) ابن الكازروني، **مختصر التاريخ**، بعناية مصطفى جواد وسالم الألوسي (بغداد، 1970) ص 164 ـ 65، **نشوار المحاضرة**، ج 1، ص 75.

(18) **العيون والحدائق**، ج 4 ص 100، الطبري، ج 10، ص 86.

(19) ابن الأثير، ج 6، ص 104.

(20) أنظر، ثابت بن سنان، **تاريخ أخبار القرامطة**، بعناية سهيل زكار، (دار الأمانة، بيروت، 1971) ص 23 ـ 24، وانظر حول نظرية أبي سعيد الجنابي القرمطي في حرب العصابات وتطبيقها، **نشوار المحاضرة**، ط بيروت، ج 2، ص 105 ـ 106.

(21) المنتظم، ج 6 ص 288.

(22) انظر الصابي، **الوزراء**، ص 119 وأيضاً
Sourdel, D., le Vizirat Abbaside, (Damas, 1960) p. 388.

السياسة، وأخيراً تجدد عمليات القرامطة التي انتشرت وزادت حتى اقتربت من بغداد[23].

قاد علي بن الفرات الوزارة بعد فشل مؤامرة خلع المقتدر وتنصيب ابن المعتز 296هـ. وقد اختاره جماعة الحكم للوزارة التي كان يمارس صلاحياتها فعلاً، ولم يكن تعيينه إلا تكريساً لأمر واقع[24]. ولم تكن شخصية ابن الفرات القوية وسيطرته على السلطة لترضي الجند، فاصطدم بنصر القشوري، وصرف سوسن الحاجب، واتهمه بالتعاون مع ابن المعتز[25]، وساءت علاقته بمؤنس الذي أخذت زعامته تترسخ منذ مشاركته الفعالة في القضاء على ابن المعتز، واشتد الصراع بين القائد والوزير حتى أقبل مؤنس على زيادة رجاله من الفرسان، فأثار مخاوف ابن الفرات حتى ذهب إلى السلام على مؤنس بعد عودته من منفاه[27]. ولم تلبث الفرصة أن أتيحت أمام القادة للنيل من ابن الفرات؛ فقد فتك أبو طاهر القرمطي بالحجاج البغداديين سنة 312هـ/924م، وخرجت المظاهرات في شوارع بغداد تندد بابن الفرات وتتهمه بالتقصير، وانضم إليها نساء الضحايا ونساء المنكوبين على أيدي ابن الفرات وولده المحسن. عندها وقف زعماء الجند وطالبوا بتسليمهم الوزير. ولم يستطع المقتدر إلا قبول الطلب، بعد أن أدرك أن بغداد كانت على أبواب تمرد يهدد بإنهاء خلافته[28]، فسلمهم الوزير الذي قضي عليه في سنة 312هـ، بعد أن تولى الوزارة ثلاث مرات، كانت الأولى بين 296 ـ 299، والثانية بين 304 ـ 306هـ والمرة الأخيرة بين 310 ـ 312هـ.

وعرف عهد المقتدر شخصية إدارية أخرى، هو علي بن عيسى بن الجراح، الذي غلب على سياسته «التدين والتصوف والعفة عن المال»[29] كما وصفه ابن الخصيبي أحد وزراء المقتدر فيما بعد. وقد تولى علي بن عيسى الوزارة لأول مرة سنة 301هـ بناء لطلب مؤنس الذي رغب في إبعاد ابن الفرات[30].

---

(23) انظر الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص 193.

(24) Sourdel, op, cit. p. 388.

(25) الصابي، الوزراء، ص 54 ـ 56 ـ 102، 104.

(26) الصابي، رسوم دار الخلافة، ص 94.

(27) ابن الأثير، ط. صادر، ج 8، ص 52، 53، 147، 148.

(28) عريب، صلة تاريخ الطبري، بعناية أبو الفضل ابراهيم (القاهرة، 1977، دار المعارف) ص 83، 105.

(29) الصابي، الوزراء، ص 98.

(30) مسكويه، تجارب الأمم ج 1، ص 26.

رفق علي بن عيسى بالرعية، وعمل على عمارة الأرض في النواحي المختلفة، وأزال كل ظلم، فامتلأت قلوب الناس هيبة[31]، وخفض النفقات الإدارية، فكانت سياسة مثار غضب الخاصة، فصرف من الوزارة بسعي من أم موسى القهرمانة عند المقتدر وأمه، إلاّ أنه استُدْعيَ للقيام بأعمال الوزارة 306هـ/918م عند ظهور عجز حامد بن العباس الوزير، فتسلم إدارة البلاد فيما بقي الاسم لحامد[32].

استوزر علي بن عيسى للمرة الثانية سنة 315هـ/927م بإشارة من مؤنس، وخرجت بغداد لاستقبال الوزير بمظاهر الحفاوة[33]. والواقع أن تأثير علي بن عيسى بقي مستمراًوهو خارج الوزارة، حيث كان له الإشراف على الأعمال والدواوين، بناء على رغبة المقتدر الذي كان يثق به، بينماكان مؤنس يطالب بتعيين صنائعه، فتكون الوزارة لهم بالاسم، ويكون لمرشح الخليفة تدبير الأمور[34]. ويعلق الدوري على هذا الوضع فيقول: تضاءلت هيبة الوزراء بعد مقتل ابن الفرات، إذ لم تبق شخصية قوية تجابه مؤنساً، وصار يتدخل بشؤون الدولة ويتطاول على الخليفة، واشتكى الخصيبي الوزير تدخلات الجيش، فقوبل بالتهديد بالقتل عندما طالبه الجند بأرزاقهم[35].

وفي أثناء خلافته الطويلة خلع المقتدر مرتين: الأولى، بعد استخلافه بأربعة أشهر 296هـ، ونصب عبد الله بن المعتز، واحتجوا في خلعه لصغر سنه (13 سنة). ثم أُعيد المقتدر إلى الخلافة بعد يوم واحد. والمرة الثانية بعد إحدى وعشرين سنة من خلافته، إذ اجتمع القواد والجند مع مؤنس الخادم ونازوك على خلعه، وأحضروا أخاه محمد بن المعتضد ونصبوه للأمر ولقبوه «القاهر بالله» 317هـ، الذي بقي في الخلافة يومين، وفي اليوم الثالث اختلف الجند، ووثبت طائفة منهم على نازوك وعبد الله بن حمدان «أبي الهيجاء» فقتلوهما، وأعيد المقتدر إلى الخلافة، وجددت له البيعة. ولقي المقتدر حتفه سنة 320هـ بباب الشماسية، وقد خرج لقتال مؤنس[36]. وخلفه أخوه القاهر الذي لم يلبث أن خلع وسملت عيناه في 322هـ، بعد ثورة الجند الذين أحاطوا بقصره واعتقلوه[37].

---

(31) الصابي، الوزراء، ص 209.
(32) ابن الأثير، ط. صادر، ج 8، ص 98 ـ 111، 112.
(33) المنتظم، ج 6، ص 205.
(34) فاروق عمر، الخلافة في عصر الفوضى العسكرية، ص 99 ـ 100.
(35) دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص 208.
(36) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 172 ـ 73.
(37) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 102.

جاء الجند الأتراك من ساجية وحُجَريّة بالراضي، أحد أبناء المقتدر، ووضعوه على كرسي الخلافة. ووجد الراضي نفسه خليفة في امبراطورية تتهاوى أمام أطماع الأمراء المتغلبين على ولاياتهم[38]، فانقطع ما كان يرد إلى الخلافة في بغداد من خراجها، ووجد الجنود يضجون ويعيثون ويطلبون الأموال غير المتوفرة. وقد صور الراضي نفسه وضع الخلافة وعاصمتها بشكل مأساوي إذ قال: «إن هذا الأمر قد أفسد من قبلي، وأدخلني فيه قوم بغير شهوتي؛ فسلمت إلى قوم يتسحبون عليّ، ويجلسون في اليوم مرات، ويقصدونني ليلاً، ويريد كل واحد منهم أن أخصه دون صاحبه، وأن يكون له بيت مال خاص، وكنت أتوقى الدماء في تركي الحيلة عليهم. . .». وقال أيضاً: «كانت بغداد دار المملكة حين كان في بيت المال عشرة آلاف ألف دينار في أيام المعتضد، وضعف ذلك في أيام المكتفي، فأما ولا مال بها، فهي كسائر البلدان»[39].

أمام هذا الواقع المتردي والذي اقتصرت فيه سلطة الخلافة على بغداد وبعض السواد[40]، خضع الراضي إلى محمد بن رائق، واستدعاه من واسط، وقلده الإمارة وقيادة الجيش، وجعله أمير الأمراء سنة 324هـ[41]. وكان ابن رائق قد تقدم من الخليفة بعرض يقضي بأن يقوم الأمير بالنفقات وأرزاق الجند ببغداد. وكان تسليم الراضي لابن رائق بجميع سلطات الخلافة[42] بمثابة إنهاء رسمي لحق الخليفة في ممارسة سلطاته الإدارية والمالية، فضلاً عن العسكرية التي كان قد فقدها الخلفاء من قبل.

بقي منصب «أمير الأمراء» مستمراً في الدولة العباسية حتى استيلاء البويهيين على بغداد سنة 334هـ/945م، إذ أضيف إلى هذا للقب ألقاب أخرى. وقد تعاقب على إمرة الأمراء في بغداد بين 324 ـ 334هـ/935 ـ 945م عدّة من القادة. فقد انتزع بجكم المنصب من ابن رائق في سنة 326هـ. وكان بجكم أحد قادة الراضي، انضم إلى ابن رائق في قتاله ضد الحجرية سنة 325هـ/936م فكوفىء على ذلك بتقليده منصب صاحب شرطة بغداد[43]. وقتل بجكم في سنة 329هـ بالقرب من واسط.

---

(38) انظر: أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، (القاهرة، 1966)، ص 269 ـ 70، أيضاً ابن الأثير، ط. صادر، ج 8، ص 323، ط. القاهرة، ج 6، ص 254، 255.

(39) الصولي، أخبار الراضي والمتقي، ص 41، 115.

(40) المنتظم، ج 6، ص 288.

(41) مسكويه، ج 1، ص 351.

(42) ابن الأثير، ج 6، ص 254.

(43) الصولي، أخبار الراضي، ص 86، 87، أيضاً، مسكويه، ج 1، ص 365.

وفي سنة 329هـ/940م شن البريدي، المسيطر على البصرة، هجوماً على بغداد فدخلها وقضى بها شهراً، إلاّ أن أحد قادته، كورتكين الديلمي، تزعم تمرداً للديلم في جند البريدي، وتمكن في النهاية من إخراج البريديين، فما كان من المتقي إلاّ أن قلده إمرة الأمراء[44]. وانتهت إمارة كورتكين بعودة ابن رائق إلى بغداد واستيلائه على إمارتها من جديد سنة 329هـ[45].

وفي سنة 330 أجبر البريديون الخليفة وابن رائق على الفرار من بغداد، فلحق بناصر الدولة الحمداني في الموصل، الذي دبّر اغتيال ابن رائق، فما كان من المتقي إلاّ أن قلد الحسن بن حمدان إمرة الأمراء سنة 330هـ/941م[46].

ولم يلبث أن ساءت علاقات ناصر الدولة بالخليفة، وتضايق من قلة الأموال، فغادر الأمير بغداد إلى الموصل سنة 331 هـ، فخلفه توزون التركي، حيث بقي في المنصب حتى وفاته 334 هـ.

بعد ذلك اجتمع الجيش على عقد الرياسة لابن شيرازد، الذي لم يبق في الإمارة أكثر من أربعة أشهر[47]، انتهت بدخول معز الدولة البويهي إلى بغداد.

نشأ البويهيون في بلاد الديلم فيما يلي بحر قزوين[48]. ويبدو أن الدور البويهي المتأخر في التاريخ الإسلامي، كان بسبب تأخر انتشار الإسلام في بلاد الديلم، والذي تم على أيدي الدعاة الزيدية[49]، الذي نشطوا في نهاية القرن الثالث. وفي مطلع القرن الرابع كان الكثير من الديلم في جيش الحسن الأطروش، الذي كان يقاتل ضد العباسيين[50].

ويبدو أن ابن أبي الساج كان الوحيد من عمال المقتدر الذي أدرك خطر الديلم على السلطة العباسية، فكتب إلى المقتدر سنة 317هـ/929م يخبره بقوتهم، وينذره من

---

(44) الصولي، ص 203، 204، مسكويه، تجارب، ج 2، ص 17.

(45) الصولي، ص 206 ـ 209.

(46) مسكويه، ج 2، ص 28. والبريدي هو أبو عبد الله أحمد بن محمد.

(47) الصولي، ص 240 ـ 241، مسكويه، ج 2، ص 42، 81، 82، 84.

(48) أبو إسحق الصابي، المنتزع من كتاب التاجي، بعناية محمد حسن الزبيدي، (بغداد، 1977)، ص 29. ومنه طبعة ، المعهد الألماني في بيروت في أخبار الزيدية ،

(49) نسبة إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. قتل في عهد هشام بن عبد الملك 121 أو 122 هـ.

(50) المنتزع،ص 45، 46، 50، 51.

أخطار توسعهم الذي يهدد بزوال المملكة[51]. ولم تمض إلاّ مدة يسيرة، حتى بدأت جيوش الديلم تغزو منطقة أذربيجان.

مرت فترة اصطدم فيها الديلم بالداعي الزيدي القاسم بن الحسن، كما انقسم الديلم على أنفسهم، فالتحق بعضهم بجيش السامانيين، الذي كان يقود الحرب ضد الزيدية؛ وكان أبو شجاع بويه بن فناخسرو بينهم[52]. وبرز من بين قادة الديلم مرداويج الجيلي الذي استولى على طبرستان والري، والجبل[53]. وانضم علي ابن بويه والحسن بن بويه إلى مرداويج، الذي قبلهما وأكرمهما، وقلّد علي بن بويه الكرج، فأظهر كفاية إدارية، وأحسن معاملة أهلها، مما أثار مخاوف مرداويج[54]، إلا أن هذا قتل على أيدي الأتراك من جنده[55]، فسار هؤلاء إلى علي بن بويه (عماد الدولة فيما بعد) وكان قد ملك فارس، فقوي أمره وعظم شأنه[56]؛ وبقي أحمد بن بويه من غير ولاية، فاقترح عليه أخواه أن يسير إلى كرمان، فاستولى عليها سنة 324هـ[57]. وفي سنة 326هـ سار إلى الأهواز بعد أن أقنعه أبو عبد الله البريدي بذلك، واستولى عليها. ومن الأهواز اتجه أبو الحسين أحمد بن بويه إلى بغداد، فدخلها في 11 جمادي الآخرة سنة 334هـ بدون قتال، ودخل على الخليفة المستكفي وبايعه، فلقبه المستكفي بـ«معز الدولة» ولقب أخاه علياً بـ«عماد الدولة» ولقب الحسن بـ«ركن الدولة»[58]. ومنذ هذا التاريخ أصبحت الإمارة في بني بويه يتوارثونها.

استأثر معز الدولة بالسلطة من دون الخليفة، الذي لم يبق له من الأمر شيء، سوى ذكر اسمه في الخطبة، ونقشه على السكة، وحددت له إقطاعات يعيش منها[59]. وتسلم عمال معز الدولة أعمال العراق ولاية وإقطاعاً، وازدادت سلطة الخلفاء إدباراً حتى قال ابن الأثير: «ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة، وقد كانوا يراجعون ويأخذون أمرهم فيما يفعل، والحرمة قائمة بعض الشيء، فلما كانت أيام معز الدولة، زال ذلك جميعه، بحيث انّ

(51) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 322، 23.
(52) المنتزع، ص 64، 59.
(53) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 324.
(54) مسكويه، ج 1، ص 275 ـ 276.
(55) المصدر نفسه، ج 1، ص 161 ـ 62.
(56) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 325.
(57) ابن الأثير الكامل، ج 6، ص 255 ـ 56.
(58) المصدر نفسه، ص 314.
(59) المكان نفسه.

الخليفة لم يبق له وزير، وإنما كاتب يدير إقطاعاته وإخراجاته لا غير. وكان من أعظم الأسباب في ذلك، أن الديلم كانوا يتشيعون ويغالون في التشيع، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة، وأخذوها من مستحقيها، فلم يكن عندهم باعث ديني على الطاعة»[60].

ساد اعتقاد، بين رجال دولة العباسيين، أن تلك نهاية دولتهم[61]، إلا أن ابن الأثير يذكر سبب عزوف معز الدولة عن نقل الخلافة إلى العلويين، وهو أن بعض خواصه أشار عليه بعدم فعل ذلك، بل عليه الإحتفاظ بالسلطة، لأن نقل الخلافة إلى علوي يجعل معز الدولة في موضع التابع[62].

لكننا إذا ما تجاوزنا مناقشة هذه الرواية، وعدنا قليلاً إلى الوراء، فإننا نرى أن علاقات البويهيين والديلم لم تكن جيدة مع دعاة الزيدية، فقد قام الحسن بن القاسم بتصفية سبعة من قادة الديلم، مما حمل الباقين على الفرار وتشكيل جيوش خاصة بهم. وعلى المستوى العقائدي، فإن عقيدة البويهيين اقتربت من فرقة السليمانية، (نسبة إلى سليمان بن جرير) الذي كان يقول بأن «الإمامة شورى فيما بين الخلق» و«الإمامة من مصالح الدين، ليس يحتاج إليها لمعرفة الله تعالى وتوحيده، فإن ذلك حاصل بالعقل لكنها يحتاج إليها لتسييد أمور الناس وسياسة الدولة»[63] كما أن دور الخليفة كان قد انتهى منذ 324هـ، كذلك فإن أراضي الامبراطورية الإسلامية كانت قد عرفت تغلب بعض الأمراء على المقاطعات، وقيام الأسر بتوارث حكم المقاطعات. من هنا فأن معز الدولة لم يكن بحاجة لأن يلغي الخلافة العباسية التي لم يكن لها من الأمر شيء. فضلاً عن أن تغيير الخلافة، سوف يلقى معارضة السامانيين والغزنويين، وهو أمر كان من مصلحة البويهيين تفاديه، وبالأخص في مطلع حكمهم والاكتفاء بالسيطرة السياسية، والسماح للشيعة بممارسة نشاطاتهم الدعائية، مما أفسح لبروز أهمية المجتهدين كالصاحب بن عباد، والقاضي عبد الجبار. وهذا ما سمح باستقرار الخلفاء، فقد بقي المطيع مدة 29 سنة (334 ـ 363هـ/ 845 ـ 973م)، وبقي الطائع 18 سنة (263 ـ 381هـ/ 945 ـ 991م) والقادر 41 سنة (381 ـ 422هـ/ 945 ـ 973م)، ومرد ذلك إلى قوة أمير

---

(60) المصدر نفسه، ص 315.

(61) العيون والحدائق، ج 4، ص 437.

(62) الكامل في التاريخ، ج 6 ص 315.

(63) أنظر، المنتزع، ص 64.

الأمراء البويهي الذي اتخذ لقب ملك، وأصبح يرسل قراراته إلى الخليفة ليوقعها[64].

وقد احتج المطيع الذي طلب منه البويهيون مالاً للجهاد ضد الروم فقال: «الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي، وإليّ التدبير في الأموال والرجال، وأما الآن وليس لي منها إلا القوت القاصر على كفاتي في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف، فما يلزمني من غزو ولا حجّ ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه، وإنما لكم حتى هذا الإسم الذي تخطبون به على منابركم تسكّنون به رعاياكم، فإن أحببتم أن أعتزل، اعتزلت هذا المقدار أيضاً وتركتكم والأمر كله»[65]. ويبدو أن البويهيين قد طمعوا بأموال المطيع، فاحتجوا بأنهم يريدون مقاتلة الروم. وهذا ما ثبت بعد ذلك من مصادرة بختيار للمطيع، فشدد عليه حتى باع قماشه وحمل 400 ألف درهم، وشاع في الناس أن الخليفة صودر. وزاد تسلط بني بويه على الدولة، حتى إن الطائع عقد لعضد الدولة لواءين، واحد منهما على رسم ولاة العهد، ولم يعقد هذا اللواء لغيره من قبل. وفي سنة 368هـ/978م أمر الطائع أن تضرب الدبادب على باب عضد الدولة في أوقات الصبح والمغرب والعشاء، وأن يخطب له على منابر بغداد[66]. وهكذا انتهى الحكم البهويهي للعراق إلى القضاء على السلطة السياسية للخليفة، حتى لم يبق للعباسيين سوى المهابة الدينية التي «هي أمر اعتقادي لا ملك دنيوي»[67].

---

(64) محمود والشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص 519 وما بعدها. أيضاً، فاروق عمر، الخلافة في عصر الفوضى العسكرية، ص 83.

(65) مسكويه، ج 2، ص 307. السيوطي، تاريخ الخلفاء، (بيروت، د.ت، دار الثقافة) ص 434.

(66) السيوطي، ص 434، 438، 439.

(67) البيروني، الآثار الباقية، بعناية ادوارد سخاو، (ليبزغ، 1923) ص 132.

الفصل الخامس

الوضع المالي

القسم الأول: النفقات

أورد الصابي لائحة بالنفقات الشهرية للقصر العباسي في بغداد في عهد المعتضد (279 ـ 289هـ) وقد بلغت قيمتها سبعة آلاف دينار وهي جميعها نفقات القصر والبلاط ونفقات موظفي الإدارة المركزية، وتضمنت القليل من مخصصات القصر للهاشميين وخطباء المساجد وموظفيها ونفقات البيمارستان الصاعدي من أجور أطباء وموظفين وأثمان الأطعمة والأدوية[1].

وتضمنت لائحة للنفقات وضعت في إدارة علي بن عيسى 306هـ، نفقات إضافية لم يرد ذكرها في قائمة الصابي، وهذه النفقات هي نفقات الحرمين وطريقهما، ونفقات الثغور، ورواتب القضاة في الممالك، ورواتب ولاة الحسبة والمظالم في جميع البلاد، ورواتب أصحاب البريد، وقد بلغت مخصصات هذه النفقات 977293 ديناراً سنوياً[2].

هذا فيما قدرت واردات الدولة في قائمة علي بن عيسى لعام 306هـ، بما يزيد عن 14 مليوناً ونصف المليون دينار[3]. وفي أي حال، إذا ما افترضنا أن الظروف قد بقيت على حالها، فسيكون هناك وفر سنوي لا يقل عن عشرة ملايين دينار. ولكن الواقع أثبت غير ذلك، فقد اضطر المقتدر سنة 317هـ لأن يبيع ضياعه بأبخس الأثمان[4]، هذا فيما

(1) الوزراء، ص 15 ـ 26.

(2) أنظر، جرجي زيدان، التمدن الإسلامي، (القاهرة، د.ت. دار الهلال)، ج 2، ص 117.

(3) المرجع نفسه، ص 116.

(4) مسكويه، ج 1، ص 200 ـ 201.

«أتلف» نيفاً وسبعين مليون دينار، سوى ما أنفقه في موضعه وأخرجه في وجوهه. ويفترض مسكويه في المقتدر قوة شخصيتي المعتضد والمكتفي، وقدرتهما على ضبط المملكة وأموالها[5]. إلا أن مسكويه نفسه يقول في موضع آخر: إن المقتدر أقبل على لذاته[6]، كما وأن الظروف السياسية لم تكن كما كانت عليه في نهاية القرن الثالث. ويمكننا أن نحصر أسباب تدهور وضع الدولة المالي بعدة نقاط أهمها:

1 ـ سوء تصرفات رجال الإدارة: اتهم مسكويه أبا الحسن بن الفرات بإنفاق الأموال والإفراط في التبذير حتى أتلفها[7]. واتهم ابن الفرات بأنه كان يقبض مبالغ من حق بيت المال، فلا تدخل في الواردات، كما اتهم بأنه يستولي على أموال المصادرات فلا تدخل في حسابات بيت المال[8].

ويبدو أن الإجتراء على أموال الدولة كان في طبع الموظفين الذين كانوا يأخذون الأموال لأنفسهم ويقيدونها في بند «ما يحمل إلى الخليفة». ويذكر ابن مقلة أن ابن الفرات أضاف على مال بيعة المقتدر 296هـ مبلغ 700 ألف دينار نقلها إلى داره[9]. ولم يكتف الوزراء بذلك، فقد خصهم الخليفة بإقطاعات ورواتب، وبلغ إقطاع الوزير في عهد المقتدر 170 ألف دينار[10]، ويحصلون معها على خلع بعشرين ألف دينار، ويخصون بدار بفرشها وآلاتها، ويعطون رواتب بمقدار خمسة آلاف دينار. وأعطى الخاقاني ولديه مخصصاً شهرياً قيمته 1500 دينار[11]. وكان أحمد بن العباس أخو أم موسى القهرمانة، يرتفق لنفسه بسبعة آلاف دينار شهرياً من بيت المال[12].

واستشرى الفساد الإداري، فقد قلد ابن الفرات طالب وظيفة، غلات طساسيج يختارها من السواد، وقال له: إن أردت جميع غلات السواد كان لك مبذولاً[13]. وذكر ابن قرابة للمقتدر وجوه اقتناص أموال الدولة التي كان يلجأ إليها الوزراء والموظفون،

---

(5) أنظر، تجارب الأمم، ج 1، ص 238 ـ 241.
(6) المصدر نفسه، ج 1، ص 13.
(7) المكان نفسه.
(8) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 32، ج 8، ص 38.
(9) الصابي، الوزراء، ص 133.
(10) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 51.
(11) الصابي، الوزراء، ص 285، 290، 335، 336.
(12) عريب، صلة الطبري، (القاهرة 1939، ط الاستقامة) ص 41. ط. المعارف، ص 57.
(13) الصابي، الوزراء، 282.

منها: تسجيل أرزاق قوم لا يحضرون الدواوين، وتسبيبات بأسماء قوم وهميين، وإطلاق أموال للغلمان والوكلاء في دار الخلافة والحاشية برسم الفقهاء والكتاب، وما كان يطلق لهم من الورق والقراطيس الأموال الكثيرة، ولا يشترى إلا ببعضه مما يحتاج إليه[14].

2 ـ **إسراف القصر وحاشيته في الإنفاق على حاجياتهم وأهوائهم**: فقد ذكر أن المقتدر ختن أولاده سنة 302هـ ونثر عليهم 5 آلاف دينار و100 ألف درهم، وبلغت نفقة الختان 600 ألف دينار[15]، وسكر المقتدر مرة فاستدعى الأموال، وحملت إليه بدر وزعها على الجواري والنساء[16]. ووزع الراضي (322هـ)، في أيام فقر الخزينة، على ندمائه وزن آجرّهم التي يجلسون عليها فضة وذهباً[17]. وكانت شغب والدة المقتدر متلافة للمال، فقد استخدمت ما في خزائن الخلافة من الغالية والمسك والعنبر ما قيمته آلاف الدنانير، لتصنع منها وحلاً تلوّث به هي وجواريها أقدامهن، كما يجري مع نساء العامة اللواتي تتلوث أقدامهن العارية بوحول الشاطىء وهن يملأن جرارهن من مياه النهر[18]، واستخدمت السيدة أيضاً ألف شقة قماش غالي الثمن، في صنع أزرار كحبات القطن، ورشت عليها الطيوب لتحرقها يوم النيروز[19]. وهناك الكثير من أخبار بذخ القصر والحاشية في شراء الجواهر والجواري، أو الهبات التي كانوا يوزعونها الى أصحابهم.

3 ـ **شحّ موارد الدولة نتيجة تحكم الضامنين والمتغلبين في المقاطعات**. فقد بدأت سياسة التضمين منذ خلافة المعتضد الذي وجد أنه بحاجة إلى مبلغ 7 آلاف دينار يومياً لتلبية الحاجات اليومية للخلافة في بغداد، فاقترح عليه ابنا الفرات، أبو العباس وأبو الحسن، تضمين بعض مناطق السواد، على أن للمتضمن وارداتها، مقابل أن يقوم بتأمين المبلغ إلى الخليفة[20].

ومن التضمينات ما كرسه ضعف الدولة، إذ لجأ الكثير من الولاة والقادة إلى ضمان الأراضي من الخليفة، بعد أن يكونوا قد أحكموا سلطتهم عليها، فيضطر الخليفة

---

(14) مسكويه، ج 1، ص 213.
(15) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 15.
(16) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 289.
(17) المصدر نفسه، ص 298 ـ 99.
(18) المصدر نفسه، ج 1، ص 292.
(19) المصدر نفسه، ج 1 ص 293.
(20) الصابي، الوزراء، ص 13 ـ 14.

لإقرارهم على ما تضمنوا. وكان ما يقدمه الولاة عادة أقل بكثير من خراج ما يستولون عليه. ففي سنة 296هـ ضمن ابن أبي الساج أرمينية وأذربيجان مقابل 120 ألف دينار[21] وهو ما يوازي 1/10 دخلها تقريباً، والذي بلغ في عهد المأمون 17 مليون درهم[22]. وكان هارون بن خمارويه قد ضمن مصر والشام من المعتضد سنة 286هـ بمبلغ 450 ألف دينار[23]، بينما يغلّ خراجها حسب قائمة علي بن عيسى 306هـ حوالي 2,7 مليون دينار[24]. وفي سنة 306هـ تقلد حامد بن العباس الوزير أعمال الخراج والضياع الخاصة والمستحدثة الفراتية بالسواد والأهواز وإصبهان، فارتفعت الأسعار وهاجت بغداد[25].

لاحظ الصابي دور الضمان في تفسخ الدولة، فقال: إن عقود الضمان صارت تعقد لـ«أصحاب الحروب»، فيؤدي الأمر في مطالبتهم بالأموال، أن يلجأوا إلى «العصيان وخلع الطاعة»[26]. وقد أثرى الضامنون ثراء فاحشاً؛ إلا أن العسكريين كانوا يحصلون على أرباح مضاعفة عن المدنيين. فقد خلف الراسبي متقلد جنديسابور سنة 301هـ/913م مليون دينار من الذهب والفضة والثروة الضخمة من الملابس[27]. وكان حامد يعيش حياة بذخ فاحش، وأتحف المقتدر سنة 310 هـ/ 922 م بهدية ثمينة لإطلاق يده وإعادة الضمان إليه بعد إلغائه سنة 309هـ؛ فيذكر ابن الجوزي أن حامداً أهدى البستان المعروف بالناعورة، بعد أن أنفق على بنائه ألف دينار، وعلق على المجالس التي فيها الستائر باللبود الخراسانية[28]. أما يعقوب بن الليث الصفاري، فقد خلف في بيت ماله خمسين مليون درهم ومليون دينار[29].

وقد تأكدت هذه السياسة في عهود الخلفاء الذين أعقبوا المقتدر، فتحكم البريدي، في أعمال واسط، وضُمّنت له بمبلغ 13 ألف درهم[30]، وكانت وارداتها بلغت في قائمة

---

(21) ابن الأثير، ج 6، ص 135.

(22) أنظر، جرجي زيدان، التمدن الإسلامي، ج 2، ص 59.

(23) العيون والحدائق، ج 4، ص 91.

(24) زيدان، المرجع السابق، ج 2، ص 113 ـ 14.

(25) مسكويه، ج 1، ص 59 ـ 60 ، 74.

(26) الوزراء، ص 82.

(27) عريب، ط. الاستقامة، ص 31، ط دار المعارف، ص 45.

(28) المنتظم ج 6، ص 159.

(29) المصدر نفسه، ج 5، ص 52.

(30) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 50، 79.

علي بن عيسى أكثر من 310 آلاف دينار[31]. وفي سنة 322هـ/933م، فتح عماد الدولة البويهي إقليم فارس، وطلب ضماناً من الخليفة على أن يدفع إليه مليون درهم ثم لم يدفعها، فيما بلغ خراجه حسب قائمة علي بن عيسى 1,900 مليون دينار[32]. وفي سنة 324هـ/935م دخل معز الدولة البويهي الأهواز واستولى عليها، فخسرت الدولة وارداتها[33] التي بلغ خراجها في سنة 305هـ 16,8، وواردات الضياع الخاصة بما يوازي ذلك[34]. ومنذ مطلع عهد الراضي (322هـ) كان إقليم المشرق قد خرج عن سلطة الدولة العباسية واستولى عليه المتغلبون، ما عدا بعض النواحي وهي الدينور وماسبذان ومهرجانقذق وحلوان[35].

4 ـ وكانت النفقات العسكرية من أسباب الأزمة المالية. فقد أطلق ابن الفرات «مال البيعة» للجند عند خلافة المقتدر 295هـ ثم 296هـ بعد أن خُلع وأعيد[36]، وأعطي الفرسان رزق ثلاثة أشهر، والرجالة ستة أشهر[37] لدورهم في إعادة الخليفة. وفي سنة 317هـ خلع المقتدر ونصب القاهر، ثم أعيد المقتدر، مما استوجب مال البيعة من جديد، فنفدت الأموال في أعطياتهم حتى بيعت الآلات والكسوة[38]، واضطر المقتدر إلى بيع بعض ضياعه بأبخس الأثمان[39]، وأعطى الرجالة ست نوب وزيادة دينار على مرتبهم، وأعطى الغلمان أرزاق أربعة أشهر، ووعد لسائر الجند بأرزاق أربعة أشهر وزيادة خمسة دنانير لكل واحد منهم؛ واجتهد في الوفاء لهم بما وعد، فصرف أواني الذهب والفضة، ثم أعجلوه عن صرفها، فكان يزنها لهم مكان الدنانير والدراهم، ولم يف المال بالمطلوب حتى أمر بارتجاع ما أقطعه للناس من الأموال والضياع والمستغلات، وأفرد لها ديواناً سمي «ديوان المرتجعة»، وعسف الجند بالمطالبة بالمال[40].

ومنذ القرن الرابع ازداد الجند في طلب الأموال، مما ساهم في دفع الخزينة نحو

---

(31) زيدان، ج 2، ص 111.
(32) ابن الأثير، ج 6، ص 235.
(33) العيون والحدائق، ج 4، ص 294.
(34) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 35.
(35) العيون والحدائق، ج 4، ص 280.
(36) مسكويه، ج 1، ص 8.
(37) عريب، ط. المعارف، ص 28.
(38) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 62).
(39) مسكويه، ج 1، ص 200 ـ 201.
(40) عريب، ط. المعارف، ص 124 ـ 125.

الافلاس. فلجأ الوزراء إلى تغطية النفقات من بيت مال الخاصة، حتى بلغ ما فيه سنة 315هـ خمسمائة ألف دينار فقط[41]، من جملة ما ورثه المقتدر والبالغ 1,5 مليون دينار[42]. وكانت نفقات الجند عالية، فقد اشتكى علي بن عيسى من أنه يحتاج في مطلع كل شهر إلى 30 ألف دينار قيمة أرزاق الجند الرجالة لا يتوفر لديه منها شيء[43].

حاول علي بن عيسى في وزارته الأولى أن يوازن بين دخل الخلافة ونفقاتها فعمد إلى سياسة الإقتصاد في النفقات وزيادة الدخل الزراعي، وضبط الواردات. فأسقط من أرزاق رجال الإدارة والجند، وأخذ من ارتفاع الضياع الملك (الخاصة بالخليفة) والاقطاع، ليتم به العجز، حتى اعتدلت الحال، واقتصر بالغلمان على جاري عشرة أشهر في السنة وأسقط من الجند من لا يحمل السلاح، ومن أولاد المرتزقة من هم في المهود، والذين أثبت آباؤهم أسماءهم[43]. ولم ترض سياسة علي بن عيسى هذه أحداً من رجال القصر، وكثرت السعاية به، ولجأ الجند سنة 304هـ إلى الشغب ليحصلوا على زيادة رواتبهم، فكثرت النفقات وتضاعفت الإستحقاقات، وأصيبت غلات السنة، وخاف الوزير العاقبة فاستقال[45].

وكانت تلبية طلبات الجند في زيادة أرزاقهم من معوقات إصلاح النظام المالي والإداري، فقد تأخر ابن الفرات سنة 306هـ بإطلاق أرزاق الفرسان، واحتج بقلة الأموال، بسبب ما أخرج منها في محاربة ابن أبي الساج، وما اقتطعه هذا من أملاك الخلافة، فأقيل ابن الفرات من الوزارة[46]. وبلغ ما كلفته الحملة ضد القرامطة سنة 315هـ 70 ألف دينار، وأكثر من 20 ألف قتيل، ما بين فارس وراجل، ومائة كرّ دقيق وألف كرّ شعير صادرها الهجري القرمطي. وقد أثارت هذه الحملة الفاشلة هياج أهل بغداد، واقترح تجهيز حملة أخرى وتمويلها من بيت مال الخاصة، ومن أموال أم المقتدر، التي أخرجت 500 ألف دينار، وأضيف إليها 300 ألف دينار من خزينة المقتدر[47]؛ على أن الرجالة اغتنموا الفرصة وحصلوا زيادة على بلغت 240 ألف دينار[48]. وتفاقم عجز

---

(41) أنظر، مسكويه، ج 1، ص 172، 182.

(42) المنتظم، ج 6، ص 67.

(43) نشوار المحاضرة، ج 7، ص 41.

(44) الوزراء، ص 306، 340، أيضاً ابن الأثير، ط. صادر، ج 8، ص 165.

(45) الصابي، الوزراء، ص 306 ـ 307.

(46) ابن الأثير، ط. صادر، ج 8، ص 110.

(47) المنتظم، ج 6، ص 208 ـ 209.

(48) نشوار المحاضرة، ص340.

الخزينة عاماً بعد عام، حتى بلغت سنة 319هـ 700 ألف دينار[49]، فلجأ رجال الإدارة إلى التشدد في المصادرات التي كانت ترد إلى ديوان خاص[50].

5 ـ ويبدو أن المصادرات باتت نهجاً سياسياً ومالياً عاماً للسلطة العباسية، فقد اعتبر ابن الفرات عدم مصادرة الوزير لعماله عيباً إدارياً[51]، وطالت المصادرات كذلك الأغنياء من غير رجال الإدراة. فصودر ابن الجصاص وحده في عهد المقتدر على ما يزيد عن 16 مليون دينار[52]، وفي سنة 313هـ طالت المصادرات أقواماً لا حجة عليهم إلّا فضل نعمة كانت لهم، وألحّ الوزير الخصيبي على الناس في ذلك، حتى طالب أرملة المُحْسّن بن علي بن الفرات ونساء ابن الفرات ونساء آخرين لرجال عملوا في الإدارة، مما أثار عليه نقمة الناس. ولم يدع الخصيبي عند أحد مالاً أحسّ به إلّا أخذه بأتعس ما يكون من الشدة، حتى طالب نساء موظفيه العاملين بين يديه، إن لم يجد شيئاً عند الرجال[53].

ثم قتل المقتدر سنة 320 هـ على يد جند مؤنس المظفر، واختار المنتصرون أخا المقتول خليفة له، وحلف القاهر لمؤنس والقواد[54]. ووجدت الجماعة الحاكمة نفسها أمام الأزمة المالية الموروثة. وخيل للخليفة أنه سيجد المال عند السيدة شغب والدة أخيه، فأمر بتعذيبها، ولم يجد لديها سوى جواهر قيمتها 130 ألف دينار، وتماثيل من الكافور قيمتها 300 ألف درهم. وبغية حصوله على مال أكثر، أجبر القاهر السيدة «شغب» على حلّ الوقوف التي وقفتها على الحرمين والثغور، واشترى أصحاب مؤنس هذه العقارات بقيمة 500 ألف دينار. وتتبع الوزير ابن مقلة جماعة المقتدر، وصادر العمال والمالكين وعسفهم. وبيعت دار الوزارة بالمُخَرّم، وصرف ثمنها في مال البيعة للقاهر، وباع ابن مقلة الضياع والأملاك السلطانية لإتمام مال البيعة بمليونين وأربعمائة ألف دينار[55].

اشتدت صراعات الجند من ساجية وحُجَرية، وحاول الخليفة أن يضم إليه

---

(49) مسكويه، ج 1، ص 217.

(50) العيون والحدائق، ج 4، ص 157.

(51) مسكويه، ج 1، ص 43.

(52) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 26.

(53) عريب، ط. المعارف، ص 110 ـ 111.

(54) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 71، ومسكويه، ج 1، ص 243.

(55) الهمذاني، ص 71 ـ 75.

الساجية فوفق إلى حين، وتمكن بواسطتهم من ذبح القادة يلبقا، وابنه علياً، ومؤنساً، وقبض على بعض الزعماء المدنيين؛ وراح ابن مقلة المستتر يراسل الساجية والحجرية للقبض على القاهر، ونجحت مؤامرته على يدي أحد زعمائهم «سيما المناخلي»[56].

جيء بالراضي سنة 322هـ في وقت وصلت فيه سلطة الخلافة إلى الحضيض. رأى الراضي أنه جاء إلى الخلافة برغبة أمراء الجند فقط، ولاحظ جشعهم المالي وزيادة طلباتهم، وقلة الأموال في الخزينة، وقعودهم عن القتال[57]. فأوكل إلى ابن رائق إمرة الأمراء سنة 324هـ[58]، بعد أن سيطر هذا على واسط والبصرة وقبض أموالها. وما كان هذا الانقلاب ليتم لو وجد الخليفة لديه من الأموال، ما يجعله قادراً على المقاومة، سيما بعد سلسلة من أعمال الإستيلاء على واردات المقاطعات التي سيطر عليها قادتها، وبعد أن بيعت الأملاك والضياع السلطانية. لذا فإن هذا الإنقلاب الأبيض وضع السلطة الحقيقية نهائياً في أيدي الجيش، الذي لم يكن يخضع لقيادة واحدة، والمفتقر دائماً إلى الأموال، مما جعل النظام الوحيد الذي يسود هذا الجيش هو شريعة التقاتل بعضهم ضد بعض، فوقعت البلاد في واقع سيء من استنفاد أموال الدولة، واللجوء إلى المصادرات، وتصفية جند هذه الفترة من الساجية والحجرية، وخضوع بغداد لحكام الولايات الأغنياء، كالبريديين حكام واسط والبصرة، والحمدانيين حكام الموصل. وقدر لهذا الصراع ولتلك الفترة أن ينتهيا على أيدي البويهيين سنة 334هـ.

صور المؤلف المجهول الوضع المالي صبيحة دخول البويهيين إلى بغداد؛ فذكر أن حسن الشيرازية تسلطت على المستكفي، وأخذ جماعة لها يكبسون التجار والمستورين، فاشتكى تجار الكرخ ذلك، وأن واحداً أخذت منه بُرّاً ومتاعاً غيره بقيمة 30 ألف دينار[59]. وراح غلام أحد القادة يكبس المنازل، ويقطع الطريق في السماريات، كما يفعل اللصوص، وازدادت سطوات الأعراب في طريق خراسان، وطغى ابن شيرزاد أمير الأمراء، فقسط على العمال والكتاب والتجار وسائر الناس ببغداد مالاً لأرزاق الجند، وراسل الخليفة ناصر الدولة الحمداني في إمارة بغداد، فأرسل له هذا دقيقاً وسفاتج بقيمة 500 ألف درهم[60].

---

(56) الصولي، ص 41.

(57) المصدر نفسه، ص 85 ـ 86.

(58) مسكويه، ج 1، ص 332.

(59) العيون والحدائق، ج 4، ص 416.

(60) المصدر نفسه، ص 419، 420، 426.

القسم الثاني : واردات الدولة

تألفت واردات الدولة من الضرائب الشرعية التي تتضمن[1]:

1 ـ (**الفيء**) الذي يشمل ثلاث ضرائب هي : الخراج، والجزية على أهل الذمة، وضرائب التجارة الموضوعة على المشركين.

2 ـ (**الخمس**) الذي يؤخذ من الركاز والمعادن والغنائم.

3 ـ (**الزكاة**) أو الصدقة، وتشمل زكاة المواشي والزروع والثمار والذهب والفضة، والضرائب المفروضة على بضائع التجار المسلمين.

لكن تقلب الحياة السياسية، وضعف الخلافة، وتوسع الجهاز الإداري، وتوسع النفقات، أدى إلى ابتداع ضرائب جديدة، كانت جميعها ضرائب غير شرعية.

الخراج: قال محمد بن الحسن الشيباني (ت 189هـ) : «وأرض السواد يجب عليها الخراج، على كل من ملك من أرض الخراج شيئاً، من مسلم، أو ذمي، أو مكاتب، أو عبد، أو رجل عليه دين أو ليس عليه دين»[2].

واعتمد في نصاب الخراج في السواد على نظام المقاسمة. فكان أهل الخراج في عهد الرشيد يقاسمون على النصف (1/2)، ثم يؤخذ منهم العشر بعده، حتى أمر الرشيد سنة 172هـ بأن يوضع عنهم العشر[3]. وفي سنة 204هـ أمر المأمون بأن يقاسم أهل السواد على 2/5 الأصل وكانوا يقاسمون على النصف[4] واستمر ذلك النظام إلى القرن الرابع[5].

كان عمال الخراج ربما جبوا الضرائب على سنتين دفعة واحدة[6]. وكان بعض عمال بادوريا، من أعمال السواد، يحبس المطالَبين ويقيدهم بما عليهم من خراج، مما اضطر علي بن عيسى للكتابة إلى عمال الخراج، يأمرهم بالكف عن حبس المطالبين، لأن الخراج

---

(1) أنظر ع. ع. الدوري، ت. ع. الإقتصادي، ص 178، 179، 180، 182.

(2) كتاب الخراج، ذيل (كتاب السير)، بعناية مجيد خدوري (بيروت، 1975، دار المتحدة للنشر) ص 257، 261.

(3) الطبري، ج 7، ص 236.

(4) المصدر نفسه، ج 8، ص 576.

(5) الدوري، المرجع السابق، ص 183.

(6) الصابي، الوزراء، ص 14.

دَيْن، وليس يجب فيه غير الملازمة[7].

وكانت الضرائب تحدد على أساس تقارير المساحين، الذين كانوا ربما زادوا في المساحة من واحد إلى اثنين في العشرة، ثم تحضّر لوائح المطالبين وتسلم إلى المستخرج، الذي كان يبث الفرسان والرجالة والمستحثين، فيَضْرِبون ويُقَيِّدون ويحصلون المال، ويودعونه عند الجهبذ[8].

في القرن الرابع كانت الزيادات التي يطلبها عمال الخليفة تقسم على أهل البلد، وكثيراً ما كانوا يعفون من يريدون، وتزاد المبالغ بإزائها على غيرهم[9]. وكان عمال الخراج يتصرفون بمبادرات شخصية، فيلحون بالمطالبة بالخراج، حتى أحرق بعضهم دور المطالبين[10]. وكان بعض العمال أيضاً يقتطع لنفسه من غلات المقاسمة[11]، ومنهم من يتتبع صغار الفلاحين، حتى يؤدي ذلك إلى ذهاب غلاتهم، أو يضطرون لبذل الرشاوى للمستخرجين[12]. وكان المطالبون يغرمون للرجالة جعلاً[13]، وغير ذلك من أنواع التسلط الذي كان يمارسه المستخرجون، مما دفع الوزير علي بن عيسى لأن يوجه برسائل إلى عمال الخراج يأمرهم فيها بالرفق في الجباية[14].

وأدخلت عدة إصلاحات على الخراج، فكان النيروز المعتضدي، الذي ربط الخراج بوقت نضوج الغلات، فجعله المعتضد في 11 حزيران، وقد كان هَمَّ المتوكل بذلك، إلّا أن مقتله سنة 247هـ ألغى الفكرة عند خلفائه، فلم يتم الأمر إلّا في سنة 282هـ على يد المعتضد[15]. واهتم علي بن عيسى بحماية دافعي الضريبة بوجه عام

---

(7) مسكويه، ج 1، ص 30 ـ 31.

(8) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 222 ـ 23.

(9) المصدر نفسه، ص 217.

(10) المصدر نفسه، ج 2، ص 24.

(11) المصدر نفسه، ج 2، ص 30.

(12) المصدر نفسه، ج 2، ص 270 ـ 71.

(13) المصدر نفسه، ج 8، ص 165.

(14) المصدر نفسه، ج 8، ص 129.

(15) أبو هلال العسكري، الأوائل، بعناية محمد المصري ووليد قصاب (دمشق، 1975) ج 1، ص 294، وكان النيروز الفارسي موعد افتتاح الخراج، لا يلتقي إلا وقت إدراك الغلات، وذلك أن الفرس كانوا يكبسون أيامهم، فلما جاء الإسلام عطل، وأضرّ ذلك بالناس، ولما جاء المتوكل أراد بالنيروز أن يعود سيرته الأولى من الكبس، فكلف من حسب له ذلك، فوجده 243 سنة وحصتها من الأرباع 60 يوماً وكسر، فزاد ذلك على النوروز في سنته وجعله منتهى تلك الأيام، وكان يوم الأربعاء في 11 حزيران، ثم وضع النوروز على شهور الروم. أنظر: أبو الريحان البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص 31 ـ 33.

وكتب إلى عماله بتخفيض الضرائب واستيفاء الخراج بدون حيف[16].

في العهد البويهي اتبع معز الدولة 334هـ سياسة الإقطاع العسكري، فأقطع قواده وخواصه ضياع السلطان والمستترين وحق بيت المال في ضياع الرعية[17] وقد جرّ ذلك على البلاد الويلات، إذ جاء إقطاع معز الدولة لجنده أراضي السواد في أيام خرابه ونقصان ارتفاعه وغلاء الأسعار. ولكن لم يلبث أن تغير الوضع، فقد زاد الارتفاع في بعض الاقطاعات بزيادة غلاته ونقص في بعضها بانحطاط الأسعار، مما أدى إلى أن يرد الخاسرون إقطاعاتهم ويعوضوا عنها فأخذوا أراض جديدة، حتى صار الرسم جارياً بأن يخرب الجند إقطاعاتهم ثم يردونها ويعتاضوا عنها ما يختارون، وأهملت الأراضي المرتجعة، حتى أتت الجوائح على الفلاحين، فرقّت أحوالهم، وصاروا بين هارب وجال ومظلوم صابر لا ينصف، وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره ويوافقه[18].

ولم تعد الحسابات ترفع إلى الدواوين، ولا يسأل عن كيفية الخراج وكميته، بل اقتصر على محاسبة الضمناء على قيمة العقد وما صحّ منه، دون الاحتراس من الخراب، أو السؤال عن جبايات تحدث على غير رسم، وإضافات إلى الإرتفاع لم تكن موجودة من قبل، فضاع الدخل وتضاعفت النفقات حتى وقع العجز في الميزانية، مما أفسد الجند[19].

وفي عهد عضد الدولة أعيد بناء مرافق الزراعة في سبيل تنشيط الانتاج، فأعيد العمل بالنيروز المعتضدي، وأمضيت الرسوم الصحيحة وحذفت عنها الزيادات والتأويلات[20]، إلاّ أن عضد الدولة لم يلبث أن أعاد سيرة الظلم الاقتصادي، فزاد في المساحة واحداً في عشرة بالقلم، وجعله رسماً جارياً، وأدخل في يده جميع الأرحاء، وخضع الفلاحون لعذاب المقطعين[21].

وأقطعت بعض أراضي الموصل إلى العرب (الأعراب) لكي يتولوا الدفاع عنها، على أن تنتزع من أيديهم بعد رد الروم، فكانت الأراضي توزع على أنها خرائب، وهي في

---

(16) الصابي، الوزراء، ص 280.
(17) تجارب الأمم، جـ 2، ص 96.
(18) المصدر نفسه، ص 97.
(19) المصدر نفسه، ج 2، ص 99.
(20) المصدر نفسه، ص 407.
(21) أبو شجاع، ذيل مسكويه، ج 3، ص 47، 73.

الواقع ضياع جليلة[22].

وفي أخبار سنة 382هـ أن صمصام الدولة أهلك مملكته إعطاء الاقطاعات، وإيجاب الزيادات، وتمزيق الأموال، وتسليم الأعمال، فاضطربت أمور الدولة واختلت أحوالها[23].

وقد وضع قدامة بن جعفر قائمة تفصيلية بمبالغ ارتفاع ضمنها ارتفاع السواد لسنة 204هـ وقد بلغت 130,200 مليون درهم[24]. وبلغت جباية السواد حسب قائمة علي بن عيسى سنة 306هـ، 1,547,7340 درهماً[25].

ضريبة العشر: كانت هذه الضريبة تفرض على التجار من المسلمين وأهل الذمة والحرب، الذين يديرون تجارتهم في البحار ويمرون على «العاشر»[26].

وقد فرضت الضرائب التجارية على أهل الذمة بمعدل نصف العشر، أي 1/20 على ما تجاوزت قيمته 200 درهم، ولا يؤخذ منهم في السنة إلاّ مرة، وفرضت الضرائب على التجار القادمين من دار الحرب إلى دار الإسلام بمعدل 1/10[27] في كل مرة يدخلون فيها دار الإسلام[28] واشترط الشيباني أن لا يدفع «الحربي» إلا في ما هو أكثر من 200 درهم[29]. وأجاز الفقه الحنبلي عشر أموال أهل دار الحرب عن صلح أو معاهدة، إلاّ أنه حرّم عشر الأموال المنتقلة في دار الإسلام من بلد إلى بلد، واعتبر أنه لا يبيحها شرع ولا يسوغها اجتهاد، ولا هي من سياسات العدل، وقلّما تكون إلاّ في البلاد الجائرة. وكأنه كان يدين انتشار الرسوم والضرائب الداخلية على التجارة والصناعة في العهد البويهي، فاعتبر أن كل ما أحدثه الولاة من تغيير الحقوق غير مسوغ في الشرع[30]. ولعل مثل هذا الموقف الشرعي هو ما دفع الواثق إلى أن يأمر بترك أعشار

---

(22) المصدر نفسه، ص 144، أخبار 377هـ.

(23) المصدر نفسه، ص 247.

(24) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، بعناية دي غويه (ليدن، 1889) ص 249، وطبعة باعتناء محمد حسين الزبيدي (بغداد، 1981) ص 183.

(25) الدوري، ت. ع. الإقتصادي، ص 187.

(26) قدامة بن جعفر، ط. بغداد، ص 241.

(27) يحي بن آدم، الخراج، بعناية أحمد محمد شاكر، ط 2 (القاهرة 1384) ص 2.

(28) الشيباني، السير، ص 182.

(29) المصدر نفسه، ص 183.

(30) أبو يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، بعناية محمد حامد الفقي، ط 2 (القاهرة، 1966)، ص 245 - 246.

السفن سنة 232 هـ[31].

ويبدو أن هذه المكوس وضعت لعشر أموال التجارة الواردة من الخارج. وقد تركزت في الثغور، فوضعت «المسالح» لمواضع أرصاد السلطان، ، فكره المأمون هذا الاسم فصيره «المصالح»[32] وقد ضمت هذه المصالح مآصر في الأنهار تتوقف عندها المراكب، وتؤدي الرسم قبل اجتيازها[33].

كان المسلمون يدفعون 1/40 من قيمة بضائعهم ضريبة ويدفع التجار الهنود والصينيون 1/10[34]. وفي القرن الرابع أسقط علي بن عيسى المكس بمكة[35].

الجباية الداخلية: لم يقتصر أمر الجباية على التجارة المائية في الثغور والمرافيء الدولية، بل فرضت الضرائب على البضائع المنقولة بواسطة المراكب داخل بغداد نفسها، وداخل العراق عامة، ففي سنة 197هـ فرضت ضرائب باهظة على السفن في بغداد[36]، ووضعت المآصر فيها في الثلث الأول من القرن الرابع، وكان ابن رائق أول من وضعها، وما كانت بغداد عرفتها من قبل[37]، وقد صارت هذه المآصر تضمن. ففي أخبار سنة 333هـ أنه ضمن دجلة والمأصر الأعلى بخمسماية دينار شهرياً[38]، وكانت توجد على الطريق من بغداد إلى واسط في دير العاقول[39].

كانت المكوس أحياناً ثقيلة، فقد فرض على زورق عظيم متوجه من بغداد إلى واسط، فيه حديد وخواب، مبلغ ثمانية آلاف درهم[40]. ويبدو أن الضرائب كانت توضع على جميع السلع الواردة إلى بغداد حتى القمح، فقد اشترط معز الدولة البويهي على ناصر الدولة الحمداني في صلحهما سنة 335هـ أن يعفى من الضريبة[41]، وخاطب

---

(31) ابن الأثير، ج 5، ص 279.
(32) العسكري، الأوائل، ج 1، ص 87.
(33) أنظر، ابن رسته، ص 185.
(34) الدوري، ت. ع. اقتصادي، ص 194.
(35) الصابي، الوزراء، ص 310.
(36) الطبري، ج 8، ص 445.
(37) تكملة الطبري، ص 147.
(38) الصولي، أخبار الراضي، ص 276.
(39) ابن رسته، ص 186.
(40) نشوار المحاضرة، ج 8، ص 160.
(41) مسكويه، ج 2، ص 108.

ناصر الدولة التجارين في بغداد قائلاً: ما أعوض للضريبة على شيء سوى التمر، وبارك الله لكم في كل شيء غيره، يعني ضريبة ما حصل ببغداد، وأعفي الدبس والبسر، ويبدو أن فرض الضريبة على التمر المستورد كان للحد من استهلاك تمور البصرة التي يسيطر عليها خصمه البريدي[42].

كان الحجاج الواردون إلى بغداد يدفعون المكوس على ما يحملون على الأدم والجمال الأعرابية[43] وكان أهل بغداد يدفعون ضرائب الغنم المجلوبة، كما أن الأمتعة التي يحملها الحجاج الصادرة والواردة منها كانت تخضع للضرائب، إلاّ أن هذه الضرائب أسقطت في عامي 363هـ و367هـ[44].

ضرائب الأسواق: من الضرائب الداخلية التي فرضت على التجار وأرباب المهن، ضريبة الأسواق التي فرضها المهدي سنة 167هـ[45] والتي بلغ ارتفاعها في القرن الثالث مع أجرة رحى البطريق 12 مليون درهم[46]. ويذكر ابن خرداذبة أن غلات الأسواق والأرحاء ودور الضرب في مدينة السلام بلغت مليوناً و500 ألف درهم[47].

ويبدو التناقض واضحاً بين الرقمين اللذين يسوقهما مؤلفان عاشا في فترة واحدة[48]. ففي حين يذكر اليعقوبي أن المبلغ هو واردات لسنة كاملة، فإن ابن خرداذبة لا يذكر شيئاً عن المدة التي يغل فيها هذا المبلغ. والراجح أن ذلك عن واردات سنة كاملة، لأن سائر مبالغ الخراج التي يوردها تتحدث عن واردات سنة. وبلغ وارد أسواق الغنم في بغداد وسامراء وواسط والبصرة والكوفة في جريدة علي بن عيسى 16975 ديناراً سنوياً[49].

المستغلات: بنى الناس في بغداد في عهدي المعتضد والمقتدر على أراضي الدولة، ففرض الوزراء على أصحاب الأبنية ضريبة سموها «أجرة العرصة»، وكان لها ارتفاع كثير[50].

---

(42) الصولي، ص 228، 229.

(43) المقدسي، ص 134.

(44) المختار من رسائل الصابي، بعناية شكيب ارسلان (بيروت د.ت دار النهضة الحديثة)، ص 343، 358.

(45) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 81.

(46) البلدان، ص 251.

(47) المسالك والممالك، ص 125.

(48) هذا عدا التناقض عند اليعقوبي نفسه، إذ يذكر في ص 243 أن غلة رحى البطريق مائة مليون درهم، وهو خطأ بالتأكيد.

(49) الدوري، ت. ع. الإقتصادي، ص 194.

(50) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 146.

ووضعت ضريبة المستغلات، ويفهم منها أنها المحلات التجارية التي رقبتها في يد المالك ويستغلها التجار. ومنذ بداية العهد العباسي كان في بغداد مستغلات؛ فقد جعل الربيع قطيعته في الكرخ أسواقاً ومستغلات[51]. وذكر اليعقوبي أن المستغلات تربة أسواق أبنيتها للناس، ويؤدون الأجرة عن الأرض والطواحين للسلطان[52] وكان للأمين مستغلات في بادوريا[53]، وفي سنة 309هـ هدم باب دار علي بن الجهشيار ببغداد في الفرضة، وبني في موضعه مستغلات[54]. وبلغت واردات المستغلات في مدينة السلام في عهد المقتدر 13 ألف دينار[50]. ويبدو أن الضرائب فرضت على الحمامات[56].

وهناك ضرائب تفرض على الطواحين في بغداد. فكانت الرحى الكبرى التي قدر اليعقوبي بأن لها مئة حجر تغل في كل سنة خمسمائة ألف درهم[58]، وكان في إقطاع وزارة علي بن عيسى أربعة أحجار أرحاء تعرف بالعباسية أو اليوسفية ثمنها عشرة آلاف دينار[59]، وكان عند دير «سمالو» في شرقي بغداد بباب الشماسية أرحية على نهر المهدي[60]. واتهم عضد الدولة أنه «أدخل يده في جميع الأرحاء وجبى ارتفاعها وجعل لأهلها شيئاً منه، وتظلم الناس من ذلك في آخر أيامه»، فأزاله صمصام الدولة بعده وأطلق للملاكين الارتفاع[61].

الجوالي: كان ديوان الخراج يقوم باستيفاء «الجوالي» التي يدفعها أهل الذمة الذين جلوا عن قراهم الأصلية، وأصبحت كلمتا «الجزية» و«الجوالي» تعنيان شيئاً واحداً تقريباً. وكانت في عهد ابن خرداذبة واردات الجوالي في مدينة السلام تبلغ 130 ألف درهم[62]،

---

(51) البلدان، ص 252.
(52) المسالك والممالك، ص 158.
(53) المنتظم، ج 6، ص 55.
(54) المصدر نفسه، ص 159.
(55) الصابي، الوزراء، ص 310.
(56) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص 194.
(57) البلدان ـ ص 243.
(58) ابن الفقيه، الهمداني، بغداد، ص 54، فيما يذكر اليعقوبي أن غلتها مائة مليون درهم، وهو خطأ، واعتبر الدوري ذلك مائة ألف درهم، انظر تارخ. ع. إقتصادي، ص 194.
(59) الصابي، الوزراء، ص 311.
(60) الديارات، ص 14.
(61) أبو شجاع، ذيل مسكويه، ص 71.
(62) المسالك، ص 125.

وبلغت الجزية في قائمة قدامة، التي كان يدفعها أهل الذمة في بغداد مبلغ 200 ألف درهم[63]. وبلغت واردات الجوالي في قائمة علي بن عيسى 1600 دينار[64].

وجاء في عهد الخليفة المطيع أمر إلى جباة أهل الذمة «بأن يأخذوا منهم الجزية في المحرم من كل سنة بحسب منازلهم في الأحوال وذات أيديهم في الأعمال، ولا يأخذوها من النساء ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال، ولا من ذي عاهة، ولا فقير معدم، ولا مترهب متبتل»[65]. إلا أنه كان يحدث أن تفتتح الجوالي في أوقات مبكرة فيلحق بأصحابها الأذى[66].

ضريبة المواريث: يبدو أن ضريبة المواريث وضعت في خلافة المعتمد (256 - 279هـ)[67] وقد أمر المعتضد سنة 283هـ برد الفاضل من سهام المواريث على ذوي الأرحام بعد مشاورة تمت مع القضاة[68] وتابع المكتفي تلك السياسة. وفي وزارة ابن الفرات تعرض أصحاب المواريث لتركة شخص عرف بأخي أبي صخرة الذي توفي دون وارث، فأنكر ابن الفرات ذلك، ثم كتب الوزير يأمر بوقف هذه الضريبة فقال: «أنهي إلى أمير المؤمنين ما يلحق كثيراً من الناس من الإعنات في مواريثهم، وما يتناول على سبيل الظلم من أموالهم، ويحكم فيه بخلاف ما جرت به السنة، وأن ما يجري على الرعية من مطالبتهم إياهم بأحكام لم ينزل بها كتاب الله ولا جرت بها سنة رسوله»[69]، وكان الناس من قبل ذلك في بلاء وتعلل متصل من المستخرجين والعاملين[70]، «وتتبع حامد بن العباس (307هـ) المواريث وقلد جبايتها عمالاً يجرون مجرى عمال الخراج وهو شيء لم يكن في خلافة من الخلافات»[71].

إلا أن السياسة التي قضت بالكف عن تتبع المواريث لم تمنع المُحَسِّن بن الفرات

---

(63) الخراج، ص 251، وطبعة بغداد، 184.
(64) جرجي زيدان، التمدن الأسلامي، ج 2، ص 111.
(65) رسائل الصابي، ص 163.
(66) الصولي، أخبار الراضي، ص 251.
(67) الصابي، الوزراء، ص 270.
(68) المنتظم ج 5، ص 161.
(69) المصدر نفسه، ص 268، 279.
(70) عريب، ط. الأستقامة، ص 27.
(71) الصابي، الوزراء، ص 270.
والغريب أن قدامة بن جعفر قدم خبراً استدل به الفقهاء، بجواز الاستيلاء على الأموال الحشرية، وقال: وبهذا يؤخذ اليوم (الخراج، ط. بغداد، 245).

من الاستيلاء على تركة متوفٍ كان له من يرثه[72]، كما يبدو أن تعقب المواريث لم يتوقف. فقد وجدت وظيفة «صاحب المواريث» في عهد الراضي، إلا أن الخليفة أنكر ما أقدم عليه ابن رائق من مصادرة إرث شخص متوف وله من يرثه، وأنفذ إليه يأمره برد ما أخذه[73] وفي سنة 351هـ توفي دعلج فأغرت تركته معز الدولة فأخذها[74]. وفي سنة 352هـ توفي المهلبي فختم عمال معز الدولة على الأموال التي تركها الوزير[75]. وفي سنة 386هـ توفيت بنت عضد الدولة زوجة الطائع وحملت على تركتها إلى بهاء الدولة وكان بها جوهر كثير. وفي سنة 390هـ توفي محمد بن عمر العلوي، فأخذ أبو نصر سابور من تركته خمسين ألف دينار ونصف أملاكه؛ وكان أبو عمر قد صودر على مليون دينار[76].

الصدقات: كانت الصدقات تجبى من الأموال المرصدة للنماء، إما بنفسها، وإما بالعمل فيها، طهرة لأهلها، ومعونة لأهل السهمان[77].

ويبدو أن الصدقات كانت تابعة لديوان الخراج، وكانت أموالها لا تعزل عنه إذ وضعها قدامة ضمن أعماله[78]. وكانت الصدقات تخصص بموظف يقوم بجبايتها[79]، وكان عمال الصدقة يتولون جباية زكاة الأموال الظاهرة كالمواشي والمنتوجات الزراعية، ويترك إلى الأفراد أمر إخراج زكاة بقية الأموال، كالذهب والفضة[80].

ضرائب أخرى: كانت تفرض مكوس جديدة على بعض المواد، فقد فرض عضد الدولة الضرائب على بيع الخيول والحمير والجمال في جميع الأسواق[81]. وحاول صمصام الدولة سنة 375هـ/985م فرض ضريبة العشر على المنسوجات الحريرية والقطنية في بغداد، مما تسبب بحدوث شغب في المدينة حتى ألغيت الضريبة[82]. وفي سنة 385هـ/996م تمكن الوزير أبو نصر من فرض ضريبة العشر على المنسوجات البغدادية، فثار عليه سكان

---

(72) عريب، ط. المعارف، ص 101.
(73) الصولي، **أخبار الراضي**، ص 104.
(74) الدوري، ت. ع. **إقتصادي**، ص 192.
(75) **تكملة الطبري**، ص 185.
(76) **المنتظم**، ج 7، ص 190، 212 ـ 13.
(77) الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ط. 2 (القاهرة، 1966)، ص 113.
(78) الخراج، ط. بغداد، ص 205.
(79) الطبري، ج 8، ص 51.
(80) الخراج، المصدر السابق، ص 227.
(81) أبو شجاع، **ذيل مسكويه**، ج 3، ص 72.
(82) المصدر نفسه، ص 117 ـ 18.

محلة العتابية ومحلة باب الشام، ولكنه أخذ الثورة وثبت هذا الرسم ورتب في جبايته ناظرين ومتولين وأفرد له ديواناً خاصاً، ووضعت الختوم على جميع ما يقطع من المناسج ويباع، واستمرت الحال على ذلك إلى آخر أيام عميد الجيوش أبي علي، الذي أسقطه وأزال رسمه سنة 390هـ/999م(83).

وفرض وزير صمصام الدولة في سنة 373هـ/983م ضريبة العشر من جميع ما تسبب به الأولياء والكتاب والحواشي(84)، أي ضريبة على الدخل والمخصصات.

جعل عضد الدولة للمراعي وفرائض الصدقات ديواناً، وأدخل يده في وقوف السواد. وقرر على أسواق الدواب والحمير والجمال مما يباع منها من جميع ذلك. وحظر عمل الثلج والقز وجعلها متجراً للخاص(85)، إلاّ أن بهاء الدولة أمر بإسقاط ما يؤخذ من المراعي من سائر السواد سنة 379هـ/989م(86).

وفي أواخر القرن الثالث ظهرت ضريبة عرفت باسم «مال الجهبذة» أنكرها علي بن عيسى ووصفها بأنها بلاء على الناس. وقد استمرت في القرن الرابع(87)، وسميت هذه الضريبة «حق الجهبذة»، إشارة إلى أنها تتصل بخبرة الجهبذ في تميز النقود والأموال؛ وكانت هذه الضريبة تقع على عاتق المكلّفين، مما يسبب لهم الإرهاق(88).

وعرفت ضريبة في القرن الرابع دعيت باسم «حق الدهقنة» تقضي بفرض كمية معينة من الغلات الزراعية على المزارعين، وكانت مثار ظلم للناس(89)؛ مما يدل أن وظيفة الدهقان ما تزال قائمة في بغداد.

إلى ذلك أضاف البويهيون الضرائب التالية(90):

1 ـ ضرائب على المكيلات من حنطة وزيت.

2 ـ على سائر المبيعات المستهلكة في سوق الدقيق ومقالي الباذنجان (البيعية).

---

(83) الصابي، تاريخ، ذيل مسكويه، ج 4، ص 336.
(84) أبو شجاع، ص 85.
(85) المصدر نفسه، ص 81.
(86) المصدر نفسه، ص 174.
(87) الصابي، الوزراء، ص 277، 278.
(88) الدوري، ت. ع. الإقتصادي، ص 197.
(89) الفرج بعد الشدة، ط. القاهرة، ج 1، ص 48.
(90) عباس العزاوي، تاريخ الضرائب العراقية، (بغداد، 1959)، ص 26.

3 ـ على السميريات في المشارع، والحمالين الذين يرفعون التمور إلى السفن.

4 ـ على الذبحية، من اليهود خاصة.

5 ـ على المدابغ.

6 ـ على السمك.

7 ـ على سوق الخيل والجمال والغنم.

8 ـ على الملح.

خضع فرض الضرائب في القرن الرابع لاعتبارات كيفية، وهو يلاحق مطارح النماء والتعامل. ففي سنة 329هـ طالب الديلم التجار بأموال، فصار إليهم متضمن لأمر الزواريق المصعدة والمنحدرة من مدينة السلام والبصرة، ففتح على الناس أبواباً من البلاء عظيمة، مما دفع بالتمارين لمطاردته وقتله[91].

ثم اتفق أحد قواد الديلم مع ابن الحراصة النفاط. وكان هذا مظهراً للقمار، والعيارة، والفجور، وبيع الخمور، وتأوي إليه اللصوص، فلا ينكر عليه أحد عمله لحمايته من قبل القائد، وضمانه ذلك منه بألفي درهم في كل شهر. وكان إذا عجز عليه مال الضمان، قبض على من يجتاز ببابه ويدخلهم، فإما أن يرتكبوا الفاحشة على أن يدفعوا مبلغاً معلوماً، وإما انصرفوا بعد أن يدفعوا ما يترتب عليهم[92].

وظهر ابن حمدي العيار سنة 332هـ وصار لصاً، فولاه ابن شيرزاد طريق واسط، وطالب ابن شيرزاد التجار بأموال فاستتر أكثرهم[93].

وفي أخبار سنة 332هـ أن أسكورج الديلمي، عامل الشرطة ببغداد، فرض قبالات ثقيلة يلزمها ولاة الشرطة، فعزل وعين مكانه أبو بكر النقيب، الذي اضطر تحت ضغط المطالبة أن يضمّن بغداد بثلاثين ألف درهم، فضمن البيض وأعماله بثلاثة آلاف درهم، وعقدت الشرقية وما فيها من الأعمال بثمانية آلاف درهم، سوى الاستثناءات، فإنها خمسة آلاف درهم، وضمنت دجلة والمآصر الأعلى بخمسمائة دينار، وعقد القيار بألفي درهم، فصار الجميع نيفاً وثلاثين ألف درهم[94].

---

(91) الصولي، ص 206.

(92) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 349.

(93) الصولي، أخبار، ص 250 ـ 270.

(94) المصدر نفسه، ص 276.

وفي سنة 351هـ ضمنت الحسبة وضمن القضاء ببغداد بعشرين ألف درهم في كل شهر[95].

لا شك بأن ازدياد الضرائب والمكوس كان مظهراً لضعف واردات الدولة، نتيجة للتفكك السياسي وزيادة المخصصات العسكرية وجشع الولاة. ولهذا كثرت شكوى الناس وظلاماتهم، وأخذت الفتن تظهر في الأسواق بين حين وآخر، خصوصاً أن طرق الجباية كثيراً ما كانت تتصف بالظلم والعنف، زد على ذلك، أن معظم هذه الواردات كانت تذهب إلى جيوب الجشعين من الولاة، إذ أن الخدمات العامة التي تقدمها الدولة عادة، هبطت إلى أدنى مستوياتها. وهذا الوضع ترك آثاره لدى بعض كتاب القرن الرابع؛ فنقرأ في «الإمتاع والمؤانسة» قول أبي سليمان المنطقي: «الشغب متصل، وطلب المال لا آخر له، والمصطنع مستزيد، والمحرم ساخط والمال ممزق...»[96] ولاحظ في مكان آخر تدهور الوضع الإقتصادي، من مصادرة الأموال والمقاسمة على المواريث وزيف النقد ومضاعفة الخراج، وخراب المساجد، وانتهاب الوقوف، وخواء المارستانات[97].

---

(95) مسكويه، ج 2، ص 189.

(96) أبو حيان التوحيدي، الامتاع، ج 2، ص 115 ـ 116.

(97) المصدر نفسه، ج 3، ص 88.

الفصل السادس

الادارة العباسية

لا يحاول هذا البحث عن الادارة العباسية في بغداد، الإحاطة بمجمل الدواوين التي عرفتها العاصمة السياسة والادارية لبني العباس، بل يرمي إلى الكشف عن بعض الخدمات الادارية التي تتصل بحياة الناس.

فالجيش كان إحدى الإدارات التي تعتمد عليها كل سلطة في ممارسة مهامها الأمنية. وتكاد مهماته تنحصر في قمع عمليات الخروج ضد الدولة في مختلف الأقاليم. ومنذ مطلع القرن الرابع، أصبح الجيش إحدى القوى التي تتصارع للسيطرة على الحكم داخل العاصمة، ثم لم يلبث أن أصبح أحد الأطراف التي تعمل على إثارة الشغب داخل بغداد بين الحين والآخر.

أما شرطة بغداد، فقد كان لها أهمية خاصة في القرن الثالث، وكان صاحب الشرطة يعتبر إحدى الشخصيات المهمة فيها. وتتصل بهذه الإدارة، إدارة السجون التي كثيراً ما كانت صلاحايت صاحبها تتداخل في صلاحيات صاحب الشرطة.

وفي الضابطة الادارية، كان القضاء أكثر الإدارات اتصالاً بالشعب، بما ضمنه من قضاة وشهود. وكانت الحسبة إحدى السلطات المهمة، من حيث تعلقها بأهل الأسواق، وإحاطتها بمعظم مجالات الحياة في المدينة.

وكانت إدارة البريد والأخبار تهتم بمراقبة أوضاع الناس من أمنية ومعاشية. ويبدو أنه كان يطلب إلى أصحاب البريد التدقيق في أخبارهم، مما جعل هؤلاء يوردون أخباراً لا تتعلق بأوضاع الأمن من قريب أو بعيد، كإيرادهم لمعلومات عن الأمطار والصواعق، أو غرائب الأحداث الطبيعية.

1 ـ الجيش

أنشأ العباسيون جيشاً نظامياً محترفاً، كان قوامه المرتزقة من غير العرب، ولجأوا إلى الجند الخراساني ذي التقاليد العسكرية التي لم يمحها الاحتلال العربي وجعلوه نواة الجيش العتيد الذي ارتبط بشخص الخليفة[1]. ومع مرور الزمن ضم الجيش العباسي عناصر قومية مختلفة، حتى أصبح هذا الجيش في القرن الثالث مجموعة من الفرق.

تأكد دور الخراسانية بعد حرب الخلافة بين الأمين والمأمون، التي انتهت بتكريس سلطان الجند الخراساني، فأصبحت لهم الكلمة الأولى في الدولة. تجلى ذلك في إسناد المأمون السلطة على بغداد إلى الطاهريين[2] بتسليمهم «شرطة بغداد» التي استمروا فيها حتى سنة 301هـ/913م.

ولم يكن دور الخراسانية السياسي بأقل من دورهم العسكري، حتى قال بعضهم بأن بغداد «تسكن ما سكنا وتتحرك ما تحركنا»[4] وقيل: إن الفضل بن يحيى قد اتخذ جنداً من العجم سماهم «العباسية» وبلغ عددهم 500 ألف رجل، قدم منهم إلى بغداد عشرون ألفاً، فسموا فيها «بالكرنبية»[5] ولا يرد ذكر لهذا الجند بعد ذلك، ولعلهم انضموا إلى غيرهم من جند بغداد بعد مقتل الفضل.

وظهرت في بغداد طائفة من الجند عرفت بالحربية، نسبة إلى حرب بن عبد الله البلخي، صاحب شرطة بغداد في عهد المنصور. وكان نزولهم في المحلة التي تقع بالقرب من جامع المنصور[6]. وهناك خلاف حول سلاح الحربية، فهم حسب «هل» من المشاة العرب[7] وهم حسب الجومرد من الفرسان العرب[8]. على أننا استناداً إلى روايات ياقوت الحموي، نستطيع أن نرجح أن الحربية كانت شرطة بغداد المقيمة في ثكناتها عند باب حرب، وهم من العرب المشاة والفرسان. ويعزز هذا الرأي ما ذكره الصابي من أن

---

(1) C. Cahen. E.I², II p. 518.

(2) نسبة إلى طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون في الحرب.

(3) ع. ع. الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة. ص 110 ـ 111.

(4) الجاحظ، رسائل، ج 1، ص 28.

(5) تاريخ الطبري، ج 8، ص 257.

(6) أنظر، معجم البلدان، ص 237.

(7) الحضارة العربية، (القاهرة، 1956)، ص 84.

(8) عبد الجبار الجومرد، أبو جعفر المنصور (بيروت 1963، دار الطليعة) ص 327.

شرطة بغداد في القرن الرابع بلغت في عهد نازوك أربعة عشر ألفاً بين فارس وراجل[9].

وفي القرن الثالث ظهرت فرقة جديدة عرفت بالشاكرية[10]، وكان الموسرون ومتوسطو النعمة يقتنون الشاكرية، كما كان الولاة يصحبون شاكريتهم[11]، ويمكننا أن نقدّر أن الشاكرية هم من الخدم المؤهلين للدفاع عن سادتهم، وهم حسب قول الجاحظ: «قريبون من الجند، لأنهم يرجعون إلى معنى واحد، وهو طاعة الخلفاء وتأييد السلطان»[12].

يحيط الغموض بالشاكرية جنداً، فيزعم جرجي زيدان أن الشاكرية من جند الأتراك ظهرت في أيام المهتدي (869 ـ 870م) واستفحل أمرها في أيام المستعين[13]. ويستدعي هذا الإستنتاج ملاحظة بسيطة، وهو أن المستعين حكم قبل المهتدي بثلاث سنوات (862 ـ 866م). إلا أن لدينا إشارة واضحة إلى تشكيل الشاكرية في سنة 198هـ/813م، في كتاب طاهر بن الحسين، قائد حرب المأمون ضد الأمين، وفيه يبشر القائد سيده بالنصر فيقول: «فنزلتها (أي بغداد) في عدة ممن كان ركب معي من خاصة ثقاتي وشاكريتي، وصيرت عدة منهم فرساناً ورجالة بين باب خراسان والمشرعة وعلى الشط»[14]. وهذا في رأينا منطلق الوجود التاريخي للشاكرية جنداً من جيش الدولة. بعد ذلك صار اسم الشاكرية يرد في عداد الجند. فيذكر الطبري أن حملة المتوكل سنة 234هـ/848م على أذربيجان ضمت 900 من الشاكرية، كما أنهم قادوا حملة المناداة بخلافة المعتز؛ ثم كان لهم دور بارز في عمليات الشغب التي كان يقوم بها جند بغداد وعامتها[15]. ويبدو أن الشاكرية كانوا موجودين في جند بغداد في القرن الرابع[16].

فرق الجيش في عهد السيطرة التركية

عمل الأتراك في الإدارة العباسية منذ نشوء الدولة[17]، وأخذت أعدادهم في بغداد

---

(9) الصابي، رسوم دار الخلافة، ص 9.

(10) عرّف ادي شير الشاكري بالسخري والأجير، أنظر، الألفاظ الفارسية المعرّبة، ص 102.

(11) أنظر، نشوار المحاضرة، ج 2، ص 184، وج 8، ص 261.

(12) رسائل، رسالة في مناقب الترك، ج 1، ص 30.

(13) تاريخ التمدن الإسلامي، ج 1، ص 172.

(14) الطبري، ج 8، ص 291.

(15) تاريخ، ج 9، ص 165، 256، 261.

(16) الفرج بعد الشدة، ط. بيروت، ج 4، ص 206.

(17) أنظر، أبو هلال العسكري، الأوائل، ج 1، ص 390، الجهشياري، الوزراء، بعناية مصطفى السقا (القاهرة، 1938)، ص 151.

تتزايد في النصف الثاني من القرن الثاني بعد دخول الكثير من ملوكهم في الإسلام[18]، حتى كان الكثير من حرس الرشيد من أصل تركي[19]، كما أنه أوجد قوة عسكرية كان على رأسها قائد تركي[20]. وفي حروب الخلافة بين الأمين والمأمون، شارك الأتراك في القتال، فكان منهم الخوارزمية والبخارية[21]. ويبدو أن المأمون، هو الذي فتح باب الجندية واسعاً أمام الأتراك، فكان يسترضيهم، ويفرض لمن رغب في الديوان[22].

ثم استخلف المعتصم، فتابع سيرة أخيه حتى صار جلّ عسكره من أتراك ما وراء النهر[23]. وكان جيش المعتصم يضم جنداً أقدمهم من حوف مصر وحوف اليمن وحوف قيس فسماهم «المغاربة» وهم من العرب؛ كما ضم جيشه رجال خراسان من الفراغنة وغيرهم[24]. ولم يلبث المعتصم أن انتقل بجيشه إلى سامراء (221هـ/835م) واضعاً السلطة تحت قبضتهم، فقوي نفوذ القادة الذين كانت لهم السلطة على الخلافة[25]. ثم لم يلبث الجند أن التفوا حول قادتهم وصاروا يدينون لهم بالولاء وكونوا فرقاً عرفت بأسماء القواد، كالساجية والمؤنسية والنازوكية[26]. ويبدو مما أورده الصابي، أن فرق الجيش العباسي في بغداد كانت تنسب إما إلى وظيفتها، وإما إلى أصولها الإقليمية والعرقية، ومنها ما يدل على ارتباطها بقائدها. من هذه الفرق يذكر الصابي: أصحاب النوبة من الرجالة، والبيضان من الجنابيين والبصريين، وهم الذين كانوا يقاتلون مع القرامطة ثم استأمنوا إلى جيوش الخليفة، وأصحاب المصاف بباب العامة الذين كانوا يقومون بواجب التشريفات، ثم المفلحية أصحاب القائد مفلح، ثم الديالمة والطبرية والذين كان لهم فرقة خاصة دعيت باسمهم في عهد المعتصم[27]، ثم المغاربة.

كما ضم جيش المعتضد السودان من زغاوة ونوبة، والزنج العجم المستأمنة من

---

(18) تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 397 ـ 98.

(19) ابن عبد ربه، العقد الفريد، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1965)، ج 2، ص 203.

(20) MUIR. The Caliphat (Beirut, Khyat's), p. 479.

(21) الطبري، ج 8، ص 393 ـ 94.

(22) البلاذري، فتوح، ص 528 ـ 29.

(23) المصدر نفسه، ص 25.

(24) مروج الذهب، ج 2، ص 266.

(25) أنظر، الفرج بعد الشدة، ط. بيروت، ج 3، ص 25.

(26) الصابي، الوزراء، ص 19، حمدان عبد المجيد الكبيسي، عصر المقتدر بالله، (مطبعة النعمان، النجف، 1974). ص 264.

(27) الطبري، ج 9، ص 85.

عسكر الخارجي بالبصرة علي بن محمد، وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيضان؛ ومن رسمهم أن ينوبوا في مصاف «باب الخاصة» وحوالي القصر.

وضم الجيش أيضاً، «الغلمان الخاصة»، ثم مماليك المعتضد، الذين سماهم الحُجَرية، ثم الفرسان من الأحرار والمميزين[28]. ثم يذكر الصابي المختارين من كل قيادة من المماليك الناصرية[29]، والبغائية (نسبة إلى بغا) والمسرورية والبكجورية واليأنسية والمفلحية والأزكوتيكينية والكيغلغية والكنداجية، وأوضح الصابي أن أسماء هذه الفرق تنسب إلى قادة جميعهم من الأتراك[30].

وفي القرن الرابع برزت قوى عسكرية داخل بغداد، ، فكان منها ما كوّن قوته في الخارج وجاء إلى العاصمة ليفرض نفوذه، كالساجية جند ابن أبي الساج. ومنها من أعطته الظروف الداخلية في بغداد أهميته وقوته، كالحجرية والفرسان.

الساجية: وينسبون إلى ابن أبي الساج ديوداذ بن ديودست، الذي برز في عهد المعتصم[31]، والذي شارك في الحرب ضد الزنج[32]. وبعد وفاة أبي الساج خلفه ابنه محمد الذي لم يلبث أن توفي سنة 288هـ/900م، فخلفه ابنه ديوداذ، ونازعه عمه يوسف على السيادة، ففر ديوداذ وجماعة له إلى بغداد. أما يوسف بن أبي الساج، فقد بقي خارج بغداد، رغم تأثيره السياسي داخل القصر[33].

كان الساجية عدة مؤنس وعضده، وكان منهم في جيشه سنة 320هـ/932م ثمانمائة رجل؛ إلا أن الساجية كانوا إلى جانب المقتدر أثناء خلافه مع مؤنس[34]. وعمل القاهر (321هـ/933م) على استرضاء الساجية، ليستخدمهم ضد القادة العسكريين، مؤنس ويلبق وابنه علي؛ لكن القاهر أثار نقمة الساجية والحجرية بعد قتله كبار القادة الأتراك، فاتفقوا على الخلاص منه[35]. وكان للساجية فضل كبير في خلافة الراضي

---

(28) الصابي، الوزراء، ص 15 ـ 17.

(29) ينسبون إلى الموفق الملقب بالناصر.

(30) الوزراء، ص 19.

(31) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ط 7 (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1965)، ج 3، ص 284.

(32) الطبري، ج 9، ص 13. ابن الأثير، ج 6، ص 2.

(33) أنظر الطبري، ج 9، ص 83 ـ 85. أيضاً، تكملة الطبري، ص 29.

(34) ابن الأثير، ج 6، ص 219، 227.

(35) المصدر نفسه، ص 228، 236، 237.

(322هـ/934م) ، إذ كانت خلافته بناء لتدبير سيما المناخلي أحد قادتهم. وبدا أن الساحة قد خلت من المنافسة العسكرية، ووقع الراضي تحت رحمة الساجية والحجرية، إلى أن قبض ابن رائق على قادة الساجية سنة 324هـ/935م فتقطع أصحابهم وفروا[36].

الحجرية: وهم مماليك المعتضد، الذين رتّب أمرهم على المقام في القصر والحُجَر (جمع حجرة) تحت مراعاة قادتهم، ومنعهم من الخروج والركوب إلاّ بإشراف هؤلاء القادة[37]، لأن العامة كانت تتضايق مما يثيرون من المشاكل، مما أدى إلى قيام ثورة شعبية سنة 283هـ/896م، فاقتضى ذلك إقامتهم في الحجر[38].

يعتقد آدم متز أن الحجرية كانوا جند الخاصة[39]. إلا إنه يمكننا القول: إن جند الخاصة كانوا نوعاً آخر من الحجرية أقروا في دار (رجاء)، وأمر مؤنس الخادم ألاّ يستعملوا في الدار، كي لا يدلوا على غلمان الناصر (الموفق)، ولأنه لا معرفة لهم برسوم الخلافة. والراجح أن الحجرية هم من الأتراك العجم، اشتراهم المعتضد ورتبهم في الحجر[40]، وكان منهم في القصر في عهد المقتدر ألف رجل، وكان يرأسهم شفيع المقتدري في عهد سيده[41].

كانت بداية نفوذ الحجرية مشاركتهم في إحباط المؤامرة ضد المقتدر سنة 296هـ[42] وزادت قوتهم بعد أن قضي على الساجية، في عهد تفككت فيه الامبراطورية العباسية، وتقلصت سلطة الخليفة، واقتصرت على بغداد وحدها، وأحياناً على ما يجاورها من منطقة السواد. فشحت الموارد المالية، وانقطع إقبال العناصر البشرية على التجنيد، حتى خلت الساحة في بغداد، إلا من الحجرية والساجية، وأصبح الجند طرفاً في أي صراع سياسي، أو أي حركة شعبية.

امتد نفوذ الحجرية إلى الإدارة، فأوكل المقتدر الحجابة إلى رائق الكبير الذي كان

---

(36) الصولي، أخبار الراضي والمتقي، ص 51، 85.
(37) الصابي، الوزراء، ص 17.
(38) أنظر، المسعودي، ج 2، ص 515.
(39) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، ج 1، ص 253.
(40) أنظر، الصابي، الوزراء، ص 21.
(41) الصابي، رسوم دار الخلافة، ص 8، 65.
(42) مسكويه، ج 1، ص 6.

من الحجرية[43]. ثم كلف ابني رائق بشرطة بغداد، ثم أخذت منها وعهد إليها بالحجابة[44]. وضاق مؤنس بالحجرية، وطالب بإخراجهم من القصر[45]، ثم تمكن منهم ابن رائق سنة 325هـ فأسقطهم من الديوان وأحرق دورهم[26].

المصافية: وهم الجند الرجالة، وسموا بالمصافية لأنهم أصحاب المصاف بأبواب «دار الخلافة». وقد كان منهم «البيضان» على «باب العامة»، وعلى أبواب القواد المفلحية، والديالمة، والطبرية، والمغاربة، وكان منهم «السودان» الذين لا يخلطون بالبيضان، وكانت خدمتهم على باب الخاصة وحوالي القصر[47]، وكان منهم في حرس المقتدر خمسة آلاف في سنة 305هـ[48]، وبلغ عددهم في بغداد سنة 317هـ عشرين ألفاً[49].

اصطدم المصافية بنازوك قائد شرطة بغداد في سنة 311هـ بعد أن ضرب غلامين منهم، فقصدوا داره ووقعت الحرب بينهم وبين رجاله فوزع عليهم الأرزاق حتى كفوا[50]. ودعم المصافية المقتدر وقتلوا نازوك، واشتد تسلطهم بعد ذلك وكثر شغبهم، وزادت تعدياتهم، وبلغ مخصصهم في كل شهر مائة وثلاثين ألف دينار، مما أثار الفرسان عليهم نتيجة احتيازهم على المال.

ودعم الفرسان محمد بن ياقوت صاحب شرطة بغداد الجديد، وتمكنوا من طرد المصافية من الدار، وبقوا حتى طلب إليهم ابن ياقوت الخروج من بغداد، وقبض على من وجده منهم بعد ذلك وأودعه سجن الجرائم، وهدمت دور عرفائهم؛ عندها هاجت المصافية، فقبض على الرجالة، وضربوا، وهدمت دورهم، وقبضت أموالهم، وضرب صقع السودان بالنار، وانحدر البيضان إلى واسط، فطاردهم مؤنس وقتلهم، حتى لم ترتفع لهم راية بعد ذلك[51].

---

(43) حمدان الكبيسي، عهد المقتدر، ص 287.
(44) مسكويه، ج 1، ص 211.
(45) المصدر نفسه، ج 1، ص 189، ابن الأثير، ج 6، ص 200.
(46) مسكويه، ج 1، ص 357 ـ 58، ابن الأثير، ج 6، ص 258.
(47) الصابي، الوزراء، ص 15 ـ 16.
(48) الصابي، رسوم دار الخلافة، ص 8.
(49) ابن الجوزي، المنتظم، ج 6، ص 222.
(50) المصدر نفسه، ج 6 ص 176.
(51) مسكويه، ج 1، ص 195 ـ 96، 202 ـ 203.

الفرسان: اكتسبت فرقة الفرسان أهمية خاصة في جيوش المسلمين[52]. ووصف أحد قادة الجيش العباسي الفرسان بأنهم «أهل التجارب والبأس والنجدة، والقوة الظاهرة، وأصحاب الرمي والطراد، والمشاولة والمبارزة، وطلاب الكرّ في الميمنة أمام الصفوف» كما وصفهم بأنهم أصحاب المبادرة في تشجيع سائر الجند على ريادة الحرب[53].

أوليت تعبئة الفرسان عناية خاصة، ومنعوا من الاختلاط بجند الرجالة[54]. وقد ترك لنا الصابي وصفاً تفصيلياً لعملية اختيار الفرسان في أيام المعتضد. فقد كان الخليفة يجلس ليستعرض الجند، ويقف الغلمان بين يديه في الميدان، ويجلس كتّاب العطاء في أسفل، بحيث لا يراهم الخليفة أو الجند، ويتقدم القائد ومعه جريدة بأسماء أصحابه وأرزاقهم، فيأخذها خادم منه، ويصعد بها إلى المعتضد؛ ثم يدعى الجند ليمتحنوا بالبرجاس. فإن رمى الجندي جيداً، وهو متمكن من نفسه ومستقر في سرجه، ومصيب أو مقارب في رميه، علّم على اسمه (ج)، وهي علامة الجيد؛ ومن كان دون ذلك علّم على اسمه بعلامة (ط)، وهي علامة الوسط؛ ومن كان متخلفاً لا يحسن ركوب الفرس علّم على اسمه علامة (د). ثم يحمل الفارس بعد العرض والامتحان إلى كتّاب الجيش، ليتأملوا حليته، ويقابلوا ما عندهم من صفة، لئلا يكون دخيلاً أو بديلاً، فإذا تكامل عرض أصحاب القائد دفعت جريدته التي فيها العلامات بخط المعتضد إلى الوزير، ليدفعها من وقتها إلى الكاتب، حيث يفرد لكل منهم جريدة. كل هذا من غير أن يعلم القائد وأصحابه بما يجري؛ ثم يخرج كل جريدة إلى مجلس قد أفرد لذلك الصنف، وجعل شهر الذين ارتضاهم وأمضاهم تسعين يوماً وسماهم «عسكر الخاصة»[55].

الجيش خلال فترة امرة الأمراء (324 ـ 334هـ/ 935 ـ 945م):

تهاوت خلافة العباسيين تحت وطأة مطالب الجند المالية، وأشرفت الدولة على الإفلاس، وجاءت خلافة الراضي (322هـ/934م) ولم يكن له في الأمر من شيء، بل كان التدبير في ذلك للجند من ساجية وحجرية. وقد أحس الراضي بضآلة نفوذه وخلو

---

(52) أنظر، أبو يوسف، الخراج، (القاهرة، 1392هـ) ص 19 ـ 20. ابن قتيبة، عيون الأخبار، (القاهرة، 1963) ج 1، ص 82، الجاحظ، رسائل، ج 2، ص 376.

(53) المرثمي، صاحب المأمون، مختصر سياسة الحروب، بعناية عبد الرؤوف عون، (المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، د.ت) ص 36 ـ 37.

(54) المصدر نفسه، ص 65.

(55) الصابي، الوزراء، ص 17 ـ 18.

يديه من المال[56]، فكان أن سلّم الحكم للجيش عبر قائد لقب بأمير الأمراء، منهياً بذلك نفوذ البيروقراطية المدنية[57].

عمل ابن رائق، أمير الأمراء (324هـ/935م) على إنهاء الدور الذي كان يمارسه الجند من الساجية والحجرية. فقتل عدداً كبيراً من الساجية، واعتقل عدداً آخر منهم، وهرب من بقي منهم حياً إلى الموصل والشام. ثم اتجه للتخلص من الحجرية، فأسقط منهم «الدخلاء والبدلاء والنساء والتجار ومن لجأ إليهم». ثم وقعت الحرب بينهم فتمكن بمساعدة من قائده بجكم من أن يقتل عدداً منهم، وفر الباقون، وحرقت دورهم وقبضت أموالهم وقطعت أرزاقهم[58]. وتمكن ألفان منهم من الإنضمام إلى جيش البريدي في الأهواز[59].

ولم تلبث أن ظهرت فرق جديدة انضوت تحت سلطات قادتها، كالبجكمية والتوزونية والقرامطة[60]، وكان المصافية البيضان موجودين في بغداد في هذا العهد فدبروا مؤامرة لاغتيال الراضي وتنصيب أحد أحفاد المأمون مكانه[61].

امتاز هذا العهد بتفسخ جند الخلافة، وخاصة الأتراك، فكانوا يتحركون ضد الخلافة تارة، وضد رؤسائهم تارة أخرى[62]، كما أخذ الجند يهربون إلى مقاطعات أخرى للإنضواء تحت أعلام القادة الجدد. فقد هرب جماعة من البجكمية إلى الموصل وانضووا تحت لواء الحسن بن حمدان، ولما لم يرضهم عطاء الحمداني انضموا إلى ابن رائق في الشام؛ كذلك هرب أبو المهدي البريدي وبعض جنده من عسكر البريديين إلى توزون أمير الأمراء ووصلوا إلى بغداد، وهرب جماعة من جند توزون ولحقوا بالخليفة المتقي[63].

---

(56) الصولي، أخبار الراضي، ص 1، 41.

(57) انظر عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص 32 ـ 33.

HITTI, **History of Arabs,** (London 1961, Mac Millan), pp. 468- 69.

(58) الصولي، أخبار، ص 85 ـ 88، أيضاً مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 357 ـ 58.

(59) مسكويه، تجارب، ج 1، ص 365 ـ 66، الهمذاني، تكملة الطبري، ص 101.

(60) تقي الدين الدوري، إمرة الأمراء في العراق، (بغداد، 1975)، ص 278.

(61) أخبار الصولي، ص 130.

(62) فاروق عمر، الخلافة العباسية في عهد الفوضى العسكرية، ص 65 ـ 66.

(63) الصولي، أخبار، ص 222، 247، 249.

الجيش في العهد البويهي

ارتقى البويهيون السلطة جنوداً هدفهم الثراء، وكان الدور الذي لعبه قومهم في التاريخ الإسلامي عسكرياً إلى حد ما.

اعتمد البويهيون على الأتباع القوميين من جنود الأمراء الديلم[64]، واستندوا بعض الشيء إلى جماعات من العبيد والمرتزقة من الأتراك التي كانت مألوفة آنذاك.

ويبدو أن الحياة في بلاد الديلم كانت بدائية وصعبة، فكانوا يعملون في زراعة الأرز، ذوي ملابس فقيرة ومرقعة[65]. وبمثل هذه الفرص المحدودة في بلاد الديلم، أليس هناك ما يثير العجب في أن «تكون الحرب ديدناً لهم». ولقد كان لاعتناقهم الإسلام تأثيراً فعالاً في إطلاق قوتهم وتحريرها خارج منطقة «ألبرز»[66].

منذ القرن الثالث كان الجند الديالمة والطبرية ضمن الرجال المصافية[67]. واستمرت العادة لعدة عقود في أن يضم حرس الخليفة الخاص رجالاً من الديالمة والأتراك، فحينما كافأ الخليفة الطائع «عضد الدولة» البويهي بلقب «تاج الملة»، كان الديلم مصطفين في الجانب الأيسر من صحن القصر، وكان الأتراك مصطفين في الجانب الأيمن لاستقبال الأمير البويهي[68]. كذلك اعتمد ناصر الدولة الحمداني (317 - 356هـ/829 - 966م) في فترة مبكرة على الديلم والغلمان الأتراك، وتجنب بذلك الاعتماد المطلق على الأعراب البدو، الذين كانوا عرضة لأن يرفضوا القتال في الشتاء[69].

شكل الديالمة والجيلانيون الخلفية القومية لمساندة الإخوة البويهيين الثلاثة الأوائل، وقد أوصى معز الدولة ابنه بختيار بمداراة الديلم، لئلا يخرقوا هيبته بالشغب والفتن،

---

(64) يعتبر أبو إسحق الصابي أن الديلم والجيل من أصل واحد، افترقوا فريقين عن بطنين لأخوين وهما ديلم وجيل، واقتسموا البلاد. أنظر، المنتزع من كتاب التاجي، ص 29 - 30، وعلى هذا فإن العنصر الديلمي إنما هو الذي ينتمي إلى هاتين المنطقتين، ديلم وجيلان.

(65) أنظر، ابن الأثير، ج 6، ص 223، والمنتزع، ط. المعهد الألماني، ص 12.

(66) بوزورث، التنظيم العسكري عند البويهيين في العراق وإيران. (مجلة المورد) م 4، عدد 1، (بغداد، 1975) ص 36. ولاحظ الصابي الانفتاح الإجتماعي الذي عرفوه بعد اعتناقهم الإسلام، المنتزع، ص 31 - 32، وص 12 من طبعة المعهد الألماني.

(67) الصابي، الوزراء، ص 15.

(68) الصابي، رسوم دار الخلافة، ص 80 - 81.

(69) مسكويه، ج 2، ص 90.

وأوصاه بالإحسان إلى الأتراك، فإنهم جمرة عسكره[70]. وقد أشارت المصادر، في أكثر من مناسبة، إلى مقدرة الجندي الديلمي العالية على تحمل المصاعب، كما نوّهت بشجاعته وقدرته على المقاومة بالمقارنة مع الجنود الأتراك[71]. ويشهد أبو الفضل بن العميد بصبر الديلم على الجوع، وقبولهم بالقليل من الطعام، في حال قلته[72].

كما أسهمت المواريث الاجتماعية الديلمية في حياتهم السياسية والعسكرية. ويبدو أن الديلم كانوا يهتمون بنقاوة الدم، فهم لا يزوجون إلى غيرهم[72]، ويبدو أيضاً أنهم حافظوا على بعض عاداتهم في ما قبل الإسلام[74].

وبقيت مشاعر التضامن قائمة بين الديلم داخل مؤسسة الجيش. الأمر الذي جعل بعض الغرباء يندسون بين صفوفهم، فصار من الضروري عرض الجنود بين فترة وأخرى. ففي سنة 356هـ، أثبت بختيار من الديلم الساقطين كل من كان صريحاً في الديلم أو الجيل، دون من اختلط بهم ممن ليس منهم، وكان ذلك بناء لإصرار الجند الديلم[75]. وفي سنة 388هـ نصح صمصام الدولة صاحب فارس وكرمان بأن يعمل سجلاً لجميع الديلم الصحيحي النسب[76]. وكان بعض الضباط من أصحاب الرتب العالية من رتبة (نقيب نقباء الديلم) يقومون بواجب الاحتفاظ بسجلات أنساب وتواريخ عائلات الجنود، وقد لاقى أحدهم حتفه على أيدي الجند، لأنه كان خبيراً بأمورهم وأنسابهم، وكان من المصلحة أن يفعلوا ذلك خوفاً من أن يطلع غيرهم عليها فيتأذوا[77].

لجأ زعماء الديلم إلى استخدام الأتراك الفرسان الذين يملكون الخيول[78]؛ وكان في جند علي بن بويه جماعة من الفرسان، كما أن لدى أخيه الصغير أحمد (معز الدولة

---

(70) المصدر نفسه، ج 2، ص 234.

(71) أنظر، ابن الأثير، ج 6، ص 346، أيضاً مسكويه، ج 1، ص 378.

(72) مسكويه، ج 2، ص 140 ـ 141.

(73) أنظر: المقدسي، ص 368 ـ 69.

(74) أنظر، ابن الجوزي، المنتظم، ج 8، ص 39، حيث يذكر أن مجد الدولة البويهي كان له أكثر من خمسين زوجة حرة على عادة أجداده.

(75) مسكويه، ج 2، ص 236.

(76) أبو شجاع، ذيل مسكويه، ص 3، ص 312.

(77) المصدر نفسه، ص 321.

(78) أبو شجاع، ذيل مسكويه ج 3، ص 133، أنظر أيضاً، مسكويه، ج 2، حيث يذكر أن معز الدولة انتصر على المتمردين من الديلم بواسطة الخيالة الأتراك.

فيما بعد) قوة قوامها 1500 فارس ونحو 500 راجل من الأتراك[79]. وربما يعود استخدام الأتراك في الجيش البويهي لأسباب أخرى. فقد كان الأتراك بعد سلسلة من الهزائم التي لقيتهم يرتبطون بأسيادهم ارتباطاً «فردياً»، هذا بالمقارنة مع الديلم الذين احتفظوا بعلاقات قبلية، وهو ما جعل عماد الدولة في حالة من القلق تجاه قواده من الديلم، الذين كانوا جميعاً رجالاً طموحين، ويعتقدون بأنهم أفضل نسباً[80].

شهدت سنة 334هـ حدوث تمرد ديلمي ضد معز الدولة، الأمر الذي أجبره على تبني سياسة إرضاء المتمردين بتوزيع الأموال والإقطاعات عليهم، حتى صار أكثر السواد إقطاعاً لهم، وتخبط معز الدولة في سياسة الإقطاع أمام ضغط جنوده وقادتهم، وقامت المنافسة بين الديلم والأتراك، إلى أن قادت الضرورة إلى تقريب الأتراك والاستظهار بهم على الديلم، وبسبب ذلك فسدت نيات الفريقين واشرأبوا إلى الفتن[81]. وفي سنة 345هـ حصل تمرد في الأهواز، فانضم رجال معز الدولة ورجال وزيره إلى الديلم، مما جعل الوضع في بغداد على شفير الإفلات من بين يديه، فشغب الديلم في بغداد، وقمعهم معز الدولة باعتماده على الأتراك وغلمانه الخاصة[82].

لجأ بختيار إلى الإستيلاء على إقطاعات كبار حاشيته، ونفى كبار الديلم معتمداً على أصاغرهم؛ فطالبه هؤلاء بزيادات في رسومهم، مما أثار الأتراك، فتكتلوا بعد أن شعروا أنه يحاول القضاء عليهم. ثم انتهى الأمر بأن اتفق الديلم والأتراك ضد بختيار، فاضطر هذا إلى ملاحقة وزرائه في أموالهم[83]. ورأى عز الدولة بختيار أن يلجأ إلى سياسة المصاهرة لتزول العداوات بين الديلم والأتراك، فاستحلفهم على موالاته وحاجبه التركي سبكتكين، وتزوج بختيار من إحدى بنات ابي تغلب الحمداني سنة 360 هـ/ 970 م[84].

تركت صراعات البويهيين على السلطة أثرها في جيشهم، فساند الديلم في بغداد سنة 375هـ شرف الدولة، واتفق رأيهم على أن يولوا بهاء الدولة بن عضد الدولة على العراق نيابة عن أخيه شرف الدولة[85]. إلا أن الخلاف لم يلبث ان دب بين الديلم

(79) مسكويه، ج 1، ص 315، أيضاً ص 303 ـ 305، ص 352 ـ 53.
(80) المصدر نفسه، ج 2، ص 114 ـ 15.
(81) المصدر نفسه، ص 96، 99، 100.
(82) المصدر نفسه، ج 2، ص 162 ـ 163.
(83) المصدر نفسه، ص 234 ـ 237.
(84) المصدر نفسه، ج 2، ص 282 ـ 283.
(85) ابن الأثير، ج 7، ص 125.

والأتراك، فأحسّ الديلم بكثرتهم، ودفعهم ذلـك إلى محاولـة إعادة صمصـام الدولـة إلى السلطة في بغـداد، فيما لجأ بهاء الـدولة إلى الأتـراك، وانتهى الصراع بـانتصـار 3 آلاف تركي على 15 ألف ديلمي[86]. وفي سنـة 385هـ استعاد صمصـام الدولـة سلطته عـلى فارس ودبر مقتلة جماعية للأتراك[87].

أثنـاء هـذا الصراع، تبـين أن الاعتـماد عـلى عنصر واحـد قـد يـترك مجـالاً لإثـارة الاضطرابات. وبعد أحداث سنة 388 هـ/ 998 م التي كانت نتيجة لطرد بعض الجنـد البويهي من الجيش، لجأ بهـاء الدولـة إلى الموازنـة بين العنصرين العسكـريين في جيشـه، فتقرب من الديم وعمل على مصالحتهم مع الأتراك[88].

(86) مسكويه، ج 3، ص 158، وابن الأثير، ج 6، ص 130 ـ 131.
(87) أبو شجاع، ج 3، ص 264، 311، 315.
(88) المصدر نفسه، ص 317 ـ 321.
ج 4، ص 31، 39.

2 ـ الشرطة

كان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدائها أولاً، ثم الحدود بعد استيفائها. فإن التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع إلا في استيفاء موجباتها، بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة في ذلك. فكان الذي يقوم بهذا الاستبداء وباستيفاء الحدود بعده، إذا تنزه عنه القاضي، يسمى صاحب الشرط. وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدماء بإطلاق، وأفردوها من نظر القاضي. ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم. ولم تكن عامة التنفيذ في طبقات الناس، إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الريب والضرب على أيدي الرعاع والفجرة[1].

وفي القرن الرابع كان ناصر الدولة الحمداني ينظر في بغداد في أحوال الناس كما ينظر أصحاب الشرط، وتقام الحدود بين يديه[2].

وكان يشترط في من يتولى كتابة المعونة، أن يكون عالماً بالقصاص، والحدود، والجراحات، والمواثبات، والسياسات[3]. واشترط في صاحب الشرطة أن يطيل الجلوس وأن يديم العبوس ويستخف بالشفاعات[4].

نشأت الشرطة في بغداد منذ تأسيسها، وكان الشرطة يقيمون في «سكة الشرطة»[5] وكان يعاون صاحب الشرطة أو «المعاون» أصحاب الأرباع. وقد قسمت بغداد أمنياً باعتبار الأرباع والجسور، وكان هؤلاء جميعا يعملون برئاسة صاحب الشرطة. فقد كان عياش بن القاسم يتولى الجسرين من قبل عبد الله بن طاهر[6]. ويظهر أن شرطة الجسر بقيت مستمرة حيث كان لهم مركز (مجلس)[7] ويبدو أن للجسر مجلسين واحد في كل من طرفيه، فيوكل ذلك إلى رجلين، كما أنهم كانوا يقيمون المسالح في المحلات لتسهيل الإشراف على الأمن[8].

---

(1) تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني (بيروت، 1957)، م 1 قسم 2 ص 445.

(2) ابن عبد الملك الهمذاني، تكملة الطبري، ج 1، ص 131.

(3) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج 2، ص 40.

(4) أبو حيان التوحيدي، البصائرة والذخائر، بعناية ابراهيم الكيلاني (دمشق، 1964) ج 3، ص 468.

(5) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 89.

(6) طيفور، تاريخ بغداد، (القاهرة، 1968) ص 37.

(7) الخطيب البغدادي، ج 9، ص 131، 359.

(8) المنتظم، ج 5، ص 13، أيضاً الجاحظ، البخلاء، ص 44.

كان الخلفاء يعلقون الأهمية على مركز قائد الشرطة، لذا قال علي بن الفرات: «عمال المعاون ثقات السلطان»[9]. وقد احتفظ آل طاهر بمنصب صاحب شرطة بغداد لفترة طويلة منذ عهد المأمون، وبقي الأمر بيدهم حتى تعيين يعقوب بن الليث الصفاري على شرطة بغداد، الذي استخلف عبيد الله بن طاهر على شرطة بغداد وسامراء سنة 261هـ/874م[10]. وقد عرف من أصحاب الشرطة في بغداد شخصيات كان لها دور مهم في الحياة السياسية. فقد وليها سنة 279هـ/892م بدر غلام المعتضد، ومؤنس الخازن سنة 299هـ/912م ونازوك وابن رائق سنة 317هـ/929م[11].

وفي عهد إمرة الأمراء (323 ـ 334هـ) كان تعيين صاحب الشرطة وعزله بيد الأمير[12].

كان من واجبات صاحب الشرطة حفظ النظام والقضاء على مسببي القلاقل والفتن من العيارين واللصوص، وملاحقة أصحاب المذاهب المتطرفة، والقضاء على قطاع الطرق[13]. وقد يقوم صاحب الشرطة بجمع الضرائب؛ ويذكر أن تعنت أصحاب لؤلؤ صاحب شرطة بغداد بوضعهم الجبايات والغرامات، أدى إلى تذمر الناس منهم، وانتهى الأمر بعزل لؤلؤ من قيادة الشرطة سنة 326هـ/937م[14].

ليس من أخبار واضحة حول الضرائب التي كلفت الشرطة بجبايتها، ولكننا نعرف أن طاهر بن الحسين استناب ابنه عبد الله على الجزية والشرطة في جانبي بغداد[15]، مما يحملنا على الظن بأن الضرائب القانونية كانت الشرطة هي المكلفة بجبايتها داخل بغداد.

ويبدو أن جميع الضرائب غير الشرعية التي فرضتها السلطة على البغداديين كانت تجبيها الشرطة، وفي القرن الرابع قسمت بغداد إلى مناطق وسلمت إلى ضامنين. ففي سنة 333هـ تسلم أبو بكر النقيب قيادة شرطة بغداد، فنادى برفع المؤن، واشترط ذلك، إلا أنه طولب بسنة أسكورج صاحب الشرطة السابق، فعقد الجانب الشرقي

---

(9) طيفور، ص 13، العيون والحدائق، ج 4، ص 31، 39.

(10) العيون والحدائق، ج 4، ص 76، 157، 245، 251.

(11) الصابي، الوزراء، ص 67.

(12) الصولي، أخبار الراضي والمتقي، ص 85.

(13) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 11، أيضاً الصولي، أخبار الراضي والمتقي، ص 135، 141.

(14) أخبار الراضي، ص 98.

(15) العيون والحدائق، ج 3، ص 363.

والصحراء والأبواب على الفروقي بسبعة آلاف دينار في الشهر، والبيض وأعماله على محمد بن تازي بثلاثة آلاف درهم، وعقدت الشرقية وما فيها من أعمال على أحمد بن جعفر المعروف بابن الشرطي بثمانية آلاف درهم، ما عدا الإستثناءات فإنها خمسة آلاف درهم. وضمنت دجلة والمآصر الأعلى بخمساية دينار والقيار بألفي درهم، فصار المجموع نيفاً وثلاثين ألف درهم شهرياً، فلقي الناس من ذلك عنتاً، وتعرم أصحاب الأرباع والمصالح على الناس، والنقيب كاره لذلك[16].

كان أصحاب الشرطة يحصلون على مبالغ طائلة بشكل غير شرعي، فقد كان لنصر القشوري، حاجب المقتدر، مرافق ومنافع من أعمال المعاون المرسومة بولايته[17]. وكانت غلة صاحب شرطة الرشيد نصف مليون درهم[18]. ولعل افتئات أصحاب الشرطة على أصحاب الثروات في اقتناص أموالهم، هو ما حمل معز الدولة سنة 350هـ على تضمين أعمال شرطة بغداد[19] ولعل ثروات أصحاب الشرطة جعلتهم موضع طمع وكراهية. ففي سنة 343هـ/954م صرف الأبزاعجي عن شرطة بغداد وصودر على ثلاثمائة ألف درهم[20]، وتخلص الوزير ابن بقية من صاحبي الشرطة ابن عقيل ومحمد بن علي الزطي لكراهيته لهما[21]؛ وكان الزطي قد أسرف في الإساءة إلى الناس، واستأصل الأموال، مما أطمع في ماله[22].

ومن واجبات الشرطة حراسة أبواب المدينة ودروبها وجسورها[23]، فكانوا يخرجون ليلاً وهم يحملون الشموع التي يحتاطون في أمر تموينها، أو يحملون المشاعل ويركبون الخيل[24].

وكان صاحب الشرطة يجرد الناس في مجلسه ويضربهم[25]، وربما شتم المجرمين

---

(16) أخبار الراضي والمتقي، ص 276.
(17) الصابي، الوزراء، ص 54.
(18) الفرج بعد الشدة، ج 2، ص 113.
(19) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 431.
(20) ابن الأثير، طبعة صادر، ج 8، ص 183.
(21) مسكويه، ج 2، ص 366.
(22) أبو شجاع، ذيل تجارب الأمم، ج 4، ص 179 ـ 180.
(23) الطبري، ج 9 ص 333، التنوخي، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 343، المنتظم، ج 5، ص 13.
(24) طيفور، ص 99. الفرج بعد الشدة، (القاهرة)، ج 1، ص111، ج 2، ص 20.
(25) أبو الفرج الإصفهاني، الأغاني، ج 21، ص 66.

فيشتمونه، وهذا ما جعل المأمون يوصي أصحاب الشرطة بالكف عن الخرق بالناس[26]. وكان الشرطة يستعينون باللصوص التوابين ليساعدوهم في معرفة السارقين[27].

وفي القرن الرابع كانت مهام الشرطة الأساسية مراقبة العامة. فقد كان عليهم حماية المساجد، ومنع الفقراء من دخولها، وحماية السلطان من العامة[28]، وربما انقلب الموقف فيطارد العيارون أصحاب الشرطة، بل لقد قتل محمد بن علي بن هدهد صاحب الشرطة على يد العيارين[29]، واضطر البويهيون للاستعانة بـ«أحداث» من العلويين لحماية دار أبي نصر سابور بعد أن لمسوا عجز الشرطة[30].

ونتيجة لاضطراب أمر أصحاب الشرطة وظلمهم للناس، جعل في الأرباع 306هـ/918م فقهاء يكون عمل أصحاب الشرطة بفتواهم، فضعفت هيبة السلطة بذلك، وطمع اللصوص والعيارون، وكثرت الفتن، وكبست دور التجار، وأخذ أبناء الناس في الطرق المنقطعة، وكثر المفسدون. وكان المأمون قد لجأ إلى هذه الطريقة، فعين قاضيين للجسرين لحضور نهي أصحاب الجسرين، ولا يتم النهي إلا بحضور القاضيين[31].

ليس لدينا الكثير من الأخبار حول أعداد الشرطة. ففي 299هـ/911م كان تحت يد مؤنس الخازن صاحب الشرطة تسعة آلاف فارس وراجل، وفي سنة 310هـ/922م كانت شحنة البلد برسم نازوك صاحب المعونة أربعة عشر ألفاً بين فارس وراجل[32]. وكان من الشرطة من يتولى أعمال الحراسة، وكانوا يسمون العسس والحرس أو الطائف[33]، وكانوا يجهزون بالخيل والشموع والمشاعل، وينقطعون على الطواف بعد أذان الصبح، إذ يخرج ذوو الحاجة[34]. وقد بدأت الحراسة مستقلة منذ العصر العباسي

---

(26) طيفور، ص 37.

(27) المسعودي، مروج، ج 2، ص 507.

(28) الخطيب البغدادي، ج 7، ص 78، ج 13، ص 227، أيضاً المنتظم، ج 7، ص 104.

(29) المنتظم، ج 7، ص 174، تاريخ الصابي، ذيل مسكويه، ج 4، ص 337.

(30) تاريخ الصابي، ص 336.

(31) ابن الأثير، طبعة صادر، ج 8 ص 113، طيفور، ص 38.

(32) الهمذاني، تكملة الطبري، ج 1، ص 11، العيون والحدائق، ج 4، ص 157. الصابي، رسوم دار الخلافة ص 19.

(33) الفرج بعد الشدة، ط. القاهرة، ج 2، ص 21، ج 1، ص 111.

(34) المصدر نفسه، ج 2، ص21.

الأول، إذ كان البرامكة على الحرس الملكي، وكان جعفر بن يحي على الحرس سنة 180هـ/796م[35]. والراجح أن الحرس الملكي بقي منفصلاً عن مهمات الشرطة.

وقد روعي في حراسة بغداد إنشاء الأبواب الحديدية، فيذكر الخطيب البغدادي أن عدد الأبواب من باب المدينة المدورة إلى الذي يشرع إلى الرحبة بلغ الخمسة أبواب أما اليعقوبي فيقول: إن السكك مجهزة بالأبواب الوثيقة على الطرفين، ولا تتصل سكة منها بسور الرحبة[36]. وكانت أبواب المدينة تغلق ليلاً وتشد بأقفال حديدية، وكان على هذه الأبواب رجال من الشرطة مكلفين بحراستها[37]. وقد كانت الأبواب في سور بغداد موجودة في سنة 307هـ[38].

ويظهر أن مراقبة المدينة كانت تشتد في الأحداث الهامة، فقد وضع المأمون على مراصد الطرق ثقات من الحراس ولا يجوز من الناس إلاّ من أتى بجواز في دار مخرجه إلى دار مآبه، ومنع من جواز الطرق والقطع بالمتاجر والوغول بالبلدان في هيئة الطارئة والسابلة، وفتشت الكتب[39].

ونختم بكلمة حول صفات ومهمات صاحب الشرطة ذكرها كاتب متأخر عاش في القرن السابع للهجرة، قال ابن أبي الربيع في صاحب الشرطة[40]: «ينبغي أن يكون حليماً مهيباً، غليظاً على أهل الريب في تصاريف الحيل، نزيهاً عارفاً بمنازل العقوبة. وعليه أن يأمر أصحابه بملازمة المحابيس وتفتيش الأطعمة، وعليه أن يأمر الحراس من أول الليل إلا آخره بتفقد الدروب والشوارع ويحاكم أمرها».

---

(35) الخطيب، ج 1، ص 48، ج 10، ص 59.

(36) المصدر نفسه، ج 1، ص 72 البلدان، ص 241.

(37) الخطيب البغدادي، ، ج 1، ص 59، الطبري، ج 9، ص 291، 333.

(38) المنتظم، ج 6، ص 153.

(39) الطبري، ج 8، ص 379.

(40) أحمد بن محمد بن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، (بيروت، 1978)، ص 162.

3 ـ السجون

كان في بغداد عدة سجون. فهناك المطبق أو السجن الكبير الذي بناه المنصور داخل المدينة المدورة، وباسمه دعي الشارع الذي يقع في هذا السجن. وكان فيها سجن آخر عرف بسجن باب الشام[1]. وفي عهد المعتصم بني حبس بستان موسى، وكان كالبئر العظيمة قد حفرت إلى الماء أو قريباً منه، وضم بناءً على هيئة المنارة مجوفاً من باطنه، وله من داخله مدرج، وقد جعل في مواضع من التدريج مستراحات، كل مستراح شبيه بالبيت، يجلس فيه رجل واحد على مقداره، يكون فيه مكبوباً على وجهه، وليس يمكنه أن يجلس ولا أن يمد رجله[2]. ويذكر الطبري سجن نصر بن مالك، وسجن القنطرة بباب الجسر[3].

وبني في بغداد سجن آخر سمي بالسجن الجديد، وكان موضعه إقطاعاً لعبد الله بن مالك، بقي حتى سنة 350هـ، حين أمر معز الدولة هدم سوره ونقل آجره إلى داره التي عزم على بنائها، وفي مكان هذا السجن بني المارستان سنة 355هـ/965م[4].

ولا يمكننا تحديد عدد الحبوس، فالمسعودي يتحدث عن الحبوس والمطابق في عهد المنصور[5]، كما أنه لا بد أن للتمييز بين المطبق والحبس معايير تتبع الحجم والهدف من استخدامها، فمنها ما كان للزنادقة والخارجين، ومنها ما كان للعوام واللصوص، ومنها ما كان للنساء[6].

فقد حبس المنصور رجلاً من الطالبيين وسفيان الثوري، وقبض الرشيد على يحيى والفضل البرمكيين وضيق عليهما المحابس؛ وجعل المأمون ابن عائشة العباسي في المطبق[7].

---

(1) البلدان، ص 240، 248.

(2) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ط. القاهرة، ج 2، ص 276، ط. بيروت، ج 3، ص 176.

(3) الطبري، ج 9، ص 262.

(4) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 87، المنتظم، ج 7، ص 2، 22.

(5) مروج الذهب، ج 2، ص 228.

(6) طيفور، بغداد، ص 14، أيضاً: صلاح الدين المنجد، بين الخلفاء والخلعاء، (بيروت، 1974، دارالكتاب الجديد) ص 128، طيفور، بغداد، ص 14.

(7) ابن الأثير، ط الكتاب العربي، ج 5، ص 81، والمسعودي، مروج، ج 2، ص 303، 393. أيضاً طيفور، ص 97.

كـان بعض السجناء يـودعون في سجـون خاصـة. فقد بنى المعتضـد سنة 280هـ مـطامير في القصر الحسني وجعلهـا محـابس لـلأعـداء[8]. وسجن أنصـار أحمـد بن نصر الخزاعي الحنبلي وسموا بحبوس الكلمـة؛ وفي سنة 291هـ أودع جماعة من العلويـين في سجن خاص. وسجن طاهر ويقوب الصفاريين في حبس دار السطان[9]. واعتقل الوزير عـلي بن الفرات في دار الـوزارة، وسجن بعد عـزلـه في وزارتـه الثـانيـة في دار الخليفـة، وحبـس الوزير علي بن عيسى سنة 316 هـ/ 928 م في دار زيدان القهرمـانة[10]. وكـان بعض الكتـاب يحبسون في المـارستـان، إلا أن القـاهـر قبض سنـة 321هـ/933م عـلى عبد الوهـاب بن عبيـد الله الخـاقاني وإسحق بن عـلي، وهما من رجـال الإدارة، وأودعهما المطبق[11].

كان السجناء يطلقون في المناسبات العامة، أو في حالات الاضطرابات الداخليـة، فقد أطلق المهدي سنة 159هـ/775م من كان في حبوس المنصور، إلّا من عنده تبعة من دمٍ أو مـال أو من يسعى في الأرض فساداً، وأطلق الأمـين من في حبوسـه واستخدمـه في القتال إلى جانبه. ولما نزل المكتفي قصر الحسني أمر بهدم مطاميره، وأطلق من كان محبوساً فيها[12]. وفي سنة 391هـ/903م أمـر القاسم بن عبيـد الله الوزيـر بإطـلاق العمال من الحبـوس، ويكفل من عليـه مال، ويـطلق من في الحبس من العلويين الـذين أخذوا ظلماً بسبب القـرمطي النـاجم في الشام. وكـان في الجانب الغـربي سنة 302هـ سجن خـاص بالمصريين أصحاب الفاطميين[13].

وغالباً ما كان المساجين يقومون بالتحركات وأعمال الشغب. فقد اجتمع أهل منهم بجريمة وشغبوا مع رجال الـسلطان، وحدثت ضجة عظيمة وكـسر الحبس ووصلت العامـة إلى المـطبق فأخـرجـوا من كـان فيـه[14]. وفي سنـة 306هـ/918م شغب أهـل الـسجن الجديد وصعـدوا السور فـركب صاحب الشرطـة وحاربهم وقتـل منهم واحداً. وفي سنـة 307هـ/919م كسرت العامة الحبوس بمدينـة المنصور، فـأفلت من كان فيهـا، وأغلقت

(8) المنتظم، ج 5، ص 145، ج 6، ص 33.

(9) الطبري، ج 9، ص139. المنتظم ج 6، ص 46، مـسكويه، ج 1، ص 16.

(10) الصابي، الوزراء، ص 71، 793 97، أيضاً الهمذاني، تكملة الطبري، ص 56.

(11) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 16، 79.

(12) ابن الأثير، ج 5، ص 53، مروج الذهب، ج 2، ص 318، 527.

(13) المنتظم ج 6، ص 46، عريب، صلة تاريخ الطبري مطبعة الاستقامة، ص 35.

(14) الفرج بعد الشدة، ط. القاهرة، ج 1، ص 112.

أبواب المدينة الحديدية، وتتبع أصحاب الشرط من أفلت منهم، فلم يفتهم أحد[15].
وفي سنة 308هـ/920م قام العامة وفتحوا السجون احتجاجاً على الغلاء، واستمرت هذه الأحداث في العام التالي. وفي سنة 317هـ/929م نهبت دور الناس وأفلت كل لص وجاني جناية ومقتطع مال وفتقوا السجون التي كانوا فيها، وأفلت من دار السلطان عبد الله الجنابي أحد زعماء القرامطة[16].

لم يكن السجن ليخلو من وسائل التعذيب. فقد كان الموقوفون يشدون بحبال من القنب، كما كانوا يضربون بالسياط قبل إيداعهم السجن. وفي سنة 333هـ/944م ضرب خاطب وظيفة ضرباً مبرحاً، وقرض لحم فخذيه بالمقاريض، وانتزعت أظفاره[17] ووجدت في بعض الأوقات وظيفة «صاحب العذاب»[18]. وكان السجن قذراً، ومليئاً بالحشرات، من خنافس وبنات وردان، كما كان مسرحاً للأفاعي والبق[19].

تفنن رجال السلطة في تعذيب المصادرين، فقد أخرج ابن عبدون من السجن ميتاً واتهم بقتله الوزير ابن الفرات، ووجد عند غسله وقد أكل لحم ذراعيه، وعذب ابن الفرات بدوره وأقيم بين حجرين وضرب خمس درر، وضرب ثلاث دفعات بالقلوس، وتدود جسم ابنه المحسن من تأثير الضرب[20]. وكان ابن الفرات يريد رجلاً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر يطيعه في تعذيب المصادرين[21].

الإشراف على الحبوس: كان «أصحاب الحبوس» يشرفون على السجن[22]. وكان السجناء يفيدون من بعض التقديمات. فقد كان المهدي يجري على السجناء[23]. وأوصى أبو يوسف الرشيد بالعناية بالسجناء. واقترح أن «يؤمر بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وادمهم، أو يصيّر ذلك دراهم تجري عليهم وتدفع كل شهر» ونصح بعدم إجراء الخبز خوفاً من أن يذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوزة، وأوصى بأن يولي ذلك رجلاً من

---

(15) المنتظم، ج 6، ص 147 . 153 .
(16) عريب، ط. الاستقامة، ص 58، 59، 99.
(17) الفرج بعد الشدة، ط. القاهرة، ج 2، ص 52، طيفور، ص 97، الهمذاني، تكملة الطبري، ص 145 .
(18) الطبري، ج 8، ص 537.
(19) الفرج بعد الشدة، ط. القاهرة، ج 1، ص 43، الأغاني، طبعة بولاق، ج 5، ص 5 .
(20) الصابي، الوزراء، ص 157، 68، 69.
(21) المصدر نفسه، ص 139 .
(22) المسعودي، مروج، ج 2، ص 398 .
(23) الطبري ج 8، ص 144 .

أهل الخير والصلاح، يثبت أسماء من في السجن ممن تجري عليهم الصدقة وتكون الأسماء عنده، ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر. فيقعد ويدعو باسم رجل رجل، ويكون الإجراء عشرة دراهم في الشهر لكل واحد. وكان من رأي أبي يوسف، أنه ليس كل من في السجن يحتاج أن يجرى عليه، ثم طلب أن تكون كسوتهم في الشتاء قميصاً وإزاراً وأن يجري على النساء مثل ذلك، وأن تكون كسوتهن قميصاً ومقنعة وكساء في الشتاء، وفي الصيف قميصاً وإزاراً ومقنعة. واقترح أبو يوسف أن يمنع الخليفة من خروج السجناء في السلاسل يتصدق عليهم الناس. وذكر أن من السجناء من كان يموت في السجن، فيمكث فيه اليوم واليومين، حتى يستأمر الوالي في دفنه، وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يحمله إلى القبر[24].

في القرن الرابع كان إلى علي بن عيسى تدبير الدواوين في وزارة حامد بن العباس، وقد كثرت الأمراض في إحدى السنوات، وكان سنان بن ثابت الطبيب يتقلد البيمارستانات ببغداد وغيرها، فكتب إليه علي بن عيسى يقول: «فكرت في أمر من في الحبوس، وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم، أن تتناولهم الأمراض، وهم معوقون عن التصرف في منافعهم، ولقاء من يشاورونه من الأطباء فيما يعرض لهم، فينبغي أن يفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم، وتحمل إليهم الأدوية والأشربة، ويطوفون في سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى ويزيحون عللهم فيما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة، ويتقدم بأن تقام لهم المزورات لمن يحتاج إليها منهم» «فشغل سنان ذلك طوال أيامه»[25].

ولم يكن للسجين دائماً مدة معينة يقضيها. فقد سجن يعقوب بن داود خمسة عشر عاماً، وحبس لص سنتين في كساء ثمنه درهمان، وحبس المتقي خمساً وعشرين عاماً[26].

وكانوا ربما يسمحون للسجين بتعلم المهن، كشغل التكك[27]. وبلغت النفقات على السجون في عهد المعتضد 279 ـ 289هـ/892 ـ 901م وعهد المقتدر 295 ـ 320هـ/907 ـ 932 ألفاً وخمسماية دينار شهرياً ثمن أقوات المحبوسين ومائهم وسائر مؤنهم[28].

---

(24) أبو يوسف، الخراج، ص 162 ـ 63.

(25) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 1، 3، القفطي، ص 193.

(26) الفرج بعد الشدة، ج 1، ص 149، طيفور، بغداد، ص 14، المنتظم، ج 6، ص 265.

(27) آدم متز، ج 2، ص 196.

(28) الصابي، الوزراء، ص 26.

4 ـ البريد والأخبار

كان المنصور يمني نفسه بأن يوفق بصاحب بريد جيد، ويحرص على تلقي رسائل أصحاب البريد مباشرة، ويطلب أن يكتبوا له بأسعار السلع وأخبار العمال، من قضاة وأصحاب خراج[1].

ورغب خلفاء بني العباس في تنشيط البريد، فحسنوا طريق بغداد القديم المعروف بطريق خراسان، وجهزوا الطرق بمحطات يرتاح فيها موظفو البريد ويستبدلون دوابهم[2]. وازدهرت حركة التأليف في المسالك، تفصّل سكك المملكة، وتوضع بين أيدي موظفي الإدارة.

كانت البغال أكثر الدواب استعمالاً في البريد في الشرق، واستخدمت الإبل في الغرب، وكانت الخيل تستخدم أحياناً[3]. وقيل: إن عدد دواب البريد في العصر العباسي الأول بلغ أربعين ألفاً، موقوفة على إبلاغ رسائل الخليفة وأخباره من بغداد إلى أقطار سلطانه[4].

اكتسب نظام البريد أهمية كبيرة في أوقات السلم وأوقات الحرب. ويذكر الجاحظ أن أمر البريد اختلط في عهد المأمون، فوجه بمن يستقصي السبب[5]. ونظم المعتصم البريد أثناء حركة الزط سنة 217هـ/832م، فرتب الخيل في سكك البريد تركض بالأخبار، حتى كانت تصل من طريق البصرة إلى بغداد في يوم واحد[6].

ولم يكن البريد يستخدم في غير أغراض رسمية، إلا أنه كان يستخدم في أغراض أخرى غير نقل الرسائل. فكان حريم الوزراء يراسلن أزواجهن بواسطة البريد، وكان بعض رجال السلطة يستخدمون حيوان البريد في الانتقال، كما استخدم في نقل الخضار والفاكهة إلى الخلفاء في بغداد[7]. ويذكر الخطيب البغدادي بريداً للمسجد[8]، الذي

---

(1) الطبري، ج 8، ص 67، 97.

(2) الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 327، المقدسي، ص 66. الخوارزمي، مفاتيح العلوم، (القاهرة، 1342هـ) ص 42.

(3) أنظر، د. سوردل (بريد)، دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية الجديدة ج 7، ص 181.

(4) الجاحظ، رسائل، ج 2، القول في البغال، ص 269.

(5) المصدر نفسه، ص 266.

(6) الطبري، ج 9، ص 8.

(7) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 115. أيضاً، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 305.

(8) تاريخ بغداد، ج 13، ص 205.

ربما كان يستخدم في نقل الأخبار بين المسجد ورجال السلطة.

أما الرسائل الخاصة بين الناس، فلم تكن تنقلها إدارة البريد الرسمية. ولدينا من الإشارات ما يدل على قيام أصحاب العلاقة بإبلاغ رسائلهم بواسطة أشخاص غير موظفين، اتخذوا نقل الرسائل بين الناس مهنة لهم ويسمون «الفيوج»[9]، ويبدو أن هذه المهنة انتشرت حتى أخذت السلطات في القرن الرابع توكّل بالطرق من يفتش الناس لتؤخذ منهم الكتب ويصار إلى الوقوف على مضمونها[10].

كان الخليفة يعين عمال البريد في بغداد والنواحي من الرجال الموثوقين في أنفسهم وعند الخليفة، وإنما يحتاج في البريد الرجل الثقة المتحفظ[11]. وكان عمل صاحب البريد جمع الكتب الواردة إليه وعرضها على الخليفة، والنظر في أمور «الفروانقيين والموقعين والمرتبين في السكك»[12] ويجري أرزاقهم، تقليد أصحاب الخرائط في سائر الأمصار[13]. وقد حفظ قدامة نسخة عهد بولاية صاحب البريد، وهي تفصل واجبات صاحب البريد، ومنها أن يختار من يستعين به في عمله، وأن يعرف حال عمال الخراج والقيام في ما يجري عليه أمرهم، وأن يتعرف على عمارة البلاد وما يجري في أمور الرعية من معاملات من إنصاف أو جور، وأن يوكل بمجلس عرض الأولياء (الجند) واعطياتهم، وأن يعرض المرتبين لحمل خرائطه ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم وعدد السكك في جميع عمله وأطوالها ومواضعها إلى الموقعين بإثبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخروا، وأن يفرد لأخبار القضاة وعمال المعاون والأحداث والخراج والضياع وأرزاق الأولياء كتباً ليجري كل كتاب في موضعه[14].

وكانت أخبار أصحاب البريد من الدقة بحيث أنها كانت تورد معلومات عن أمور غير سياسية أو إدارية، من ذلك وقوع الأمراض والأوبئة وأخبار الظواهر الطبيعية الفريدة[15].

---

(9) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ط. بيروت، ج 2، ص 300.

(10) التنوخي. نشوار المحاضرة، ج 2، ص 115.

(11) قدامة بن جعفر، الخراج، ص 184 ـ 185، وط. بغداد، ص 77.

(12) الفرانق: الحامل للخرائط، والموقع: الذي يوقع، أو ما يشبه «قلم الإدارة» أو الاسكدار، أنظر مفاتيح العلوم، ص 42.

(13) قدامة بن جعفر، ص 184، وط. بغداد، ص 77.

(14) المصدر نفسه، ط. بغداد، ص 50 ـ 52.

(15) أنظر، المنتظم، ج 6، ص 2.

ويبدو أن نشاط البريد مرتبط بقوة الخليفة والنشاط الأمني. فأخبار البريد في عهد المعتضد 279 ـ 289هـ تدل على نشاطه وانتشاره حتى طالت الوزراء ورجال الشرطة وعمال الإدارة[16].

أصيب البريد بنكسة في بداية عهد البويهيين[17]، إلا أنهم لم يلبثوا أن أعادوا تنشيطه، فروجوا لرياضتي الركض والسباحة لكي يستعملوا السعاة فيهما، بعد أن كان البريد في العصر العباسي الأول يعتمد على البرّ فقط. فحرص أحداث بغداد وضعفاؤها على الإقبال على السباحة وإجادتها، حتى أصبحوا يقطعون المسافات الطويلة بالمدة القصيرة، طمعاً في أن يكونوا من موظفي إدارة البريد؛ ورتب معز الدولة على كل فرسخ من الطريق قوماً يحضون على الركض، فصاروا أئمة السعاة ببغداد وانتسب إليهم السعاة وتعصب الناس لهم[18]. وفي عهد عضد الدولة كانت الأخبار ترد من شيراز إلى بغداد في 7 أيام، وتصل الفواكه طازجة. واستخدم عضد الدولة البريد في نقل الخراج. وكانت الكتب تفض أمامه ويفرق على موظفيه مما يحمل إليه. وكان يحرص على أن تعرض عليه الكتب الواردة إليه والصادرة عنه، فربما زاد فيها أو نقص منها، وتختم وتجعل في اسكدارها وتحمل إلى الديوان فتصدر من وقتها، كذلك كان عضد الدولة ينتظر ورود النوب بعد ظهر كل يوم، حتى إذا تأخرت أجرى تحقيقاً في سبب ذلك، فإن كان الموظف مسؤولاً عن العائق عاقبه بشدة[19].

ويبدو أن وظيفة صاحب البريد كانت من الأهمية بحيث يكافأ بها المقربون من السلطة، حتى كان أحد أحفاد الخليفة الواثق يرجو أن يقلد عمل البريد والمظالم[20].

وليس لدينا من تفصيلات حول رواتب أصحاب البريد والعاملين فيه، إلّا مبالغ إجمالية. فقد ذكر ابن خرداذبة أن نفقات الدواب وأثمانها وأرزاق البنادرة والفروانقيين لسنة واحدة بلغت (159100 دينار)[21]، وذكر الصابي أن نفقات رجال البريد في بغداد

---

(16) أنظر: نشوار المحاضرة، ج 8، ص 114، الصابي، الوزراء، ص 95، مسكويه، ج 1، ص 25، الثعالبي، يتيمة الدهر، بعناية محي الدين عبد الحميد، (القاهرة 1377 هـ) ج 4، ص 192، المنتظم ج 6، ص 341.

(17) دائرة المعارف الإسلامية، ج 7، ص 182.

(18) الجاحظ، رسائل، ج 2، ص 269، السيوطي، ص 428، ابن الجوزي، المنتظم، ج 6، ص 341.

(19) أبو شجاع، ص 40، 41، المنتظم، ج 7، ص 195.

(20) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج 4، ص 134، 192.

(21) المسالك والممالك، ص153.

من أصحاب الركاب والجنائب ومن يخدم في دواب البريد خمسة دنانير في اليوم[22].

الحمام الزاجل: كثر استخدام الحمام الزاجل في البريد في العهد العباسي. وكان الحمام الهدّي يؤدي الرسائل بين بغداد والموصل في يوم واحد. وأقيمت في بغداد وخارجها أبراج خاصة أوكل بها براجون[24].

استخدم الحمام في نقل أخبار سياسية خاصة، ففي عهد الموفق سقط في زورق صاعد بن مخلد طائر يحمل رقعة فيها سعاية به عند الموفق، وكان عامل ابن الفرات يكتب إليه بالخبر على الطيور، وأقام ابن مقلة سنة 316هـ طيوراً للبريد يتسقط بواسطتها أخبار القرامطة وقتاً بوقت، وكتب عضد الدولة رسالة إلى الكوفة على طائر كوفي، وجاء الرد على طائر بغدادي، كذلك استخدم بهاء الدولة سنة 385هـ طائر البريد[25].

وأقبل البغداديون على شراء الحمام الزاجل، فكان يباع الفرخ الذكر منه في بغداد بعشرين ديناراً أو أكثر، وبيعت الأنثى بعشرة دنانير أو أكثر، وبيعت البيضة بخمسة دنانير. ويذكر الجاحظ أسعار الحمام في موضع آخر، فربما بيع الواحد منه بخمسين ديناراً، وفرخه بثلاثة دنانير والبيضة بدينارين. ويبدو أن الأنثى كانت مفضلة لدى البغداديين حيث يعدونها لحمل الرسائل. وكان النوع المفضل من الحمام هو الهدّي المعروف بأرض العراق والشام، فكان يشترى بالأثمان الغالية ويرسل في الغايات البعيدة[26].

الأخبار: اتصلت الأخبار بديوان البريد، وربما أوكلت الوظيفتان إلى شخص واحد، إلا أنه كان للأخبار في القرن الرابع ديوان مستقل[27]. وكان لنقل الأخبار مكانة خاصة لدى الخلفاء، فقد رغب المنصور في الإستعانة بأهل بيته لنقل الأخبار، ثم عدل عن رأيه مخافة أن يضع من أقدارهم[28].

---

(22) الوزراء، ص 15.

(23) الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، بعناية أبو الفضل ابرهيم (القاهرة، 1966) ص 468، أنظر أيضاً، الفرج بعد الشدة، . القاهرة، ج 2، ص 150.

(24) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 2، المنتظم، ج 5، ص 66.

(25) الصابي، الوزراء، ص 42، المنتظم، ج 6، ص 216، ج 7 ص 212. أبو شجاع، ص 217.

(26) الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 212، 295، 223، أيضاً الأغاني، ط. الهيئة العامة، ج 23، ص 207.

(27) الصابي، الوزراء، ص 336.

(28) الطبري، ج 8، ص 85.

وكان أصحاب الأخبار يلجأون إلى وسائل متعددة، وكانوا يعولون في أخبارهم على «الطفل والمرأة والمحتال والزعر وابن السبيل». وكان أصحاب الأخبار يوزعون على أرباع بغداد[29].

اهتم المعتضد بجمع الأخبار بنفسه، فكان يسأل جليسه عن الأخبار ببغداد، ومن قدم البلد، ومن سافر عنه، ومن مات، ومن ولد، ومن خاصم، ومن ورث، ومن رجف به الناس. وكان صاحب خبره يجمع الأخبار ويكتب بها في كل نصف يوم ويوصلها إلى المعتضد بواسطة خادم يعطيه ثلاثين ديناراً كل شهر. وكان الخليفة يتخبر على وزيره بواسطة شاب يظهر أنه كسيح فقير يحبو على يديه ويدخل قصل الوزير، ويستقصي أخباره من الخدم[30].

وكان رجالا الإدارة يتخبرون على بعضهم، كما أقام ابن الفرات إدارة أخبار خاصة ترفع إليه الأخبار بواسطتها. وكان لنصر القشوري خادم يعوّل عليه في استقصاء أخبار الخليفة. وحاصر مؤنس دار القاهر وفتش كل من دخل إليها، حتى فتش لبناً حملته إحدى الجواري. ولجأ عضد الدولة إلى معلمي الصبيان ليجمعوا له أخبار أولاد الجند وتحركاتهم[31].

وفي النصف الثاني من القرن الرابع تطور السعاة الذين بدأ معز الدولة بإعدادهم، حتى شكلوا جماعة خاصة بالسلطان، تجمع له أخبار الناس. ويبدو أن مساوئهم زادت حتى صرفهم القادر في نهاية القرن الرابع، وجمعهم وأجرى لهم ونفاهم إلى الثغور، ليكونوا عيوناً للملك على الأعداء. وقد نوقش وضع أصحاب الأخبار ومدى صحتها في ضوء الشريعة التي كانت تتطلب شاهدي عدل، كما رأى القادر بأن السعاة شريرون حاقدون على الناس، مما يجعل أخبارهم موضع شك[32].

---

(29) طيفور، تاريخ بغداد، ص 35.

(30) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 63، 276 ـ 278 283.

(31) أنظر، المصدر نفسه، ج 8، ص 30 الوزراء، ص 48، 90. الهمذاني، تكملة الطبري، ص 75، أبو شجاع، ص 59.

(32) فوات الوفيات، ج1، ص 59، طيفور، ص 36.

5 ـ القضاء

ولاية القاضي: عمل العباسيون على دعم القضاء، وتخيروا له صدور العلماء لما له من أهمية في تثبيت أركان السلطة، إذ كان القضاء كما قال الخليفة المعتضد: «عمود السلطان وقوام الأديان»[1]. لذا كان القضاة مستقلين عن السلطة السياسية، مما أكسب القضاء سطوة وهيبة، حاول القضاة المحافظة عليها بالتجمل بالوقار وارتداء الثياب اللائقة[2].

أكدت المصادر أن ولاية القاضي تتم بموجب عهد يصدر عن الخلفاء منذ أيام المنصور[3]، وربما تمت ولاية القضاء بناء لرغبة أهل البلد أنفسهم، كما حصل مع وكيع القاضي، وكذلك ضج أهل بغداد سنة 234هـ وطالبوا بالقاضي الوابصي ورفضوا من اقترحه المتوكل عليهم[4]. وبقيت السلطة القضائية طوال العهد العباسي تحت إشراف الخليفة الذي بقي يمارس حقه في تعيين القضاة حتى في الأيام التي فقد فيها سلطته السياسية. فقر أمر المستكفي سنة 334هـ بالكشف عن الشهود ومراقبة القضاة[5]، ورفض القادر (394هـ) تولية قضاء القضاة لعلوي قلده المنصب بهاء الدولة البويهي، وكان المطيع قدر رفض تولية ابن أبي الشوارب الذي ضمن القضاء في بغداد (350هـ) على أن يقدم لمعز الدولة البويهي 200 ألف درهم كل سنة[6].

وكانت مهمة القاضي تنتهي بالاستقالة. فقد استقال قاض لأنه تعرض لمحاولة ارتشاء، واستعفى أحمد بن عيسى الزينبي من قضاء بغداد في عهد المعتضد (279 ـ 289هـ) ولزم بيته واشتغل بالعبادة. واستقال أبو جعفر بن البهلول سنة 314هـ ليكون له بين الصدر والقبر فرجة يتعبّد فيها[7].

---

(1) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، (المكتب التجاري، بيروت، د. ت) ص 20، التنوخي، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 231، 245.

(2) أنظر، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 389. نشوار المحاضرة، ج 2، ص 12 15، 17، 23.

(3) الماوردي، أدب القاضي، بعناية محي هلال السرحان (مطبعة الارشاد، بغداد، 1971) ج 1، ص 137، أيضاً، السمناني الحنفي، روضة القضاة وطريق النجاة، بعناية صلاح الدين الناهي (مطبعة أسعد، بغداد، 1970) جـ 1، ص 61، الخطيب البغدادي، ج 14، ص 103.

(4) تاريخ بغداد، ج 9، ص 417، ج 11، ص 52 ـ 53.

(5) أنظر، أبو يوسف، الخراج، ص 201، المسعودي، مروج، ج 2، ص 584.

(6) نشوار المحاضرة، ج 8، ص 358. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 431، أيضاً المنتظم، ج 7 ص 2، 227.

(7) تاريخ بغداد، ج 12، ص 309. ابن قطلوبغا، تاج التراجم الحنفية، (مكتبة المثنى، بغداد، 1962) ص 14، المنتظم، ج 6، ص 202.

كذلك كانت تنتهي مهمة القاضي بالعزل، فقد صرف الرشيد القاضي العوفي بعد أن كتب إليه صاحب الخبر عنه، وعزل المستكفي القاضي ابن أبي الشوارب سنة 334هـ لما عرف عنه من ميل إلى الاسترشاء. وفي سنة 363هـ صرف القاضي ابن معروف لأنه رفض الانصياع لأحد الحجاب ومخالفة الحق[8].

شروط القضاء: اشترط في القاضي أن يكون عاقلاً، بالغاً، صالحاً، ورعاً، حراً، مسلماً، عدلاً، له تمييز في ولايته، عالماً بالأصول والفروع، واشترط بعضهم سلامة الحواس من سمع وبصر. ومن أجل ذلك اعتزل القاضي البجلي القضاء (190هـ) بعد أن أنكر من بصره شيئاً[9]. وأخضع بعض القضاة لامتحان في الأهلية العلمية[10].

كان الكثير من الفقهاء يتمنعون عن دخول القضاء، حرصاً منهم على سلامة دينهم. وفي القرن الرابع رفض أبو بكر الجصاص (ت 370هـ) العمل في القضاء[11] ووجد بالمقابل من انبرى لإيراد الحجج الدينية في الحض على ولاية القضاء وإباحته[12]. والواقع أن بعضاً من الفقهاء الذين أقبلوا على القضاء قد طمعوا في كسبه بعد إملاق، كأبي يوسف الذي كان يتيماً يعمل عند قصّار؛ وكان صالح بن أحمد بن حنبل يلوم نفسه على تقلد القضاء، وأنه ما دخل في هذا الأمر إلاّ لِدَيْن غلبه[13].

رزق القاضي: أجاز الحنفية أخذ الرزق على القضاء وقالوا: بأن يعطي الإمام شيئاً لأعوان القاضي، وما يصرفه في القرطاس؛ وأجاز الشافعي الرزق لمن لم يكن له كفاية مالية[14] وقد دفع الرشيد إلى وكيع ثلاثة آلاف درهم لثلاثة قضاة[15]. وكان مجموع ما يجريه المقتدر على قضاة المملكة في القرن الرابع (295 ـ 320هـ) يبلغ 56560

---

(8) وكيع، **أخبار القضاة**، (القاهرة، 1947) ج 3، ص 267، **المنتظم**، ج 6، ص 389 ـ 390، ج 7، ص 67، **تكملة الطبري**، ص 147.

(9) السمناني، ج 1، ص 52 ـ 54، أبو يعلى الفراء الحنبلي، **الأحكام السلطانية**، ص 61، الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ج 7، ص 18.

(10) أبو حيان التوحيدي، **البصائر والذخائر**، ج 2، ص 532.

(11) أنظر، وكيع، **أخبار القضاة**، ج 1، ص 7، 14، 16، أيضاً: **تاريخ بغداد**، ج 6، ص 151، ج 9، ص 286، أيضاً: ابن قطلوبغا، ص 4.

(12) أنظر، الماوردي، **أدب القضاء**، ج 1، ص 127، 129، السمناني، ج 1، ص 82.

(13) **تاريخ بغداد**، ج 14، ص 244، ج 9، ص 318.

(14) السمناني، ج 1، ص 85، 87.

(15) **تاريخ بغداد**، ج 9، ص 417.

ديناراً سنوياً[16]. وبالرغم من الإقبال على القضاء للاتساع برزقه، إلاّ أن بعض الناس قد قبل ولاية القضاء ورفض لنفسه الرزق، كما فعل عمر بن أكثم، قاضي بغداد سنة 352هـ[17].

عمل القاضي: حددت عهود الخلفاء إلى القضاة أعمال قضائهم. ففي عهد المطيع إلى قاضي القضاة محمد بن صالح الهاشمي سنة 363هـ ذكر الخليفة جميع الأعمال التي ولّى قاضيه عليها. وشملت جميع رقعة الدولة العباسية، كما تضمن العهد تفصيلات لمهام القاضي التي عليه النظر فيها[18].

المناطق القضائية: بعد قيام معسكر المهدي وإخراج الأسواق من المدينة المدورة إلى الكرخ، صرنا نلاحظ وجود أكثر من قاض في بغداد. وربما كان سبب ذلك هو اعتبار الرصافة مستقلة قضائياً عن المدينة لمدورة. ففي عهد المهدي كان عافية بن يزيد قاضياً على الجانب الشرقي[19]. ولم يلبث أن ساد تقليد جعل من مدينة السلام مناطق قضائية يقضي فيها عدة قضاة. فكان القاضي يسمى على قضاء «باب الطاق» أو «سوق الثلاثاء» أو قاضي «الشرقية» و«الكرخ»[20].

أصول القضاة: كان معظم قضاة العباسيين من أصول عربية[21]. وكانت وظائف القضاة تنتقل إلى أبنائهم[22]. واشتهر آل أبي الشوارب الأمويين بتوليهم قضاء بغداد لفترة طويلة[23]، وتولى منهم ثمانية قضاء القضاة[24].

غلب المذهب الحنفي على مذاهب القضاة، إلا أنه كان يلي القضاء رجال من أصحاب المذاهب الأخرى، وهم من القلة بحيث يشير المؤرخون إلى ذلك بوضوح.

---

(16) المنتظم، ج 7 ص 70.

(17) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 47، المنتظم، ج 7، ص 16.

(18) أنظر، المنتظم، ج 7، ص 64 ـ 65.

(19) تاريخ بغداد، ج 12، ص 307.

(20) أنظر، المختار من رسائل الصابي، بعناية شكيب ارسلان، ص 170، أيضاً، المنتظم، 6، ص 167، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 10، ص 141، وج 12، ص 264.

(21) أنظر الخطيب البغدادي، ج 7، ص 83، ج 13، ص 451، ج 14، ص 102.

(22) العيون والحدائق، ج 3، ص350المنتظم، ج 6، ص 247، نشوار، ج 2، ص 320.

(23) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 156، المنتظم، ج 5، ص 27.

(24) صالح أحمد العلي، قضاة بغداد، مستل من مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد 18، مطبوعات المجمع العلمي العراقي (بغداد، 1969) ص 16 ـ 17.

فذكر أن عمر بن أكثم الشافعي ولي قضاء قضاة في بغداد، ولم يل قبله قاضٍ شافعي غير ابن أبي السائب[25].

وفي سنة 367هـ ولي محمد بن أحمد بن عبد الله قضاء مدينة المنصور والشرقية، وكان على مذهب مالك[26]. وقد أجاز الشافعية أن يحكم القاضي بمذهب أبي حنيفة استناداً إلى قاعدة الاجتهاد التي كان للقاضي الحق في اللجوء إليها[27].

مكان القضاء: يباشر القضاء معالجة المسائل التي تعترض علاقات الناس فيما بينهم، دون تعاطي أعمال السياسة والادارة، التي كانت من صميم واجبات الخليفة. لذلك لم يخصص القضاء بمكان رسمي تجري فيه المحاكمات، بل جعل الجامع مركز القضاء.

درج قضاة بغداد على الجلوس في جامع المدينة، الذي كان ملاصقاً لقصر باب الذهب[28] وأخذت العهود تنص على جلوس القاضي في الجامع للقضاء بين المتخاصمين ليتساووا، وليكون الباب مفتوحاً أمام الجميع[29]. وربما كانت تحدث مخالفات لهذه القاعدة، فكان المحتسب يتدخل ويطلب إلى القاضي الجلوس في الجامع لكي «يناله القويّ والضعيف كما ورد في عهده»[30]. وكان القاضي يجلس على أرض الجامع وتحته بارية (حصيرة)، وربما خص بعض القضاة أنفسهم بشيء من وسائل الراحة[31].

قاضي القضاة: تألف الجهاز القضائي من القضاة ومعاونيهم. وعرفت وظيفة قاضي القضاة منذ عهد أبي يوسف[32]. ويعتقد البعض أن هذا النظام اقتبس من الفرس[33] ولعل المنصب استحدث بعد أن رأى الخليفة أن يوكل مهمة مراقبة القضاء إلى كبيرهم. لذلك ورد في عهد ابن معروف سنة 356هـ أمر الخليفة بالإشراف على الحكم والحكام[34].

---

(25) **تاريخ بغداد**، ج 11، ص 247، **المنتظم** ج 6، ص 357، ج 7، ص 16 ـ 18.

(26) **المنتظم**، ج 7، ص 90.

(27) الماوردي، **أدب القاضي**، ج 1، ص 185 ـ 186.

(28) **المنتظم**، ج 5، ص 45، وج 6، ص 247، وكيع، ج 3، ص 250، 251.

(29) **المنتظم**، ج 7، ص 209.

(30) **نشوار المحاضرة**، ج 2، ص 110.

(31) **تاريخ بغداد**، ج 11، ص 445.

(32) المصدر نفسه، ج 8، ص 242، 43 وكيع، ج 3، ص 256.

(33) أنظر الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، بعناية أحمد زكي (القاهرة، 1914) ص 15، وايضاً E. Tyan, **Histoire de l''organisation judiciaire au Pays de L'Islam,** (Leiden. 1960), p. 124.

(34) **المنتظم**، ج 7، ص 38.

كان قاضي القضاة من كبار رجال الدولة، حتى ان بعضهم غلب على الخلفاء. وصلى أحمد بن أبي دؤاد صلاة يوم النحر، نظراً لمرض الخليفة الواثق[35]. وكان أبو عمر محمد بن يوسف من الشخصيات البارزة في الدولة في القرن الرابع، فقد كان من المشاركين في محاولة الإنقلاب الفاشلة ضد المقتدر، ورشحه علي بن عيسى للوزارة، إلاّ أن المقتدر رفض العدول عن «الوزراء إلى أصحاب الطيالس»[36].

معاونو القاضي

أ ـ خليفة القاضي: كانت العهود إلى القضاة تسمح لهم بالاستخلاف. ففي عهد المطيع لقاضي القضاة ابن قريعة، سمح له أن يستخلف على عمله من أحب استخلافه[37]. وتركت لنا الأخبار الكثير عن خلفاء القضاة. فأبو يوسف استخلف ابنه على الجانب الغربي من بغداد، وخلف عمر بن أبي عمر أباه على القضاء في الجانب الشرقي والشرقية وسائر ما كان لقاضي القضاة. وعرّف التنوخي رجلاً بأنه كان من خلفاء القضاة ببغداد[38].

ب ـ كاتب القاضي: طلب نص العهد إلى القاضي أن يستصحب كاتباً دربا بالمحاضر والسجلات[39]. وكان الكاتب يتقاضى راتبه من بيت مال المسلمين، وبلغ راتب الكاتب الشهري في بغداد في سنة 363هـ 300 درهم شهرياً[40].

ج ـ الحاجب أو البواب: طلب المطيع إلى قاضيه أن يكون له حاجب لا يقبل الرشوة ولا يلتمس جعلاً[41] وقد استبعد السمناني وجود حجاب تتوفر فيهم شروط الأمانة والحياد، واعتبر أنها «صفات ترد في الكتب»، لأن البوابين والحجاب كانوا يأخذون الأجر على الإحضار، ويساومون على الأجر في المحاكمات[42]. وكان الحاجب يتقاضى أجراً شهرياً من بيت المال بلغ 150 درهماً في سنة 363هـ، وتقاضى البواب

---

(35) **مروج الذهب**، ج 2، ص 388، 399.

(36) **نشوار المحاضرة**، ج 2، ص 89، **الصابي، الوزراء**، ص 348.

(37) رسائل الصابي ص 214.

(38) الخطيب البغدادي، ج 14، ص 243، ج 11، ص 230، **أيضاً نشوار المحاضرة**، ج 1، ص 93.

(39) **رسائل الصابي**، ص 177.

(40) الكندي، **الولاة والقضاة**، بعناية فن كست، (مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908) ص 574، **المنتظم**، ج 7، ص 64.

(41) **رسائل الصابي**، ص 177.

(42) **أدب القضاة**، ج 1، ص 133.

100 درهم[43].

د ـ **الخزان**: طلب المطيع إلى قاضيه أن يتخذ الخزان المأمونين يحفظون ما في ديوانه من الوثائق والسجلات والحجج والبينات[44]، وخصص للخازن في دار الحكم مع الأعوان ستمائة درهم شهرياً[45].

هـ ـ **الأعوان والجلاوزة**: كانوا يقفون بقرب القاضي، ويأخذون الرقاع بين يديه ويوصلونها إليه، ويبعدون الناس عنه إذا جلس للمحاكمة[46]. وكان أعوان القاضي وخازنه على دار الحكم يتقاضون 600 درهم شهرياً[47].

و ـ **الوكلاء**: فرض الفقه الحنفي على القاضي اتخاذ الوكلاء العارفين بالحقوق[48]. والوكلاء هم المحامون في عصرنا. وكان الوكلاء يتقاضون رواتبهم من المتخاصمين. وفي القرن الرابع كان الوكيل يقوم بعملية حصر الإرث، من إثبات الوفاة وعدد الورثة مقابل خمسين ديناراً[49]. وكان بعض الوكلاء يقوم بعمليات ابتزاز مع الخصوم. واتهم الوزير علي بن الفرات أبا عمر القاضي بأنه يحاول أن يكون وكيل علي بن عيسى لا قاضيه[50].

ز ـ **الأمناء**: اتخذ القاضي الأمناء، ليشرفوا على أموال اليتامى، أو حفظ أموال الغيرعامة. وقد يكون من الأمناء، الأوصياء والقيمين على الضياع. وتتم محاسبتهم كل عام وحين الطلب[51]. وفي القرن الرابع فرض على عمال الخليفة رفع أيديهم عن أراضي الأيتام، وفرض القاضي على أمين اتخذه، أن يرد ما صرفه أكثر مما احتاجه القاصرون[52].

ح ـ **الشهود**: أصبح الشهود جزءاً هاماً من النظام القضائي في العصر العباسي،

---

(43) الكندي، ص 574، **المنتظم**، ج 7، ص 64.
(44) **رسائل الصابي**، ص 180.
(45) **المنتظم**، ج 7، ص 64.
(46) السمناني، **أدب القضاة** ج 1، ص 134.
(47) **المنتظم**، ج 7، ص 64.
(48) السمناني، ج 1ف، ص 122.
(49) **نشوار المحاضرة**، ص 23، 221.
(50) المصدر نفسه، ج 3، ص 222، أيضاً، الصابي، **الوزراء**، ص 319.
(51) **رسائل الصابي**، ص 179، السمناني، ج 1، ص 139 ـ 142، **نشوار المحاضرة**، ج 8، ص 20، 76.
(52) **نشوار المحاضرة**، ج 8، ص 77، جـ 3، ص 222.

حتى بدا أنهم قد شكلوا مؤسسة خاصة داخل هذا النظام. ويشير الكندي في خبرين إلى نشوء الشهود كمؤسسة، إذ قال: إن القاضي المفضل بن فضالة حين تولى قضاء مصر بين سنتي 174 ـ 177هـ/790 ـ 793م اتخذ قوماً من أهلها للشهادة رسمهم، فكانوا عشرة رجال، فرأى الناس أنه قد أتى أمراً عظيماً. وفي خبره الثاني، أشار الكندي إلى أن محمد بن مسروق ثبت سنة 177هـ الخطوة التي اتخذها سابقه، ورسم قوماً للشهادة، وترك بقية الناس، فوثبوا به[53].

وفي بغداد، اتخذ أبو يوسف أئمة مساجدها شهوداً له[54]، ثم اتخذ القاضي إسماعيل بن حماد (توفي 282هـ) خطوة جعلت الشهادة مقصورة على بيوت معروفة. وأثارت هذه الخطوة اعتراضات أهل الورع بالتهكم على الشهود الدائمين. واستمرت الشهادة في هذه البيوت، حتى وصف سليمان بن محمد بن أيوب بأنه «من أهل بيت الشهادة»[55].

وكان «صاحب المسائل» يتثبت من عدالة الشهود، وقد ظهرت هذه الوظيفة في العراق في النصف الثاني من القرن الثاني[56]. واشترط في «أصحاب المسائل» التحلي بالستر والعقل والصلاح. ويكلف القاضي أصحاب مسائله للسؤال عن الشهود وتزكيتهم. وقد اقترح أبو حنيفة أن يكون للقاضي رجلين للسؤال عن الشهود[57]، لأن ذلك كان بمثابة الشهادة التي تحتاج إلى شاهدين.

واشترط في عدالة الشاهد أن يكون معروفاً بصدق المعاملة، مؤدياً للأمانات، صدوق اللسان، وألّا يكون في سلوكه ما يجرح عدالته، كالفسق بالأفعال، من الغصب، والسرقة، أو الفسق بالأقوال، كالكذب والسعاية. وفرضت الممارسة شروطاً إضافية منها، الحياء، وربما احتيج في الشاهد إلى سوء الظن[58].

والسؤال عن الشهود قديم، ففي خلافة المنصور كان غوث بن سليمان يسأل عن

---

(53) **الولاة والقضاة**، ص 386، 389.

(54) وكيع، **أخبار القضاة**، ج 3، ص 262.

(55) أبو حيان التوحيدي، **البصائر**، ج 1، ص 100، الماوردي، **أدب القضاة**، ج 3، ص 57، أيضاً، بدري محمد فهد، **تاريخ الشهود**، مجلة كلية الشريعة (العدد الثالث، بغداد، 1966 ـ 67) ص31، **تاريخ بغداد**، ج 9، ص 64.

(56) بدري فهد، **الشهود**، ص 30.

(57) السمناني، روضة القضاة ج 1، ص 125، 228.

(58) السمناني، **المصدر نفسه**، ج 1، ص 234، الماوردي، **أدب القضاة**، ج 2، ص 39. **نشوار المحاضرة**، ج 2، ص 269.

الشهود، بعد أن رأى تفشي شهادة الزور. وبعد أن استقرت مؤسسة الشهود أصبح من واجبات صاحب المسائل أن يعيد المسألة عن الشهود بعد ستة أشهر أو سنة، إذا كثرت شهاداتهم. وكان هذا الإجراء بعد أن توسعت المدينة وزاد عدد سكانها، ولأن بعض القضاة كانوا أحياناً من خارج المدينة التي يولون القضاء فيها. فلم يكن قبل ذلك الوسم بالشهادة جائزاً[59]، إلاّ أن الخشية من قبول شهادة من لا تجوز شهادتهم، دفعت القضاة إلى تثبيت الشهود، وأقرته السلطة المختصة. فقد جاء في عهد الطائع إلى قاضي القضاة ابن معروف أمر بإقرار الشهود الموسومين بالعدالة على تعديلهم، كما أمره بمتابعة البحث عن أديانهم، والفحص عن أمانتهم[60].

وقد سمح استمرار الشهود بوظيفتهم، بقيام طبقة جديدة من أصحاب الوجاهات، حتى صار يشار إليهم بألقابهم، كما سمحت المهام التي مارسوها بأن يكون للشهود نفوذ في المجتمع. فقد تولى الشهود القضاء خلافة عن القاضي وتولوا ديوانه[61].

هذا الوضع المتقدم للشهود، دفع بالكثيرين لأن يطلبوا تعديلهم ورسمهم بين الشهود. فقد كان أحد أحفاد الواثق شاهداً في سنة 391هـ، ودفع أحدهم في القرن الرابع رشوة للقاضي ابن السائب ليقبل شهادته، وتدخل الوزير ابن الفرات لدى القاضي في قبول شهادة رفاش في بستان الوزير[62].

وفي القرن الرابع كثرت الشكوى من الشهود، فأمر الخليفة المستكفي بالكشف عن أمرهم في بغداد، وإسقاط بعضهم، واستتابة بعضهم من الكذب[63]. واشتكى قوم ما يرتكبه الشهود في بغداد، وأظهروا عيوبهم. وذكر أبو حيان التوحيدي أنه رأى شهوداً أميين جاهلين، وانحاز أحدهم إلى أحد تجار الكرخ في قضية ضده[64].

وكان أبو بكر الخوارزمي يذم العدول[65]، وأخذ القضاة يردون شهادات الشهود، حتى ان أبا عمر رد شهادة رجل تظاهر بالإنزعاج من رائحة الخمر، كما أنه أسقط شاهداً كان قد عدّله بعد أن بلغه أنه رقص فرحاً. ورد قاض شهادة شاهد صار فيها بعد

---

(59) الكندي، الولاة والقضاة ص 361، ص 422، السمناني، ج 1، ص 232.

(60) رسائل الصابي، ص178.

(61) الخطيب البغدادي، ج 11، ص 9، نشوار المحاضرة، ج 2، ص 26، 87.

(62) المنتظم ج 7، ص 119، 215، الصابي، الوزراء، ص 234.

(63) المسعودي، مروج الذهب، ج 2، ص 584.

(64) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 253، البصائر والذخائر، ج 1، ص 102 ـ 103.

(65) الثعالبي، ثمار القلوب، ص 138.

قاضياً[66]. وكان عضد الدولة يرد الشفاعات في تعديل الشهود، إلا أن ضبط الشهود لم يلبث أن تدهور في نهاية القرن الرابع، فبعد وفاة القاضي ابن معروف كثر قبول الشهود بالبذل والشفاعات حتى بلغ عددهم 303 أنفس، فأمر أبو الحسن الكوكبي المسيطر في بغداد، بإسقاط جميع من قبلت شهادته بعد أبي محمد بن معروف[67].

إلّا أن بعض الشهود كانوا يلاقون متاعب في أداء شهاداتهم. فقد امتنع شاهدان من أداء شهادتهما خوفاً من رجال أقوياء. وامتنع بعضهم عن الشهادة زهداً وتعففاً. إلّا أن بعض الشهود نالوا مرتبة الثقة، حتى كانوا يشهدون خارج بغداد[68].

ويبدو أن عدد الشهود المقبول في كل مدينة هو عشرة شهود[69] إلا أن عددهم بلغ في حدود سنة 300هـ 1800 شاهداً[70]، وكان عددهم في بغداد 303 أشخاص في سنة 382هـ[71].

ولم يكن الشهود بمنزلة واحدة، فكان منهم شهود عاديون، ومنهم وجوه بارزون. فيذكر أن طلحة بن محمد بن جعفر المعتزلي كان مقدماً في وقته (380هـ) على جماعة الشهود[72]. وكان في بغداد شهود لكل حي فيها، إذ يتحدث الخطيب البغدادي عن عدول الكرخ وشهود الشرقية[73]. ويبدو أن الشهود كانوا يتقاضون أجوراً عن شهاداتهم[74]. لكن المهم في المسألة، هو أن الشاهد بات يعتبر من أعيان البلد.

وقد كان للشهود دور هام في الحياة اليومية في المجتمع البغدادي، وساهموا إلى حد بعيد في ترسيخ قواعد النظام القضائي. وكانوا يمارسون مهمات ذات أهمية خاصة في الحياة العامة، من هذه المهمات[75]:

1 ـ توثيق العقود في عمليات البيع الشراء والديون.

---

(66) **نشوار المحاضرة**، ج 2، ص 171، **البصائر والذخائر**، ج 1، ص 100.

(67) **الخطيب البغدادي**، ج 9، ص 66، **أيضاً**: **المنتظم**، ج 7، ص168.

(67) الخطيب البغدادي، ج 11 ص 64، أو ج 6، ص 154، 19، والمنتظم، ج 7، ص 132.

(69) **نشوار المحاضرة**، ج 2، ص 269.

(10) آدم متز ج 1، ص 400.

(71) **المنتظم**، ج 7، ص 269.

(72) **تاريخ بغداد**، ج 9، ص 351، أيضاً، **المنتظم** ج 7، ص 154.

(73) **تاريخ بغداد**، ج 13، ص 32، وج 12، ص 148.

(74) أنظر، **نشوار المحاضرة**، ج 1، ص 246.

(75) أنظر، **نشوار المحاضرة**، ج 2، ص 15، 25، 87، وج 3، ص 206.

2 ـ توقيع الأحكام التي يصدرها القاضي، فيكتبون شهاداتهم ويختمونها.

3 ـ توثيق العهود السياسية التي يمنحها الخلفاء، أو العقود التي يعقدونها، سواء أكانت كتابة أو شفاهاً.

4 ـ تسهيل مهمة القاضي بالكشف عن الشهود الذين يسميهم المتخاصمون.

5 ـ تأدية الشهادة أمام القاضي.

6 ـ مساعدة القاضي في تولي بعض مهامه على بعض الأعمال.

قضاء المظالم

هو نوع من القضاء غير العادي، ويمارسه الخليفة أو من يكلفه من مساعديه الذين يمثل المتخاصمون أمامهم، أو بحضور المدعي دون المدعى عليه[76]. وكان قضاء المظالم ينظر في القضايا التي تطال الإدارات الحكومية[77]. وقد اكتسب هذا النوع من القضاء معنى أخلاقياً بأخذه نصرة الضعفاء على الأقوياء، وإقامة قوانين العدل في المملكة[78].

عرفت بغداد قضاء المظالم منذ قيامها، وكان المهدي أول من جلس للمظالم من الخلفاء، وبقي الخلفاء يمارسون ذلك حتى عهد المهتدي (255 ـ 256هـ)، الذي كان يجلس في قبة ذات أربعة أبواب سماها «قبة المظالم»[79].

وفي سنة 277هـ تعهد والي المظالم بردها من أي شخص، مهما بلغت درجته ومكانته[80]. وكان الوزراء في العهد العباسي الأول يسيئون للمتظلمين، وكان أحمد بن الخصيب (248هـ) يركل المتظلمين، وكان وزراء المأمون يشتمونهم ويضربونهم بالمقارع[81]. وخاطب متظلم حامد بن العباس وزير المقتدر، فقلب الوزير ثياب المتظلم على وجهه وكتم حلقه[82].

تولى المظالم موظفون باسم الخليفة، ثم تأكدت هذه العادة بأن أصبحت المهمة تسند أصالة إلى الوزراء في الأغلب. فقد كان الوزير سليمان بن وهب يجلس

---

(76) أنظر Tyan. **Hist. d'orga. jud.** p. 435.

(77) الخطيب البغدادي، ج 10، ص 75.

(78) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج6، ص 205.

(79) الخطيب البغدادي، ج 10، ص 306، الطبري، ج 8، ص 177، الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص 128، المسعودي، ، ج 2، ص 461.

(80) **المنتظم**، ج 5، ص 105.

(81) **نشوار المحاضرة**، ج 8، ص 81 ـ 84.

(82) المسعودي، **مروج**، ج 2، ص 425.

للمظالم[83]. وجرت محاولة طريفة في سنة 306 هـ، في مزج العمل الإداري والقضائي، وهو ما يشبه بالمحاكم الميدانية، إذ أمر المقتدر صاحب شرطة بغداد يمن الطولوني، بأن يُجلس في كل ربع من أرباع بغداد فقيهاً يسمع من الناس ظلاماتهم، ويفتي في مسائلهم، وأمره أن لا يكلف الناس ثمن الكاغد، وأن لا يأخذ الأعوان الذين يشخصون مع الناس أكثر من دانقين في أجعالهم[84].

وكان علي بن عيسى في وزارته الثانية سنة 315هـ يجلس للمظالم في كل يوم ثلاثاء، واستمر في ذلك مدة طويلة[84]. وتولى علي بن عيسى المظالم في وزارة الكلوذاني، إلا أن الوزير الحسين بن القاسم الذي خلفه على الوزارة سنة 319هـ شرط لنفسه ألا ينظر علي ابن عيسى في شيء من الأمور، وألاّ يجلس للمظالم[86]. على أنه كان يمكن إسناد هذه الوظيفة إلى رجال من غير السلطة الإدارية، فحدث أن أسندت المظالم إلى القاضي أبي عمر سنة 356هـ، وأمرت السيدة شغب أم المقتدر قهرمانة لها تعرف بـ«ثمل» أن تجلس للمظالم في التربة التي بنتها بالرصافة، وأن تنظر في رقاع الناس في كل يوم جمعة؛ فجلست وأحضرت القاضي أبا الحسن الأشناني، وخرجت التوقيعات على السداد[87].

يعتمد صاحب المظالم على قرائن لا يعتمدها القاضي، فإذا وجدت البينات، أصبح الموضوع من اختصاص القضاء. وكانت معظم قضايا المظالم تتناول أهل الخراج[88]، ونظر علي بن عيسى سنة 329هـ في خصومات بين عوّام، ورد ما يتعلق بعامل وصاحب ديوان وجندي إلى أبي عبد الله الكوفي، وبالحكم إلى الحكام[89].

وخصص ولاة المظالم للجلوس أياماً. فيذكر أن الهادي تأخر ثلاثة أيام عن الجلوس للمظالم فقيل له: إن العامة لا تحتمل هذا[90]. وكان المأمون يجلس للمظالم كل يوم أحد

---

(83) الأغاني، ط. الهيئة العامة، ج 23، ص 143.

(84) عريب، صلة الطبري، ط. الاستقامة، ص 50.

(85) المصدر نفسه، ص 90، 105، ط. المعارف، ص 113، 130، أنظر أيضاً مسكويه، ج 1، ص 212، وتكملة الطبري، ص 63.

(86) مسكويه، ج 1، ص 219.

(87) المنتظم، ج 6، ص 148.

(88) أنظر الأغاني، ج 23، ط. الهيئة العامة، ص 48، 60، أيضاً الصابي، الوزراء، ص 278، نشوار المحاضرة، ج 2، ص 18.

(89) الصابي، الوزراء، ص 343.

(90) ابن الأثير، ج 5، ص 80.

إلى الظهر، وكان يستقبل النصارى أثناء نظره في المظالم[91] وكان الوزير ابن الفرات يجلس للمظالم يوم الأحد، ويبكر في ذلك، وتقدم إليه قصص المتظلمين فينظر فيها، بعد أن يحيط نفسه بأصحاب المجالس من الدواوين[92].

ونقل لنا مسكويه نسخة كتبها علي بن عيسى إلى العمال في أمر المظالم، وقال فيها: «سبيل ما يرفعه إليك كل واحد من المتظلمين قبل النوروز من مظلمته ويدعي أنه تلف بالآفة من غلته، أن تعتمد في كشف حاله على أوثق ثقاتك، وأصدق كفاتك حتى يصح لك أمره، فيزيل بالظلم فيه فترفعه، وتضع الإنصاف موضعه، وتحتسب من المظالم بما يوجب الوقوف على حسبه، وتستوفي الخراج بعده[93]».

ضم ديوان المظالم من الموظفين: صاحب الديوان، وكاتب تثبيت، وكاتب نسخ، وكانت إنشاء، وكاتب تحرير. وكانت كتب الديوان توجه إلى أصحاب الدواوين، أو أصحاب المعونة أو من جرى مجراهم[94].

---

(91) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص 350، طيفور، بغداد، ص 55.
(92) أنظر، الصابي، الوزراء، ص 60، 76، 122.
(93) تجارب الأمم، ج 1، ص 28.
قدامة بن جعفر، الخراج، ط. بغداد، ص 63 ـ 64.

الباب الثالث

العامة

الفصل السابع: بنية المجتمع البغدادي.

1 ـ مفاهيم الطبقة الإجتماعية.

2 ـ العوامل المؤثرة في تكوين الطبقات في المجتمع العباسي.

الفصل الثامن: العامة وفئاتها

1 ـ العامة

2 ـ الرقيق

3 ـ أهل الذمة.

الفصل التاسع: المكاسب

القسم الأول: العمل في الإسلام

القسم الثاني: موارد الرزق في بغداد

أ ـ الزراعة

ب ـ الصناعة

ج ـ التجارة.

الفصل العاشر: أصناف الكسبة

الفصل الحادي عشر: تكتلات الصناع

1 ـ الأسواق

2 ـ تنظيم الصناع

3 ـ الحسبة.

الفصل السابع

بنية المجتمع البغدادي

1 ـ مفاهيم الطبقة الاجتماعية

أقبل السكان على بغداد يحملون معهم عاداتهم ومعتقداتهم ويحرصون عليها، وتجمع في المدينة حشد من الثقافات والإثنيات المختلفة. فقد وزعت المحلات والدروب على الجنود والسكان، حيث نزلوها جماعات حسب أصولهم العرقية. وخص أصحاب الأسواق بمنطقة الكرخ الكبرى، فنزلوا كل حسب مهنته. وكان للرقيق سوق خاصة، تمد المجتمع البغدادي باستمرار بعناصر بشرية جديدة.

أدى تبادل الخبرات المستمرة بين الجماعات البشرية في المجتمع الجديد الذي ضم أقليات اجتماعية، من نصارى ويهود وصابئة ومجوس، إلى ظهور دوائر معيشية تميزت بعاداتها وتقاليدها وأفكارها، كما قامت مجتمعات محلية صغرى تشكلت، إجتماعياً (سوسيولوجياً) أو أنتروبولوجياً، بشكل ضيق.

في هذا المجتمع المتنامي، كان النفوذ الفارسي والخراساني يمارس نوعاً من الوصاية السياسية والثقافية على القصر الملكي وحاشيته[1]، فراح الكتاب ينطقون بلسان النظام الاقطاعي الإيراني وقيمه التي لم تكن تتفق مع قيم الجماعة العربية[2].

---

(1) أثارت سيطرة الفرس والأتراك في القرنين الثالث والرابع نقمة البغداديين، عبر عنها طارق بن أثال الطائي بقوله (رسائل الجاحظ، ج2، ص 251 ـ 252):

أعطاهم الله أموالاً ومنزلة   من الملوك بلا عقل ولا دين

وقال ابن الحجاج في سنة 364 هـ بعد دخول أبو تغلب الحمداني إلى بغداد:

جاءتك من تغلب ساداتها   وطال ما استعجمت فاستعربي

ابن عبد الملك الهمذاني، تكملة الطبري، ص 217.

(2) جرونباوم، حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز جاويد، (القاهرة، 1956) ص 274.

كذلك أدى اتحاد النظام الخاص بطبقات الموظفين، مع الذكريات الساسانية وأخلاقيات الاقطاعيين وكبار رجل العسكريين، إلى إنتاج آراء لقيت آذاناً صاغية في البلاط العباسي[3]. فالمجتمع الساساني كان مقسماً إلى أربع طبقات هي: رجال الدين، ورجال الحرب، والكتّاب الإداريون، وطبقة الشعب من الفلاحين والصناع، وألحق رجال التجارة بالطبقة الأخيرة[4]. وقد نسب صاحب «التاج» هذا التقسيم إلى أردشير بن بابك، (تولى الحكم في الربع الأول من القرن الثالث الميلادي) وجعله أربعة أقسام:

الأساورة من أبناء الملوك، ثم النساك وسدنة بيوت النيران، ثم الأطباء والكتّاب والمنجمون، وأخيراً الزرّاع والمهّان وأضرابهم. وأضاف صاحب التاج، وكان أردشير يقول: «ما من شيء أسرع من انتقال الدول وخراب المملكة، من انتقال هذه الطبقات من مراتبها، حتى يرفع الوضيع إلى مرتبة الشريف، ويحط الشريف إلى مرتبة الوضيع». وقد حافظ الفرس على هذا التقسيم، فلم يكن بين ندماء أردشير «خسيس أصل ولا وضيعه، ولا ناقص الجوارح، ولا ابن صناعة دنيئة، كابن حائك أو حجام، ولو كان يعلم الغيب»[5].

ولم يكن من المصادفة أن ترد أولى الإشارات إلى مفهوم الفئات الإجتماعية في العصر العباسي، على لسان الفضل بن يحيى البرمكي في القرن الثاني إذ قال: «الناس أربع طبقات: ملوك قدّمهم الاستحقاق، ووزراء فضلهم الفطنة والرأي، وعلية أنهضهم اليسار، وأوساط ألحقهم بهم التأدب، والناس بعدهم زبد وجفاء، وسيل غثاء، لكع ولكاع، وربيطة أقضاع، همّ أحدهم طعمه ونومه»[6].

عبّر هذا الرأي عن موقف الخاصة التي تبنت الميراث الفارسي في النظرة إلى المجتمع. فلم يكن الإسلام، نظرياً على الأقل، يعرف تصنيفاً إجتماعياً تسلسلياً

---

(3) المرجع السابق، المكان نفسه، أنظر أيضاً، كرستنسن، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، (القاهرة 1957)، ص 2 ـ 3.

(4) كرستنسن، ص 85 ـ 86، أيضاً:

Huart et De Laporte. **L'Iran antique** (Paris. 1952). p. 363.

(5) التاج في أخلاق الملوك، المنسوب للجاحظ، ص 25.

(6) ابن الفقيه الهمذاني، مختصر البلدان، بعناية دي غويه، (ليدن، 1302هـ) وحسب القاموس، الفيروزابادي، الربيطة، ما ارتبط من الدواب، واللكع: اللئيم والعبد والأحمق، واقضاع: مقهورون.

للجماعات، إلاّ في إطار المهام التي كانوا يؤدونها في المجتمع، بل إنه قصد بالطبقات الجيل بعد الجيل، كما أن المفهوم الطبقي لم يقم على اعتبار الإنسان متحدراً من أصول نبيلة تحتفظ بحقوق تتوارثها كابراً عن كابر، بل كانت «الأهلية الشرعية» هي المعيار الأساسي في تحديد الطبقة، مع التأكيد على أن الحرية هي الأصل[7].

أثار الموقف من المجتمع سلسلة من النقاشات بين التيارات الفلسفية. فقد وضع أبو نصر الفارابي (ت 339هـ) رسالة في «السياسة» قصد منها «ذكر قوانين سياسية يعم نفعها على جميع من استعملها من طبقات الناس في متصرفاته مع كل طائفة من أهل طبقته، ومن فوقه ومن دونه»[8] فهو هنا يقول بوجود طبقات اجتماعية وبوجود طوائف داخل هذه الطبقات. ومعيار التفاضل بين الناس هو قدراتهم العقلية[9]. وفي كتاب «الحروف»، يقسم الفارابي المجتمع إلى ثلاث طبقات وهي: طبقة الفلاسفة، ثم طبقة علماء الدين، وأخيراً طبقة العامة والجمهور، التي لا تحتاج في حياتها العملية إلى استخدام قواها العقلية العليا، من تفكير أو تخيل أو تعقل، بل تقتصر على حفظ ما رسم لها. وفي مكان آخر يقسم طبقات المجتمع تقسيماً يعتمد على قدرات الأفراد العقلية، أهمهم الأفاضل الذين هم ذوو الآراء في الأمور العظام؛ ثم حملة الدين وذوو الألسنة والبلغاء والشعراء والكتاب ومن يجري مجراهم؛ ثم المقدرون، وهم الحسّاب والمهندسون والأطباء والمنجمون ومن يجري مجراهم؛ ثم المجاهدون والمقاتلة والحفظة ومن يجري مجراهم؛ ثم الماليون، أي مكتسبو الأموال، من فلاحين ورعاة ومن يجري مجراهم[10].

والهرمية الاجتماعية عند الفارابي ليست مبنية على أساس توزيع الثروات أو امتلاك وسائل الإنتاج الأساسية، بل على أساس الملكات الإرادية التي تحصل لها، وهي الصناعات وما شاكلها[11]. ويبدو أن مفهوم الطبقة لدى الفارابي يكتسب طابعاً توفيقياً. فالمجتمع عنده يضم طبقات مفتوحة يمكن أن يلتقي بعض فئاتها مع الطبقات الأخرى ضمن شروط معّينة، «إن كل واحد متى ما رجع إلى نفسه وتأمل أحوالها وأحوال غيره من

---

(7) M. Rodinson: **Histoire économique et Histoire des Classes Sociales dans le Monde musulman,** in Studies in the éco. Hist. of the Middle East. Edited by cook. (London; 1970) pp. 141 - 143. Brunshwingh, ABD, E.I², I, p. 27.

(8) رسالة في السياسة؛ نشرها الأب لويس شيخو، مجلة الشرق، مجلد 18، عدد 4، ص 648.

(9) عبد السلام بنعبد العالي، **الفلسفة السياسية عند الفارابي**، (بيروت، 1979)، دار الطليعة، ص 73 ـ 74.

(10) **الحروف**، بعناية محسن مهدي، (بيروت 1970، دار المشرق) ص 133 ـ 134. أيضاً، بنعبد العالي، ص 75 ـ 76.

(11) بنعبد العالي، ص 78 ـ 79.

أبناء الناس، وجد نفسه في رتبة يشترك فيها مع طائفة منهم، ووجد فوق رتبته طائفة منهم أعلى منزلة منه بجهة أو جهات، ووجد دونها طائفة هي أوضع منه بجهة أو جهات». وانطلاقاً من هذه الصفات المشتركة سمحت نظرية الفارابي للإنسان بأن ينتقل عبر طبقات المجتمع بحسب جهوده؛ إذ ليس في أجزاء العالم ما هو كامل من جميع الجهات، حتى العامة، فإنه يرى أن بين صفوفها أفراداً متعطشين إلى العلم، ويقضي الواجب تجاههم بأن تتاح لهم فرصة اكتسابه[12].

ورأى محمد بن يوسف العامري (ت381هـ) في المجتمع الإسلامي «أصنافاً ثلاثة»: «صنف ملوك أعزة، وولاة المنابر والأسرّة، قد نفذ حكمهم على الأقربين والأبعدين، وصنف منهم توجهوا إلى الآفاق في المغازي، فحازوا فيها نعماً جسيمة وأملاكاً عريضة، بعد أن منوا في جاهليتهم بضيق الحال وضنك العيش. وصنف منهم، وهم الجمهور من أبناء العرب، المقيمون في ديارهم، اكتسبوا شرفاً لا يجهل بانتسابهم إلى صاحب الدعوة الإسلامية، وكفاهم فخراً أن يقال للدين الإسلامي: دين العرب، وأن يقال لملكه: ملك العرب»[13].

يحاول العامري أن ينتصر للعرب، فيما هو يسجل مكاسب الفاتحين منهم ويجعلها مؤهلاً للحلول بين الطبقة العليا. بل ربما تطلع العامري إلى أن يجعل العرب نبلاء الدولة الإسلامية، بعد أن اكتسبوا الملكيات الواسعة عن طريق الفتح.

ويلاحظ أن العامري لجأ إلى كلمة «صنف» في حديثه عن العرب، كما استعمل الفارابي كلمتي «رتبة» و«طائفة»، وهو أمر له دلالته. إذ أن استعمال كلمة «طبقة» لم يرد إلّا في وصف العامري للمجتمع الفارسي فقط إذ قال: «إن العجم ابتلوا بمحنتين عظيمتين، لا يدانيهما شيء من المحن الدنيوية في الفظاعة والنكير. إحداهما: عوق الموابذة لدهمائهم بالقهر عن اقتناء الحكمة الإلهية التي يتوصل بها إلى كمال الإنسانية، والأخرى: أن طبقاتهم بأسرهم كانوا مضطهدين بسياسة الاستعباد»[14]. وهو هنا يدين المجتمع الطبقي عند الفرس، الذي يحكم على الإنسان بالبقاء في طبقته، ويحرمه من الترقي، ويجرده من حوافز العمل.

يبدو لنا أن العامري يدافع عن العامة التي يسميها «الدهماء» كما يدافع عن جميع

---

(12) رسالة في السياسة، ص 649. أيضاً، بنعبد العالي، ص 79.

(13) الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق أحمد عبد الحميد غراب، (القاهرة، 1967)، ص 173 ـ 174.

(14) المصدر نفسه، ص 175.

الطبقات «المستعبدة»، وهذا الموقف أثار حفيظة أبي حيان التوحيدي، فاتهم العامري بالزندقة والإلحاد وتملق العامة بكتب يصنفها في نصرة الإسلام[15].

ويميل إخوان الصفاء إلى القول بالطبقات الاجتماعية، ويعتبرون أن المعيار فيها هو «الرياسات» التي يتولونها، وعللوا ذلك بامتناع النفس الواحدة من الإرتياض بجميع أصناف العلوم، لوجود عوائق مختلفة، ولأن كلية العلوم موضوعة بإزاء جميع قوى الصناع[16].

كما يربط الإخوان التعاون بين الناس بنظريتهم في المعرفة، ويعتبرون أن سائر المعقولات مأخوذ أوائلها من الحواس، كما ويعتبرون أن اختلاف طوائفهم مرتبط باختلاف صنائعهم وتصاريفهم في طلب معاشهم[17].

ويخلص الإخوان إلى تقسيم الفئات الإجتماعية إلى تسع طوائف، فيضعون على رأسها طائفة أصحاب الشرائع والنبوات وأصحاب النواميس، ثم أهل العلم والحكماء وأصحاب الرياضات، ثم الملوك والسلاطين، والأمراء، وأصحاب السياسات والمتعلقين بخدمتهم، ثم البنائين والزراع، ثم أصحاب الحرف والمصلحين للأمتعة، ثم التجار والباعة والمسافرين وجلابي الأمتعة (المستوردين)، ويضعون في نهاية السلّم قطاع الخدم الذين يعملون في خدمة غيرهم، ويضمّون الضعفاء وأصحاب السؤال والمكدين وأشكالهم[18].

ويبدو واضحاً أثر واقع العصر السياسي في مفهوم الإخوان للمجتمع. فقد شهد القرن الثالث سيطرة الفكر الشيعي المتنازع على السلطة فوق أرض كانت تقوم عليها سلطة الخلافة القوية[19]، فكان أن خرج إخوان الصفاء بفكرة ارتفاع سلطان الحكماء فوق كل سلطان، وسوّغوا بذلك وجود سلطات متعددة متنازعة، وعلى الصعيد الإجتماعي أحس الإخوان بأهمية الصناع والمهنيين، وأكدوا دورهم، فأولوا الأهمية

---

(15) **الامتاع والمؤانسة**، ج 2، ص 15.

(16) **رسائل إخوان الصفاء**، (بيروت، 1957) دار صادر، ج 3، ص 426.

(17) المصدر نفسه، ج 3، ص 348.

(18) المصدر نفسه، المكان نفسه.

(19) خضع الغرب من مصر حتى المغرب إلى حكم الفاطميين الباطنيين، كما أنهم أخضعوا الشام بعض الوقت، وخضع العراقان إلى حكم البويهيين الزيدية، وخضعت أجزاء كبيرة من شبه جزيرة العرب إلى حكم القرامطة من الشيعة الباطنية. وخضعت الموصل وحلب إلى الحمدانيين.

للبنائين والمزارعين، تبعاً لنظريتهم في الإنتاج والموارد الطبيعية أو المصنّعة.

إن المواقف التي عرضنا بعضاً منها حول مفهوم الطبقة الإجتماعية في العهد العباسي، تحتل مواقع نظرية إلى حد بعيد. وإذا كان صحيحاً أن التحولات الإجتماعية تركت استثناءات خارج تلك المفاهيم، وسمحت للعديد من الأشخاص بتغيير مكانتهم الاجتماعية، إلا أن المفهوم العباسي للطبقات الإجتماعية، اقترب كثيراً من المفاهيم الاجتماعية الساسانية بقدر ما ابتعد عن المفاهيم الإسلامية والعصبية العربية، واعتمد معايير خاصة في نظرته إلى الفئات الإجتماعية.

وقد قيل: إن إسحق الموصلي سأل المأمون أن يختصه بفضل منه فيجعل دخوله عليه مع أهل العلم والأدب والرواة، لا مع المغنين، فأجابه إلى ذلك. ثم سأله بعد ذلك بمدة أن يكون دخوله مع الفقهاء والقضاة، فأذن له، ولكن سوء رأي الناس في الموسيقيين منع المأمون من تعيينه قاضياً، على حسن ظنه بمعلومات إسحق الفقهية، وعفته وعدالته[20].

وكان تقلد أحد أفراد العامة من غير الفقهاء وظيفة القضاء، سبباً أساسياً في انحلال الخلافة في رأي المحسن التنوخي (ت 384هـ)، قال القاضي التنوخي: «كان أول ما انحل من نظام سياسة الملك، فيما شاهدناه من أيام بني العباس، القضاء. فإن ابن الفرات وضع منه، وأدخل فيه قوماً بالذمامات، لا علم لهم ولا أبوة فيهم، فما مضت إلا سنوات حتى ابتدأت الوزارة تتضع، ويتقلدها كل من ليس لها بأهل، وتلى سقوط الوزارة اتضاع الخلافة، فانحلت دولة بني العباس بانحلال أمر القضاء. وكان أول وضع ابن الفرات من القضاء، تقليده إياه، أبا أمية الأحوص الغلابي البصري، فإنه كان بزازاً، فاستتر عنده ابن الفرات، وخرج من داره إلى الوزارة[21].

ويبدو واضحاً أنه لم يكن لدى العباسيين نظام طبقي يقوم على الحقوق السياسية، فلم يكن لغير السلطة ورجالها فيها من دور رسمي. إلا أن الممارسات تبدلت تبعاً للقابضين على السلطة. فالبيعة بولاية العهد كان يأخذها الخليفة على القواد والجند والعامة في المساجد[22]. وفي القرن الرابع تحكم «أصحاب السيوف» وصاروا يعقدون «الدول». ففي سنة 324هـ قبض الجند من ساجية وحجرية على القاهر، وأخرجوا

(20) ياقوت، معجم الأدباء، ج 2، ص 119، 198.
(21) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 231 ـ 232.
(22) أنظر، الطبري، ج 8، ص 240، 269، 277.

الراضي وبايع له قوادهم بالخلافة[23]. وفي العهد البويهي كان الأمر للأمير، واعترف المطيع لله بأن ليس له من الخلافة شيء وأنه محصور ليس له غير القوت[24].

أما جمهور الناس فلم يكن له أن يتدخل في مثل هذه الأمور. فقد دفع أحد الحجامين رأسه ثمناً لتساؤله أمام الرشيد عن ثلاثة أمور تمت في عهده، وهي: تقديم الأمين على المأمون والمأمون أسن منه، وأسباب مقتل جعفر بن يحيى، ثم سبب تفضيل الخليفة الرقة على بغداد[25]. وحين كانت الظروف تفرض اللجوء إلى العامة، كما حدث أثناء الحرب الأهلية في بغداد بين الأمين والمأمون، كانت المصلحة المباشرة هي العامل الحاسم في إقبال العامة على الحرب، وفي ذلك قال شاعرهم[26]:

ولست بتاركٍ بغداد يوماً	ترحّل من ترحل أو أقاما
إذا ما العيشُ ساعدنا فلسنا	نبالي بَعْدُ من كان الإماما

ويبدي ابن الأثير دهشته لما حصل أثناء خلع المقتدر وتنصيب ابن المعتز (296 هـ)، وفسر ذلك بقوله: «إن الناس كلهم أجمعوا على خلع المقتدر والبيعة لابن المعتز، فلم يتم ذلك، بل كان على العكس من إرادتهم»[27].

وكان الجوهري واضحاً جداً في تعريفه للسوقة إذ قال: «السوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان»[28].

ومهما يكن من أمر صعوبة تحديد هيكلية الطبقات الاجتماعية في العصر العباسي، إلا أن ذلك لم يحل دون قيام نظام تفصيلي للفئات الاجتماعية في ذلك العصر[29]. نجد صداه في الاهتمام بالتعبير عن الفروق الاجتماعية، في مناسبات متعددة وعبر وسائل مختلفة.

ففي العصر العباسي الأول كان التفريق بين العربي والنبطي قائماً، كما أن الفرق

---

(23) مسكويه، ج 1، ص 289، 291، أيضاً، أخبار الراضي، ص 1.

(24) ابن عبد الملك الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص 211.

(25) حسين بن محمد، الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، (مكتبة الحياة، بيروت، د.ت) مجلد 1، ص 462.

(26) أنظر، الطبري، ج 8، ص 260.

(27) **الكامل في التاريخ**، ط. صادر، ج 8، ص 18، ط. القاهرة، ج 6، ص 122.

(28) **تاج اللغة وصحاح العربية**، بعناية أحمد عبد المقصود عطار، (دار الكتاب العربي، القاهرة، 1377هـ) ج 4، ص 1499.

(29) غروبنباوم، **حضارة الإسلام**، ص 218.

بين العرب والموالي لم تزل له آثاره الباقية لدى بعض القادة من العرب، واتهم يحيى البرمكي بإسلامه وأنه يسعى على المسلمين ويكيد لهم[30].

وكان الدخول على الخليفة وفق ترتيب معين يدخل فيه الرجال كل حسب مرتبته[31]. وكان التمييز يجري بمستوى المعيشة، فقد كان الرشيد يعتقد أن الهواء تكدره أنفاس العامة في النهار، وكانت إحدى المغنيات تتلقى تدريباً في آداب خدمة الخلفاء لأنها نشأت في خدمة العوام والسفهاء، وكانوا يفرقون بين من نشأ في قصور الخلافة وغذي برقيق العيش الذي لا يدانيه عيش، وبين من نشأ بين العامة والعرب الجفاة[32].

كذلك كان التمييز قائماً في المجال الأخلاقي. فلم يكن «للعامي السفلة» أن يمارس أعمالاً مشينة، فهو لا أبوّة له ولا نعمة ولا كتبة ولا عرق[33].

وأدت التطورات الإجتماعية التي نتج عنها قيام طبقة واسعة من العمال والحرفيين والتجار، إلى اختفاء بعض المعايير الاجتماعية القديمة. ومنذ القرن الثالث أصبح الناس يتعارفون بمهنهم، فيقال الجواليقي أو الرفاء أو الكاتب أو الشاهد أو السقطي، وربما تعارفوا بأصولهم، فكان يقال البغدادي والبصري والموصلي والكوفي والبخاري والسمرقندي.. الخ[34].

وازداد تقدير المجتمع لجهود الفرد التي يبذلها لتحسين مركزه الاجتماعي، فقد جرى ذكر رجل كان صغيراً فارتفع، فقال بعض من يسمع ذكره: من ذاك الوضيع؟ أمس كنا نراه بمرقعة يشحذ. فقال علي بن محمد التنوخي: وما يضعه أن الزمان عضه ثم ساعده؟، والفقر ليس بعار إذا كان الإنسان فاضلاً في نفسه. وأنا أعتقد أن من كان صغيراً فارتفع أو فقيراً فاستغنى، أفضل ممن ولد في الغنى أو في الجلالة، فإنما بجده أو كدّه وصل إلى ذلك، فهو أفضل من أن يصل إليه ميراثاً، أو بجد غيره وكد سواه[35].

---

(30) الأغاني، ج 1، ص 69، الطبري، ج 8، ص 346، 288.

(31) تاريخ الطبري، ج 8، ص 38، 64.

(32) الثعالبي، خاص الخاص، (بيروت، 1966)، ص 51، أيضاً، غرس النعمة الصابي، الهفوات النادرة، بعناية صالح الاشتر، (دمشق، 1967)، الأغاني، ط. الهيئة العامة، ج 21، ص 54.

(33) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 228.

(34) ترجم الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد) لشخصيات بلغ عددها 7831 شخصية، والأكثرية الساحقة فيها كان يلحق باسمه مهنته أو مهنة أبيه أو أصله الإقليمي.

(35) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 100، انظر أيضاً ياقوت، معجم الأدباء، ج 5، ص 338.

وكان الأمير معز الدولة يباهي بأنه كان يحتطب لأهله مقابل أجرة، وكان أبو علي حمولي صاحب طراز الحرم الديباج، وإليه ابتياع الثياب، وقد بلغت مرتبته عند معز الدولة أجل مرتبة، يباهي بأنه كان أميناً على زورق لشدة الفقر والحاجة. وذكر أبو الفرج الأصفهاني، أن أبا علي عمل حارساً لمتاع التجار في أحد الخانات[36]. وارتفع الفضل بن مروان من مشرف على مطبخ هرثمة بن أعين إلى رتبة الوزارة في القرن الثالث، وقد روى ذلك عن نفسه وقال: «لا ينبغي لأحد أن يحقر أحداً أو ييأس من علوه»[37].

والواقع أن الطبقات الإجتماعية في بغداد خضعت لمعايير مختلفة، منها ما يسمى اليوم بالخط المهني (Career) الذي يسمح للفرد أثناء حياته العملية بالتقلب في أدوار مهنية مترابطة تتيح له إحراز تقدير اجتماعي معين ومكافآت محددة[39]. واستخدم العرب كلمة «طائفة» لتدل على الجماعة المتفقة في المهنة، وربما تسرب هذا المصطلح إلى الثقافة العربية من الثقافة الهندية التي أخذت بنظام الطوائف (Castes) الذي يدل أساساً على شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي، ويعتمد في الأصل على معتقدات دينية تتمثل في تفوق وسيادة البراهما، واعتماد ترتيب جامد يقوم على المولد والوراثة.

ولكنا نعتقد أن العرب لم يأخذو بهذا المضمون لمصطلح الطائفة بل أطلقوه على الجماعة التي تعمل ضمن حرفة واحدة والتي يتوارثها أصحابها. وهذا يعني الثبات داخل هذا الإطار المهني، كما يعني المركز الإجتماعي[40].

وكان للمكانة الموروثة تقديرها، كما كان في الوزارة والقضاء والكتابة والطب، وسجل المجتمع أيضاً أفضلية الذكر على الأنثى، وأعطى للشيوخ أفضلية على الفتيان.

غير أن الوضع الاجتماعيّ والمكانة الموروثة لم يتفقا دائماً مع واقع النمو الاقتصادي، فقامت التطورات تحد من شيوع حواجز «غير طبيعية» وتمكن لبعض الأفراد، وبشكل محدود، من تجاوز الطائفة المهنية إلى طائفة أعلى، وبقي تجمع سائر أصناف الطوائف يواجهون فرصاً متشابهة. وإذا ما افترضنا أن إتاحة فرص أكبر للتعليم وتنوع التكنولوجيا

---

(36) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 97، 99.

(37) المصدر نفسه، ص 45 ـ 47.

(38) أبو حيان التوحيدي، المقابسات، بعناية محمد توفيق حسين، (بغداد، 1970)، ص 120.

(39) أنظر، محمد عاطف غيث وآخرون، قاموس علم الإجتماع، (القاهرة، 1979)، ص 45.

(40) أنظر، عهد أردشير، بعناية إحسان عباس (بيروت، 1967) في أماكن متعددة. وهذا العهد شاع بين العرب كوثيقة سياسية ترسم للحكام أسلوب التعامل مع العامة والخاصة، وتؤكد على مفاهيم إجتماعية هامة.

يمكن أن يؤثر على استقرار الطائفة المهنية، فإن الحديث عن التدرج الطبقي السريع في المجتمع البغدادي يصبح غير ذي بال، حيث تعم التكنولوجيا المتخلفة، والتعليم المتقدم مقصور على الخاصة.

2 ـ العوامل المؤثرة في تكوين الطبقات في المجتمع

إذا كان من الصعب علينا توزيع فئات المجتمع البغدادي، لأن مفهوم الطبقة الإجتماعية على شيء من التعقيد، إلا أننا لا نستطيع أن ننفي وجود الطبقات في ذلك المجتمع، أو وجود تفاوت بين فئاته. ويصح القول: إن المجتمع العباسي اعترف بمراتب إجتماعية كان بعضها مفتوحاً على بعض، بحيث يستطيع القلة أن يعبروا إلى مرتبة أخرى، تبعاً لمعطيات عدة، أهمها: السلطة، والثروة، والمهنة، والثقافة.

السلطة: كان العمل في الإدارة الرسمية يكسب صاحبه مكانة خاصة بحيث يصبح من «أصحاب المراتب»، وهم العباسيون، والعاملون في الإدارة والقضاة وأولاد الأنصار والقواد والأمراء[1]. ويبدو أن تقلد الوظيفة كان يقرب صاحبها من السلطان ويميزه. فقد كافأ المأمون مزيناً بأن عيّنه جندياً[2]؛ وحمد ابن الزيات فضل الخليفة الذي نقله من ذلّ التجارة إلى عز الوزارة، وكان والده مثل من مياسير تجار الكرخ، وحاول جهده لمنع ابنه من طلب الكتابة[3]. ولام المأمون أحد مواليه فقال له: أنت أن تكون جحاماً أولى بك من أن تكون من أوليائنا[4].

وعرف الربع الأخير من القرن الثالث فترة سيطر فيها الوزراء ورجال الإدارة، وشكلوا مركز استقطاب أتاح لهم أن يكونوا فيه طبقة من البيروقراطية الفاعلة امتدت آثارها حتى العقد الثالث من القرن الرابع. ولم تلبث هذه البيروقراطية أن خسرت نفوذها أمام سلطة الجند المتمثلة بأمير الأمراء[5]. أما في العهد البويهي (334 ـ 448هـ) فقد وضعت في السلطة طبقة جديدة مؤلفة من الأمراء البويهيين وقادة الجند من الديلم والأتراك، وطوردت الطبقة «البورجوازية» بالمصادرات، وقسطت الأموال على الكتاب وكبار الموظفين والتجار وسائر طبقات الناس في بغداد، حتى كان الغمازون يغمزون بمن

---

(1) الصابي، **رسوم دار الخلافة**، ص 91 ـ 95.

(2) التنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ج 2، ص 141.

(3) الثعالبي، **خاص الخاص**، ص 8، **الأغاني**، ج 23، ص 46.

(4) **الفرج بعد الشدة**، ج 2، ص 141.

(5) حسام السامرائي، **المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية**، ص 51، ابن الطقطقى، **الفخري**، ص 282.

عنده مال، واشتد فرض الضرائب حتى تهارب التجار من بغداد[6].

وشكلت الأسر التي شاركت في السلطة طبقة مميزة. فالعباسيون أولاً، ثم العباسيون والطالبيون في العهد البويهي، كانت لهم مشاركة مرموقة في الدولة العباسية[7]. فقد تولى الكثيرون من بني العباس الوظائف المتصلة بالخلافة، كولاية الحاج والقضاء. وفي سنة 396هـ قلد بهاء الدولة الشريف أبا أحمد الموسوي قضاء القضاة والحجج والمظالم ونقابة الطالبيين، فلم ينظر في القضاء لامتناع الخليفة القادر بالله من الإذن له[8].

ولم ينج أصحاب السلطة الجدد من المضايقات، فقد كان والد وكيع القاضي يعمل بيده في صناعة الصناديق، وأثار حسد بعض الخاصة للقاضي موجة من التشنيع عليه، وعيره بأنه ابن «أسقط رجل»[9]. وكانت بعض الوظائف مكروهة، ومنها العشار فكان يقال: «لا يغفر الله لمن كان عشاراً»[10].

الثروة والمداخيل: شكلت الثروة عاملاً مهماً في تحديد مستوى الفرد الاجتماعي داخل المجتمع العباسي[11]، لا سيما في المدن الكبرى. ونقل الجاحظ رواية تقول: «سمعت شيخاً من مشايخ الأبلّة يزعم أن فقراء أهل البصرة أفضل من فقراء أهل الأبلّة. فقلت: بأي شيء فضلتهم؟ قال: هم أشد تعظيماً للأغنياء، وأعرف بالواجب». ثم يروي رواية أخرى يقول فيها: «وقع بين رجلين أبليين كلام، فأسمع أحدهما صاحبه كلاماً غليظاً، فرد عليه مثل كلامه، فرأيتهم قد أنكروا ذلك إنكاراً شديداً، ولم أر لذلك سبباً. فقلت: لم أنكرتم أن يقول له مثل ما قال؟ قالوا: لأنه أكثر مالاً، وإذا جوزنا لفقرائنا أن يكافئوا أغنياءنا، فمعنى هذا الفساد كله...»[12].

ولاحظ الجاحظ في مكان آخر مواضع الثروات المرتبطة بأنواع العمل فيقول[13]: «ألا ترون أن الأموال كثيراً ما تكون عند الكتاب وعند أصحاب الجوهر وعند أصحاب

---

(6) مسكويه، ج 2، ص 83.

(7) أنظر: M. A. BEG, Al - Khassa Wal - Amma, E.I², IV, p. 1129.

(8) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 434 ـ 435، 445.

(9) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 105.

(10) الأغاني، ج 2، ص 15.

(11) BEG. E.I², IV, pp. 1129-30.

(12) البخلاء، ص 125.

(13) الحيوان، ج 4، ص 334.

الوشي والأنماط، وعند الصيارفة والحفاظ، وعند البحريين والبصريين والجلاب (المستوردين)، والبيازرة أيسر ممن ابتاع منهم».

وعكست الثروة نفسها على العلاقات الاجتماعية، فقامت حواجز عديدة في علاقات الناس فيما بينهم. فقد رغبت أرملة المقتدر بالزواج، وهي جارية في الأصل وأعطيت حريتها بعد زواجها من الخليفة؛ فقامت معارضة قوية لزواجها بسبب فقر الزوج العتيد، مما اضطرها لأن تعطيه مالاً وفيراً حتى يظهر أمام الناس بمظهر الأغنياء، وتتمكن عندها من الزواج منه، وصار الزوج يعرف بها ودعي بزوج الحرة[14] وبات التمييز بين الناس بمعيار ثرواتهم تقليداً مستمراً، فالموسر يعطس فيشمت بينما يلطم الفقير[15]. وترك الوشاء وصية إلى الظرفاء مسامري السلطان، فطلب إليهم تجنب الخسيس من المآثم والأخذ بالقيم السنية، والترصن في الحديث، فهم ممن تسمو إليهم الأعناق، ولا يطمع في عيبهم عائب، ولا يقدر على مطالبهم طالب. ألا ترى أنهم لا يتنخعون ولا يتبصقون ولا يتجشؤون ولا يتمخطون[16]؟

ويميز الدينوري بين فئات المجتمع باعتبار الثروة، فالتمييز قائم بمعيار الفراش الذي ينام عليه الناس، والتمييز بواسطة الأمراض التي يتعرضون لها، كما ميز بينهم باستخدامهم الحمّام؛ فالفقير لا يستحم في حمام مضيء بهي معتدل الهواء، فذاك من عادات الأغنياء، والفقير لا يغتسل اغتسالاً طويلاً، كما أن الغني يرافقه إلى الحمام جماعة[17].

ويقابل أبو حيان التوحيديّ بين الغني والفقير، والصنعة والرفعة في المراتب[18]. ويعد أبو سليمان المنطقي فئات المجتمع وفق ترتيب معين: الملوك والتناء وأصحاب الضياع، والتجار، وأصحاب الدين والورع، والكتّاب وأهل العلم، وأصحاب الميزان والتطفيف. وهو في موقفه هذا يستخدم مقياسي السلطة والثروة، إذ يفرد العامة ويجعلها في نهاية السلّم الاجتماعي[19].

---

(14) المنتظم، ج 7، ص 119.

(15) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (دار الكتب المصرية، د.ت) ج2، ص 24.

(16) الظرف والظرفاء، بعناية، فهمي سعد، (عالم الكتب، 1985) ص 219 ـ 220.

(17) التعبير في الرؤيا، ص 56ب، 57آ، ص 57ب.

(18) المقابسات، ص 172، 177.

(19) أنظر، وداد القاضي، مجتمع القرن الرابع في مؤلفات أبي حيان التوحيدي، رسالة غير مطبوعة مقدمة إلى الجامعة الأميركية في بيروت (1969م)، ص 180.

المهنة: مع تقسيم العمل، ظهرت درجات متفاوتة من المراتب الاجتماعية في مختلف الجماعات المهنية، فتكون قيمة حرفة ما أعلى من غيرها، ونتيجة لذلك كان من يمارس تلك المهنة، يتمتع باهتمام أكبر.

ويبدو أن تقسيم العمل الدقيق قد عرفه العصر العباسي. ويروي الجاحظ رواية يوضح فيها مبلغ التخصص في العمل في مجال الحرفة الواحدة، إذ جاء بنجار ليعلق الباب، فبعد أن أنهى النجار عمله أوصى الجاحظ قائلاً: «قد جودت الثقب، ولكن انظر أي نجار يدق في الرزة، فإنه إن أخطأ بضربة واحدة شق الباب، والشق عيب». ويتحدث في مكان آخر عن التخصص في صناعة السيوف بين مذيب الحديد، وصاقله وطابعه[20].

وقامت المنافسة بين المهنيين وعمال الإدارة. ولربما تشاوف عمال الخلافة على أصحاب الحرف، وهذا ما حمل الجاحظ على أن ينتصر للمهنيين ويفضلهم على عمال السلطان، الذين وصفهم بأن «لباسهم الذلة، وشعارهم الملق، وقلوبهم ممن هم لهم حول مملوءة وقد لبسها الرعب وألفها الذل»[21].

وكان للدمشقي موقف شبيه. فهو يعتبر أن التجارة أفضل المعايش وأسعدها للناس، وصاحبها موسع عليه، وله مروءة؛ أما من يتصرف مع السلطان فلعل يده تقصر في بعض الأوقات عن نفقته[22].

والواقع أن هذا الكلام لا يخرج عن كونه محاولة للرفع من مكانة التجار الإجتماعية ومقارنتهم بصغار فئات الخاصة من الكتاب. وهو يسجل اتجاه هاتين الفئتين من العامة، التجار والكتاب، لتحقيق مكانة اجتماعية أفضل.

الثقافة: عرف العصر العباسي إقبال الناس على التعليم، لا سيما الأسر الفقيرة التي تاقت إلى احتلال مراكز إجتماعية مرموقة عن طريق العلم والأدب[23]، فانتشرت حلقات التدريس وغصت المساجد بالمتعلمين، يطلبون وسيلة تكسبهم عيشهم. فقد كان أبو يوسف ينقطع بملازمة أبي حنيفة عن المعاش، ولاحظ أبو حنيفة إملاق تلميذه فقال

---

(20) الحيوان، ج 3، ص 276، رسالة في مناقب الترك، بعناية هارون، رسائل، ج 1، ص 71 ـ 72.

(21) رسائل، رسالة في مدح التجار وذم عمل السلطان (بيروت، 1972، دار النهضة الحديثة)، ص 142.

(22) الإشارة إلى محاسن التجارة، ص 100.

(23) انظر، شار بلا، الجاحظ وبيئة البصرة، نقله إلى العربية ابراهيم الكيلاني (دمشق، 1961) دار اليقظة العربية، ص 95، انظر أيضاً BEG; E.I², IV p. 1130.

له: إن أطال الله عمرك، فتأكل بالفقه اللوزنج بالفستق المقشور. وكان الأصمعي مقبلاً على التعلم فهزيء منه جاره البقال، ونصحه بالإنصراف عن العلم إلى تحصيل ما يعيش منه، لكنه صار من كبار الأثرياء بفضل علمه[24].

وقد أكسب العلم والأدب صاحبهما مركزاً متفوقاً، فجعلاه في مرتبة الخاصة؛ فيلاحظ أبو سليمان المنطقي أن فضيحة حسيب لا أدب له أشنع وأفظع من فضيحة أديب لا حسب له، لأن الحسيب عدم ما يقوّم به نفسه، وذاك فقد ما يقوم أصله وينشر قديمه، والنفس أرفع من الأصل[25]. واعترف أبو حيان أن كثيراً من الناس يظنون بأنفسهم أنهم خاصة من ناحية العقل[26].

---

(24) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 251، الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 161 ـ 164.
(25) أبو حيان التوحيدي، المقابسات، ص 120.
(26) المصدر نفسه، ص 172.

الفصل الثامن

العامة وفئاتها

1 ـ العامة

انقسم المجتمع البغدادي إلى طبقتين أساسيتين: طبقة الخاصة وطبقة العامة. وإلى جانب هاتين الطبقتين ظهرت فئات اجتماعية أخرى شبهت بكل منهما، فقيل: أشباه العامة، وأشباه الخاصة، من متوسطي الثقافة[1].

يرد ذكر العامة غالباً في مقابل الملوك والخاصة. وقد تكتسب صيغة اجتماعية عمومية[2]. وكان للأدب في إذكاء هذا التقسيم يد طولى[3]، إذ أسهم الأدباء في نشر أخبار العامة ليقدموا مادة تصلح لتسلية الخاصة[4]. وحفلت المصادر بمساجلات بين اللغويين وأفراد العامة، كما اهتمت بإبراز ارتباط اللغة بتعابير أصناف العامة[5].

وتبقى بصمات الثقافات القديمة واضحة في تفاصيل الحياة الاجتماعية للبغداديين وفي نظام الطبقات. إذ أن التقسيم الثنائي للمجتمع بين عامة وخاصة يبقى قاطعاً، كما أن ظهور الطبقة الوسطى نتيجة ثراء جماعات من التجار والملاك العقاريين بدرجة أو بأخرى، ونمو طبقة رجال الإدارة، لم يغير من طبيعة هذا التقسيم الذي سبق أن عرفت

---

(1) الجاحظ، الحيوان، ج 6، ص 201، أبو حيان التوحيدي، المقابسات، ص 470.

(2) الحيوان، ج 4، ص 78. النويري، نهاية الأدب، ج 4، ص 174.

(3) أنظر مثلاً، الثعالبي، خاص الخاص، حيث تتجلى براعة المؤلف في المقابلة بين الخاصة والعامة، انظر أيضاً، ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج 1، المقدمة ص : ط .

(4) طيفور، تاريخ بغداد، ، ص 59.

(5) أنظر الجاحظ، رسالة في القواد، الحريري، درة الغواص في أوهام الخواص، ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين. .

شبيهه الشعوب القديمة[6].

ذلك أن جميع التطورات الاجتماعية لم تنعكس إيجابياً على العلاقات السياسية ومفاهيم السلطة في بغداد، فبقي نظام الطبقات الاجتماعية على وضعه الثنائي، فالعامة في الحضيض والخاصة في الذروة[7].

كان الجوهري واضحاً في تحديد السوقة بأنهم «خلاف الملك» من الناس الذين لم يكونوا بذي سلطان[8]. ولاحظ الجاحظ انقسام المجتمع إلى طبقتين، فحاول ـ من موقف المعتزلة ـ تغيير مفاهيم السلطة، غير أنه لم يزد على أن فسّر سلطة الخاصة إلا بأنها مسلّحة بالعقل، وأن ليس للعامة الحق بممارسة السلطة لأنها تفتقر إليه، كما رأى أن العامة ليست ضرورية البتة لقيام السلطة، لأنه «ليس للخاصة قوة بالعامة، ولا للعلية قوة على الأراذل». واستعان برأي منسوب لعلي بن أبي طالب يقول: «نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يملكوا، وإذا تفرقوا لم يعرفوا».

وحدد واصل بن عطاء طريقة فهم الخاصة للعامة بقوله: «ما اجتمعوا إلّا ضروا، وما تفرقوا إلّا نفعوا. فقيل له: عرفنا مضرة الإجتماع، فما منفعة الإفتراق؟ قال: يرجع الطيان إلى تطيينه والحائك إلى حياكته والملاح إلى ملاحته. . . وكل إنسان إلى صناعته، وكل ذلك مرفق للمسلمين ومعونة للمحتاجين»[9].

هكذا نرى أن الذين تعرضوا لتحديد الإطار الاجتماعي للعامة، تركوا الكتلة البشرية الضخمة خارج السلطة، وحكموا عليها بالدونية والفوضى، لكنهم لم يهملوا الاعتماد على قدراتها الإنتاجية مرفقاً للمسلمين؛ أما إذا تسنى للعامة أن تتنظم ففي ذلك الويل إذ «ينقطع الطمع ويموت الحق ويقتل المحق. .»[10].

تعريف العامة: تتفق معظم التعريفات بأن العامة هي خلاف الخاصة. والخاصة بالمعنى الضيق، يمكن أن تعني الخليفة وأصحابه من بني العباس والعرب وكبار رجل الدولة، إلّا أنها نمت وتضخمت حتى ضمت كل المشاركين في السلطة، لا سيما بعد أن كبرت طبقة

---

(6) انظر: BEG, E.I², IV, pp. 1128- 29.

ASHTOR, **A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages**, (London, 1976) pp. 109- 115.

(7) التوحيدي، **المقابسات**، ص 55.

(8) **تاج اللغة وصحاح العربية**، ج4، ص 1499.

(9) **رسائل**، ج 1، ص 283.

(10) المصدر نفسه، ص 284 ـ 285، أنظر أيضاً: **الإمتاع والمؤانسة**، ج 2، ص 62 ـ 64.

أصحاب النفوذ في مراحل ضعف الخلافة في بغداد، حتى أصبحت تعني النخبة[11].

وفي تحديد العامة قال المنصور لأحد خاصته: «قد عرفتني سوقة وخليفة»[12]. وعرف الصفدي العامة بأنها: «خلاف الخاصة، قيل ذلك لما كانوا كثيرين لا يحيط بهم البصر فهم في ستر عنه»[13].

ومن معاني العامة قيل: «السوقة»[14]، وهم كما قال الحريري «ليسوا أهل السوق، بل هم الرعية، سموا بذلك لأن الملك يسوقهم إلى إرادته، فيقال: رجل سوقة وقوم سوقة»[15]. وتبنى الجوهري مثل هذا التعريف واعتبر أن السوقة من الناس هم غير السلطان[16]. وأطلقت على العامة ألفاظ كثيرة، فهم أصحاب الإهانات[17]، وهم أبناء الأنذال والسفل، والسقّاط[18].

ومن معاني العامة أيضاً، الرعاع والهمج والغوغاء، لأنهم كالجراد إذا ماج بعضها في بعض، والغوغاء أهل السفه والخفة، وهم الأوباش والطّرّارون والغواة والسفهاء والدهماء[19].

ومن العامة: السواد والنطّاف والتجار وباعة الطريق يتجرون في محتقرات البيوع، ومنها الفلاح والحشوة والصناع والباعة، ومنها المعلمون والكناس وبائع الطبيخ والزجّاج والقصاب والبقال وبائع الجرار والطيب[20].

---

(11) الفيروزابادي، القاموس، ص 266، الإمتاع والمؤانسة، ج 3، ص95، أيضاً BEG, E.I², IV, pp. 30 - 8 - 112.

(12) البلاذري، أنساب، بعناية الدوري، القسم 3، ص 197.

(13) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، نكت الهميان في نكت العميان، بعناية أحمد زكي (القاهرة، 1911)، ص 10.

(14) أنساب الأشراف، ق 3، ص 197.

(15) القاسم بن علي الحريري، درة الغواص في أوهام الخواص، بعناية هنريك شوربك، (ليز، 1871) ص198.

(16) الصحاح، ج 4، ص 1499.

(17) التعبير في الرؤيا، ق 158.

(18) الثعالبي، ثمار القلوب، ص 270 ـ 271.

(19) أبو حنيفة الدينوري، كتاب النبات، ص 52، 55.

(20) انظر الطبري، ج 8، ص 448، 468، 496، وج 9، ص 363، أيضاً ابن سيده، المخصص، (بيروت، د.ت) المكتب التجاري، ج 3، ص 127 ـ 128.

وقسم ابن أبي الربيع مرتبة العامة إلى نوعين[21]: أحدهما يضم التجار وأهل المراتب وهم يحصلون العيش من أحسن وجوهه، ويتميزون بالاكتساب الدائم المعتدل، وبإظهار العدل في المعاملات وإظهار السيرة الحسنة. ويضم ثانيهما السوقة والجمهور، وهم في أدنى المراتب مبذولة لكل دنيء نفس.

ولا تكتفي المصادر بتصنيف العامة الطبقي، بل ترسم لها إطاراً خاصاً يبين قدراتها العقلية والفكرية وواقعها الأخلاقي. فالعامي يقابله العالم[22]. والعامة متهمة دائماً بقدراتها العقلية: «إن قلت لا عقول لهم كنت صادقاً، وإن قلت لهم أشياء شبيهة بالعقول كنت صادقاً»[23] والعامة متهمة بمعارفها، فالفهم السيء غاية السفه، إذ هو شبيه برتبتهم في نقصهم، ونفوس العامة خبيثة، وعقولها رديئة، ومعارفها خسيسة، لا يجوز لأربابها أن ينشقوا ريح الحكمة، ولا أن يتطاولوا إلى غرائب الفلسفة[24]. وهم أقل شكاً وأكثر تسرعاً[25]، ولولا المتكلمين لهلك العوام واختطفوا واسترقوا[26].

والعامة متهمة بالتقصير في القيام بواجباتها الدينية، وهي عاجزة عن فهم الفقه[27]، وتروي الحديث بطريقة تثير السخرية، ولها مزاعم دينية بعيدة عن الحقيقة[28]؛ وهي لا حقيقة معها، ولا مبالاة بها، ولا مبالاة لها[29].

ويمكن تلخيص جملة المواقف من العامة، بأنهم سواد الناس الذين لم يكونوا يتمتعون بأي سلطة، والذين كانوا يعملون في شتى حقول الكسب، وأنهم كانوا يعيشون في عالم خاص له أبعاده الفكرية والدينية التي تتدنى عن مستوى عالم الخاصة. كما يمكننا في ضوء هذا حصرها في ثلاث فئات أساسية، هي: الرقيق، وأهل الذمة، وسائر أصناف الكسبة.

---

(21) سلوك المالك في تدبير الممالك، بعناية ناجي التكريتي، (بيروت، 1978)، ص 123.
(22) أبو يعلى الفراء، المعتمد في أصول الدين، بعناية وديع زيدان حداد (بيروت، 1974)، ص 26.
(23) التوحيدي، الإمتاع، ج 1، ص 25.
(24) المقابسات، ص 84، 85.
(25) الجاحظ، الحيوان، ج 6، ص 36 ـ 37، ج 7، ص 8.
(26) المصدر نفسه، ج 4، ص 206، 289.
(27) أبو يعلى، المعتمد، ص 26، 195.
(28) الحيوان، ج 6، ص 200، 220.
(29) المقابسات، ص 85.

2 ـ الرقيق

دخل العبيد إلى المجتمع الإسلامي عن طريقي الاسترقاق والتجارة. وكان الإسترقاق يطال أسرى الحروب. ومن أخبار الحملات، أن العرب استولوا على أربعين ألفاً من الرقيق في الحملات التي قام بها الربيع بن زياد الحارثي، أثناء ولايته على سجستان، التي استمرت سنتين ونصف السنة[1]. وفي عهد المنصور تمرد أهل سجستان فحاربهم معن بن زائدة الشيباني وسبى وأسر منهم زهاء ثلاثين ألفاً، واستأمن زعيمهم وبعث به إلى بغداد مع خمسة آلاف من مقاتلتهم، فأكرمه المنصور وقوّده[2].

ويبدو أن المسلمين أطلقوا عملياً سراح معظم من وقع بأيديهم من الأسرى، ولم يسترقوا إلاّ حاميات المدن التي قاومتهم مقاومة شديدة، أو التي ثارت عليهم بعد استسلامها[3]. وقد نقل البلاذري خبراً على لسان شويس العدوي يقول فيه: «إن عمر بن الخطاب كتب إلينا بإطلاق السبي، لأنه لا طاقة لكم بعمارة الأرض، فخلّوا ما في أيديكم من السبي، واجعلوا عليها الخراج»[4].

ثم لم يلبث رقيق الحرب أن شحّ بسبب خمود عمليات الفتح العسكري؛ ولعل آخر عمليات السبي الكبرى كانت غبّ معركة عمورية (223هـ) التي غنم فيها جند المعتصم السبي الكثير، وبيع هذا السبي حتى كان ينادى على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة[5].

كان الرقيق يرسل إلى الخليفة في بغداد ضمن واردات الضرائب. فقد كان عبد الله بن طاهر يرسل إلى الخليفة ألفي رأس من السبي الغزيّة في كل عام[6]. وأرسل اسماعيل بن أحمد الساماني صاحب بخارى هدية إلى المعتضد ضمت 49 جملاً عليها محامل فيها غلمان مرد أتراك وخزرية، وضمت الهدية أيضاً 52 غلاماً أتراكاً وخزراً بدوابهم وسلاحهم. وأهدى زيادة الله الأغلبي صاحب المغرب إلى المكتفي بالله سنة 291هـ هدايا فيها 100 خادم و400 جارية[7]. وفي القرن الرابع أصبحت التجارة هي

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص 485.
(2) المصدر نفسه، ص 494.
(3) صالح أحمد العلي، التنظيمات الإجتماعية في البصرة، (بيروت، 1969) ص 63.
(4) البلاذري، فتوح، ص 464.
(5) الطبري، ج 9، ص 69.
(6) ابن خرداذبه، ص 39.
(7) ابن الزبير، التحف والهدايا، ص 42، 47.

الوسيلة الرئيسية للحصول على الرقيق إذ لم يكن بالإمكان داخل حدود الإسلام، الذي لم يبق فيه إلا المسلمون وأهل الذمة، تحويل أي منهم إلى رقيق ضمن الحدود القانونية المعروفة[8]. ويذكر ابن حوقل أن رقيق أرمينية من النصارى في سنة 325هـ لم يكن يباع في بغداد «لأنهم في ذمة معروفة ومعهم غير عهد»[9].

كانت تجارة الرقيق تعود على متعاطيها بالربح الوفير، واكتسبت صفتها الشرعية بين سائر التجارات، يتصرف فيها الشاري والبائع تصرفات التجار كما في جميع البياعات[10].

وقسم الرقيق حسب لونه وأصله. فحسب لونه، تألف من أبيض وأسود، وكان الأبيض يتألف من عنصرين أساسيين: التركي والصقلبي. وكانت أنواع الرقيق تصل إلى بغداد من مراكز ثلاثة، وهي بلاد الصقالبة السلافية، وبلاد الترك وبلاد السودان. وكان في أرمينيا مركز إخصاء للرقيق الأبيض، يوجه بعده إلى بغداد، وكان في خوارزم مركز تجمع آخر للرقيق الصقلبي الوارد عن طريق الشرق، ويجري توزيعه إلى إيران وبغداد.

كان الرقيق الصقلبي يرد من طريق الغرب، ويقوم بهذه التجارة اليهود الرادانية الذين يتحدثون باللغات الغربية والفارسية والرومية، وكان هؤلاء التجار يحملون رقيقهم عبر إسبانيا التي تضم مركز إخصاء، ثم يصلون به إلى مصر، حيث يجري توزيعه إلى سوريا والعراق وبلاد الروم.

أما الرقيق التركي فيتجمع في منطقة فرغانة والشاش وما وراء النهر، ومنها يجري توزيع هذا الرقيق على الأسواق حيث يصل منه الكثير إلى بغداد[11].

وكان العبيد السود يردون من أماكن عدة، من النوبة والحبشة والصومال[12].

ويتحدث بزرك بن شهريار عن رحلات التجار العرب في القرن الرابع إلى سفالة الزنج، فيأتون برقيقهم إلى عدن، حيث أهم مراكز بيع الرقيق الأسود[13]. وقسّم

---

(8) أنظر Lombard, p. 195.

(9) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 295.

(10) أنظر الجاحظ، رسائل، ج 2، ص 161.

(11) أنظر المقدسي، ص 242، ابن خرداذبه، ص 153 ـ 154. وآدم متز، ج 2، ص 283 ـ 284. أيضاً Lombard, pp. 196 - 98.

(12) أنظر، الجاحظ، رسائل، ج 1، ص 216.

(13) عجايب الهند، بعناية نقولا زيادة، ص 113.

المقدسي الرقيق السود إلى ثلاثة أنواع : جنس يُحملون إلى مصر، وهم أجود الأجناس، وجنس يحملون إلى عدن، وهم البربر، وهم شرّ أجناس الخدم، والجنس الثالث على شبه الحبش[14].

وقد أدى ازدهار تجارة الرقيق إلى قيام أسواق واسعة تعرض فيها شتى أنواعه. ومنذ بناء بغداد قامت فيها دار للرقيق التي لم تلبث أن أصبحت ربضاً ضم رقيق أبي جعفر الذين يباعون من الآفاق بإشراف الربيع مولاه. كما قام في بغداد سوق «النخاسين» الذي كان يقع في أول شارع باب الكرخ[15].

ويبدو أن أسواق النخاسة كانت تنشط موسمياً، إذ يكثر عرض الرقيق، كما يكثر فيها الرقيق الكاسد أو غير المرغوب، مما يحمل النخاسين على ممارسة حيلهم وتزويق رقيقهم. فكم من غلام بيع على أنه جارية وكم من الجواري طليت بأنواع المصبغات[16]. ومنذ القرن الرابع أصبح الخلفاء وكبراء الخاصة والأغنياء يشترون رقيقهم من الأسواق، حتى كان المقتدر يخصص في العام مبلغ مئة ألف دينار لشراء الرقيق[17].

دخلت الجواري بيوت الناس لتؤدي فيها خدمات عدة، فأقبل الميسورون على التسري بهن[18]، وانتشرت هذه العادة في جميع الطبقات. فكان الفقراء يعملون على أن يكون لهم جواريهم وغلمانهم. أما ربات البيوت فقد اقتنين الجواري ليساعدنهن في خدمة بيوتهن[19]. وكان يطلب من الجواري الطباخات إجادة أصناف الطبخ، ويجري امتحان قدراتهن بتكليفهن بإعداد طبخات يُعَيِّنها رب البيت. واختيرت بعض الجواري لتربية الأطفال، وكانت النوبيات المفضلات في هذا الحقل، لحنانهن ورحمتهن. واستخدمت الجواري الروميات خازنات وحافظات[20]. وكانت بعض الجواري تكلف بشراء حاجيات سيدتها من السوق وربما حملت إليها الماء في الجرة من شاطىء النهر أو البئر[21].

وكان الغلمان والخصيان يباعون في سوق الرقيق. ويعرض الغلام بعشرة

---

(14) أحسن التقاسيم، ص 242.

(15) اليعقوبي. البلدان، ص 245، 248.

(16) ابن بطلان، رسالة في شري الرقيق، نوادر المخطوطات (القاهرة، 1972) ج 1، ص 15.

(17) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص 220.

(18) الفرج بعد الشدة، ج 2، ص 15 وج 4، ص 386، البيان والتبيين، ج 3، ص 179.

(19) الجاحظ، رسائل، ج 2، ص 246، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 393.

(20) ابن بطلان، ص 386، 387.

(21) البصائر والذخائر، ج 1، ص 75، مروج الذهب، ج 2، ص 285.

دنانير، ويزيد ثمنه حسب حسن وجهه وجودة قده[22]. وقد أغرم بعض الرجال بالغلمان، فوصفوهم وقدموهم على الجواري. ولاحظ المحتسب في القرن الثالث ولع بعض الناس بالغلمان، ونصح بعدم معاشرتهم وبيّن مضارها[23].

أما الخصيان فكانوا يفضلون في الخدمة على الغلمان، إذ أنهم أوثق في حراسة البيوت والحرم[24]. وكان الخصيان في المجتمع العباسي من أصول متعددة، من الروم والأحباش والنوبيين والصقالبة. وكان خصيان خراسان قليلي العدد، واعتبر خصيان الروم أفضل الأنواع[25].

عمل الغلمان والخصيان في خدمة البيوت، وعمل الكثير منهم سقائين ينقلون المياه إلى دور أسيادهم[28]؛ وكان الغلمان السندية مفضلين في أعمال الطبخ[27]. وكان بعض الغلمان يرافق سيده ويقود دابته ويفسح له الطريق، وبعضهم يرافق سيده إلى الأسواق للتبضع. وكان لأبي العيناء خَصِيّان يقودانه في الطريق، وكان بعض العميان يتخذ محفة يحيط بها خدمه وغلمانه، وهم من عرفوا بعميان المواكب[28].

عمل الخصيان في صغار الصناعات، كالخدمة والحجامة وإجراء الخيل[29]. وكان بعضهم يحسن صنعة الدبوق، ويجيد دعاء الحمام الطوري[30] وزعم الجاحظ أنه لم ير أحدهم قط نفذ في صناعة تنسب إلى بعض المشقة، وتضاف إلى شيء من الحكمة[31]. وعمل بعض السود في ورشة بناء، وعمل جماعة من الغلمان في صناعة الإبر، وعمل بعضهم في الخياطة[32]، واشتهر غلمان السند بالعمل عند الصيادلة، وعمل الكثير من

---

(22) الحيوان، ج 6، ص 410.

(23) الجاحظ، رسائل، ج 2، ص 105 ـ 113، البيان والتبيين، ج 3، ص 340.

(24) البيهقي، المحاسن والمساوىء، (بيروت 1970)، ص 569، التنوخي، الفرج، ج 4، ص 57، الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 117.

(25) الثعالبي، لطائف المعارف، بعناية الابياري والصيرفي، ص 237، الحيوان، ج 1، ص 117.

(26) الفرج، ص 26، البصائر والذخائر، ج 1، ص 75، ج 2، ص 574.

(27) الحيوان، ج 6، ص 489 ـ 90.

(28) نشوار، ج 1، ص 180، 190، ج 3، ص 49، ج 8، ص 44.

(29) الحيوان، ج 3، ص 32، 435.

(30) الطوري: الوحشي.

(31) الحيوان، ج 1، ص 117 ـ 118.

(32) ابن الجوزي، الأذكياء، (المكتب التجاري، بيروت، 1965) ص 42، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 11، ص92، مروج الذهب، ج 2، ص 284.

الغلمان فراشين، واستخدم الغلمان الزنج مع الرقاصين والزمارين والملهين، واستخدم غلمان الروم وخصيانهم في رعاية الإبل، وتعهد فرش الدور وأثاثها[33]. أما الغلمان الأحداث فعملوا في خدمة دور اللهو وقدموا الزهور للاهين[34].

واشتهر السود بشجاعتهم، فاتخذوا مرافقين وشاكرية وجنوداً. واعتبر الترك والصقالبة رجال الحرب والنجدة[35]. واستخدم البحتري غلامه الرومي نسيماً باباً من أبواب الرزق، فكان يبيعه لأغنياء ثم يمدحهم فيهبونه له[36].

ولم يكن الرقيق يلقون المعاملة الحسنة، فكان بعض الأسياد يضرب غلمانه، وبعضهم يشتمهم[37]، ولم يكن معظمهم يحظى بغذاء كاف، واختص أحد العبيد بأربعة رغفان طعاماً يومياً[38]. إلا أن غلمان الخاصة كانوا يلقون عناية أفضل، فلم يكن سيدهم يؤدبهم[39]. ولم يخل الأمر من أن ينتقم العبد للظلم اللاحق به من سيده[40]، وإذا حدث أن فرّ أحدهم، فإنه قد لا يجد ما يأكله لعدم معرفته بأي مهنة، فيضطر للعودة إلى سيده بعد أن يوسّط أصدقاء هذا السيد؛ وربما لجأ إلى «كتاب عطف» يرقق به قلب سيده[41]. ولقيت «طيف» جارية علية بنت المهدي مصيراً سيئاً، فبعد وفاة سيدتها خرجت من دارها حرّة فتزوجها رجل مقينٌ وصار يقينٌ عليها[42].

خضع الرقيق في علاقاتهم الاجتماعية لسلسلة من الإجراءات القانونية، حددت موقعهم الاجتماعي وواجباتهم وحقوقهم[43]، مما يحمل على الإعتقاد بقيام نظام الرق الذي يتمتع بكل المواصفات القانونية، والذي كان من أهدافه الحد من حرية الرقيق وحصر تصرفاتهم ضمن الحدود التي يسمح بها أسيادهم.

ومع أن الكثير من أصحاب الرقيق كان يوصي بتحرير رقيقه بعد وفاته، إلاّ أن

---

(33) الحيوان، ج 3، ص 435، رسائل، ج 1، ص 195، الهفوات النادرة، ص 315.

(34) الديارات، ص 90.

(35) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 190، ابن بطلان، ص 387.

(36) الأغاني، ط. الهيئة العامة، ج 21، ص 45.

(37) المحاسن والمساوىء، ص 574، الهفوات النادرة، ص 315.

(38) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص 71، الفرج بعد الشدة، ط. بيروت، ج 2، ص 400.

(39) البصائر والذخائر، ج 2، ص 44.

(40) الهفوات النادرة، ص 315.

(41) الفرج بعد الشدة، ط. بيروت، ج 1، ص 225، الخطيب البغدادي، ج 9، ص 312.

(42) الرفيق النديم، قطب السرور في أوصاف الخمور، بعناية أحمد الجندي، (دمشق، 1969)، ص 192.

(43) أنظر، صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص 63 ـ 71.

القاعدة كانت أن ينتقل الرقيق إلى ملكية الوارث[44]. وفي وجوب ملكية الرقيق لم تكن البينة متوجبة، كما لم يكن مقبولاً أن يطالب بها أحد، لأنه لم يكن يوجد أي سند في يد من ابتاع عبداً أو أمة[45]، لذا كان العبد الذي يفرّ من سيده يعتبر آبقاً. ولضبط إعادة الأبّاق التي ازدادت في القرن الرابع، كان عهد الخليفة إلى الولاة والحكام يتضمن تكليفهم «وضع الأرصاد على من يختار في أعمالهم من آباق المسلمين والاحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم، والبحث عن الأماكن التي فارقوها وعن مواليهم الذين أبقوا منهم ونشزوا عليهم، وأن يردهم عليهم قهراً ويعيدهم إليهم صغراً»[46] وفي القرن الثالث كان «الناشد» يقوم برد العبيد الضالين مقابل أجر يتقاضاه من السيد[47].

وترك لنا التنوخي قصة تبين الوضع القانوني للعبد[48]. فقد ذكر عن قاض أنه نظر في دعوى رجل تاجر ضد عبد مكاتب مأذون له في التصرف، يطالبه بدين قيمته عشرين ديناراً. ونخلص من الواقعة بما يلي:

1 ـ يحق للعبد أن يكاتب سيده. أي أن يتفق العبد مع سيده على دفع ثمنه أقساطاً يصبح حراً بعد ادائها.

2 ـ يمكن أن يأذن السيد لعبده في التصرف والتجارة، على أن يؤدي العبد ضريبة معينة لسيده.

3 ـ يتحمل العبد الخسارة التي تنتج عن الإذن له بالتصرف.

4 ـ يحق للعبد الزواج من الحرة ويكون أولاده أحراراً.

5 ـ لا يحق للعبد أن يرث أخاه العبد، لأنه بمنزلة الميت لعبوديته.

6 ـ يرث السيد ما خلّفه عبده إن لم يكن له وارث حر.

7 ـ وفي مذهب عبد الله بن مسعود، يحق للولدين الحرين أن يرثا عمهما العبد، وهما في ذلك يتمتعان بكامل حقوق الورثة.

8 ـ يحق للأب العبد المطالبة عن أولاده الأحرار بالتركة.

---

(44) أنظر، الخطيب البغدادي، ج 13، ص89.

(45) الأغاني، ط. الهيئة العامة، ج 21، ص 66.

(46) رسائل الصابي، ص 157.

(47) الحيوان، ج 6، ص 491.

(48) أنظر، الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 74 ـ 76.

ويبدو أن الدور الإجتماعي للرقيق أخذ في الازدياد، حتى ان أحد كتاب الفلسفة السياسية في القرن السابع، أفرد لسياسة العبيد مكاناً بين نصائحه التي توجه بها إلى الملوك[49]. فحدد شروط عبيد الرق ومحل استخدامهم؛ فمنهم من يراد للمنزل، ومنهم من يراد للمناولة، ومنهم من يراد للأعمال الجافية. وحدد المؤلف أيضاً وسائل إقامة علاقات طيبة مع العبيد، واقترح على صاحبهم أن يحفظهم كما يحفظ أعضاءه، وأن يتغافل عن زلاتهم وأن يكون للعبيد عند أسيادهم مراتب الإحسان، وأن يعمل على أن تكون خدمتهم له عن رغبة لا عن رهبة، وأن يمنحهم الإجازات للراحة، وأن يجتهد في قضاء حقوقهم المتقدمة بقسط من النفع الذي لا يضر بهم، وأن يلقى مجيئهم بالبشر، ويقابلهم بالإكرام، ويدر عليهم رزقهم.

---

(49) أنظر، أحمد بن محمد بن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، ص 120 ـ 121.

3 ـ أهل الذمة

أما وقد اعتبرنا أن العامة من الناس هم الذين لم يكونوا بذي سلطان، فإن أهل الذمة يندرجون تحت هذا المفهوم. ونضيف، أن الموقف الشرعي من أهل الذمة عبر عنه الأوزاعي بقوله: «إنهم ليسوا بعبيد ولكنهم أحرار أهل ذمة»،ورأى الليث بن سعد في فداء أهل الذمة إذا وقعوا في الأسر «أن يفدوهم من بيت المال ويقروا بذمتهم»، وكذا كان رأي الفقهاء[1].

أما مصطلح «العامة» و«الجمهور» الذي يقصد به المسلمون، فهو تمييز متأخر[2]، قال به الفقهاء ليميزوا به المسلمين وتبين اقتراحات أبي يوسف في الخراج ان أهل الذمة كانوا من الحرفيين. أما الجاحظ فكان واضحاً في تحديد مكانة أهل الذمة، فمنهم كتاب السلاطين وفراشو الملوك وأطباء الأشراف (خاصة)، ومنهم العطارون والصيارفة وأهل المهن (عامة)[3]، وهذا يعني أن أهل الذمة كانت لهم مشاركتهم الكاملة في مجالات الحياة العامة.

وتآلف أهل الذمة من النصارى واليهود والصابئة والمجوس والسامرة، وقد عاشوا في ذمة المسلمين بموجب عهود كانت ترعى مصالحهم، مقابل جزية يؤدونها عن رؤوسهم[4].

النصارى: أقام النصارى في منطقة بغداد قبل تمصيرها، وأدخل المنصور في مدينته الكثير من قراهم وأديرتهم. منها القرية التي بها دير مار فتيون الذي عرف في العهد العباسي بالعتيق، ومنها قريتا درتا وقطفتا[5]. ومنها منطقة دير كليليشوع عند باب الحديد، وفي هذا الدير دفن البطريرك طماثاوس (205هـ) الذي جعل إقامته فيه حتى عرف باسم دير الجاثليق[6]. ولدينا في العديد من أسماء الأديرة البغدادية في القرن الرابع التي تركها

(1) أبو عبيد القاسم بن سلام، الأموال، (بيروت، مؤسسة ناصر، 1981)، ص 62، 79.

(2) أنظر، ابن أبي الربيع، سلوك المالك، ص 123.

(3) رسالة في الرد على النصارى، ص 16 ـ 18.

(4) أبو يوسف، الخراج، ص 131.

(5) C. Cahen, L'Islam des Origines au debut de L'Empire Ottoman (Paris 1970) p. 82.

(6) معجم البلدان، ج 3، ص 285، أنظر أيضاً، ج.م. فيه، أحوال النصارى في خلافة بين العباس، ص 53، روفائيل بابو إسحق، أحوال نصارى بغداد، من 11، 13، أيضاً عمرو بن متى، أخبار بطاركة كرسي المشرق، بعناية دسموندي، (روما، 1896) ص 69.

(6) الشابشتي، الديارات، ص 28، ص347، أيضاً عمرو بن متى، ص 68.

الشابشتي خير دليل على كثافة وجود النصارى[7].

أقام النصارى متجاورين مع المسلمين داخل بغداد، وعرفت بغداد «قطيعة النصارى» التي أقطعها لهم المنصور، وكانت تقع بين نهر الدجاج ونهر طابق، كما نزلوا في درب القراطيس[8].

ولم يكن للنصارى محلاتهم التي لا يتعدونها، بل كانت هذه المحلات مندمجة مع غيرها يعيش ساكنوها من نصارى ومسلمين متقاربين متجاورين، في محلات العتيقة وفي أطراف نهر القلائين وأطراف دير كليليشوع وفي النواحي القريبة من قطربل.

ومنذ أن أخذت الفتن تعصف ببغداد، أخذ بعض النصارى يتركون محلات بغداد الغربية إلى الجانب الشرقي، وأقاموا دورهم في أطراف دير الزندورد، وفي محلة المربعة، ومحلة رأس الساقية، وفي محلات سوق الثلاثاء التي كان منها درب دينار الذي ضم إحدى بيعهم، كما أقاموا في أرجاء محلة الشماسية وبالأخص في دار الروم[9]، وهي منطقة كبرى ضمت بيعة للنسطورية وبيعة أخرى لليعقوبية. ودعيت المنطقة باسم دار الروم نسبة إلى جماعة من الروم أسروا في سمالو في عهد المهدي، وأقدموا إلى بغداد وأنزلوا داراً بهذا الموضع، ومنهم الرهبان الذين أسسوا ديراً لهم في رقة الشماسية ببغداد وقد عرف باسم دير سمالو[10].

أما عدد النصارى في بغداد فيمكن تقديره بالقياس إلى واردات الجزية التي كان يدفعها أهل الذمة في بغداد، والتي بلغت في القرن الثالث 130 ألف درهم، وبلغت في قائمة قدامة بن جعفر المائتي ألف درهم[11]. كما بلغت في أوائل القرن الرابع 160 ألف درهم، ويعني هذا أن عدد دافعي الضريبة من أهل الذمة يبلغ خمسة عشر ألفاً[12]، مع العلم أن هذه الضريبة لم يكن يدفعها الجميع، إذ استثني منهم الصبيان والنساء والمساكين والمقعدون والعميان والخدم والمجانين ومعظم أهل الصوامع[13]. وبناء على هذه

---

(7) أنظر، الديارات، ص 3، 14، 24، 33، 46.

(8) M. Allard, **Les Chrétiens à Baghdad, in Arabica**, (1962), p. 379.

(9) بابو إسحق، ص 23، أيضا محمد بن محمد بن محرز الوهراني، منامات الوهراني ومقاماته، بعناية إبراهيم شعلان ومحمد نغش، (القاهرة، 1968)، ص 22.

(10) معجم البلدان، ج 2، ص 511، والتميز من الأب فيه.

(11) ابن خرداذبه، ص 120. الخراج وصناعة الكتابة، ص 251.

(12) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج 1، ص 66، أيضاً: **Cahen, L'Islam**, p. 82 - 83.

(13) أبو يوسف، الخراج، ص 132، رسائل الصابي، ص 163.

الإعفاءات يمكن تقدير عدد النصارى المقيمين في بغداد خلال القرن الرابع ما بين أربعين وخمسين ألف شخص[14].

كان نصارى العراق يخضعون لرؤساء دينيين. وكان النساطرة ينتخبون جاثليقهم من بين عدة مرشحين، ويشارك في الانتخاب رؤساء الوحدات الدينية في الأقاليم ووجوه الطائفة. وكان لكبار موظفي النصارى في الدواوين دور مهم في هذا الانتخاب[15].

وأصبح الجاثليق النسطوري رئيساً شرعياً للنصارى الشرقيين في خلافة المقتدر، إلا أن كبير مطارنة اليعاقبة بقي يظهر شعار رياسة الكهنوت إلى جانب شعار الجاثليق النسطوري حتى العقد الأخير من القرن الرابع، إذ اختلف الجاثليق النسطوري يوانيس مع كبير مطارنة اليعاقبة، ومنعه من إظهار رياسة الكهنوت في بغداد[16]. وقد تجددت رياسة النساطرة في نص رسمي صدر عن الخليفة القائم بأمر الله سنة 467هـ بمناسبة تكريس البطريرك عبد يشوع الثالث، فأوعز بترتيبه «جاثليقاً لنسطور النصارى بمدينة السلام وسائر البلاد والأصقاع وزعيماً لهم وللروم واليعاقبة طرا، ولكل من تحويه ديار الإسلام من هاتين الطائفتين، من غير أن يشركك فيها أو يشاكلك في النسبة الدالة عليها مطران أو أسقف للروم أو اليعاقبة»[17] ولا بد أن تكريس سيادة الطائفة النسطورية كان بتأثير نفوذ جماعات من الأطباء والكتاب النسطوريين الذين كانوا يعملون في الإدارة العباسية.

ولعل الأهمية الخاصة التي كانت لمنصب الجاثليق كانت وراء التنافس الشديد الذي كان يجري بين المرشحين، مما حمل البعض على دفع الرشاوى إلى الناخبين، أو الاستعانة بالسلطة السياسية للوصول إلى كرسي البطركية. فقد لجأ طماثاوس إلى إغراء تلامذة المدرسة الدينية في المدائن ووعدهم بتوزيع الأموال عليهم في حال انتخابه، واستعان أحد المطارنة بمال أودعه لديه أحد البدو الأعراب ودفع منه مبلغ 200 دينار لأحد معارضيه[18].

لم تكن الانتخابات لتخلو من انقسامات في الطائفة نفسها، منها ما حدث سنة

---

(14) الحضارة الإسلامية، ج 1، ص 66، وقارن Cahen, L'Islam, p. 82 - 83.

(15) أنظر، عمرو بن متى، ص 74 ـ 75.

(16) آدم متز، ج 1، ص 61، عمرو بن متى، ص56.

(17) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 10، ص 297، أنظر أيضاً M. Allard, p. 382.

(18) أنظر، عمرو بن متى، ص 64، 84، 85، القلقشندي، ج 10، ص 295 ـ 297.

250هـ حين انتخب إسرائيل بطريركاً، فقام من ينازعه ذلك، وانقسم النساطرة على أنفسهم حتى عادى الابن أباه[19].

ومن وجهاء الطائفة من كانوا يتدخلون أحياناً ضد رغبة رجال الدين، ومنهم من يتدخل ليصلح بين المتنافسين، كما فعل عبدون بن مخلد، إذ استطاع أن يجري القرعة بين المرشحين، وتدخل ابن سنكلا الأثير لدى الراضي في انتخاب البطريرك، ومنع تولية المنتخب بعد أن وعده هذا بأن يجد له براءة يستطيع بموجبها أن يضم إلى زوجته العاقر جارية تنجب له الأولاد، مما أثار ابن سنكلا ومنع من سيامة البطريرك المنتخب لمحاولته «التقرب إليه في حلّ شريعة المسيح»[20].

هذه المشاكل التي كانت تجابه المرشحين لكرسي البطريركية، حملت أحدهم على أن يكتب عهداً على نفسه ألاّ يتناول رشوة وألاّ يثقل على الرعية والبيع، وألاّ يتناول شيئاً أكثر من مخصصاته المعهودة، وألا يتعرض لجمع المال، وألاّ يجوز في تقبيل البيع[21] طلباً للزيادات، وتعهد بإزالة العار بالإسيامذات السيمونية التي يؤخذ عليها الرشا، وألاّ يمنح رتبة الكهنوت إلاّ لمستحقيها[22]. ويبدو هذا متفقاً مع عادات الموظفين في قبول الرشاوى في هذا العصر.

وأبدى بعض البطاركة والمطارنة نشاطاً طيباً، فقاموا بتجديد أديرتهم وبيعهم. ففي القرن الثالث أعيد ترميم بناء مار فثيون في العتيقة، وهو الذي أقيم في عهد الفرس، وأخرج المنصور من فيه من المسلمين عند بناء بغداد، وبعد تجديده، ألحقت بهذا الدير مدرسة مجهزة بالمعلمين، كما أصبح مقر البطريركية. وفي سنة 349هـ، بنيت البيعة الكبيرة بدار الروم وجددت البيعة العتيقة[23].

وكانت المؤسسات الدينية تحتفظ لنفسها بملكيات خاصة، يعود ريعها لدفع مخصصات رجال الدين، ومساعدة طلاب المدارس الدينية، وفقراء النصارى. وكان البطريرك سبريشوع يدفع من دخله إلى رهبان عَمْر صليبا في كل شهر أربعة دنانير والباقي له وللكهنة المقيمين فيه. وكان هذا البطريرك يضيّق على نفسه ويوفر للإنفاق على المدرسة

(19) عمرو بن متى، ص 75، وانظر عن مثل هذه النزاعات، ج.م. فيه، ص 287 ـ 290.
(20) ابن أبي أصيبعة، ص 185، عمرو بن متى، ص 75 ـ 76، 85.
(21) التقبيل أو القبالة: التضمين، الفيروزابادي، القاموس ج 4، ص 824
(22) عمرو بن متى، ص 81 ـ 82.
(23) المصدر نفسه، ص 69 ـ 70، 90.

وعمارة البيع ومساعدة فقراء النصارى. وأوقف البطريرك ماري (ت 390 هـ) جميع ما ورثه عن أبيه الغني على القلاية الأبوية[24]، أي مركز الجثلقة.

ومنذ بداية العهد العباسي كان النصارى داخل قصر الخلافة. فقد كانت إحدى جواري المهدي تعلق صليباً في صدرها، واستخدمت الخيزران نصرانياً على الطراز في الكوفة. وتولى النصارى الكتابة والجهبذه[25]، وكان لأمير بغداد محمد بن عبد الله بن طاهر قهرمان نصراني[26]. وتولى نصرانيان كتابة ديوان الجيش لكل من الموفق والمعتضد. وفي القرن الرابع وجه اللوم إلى علي بن الفرات الوزير في تقليده ديوان الجيش رجلاً نصرانياً، لأنه «جعل أنصار الدين وحماة البيضة يقبّلون يده ويمتثلون أمره». وكان ابن الفرات يقيم مأدبة نهار كل جمعة فيجتمع إليه تسعة من كتابه بينهم أربعة من النصارى. وكانت فرج النصرانية تعمل كاتبة لدى أم موسى القهرمانة[27]. وكان الحسين بن القاسم يسعى دهره في طلب الوزارة وكان يتقرب إلى النصارى من الكتّاب بأن يقول لهم: «إن أهلي منكم وأجدادي من كباركم» وروي أن صليباً وقع من يد عبيد الله بن سليمان، جده، وهو في خدمة المعتضد، فلما رآه الناس قال: «هذا شيء تتبرك به عجائزنا، فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم»[28].

واستمر استخدام النصارى في الإدارات الرسمية. وكان اصطفن بن يعقوب النصراني صاحب بيت مال الخاصة في خلافة الراضي. واتخذ علي بن بويه كاتباً نصرانياً. كما اتخذ عضد الدولة وزيراً نصرانياً هو نصر بن هارون[29].

إلاّ أن النصارى تعرضوا لنقمة بعض الخلفاء، فقد أمر الرشيد وهو في مواجهة البيزنطيين (191هـ)، بأخذ أهل الذمة في بغداد بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم. وأعاد المتوكل سنة 235هـ أخذ النصارى وأهل الذمة كلهم بلباس الطيالسة العسلية والزنانير والركوب بالسروج، ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري أحكامهم فيها على المسلمين، وألاّ يتعلّم أولادهم في كتاتيب

---

(24) المصدر نفسه، ص 70، 95.

(25) الطبري، ج 8، ص 84، الخطيب البغدادي، ج 9، ص 288. الفرج بعد الشدة، ط. بيروت، ج 1، ص 301، ج 2، ص 16.

(26) الديارات، ص 123.

(27) الصابي، الوزراء، ص 109، 261، 293.

(28) عريب، صلة الطبري، ط. دار المعارف، ص 141.

(29) الصولي، أخبار الراضي، ص 96، مسكويه، ج 1، ص 299، ج 2، ص 408.

المسلمين، ولا يعلمهم مسلم. ونهى أن يظهروا في شعانينهم صليباً، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض. وأعاد المتوكل سنة 239هـ تأكيد أمره باللباس والمركوب، وزاد على ذلك أمره بهدم البيع المحدثة في الإسلام[30]. وفي سنة 296هـ أمر المقتدر أن لا يستعان بأحد من اليهود والنصارى، فألزموا بيوتهم وأخذوا بلبس العسلي والرقاع من خلف ومن قدام، وأن تكون لهم ركبهم خشباً[31].

ويتضح لنا أن أوامر الخلفاء في التضييق على النصارى إنما تأتي بعد أحداث تهم أمن المملكة، فإن موقف الرشيد كان يعبّر عن ضيقه بالوضع المضطرب على الحدود الإسلامية ـ البيزنطية، وكان المتوكل يعاني من صراع على السلطة مع الأتراك، فكانت إجراءاته ضد أهل الذمة إحدى الوسائل التي لجأ إليها تقرباً من العامة. كما جاءت إجراءات المقتدر في بداية عهده بهدف تعزيز مركزه لدى العامة بعد أحداث انقلاب سنة 296هـ. إلا أن هذه المظاهر العدائية تبقى استثنائية، بدليل المكانة التي توصل إليها النصارى، وقد عبر الجاحظ في القرن الثالث عن القلق الناتج عن تزايد دورهم. فذكر قوة سلطان الجثالقة و «حكمهم أن من أعان المسلمين على الروم يقتل، وإن كان ذا رأي سملوا عينيه ولم يوتكوه»[32] وفي رسالته في «الرد على النصارى» تحدث عن قوة مركزهم فقال: «وما عظمهم في قلوب العوام وحببهم إلى الطغام، أن منهم كتاب السلاطين وفراشي الملوك وأطباء الأشراف والعطارين والصيارفة» وفي مقارنتهم مع اليهود قال: «نحن لم نخالف العوام في كثرة أموال النصارى، وأن منهم ملكاً قائماً، وأن ماءهم أنظف وأن صناعتهم أنظف وأحسن». ويؤكد الجاحظ أن النصارى اتخذوا البراذين الشهرية (من شهرستان) والخيل العتاق، واتخذوا الجوقات، وضربوا بالصوالجة، ولبسوا أنواع الحرير، واتخذوا الشاكرية، وتسموا بالحسن والحسين[33].

كان النصارى رجال المال في القرن الثالث[34] وكانوا أرباب مهنة الطب؛ فقد اشتكى الطبيب أسد بن جاني كساد مهنته عند المرضى فقال: «أما واحدة، فإني عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبّب لا قبل أن أخلق، أن المسلمين لا يفلحون في

---

(30) الطبري، ج 8، ص 324، ج 9، ص 171، 172، 174.
(31) ابن الجوزي، المنتظم، ج 6، ص 82، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص409.
(32) الحيوان، ج 4، ص 27، 28.
(33) الرد على النصارى، ضمن ثلاث رسائل، نشرها يوشع فنكل (القاهرة، 1382هـ) ص 17 ـ 18.
(34) أنظر، الجاحظ، البيان والتبيين، ج 3، ص 333.

الطب، واسمي أسد، وكان ينبغي أن يكون اسمي صليبا وجبرائيل ويوحنا وبيرا، وكنيتي أبو الحارث؛ وكان ينبغي أن تكون أبو عيسى وأبو زكريا وأبو إبراهيم؛ وعلي رداء قطن أبيض، وكان ينبغي أن يكون ردائي حرير أسود، ولفظي لفظ عربي، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جنديسابور»[35].

مارس النصارى حياة عادية لا يختلفون عن غيرهم؛ وكانوا يتقدمون من القاضي المسلم لينظر في دعاواهم[36]، كما دخلوا حمامات المسلمين، وأفادوا أحياناً من الصدقات التي تعطى للمحتاجين[37].

وكانت أعيادهم مظهراً من مظاهر البهجة يشارك فيها المسلمون؛ فذكر الشابشتي أن أعياد النصارى ببغداد مقسومة على ديارات معروفة، منها أعياد الصوم الكبير تقام على أربعة أيام آحاد متتالية. فالأحد الأول منه عيد دير العاصية، والأحد الثاني دير الزراقية، والأحد الثالث دير الزندورد، والأحد الرابع دير درمالس الذي يجتمع إليه نصارى بغداد[38]. وكذلك كان نصارى بغداد يخرجون في أحد الشعانين[39].

لقي النصارى وأهل الذمة عنت متشددي المسلمين في أيام الاضطرابات السياسية، ففي سنة 271هـ وثب العامة على النصارى وخربوا الدير العتيق وانتهبوا كل ما فيه من متاع، وقلعوا الأبواب والخشب، وسار إليهم صاحب الشرطة فمنعهم من هدم الباقي، وكان يتردد على حمايته أياماً. وتعرض هذا الدير في العام التالي لهجمات العامة وسبب هذا الشغب أنهم أنكروا على النصارى ركوب الدواب[40]. وعلى أثر ضائقة اقتصادية، افتتحت الجوالي سنة 331هـ في ربيع الأول، فلحق أهل الذمة خبط عظيم وظلم قبيح[41]، وفي سنة 392هـ ثار العامة بالنصارى، فنهبوا البيعة بقطيعة الدقيق وأحرقوها، فسقطت على جماعة من المسلمين فهلكوا[42]. وفي سنة 403هـ توفيت بنت أبي نوح بن أبي نصر بن إسرائيل، أحد كتاب النصارى، فأخرجت جنازتها نهاراً ومعها

---

(35) الجاحظ، البخلاء، ص 102.
(36) وكيع، أخبار القضاة، ج 3، ص 256.
(37) المنتظم، ج 7 ص 240، مسكويه، ج 2، ص 408.
(38) الديارات، ص 3 ـ 4، 14.
(39) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، (بيروت، 1890)، ص 239.
(40) المنتظم، ص 82، 84.
(41) الصولي، أخبار الراضي، ص 251.
(42) ابن الجوزي، المنتظم، ج 7، ص 219.

النوائح والطبول والزمور والصلبان والشموع، فقام رجل من الهاشميين فأنكر ذلك، فضربه أحد غلمان الكاتب، مما تسبب في فتنة أدت إلى تدخل العامة، وانتهت بإلزام أهل الذمة الغيار[43].

والواقع أن هذه الاضطهادات كانت أحداثاً استثنائية، تعرضوا لها نظراً لإقامتهم بين باب البصرة ذي الأكثرية السنية وبين الكرخ ذي الأغلبية الشيعية، فكانت الصدامات بين هاتين الفئتين تجري في قطيعة النصارى[44]. وبالرغم من الصعوبات التي لقيها النصارى والتي تصل أحياناً إلى درجة الحقد المدمر، فإن النصارى تمتعوا في ظل العهد العباسي بمركز أفضل بكثير من الذي كان عليه بعض الجماعات الإسلامية، وهو ما يبينه تلك المحاورات الدينية التي كانت تجري بين المسلمين والنصارى، لأن المحاورات لم تكن لتتم بين أعداء يريد بعضهم تدمير بعض[45]. وبالفعل فقد ترك كثير منهم عقد الزنانير، وامتنع كثير من كبرائهم من أداء الجزية، وأنفوا مع اقتدارهم من دفعها، وسبّوا من سبهم وضربوا من ضربهم[46].

إلا أن لدينا ما يشير إلى العودة إلى اضطهاد النصارى، فقد ذكر ياقوت[47] أنه «في صفر من السنة 484هـ خرج توقيع الخليفة بإلزام أهل الذمة بلبس الغيار والتزام ما شرطه عليهم عمر بن الخطاب، فهربوا كل مهرب وأسلم بعضهم»، وكان فيهم أبو غالب بن الأصباغي وأبو سعد العلاء صاحب ديوان الإنشاء وابن أخته أبو نصر صاحب الخبر.

اليهود: عاش اليهود داخل العراق بأعداد كبيرة، وكثروا حول نهري دجلة والفرات[48].

وتجابهنا لدى دراسة وضع اليهود ضآلة المعلومات حولهم[49]. ومعظم المعلومات التي يمكن الحصول عليها ترد في مجال الحديث عن سائر طوائف أهل الذمة.

كانت الرئاسة في اليهود والمجوس وراثية، وكان رؤساؤهم يلقبون بلقب

---

(43) المصدر نفسه، ص 262.

(44) M. Allard, p. 382.

(45) M. Allard, op. cot.

(46) الجاحظ، الرد على النصارى، ص 18.

(47) معجم الأدباء، ج 5، ص 69.

(48) أنظر، آدم متز، ج 1، ص 64 ـ 65 حيث يذكر أماكن نزول اليهود، نقلاً عن بنيامين وبتاحيا.

(49) Georges Vajda, le milieu juif à Baghdad, in, Arabica, (1962), p. 390.

الملك[50]، وكان رئيس اليهود المسمى برأس الجالوت يقيم في بغداد، بعد أن أصبحت العاصمة الإدارية والسياسية، ويمثل اليهود لدى القصر؛ فأصبحت بغداد العاصمة الإدارية والقضائية لليهود: الذين تألفوا من عدة طوائف[51]. ويقول مؤرخو اليهود إن رأس الجالوت عانى أياماً شديدة في القرن الرابع[52].

وإلى جانب رأس الجالوت كان أساتذة مدرسة سورا الدينية يمارسون صلاحيات مماثلة في القرن الرابع، كما كان أساتذة مدرسة بغداد الدينية يمارسون مثل تلك الصلاحيات، بعد أن انتقل التعليم الديني إلى العاصمة[53].

أصيبت الوحدة الدينية اليهودية بانقسام زعامتها، منذ قيام دولة الفاطميين، فكانت سلطة رأس الجالوت تسري على اليهود في شرقي الفرات فقط، في حين أوجد الفاطميون منصباً آخر في مصر والشام، فتراخت العلاقات بين اليهود، وفقدت مدارس بغداد التلمودية سندها المالي، مما أدى إلى ضعف دورها الديني[54].

وليس لدينا الكثير من أسماء الموظفين اليهود في الإدارة العباسية، إذ أن السيطرة النسطورية وتقاليد رجالها في الكتابة حالت دون استخدام اليهود بكثافة داخل الإدارة. فقد كان «ما شاء الله» اليهودي من بين منجمي المنصور، وفي القرن الثالث استخدم باغر التركي كاتباً يهودياً[55].

تمكن أثرياء اليهود من الوصول إلى مركز ثابت بتعاطيهم مع رجال الدولة، وتمكن سهل بن نظير في منتصف القرن الثالث من الاحتفاظ بوظيفة جهبذ الوزير طوال حياته، وصار حفيده سهل جهبذاً في النصف الثاني من القرن الرابع[56]، واستعان الوزير علي بن الفرات بالجهبذين يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران، وأجبرهما علي بن عيسى على ضمان جهبذة الأهواز، على أن يقرضا الدولة مبلغ 150 ألف درهم في مطلع

---

(50) متز، ج 1، ص 60.

(51) Vajda, op. cit، أنظر أيضاً، ابن الجوزي، ج 8، ص 96، وفي وثيقة تعود لسنة 605هـ نلاحظ تبدل في بعض ألقاب اليهود، فرئيس اليهود يدعى رأس مثية، ويرد لقب الدراج وحكام اليهود، أنظر محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة، (بيروت، 1978)، ص 285.

(52) أنظر، متز، ج 1، ص 62، 63.

(53) Vajda, p. 390.

(54) أنظر، آدم متز، ج 1، ص 63، أيضاً Vajda, p. 391.

(55) اليعقوبي، البلدان، ص 238، الجاحظ، البيان والتبيين، ج 3، ص 340، الطبري، ج 9، ص 278.

(56) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 31.

كل شهر، ولم يزل هذا الرسم جارياً عليهما وعلى من قام مقامهما مدة ستة عشر عاماً[57].

وتعزز دور التجار اليهود في القرن الرابع، إلا أنهم لاقوا المضايقات التي عرضت لسائر التجار. ففي سنة 332هـ وقع على تجار بغداد ظلم عظيم، وفر جماعة من تجار اليهود والمجوس إلى الشام، وفي نهاية القرن الرابع، صادر رجال السلطة تجار اليهود[58].

كان اليهود يدفعون جزية بمعدل دينار واحد في العام، وكانت هذه الجزية تذهب إلى الطائفة اليهودية نفسها، فكان رأس الجالوت يخصص بمبلغ 700 دينار سنوياً، وأعطي رئيس مدرسة سورا الدينية مبلغ 1500 دينار مساعدة سنوية للمؤسسة. وقدر آدم متز عدد دافعي الجزية من اليهود في بغداد بألف شخص[59] إلا أن مبلغ المساعدة التي كانت تعطى لرجال الدين اليهود والبالغة 2200 دينار سنوياً، تعني أن هناك 2200 رجل على الأقل يدفعون الضريبة، مما يعني أن عدد اليهود يبلغ 10 ـ 11 ألفاً، ولكن أشتور (Ashtor) الذي نقل إلينا المعلومات عن مخصصات رأس الجالوت ورئيس مدرسة سورا لم يحدد الفترة التي كانت تدفع فيها، ولم يبين ما إذا كانت هذه المبالغ هي مجموع ما يدفعه يهود العراق أم هي ضريبة سكان بغداد من اليهود فقط.

أخذ اليهود بالغيار الذي فرضه المتوكل على أهل الذمة الذي يذكر أنه كان عسلي اللون، إلا أن عمرو بن متى قال بأن الغيار كان أزرق اللون بالنسبة للنصارى، وفرض على اليهود اللون الأسود[60]. وأعيد فرض الغيار على أهل الذمة جميعاً في سنة 429هـ، ويبدو أن اليهود عادوا إلى ترك الغيار في القرن الخامس، فأصدر الخليفة المقتدي أمراً سنة 478هـ، ألزمهم فيه بالعودة إلى لباس أهل الذمة[61].

كان حظ اليهود بالاحترام أقل من حظ النصارى، وارتبط ذلك بوضاعة مهنهم التي كانوا يزاولونها، قال الجاحظ: «ولا تجد اليهودي إلّا صباغاً أو دباغاً أو حجاماً أو قصاباً أو شعاباً، فلما رأت العوام اليهود على ذلك، توهمت أن دين اليهود في الأديان

---

(57) الصابي، الوزراء، ص 90 ـ 93.

(58) أنظر، الفرج بعد الشدة، ط. القاهرة، ج 2، ص 97. الصولي، أخبار الراضي والمتقي، ص 251، أبو شجاع ذيل مسكويه، ج 3، ص 282.

(59) متز، ج 1، ص 164، 78. أيضاً E. Ashtor, **Prix et Salaires dans L'Orient Medieval** (Paris, 1969), p. 67.

(60) الطبري، ج 8، ص 171 ـ 72، أيضاً، أخبار بطاركة المشرق، ص 71.

(61) المنتظم، ج 8، ص 96 ـ 97، ج 8، ص 14.

كصناعتهم في الصناعات، وأن كفرهم أقذر الكفر، إذ كانوا هم أقذر الأمم»[62].

ومن مظاهر استخفاف العامة باليهود، زعمهم أن الفأرة كانت ساحرة يهودية، والأرضة يهودية، ولذا كان اليهود يلطخون أجذاع الأشجار بدم الجزور الذي كان محرماً عليهم. وزعمت العامة أن الضب يهودي، حتى أن بعض القصاص قال لرجل أكل ضباً: اعلم أنك أكلت شيخاً من بين إسرائيل[63].

اتهم اليهود بالتكبر و«الكبر في الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم، ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم، فصار لا يعرف ذلك إلا أهل المعرفة كعبيدنا من السند، وذمتنا من اليهود»[64].

وكان اليهود جماعة محافظة، اتهموا بأنهم أعرضوا عن الفلسفة وعلوم الكلام. وزعم الجاحظ أنه لا يوجد بينهم من يؤمن بالطب أو يصدق المنجمين، وأنهم لا يعتقدون بالعلم إلاّ بما كان في التوراة وكتب الأنبياء[65]. وكان الرؤساء الدينيون يقومون بالدفاع عن التقاليد الدينية اليهودية كلما احتاجوا إلى ذلك، معتمدين على تفسيرات متشددة لتعاليم اليهود، كانوا ينشرونها بين حين وآخر ويلقنونها لتلاميذهم[66].

عمل اليهود في بغداد خياطين وصباغين وأساكفة وخرازين[67] وكان أهل الذمة عامة والصبيان يبيعون الهريسة والرؤوس في الشتاء، لأن الهراسين والرآسين يكونون في المساجد إلى طلوع الشمس[68]، وقد وصفها اليعقوبي بأنها من المبيعات الدنيئة. وكان يسمح لأهل الذمة والصبيان بالعمل في أوقات الصلاة، فيستأجرهم التجار بالقراريط والدوانيق لحفظ الحوانيت إلى أوان انصرافهم[69].

وكان أهل الذمة يعاملون في البيمارستانات معاملة المسلمين. إلاّ أن علي بن عيسى أمر سنان بن ثابت الطبيب بإعطاء أفضلية العلاج للمسلمين ثم لأهل الذمة. والرواية

---

(62) رسالة في الرد على النصارى، ص 17.

(63) الحيوان، ج 6، ص 477.

(64) المصدر نفسه، ص 71.

(65) الرد على النصارى، ص 15.

(66) Vajda, p. 396.

(67) أبو يوسف، ص 134.

(68) أبو طالب المكي، قوت القلوب، (القاهرة، 1961)، ج 2، ص 539.

(69) البلدان، ص 261.

التي ذكرها ثابت بن سنان تدل على أن والده الذي كان يشرف على علاج المرضى من وباء انتشر في العراق، استقبل التماساً من سكان منطقة سورا ونهر الملك، ومعظمهم من اليهود، يطالبون فيه بالعلاج، فاضطر سنان لمراجعة الوزير، وهو بعمله كأنما كان يحرض على عدم معالجة اليهود[70].

تمتع اليهود في القرن الرابع ببعض النفوذ، فقد وجد يهودي مع مسلمة وكان اليهودي غلاماً لجهبذ يهودي، فضرب صاحب الشرطة الغلام، ووجد من أصرّ على معاقبة صاحب الشرطة، حتى ضرب وسط حشد من اليهود، فافتتن قوم من المسلمين لذلك، وأحدثوا أموراً قبيحة[71].

الصابئة والمجوس: اعتبر الصابئة والمجوس من أهل الذمة[72]. ويبدو أنه لم يكن لهم دور مهم، إلا أن القاهر (322هـ) الذي كان في ضائقة مالية، أراد، كما يبدو، أن يضع يده على بعض أموالهم، فاستفتى فيهم أبا سعيد الاصطخري، محتسب بغداد، الذي أفتى بقتلهم لأنهم ليسوا كالنصارى واليهود، ولأنهم يعبدون الكواكب، فتتبعهم القاهر حتى جمعوا مالاً كثيراً رفعوا به غائلة الخليفة عنهم[73]. وتمكن الصابئة في النصف الثاني من القرن الرابع من الحصول على عهد من الخليفة، أمر فيه، إلى جانب صيانتهم وحراستهم والذود عن حريتهم ورفع الظلم عنهم، بالتخلية بينهم وبين مواريثهم وترك مداخلتهم ومشاركتهم.

وحصل المجوس في القرن الرابع على اعتراف من السلطة بأنهم أهل ذمة إلى جانب اليهود والنصارى، وصار لهم رئيس يمثلهم لدى قصر الخلافة، كالطوائف الدينية الأخرى[74].

---

(70) ابن أبي أصيبعة، **طبقات الأطباء**، ص 301.

(71) **المنتظم**، ج 6، ص 293.

(72) أبو يوسف، ص 131.

(73) الخطيب البغدادي، ج 7، ص 269 ـ 270. انظر أيضاً، السبكي، **طبقات الشافعية**، ج 2، ص 194.

(74) آدم متز، ج 1، ص 59 ـ 60.

الفصل التاسع

المكاسب

القسم الأول: العمل في الإسلام

يُعتبر العمل في الإسلام قضية دينية بقدر ما هو قضية دنيوية. وانطلاقاً من الآيات العديدة التي أشار فيها القرآن إلى هذا الموضوع، تنبّه رجال الدين والفقهاء لتوضيح موقف الدين من العمل في العصر العباسي.

ولعل أول من تصدى لذلك بالشرح والتفصيل، كان محمد بن الحسن الشيباني (ت 189هـ) في كتابه «الاكتساب في الرزق المستطاب»، والذي وصل إلينا بتلخيص تلميذه محمد بن سماعة المتوفى في القرن الثالث.

أورد الشيباني جملة من الأحاديث النبوية التي تحض على الكسب، ومن هذه الأحاديث ما اعتبر «طلب الكسب فريضة على كل مسلم»، ومنها ما جعل الكسب من أنواع الجهاد: «طلب الحلال كمقارعة الأبطال» و«من يأت كالٍّا من طلب الحلال بات مغفوراً له». وينسب الشيباني للأنبياء مهناً يمارسونها «فآدم أمر بأن يزرع الحنطة. وكان نوح نجاراً يأكل من كسب يده، وإدريس كان خياطاً، وإبراهيم كان بزازاً»[1] وأكد الشيباني أن في العمل المعاونة على القرب والطاعات، وأن لا فرق بين الصنائع. سواء أكان من أربابها فتال الحبال، أو متخذ الكيزان والجرار[2].

وقسم الشيباني المكاسب إلى أربعة أنواع هي: «الإجارة والتجارة والزراعة والصناعة»، واعتبرها كلها في الإباحة سواء، وباعتباره الإجارة من الأعمال، سجل

---

(1) الاكتساب في الرزق المستطاب، بعناية عزت العطار (مطبعة الأنوار، 1938)، ص 14 ـ 17.

(2) المصدر نفسه، ص 37.

الشيباني التطور الاجتماعي الذي قضى بالقبول بوجود فئة من الأثرياء، مبيحاً لها استثمار فائض الثروة بشراء قوة العمل مقابل أجر معين بعد تراجع نظرية الاستعباد، مضفياً على هذه العلاقة القديمة طابعاً شرعياً، بوضعها بين عناصر الإنتاج الأساسية.

ويتصدى الشيباني للأحاديث التي رويت عن النبي ﷺ بذم الزراعة، فيوضح أن النبي ﷺ وبعض الصحابة كانت لهم أراض يستثمرونها، وإنما قصد النبي بذم الزراعة لأنها تقعد عن الجهاد، أما إذا اشتغل البعض في الزراعة والبعض في الجهاد، فالزراعة هنا مفيدة[3].

ونرى الشيباني مرة أخرى مستجيباً لوقائع تاريخية أملتها تغييرات إجتماعية منها:

1 ـ ركود حركة الفتوح واتجاه العرب نحو اقتناء الضياع.

2 ـ إباحة الزراعة والتشجيع على العمل بها بعد أن باتت الحاجة ماسة إلى منتجاتها.

3 ـ حدوث تغيير أساسي في الملكية الزراعية، وممارسة سياسة ضرائبية فيها بعض الإجحاف والعسف، دفعت بالفلاحين إلى الهجرة نحو المدن[4].

ويعتمد الشيباني مقياس المنفعة في تقدير أهمية نوع العمل، فهو يعتبر أن الزراعة أفضل من التجارة، لأن الزراعة أعم نفعاً، ولأن الصدقة في الزراعة أفضل[5].

ويتجه الشيباني إلى إيلاء العمل أهمية أكبر، فيقرر أن نظام العالم يقوم على الكسب، وأن الله حكم ببقاء هذا العامل، وجعل أساس ذلك كسب العباد، وأن في ترك الكسب تخريباً لبقائه ولنظامه القائم على تراص المؤمنين، وعلى حاجة الفقير إلى مال الغني، وحاجة الغني إلى الفقير، وحاجة أرباب المهن بعضهم إلى إنتاج بعض[6].

ويؤكد الشيباني شرف العمل مستشهداً بقول علي بن أبي طالب[7]:

يقولُ الناسُ لي في الكَسْبِ عارُ فقلت العارُ في ذلِّ السؤالِ

وإذ قدّر العمل المهني، إلاّ أنه يبقى متأثراً بمفاهيم قديمة، فيعتبر الحياكة من أنواع

---

(3) المصدر نفسه، ص 36، 37.

(4) أنظر عبد العزيز الدوري، نشأة الاقطاع في المجتمعات الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد العشرون (بغداد، 1970)، ص 9 ـ 11.

(5) الاكتساب، ص 37 ـ 38.

(6) المصدر نفسه، ص 26.

(7) المصدر نفسه، ص 56.

المهن الدنيا لانعدام التصدق فيها[8].

واتجه الحنابلة في القرن الثالث لمعالجة موضوع العمل بقيود متشددة، فأكدوا على الكسب في الأسواق، لتحريمهم الكسب من مال السلطان[9]. وعالج أحمد بن حنبل العديد من التفاصيل في مختلف مجالات العمل والمكاسب من تجارة وصناعة وإجارة، وكانت مواقفه جميعاً تدل على إباحة العمل في سبيل الكسب، والتشجيع عليه؛ وكان أحمد يحض على العمل مقتدياً بقول النبي محمد ﷺ: «جعل الله رزقي تحت ظلال رمحي». ورأى ابن حنبل ضرورة العمل «ليغني المرء نفسه وعياله». ونصح أحمد أحدهم بقوله: إلزم السوق تصل به الرحم وتعود به علي عيالك. وقال لرجل آخر: إعمل وتصدق بالفضل على قرابتك. وأمر أولاده بأن يختلفوا إلى السوق، وأن يتعرضوا للتجارة، وكان يقول: أحب الدارهم إليّ درهم من تجارة، وأكرهها الذي من صلة الإخوان[10]. ولذلك رفض ابن حنبل صلة وقرضاً من صديق له، وفضّل أن يعمل لدى صديقه بأجرة بعد أن كتب على نفسه عهداً بذلك[11].

وعالج أبو الحسن العامري موضوع العمل، فرأى أن العلم مبدأ العمل بمعنييه، الفقهي واليدوي؛ وقسم محاسن الأعمال إلى ثلاثة أنواع: أحدها، يتعلق صلاحه بضرب من المعونة البشرية، والثاني، استبقاء ما يفتقر في بقائه إلى ضرب من القوة البشرية، والثالث، ما تتحقق عائدة منافعه بضرب من التدابير البشرية[12].

وعقد أبو حامد الغزالي (ت 505هـ) فصلاً في فضل الكسب والحث عليه، ذكر فيه جملة من الأحاديث النبوية التي تحث على العمل وثوابه، من ذلك قول النبي: «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهمّ في طلب المعيشة» وقوله أيضاً: «إن الله تعالى يحب المؤمن المحترف» و«أحلّ ما أكل الرجل من كسبه، وكل عمل مبرور»[13]. وفي خبر آخر: «أحل ما أكل العبد كسب الصانع إذا نصح». ويعتقد الغزالي أن المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه، كما أن الرجل الأقرب إلى الاعتدال هو الذي شغله معاشه لمعاده[14].

---

(8) المصدر نفسه، ص 38.

(9) أبو داود السجستاني، مسائل الإمام أحمد، بعناية رشيد رضا (القاهرة، 1350هـ)، ص 193.

(10) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص 283.

(11) لبيب السعيد، دراسة إسلامية في العمل والعمال، (القاهرة، 1970) ص 18.

(12) الإعلام بمناقب الإسلام، ص 78، 79.

(13) إحياء علوم الدين، (القاهرة، 1939)، ج 2، ص 60 ـ 61.

(14) المصدر نفسه، ص 60 ـ 62.

وحدد الفقه الجعفري موقفه من المكاسب بإباحة كل شيء أباحه الله، من ولاية وصناعة وتجارة وإجارة[15]. واعتبر المكاسب على خمسة أنواع: واجب، وندب، ومكروه، ومباح، ومحظور، متخذاً معياره مصلحة الفرد في العيش ومصلحة الجماعة وحقوق الشريعة[16].

وتطرق الأدب إلى موضوع العمل، فاعتبر ابن قتيبة الدينوري «أن العزّ تحت ثوب الكدّ»[17] ولاحظ الجاحظ تفاوت ريع العمل بين مزاوليه فقال: «ولم أر شوّاء قط بلغ حال اليسار والثروة، وكذلك ضرّاب اللّبن، والطيان، والحرّاث، وكذلك ما صغر من التجارات والصناعات. ألا ترون أن الأموال أكثر ما تكون عند الكتاب وعند أصحاب الجوهر وعند أصحاب الوشي والأنماط،، وعند الصيارفة والحناطين، وعند البحريين والبصريين؟ والجلاب أبداً والبيازرة أيسر ممن يبتاع منهم»[18].

وقال الجاحظ بضرورة تعاون فئات المجتمع، وتوقف عند دور الحرفيين في ذلك إذ «لم يخلق الله تعالى أحداً لا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخّر له، وعلى ذلك أحوج الملوك إلى السوقة في باب، وأحوج السوقة إلى الملوك في باب، وحاجة الناس بعضهم لبعض صفة لازمة في طبائعهم[19]».

ووقف الكُتّاب موقفاً مسانداً للمفاهيم السلطوية، فرفضوا تخصيص مكان شريف في السلّم الإجتماعي لأرباب الحرف، مستندين إلى تقاليد عصر ما قبل الإسلام، وربما وضعوا أقوالاً وجعلوها تجري مجرى الأمثال السائرة.

ولعل الحجامة والحياكة والتعليم كانت أكثر المهن تعرضاً للوضع منها. قال الجاحظ: «وقد سمعنا قول بعضهم: الحمق في الحاكة والمعلمين والغزالين؛ والحاكة أقل وأسقط من أن يقال لهم حمقى، وكذلك الغزالون؛ والحائك ليس عنده جيد في فعال ولا مقال، إلّا أن يجعل جودة الحياكة من هذا الباب، وليس هو من هذا في شيء»[20]

---

(15) الطوسي، النهاية في مجرد الفقه والفتاوى، (بيروت، 1980، دار الكتاب العربي)، ص 356، 357، 363، أيضاً، الشيخ مرتضى الأنصاري، المكاسب، (تبريز، 1375هـ)، ص 2.

(16) أنظر، سلّار، حمزة بن عبد العزيز الديلمي، المراسم في فقه الإمامية، بعناية محمود البستاني، (بيروت، 1980)، ص 169 ـ 170، أيضاً الطوسي، 363 ـ 367، والأنصاري، ص 2.

(17) عيون الأخبار، ج 1، ص 233.

(18) الحيوان، ج 4، ص 424.

(19) المصدر نفسه، ج 1، ص 43 ـ 44.

(20) البيان والتبيين، ج 1، ص 269.

ووُضع حديث عن النبي في هذا المضمار يقول: «لا تستشيروا الحاكة ولا المعلمين»[21]. ووجه المهدي إهانة إلى أحد عماله ووصفه بأنه «حجام ابن حجام»[22].

وعقد الراغب الإصفهاني فصلاً في الصناعات والمكاسب، ضمّنه تفضيل بعضها على بعض، ونقل فيه قولاً منسوباً إلى المأمون: «السوقيون سفل، والصناع أنذال، والتجار بخلاء، والكتّاب ملوك على الناس». ومنه أيضاً، أن أحد الحكام كتب إلى ولاته بأن يجعل الحائك والإسكاف في مرتبة، والنخاس والشيطان في مرتبة. وقيل: ثلاثة أعمال لم تزل في سفلة الناس، الحياكة والحجامة والدباغة» وذكر الراغب ضرباً ممن وصفهم بـ«أنذال الصناع»، ومنهم الكناس، والحجام، والدباغ، والحائك، والنداف، والاسكاف[23].

ووردت أقوال في الحط من مهنة الصرّاف، ومن باعة الحبوب والطحين، لأن خطر كنز المال وارد في الأول، فيما تساعد تجارة الحبوب والطحين على الاحتكار ورفع الأسعار، ولم يحظ باعة الأكفان بالاحترام، لأنهم يتمنون موت الناس، كما كان الجزارون موضع اتهام بقساوة قلوبهم، والجوهريون الذين يصنعون أشياء تزين الدنيا بالفضة والذهب كان عملهم مذموماً[24].

ورغم وضوح فوائد مهنتي الحياكة والحجامة، إلا أنهما كانتا أكثر المهن ازدراء. لكن أصحاب الموقف المضاد لهاتين المهنتين، لم يظهروا أي حجة في دعم موقفهم، بالرغم من أنهما كمهنتين ليس فيهما ما يتعارض وشرائع الإسلام، وقد حاول بعض الفقهاء إثارة نقاط اتهام يمكن أن تواجه هاتين المهنتين، ومنها عدم إمكان تحديد السعر في السلع مسبقاً. ويعتقد بعضهم أن من أسباب كره مهنة الحجامة، هو ما كان يجري في الجاهلية من بيع الأصحاء دماءهم من آخرين، وهو ما حرّم في الإسلام[25]. ولكن يجب البحث عن هذا التوضيح المتأخر فيما إذا كانت مهنة الحجامة قد مارسها العبيد. إلا أن وجود إشارات عن وجود سوق الحجامين في المدينة المنورة في القرن الثاني وربما في القرن الأول يعني أن هذه المهنة لم تكن وقفاً على العبيد، مما يجعل من المقبول القول باحتمال انتقال

(21) الخطيب البغدادي، ج 12، ص 124.

(22) الطبري، ج 8، ص 145.

(23) محاضرات الأدباء، ج 1، ص 459، 460، 463.

(24) أبو طالب المكي، قوت القلوب، ج 2، ص 541.

(25) أنظر Brunshwig, Métiers vils en Islam, in: studia Islamica, N° 16, p. 48. أيضاً، سلار، المراسم، ص 169.

مهنة الحجامة من العبيد إلى الأحرار[26].

ويدلّنا تراث الشرق القديم أن مهنة الحجامة كانت مرذولة. من ذلك ما جاء في التلمود من صفات كريهة ألصقت بتلك المهن. كذلك كان الساسانيون يحتقرونها أيضاً[27]. ونجد صدى للموقف الفارسي لدى الجاحظ الذي يذكر أن العبيد كانوا يعملون في الأعمال الحقيرة، كالخدمة والحجامة وإجراء الخيل[28]. ولم يكن الراغب الإصفهاني وغيره بعيدين عن التأثيرات ذاتها.

ومع أن الفقهاء اعتبروا الخياطة من آكد الصنايع لتعلقها بستر العورات، إلا أنهم نظروا إلى الحياكة نظرة ازدراء. مما يحمل على الإفتراض بأن ما جرى في مهنة الحجامة هو نفسه ما تم في الحياكة من انتقال المهنة إلى بعض الأحرار الذين مارسوا هذه المهنة[29].

ويبدو أن لضآلة الدخل الذي تدره بعض المهن دوراً في تقديرها، ففي حين كان تقدير التجارة عالياً، وخاصة تجارة البز، كانت معظم الحرف توضع في منازل دنيئة، «لأنها حركة يتعاطاها الإنسان بلا حفز ولا استكراه، وأنها أقرب إلى الذل والضعة»[30]. فيما اعتبر الحريري «حرف أولي الصناعات، غير فاضلة عن الأقوات، ولا نافقة في جميع الأوقات، ومعظمها معصوب بشبيبة الحياة»[31]. ورأى الدمشقي أن كسب الصنائع يقتصر على إقامة ما لا بد منه، ويؤيد ذلك ورود أسماء أصحاب المهن والحرف التي اعتبرت مكاسبها مكروهة وهي: «البستاني والحمال والملاح وصاحب الحمام والخشاش والمزين»[32].

وهنالك أسباب تتصل بالتاريخ الإجتماعي العربي نفسه. فمن المعروف أن التجارة حرفة اشتهرت بها قريش، التي اقترن اسمها دائماً بالتجارة والمعاملات، وكانت الخلافات العربية بين أهل الشمال وأهل الجنوب في شبه جزيرة العرب، مثاراً للنيل من قبائلها. فكان أهل اليمن الجنوبيون يفخرون على الشماليين ويعيرون قريشاً بالتجارة، بينما كان

---

(26) Brunshwig, op. cit.

(27) Brunshwig, p. 49.

(28) الحيوان، ج 3، ص 32، 435، انظر أيضاً، التاج، ص 24.

(29) ابن الحاج، المدخل، ج 2، ص 20، أيضاً Brunshwig, p. 49.

(30) قوت القلوب، ج 2، ص 541، الغزالي، إحياء، ج 2، ص 62، أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ج 3، ص 132.

(31) مقامات الحريري، (بيروت، 1965) ص 435.

(32) الإشارة إلى محاسن التجارة، ص 94، المكي، قوت القلوت، ج 2، ص 542.

الشماليون يعيرون الجنوبيين بأنهم كانوا أهل صناعة، فهم ما بين ناسج برد، ودابغ جلد، وسائس قرد، وراكب عرد (حمار). ومن ذلك أيضاً هجاء جرير لبني حنيفة الذين وصفهم بأنهم يتعاطون التجارة ويقعدون عن الحرب، وبأنهم أبناء نخل وحيطان ومزرعة[33].

وهناك من المهن ما هي مذمومة بنتائجها، ولا يجوز تعلمها من «الدهماء» لأن الضرر في استعمالها أعم من النفع، نحو السحر والعزائم والكيمياء، في حين أن «المهن الشريفة» كالطب والطبيخ والأصباغ والأطلية، فإن فوائدها عامة[34].

الصوفية والعمل

أكد الصوفية ضرورة العمل. وحظيت الحرف عندهم ببعض التكريم. فكان معروف الكرخي يقول: «إذا أراد الله بعبد خيراً، فتح عليه باب العمل، وأغلق عنه باب الفترة والكسل». وكان ذو النون المصري يقترح «التردد إلى السفل أبناء الدنيا في رغيف قبل أن يعطوه»[35].

واعتبر الصوفية التقوى معياراً في شرعية المهنة وشرفها، فرفعوا الحظر عن مهن عديدة، واعتبروا أن التقوى لا تتعارض مع الحياكة والحجامة. وكان أحل ما لديهم كسب الصانع من يده، لأن الله يحب المؤمن المحترف[36].

إلا أن بعض الصوفية كان يقول بتفضيل مهنة على أخرى. وينصح بأن يتخير الناس لأولادهم خير الصنائع، واقترح أبو طالب المكي عشر صنائع اعتبرها من أعمال الأخيار والأبرار، وهي: الخرز، والتجارة، والحمل، والخياطة، والحذو، والقصارة، وعمل الخفاف، وعمل الحديد، وعمل المغازل، وصيد البر والبحر، والوراقة[37].

وكان الكثير من المتصوفة يعملون بأيديهم، ولا يمنعهم توكلهم عن الكسب، لئلا يسقط المتوكل عن درجة سنته حين سقط عن درجة حاله، ولأن التوكل فعل القلب، فلا

---

(33) الجاحظ، رسالة في مدح التجار، ص 142، أيضاً، رسائل، بعناية هارون، ج 1، ص 188، والبيان والتبيين، ج 3، ص 85 ـ 86.

(34) العامري، الإعلام بمناقب الإسلام، ص 88.

(35) السلمي، طبقات الصوفية، بعناية نور الدين شرابيه، (القاهرة، 1969) ص 90، 25.

(36) الأغاني، ط. بولاق، ج 3، ص 126، المكي، قوت القلوب، ج 2، ص 541.

(37) المكي، ج 2، ص 541 ـ 542.

ينافي حركة الجوارح؛ ولو كان كل كاسب ليس بمتوكل لكان لأنبياء غير متوكلين[38]. لذا نرى أن الكثير من المتصوفة مارسوا مهناً يدوية، ونسب أكثرهم إلى المهن التي كانوا يمارسونها[39]. وقيل: إن أبا جعفر الحداد بقي يعتقد التوكل بضع عشرة سنة وهو يعمل في السوق يأخذ كل يوم أجرته. وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من عمل يده في الحصاد وحفظ البساتين، وكان السري السقطي يبيع السقط، وعمل في بيع اللوز، كما عمل خير النساج في نسج الخز، وكان أبو علي الروذباري يطالب الفقير المتوكل بالتزام العمل في السوق من أجل الكسب[40].

الدعوات العلوية والعمل

القرامطة: حملت التحولات الاقتصادية في الدولة العباسية البؤس لفئات كبيرة من المجتمع، وقامت على أثر ذلك انتفاضات سياسية ـ دينية. ففي سنة 255هـ شبت ثورة الزنج بقيادة علي بن محمد الذي ادعى نسباً علوياً، وجعل من عبيد منطقة البصرة مادة لحركته، فوعدهم بتخليصهم مما هم فيه من بؤس، وبأن يرفع من أقدارهم وأن يملكهم العبيد والأموال والمنازل، وأن يبلغ بهم أعلى الأمور[41].

وفي سنة 276هـ نشطت الدعوة القرمطية في سواد الكوفة[42] وحاولت إنشاء نظام جماعي، وقامت دعوتهم «بالطعن في السلاطين وعلماء الزمان»، ونادوا بحركة إصلاحية شاملة كانت ترمي إلى إيجاد مجتمع يتمتع بالرخاء التام[43] حتى ظهروا أمام الناس بأنهم أبطال السلم والرفاه اللذين وعد بهما العباسيون ولم يحققوهما[44].

وقد أكد القرامطة على الناحية المادية في دعوتهم. وقال داعيتهم في إحدى قرى الكوفة: «أمرت أن أدعو أهلها لينتقلوا من الجهل إلى العلم، ومن الضلال إلى الهدى ومن الشقاوة إلى السعادة، وأن أستنقذهم من ورطات الذل والفقر، وأملكهم

---

(38) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص 280 ـ 281.
(39) انظر التراجم التي أوردها الخطيب البغدادي، في تاريخ بغداد.
(40) القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، (القاهرة، 1940)، ص 8، 11، 27، 78، أيضاً المكي، ج 2، ص 543.
(41) الطبري، ج 9، ص 415، 416.
(42) المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء، بعناية الشيال، (القاهرة، 1967)، ج 1، ص 157.
(43) ع.ع. الدوري، تاريخ العراق الإقتصادي، ص 83، 84، أيضاً:
Massignon, **Esquisse d'une bibliographie** Qarmates; Opera Minore, T.I. p. 627.
(44) De Coeje, **Memoirs** sur les Qarmates de Bahrein (Leide, 1886) p. 24.

مـا يستغنون بـه عن الكـد والتعب»[45]. وكـان تـوجههم للطبقـات الفقـيرة التي دعـوا لنصرتها، والتي اعتبروها العماد الأساسي في دعوتهم، فانضم إليها فقـراء الأعراب والنبط والأكراد وأولاد المجوس، كما استهوى عموم أهل السواد وأكرتهم شعارهم[46]: **﴿ونريد أن نمن عـلى الـذين استضعفـوا في الأرض ونجعلهم أئمـة ونجعلهم الـوارثـين﴾**[47]. هذا الإنضواء الكثيف اضطر الدولة لأن تكتفي بمطاردة رؤساء القرامطة، دون أتباعهم، خوفاً على السواد من الخراب، لأن أتباعهم كانوا فلاحي السواد وعماله[48].

لقـد كان رأي الكتاب صريحاً من دعوة القرامـطة الباطنيـة في تقديـر تأثـيرها عـلى الأوضاع الاقتصادية السـائـدة، فنقل الـطبري أول احتجاج عـلى دعوتهم وجهـه «الهيصم» مـالك إحـدى المقاطعـات، يشكو من الصلوات الخمسـين في اليوم الـواحد التي أمـر بها الداعي، وأورد الطبري ملاحظة أخـرى نستدل منهـا على انتشـار الدعـوة القرمـطية بـين الفلاحين، حتى أن عامل الخليفة فرض ديناراً في كل سنة على كـل واحد منهم فجبى من ذلك الكثير[49].

وكان الغزالي صريحـاً في هذا الشـأن، فقال بـأن خطر البـاطنية الـرئيسي هوفي استهـوائها الـطبقات العـاملة وأهل الصنـاعات والحـرف[50]، أما ابن الجـوزي فقد أقلقـه مهاجمـة الباطنية للمؤسسة الاقتصادية، فاعتبر أن من طبيعة تعاليمهم سلب الأموال ونهبها[51].

وكان موقف القرامطة واضحـاً من الحض على العمـل والكسب، وخاصـة بعد أن فرضت الضرائب على رجال الدعوة. فقد فرض حمدان على أتباعـه «نظام الالفـة»، وفرض عـلى من دخل دعـوته أن يؤدي درهمـا وسمى ذلك «الفـطرة»، ثم فرض «الهجـرة» وهي دينار على كل رأس أدرك، ثم فرض عليهم «الخمس»، فقوموا جميع ما يملكونه من ثـوب

---

(45) الغزالي، **فضائح الباطنية**، بعناية عبد الرحمن بدوي، (الدار القومية، القاهرة، 1964)، ص 13.

(46) عبـد القاهـر البغدادي، **الفـرق بين الفـرق**، (دار الآفاق الجـديدة، بيروت، 193)، ص 267، 285، 289، أنظر أيضاً، **فضائح الباطنية**، ص 34، 162، عريب، ط. المعارف، ص 18، المقريزي، **اتعاظ**، ص 156.

(47) سورة القصص، 28، آية 5.

(48) ثابت بن سنان، **تاريخ أخبار القرامطة**، ص 17.

(49) **تاريخ الطبري**، ج 10، ص 24، 25.

(50) أنظر، برنارد لويس، **أصـول الإسماعيليـة**، عربـه خليل أحمـد جلّو، وجاسم محمـد الرجب، (دار الكتـاب العربي، القاهرة، 1947)، ص 193.

(51) **تلبيس إبليس**، ص 111.

وغيره وأدوا ذلك إليه، فكانت المرأة تخرج خمس ما تغزل، والرجل يخرج خمس ما يكسبه؛ ثم فرض عليهم أن يجمعوا أموالهم في موضع واحد، وأن يكونوا فيه أسرة واحدة لا يفضل أحد منهم صاحبه وأخاه في ملك يملكه. وأقام في كل قرية رجلاً مختاراً من ثقاتها يجمع أموال أهل قريته، من بقر وغنم وحلي ومتاع[52]. وقد اتبع حمدان سياسة اجتماعية ناجحة مع أتباعه، فكان يكسو عاريهم وينفق على سائرهم ما يكفيهم، ولا يدع فقيراً بينهم ولا محتاجاً ولا ضعيفاً، ومن أجل تمكنه من متابعة سياسته أمر كل رجل منهم بالانكماش في صناعته والكسب بجهده، ليكون له الفضل برتبته. فجمعت المرأة كسبها في مغزلها، والصبي أجرة نظارته للطير، وأتوه به (أي الداعي) فلم يملك أحد منهم إلاّ سيفه وسلاحه. وأثارت هذه السياسة موجة من الحماس «فانضم إليها قوم ضعفاء ما بين قصّاب وحمّال وأمثال ذلك»[53].

واتخذ قرامطة البحرين إجراءات ترمي إلى تشجيع الصناع ومساعدتهم في شراء أدوات صناعتهم، واهتموا بتوزيع العمل[54].

وكان كبار رجال الدعوة القرمطية من الحرفيين، فالحسين الأهوازي الداعية في سواد الكوفة كان يسف الخوص ويأكل من كسب يده، وكان حمدان قرمط مكارياً يحمل على أثوار له، وكان الداعي في قرية زابوقة من عمل الفلوجة يعلم الصبيان[55]، وكان أبو سعيد الجنابي صاحب القرامطة في البحرين يعمل الفراء[55]، وقد اختلف في حرفته، وربما عمل في البصرة في رفو أعدال الدقيق أو أنه كان كيالاً[56].

إخوان الصفاء

ظهرت جماعة إخوان الصفاء في نهاية القرن الثالث في مدينة البصرة[57]، وأقاموا لدعوتهم فروعاً في بغداد ومدن العراق[58]. وعملوا على وضع دائرة معارف تجمع بين مذاهب الشيعة والمعتزلة وبين نتاج الفلسفة، والتأليف بينها في مذهب يناسب العامة،

(52) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج 1، ص 156، 157.

(53) المصدر نفسه، ج 1، ص 157، 160.

(54) ناصر خسرو، سفرنامه، (بيروت، 1970)، نقلها إلى العربية، يحيى الخشاب، ص 143، أيضاً، المقريزي، اتعاظ، ج 1، ص 164.

(55) تاريخ أخبار القرامطة، ص 7، الطبري، ج 10، ص 24، عريب، ط. الاستقامة، ص 19.

(56) اتعاظ الحنفا، ج 1، ص 159.

(57) De Goeje, les qarmates 35 - 36.

(58) دي بور، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، (القاهرة، 1938)، ص 97.

جاعلين من ذلك خطاً سياسياً دينياً عاماً[59]. وخاض الإخوان حرباً دعائية ضد الخلافة العباسية عبر رسائل ألّفوها، بلغ عددهااثنتين وخمسين رسالة. ومن بين هذه الرسائل، عقد الإخوان رسالة في «شرف الصنائع»، هدفوا منها إلى رفع شأن العمل، واعتبروا أن المهن جميعها شريفة، ولكنها تتفاضل فيما بينها، إما من جهة الهيولى التي هي الموضوع فيها، وإما من جهة منفعتها، ووضع الإخوان القيمة الفنية والتقنية في الانتاج بين هذه القيم[60]. ووصفت الرسالة تعاطي الناس مع الصنائع، فمنهم من لا يتعامل بالصناعة لكبر في نفسه، مثل أولاد الملوك، ومنهم من لا يتعلم ولا يعمل ورضي بالقليل لزهده في الدنيا وإقباله على الآخرة، ومنهم لا يتعلم ولا يعمل لكسله، ويرضى بالذل والهوان في طلب معاشه كالمكدين والسؤال، ومنهم من لا يعمل، من أجل مهانته واسترخاء طبيعته وقلة فهمه، مثل النساء وأمثالهن من الرجال[61].

واعتبر الإخوان أن الناس كلهم صناع وتجار وأغنياء وفقراء. فالصناع، هم الذين يعملون بأبدانهم وأدواتهم في مصنوعاتهم الصور والنقوش والأصباغ والأشكال، وغرضهم طلب العوض عن مصنوعاتهم لصلاح معيشة الحياة. والتجار هم الذين يتبايعون بالأخذ والإعطاء، وغرضهم طلب الزيادة فيما يأخذونه على ما يعطون. والأغنياء هم الذين يملكون هذه الأجسام المصنوعة، الطبيعية والصناعية، وغرضهم في جمعها وحفظها مخافة الفقر. والفقراء هم المحتاجون إليها، وطلبهم الغنى[62].

وتكشف المهن، عند إخوان الصفاء عن ترابطها وتلبيتها لحاجات المجتمع. فبعضها ضروري، ومنها ما هي تابعة للأولى وخادمة لها[63].

ويعتقد الإخوان أن الناس أكثرهم فقراء، وخوف الأغنياء من الفقر هو الذي يحثهم على الاجتهاد في اتخاذ الصنائع والتجارات والثبوت فيها، والغرض منها جميعاً هو إصلاح الحاجات وإيصالها إلى المحتاجين. ويربط الإخوان ضرورة اطمئنان الانسان إلى قوته اليومي حتى يتسنى له الإنصراف إلى تتميم النفس بالمعارف الحقيقية والأخلاق

---

(59) برنارد لويس، **النقابات الإسلامية**، تعريب ع.ع. الدوري، **مجلة الثقافة**، (القاهرة، 1960) الأعداد 355 ـ 357، ص 735.

(60) **رسائل إخوان الصفاء**، ج 1، ص 287 ـ 288.

(61) المصدر نفسه، ج 1، ص 291.

(62) المصدر نفسه، ج 1، ص 285 ـ 286.

(63) المصدر نفسه، ج 1، ص 284.

الجميلة والآراء الصحيحة والأعمال الزكية ثم الصعود إلى ملكوت السماء والخروج من هاوية عالم الكون والفساد، إلى فسحة عالم الأرواح، والمكث هناك فرحاً مسروراً مخلداً أبداً[64].

الأخلاقيون والعمل

وضع نصر بن يعقوب الدينوري سنة 393هـ رسالة تقدم بها إلى الخليفة القادر بالله. وهي عبارة عن حلم طويل قدم تفسيره للخليفة[65]. وتضمن الحلم فصلاً في تفسير (رؤية الصناع والعملة وأصحاب الحرفة والفعلة)[66].

عالج نصر موضوع العمل من وجهة نظر أخلاقية تستند أحياناً إلى منافع الحرف، أو السلع التي تنتجها، بما يتفق ومثل المجتمع البغدادي في القرن الرابع، وترتبط هذه المعالجة بشكل أوثق بحياة الشارع البغدادي.

وأكد أبو أسعد على أهمية المهنة بالقول: «كل صاحب حرفة استفاد من أدوات حرفته كلها، فإنه ينال بتلك الحرفة رياسة جامعة لا يكون لنظرائه مثلها. فإن استفاد أداة واحدة فإنه قد أمن الفقر بتلك الحرفة»[67].

وإذا ما تفحصنا اللائحة الطويلة التي يقدمها الدينوري، فإننا نجدها تنقسم إلى مجموعتين رئيسيتين: مهن محترمة، ومهن محتقرة. ويرتبط احترام المهن أو احتقارها بمفاهيم اقتصادية، وبما تقدمه من خدمات، وغالباً ما كانت المهن المحتقرة ترتبط بموقف أخلاقي معين، فيما كانت المحترمة ترتبط بمفاهيم إنتاجية أو تحويلية أو سلطوية أحياناً.

وتضم المجموعة الأولى الإسكاف والأكّاف (صانع البرادع) والدبّاغ، والزرّاد، والسكاكيني، وعصّار دهن الجوز، وعصّار السمسم، والفخاري، والقصّار، والقطّان، والمشّاط، والمساميري، والنجار.

ونلاحظ: أ:

1 ـ أن الغالب على هذه الحرف هو طابع الصناعة التحويلية والإستخراجية. فالإسكاف

---

(64) المصدر نفسه، ج 1، ص 286.

(65) التعبير في الرؤيا، مخطوط متحف بغداد برقم 598.

(66) الفصل الثاني عشر، ق 76ب وما بعدها.

(67) المصدر نفسه، ق 76ب.

رجل مصلح لأن الجلود من كل الحيوان بركات. والدباغ رجل يحيي الموق[68]، أي أنه يأخذ الجلود ويدبغها ويجعلها صالحة لاستعمالات جديدة، فكأنما أحياها. والزراد يعلم الناس الأدب، ويدلهم على مكارم الأخلاق. والسكاكيني رجل يعلم الحذق والكياسة. ووصف المؤلف عاصر دهن الجوز بأنه صاحب كد وتعب ومال تام، وكذلك عاصر السمسم[69].

2 ـ أن بعض هذه المهن يقدم خدمات مهمة تلبي حاجات الحياة وحفظ الجسد. فالبناء رجل ذو حظ في الفضيلة، والنجار رجل مؤدب يؤدب الناس، والحنائط (بائع الحنطة) التي اعتبرها أشرف الأطعمة، وكذلك الدقاق، والطحان الذي يقدم الخبز للناس. والخباز الذي وصفه بأنه سلطان عادل رفيق شفيق، وهو نافع لاضطرار الناس إليه. والحراث رجل يعمل أفضل الأعمال[70].

3 ـ أن بعض هذه المهن محترم ومفضل لاتصاله بالسياسة والإدارة، كطباع السيوف، والأكاف، وضراب الدنانير، والمسّاح، والترسي (صانع التروس) والجوشني (صانع الدروع).

4 ـ وتحتل الخدمات المتصلة بالحياة اليومية مركزاً بين المهن المحترمة، فالجوهري وجلاب الأمتعة والجواليقي وجلاب الألبان والجمّال وحالب اللبن.

5 ـ ونرى أن المهن التي كانت موصوفة بالدونية قد نالت حظاً أوفر من الإحترام في القرن الرابع. ومن أصحاب هذه المهن: الحجام، والحلاق، والخياط، والدباغ، والسقاء، والراعي، والشواء، والطباخ، واللحام، والمكاري، والمعلم، والناطور.

6 ـ ويلاحظ الدينوري أن الفعلة احتلوا مكاناً سياسياً، ففيهم قوة السلطان، وفيهم خراب البلاد إذا شغبوا.

بـ:

1 ـ ويصنف الدينوري المهن التي لا تحظى بالتقدير من موقف أخلاقي، يختلط فيه الميراث الديني والقيم الجديدة، وتشترك جميعاً لتضع هذه المهن في مرتبة محتقرة. وضمت هذه المجموعة الخدمات غير الحيوية. من ذلك: الجصاص، وجلاء الصفر، وحكاك الفصوص، والخمار، وسبّاك الذهب والفضة، والصيرفي،

---

(68) المصدر نفسه، ق 77آ، 77ب.

(69) ق 78ب، 79ب، 80ب.

(70) ق 76ب، 77ب، 79ب.

والصفّار، والصكاك، والطرائفي (بائع الطرائف)، ومصوّر الحيوان، والنقاش، والصباغ، وبياع الطيور، والحذّاء، والخشاب، والخرزي.

فبعض هذه المهن يتصل بأعمال تزيينية، وهو ما لم يكن مرغوباً فيه بتأثير الميراث الديني. ولم يكن بعيداً عن ذلك الحمّامي وموظفو الحمام، والخانبان (صاحب الخان)، والدلاّل، والزجّاج، والسمّاط، وصياد العصافير.

2 - ولم يسلم من الاحتقار بعض أرباب المهن والبياعات الصغرى، كالبطيخي، والبقلّي، والباقلاّني (بائع الفول)، الذين اتصفوا بالبذاءة. ولعل ذلك متصل بكثرة اختلاطهم بالسوقة من الناس، مما أورثهم قلة الإحترام. ومن تلك المهن أيضاً، الجزار والقصاب والنداف والناطفي والهراس.

القسم الثاني
موارد الرزق

ـ الزراعة:

أقيمت بغداد في منطقة توفرت فيها أساليب زراعية قديمة، تأكدت أهميتها بعد ظهور عاملي الحرفة والتجارة. واشتركت هذه النشاطات جميعاً في زيادة مصادر الثروة، وتحديد طبيعة نمو المدنية السريع، فجعلت من المدينة رأساً لجسم ريفي مجاور، وقامت علاقة وثيقة بين «السواد» وبين بغداد، فكان رخاء أحدهما عاملاً في رخاء الآخر[1]. فالمنتجات الزراعية التي كانت تسد الحاجات التموينية لسكان المدينة كانت تسهم أيضاً في تنمية عائدات الضريبة وفي زيادة إثراء السكان وملاكي الأراضي.

هذا الواقع ناتج عن وجود بغداد في أراضي السواد الخضراء[2]، وفي طسوج بادوريا، أجلّ طساسيج بغداد إنتاجاً، وفي منطقة الكرخ، أجلّ رساتيق بادوريا، حيث كل جريب[3] منه قيمته ألف دينار يغل ألف درهم[4]، وهي نسبة طيبة من الربح، إذ تساوي 7٪ من قيمة الأرض تقريباً. يعكس هذا، اهتمام السلطات بديوان بادوريا الذي كان يقلد لأفضل الإداريين تمرساً، لأنها «عرصة المملكة وعاملها يعامل معاملة أولاد الخلفاء والوزراء». وكان أبو العباس بن الفرات يقول[5]: «من استقل ببادوريا استقل بديوان الخراج، ومن استقل بديوان الخراج استقل بالوزارة، وذلك لأن معاملاتها مختلفة وقصبتها الحضرة»[6]. هذا القول الذي يؤكد أهمية الخراج بالنسبة إلى الإدارة العباسية، يفسره لنا خراج بادوريا لسنة 204هـ والذي يبلغ مليون درهم[7]. لذا كان أي اختلال في السياسة الزراعية يؤدي إلى خلل الموازنة العامة[8].

كانت الأرض مركز النشاط الأهم، واقتضي ذلك توفير حاجتين أساسيتين: قيام

---

(1) أنظر، جمال حمدان، جغرافية المدن، ص 325.

(2) وإنما سمي السواد سواداً لأن العرب تقول: سواد الأرض وبياضها، فالسواد العامر والبياض الغامر، أنظر، الصابي، الوزراء، ص 78.

(3) الطسوج: الناحية، والرستاق: السواد والقرى، والجريب 1592م^2.

(4) الصابي، الوزراء، ص 281.

(5) أحمد بن موسى، كان إماماً في كتابة الخراج، أنظر، العيونُ والحدائق، ج 4، ص 148.

(6) نشوار المحاضرة، ج 8، ص 23.

(7) أنظر، قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص 237، ط. بغداد 182، يحيى بن آدم، ص 110.

(8) أنظر، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 65.

نظام متماسك للري، ثم الأمن المستتب. وكان أي تقصير في خدمة الري أو أي إساءة لأهل الخراج (دافعي الضريبة)، يؤدي إلى تراجع الإنتاج. ومن أجل هذا عرف العهد العباسي سلسلة من الإجراءات العملية والنظرية، كانت جميعها ترمي إلى رفع مستوى الإنتاج.

ولعل أقدم وثيقة عباسية عالجت مسائل الخراج تلك التي نسبت إلى عبد الله بن المقفع وعرفت باسم «رسالة الصحابة». فقد سجلت اضطراب الخراج في مطلع العهد العباسي، كما أنها سجّلت عسف الجباة ومغالاتهم، وتتوجه الرسالة إلى الخليفة بالنصيحة في فرض «وظائف معلومة» وتدوين الدواوين، رجاء صلاح الرعية وعمارة الأرض[9].

وتدل الرسالة على شروع العباسيين في الاهتمام بشؤون الزراعة، والأخذ بسياسة إصلاح ضريبي. ويقترن ذلك بما ورد من أن المنصور كان شغله النظر في الخراج، وأنه أمر بتعديل السواد وقلد ذاك «حماداً التركي»[10]. وفي عهد المهدي اقترح الوزير معاوية بن عبيد الله أن يتولى ديوان الخراج الإنفاق على صيانة أجهزة الري، وحفر أقنية جديدة، وتقوية سدود الأنهار، وخاصة في مواسم الفيضان[11].

ويبدو أن مثل هذا الاقتراح لم يعمل به دائماً، إذ تتحدث المصادر عن حفر نهر «الصلة» في واسط في عهد المهتدي، فلم يغرم الفلاحون نفقات هذا النهر، بل زيدت عليهم الضريبة لمدة خمسين سنة بأن يقاسموا على الخمسين (2/5) بدلاً من النصف، وعلى أن يقاسموا على النصف بعد انقضاء تلك المدة[12].

كان حفر الأنهار وتنظيفها من مشاغل العباسيين الأوائل، فقد حفر المنصور نهر «شيلي» وأتمه المهدي، وحفرت الخيزران نهر «الريان» في منطقة الأنبار. وعبر الرشيد عن العلاقة بين ديوان الضياع وديوان الجند بحفره نهر القاطول وتسميته «أبا الجند»[13]؛ وحفر المتوكل قناة كبيرة سنة 245 هـ وكلف اثني عشر ألف رجل للعمل فيها[14]. وشدد أبو

---

(9) عبد الله بن المقفع، رسالة في الصحابة، ص 70.

(10) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص 134.

(11) انظر، Samurrai, **Agriculture in Iraq during the 3rd Century**, edited bv (Librairie du Liban, Beirut, 1972) p. 105.

(12) البلاذري، فتوح، ص 357، قدامة، الخراج، ص 241 ـ 242.

(13) البلاذري، فتوح، ص 336 ـ 337، 364، أنظر أيضاً، الجهشياري، ص 63.

(14) الطبري، ج 9، ص 212.

يوسف على مسؤولية الدولة في كري الأنهار وإصلاح المسنيات على ضفتي الرافدين، واقترح لكري أنهار أهل السواد التي تأخذ من دجلة والفرات، أن تكون النفقة على عاتق بيت المال وأهل الخراج، أما أنهار الملكيات الخاصة فليس على بيت المال من ذلك شيء[15].

كذلك عرفت الأرض أنواعاً أخرى من العناية، منها استقدام الخبراء المتخصصين من «مهندسي المياه وعلماء الحراسة» واستخدامهم في الإدارة[16].

ولقيت الزراعة منذ منتصف القرن الثالث بعض الصعوبات التي أدت إلى انخفاض الإنتاج. فقد كانت حرب الزنج وبالاً على السواد، وأتلفت الحرب البطيحة والنعمانية وجرجرايا، وهاجر أهل السواد ودخلوا بغداد، وانتشر تغلّب القواد وأمراء الأجناد وافتقد الأمن لانشغال الدولة بالحرب[17] واشتد أمر القرامطة في سواد الكوفة وانضم إليهم الفلاحون من الأنباط، فضعفت الزراعة[18]. وكانت سياسة بعض رجال الإدارة في الإثقال على الرعية بالضرائب، من العوامل المهمة في تخلف الزراعة وجلاء الفلاحين عن أراضيهم[19].

كان في المصاعب التي لقيتها الزراعة حافزاً لتدشين سياسة زراعية تهدف إلى تنشيط إصلاح الأرض وزيادة الإنتاج. فبعد انتهاء حرب الزنج، أنفق الأمير الموفق 30 ألف دينار على حفر إسناية تسقي «المبارك» وبعض «الصلح»، وأطلق البذور والبقر للفلاحين[20]. وبالغ ابنه المعتضد في عمارة الأرض، فقد جبى الأموال من أرباب الضياع والإقطاعات لإصلاح الأراضي وكري نهر دجيل، واهتم بحسن توزيع المياه، وتقدم بجماعة ضمت وزيره وبعض المهندسين للنظر في شكوى أهل بادوريا[21]، وكان الوزير ابن الفرات (ت 312هـ) يستظهر في نفقات تجهيزات المياه التي يخشى أخطارها، كما كان يوجه المهندسين إلى مواضع السدود لإصلاحها لاعتقاده بأن الإخلال بعمارة

---

(15) الخراج، ص 105 ـ 106، 119.
(16) الجاحظ، التبصر بالتجارة، بعناية حسن عبد الوهاب، (بيروت، 1966) ص 34.
(17) ابن الأثير، ط. مصر، ج 6، ص 20، 26.
(18) العيون والحدائق، ج 4، ص 69.
(19) المسعودي، ج 2، ص 493، الصابي، الوزراء، ص 83، نشوار المحاضرة، ج 8، ص 123.
(20) نشوار المحاضرة، ج 8، ص 154. والصلح: قرية فوق واسط، والمبارك: قرية بين واسط وفم الصلح. انظر، مراصد الاطلاع، ص 849، ومعجم البلدان، ج 5، ص 51.
(21) المنتظم، ج 5، ص 136.

الأرض يؤدي إلى إتلاف المواسم[22].

ودفعت حوادث الفيضان العديدة في منطقة بغداد إلى أن تضع السلطات مقياساً في ضفتي دجلة والفرات لتسجيل منسوب المياه وبخاصة في موسم الفيضان. ويذكر ابن الجوزي في أحداث سنة 293هـ المقياس على دجلة الذي نصب على جانبي النهر بطول 25 ذراعاً، وعلى كل ذراع علامة مدورة وعلى كل خمسة أذرع علامة مربعة مكتوب عليها بحديدة وعلامة لأذرع تعرف بها مبالغ الزيادات[23]. ويعتقد أن وضع المقياس في جانبي المدينة كان لمراقبة مناسيب المياه عند تعذر الإتصال بين الجانبين، كما يرجح أنه نصب على الفرات مقياس وضع في منطقة الأنبار[24]، وفي أخبار سنة 454هـ ذكر ابن الجوزي مقياساً على نهر تامرا (ديالى)[25].

- **وسائل الرّي**: كانت المزروعات تروى سيحاً، أوغيلاً، أوبواسطة الآلات الرافعة، كالدالية والغُرَب والسانية والناضح[26]. وعدّد الخوارزمي وسائل حفظ المياه وتوزيعها، فذكر المسناة والبزند والشاذروان والمنجنون، وهي آلات مرفوعة كانت تستعمل لري الأراضي العالية، والغرب ما يسقى بالدلو/والسواني والنواضح[27]. وذكر البوزجاني في كتابه «الحاوي للأعمال السلطانية»[28] تفصيلات عن الناعورة والدولاب الذي يديره الثور، والدالية التي يشغلها الرجال، والشادوف الذي هو من نوع الدلاء، والبكرة وعليها الدلاء تجرها الثيران.

وكانت أراضي النهروان في منطقة بغداد تروى بالنواعير، وكذلك الجانب الغربي من بغداد، أما الجانب الشرقي من المدينة فروي بالدواليب[29].

- **الزراعة في بغداد**: أولى المنصور الزراعة في بغداد عنايته، وكلف «كعيوبة» البستانبان بغرس النخل فيها، فغرسها في محلتي ربض القس وبراثا، وكان ذلك تدشيناً

(22) الصابي، الوزراء، ص 239، 278، 280.
(23) المنتظم، ج 6، ص 57.
(24) فيضانات بغداد، ج 1، ص 283، 287.
(25) المنتظم، ج 8، ص 225.
(26) أبو يوسف، الخراج، ص 54، 59، 62.
(27) مفاتيح العلوم، ص 46.
(28) نشرة كلود كاهن في نشرة الدراسات الشرقية في دمشق. (B.E.O.) مجلد 13، ص 118 ـ 129.
(29) ابن رسته، ص 163، ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص 204، أيضاً، مناقب بغداد، ص 27.

لحركة زراعة النخيل حتى صار في بغداد أكثر منه بالبصرة على ما قيل، وأقبل البغداديون على إنشاء البساتين والأجنة في أرباض بغداد في كل ناحية[30]. وكان في ديردرتا من النخل أكثر من مائة وعشرين ألف شجرة، ومن الشجر المختلف الجربان العظيمة، وكان النخل والشجر والرياحين يزرع في محلة باب الحديد، وكانت بغداد تنتج تموراً من النوع الجيد[31].

واشتهرت بغداد بعنبها ومنثورها، وكانت الأعناب تزرع في منطقة الزندورد، وهي من أجود الأعناب التي تعصر في بغداد[32]. وكان الزيتون يزرع بنواحي دقوقا ودير العاقول، وذكر ابن الجوزي أنه في سنة 420هـ سقطت الأمطار والبرد، ارتفعت معها ريح سوداء فقلعت كثيراً من أصول الزيتون العتيق[33] وعرفت منطقة بغداد زراعة الأرز[34].

وانتشر في بغداد فن البستنة. وكان كبار القوم يحولون قطائعهم إلى بساتين. فقد كان في بستان المقتدر أربعمائة نخلة، وفي جوانب البستان أترجُّ حامل ودستنبوا ومقفع وغير ذلك[35]. وكان لدى ابن الجصاص التاجر المشهور في القرن الرابع أرض جعلها مبقلة زرع فيها البصل، وكان لديه بستان يغص بالزهور، كما كانت لديه أرض تزرع بالقطن[36].

ووصف أترج كلواذى بأنه تجاوز في الكبر ما في «السوس» منه[37]. وانتشرت بساتين التفاح في بغداد؛ وقيل: إن مضحك الرشيد أهدى سيده عشرة آلاف ثمرة تفاح؛ وكان «شعر الزنج» يعمل ناطوراً يحفظ البساتين، فقصد بساتين التفاح في بغداد وجمع منها ألواناً[38]. وفي رواية مبالغ فيها ذكر ابن الفقيه أنه يُعرف بمدينة السلام نيف

---

(30) اليعقوبي، البلدان، ص 244، 247، 251، الإصطخري، ص 59 ـ 60.

(31) معجم البلدان، ج 2، ص 449، الشابشتي، الديارات، ص 28، ابن الفقيه الهمذاني، بغداد، ص 75.

(32) الثعالبي، لطائف المعارف، ص 237، الديارات، ص 338.

(33) المنتظم، ج 7، ص 238.

(34) المصدر نفسه، ج 5، ص 144.

(35) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 103، والدستنبوا هو الشمام.

(36) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج 1، ص 372 ـ 273، 275.

(37) الصابي، الوزراء، ص 344.

(38) تاريخ الطبري، ج 8، ص 351، فوات الوفيات، ج 1، ص 281.

وسبعون نوعاً من التفاح، وذكر أيضاً العديد من الأشجار وأصناف النخيل والبقول والثمار التي كانت تزرع في بغداد، منها النارنج والفستق واللوز والزعرور والموز والشاهلبوط والجوز والبندق، ومن النباتات الزعفران والأقحوان والهليون والريباس والفوّة وغيرها[39].

كانت مناطق بغداد تزرع الخس بكثرة في القرن الرابع، وقدر ما زرع منها في سنة 345 هـ بألفي جريب سنوياً، أي أكثر من ثلاثة كيلومترات مربعة، وقدرت أسعارها بخمسين ألف درهم[40].

وكانت الأعشاب الطبية تنبت في أراضي منطقة بغداد على سواقي الأنهار ببادوريا، منها المشبر والسونجان والمج والخرنق والتربذ والمازريون والتيل والأذخر والأفستين والجعد والفنجمشك والغافت والموقدة والحنظل، وجميعها أعشاب تدخل في صناعة الأدوية[41].

اعتبرت الزراعة استثماراً جيداً في القرن الرابع. فقد ادعى أحد المزارعين أنه زرع أرضه بطيخاً وقثاء وقرعاً وكلفته مائة وعشرين ديناراً، وربحت ثلاثين ديناراً في العام الأول، وادعى أنه باع من إنتاجه في العام التالي بثلاثة عشر ألف دينار[42]. ولدينا معلومات إدارية رسمية تعطي بعض الضوء حول نسبة الربح الزراعي لأراضي جوار بغداد. ففي عهد المعتضد كانت الأراضي التي ثمنها ألف دينار تغل ألف درهم أي حولي 7%، وكان المتحدث الوزير عبيد الله بن سليمان يعني بحديثه أراضي الخليفة[43].

وفي القرن الرابع كانت الأرض الخراجية التي تغل درهماً تباع بأربعة دراهم، وهو ما «أجمع عليه شيوخ كتاب الإدارة». وهذه الغلة تخضع للخراج الذي يبلغ الثلث (1/3) منها، علماً بأن صاحبها يتكلف عليها ثمن ما يزرعه من حبوب وأجور العمال، مما يهبط بالربح الصافي إلى نصف الغلة، فتصبح النسبة بين ثمن الغلات وثمن الأرض واحداً إلى ثمانية (1/8)، وعلى هذا فقد بيعت في حوالي سنة 329هـ ضيعة بلغت غلتها الصافية خمسة وعشرين ألف دينار بمبلغ مائتي ألف دينار[44] مما يرفع نسبة الربح إلى 12,5%.

---

(39) بغداد مدينة السلام، ص 70.

(40) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 129، 130.

(41) ابن الفقيه، بغداد، ص 70.

(42) الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 71، 179، الخطيب البغدادي، ج 13، ص 29.

(43) الصابي، الوزراء، ص 281.

(44) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 30.

ـ **الثروة الحيوانية**: كانت الإدارة العباسية في حاجة ماسة إلى حيوانات الركوب وغيرها. ويذكر الصابي أنه كان في عهد المعتضد أربعة إصطبلات، منها «إصطبل الخاص» الذي ضم دواب الخليفة، ومنها «إصطبل العامة» الذي ضم دواب الخدم، ثم إصطبل ضم الدواب والحمليات وما يرد من المروج وما يبتاع ويهتدى، وهناك إصطبل بقصر الطين في الشماسية لمبارك الإبل والجمازات[45]؛ مما يعني أن إقامة الإصطبلات كان تقليداً لدى الخلفاء والوزراء[46].

واستخدمت الدواب للتنقل داخل المدينة، فكان البحتري يركب حماراً في بغداد، كما كان سيف الدولة ينتقل على فرس، وعير أحدهم بأنه كان يرهق برذونه، وكان المكارون يؤجرون دوابهم لمن يرغب[47]، واستخدمت الدواب في تجهيز القوافل ونقل الحجّاج لأداء الفرائض الدينية، كما كانت تستخدم في استسقاء الماء[48].

وتأكدت على الدوام أهمية الدواب في الحياة اليومية، حتى لنرى بعضهم يستغني عن القيان ليحصل على البرذون، وأصبحت الدابة من مطامح الفقراء، كما كانت البغال مفضلة عند القضاة[49]، حتى عدت من دلائل طلب القضاء، وصارت الدواب تعطى ضمن هدايا الخلفاء وأعطياتهم[50]. ولم يكن الفيل من الحيوانات المرغوبة في العراق، ويربط الجاحظ ذلك بكراهية شكله[51]، ولا يأخذ بعين الإعتبار ندرته وعدم طواعيته للحياة في المناطق الصحراوية التي استعملت البعير بدلاً من الفيل.

وكانت الدواب تستخدم كوسيلة ميكانيكية، أو في تشغيل المطاحن؛ قال الجاحظ: إن أكثر الحمير تتخذ لغير الركوب وليس في البراذين نقالات، ولا تكسح عليها الأرض إلّا في الفرط[52]. وكانت الدواب تباع في بغداد في سوق خاص دعيت «سوق الدواب»[53].

---

(45) الوزراء، ص 22.

(46) أنظر، كشاجم، المصايد والمطارد، بعناية محمد أسعد طلس، (بغداد، 1954، دار اليقظة)، مسكويه، ج 1، ص 5 ـ 203 ـ 204.

(47) أنظر، الجاحظ، البغال، رسائل، ج 2، ص 254، المنتظم، ج 5، ص 37، تكملة الطبري، ص 198.

(48) الجاحظ، البغال، ص 236.

(49) المصدر نفسه، ص 250، 307.

(50) الطبري، ج 8، ص 349.

(51) كتاب البغال، ص 355.

(52) المصدر نفسه، ص 353، 376.

(53) المنتظم، ج 5، ص 71.

واشتد الاهتمام بتربية الماشية بسبب الحاجة إلى لحومها. إذ أن العادات الاستهلاكية للشعوب الصحراوية تضع اللحوم في رأس السلع الإستهلاكية لقلة الخضار. وكانت اللحوم رخيصة في أول عهد بغداد، وكذلك السمن والعسل[54]. وكان الإقبال على اللحوم يرتفع في الأعياد الإسلامية في يومي النحر والفطر، حيث لم يكن يخلو أي منزل من منازل الأغنياء من جدي واحد على الأقل. ولم يكن استهلاك الدجاج والفراخ أقل رواجاً، فإن مثل هذه المناسبات كانت تستوجب وجود اللحوم على موائد المنازل، وقد قدّر ابن الفقيه استهلاك لحوم الدواجن بمعدل 4 دجاجات و4 فراخ لكل 100 جدي، وقدّر متوسط ثمن كل دجاجة درهماً واحداً وثمن الفرخين درهماً[55]، وتترك لدينا المعلومات انطباعاً يجزم بأهمية المواشي والدواجن في الغذاء اليومي لسكان بغداد.

ويبدو أن الجداء كانت تقل في بغداد بسبب اضطراب المواسم[56] «إذ يمكن أن تقع الأعياد في غير موسم توالد الأغنام في العراق، فيلجأ السكان إلى مخاليف الدرّاج وصغار الفراريج في دون أوانها، كما يلجأون إلى القبج والأرنب والخنزير وما لا يحصى عدده من أنواع ما في البر، ويلجأون أيضاً إلى ما في البحر من السلاحف والسرطانات والسقنقور والسورماهي».

وكانت القرى المحيطة ببغداد تربي المواشي والدواجن. فقد ذكر أن الفرسان عند شغبهم في سنة 314هـ نهبوا قصر الثريا وذبحوا الوحوش التي في الحير، كما ذبحوا الأبقار التي لأهل القرى حوله. وكانت الأغنام تربى في القرى القريبة من العاصمة، ويذهب أصحاب الحاجة في المناسبات ليشتروا منها[57]. وكان مربو الدواجن في القرى المحيطة ببغداد يقصدونها ليبيعوا فيها دواجنهم. ومن الدجاج كانوا يربون أصنافاً منها النبطي والهندي والخلاسي والسندي والبيسري[58]. وفي نواحي قطربل كانت تربى الخنازير والجواميس، وكان الأغنياء يعتنون بتربية الطيور الملونة والمغردة[59]. وكان الخلفاء

(54) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 70.

(55) ابن الفقيه، بغداد، ص 102، 104.

(56) المصدر نفسه، ص 102.

(57) العيون والحدائق، ج 4، ص 232، أخبار الحمقى والمغفلين، ص 161.

(58) أخبار الحمقى، ص 160، رسائل الجاحظ، ج 2، ص 298.

(59) العيون والحدائق، ج 4، ص 508.

يوزعون كميات كبيرة من اللحوم، في المناسبات والأعياد[60].

وكان التجار يحملون الأغنام إلى بغداد في أيام الخريف من ناحية الجبل، ويتعذر دخولها في الشتاء إلا اليسير الذي يجلب من ناحية الكوفة، مما يتسبب في غلاء أسعارها، فيعف عنها الناس ويلجأون إلى السويق[61].

وقامت في بغداد أسواق متخصصة ببيع المواشي والدواجن. فكانت في الجانب الغربي سوق للغنم في الكناسة، وقامت في الجانب الشرقي سوق أخرى للغنم، وسوق للعلافين لتأمين العلوفة[62]. وكان في بغداد سوق خاصة بالأبقار يؤدي الباعة عنها رسماً عرف «بحق الراعي» يدفعونه يوم الأربعاء من كل أسبوع. وعرفت في بغداد سوق لبيع الدجاج على نهر الدجاج[63].

وكانت الأسماك تصاد من نهري دجلة والفرات، ومن البحر عند البصرة. وكان بعض الصيادين يقصد منطقة المدائن، ولعلها كانت غنية بالأسماك، حتى أن أحد الصيادين طلب من معز الدولة أن يكافئه بأن يجعل له صيد تلك الناحية، وأن يمنع غيره من الصيد فيها، وكان الصيادون يعملون على حبس الأسماك في بياح ليمكنهم صيدها[64].

وربما كانت الأسماك تربى داخل البيوت. وكانت أمّ جعفر حفيدة المنصور تربي في حوض كبير عدداً كبيراً من الزجر والبني، ولم تخلط بهما غيرهما على كثرته، وكانت تدعهما داخل الحوض لتبيض وتفرخ[65].

ومن أصناف الأسماك التي تباع في بغداد عرف الهازبي والمارماهي والسرماهي الذي كان يحمل من مقاطعة الران، والسقنقور (من الحيتان) الذي كان شحمه يستخدم في تقوية الباه[66] وكانت الأسماك تباع وتشوى في سوق خاصة عرفت بقنطرة السماكين[67].

---

(60) عريب، ط. الاستقامة، ص 17، ط. المعارف، ص 29، الصابي، الوزراء، ص، 289.

(61) ابن الفقيه، بغداد، ص 60.

(62) الخطيب البغدادي، ج 10، ص 133، ج 6، ص 114.
أيضاً: بدائع البدائة، ص 40.

(63) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص 7، الخطيب البغدادي، ج 1، ص 113.

(64) ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، ص 159، الأغاني، ط. الهيئة العامة، ج 2، ص 84.

(65) الحيوان، بعناية عبد السلام هارون، ج 1، ص 149.

(66) المنتظم، ج 5، ابن حوقل، صورة الأرض، ص 291، الهفوات النادرة، ص 171.

(67) الخطيب البغدادي، ج 9، ص 22، ج 13، ص 39.

وقد تفنن البغداديون في طبخ الأسماك، فكانوا يأكلونه مشوياً ومقلواً ومسكبجاً وممقوراً أو مالحاً وناعماً، كما طبخوا السمك المالح بأشكال شتى[68]. وكانت الأسماك من أفضل الأطعمة، ويفضلون منها الأسماك الكبيرة، لأن السمكة الصغيرة شوكها أكثر من لحمها، وكانت هذه الأسماك لا تؤكل عادة إلا مقلية، وكانوا يمرغونها بالدقيق قبل قليها بالزيت أو الدهن (السمن)[69].

وكان النصارى يستهلكون الكثير من السمك أيام صيامهم، فيغلو سعره، فيضطر غيرهم للإنتظار أياماً لا يشترون إلا حين ترخص الأسعار، كما توجد أيام ترخص الأسماك فيها، وهي أيام الخميس والسبت والثلاثاء. وكان الصابئة يستهلكون كمية من الأسماك، ولا يجمعون في طعامهم بين السمك والباقلاء[70].

(68) محمد بن الحسن البغدادي، كتاب الطبيخ، (بيروت، 1964، دار الكتاب الجديد) ص 60 ـ 61.

(69) أنظر، نصر بن يعقوب الدنيوري، التعبير في الرؤيا، ق 255آ.

(70) الجاحظ، الحيوان، ص 431، الثعالبي، يتيمة الدهر، ج 2، ص 243.

الصناعة في بغداد

قامت في بغداد صناعات وحرف أمّنت السلع الاستهلاكية وبعض الخدمات للسكان. إلّا أن ازدهار الصناعة ارتبط دائماً بتلبية حاجات القصر والحاشية، وحاجات الادارة.

ـ صناعة المنسوجات: تعتبر الحياكة من أقدم الصناعات اليدوية، نظراً لحاجة الإنسان إلى الملابس لحماية جسمه من تقلبات الطقس، ولتلبي نزوع المترفين إلى تأمين زينتهم وأثاث منازلهم، من ستائر وأنماط ونمارق ووسائد وبسط وطنافس[1].

كان العرب يزهون بالملابس، وكان النبي محمد يلبس خميصة لها أعلام، ثم تركها[2]، وقد أهدى أم خالد خميصة كان فيها علم أخضر أو أصفر[3]. وكان عثمان مغرماً بالثياب الملونة والغالية الأثمان، وكان أصحاب النبي يوسعون على نسائهم في اللباس الذي يصان ويتجمل به[4].

وفرضت الدولة منذ عهد النبي الألبسة جزءاً من الضرائب، فقد فرض على أهل نجران ألفي حلة من حلل الأواقي، في كل حلّة أوقية من الفضة، كما قرر النبي على الذميين من أهل اليمن دينارين أو قيمة المعافر أو عرضه ثياباً[5]، وفرض خالد بن الوليد على أهل الأنبار أن يقدموا ألف عباءة قطوانية[6] واستمر الخلفاء يجبون الضرائب من النجرانيين بالملابس حتى القرن الثالث الهجري[7].

وزعت الملابس بين الغنائم على المقاتلين في العهدين الراشدي والأموي[8]

---

(1) أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص 36.

(2) Dozy, **Dictionnaire détaillé des noms des Vêtements chez** les Arabes. (Amsterdam 1845), reimprimé par, Librairie du Liban, Beirut, pp. 170- 171.
والخميصة ثوب مربع أسود تطرز مطرز بلون مختلف.

(3) Dozy, op. cit. p. 173.

(4) أنظر، البلاذري، أنساب الأشراف، بعناية غويتن، (القدس، 1936) ج 5، ص 3.

(5) صالح أحمد العلي، ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العراقي، م 26، (بغداد، 1975) ص 74.

(6) فتوح البلدان، ص 301، والقطوانية منسوبة إلى قطوان من قرى سمرقند، وقطوان أيضاً موضع بالكوفة، أنظر، معجم البلدان، ج 4، ص 375.

(7) صالح العلي، المكان نفسه.

(8) أنساب الأشراف، ج 5، ص 100، 136.

واستمر ذلك في العهد العباسي. وأدى ازدياد طلب القصر على الملابس إلى أن يكون للدولة دورها الخاصة بالنسيج، فكان الطراز، الذي أصبح أحد رموز السلطة وشعائرها[9]. وأنشيء طراز بغداد مع إنشاء المدينة[10] ليلبي حاجات الخليفة. ويذكر الطبري أن المأمون أمر بنزع اسم الأمين عن منسوجات الطراز بعد اشتداد الصراع بينهما، وأمر أحمد بن طولون بحذف اسم الموفق من الطراز بعد أن همّ بالاستقلال بمصر[11].

وانتشرت دور الطراز في بغداد وتعددت، وكان في مركز كل ولاية طرز خاصة بالخليفة. ويذكر الخطيب البغدداي «طراز بغداد»، وأكد ابن مهمندار الفارسي كثرة الطرز في بغداد[12].

كان أشرف على دور الطراز شخصيات ذات مكانة سياسية وإدارية، منهم جعفر البرمكي. وخصص للمشرف على الطراز راتب شهري كبير، كما كان يتمتع بامتيازات خاصة[13]. وضمت دور الطراز العديد من الحرفيين؛ ويتحدث الصابي عن مخصصات القصارين والمطرزين والخياطين ورجال خزائن الكسوة في أيام المكتفي (289 - 295هـ) التي بلغت قيمتها ثلاثة آلاف دينار في الشهر، أي مائة دينار في اليوم الواحد[14].

وتدلنا الأقمشة الموجودة على أنها نسجت في طراز الخاصة، فقطع القماش الكتاني المصبوغ، الموجودة في متحف الفن الإسلامي في القاهرة، نسجت في طراز الخاصة سنة 300هـ، كذلك القطعة الموجودة بواشنطن والتي تعود لعهد المقتدر ووزيره حامد بن العباس[15].

ومما شجع على ازدهار صناعة النسيج، اتجاه العباسيين لتحديد لباس خاص ولون خاص يميز رجالهم وموظفيهم، واهتم هلال بن الحسن الصابي بتفصيل أنواع الملابس

---

(9) أنظر، صالح احمد العلي، المرج السابق، ص 73، 75، 76، الطبري، ج 8، ص 375، وأيضاً:
Dozy, op. cit. p. 355. .p./ 355

(10) R.B. Serjeant, **Islamic Textiles** (Librairie du Liban, Beirut, 1972) p. 16.

(11) تاريخ، ج 8، ص 375. أيضا، ابن الأثير، ج6، ص 50.

(12) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 119، ابن الفقيه، بغداد، ص 90.

(13) المقريزي، **الخطط**، (بولاق، 1271هـ)، ج 1، ص 119، ابن الفقيه، بغداد، ص 90.

(14) الصابي، **الوزراء**، ص 22.

(15) فريال داود المختار، دور الطراز في مدينة السلام، مجلة المورد، مجلد 3، عدد 3(بغداد، 1974) ص 126، صالح العلي، المرجع السابق، ص 79.

وألوانها المختصة بكل طبقة من رجال الحاشيـة[16]. وقدم «الـوشاء» نـوعاً من التفصيـل حول ملابس سروات الناس والظرفاء والمتظرفات والمغنين[17]. وحـرص فيما يعـرضه من ملابس على ما يليق بكل فئة من طبقات الخاصة، وما هو مخصص لطبقات العامة.

وكان الأغنياء يتنافسون في ارتداء الملابس الثمينة ويقبلون على اقتنـائها ويجمعـونها في خزائن وصناديق اشتهرت باسم «خزائن الكسوة»[18] وقد خلف المستكفي من الثياب الخراسانية المرويـة 63 ألف ثوب، ومن المـلاء 8 آلاف ملاءة، ومن العـمائم المرويـة 13 ألف عـمامة، ومن الثيـاب المقصورة سـوى الخـامـات أربعـة مـلايـين ثـوب، وبلغ وشي الخيزران 18 ألف قرقر موشاة[19].

ـ المنسـوجات البغدادية: كانت بغداد تصنع المنسوجات الحريرية المتنوعة الألوان، والأقمشة القطنية، والعمائم الرقيقة، والمناديل القصرية والبوبيبة. كما كـانت تصنـع فيهـا الحلل والسقلاطونيات والعتابيـات[30]، واشتهرت بغـداد أيضاً بـالطرائف وألـوان ثياب القز والمحكم، وكانت تنتج أُزُراً وعمائم يكانكي رفيعة؛ وكانت الملابس التسـترية تنسج في محلة التسـتريين، كما اشتهرت بغداد أيضاً بصناعة الوبر[21].

كـانت القلانس تصنـع في الجـانب الشرقي وعـرفت بـ«الـرصـافيـة»[22]. وينـوّه صاحب «حدود العالم» بقطنيـات بغداد ومنســوجاتهـا الحريـرية وإبـريسمها[23]. وخص الحرير بوظيفة «صاحب الحرير»[24]. ولا بد أن مسنوجات بغداد كانت في غـاية الشهـرة حتى أن صناع المنسـوجات خارج بغداد كانوا يضعون اسم بغداد على أقمشتهم[25].

---

(16) رسوم دار الخلافة، ص 90.

(17) محمـد بن إسحاق، الظرف والظرفـاء، بعناية فهمي سعد (بيروت، 1985، عـالم الكتب)، ص 239ـ 242، 248 ـ 249.

(18) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 315، الثعالبي، لطائف المعارف، ص 72.

(19) الثعالبي، لطائف المعارف، ص 119، الطبري، ج 8، ص 205.

(20) أبـو الفضل الـدمشقي، الإشارة إلى محـاسن التجارة، ص 26، الثعـالبي، لـطائف المعـارف، ص 195، أيضاً، ثمار القلوب في المضـاف والمنسـوب، ص 540.

(21) المقدسي، ص 128، معجم البلدان، ج 2، ص 31، جميل نخلة المدور، حضارة الإسلام في دار السلام، ص 21.

(22) الطبري، ج 9، ص 154.

(23) Hudud Al - Alam, Edited By Minorsky, (Uneversity Press, Gibb Memorial, 1937) p. 138.

(24) الخطيب البغدادي، ج 12، ص 193، والثعالبي، ثمار القلوب، ص 519.

(25) نقولا زيادة، لمحات من تاريخ العرب، (بيروت، 1961)، ص 256.

وكانت في بغداد «دار القطن» التي قيل إنها كانت من أكثر الدور غلة[26]. ويذكر ابن الفقيه الهمذاني رواية ساخرة عن واحد من مجهزي القطن بالشام، فقد جاء إلى مرو وأدهشه ما تنتجه من قطن، وسأل عن البلدان التي يحتمل تجهيز ذلك القطن إليها، فقيل له بغداد. فقال: أظن أن أهل بغداد يأكلون القطن أو تبنى لهم به المساكن والجدران؛ فأقبل يريد الري لغرضه، ورأى الأقطان الكثيرة، وعلم أنها توجه إلى بغداد؛ والتقى قوافل قرميسين فأقبلت عليه الأرض بيضاء بالأقطان، فازداد حرصاً على مشاهدة بلد يأكل أهله القطن ويشربونه ويبنون به دورهم؛ فلما بلغ بغداد لم يرها مبنية بالقطن ولا مصنوعة منه[27]، وهذه الرواية تقطع بمدى حاجة بغداد ومرافقها إلى مادة القطن، التي كانت تستوردها من أعالي الفرات والري[28]، وكانت تعيد تصديرها بشكل منسوجات إلى بقاع العالم[29].

وكانت معظم محلات النسيج تجتمع في «التستريين» وفي منطقة بين باب الشام وباب الكوفة ضمن محلة «العتابيين»، و«دار القز»، و«سوق الهثيم» أو «شهار سوق» أي الأسواق الأربعة، التي ربما حملت اسم جهات العالم الأربع[30].

انتشرت مهنة الحياكة والغزل في بيوت البغداديين، وكانت النساء تعمل في ذلك، كما كن يقمن بغزل الصوف في منازلهن[31].

ونظراً لانتشار محلات النسيج، عمل صمصام الدولة البويهي في سنة 375هـ على فرض ضرائب على الثياب الإبريسيميات والقطنيات التي تنسج في بغداد ونواحيها، بعد أن أقنعه أحد معاونيه بأن يتضمن ذلك منه بمليون درهم في السنة، مما دفع بأصحاب المناسج إلى الإعتصام بجامع المنصور وإعلان العصيان، فعاد صمصام الدولة عن فكرته بعد أن صارت بغداد على شفير الفتنة. إلا أن المحاولة أعيدت سنة 389هـ، فثار أهل العتابيين وباب الشام، وأحرقت دور كبار الموظفين، لكن السطة تمكنت من القبض على زعماء الحاكة، وثبت الرسم. وكانت صناعة الحرير أيضاً موضع طمع عضد الدولة

---

(26) الخطيب البغدادي، ج 11، ص 220.

(27) بغداد مدينة السلام، ص 75.

(28) **Sourdel, D. etJ. civ. de L'Islam clax Classique.** (Paris, 1968) p. 295.
Hudud Al - Alam, op. cit.

(29) فريال داود المختار، المنسوجات العراقية، ص 120.

(30) الجاحظ، البخلاء، بعناية طه الحاجري، ط 4، ص 120، الخطيب البغدادي، ج 11، ص 186، جيل المدور، ص 21.

(31) ابن الجوزي، ج 7، ص 127، أيضاً، أبو شجاع، ذيل تجارب الأمم، ج 3، ص 71، 117، 18، هلال بن المحسن الصابي، تاريخ، ج 8، ذيل مسكويه، ج 4، ص 336.

البويهي، فأخرجها من القطاع الخاص وضمها إلى القطاع العام الملحق بالسلطان[31].

وكان السجاد يفرش في قصور الخلافة لإظهار عظمتها. وقيل: إن بوران (زوج المأمون) حين أصلحت قصر البرامكة في بغداد، علقت على جدرانه سجاداً نفيساً من الصوف، تخالطه خيوط ذهبية. وكان الصوف أهم المواد في صناعة البسط والسجاد، والتي يحتمل أن تكون من صنع معامل الخلافة، كما أن بعض البسط كانت تصنع من القطن والكتان[32]. وكانت بغداد مشهورة بحصرها الجميلة التي تصنع من الحَلْفاء[33].

وكانت طرز مدينة السلام تنسج الستائر البديعة، والخرائط المعدّة لحمل السيوف، وحافظات النقود القماشية، والرايات والأعلام، والخيام[34].

وقامت صناعة الصباغ إلى جانب صناعة الحياكة، لترضي الأذواق المختلفة. فقد اختار العباسيون السواد، كما اختار العلويون الخضرة. وكان لكل طبقة إجتماعية أو مناسبة خاصة ألوانها. وتسبق عملية صبغ الخيوط في معظم الأحيان، عملية القصر التي يقوم بها القصارون بالقرب من الأنهار والسواقي؛ أما خيوط القز فكان من الواجب قصرها قبل تبييضها[35].

وصباغة الخيوط مهنة قديمة عند العرب[36]، وقيل: إن اليهود أشهر من عمل بهذه الحرفة قبل الإسلام، وأنهم حافظوا على سرها فترة طويلة قبل أن يأخذها عنهم المسلمون[37]. وكانت الأصباغ في معظمها نباتية، فمنها الورس، وهو يزرع زرعاً وليس ببري، ويستورد من اليمن، ونباته مثل نبات السمسم، فإذا جف عند إدراكه تفتقت خرائطه، فينفض ويخرج منه الورس. وأجود الورس «البادرة» الحديثة النبات، وتعطي لوناً أصفر فيه حمرة بينما تعطي النبتة القديمة نوعاً يعرف بالحبشي يخرج صبغه أصفر خالص الصفرة. ومن نبات الصباغ، العصفر الذي يعطي اللون الأحمر، وقد يوضع فيه حب الرمان ليوقد لونه ويشب. ومما يصبغ به الزعفران وقرف الأرطي، وقرف السدر، وهو قشور عروقها حمر. ومن العروق التي يصبغ بطبيخها: الفوّه ذي الثمرة الحمراء التي

---

(32) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 52، الدوري، تاريخ العراق الإقتصادي، ط 2، ص 105.

(33) الثعالبي، ثمار القلوب، ص 538، أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم، ص 36.

(34) فريال المختار، المنسوجات العراقية، ص 16.

(35) فتوح البلدان، ص 440، الشيزري، ص 71.

(36) أنظر، أبو حنيفة الدنيوري، كتاب النبات، ص 165، 184.

(37) Serjeant **Islamic Textiles** p. 206.

يخرج منها ماء أحمر[38]. وكان الحرير يصبغ بالفوّة، وكان أكثر صباغي خيوطه يدلسون فيصبغون بالحناء بدلاً من الفوه[39]. واستخدم الصباغون قشر الرمان الذي يعطي اللون الأصفر، وكان الرمان يزرع بكثرة في كرخ بغداد[40]، هذا وكان الصباغون في بغداد يتجمعون في محلة خاصة بهم عرفت «بالصباغين» في الجانب الغربي، كما عرف في بغداد درب الزعفران الذي كان ينزله التجار[41].

ـ صناعة الخزف والزجاج: وهي صناعة قديمة في بلاد ما بين النهرين. وقد انتشرت صناعة «الكوز» في بغداد حتى قيل: إن عدد معامله في بغداد بلغ في القرن الرابع حوالي ثلاثين ألفاً[42]. وكان الكثير من الأدوات تصنع من الفخار: كالسراج، والكأس، والمزملة، والقدر، والجرة، وكانت الجرار تباع في محلة الخضرية مما يلي باب الطاق، كما كانت المزملات تصنع في هذه المحلة[43].

كان للخزافين في القرن الثالث ابتكارات متنوعة في الزخارف والألوان والأساليب الصناعية. ولعل أفضل أنواع الخزف ما صنع لرجال القصر والخاصة، أما ما عداها فيمكن اعتبارها من الإنتاج الشعبي بزخارفها الفقيرة[44].

وكانت المنتجات الثمينة من الخزف تطلى بالبريق المعدني أو بالميناء. ومن أفضلها، ما اكتشف في سامراء وهي مزخرفة بعدة ألوان أو بلون واحد وهو الذهبي المصفر، أو الذهبي المخضر، أو البني، فوق طبقة من الميناء القصديرية، . وتشبه أواني سامراء ذات البريق المعدني بلاطات فاخرة ذات رسوم ملونة، هي بلاطات محراب مسجد عقبة بن نافع في القيروان، وضعت على شكل إطار لذلك المحراب؛ وقد تم استيراد هذه البلاطات من بغداد في القرن الثالث ومعها المنبر الخشبي الموجود في الجامع. ويرى ديماند أن صناعة الخزف في سامراء تنتمي إلى المدرسة العراقية التي كانت بغداد مركزها، كما يعتبر أن بغداد كانت أكبر مركز لإنتاج الخزف الفاخر[45].

---

(38) كتاب النبات، ص 165، 169، 170، 172، 173، 174.
(39) ابن بسام، نهاية الرتبة، ص 128.
(40) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص 27، كتاب النبات، ص 184.
(41) تاريخ الطبري، ج 9، ص 667، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 448.
(42) علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ بغداد، (بغداد، 1926) ص 14.
(43) ابن الفقيه، بغداد، ص 55.
(44) م. س، ديماند، الفنون الإسلامية، عربه أحمد محمد عيسى (القاهرة، 1958، دار المعارف)، ص 165.
(45) المرجع نفسه، ص 165، 175، 177، 179.

عرفت صناعة الخزف أسلوبين: أولها طريقة القرطاس، إذ يدفع الخزاف بعجينة لينة من ثقب قمع أو قرطاس، ولعل هذه الطريق لصناعة الأواني الدقيقة والفاخرة. والطريقة الثانية، هي طريقة القوالب الفخارية التي جعلت للإنتاج الكبير من الخزف غير المدهون، كالأباريق وغيرها، وكان جسم الإناء المستدير يصنع عادة من جزئين منفصلين، يضاف إليهما فيما بعد العنق والمقابض والقاعدة[46].

واشتملت منتجات الزجاج الإسلامي على القوارير والزهريات والأقداح. وتعددت أشكال هذه الأواني وأحجامها. وقد اشتهرت بغداد بكثرة معامل الزجاج فيها، التي قيل إن عددها بلغ الأربعة آلاف[47]. واشتهر من زجاج بغداد «المحكم» الذي تجعل منه الأقداح والأقحاف والكاسات والطاسات، ثم الزجاج المخروط[48]. وينسب إلى المعتصم أنه شجع على إنشاء معامل للزجاج في بغداد وسامراء[49].

وقد ذاعت شهرة بغداد في صناعة الزجاج ذي الزخارف المقطوعة[50]. واستخدم الزجاج في شبابيك المنازل، ففي البصرة استخدم الزجاج الملون في الفترة الراشدة، وعثر في واسط على زجاج من العهد الأموي، شفاف غير ملون، وعثر في سامراء على زجاج شفاف. وفي جامع قمرية ببغداد الذي يعود للعهد الإيلخاني (القرن السابع) شباك مزخرف بحشوات من الزجاج الملون، ويعتقد أن استخدام الزجاج في الأبنية البغدادية كان لدواع مناخية واجتماعية، كما يعتقد أن له وظيفة تزيينية حيث عجزت المواد الأخرى، كالطابوق والخشب، عن تقديم غير الأشكال التزيينية النباتية والهندسية المجيرة[51].

ـ **صناعة الزيوت والصابون**: قامت في بغداد صناعات استحلابية. فكان الزيت يباع فيها في عهد المنصور بأسعار رخيصة[52]. وتذكر المصادر الزيت دون أن تحدد نوعه. فقال أبو حيان التوحيدي: «من مناقب الزيت أنه يعصر أول عصرة فيكون منه زيت

---

(46) المرجع نفسه، ص 180، 181.

(47) الأعظمي، مختصر تاريخ بغداد، ص 14.

(48) ابن الفقيه، البلدان، ص 252، أيضاً: Hudud al-Alam, p. 128

(49) فيليب حتي، تاريخ العرب المطول، (بيروت، 1965)، ج 2، ص 425.

(50) ديماند، ص 234.

(51) زهير العطية، العناصر الفنية في البيت البغدادي، مجلة آفاق عربية، مجلد 1، عدد 4، (بغداد، 1975) ص 110، 113.

(52) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 70.

للأكل، ثم يعصر ثانية فيكون منه زيت السراج، ثم يعصر ثالثة فتطيب به زقاق الزيت، ثم يباع سجيره (ثفله) فيجفف وتسجر به الناس، فتكون ناره أحر نار، ثم يعزل رماد ذلك الوقود، فيباع لأصحاب الصابون، فيدخلونه في عمله فيجود»[53].

واشترى أحد تجار بغداد جميع الزيت الذي كان فيها[54]. ويبدو أن إطلاق كلمة زيت تعني زيت الزيتون، إذ أن منطقتي دقوقا ودير العاقول كانتا غنيتين بأشجار الزيتون العتيقة[55]، كما أن التجار كانوا يستقدمون الزيتون من الرقة[56].

أما الزيوت الأخرى فكان يطلق عليها كلمة «دهن» مضافة إلى المادة التي تستخرج منها. وكان في بغداد درب يعرف بدرب الزيت، كما كان في الرصافة في القرن الثالث مكان عرف ببيت الزيت[57]. وكانت معاصر بغداد تستخرج زيوت السيرج (زيت السمسم)[58]. واستخدمت الزيوت في تحضير الطعام، ومنها ما استعمل في الإنارة.

وكان للصابون أهمية خاصة نظراً لأهمية الحمامات في الحياة الاجتماعية. وكان الفرد يستهلك في ليلة العيد رطلاً من الصابون في الحمّام، وكان في بغداد سوق خاصة بأصحاب الصابون[59]، كما عرف فيها شارع النفاطين حيث يعرض النفط ويباع[60].

ـ **الصناعات المعدنية**: كان للسيف بين الأسلحة القديمة أهمية خاصة عند العرب. وكان بعض الجند لا يكتفي بسيف واحد، وقد بالغ بعضهم ورغب في أن يكون لكل محارب سيفان[61]. وقد كانت بغداد من مراكز صناعة السيوف حيث يطبع في محلة باب الطاق، كما كان في بغداد سوق معروفة بسوق السلاح التي يشتري منها الجنود أسلحتهم[62]. وكانت تصنع في بغداد الأسلحة المتنوعة الأخرى، كما تصنع فيها الأدوات المنزلية المعدنية، والأبواب النحاسية. وقد استخدم الصناع النحاس، والصفر،

---

(53) **البصائر والذخائر**، ج 3، ص 463.
(54) **نشوار المحاضرة**، ج3، ص 81.
(55) **المنتظم**، ج 7، ص 238، ج 8، ص 38.
(56) **نشوار المحاضرة**، ج 3، ص 81.
(57) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 81.
(58) ع.ع الدوري، ت. ع. **الإقتصادي**، ص 112، ج 14، ص 427.
(59) الخطيب البغدادي، ج 2، ص 113، 118.
(60) ابن الفقيه الهمذاني، بغداد، ص 57.
(61) عبد الرؤوف عون، **الفن الحربي في صدر الإسلام**، (القاهرة، 1961)، ص 148.
(62) عريب بن سعد القرطبي، **صلة الطبري**، ص 35، 111، **معجم البلدان**، ج 3، ص 284.

والبرونز، والفولاذ، والحديد، لصنع الأدوات المختلفة. وكان في بغداد سوق للصفارين[63].

عانت صناعة المعادن من صعوبات ناتجة عن قلة الخامات المعدنية في الدولة الإسلامية، وقلة الثروة الخشبية التي تستخدم في تنقية المعادن، إذ يتطلب 150 متراً مكعباً للحصول على 10 كلغ من الحديد النقي. فكانت بغداد تحصل على حاجتها من المعادن عن طريق الإستيراد من الخارج، فكان الحديد يستخرج القليل منه من مناجم سطحية ومتأكسدة في لبنان وشمال إفريقيا. إلا أن الكميات المطلوبة كانت تستورد في معظمها من البلدان المجاورة، من القفقاس ومن أودية داغستان المختصة بالدروع والزرد، وتوجهوا نحو الهند حيث تقاليد طباعة السيف الفولاذي الذي تغنى به شعراء العرب (بيض الهند).

أما النحاس فقد كان حظ العالم الإسلامي منه أكثر وفراً. فوجدت مناجمه في آسيا الوسطى، وأعالي ما بين النهرين مع منجم ارجان وفي جنوب مراكش. وكان القصدير يستورد من ماليزيا ويحمل معدن التوتيا من أرمينيا وإفريقيا الشمالية[65].

وازدهرت في بغداد صياغة المعادن الثمينة والجواهر. وكان على هذه الصناعات تلبية نزعة الترف لدى الخلفاء والأمراء وكبار الأثرياء. وكان الإقبال على الجواهر والمعادن الثمينة يشكل نوعا من الادخار يجابه به الأغنياء غوائل الزمان[66]. وخضع اقتناء النفائس لقانون «الندرة»، وتعكس هذا الإتجاه نصائح الدمشقي التي يذكر فيها أفضل السلع. فالفيروزج لا يكاد كثير من الملوك يرغب في لبسه لإكثار العامة من التختم به، ولبس الفصوص المشبهة بالجيد منه، وهان العقيق عند الملوك لاقتدار العامة عليه بسبب كثرته، ويقتني الملوك منه الحجر الكبير، الذي لا تتمكن منه العامة، واللازورد يجري مجرى العقيق، والجزع الباقراني يعمل منه فصوص برسم الملوك، أما الماس فيرغب فيه الملوك لعدم وجود حجارته لدى العامة[67].

كان الذهب والفضة والجواهر هي الخامات التي تصنع منها مصاغات الزينة، كما

---

(63) الدوري، ، المرجع المذكور، ص 110، طيفور، تاريخ بغداد، ص 98.

(64) M. Lombard, L'Islam, pp. 176 - 178.

(65) Ibid, pp. 180 - 181.

(66) ابن الجوزي، أخبار الحمقى، ص 58.

(67) أنظر، التبصر بالتجارة، ص 16 ـ 18.

كـانت بعض الأدوات تصنع من الـذهب والفضه[68]. وكـان النقـاشـون يحفـرون عـلى المعادن والجواهر والخشب[69].

وانتعش سوق الصاغة في باب الطاق، حتى وصف بأنـه كبير شـاهق البناء، عليـه أساطين ساج، فوقها غرف مشرفة[70].

ـ النجارة ومواد والبناء: شكل الخشب مادة أساسيـة في البيت البغدادي. وكـان النجارون يجهزون أثاث المنازل، من كراسٍ ومناضـد وخزائن؛ وكـانت سقوف البيـوت تصنـع من الخشب والقصب. وكـان خشب السـاج قـد استعمـل في بنـاء مسجـد المنصور[71].

دخل القصب والرهص والآجر في مواد البناء. وذكر إسحق بن سويد أن المسـاجد كانت تبنى بالقصب ثم بالرهص، ثم باللبن والطين، ثم بالآجر والجص[72]. وقد اشتهر في بغداد سوق خاص عرف بدرب الآجر، على نهر طابق[73]، كـما كان في الـدسكرة من أعمال بغداد خان عرف بخان الآجر[74].

ـ صنـاعـة السفن: تعتـبر صنـاعـة السفن من أهم الصنـاعـات الخشبيـة. وكـان الساج هو الخشب المفضل الذي تصنع منه السفن، وكـان يستورد منـذ أقدم الأزمـان من الهنـد إلى الخليج العـربي[75]. وقد فـرضت الحاجـة إلى استهلاك الأخشـاب طلباً قـويـاً عليها، فنشطت حركة استيراد الأخشاب من المناطق الحرجية البعيدة بنسبـة أو بأخـرى، فكان خشب أرمينيا ينحدر في دجلة معوّماً حتى يصل إلى بغداد[76]. وكان خشب السـاج لبناء السفن في ميناء عيذاب يجلب من الهند واليمن. فيصل إلى موانىء الخليـج العربي ثم

---

(68) أنظر، **الوشـاء**، ص 225، الخطيب البغـدادي، ج 1، ص 104، **العيون والحـدائق**، ج 3، ص 266، جرجي زيدان، **التمدن الإسلامي**، ج 5، ص 127.

(69) الهمداني، **تكملة الطبري**، ص 82.

(70) عريب، ص 110، ابن الجوزي، **مناقب بغداد**، ص 26.

(71) **الأغـاني**، ط. الهيئة العـامة، ج 18، ص 352 ـ 353. ابن رستـه، ص 109، ابن الفقيه، **بغـداد**، ص 37.

(72) ابن الفقيه، **البلدان**، ص 156.

(73) الخطيب البغدادي، ج 10، ص 40.

(74) **مختصر البلدان**، ص 158.

(75) حوراني، **العرب والملاحة في المحيط الهندي**، عربه السيد يعقوب بكر، (القاهرة، 1958)، ص 156.

(76) Lambard. p. 175.

يمر منها إلى بغداد[77]. ونقل العرب شجر النارجيل (جوز الهند) إلى بلادهم، وقد لاحظ ناصر خسرو كثرة أشجاره في عُمان[78]، وشاهد ابن بطوطة في القرن السابع أشجار النارجيل تنبت في ظفار[79].

ونشأ في بغداد أول عهدها «دار صناعة للجسر»[80]، وهي مؤسسة حكومية هدفها تأمين صيانة دائمة للسفن التي قامت عليها جسور بغداد.

وكان قصر الخليفة يدفع في القرن الرابع 500 دينار شهرياً أجور الملاحين[81] في الطيارات والشذاءات والسميريات والحرّاقات والزلالات وزواريق المعابر[82]. وكان البغداديون يستعملون القوارب للتنقل داخل مدينتهم، ويربطونها على أبواب دورهم الواقعة على الشط، حتى كان على باب كل دار مراكب من خيطية أو زبزب[83] مهيأة لركوب الشط. وذكر الأزدي ما يزيد على عشرين نوعاً من القوارب كانت تستخدم في حدود سنة 306 هـ[84] ولاحظ الجاحظ أن العرب توسعوا في استخدام الزلالات والحراقات والقوارب، دون الفرس، الذين سبق أن نزلوا على شاطيء دجلة[85].

ـ **صناعة الأحذية والدباغة**: تحفل التقاليد العربية باهتمام خاص بالأحذية، قال الجاحظ: «العرب تلهج بذكر النعال والفرس تلهج بذكر الخفاف». وذم رجل شخصاً فقال: «رأيته مشحم النعل، درن الجورب، مغضن الخف، دقيق الجربان[86]. وكان من

(77) رحلة ابن جبير، (دار صادر، دار بيروت، بيروت 1964)، ص 47. أيضاً، Lambard. p. 175.

(78) سفر نامة، ص 144.

(79) رحلة ابن بطوطة، ص 175.

(80) البلدان، ص 249.

(81) الصابي، الوزراء، ص 24.

(82) أسماء مراكب وسفن: الطيار أو الطيارة، زورق سريع. شذاة أو شذاوة: ضرب من السفن. سميريات، للنزهة، والمعابر للعبور، وخضعت تسميات السفن بالنسبة لحجمها أو سرعتها أو وظيفتها أو صناعتها. أنظر درويش النخيلي، السفن الإسلامية، (جامعة الاسكندرية، 1974). أيضاً: كاظم الدجيلي، السفن في العراق، لغة العرب، مجلد 2 (بغداد، 1912 ـ 1913)، ج 2، ص 93 ـ 102، ج 4، ص 152 ـ 155.

(83) ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص 27. والخيطية هي التي تخاط بدلاً من المسامير الحديدية أو الخشبية.

(84) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص 107.

(85) رسالة في الوكلاء، بعناية يحي الجبوري، مجلة المورد، مجلد 7، عدد 4، (بغداد، 1978)، ص 215.

(86) البيان والتبيين، ج 3، ص 106، 113، والجربان هو الجيب الواسع.

المستهجن أن يكون أحد بغير حذاء، وكان المنصور يمنع الشعراء من الوقوف بين يديه إلاّ بخفين دمالقين[87].

انتشرت صناعة الأحذية في بغداد، وكان للحذائين سوق في الكرخ[88]. وعرفت بغداد نوعين من الجلود وهما: الدارش واللكاء، اللذان اعتبرهما ابن الفقيه من عجائب بغداد، فالدارش يتخذ من جانب، ولا يمكن أن يكون كل نوع إلا في الجانب الخاص به[89].

ويبدو أن الأحذية توزعت أنواعاً حسب طبقات الناس. فالوشاء يذكر ما يستحسن للظرفاء احتذاؤه[90]، واختص العيارون والشطار بأنواع من الأحذية عرف منها المطبق. وكانت أحذيتهم متينة لكثرة تنقلهم، شأنهم في ذلك شأن الأعراب، الذين كانوا يخصفون نعالهم ويطبقونها[91].

كان حامد بن العباس الوزير (311هـ) ينتعل حذواً. وكان يمنع على داخلي دار الخلافة احتذاء بعض أنواع الأحذية مثل اللالكة الحمراء أو النعل أو الخف الأحمر، لأن اللون الأحمر كان لباس الخليفة[92].

ويذكر الجاحظ أن الناس في زمانه كانوا يلبسون الخفاف، في الصيف كما في الشتاء، إذا دخلوا على الخلفاء والأمراء، لأن ذلك أشبه بالإحتفال والتعظيم والإجلال، وأبعد عن التبزل والإسترسال، وأفضل أن يتصلوا بين مواضع أنسهم في منازلهم ومواضع انقباضهم[93].

وقد تفنن الناس في الخفاف والنعال، فكانوا يبطنونها بأنواع جيدة من الأقمشة

---

(87) الصولي، أخبار الشعراء، بعناية هيوارث دن (بيروت، دون تاريخ)، ص 4. أيضاً، البيان والتبين، ج 2، ص 119.

(88) الخطيب البغدادي، ج 12، ص 16.

(89) ابن الفقيه الهمذاني، البلدان، ص 252، وبغداد مدينة السلام، ص 108، وحسب الفيروزابادي، الدارش هو الجلد الأسود، ج 2، ص 247. واللكاء أو اللكاع ما ينحت من الجلود والمصبوغة بنبات اللك.

(90) الظرف والظرفاء، ص 243 ـ 244.

(91) ابتسام الصفار وبدري محمد فهد، (صور من الحضارة العربية الإسلامية، الأحذية والنعال)، مطبعة النعمان، 1973)، ص 27.

(92) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 33، الصابي، رسوم دار الخلافة، ص 75.

(93) البيان والتبيين، ج 3، ص 114.

والجلود، وتفننوا في صنعها وشكلها. ووجد في خزانة هارون الرشيد أربعة آلاف زوج من الخفاف، أكثرها مبطن بالسمور والفنك وسائر أصناف الوبر، في كل صنف منها سكين ومنديل[94].

وقامت المدابغ في بغداد بدباغة الجلود. ويبدو أن اليهود كانوا يعملون في مهنة الدباغة، وربما كانوا أول من تمكن من الحصول على الصباغ[95]. وكان يفضل استعمال القرظ اليماني في الدباغة، وفرضت أصول للدباغة في ما خص الجلد نفسه، أو مادة دباغته، أو طريقة الدباغة[96].

ـ صناعة النبيذ: اكتسب نبيذ قطربل شهرة خاصة، وكانت الخمارات تنتشر فيها حيث يقصدها كبار القوم والراغبون في تناول الخمور، ويتمكنون من ممارسة بعض أنواع اللهو[97].

وقد تنوعت الخمور بحسب المادة المستخرجة منها، أو بحسب طريقة صنعها؛ فمنها حسب ألوانه: الأسود، والأبيض الرقيق، والأحمر المعتدل في غلظه، والأصفر المرّ الطعم، وهو قوي جداً[98]، وحسب استخراجه منه: النقيع والداذي، ونبيذ العسل، والمقرطبات، ونبيذ الكشمش، والتين، والزبيب الحمض، والعسل الماذي[99]. ومنه الريحاني، والتمر والدوشاب والسكري ونبيذ الحنطة والشعير والجاورس، ونبيذ النارجيل، والرمان، ونبيذ الفانيد السجزي، والخزائني[100].

---

(94) ابتسام الصفار وبدري فهد، **الأحذية والنعال**، ص 64.

(95) صالح العلي، **ألوان الملابس العربية**، ص 107. ابن العبري، **تاريخ**، ص 49.

(96) ابن الأخوة القرشي، **معالم القربة في أحكام الحسبة**، ص 252.

(97) **نشوار المحاضرة**، ج 3، ص 107، **الحيوان**، ج 5، ص 381.

(98) أبو بكر الرازي، **منافع الأغذية ومضارها**، (القاهرة، 1305هـ)، ص 17.

(99) الراغب الإصفهاني، **محاضرات الأدباء**، مجلد 1، ص 685، أيضاً، الجاحظ، **الموروث الشعبي في آثار الجاحظ**، (بغداد، 1976) ص 138.

والداذي، حسب القرطبي، **شرح أسماء العقار**، هو اسم تربة هندية ينبذون بها شراب العسل، والكشمش هو الزبيب الصغير الخالي من البذور، والماذي حسب ابن سيده، ج 5، ص 18، هو العسل النقي الصحيح.

(100) الرازي، ص 17، والدوشاب عسل التمر خاصة، **شرح أسماء العقار**، ص 14، والفانيد هو نوع من الحلواء يصنع من السكر ودقيق الشعير والترنجبين الذي يسمى المن أو العسل الجامد، ادى شير، ص 121، والجاورس الهندي هو الذرة.

وقد وصف لنا مصدران متأخران طريقة صنع الخمر. أولهما ما ذكره ابن البيطار[101]، ففي استخراج خمر العنب يذكر أنه يؤخذ من تمر العنب مقدار ثلاثين جرة فتلقى عليه ثلاث جرار ماء، ويداس بالأرجل، ويعصر، ويطبخ حتى يذهب الثلثان، ويلقى على كل كوز مما بقي منه قسطان من ملح، وإذا جاءت عليه سنة نقل إلى الخوابي واستعمل بعد سنة؛ ولعل هذا ما عرف بالمطبوخ، وهذا النوع هو الشراب الثقيل. أما الشراب الضعيف، فيتخذ من العصير كمية معينة ومن الماء مثلها، فتطبخان على نار هادئة، حتى يذهب الثلث، ثم يبرد ويصب في الدنان بعد أن يعتق؛ وقد تطبخ بطريقة أخرى بأن تؤخذ كميات متساوية من ماء المطر والعسل وهذا عصير العنب فيخلطونها ويلقونها في الدنان ويضعونها في الشمس أربعين يوماً، ويستعملونه بعد سنة. ولعل هذا ما عرف بالمشمس.

أما المصدر الثاني فقد ترك لنا منه الواسطي لوحة تزيينية للمقامة الثانية عشرة من مقامات الحريري، وهي تصوّر إحدى الحانات التي يجري فيها عصر الخمر، بأن توضع ثمار العنب في وعاء واسع، وتقوم إحدى العاملات بدوسه برجليها، فيما تقوم عاملة أخرى - ولعلها غلام - بنقل الخمر وصبه في الراووق، بعد أن وضع على فوهته قطعة من القماش لتظيفه من الثفل[102].

ـ صناعات أخرى: انتشرت في بغداد صناعة المربيات والمعجنات والحلويات، كما انتشرت صناعة العقاقير والأدوية. فذكر يونس الصيدلاني أنه أحصي ما عمل من العقاقير النباتية على سواقي الأنهار ببادوريا عشرات الأنواع من الأعشاب التي تدخل في صناعة الأدوية[103].

وأقيمت في بغداد مصانع للورق بعد أن أخذت المهنة عن الصين[104]، وقيل: إن الفضل بن يحيى البرمكي أنشأ صناعة الكاغد في بغداد، على غرار ما رأى في سمرقند[105]؛ وحاول المعتصم تقليد صناعة القرطاس البغدادي، إلاّ أنها جاءت أقل

---

(101) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، (بولاق، 1291هـ)، ج 2، ص 71.

(102) أنظر، ناهدة عبد الفتاح النعيمي، مقامات الحريري المصورة، (بغداد، 1979)، لوحة رقم 46، ص 260.

(103) ابن الفقيه، بغداد، ص 70.

(104) محمد طه الحاجري، الورق في الحضارة الإسلامية، مجلة المجمع العليم العراقي، المجلد 12 (بغداد، 1965)، ص 133.

(105) ابن خلدون، المقدمة، (القاهرة، 1961) كتاب التحرير، ص 360.

جودة[106]، وعالج الجاحظ الكتابة على الجلود والأدم والكاغد، وفضل الكتابة على الورق القطني، لسلاسة الكتابة عليه[107]. وذكر ياقوت الحموي، أن صناعة الورق في بغداد كانت تجري في دار القز[108] حيث تنتشر صناعة المنسوجات في محلات دار القز والعتابين والنصرية وشهار سوق.

---

(106) ابن الفقيه، البلدان، ص 252.

(107) رسائل، بعناية عبد السلام هارون، رسالة في الجد والهزل، ج 1، ص 252، 254.

(108) معجم البلدان، ج 2، ص 422.

التجارة

ضمت منطقة بغداد سكاناً من أصول مختلفة، فكان منهم العرب والآراميون المستعربون، والفرس، والأتراك، ومنهم المسلمون والمسيحيون واليهود. ولم يكن للأتراك دور تجاري، لانهماكهم بالنشاط العسكري. فيما كان الأمر مختلفاً بالنسبة إلى الآراميين والمسيحيين، الذين سمح لهم وضعهم الديني بتعاطي التجارة. وكانت التسهيلات التي حصلوا عليها وبالأخص الجالية الآرامية ذات التقاليد التجارية، عاملاً في نمو التجارة الدولية، وكانت للطائفة الأرثوذكسية علاقاتها التجارية مع بيزنطة[1].

ولم يكن للعرب بادىء الأمر دور تجاري ملحوظ، لانصرافهم إلى الأمور العسكرية[2] لكنهم لم يلبثوا أن اندمجوا بالسكان المحليين الذين اعتنقوا الإسلام، حتى لم يميز بين التجار العرب وغير العرب في القرنين الثالث والرابع، إذ كانت المصادر التي تتحدث عن التجارة البحرية مع الهند والشرق الأقصى تذكر «العرب» و«المسلمين»[3]. فالتاجر سليمان قال: إن خانفو (كانتون) كانت مجتمع تجارات العرب وأهل الصين، كما أشار إلى مثل ذلك أبو زيد السيرافي[4].

عرف القرن الثالث بداية ازدهار التجارة العباسية، وارتبط ذلك بقيام دوله مركزية قوية، وتشجيع الفقهاء والدولة للتجارة، وقيام شبكة مواصلات متطورة، ثم ظهور حركة نقدية وائتمانية ناشطة.

ومنذ نهاية القرن الثاني، أخذت مجموعة من الأبحاث الفقهية تعلن تبني الفقه للأوضاع الاقتصادية الجديدة، والتي سمحت بالتعامل دون الإصطدام بقوانين الشريعة. فوضع محمد بن الحسن الشيباني (ت 189 هـ) كتابه في «المكاسب»، وفيه اعتبر التجارة أحد النشاطات الإقتصادية المباحة[5]. وكذلك وضع الشيباني كتاباً في «المخارج والحيل»[6] الذي اعتبر دليلاً للتجار العراقيين يساعدهم على تفهم أرحب لنظرة الإسلام

---

(1) Spuler, **Trad in the Eastern Islamic Countries in the Early Century**, p. 13, in: **Islam and the trad of Asia.**

(2) متز، الحضارة الإسلامية، ج 2، ص 363.

(3) حوراني، الملاحة العربية في المحيط الهندي، ص 97. أيضاً، رحلة التاجر سليمان، ضمن: من رحلات العرب، بعناية نقولا زيادة، (مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1974)، ص 22.

(4) رحلة أبي زيد السيرافي، ضمن: من رحلات العرب، ص 52.

(5) الاكتساب، ص 20، 36.

(6) نشره جوزف شاخت، (ليبزغ، 1930).

إلى البيوع[7]، وعالج الشيباني العلاقات التجارية بين دار الإسلام ودار الحرب في كتابه «السير»[8]. وأخرج الفقه الجعفري التجارة من دائرة المحرمات، واعتبرها من النشاط المأمور به[9]. ورأى أحد المتصوفين أن على التاجر تعلم البيع والشراء والأخذ والعطاء ومعاملة الناس في البيوع ومعرفة أبواب الربا، ليعلم ذلك قبل الوقوع فيه[10].

شارك الأدب في الاهتمام بالتجارة، فأبدى الجاحظ اهتماماً خاصاً بالتجارة كواحدة من الفعاليات الإقتصادية للمدينة الإسلامية، فوضع كتاباً في «غش الصناعات» لم يصلنا، وقد وصف هذا الكتاب بأنه أفسد على التجار صناعتهم[11] لأنه يكشف عن غش البضائع. وذكر الجاحظ نفسه أنه وضع كتاباً أسماه «أقسام فضول الصناعات ومراتب التجار» عالج فيه «أسباب التثمير والترقيح وكيف يجتلب التجار الحلفاء وكيف الاحتيال للودائع» كما يذكر فيه «غش الصناعات والتجارات، وكيف التسبب إلى تعرف ما قد ستروا وكشف ما موّهوا وكيف الاحتراس منه..»[12]. ويعالج كتابه «التبصر بالتجارة» قوانين العرض والطلب، كما يوجه فيه نصائح إلى التجار بضرورة البيع بالربح القليل، وحذر البيع بالدين، وعدم اليأس من التجارات[13].

ووضع أبو الفضل الدمشقي كتابه «الإشارة إلى محاسن التجارة» الذي تناول فيه بشيء من الإسهاب أصناف البضائع وأنواع المعاملات التجارية وأصولها، كما تحدث عن التجار وأصنافهم، وقدم لهم النصائح، كما حذرهم من السماسرة والمدلسين[14].

وكانت الدولة عاملاً مساهماً في توسع التجارة. فهي المستهلك الأساسي للسلع، «وهي السوق الأعظم وأم الأسواق كلها»[15]. فقد كان القصر محور النشاط التجاري، كذلك كان كبار الموظفين يجارون الخليفة في اقتناء السلع التي يشتريها رجال القصر

---

(7) الدوري، تاريخ العراق الإقتصادي، ص 117.

(8) نشره مجيد خدوري، (الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1975).

(9) نجم الدين جعفر بن الحسن الحلي، المختصر النافع في فقه الإمامية، (القاهرة، 1376هـ)، ج 1، ص 116 ـ 117.

(10) المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب، ج 2، ص 534.

(11) عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 162.

(12) الحيوان، ج 1، ص 4، 7.

(13) التبصر بالتجارة، أنظر، ص 11، 12.

(14) جعفر بن علي الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص 101 ـ 102.

(15) ابن خلدون، المقدمة، ص 244.

والحاشية؛ فتوسعت بذلك التجارة، ووجدت السلع طريقها إلى بغداد[16]. كذلك لقيت التجارة المساعدة المباشرة من الدولة سواء بدفع مساعدات نقدية للتجار، أو بطريقة الإعفاءات من الرسوم والضرائب؛ فيذكر اليعقوبي أن الواثق أمر بإلغاء ضرائب العشر على البضائع الواردة في البحر الصيني، كما أنه منح التجار مساعدات نقدية. وكان المعتصم قد ساعد تجار الكرخ الذين هلكت أموالهم في حريق الجمل[17].

العلاقات التجارية: أدى انتشار المواصلات إلى ازدهار التجارة، فكانت بغداد تستقبل السفن التجارية عبر الرافدين[18]. وقامت علاقات تجارية نشطة مع بلدان المحيط الهندي وبحر الصين وإفريقيا الشرقية، وبخاصة بعد أن أصبح البحر المتوسط مسرحاً للعمليات العسكرية بين العرب والبيزنطيين[19]. فأقاموا علاقات مع جزيرة سرنديب (سريلانكا) وكله بار (ملقا) وثيومه (سومطرة) وكمبوديا، ومنذ نهاية القرن الثاني الهجري كانت في سيلان جالية إسلامية مهمة، يقصد أفرادها مغاص اللؤلؤ النقي الصغير[20]، وفيها جبل حوله معدن الجوهر، والياقوت الأحمر والأصفر الأسمانجوني[21]. وكان التجار يأخذون من الجزيرة القرفة الجيدة، ويبيعون ملكها النبيذ العراقي. وكان بعض الأمراء الهنود يشجعون التجارة مع العرب[22]، وكانت أهم المراكز التجارية العربية في الهند هي الديبل والمنصورة والمولتان. والمدينتان الأخيرتان كان يحكمهما رجال من العرب.

وشاهد المسعودي سنة 304هـ بصيمور، في أرض اللار من مملكة بلهرا، جالية من المسلمين تعد نحواً من عشرة آلاف، من بياسرة وسيرافيين وعُمانيين وبصريين وبغداديين وغيرهم، وفيهم وجوه التجار[23].

---

(16) HITTI, **Baghdad Intellectuel** Capital, in Capital Cities **of Arab Islam**. (University of Minosofat, 1973) p. 89.

(17) **تاريخ اليعقوبي**، ج 2، ص 483، التنوخي، **نشوار المحاضرة**، ج 2، ص 101 ـ 102.

(18) آدم متز، ج 2، ص 388، أنظر، الطبري، ج 9، ص 307، 342.

(19) أنظر، أرشيالدلويس، **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط**، ترجمة أحمد عيسى (القاهرة، 196)، ص 211.

(20) حسين فوزي، **حديث السندباد القديم**، (القاهرة، 1943)، ص 17 ـ 8 ـ 20.

(21) **عجايب الهند**، بعناية زيادة، ص 181، **التاجر سليمان**، ص 19. أحمد بن يوسف التيفاشي، **أزهار الأفكار في جواهر الأحجار**، (القاهرة، 1977)، ص 67 ـ 76، والاسمانجوني، ياقوت غالي الثمن.

(22) **عجايب الهند**، ص 181، ابن خرداذبة، ص 67، **التاجر سليمان**، ص 27، ابن رسته، ص 135.

(23) المسعودي، **مروج الذهب**، ج 1، ص 123، 126، 157، الاصطخري، ص 175.

كانت العلاقات التجارية مع الصين ناشطة، ويكثر اختلاف التجار إليها. وكانت كانتون مجتمع مراكب التجار المسلمين، يبيعون فيها الأمتعة الواردة من بلاد العرب. وأصيبت التجارة العربية بضربة قاسية بعد حدوث تمرد داخلي في خانفو والصين سنة 264هـ، قتل بنتيجته مائة وعشرون ألفاً من التجار العرب واليهود والنصارى والمجوس. وانقطع الحرير على أثر تلك الأحداث بخاصة عن بلاد العرب، بعد أن اقتطعت أشجار التوت، ولحق أكبر الضرر بالربابنة والأدلاء بسيراف وعمان[24]. ولكن الحكومة الصينية أعادت تنشيط تجارتها مع العرب في القرن الرابع، فأرسلت البعثات لدعوة التجارة الأجانب، وأمدتهم بتسهيلات تجارية[25].

قامت علاقات تجارية عربية مع إفريقيا الشرقية. وكانت البضائع تمر عبر محطتين رئيسيتين، الأولى: عدن، التي كانت ملتقى سفن السند والهند والصين والزنج والحبشة[26]. وكانت المحطة الثانية في جدة، التي كانت تتلقى القمح الموجه إلى بغداد عبر ميناء البصرة[27]، وكان التجار ينحدرون بسفنهم على الساحل الإفريقي إلى أرض الزنج طلباً للدقيق والعنبر[28]. ويتحدث بزرك بن شهريار عن رحلات إلى قنبلة وسفالة الزنج (موزامبيق) لشراء العبيد[29].

- **الشركات التجارية**: تطلب التوسع التجاري في مسلكيه الداخلي والخارجي، التوسع في الاستثمارات. فتكونت رؤوس الأموال لتغطية تكاليف البضائع المنتجة في مراكز الانتاج وصيانتها، حتى يتم تسليمها.

وكان للفقه دور مهم في تشجيع قيام مؤسسات تجارية. وكان أبرز الفقهاء، محمد بن الحسن الشيباني الحنفي، الذي عالج مسائل الشركات والعقود والتأمينات والحوالة، فأحاط بشكل مثير للإعجاب، بمعظم مسائل الأوضاع التجارية والمدنية. ولعل ذلك جاء تلبية لحاجة الفقه إلى الوسائل الكافية لإدراك مقتضيات التطور الاجتماعي، بعد أن افتقرت النصوص الدينية إلى ذلك.

---

(24) البلدان، ص 365، أيضاً رحلة أبو زيد السيرافي، ص 48، 50، 53، 63.

(25) آدم متز، ج 2، ص 438.

(26) ابن خرداذبه، ص 60 ـ 61.

(27) Lombard, L'Islam p. 164.

(28) حوراني، ص 230 ـ 231.

(29) عجايب الهند، ص 111 ـ 116.

والاعتباران الأساسيان اللذان لحظهما الدين في التعامل التجاري كانا: الاعتراض على الكسب غير المشروع، ثم استبعاد أي عنصر مجهول في العقود[30]. وفيما عدا ذلك، لم تكن هذه العقود تتضمن أي علاقة بالدين والأخلاق. لذلك كان للفقهاء اليد الطولى بصياغة الأبحاث حول التجارة. كما أن القانون التجاري الإسلامي الوسيط قد أوجد بواسطة التجار، مراعياً ما يتناسب مع حاجاتهم وما تقتضيه العلاقات التجارية السائدة.

كانت المناقشات والنظريات التي عالجت مسائل الشركات متفهمة للواقع، فزودت التجار بوسائل مفيدة وفعالة لتنفيذ تجاراتهم البعيدة المدى. والقراءة الدقيقة لتصور الفقه الحنفي المبكر في موضوع الشركات، تعكس وعياً جدياً من الفقهاء للموضوعات التي كانت موضع بحث. والملاحظ، أنه كلما كان البحث الفقهي في العلاقة بين الدين والمجتمع يهدد بتضييق مجال النشاط التجاري، فإن الفقه الحنفي كان يسرع إلى الأخذ بمبدأ الاستحسان[31].

أنواع الشركات: قسم الفقهاء شركة العقود إلى ثلاثة أنواع: شركة بالأموال وشركة بالأعمال، وشركة بالوجوه[32]. واعتبر السرخسي الشركات أربعة أقسام: المفاوضة، والعنان، وشركة الوجوه، وشركة التقبيل، أو شركة الأبدان وشركة الصنائع[33].

شركة المفاوضة: وهي شركة عامة ذات استثمار غير محدود، أو شكل من التعاقد يعكس العمل العائلي والجماعي، ذو صفة إلزامية تعاهدية[34]. وبموجب هذه الشركة يعتبر كل من الشريكين كفيلاً عن صاحبه فيما يلزمه لجهة التجارة، وذلك يعني قدرة الشريكين على الالتزام، ويعني بالتالي أن يكونا حرّين بالغين[35].

والأمر المحرج في طبيعة شركة المفاوضة، هو شيوع ممتلكات الطرفين، لأن أي تصرف يقوم به أحد الشريكين ملزم به الشريك الآخر[36]، مما يعني أن أي ضرر

(30) Udovitch, **Commercial techniques in Early Medieval Islamic Trad, in** (Islam and the trad of Asia) p. 40.

(31) **Ibid.**

(32) انظر محمد بن أحمد بن منصور السمرقندي، تحفة الفقهاء، (دمشق، 1964)، ج 3، ص 1 وما بعدها؛ أيضاً، أبو بكر الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، (القاهرة، 1910)، ج 6، ص 57 ـ 58.

(33) السرخسي، المبسوط، بعناية الساسي، (القاهرة، دون تاريخ)، ج 11، ص 151.

(34) . Undovich; op. cit. p. 42.

(35) السرخسي، ج 11، ص 153، الكاساني، ج 6، ص 60، 61.

(36) السمرقندي، ج 3، ص 7.

يصيب المؤسسة سيطال ممتلكات شريكه. ولعل هذا ما جعل شركة المفاوضة أداة أو شركة عائلية أو بين عائلات متاجرة، مما شجع على قيام الشركة بين غير المسلمين، أذ ترد إشارات عن قيام شركات بين عائلتين يهوديتين غنيتين في القرن الرابع[37].

وقد كانت متطلبات التجارة التي تهدف إلى تحقيق الربح وتنمية المال، هي الحجة الكافية لكي يخالف أبا حنيفة تلميذه أبو يوسف ويجيز مفاوضة المسلم والذمي لاستوائهما في أهلية الوكالة والكفالة، كما أجاز مفاوضة الذميين مع بعضهما لاستوائهما في التجارة[38]. وقد ناقشت النصوص الحنفية المبكرة نتائج هذا النوع من الشركات[39]، وجرى التركيز على سمتين أساسيتين لشركة المفاوضة. أولاهما: هي شمولية المفاوضة وديمومتها. فيما نظمت السمة الثانية العلاقة بين الشريكين نفسيهما، وبينهما وبين الفريق الثالث، إذ اعتبرهما القانون شخصاً واحداً في أحكام التجارة[40]، مستنداً في ذلك إلى مبدأين أساسيين هما: الوكالة والكفالة، المعول عليهما في كل عقد. فبحكم الوكالة فإن شراء أحدهما كشرائهما، وبحكم الكفالة يجعل كل واحد منهما مطالباً بما يجب على صاحبه بسبب التجارة[41].

شركة العنان: وهي شركة ذات مسؤولية محدودة، كما أنها لا تتضمن تبادل المسؤولية التجارية، ولا تتضمن المساواة في رأس المال وتوزيع الأرباح[42].

ويمكن للعنان أن تتخذ أشكالاً مختلفة بالنسبة لمساهمة كل من الشريكين، وكذلك بالنسبة إلى أصناف التجارة. أما علاقة الشريكين مع الفريق الثالث والعلاقات فيما بينهما، فإنها ترتكز إلى مبدأ الوكالة، وهذه الوكالة صالحة فقط في مجال التجارة المحدد في العقد، وبحدود المساهمة في رأس المال. ولذلك، فإن العنان تحد من حرية الشركاء في التصرف في مجال العمل كما تحدد بشدة حقوق الفريق الثالث تجاه الشركة. ولتسهيل الغايات التجارية كان «العنان العام» و«العنان الخاص»[43]. فالعام الذي يسمح بتعاطي جميع أنواع التجارة، يحاول التخلص من القيود، سواء بالنسبة للظروف القائمة أم

(37) Udovith, p. 43.

(38) أنظر، الكاساني، ج 6، ص 58، 61.

(39) أنظر الشيباني، الأمالي، (حيدر آباد الدكن، 1941)، والجامع الكبير، (القاهرة، 1356هـ).

(40) الكاساني، ج 6، ص 61، 73. أنظر أيضاً، الشيباني، الجامع الكبير، ص 275 ـ 277.

(41) السرخسي، ج 11، ص 152، 17، أنظر أيضاً، الكاساني، ج 6، ص 58.

(42) Udovith. p./44.

(43) السرخسي، ج 11، ص 152، السمرقندي، ج 4، ص 3 ـ 4.

بالنسبة للبضاعة القابلة للتداول. وقد كان هذا النوع من الشركات تحولاً في أساليب العمل التجاري، التي من خلالها تمكن التجار من حماية أنفسهم وتجارتهم من المخاطر الناتجة من أوضاع السوق غير المستقرة وغير المتوقعة، وهذا ما يفسر قبول الفقهاء من جميع المذاهب بشركة العنان العام[44].

شركة الوجوه: وتسمى أيضاً شركة المفاليس، وتكون بأن يشترك الرجلان لا مال لهما، على أن يشتريا ويبيعا بوجهيهما، وسميت «شركة الوجوه» لأنه لا يشتري بالنسيئة إلاّ من له وجه عند الناس[45].

ويمكن أن تكون هذه الشركة مفاوضة أو عناناً[46]. فالشريكان في التزاماتهما هما بمنزلة شريكي العنان، لأنهما أطلقا الشركة، والشركة المطلقة تقتضي العنان. فإذا اشتركا بوجوههما شركة مفاوضة جاز ذلك، لأنهما ضمّا الكفالة إلى الوكالة المطلقة، شرط التساوي في ما يتبايعانه، لأن المفاوضة تمنع من التفاضل[47].

الشركة بالأعمال: وتسمى شركة الصناع وشركة الأبدان وشركة بالتقبيل. وتكون بأن يشترك اثنان في عمل القصارة أو الصباغة، على أن يتقبلا الأعمال ويعملا، فما أخذ من الأجر فهو بينهما. ويجيز الحنفية هذه الشركة باعتبار الوكالة، فتوكيل كل واحد من الشريكين صاحبه بتقبل العمل صحيح، وكذلك الشراكة[48]، وقد تكون مفاوضة أو عناناً.

والجديد في هذه الشركة، هو اعتبار العمل سلعة يستوي أن تكون الشركة في نوع عمل ويعمله أحدهما، لأن الربح بقدر ضمان العمل لا بحقيقة العمل. ولو جنت يد أحدهما، فالضمان عليهما معاً، بناء على ضمان العمل، وقد ضمناه معاً[49].

حركة الائتمان: أثارت الحركة التجارية أساليب جديدة في المعاملات المالية، لتواجه بها حركة تدفق الأموال، والعمل على توفير الطمأنينة للرساميل[50]. فكان انتشار

---

(44) الدوري، **تاريخ العراق الإقتصادي**، ص 128.

(55) السرخسي، ج 11، ص 152، السمرقندي، ج 3، ص 8.

(46) السرخسي، ج 11، ص 179، الكاساني، ص 56، 77.

(47) السمرقندي، ج 3، ص 9.

(48) السرخسي، ج 11، ص 155.

(49) السمرقندي، ج 3، ص 10 ـ 11.

(50) السرخسي، ج 12، ص 38، 39، الكاساني، ج6، ص 68.

المصارف التي أقبل الناس عل إيداعها أموالهم؛ فظهرت بيوتات مالية أو شركات، باتفاق عدد من الصيارفة فيما بينهم، استطاعوا أن يوسعوا عمليات الصيرفة إلى قبول الودائع[51]، فأقبل التجار على التعامل معهم، فكانوا يعطونهم أموالهم ويأخذون بها صكوكاً، وكان التاجر يشتري كل ما يلزمه ويحول الثمن إلى الصراف، فلا يستخدم شيئاً غير صك الصراف[52]. ولم يقتصر عمل هؤلاء الصيارفة على قبول الودائع، بل تعداه إلى تحويل النقود، وتسوية الحسابات بطريق السفاتج، لا نقداً[53].

انتشرت السفاتج في القرن الرابع، حتى صارت علامة في الحياة الإقتصادية. فكان الولاة يوردون المبالغ المتوجبة عليهم إلى بغداد بواسطة سفاتج[54]. وكان الوزير علي بن عيسى إذا حلّ المال وليس له وجه، يستسلفه من التجار على سفاتج وردت من الأطراف، فكان يدفع للتجار دانقاً ونصف دانق فضة في كل دينار، وكان يلزمه كل شهر ألف وخمسمائة درهم لكل عشرة آلاف دينار[55].

وكان التجار يشترون الغلات من الدولة بطريقة السفاتج. وكانت السفاتج تسحب عادة على التجار والصرافين، وكانت سفاتج تجار تحال على تجار؛ ويقتضي لذلك أن يكون التاجر مليئاً، وأن يكون له اسمه، ومكان لتجارته. ولذلك نرى في قصة عابثة اقترح فيها رجل على أحد الوارثين، كان يفتش عن طريقة لإهلاك ماله بطريقة فريدة، وهي أن يشتري الوارث أمتعة ويبيعها من الأعراب، ويأخذ سفاتجهم إلى الأكراد، وأن يبيع من الأكراد ويأخذ سفاتجهم إلى الأعراب[56]. ويعتقد الدوري أن السفتجة استعملت مكان صكوك المسافرين اليوم Travellers Cheques[57]. ومن مظاهر التصرف بالسفتجة، يبدو أنها كانت تستخدم كاستخدامنا الكمبيالة اليوم، وهي سند إثبات الدين. وقد احتفظ القانون التجاري اللبناني باللفظ وأطلقه على سند السحب[58].

---

(51) Massignon, L'Influence de L'Islam au Moyen Age sur la fondation et l'essor des banques juives, opera Minora, T.I p. 243.

(52) ناصر خسرو، سفر نامه، ص 246.

(53) Massignon op. cit. p. 244.

(54) مسكويه، ج 1، ص 150، 235.

(55) نشوار المحاضرة، ج 8، ص 41.

(56) المصدر نفسه، ج 8، ص 118، ج 1، ص 92، الصابي، الوزراء، ص 106.

(57) ت.ع. الإقتصادي، ص 169.

(58) وذلك في المادة 315 من المرسوم الإشتراعي رقم 304 تاريخ 24/ 11/ 42.

وانتشرت الصكوك واحدة من وسائل الإئتمان. والصك أمر نقدي يدفع مبلغ معين إلى الشخص المسمى فيه. وأصبحت الصكوك تستخدم في إدارات الدولة. وصك سليمان بن مخلد، كاتب بيت المال، على متولي نفقته مبلغ ألف وستمائة دينار[59]. وكانت أكثر الصكوك تكتب على الجهابذة. ويروي مسكويه، أنه في سنة 315هـ وجه البريدي دراهم كانت لابن أبي السلال بعد مصادرته مع جهبذه، فأخذها «ووافقه على أن يصك بما كان عند الجهبذ» وفي مكان آخر يقول مسكويه: «إنه قرأ صكاً على الجهبذ بثمن الأغراض»[60]. وكانت الصكوك تكتب وتصرف في المدينة نفسها[61] وكان من نتائج انتشار وسائل الدفع أن ترسخت مكانة التجار وتوسعت تجاراتهم. فكان أمرهم نافذاً في المشارق والمغارب، «يكتبون سفاتج بالأموال الجمة على معاملاتهم، فتكون أسرع في الرواج من مال الجباية والخراج»[62].

وتوسع دور الجهبذ في القروض. ويعتقد الدوري أن الجهابذة هم تجار أخذوا يشتغلون بالصيرفة والائتمان[63]. والجهبذ حسب الفيروزابادي هو «الناقد الخبير»[64] وهو حسب دوزي، الناقد «Vérificateur» أو الصراف «Changeur» الذي يدقق بالنقود ويفصل بين الجيد والرديء[65]. وقد تطورت هذه الوظيفة إلى أن أنشيء ديوان الجهبذة[66] الذي تولاه إبراهيم بن أيوب النصراني. ويبدو أن النصارى قد تولوا مهمة الجهبذة في بغداد منذ القرن الثاني[67]. وقد اضطرت الدولة في القرن الرابع للتعاون مع الجهابذة لتعزيز الوضع المالي، فتم تعيين جهابذة رسميين يتولون تسليف الدولة ما تحتاجه من النقود لتمويل الحملات العسكرية[68]، وكان ذلك إيذاناً بإنشاء مصرف رسمي، اشترك في إنشائه الجهبذان اليهوديان يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران، فكانا يقدمان للدولة ما تحتاجه من الأموال، ثم يستردانه من إنتاج مقاطعات خصصت لذلك.

---

(59) مسكويه، ج 3، ص 4 ـ م47، الصابي، الوزراء، ص 89.

(60) تجارب الأمم، ج 1، ص 158، ج 2، ص 80.

(61) الدوري، ت.ع. الإقتصادي، ص 171.

(62) أبو شجاع، ذيل مسكويه، ج 3، ص 138 ـ 139.

(63) ت.ع. الإقتصادي، ص 157.

(64) القاموس، جهبذ ج 1، ص 352.

(65) R. Dozy, **Supplém**ents **aux dictionnaires Arabes**, (Leyde, 1881) T.I. p. 226.

(66) عريب بن سعد، ط. الاستقامة، ص 94، ط. المعارف، ص 118.

(67) الدوري، ت.ع. الإقتصادي، 160، الفرج بعد الشدة، ط. بيروت، ج 2، ص 16.

(68) أنظر، الصابي، الوزراء، ص 92، أيضاً Massignon, L'**Influence** de L'Islam. p. 244.

ولم يزل هذا الرسم يجري على الجهبذين، ومن قام مقامهما بعد وفاتهما، مدة ستة عشرة سنة[69].

الصادرات والواردات: سهلت التجارة، بجميع وسائلها، انتشار حركة التصدير والإستيراد. فكانت بغداد تصدر الأقمشة القطنية والحريرية والإبريسيمية، وخاصة المناديل والأُزُر والعمائم، والخزف، والزجاج المخروط، وأنواع أخرى منه، وآلات المدهون (الدهان) ومختلف أنواع الزيوت، والمعاجين، وأنواع الأشربة والأدوية[70].

وكانت ترد إلى العراق وبغداد السلع الكثيرة.

من إيران: المنسوجات الصوفية من بسط وطنافس وسجاجيد، والفواكه والسكر.

ومن بلاد ما وراء النهر: القطن، والمنسوجات الحريرية والصوفية، وفرو السمور والسنجاب والفنك، والرقيق التركي، والأسلحة والكاغد.

ومن الهند: التوابل والأحجار الكريمة، والعود الهندي، وجوز الهند، والقطيفة.

ومن الصين: الحرير والملابس الحريرية، والغضائر، والجواري والخصيان، والعقاقير، وأواني الذهب والفضة، والسروج، والكاغد، والمداد[71].

ومن الشام: زيت الزيتون، والسكر، والزجاج والأدوات الزجاجية، والفواكه.

ومن الجزيرة العربية: الخيل العراب، والإبل، والأدم، والأحذية، والنعام.

ومن اليمن: البرود الدبيقية الأدم، والزرافات، والجواميس، والعقيق، والكندر[72].

ومن مصر: الثياب الدبيقة، والمنسوجات الصوفية، ودهن البلسان، والبغال، والقراطيس والحمير[73].

ومن شمال إفريقية: اللبود، والبرود، والثياب الصوفية، والرقيق، والجواري، والسيوف، والبزاة السود[74].

---

(69) نشوار المحاضرة، ج 8، ص 38 ـ 42.

(70) Hudud Al - Alam, p. 138.

(71) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص 33 ـ 34، 37 ـ 38.

(72) التبصر بالتجارة، ص 34، 45، المقدسي، ص 180 ـ 181، الثعالبي، ثمار القلوب، ص 203.

(73) التبصر، ص 35؛ المقدسي، ص 203؛ الثعالبي، ثمار القلوب، 23، 31.

(74) التبصر، ص 34، المقدسي، س 239، ابن خرداذبه، ص 153.

ومن أرمينية: البسط، والسجاجيد، والفرش، والستائر، والمنسوجات الصوفية، والتكك[75].

ومن الروم: الديباج الرومي، والثياب الكتانية، والبسط، والتكك[76].

---

(75) التبصر، ص 42، ثمار القلوب، ص 538.

(76) الثعالبي، ثمار القلوب، ص 535، أيضاً، Hudud Al - Alam, p. 156.

الفصل العاشر

أصناف الكسبة والصناع

تعطي المصادر في حديثها عن أصناف المهنيين، صورة حية عن بغداد في القرنين الثالث والرابع، حيث تتجمهر جماعة من الحرفيين والتجار والسماسرة والدلالين وقد انتظموا في أسواق متخصصة، وحيث يبدو المتجون المتخصصون في صنائع دقيقة، يستخدمون فيها الآلات والأدوات المتنوعة. وترك لنا إخوان الصفاء رسالة صنفوا فيها الصنائع العملية حسب موضوع المادة فيها[1]. فمنها ما هي الموضوع فيها الماء حسب، ومنها ما هي الموضوع فيها التراب حسب، ومنها ما هي الموضوع فيها النار حسب، ومنها ما هي الموضوع فيها الهواء حسب، ومنها ما هي الموضوع فيها المعادن.

ولعل هذا التقسيم للمهن هو أول تقسيم علمي من نوعه، في حين أن لائحة المهن التي أوردها الدينوري في «التعبير في الرؤيا» إنما كانت لائحة عادية لا ينظمها سوى موقعها من الحروف الهجائية، مع أن الدينوري يشير إلى مهن أخرى وردت أثناء حديثه عن مظاهر الحياة البشرية والمظاهر الطبيعية.

ومن الضروري الملاحظة أن المهن العديدة التي تزيد على المائتين أحياناً، ليس لدينا معلومات كافية عن كيفية ممارستها، كما أن الكثير منها لا نعرف عنها إلا الاسم، حتى أن مؤلفات الحسبة التي كانت دستور المحتسبين في ممارستهم مهامهم، لم تتحدث عن أكثر من تسعين حرفة في أحسن الحالات[2]. لذا فإن الحديث عن جميع الحرفيين يبدو مستحيلاً إذا أردنا أن نحيط بأعمالهم جميعاً.

---

(1) أنظر، رسائل إخوان الصفاء، ج 1، ص 280 ـ 282.

(2) أنظر، معالم القربة، مقدمة الطبعة المصرية، ص 29 ـ 30.

1 ـ الملاحون

انتشرت بغداد على ضفتي دجلة والصراة، وكان من الضروري قيام شبكة واسعة من النقل النهري، تؤمن نقل الناس بين جانبي المدينة، ووجدت لذلك مشرعات خاصة، تنطلق منها أو ترسو فيها المراكب العاملة[3]. وكانت المراكب تنقل المتنزهين داخل بغداد، أو تنقلهم إلى الضواحي، حيث يقضون إجازاتهم في بساتينها، وحيث يمضي اللاهون أوقاتهم في حاناتها، فمنهم من يخرج بالطيارات، ومنهم بالزبازب والسميريات، كل إنسان بحسب قدرته[4].

وأدت الضرورة بالأغنياء أن تكون لهم مراكبهم التي يستخدمونها في تنقلاتهم أو نقل عائلاتهم، وقيل: إنه كان لدور الشط أبواب إلى الشوارع وعلى كل باب مراكب مسرجة مهيأة لركوب الظهر، كما بين أيدي رواشنها خيطية أو زبزب لركوب الشط، وقيل: إنه كان بدجلة خمسمائة مضفرة مزينة لا يركب فيها إلاّ التجار، والأجناد، وأرباب المقاطعات[5]. وذكر أنه أحصيت السميريات المعبرانيات بدجلة أيام الموفق (القرن الثالث) فكانت ثلاثين ألفاً[6]. وعرفت بغداد السفن الكبرى، حتى أن أحد الزوارق العاملة بين بغداد والبصرة كان ينقل ثمانين شخصاً[7].

وأدى انتشار النقل النهري إلى ظهور طائفة عريضة من العاملين في خدمة السفن والمراكب، من مهنيين وملاحين، حتى قيل: إن المأمون كان يجري على ستة وثلاثين ألف ملاح مقيمين عنده[8]، وقدر ما كان يكسبه الملاحون العاملون في بغداد في القرن الثالث في كل يوم بتسعين ألف درهم. وكان المقتدر يجري على الملاحين في الطيارات والشذادات والسميريات والحراقات والزلالات وزواريق المعابر مبلغ 500 دينار شهرياً. ومن هذه المراكب ما كانت تستأجر مشاهرة لتوضع في خدمة موظفي الإدارة[9].

---

(3) المنتظم، ج 5، ص 127.

(4) مناقب بغداد، ص 27، الشابشتي، الديارات، ص 46، والطيارات، مفردها الطيار أو الطيارة، نوع من السفن النهرية سريعة الجري، ، والزبازب، والسميريات، من السفن النهرية الصغيرة. أنظر الهامش، 5 ـ 6 في المكان نفسه.

(5) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 68، ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص 27، والخيطية سفينة لعلها مخيطة بالخيوط بدلاً من المسامير.

(6) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 117.

(7) أنظرنشوار المحاضرة، ج 4، ص 45، ومروج الذهب، ج 2، ص 297.

(8) الرقيق النديم، قطب السرور في أوصاف الخمور، ص 50.

(9) نشوار المحاضرة، ج 5، ص 244، الخطيب البغدادي، ج 1، ص 117.

ليس لدينا معلومات دقيقة حول أجور نقل الركاب، ولكنها كانت تختلف حسب المسافة، وحسب مركز الشخص، أو عجلته من أمره. فقد دفع أحد الركاب درهماً أجرة نقله من بغداد إلى واسط وهو أجر غير قانوني، لأن الراكب أقنع ملاحي مركب خاص بنقله، وقد نقلوه بشكل سري بعد أن ألبسوه من ثيابهم ليجعلوه واحداً منهم. وذكر أحد العلويين، أن شيخاً دفع عنه قطعة أجرة في زورق[10]. ودفع أحد الركاب، وقد كان على عجلة من أمره، دينارين أجرة مركب، لينقله من مشرعة بنهر معلّى إلى مشرعة الدباغين. واقترح أحد الفقراء أن يعطي الملاح طعاماً بدلاً من النقود، لأنه لا يملك منها شيئاً. ودفع أحد الركاب درهماً أجرة لنقله من بغداد إلى عكبرا[1]. وكان بعض الملاحين ربما عرض له فقير فينقله مجاناً[12].

وكان الملاحون يتوقفون في المشرعات وينادون على الأماكن التي يقصدونها فينادي الملاح: قصر عيسى، أصحاب الساج، فرضة عثمان...[13].

وكان الزورق يتطلب عدداً من الملاحين يعملون في خدمته. فمن الزوارق ما يحتاج إلى الملاح فقط، ومنها ما يحتاج إلى عدة ملاحين، ومنها ما يلحق به من يعمل على حراسته[14]. وكان للملاحين رئيس يوجههم، كما كان لهم شيخ يعرفون به. وكان الخصيان يستخدمون في حراقات النساء[15].

وكان في بغداد أماكن لإصلاح السفن، وعرفت المدينة منذ نشأتها «دار صناعة للجسر» مهمتها تأمين صيانة وتجهيز جسور العاصمة[16].

ويذكر الأزدي وجود أماكن لإصلاح السفن في بغداد ويصف العاملين وطريقة عملهم وملابسهم وطريقة أحاديثهم. ويصف أحد الملاحين بأنه يضع على رأسه مرامقه، وعليه زرمانقة من لونين بلا جربان ولا كُمّين، وإلى جانبيه اشتيام (رئيس

---

(10) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 318 ـ 319، ج 2، ص 179.

(11) نشوار المحاضرة، ج 5، ص 143 ـ 144، الخطيب، ج 13، ص 206. ابن الجوزي، أخبار الحمقى، ص 161.

(12) البصائر والذخائر، ج 2، ص 472.

(13) الخطيب البغدادي، ج 13، ص 203.

(14) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 99، ج 5، ص 142، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 318، وقد ترك لنا الواسطي صورة لمركب يضم ثلاثة ملاحين يجذفون، أنظر، ثروت عكاشة، فن الواسطي، بعد ص 48، وجه الورقة 61 المستوحاة من المقامة الفراتية.

(15) نشوار، ج 3، ص 43، 190، حكاية أبي القاسم، ص 108.

(16) البلدان، ص 249.

الملاحين)، وبين يديه كندل ومردي[17] مقير ومهار ومزارق وشكة وقفر بلدي وليكا وهواد ومجاذيف، وشراريف؛ وهو يصلح الكار، ويدخل فيه الشل، ويركب فيه المجذاف، وتحته زري خلق، وفوقه بارية مربدة يستظل بها على القرقور[18]، وأصحابه جالسون بحذائه في المنكور، وقد تقنبر وصار يهلل ويكبر ويسبح ويقول: جوزني على كهور الصراط وسلّمني زقافاً وبلّغني شباالاً بحق مشائخنا، ، ثم يشرف على الهور ويبصر القهايا ويسمع زمرتا لمدادين (مجذفين) ويناديهم: زيابا، أشوب أشوب، مشوا عامة من معكم في السفن ما دمتم في هذه الشرتا[19]، تهب غفران قبل أن تتحرك قبلية.. ثم يتحدث أبو القاسم عن دخول الماء إلى السفينة وتصرف البحارة إزاء ذلك، ويخاطب الملاح في النهاية زملاءه قائلاً: يا مدابير، أنتم تريدون حملاً خفيفاً، وكرّاً ثقيلاً، ومكساً دقيقاً، ومداداً نشيطاً رفيقاً، وراكباً كريماً، وزاداً كثيراً، وهذا يكون في الجنة[20].

ومما يبدو أن الملاحين كانوا يعيشون عيشة بسيطة، ويرتدون ملابس خاصة بهم يعرفون بها، من دراعة أو جبة[51]. وكان الملاحون يحملون طعامهم البسيط معهم، ويتناولونه على مراكبهم في أوقات فراغهم؛ ولم يكونوا يعرفون الحلوى، بل كانت حلواهم من التمر[22].

وتترك المصادر انطباعاً بأن الملاحين كانوا يملأون دجلة بالأغاني والصراخ[23]. ويروي أبو الفرج الإصفهاني أن الرشيد كان يعجبه غناء الملاحين في الزلالات إذا ركبها، إلاّ أنه كان يتأذى بفساد كلامهم الذي يغنونه، فأمر بأن ينظم لهم الشعراء شعراً يغنون فيه[24].

وذكروا أن علي بن عيسى مرّ في طياره منصرفاً من دار السلطان عند صلاة المغرب،

---

(17) المردي: خشبة يدفع بها الملاح، ابن سيده، ج 10، ص 29.

(18) شراريف، مفردها شاروف، وهي بمعنى مكنسة، ادي شير، ص 100، والكار والكركور من المراكب.

(19) الهور، البحيرة العميقة، والشرتا من الرياح.

(20) أنظر، حكاية ابن القاسم، ص 107 ـ 108، ولقد بحثت عن مصطلحات البحارين التي ذكرت أعلاه فلم أعثر على معان لها، ويبدو أنها ألفاظ خاصة قديمة، زد على ذلك أن الألفاظ يمكن أن تكون قد تعرضت لبعض التحوير.

(21) أنظر، الطبري، ج 9، ص 158، نشوار المحاضرة، ج 5، ص 276.

(22) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 190 ـ 191.

(23) أنظر، ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص 27، وحكاية أبي القاسم، ص 23 ـ 24، عيون الأخبار، ج 1، ص 252.

(24) الأغاني، ط. بولاق، ج 3، ص 177.

فرأى ملاحين يصلون في مسجد على دجلة بمشرعة القصب، فتقدم إلى الشط وصلّى معهم[25]، وهذا الموقف من الوزير، مع الأخبار التي وردت، تؤكد النظرة المتعاطفة مع هذه الطائفة من العاملين.

ولم تخل أخبار الملاحين من تصرفات تدخل في باب المخالفات والجرائم. فقد نقل «صاحب الخبر» إلى المأمون أنه سُمع ملاح في النهر يقول بأعلى صوته: أتظنون هذا المأمون ينبل في عيني وقد قتل أخاه؟[26]. وكان بعض الملاحين يشارك في عصابات اللصوص، وبعضهم يقوم بسرقة الركاب من النساء وقتلهن[27].

2 ـ عمال الغزل والنسيج وما إليهما

استقطبت صناعة المنسوجات عدداً كبيراً من الحرفيين، ونشأت حول هاتين الحرفتين حرف أخرى، كالتطريز والندف والصباغة والقصارة.

كان الموقف التقليدي من الحياكة يعتبرها من المهن المزرية. وقيل في الحاكة الكثير من الأقوال التي تصنفهم في الساقطين والحمقى[28]. قال الجاحظ: ولم نر أعسر إلّا حائكاً أو ساقطاً نذلاً[29]. واعتبر أبو المطهر الأزدي ناسج البرد من ذوي المذلة، ومن الأمثال في الحاكة: إذا شبع الحايك سمى ابنته ملكة، وأطلقت أسماء أدوات النسيج على من يريدون إهانته، فوصف بأنه كدين القصار، أو زنبيل القماش أو لبود اليهود[30].

ويبدو أن هذا الموقف كان له من يعارضه، ولا بد أن ذلك عائد لنمو دور الحاكة والغزالين. فروي عن النبي ﷺ قوله: «عمل الأبرار من الرجال الحياكة، وعمل الأبرار من النساء الغزل». وقد انتشرت مهنة غزل القطن والصوف بين النساء، وكان الدافع إلى ذلك الحماية من الفقر. وكانت الأرامل واليتيمات يعملن في الغزل بأجرة[31]، ومنهن من تعاملن مع الحاكة، ومنهن من يبعنه جاهزاً في السوق[32].

---

(25) الصابي، الوزراء، ص 203، وتنسب بعض المصادر هذه الحكاية إلى حامد بن العباس.

(26) الخطيب البغدادي، ج 10، ص 189.

(27) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 254، المنتظم، ج 5، ص 127.

(28) أنظر، محاضرات الأدباء، ج 2، ص 460، الخطيب البغدادي، ج 12، ص 124، الجاحظ، البيان والتبين، ج 1، ص 249، الحيوان، ج 3، ص 248.

(29) البرصان والعميان، ص 350.

(30) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص 74، ص 120، 139، 140.

(31) الخطيب، ج 9، ص 15، أيضاً، ج 6، ص 9، 179.

(32) الأذكياء، 61، الخطيب، ج 12، ص 164.

واستعملت النساء المغزل اليدوي المعروف، إلّا أن الواسطي ترك لنا صورة لامرأة فقيرة غادرها زوجها، وهي تجلس أمام دولاب مغزلها تغزل الخيوط[33]، ووصف المنصور شيخاً عنده زوجة وثلاث بنات بأنه أيسر العرب، لأن عنده أربعة مغازل يدرن في بيته[34].

وربما كان أكثر العاملين في الغزل من النساء، لكن الغزل لم يكن مقصوراً عليهن، بل تعاطاه الرجال في دورهم أيضاً. فمنهم من كان يعمل بغزل الصوف ويضعه في قفة ويقصد به السوق. وكان حماد القرشي يعيش من كبة غزل يغزلها، وكان الصوفي خير النساج أسود اللون، عمل في نسج الخزّ سنين[35].

كان الحاكة يجهزون القماش حسب رغبة الزبائن، وكان بعضهم يحيك الخيوط المغزولة التي يحضرها لهم الزبائن[36]. ولذلك ربما اتهم الحاكة بأمانتهم، فيهربون بما يودع لديهم من خيوط، أو يبدلون الغزل، واتهموا بكثرة إهمالهم للمواعيد. لذلك كان الحاكة موضع المراقبة. فقد شدد الماوردي على مراقبتهم[37]، وطلب إليهم المحتسب ترك مطل الناس، وأن يشترطوا على الزبون مدة فراغهم من حياكة غزله[38].

خضع الغزالون لمراقبة المحتسب. ولدينا خبر يعود إلى نهاية القرن الثالث، فقد نقل إلى المعتضد خبر عن قطان شيخ من بركة زلزل أنه قال: ليس للمسلمين ناظر في أمورهم. واستُدْعِيَ القطان إلى المعتضد، فقال الشيخ: أنا رجل سوقي، لا أعرف غير الغزل والقطن ومخاطبة النساء والعامة، وإنما أجتاز بنا رجل بايعنا شيئاً كان معه، فوجدنا ميزانه ناقصاً، وإنما قصدت بكلامي المحتسب. فأمر المعتضد بإحضار المحتسب، والمبالغة عليه في الغفلة عن إنكار مراقبة الغزالين وضبط معاييرهم[39].

وعاش الحاكة عيشة بسيطة، فكانت ملابسهم تتصف بالخشونة. وقد ترك لنا التنوخي وصفاً لأحد الحاكة، فكان عليه جبة صوف، وعمامة صوف، وخفان أحمران،

---

(33) أنظر، ثروت عكاشة، فن الواسطي من خلال مقامات الحريري، ظهر الورقة 13، اللوحة مستوحاة من المقامة الكوفية.

(34) الطبري، ج 8، ص 75.

(35) الخطيب البغدادي، ج 11، ص 186، البصائر والذخائر، ج 2، ص 789.

(36) الرفيق النديم، قطب السرور، ص 54، ابن الاخوة، بعناية ليفي، ص 136.

(37) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 256، الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 142.

(38) ابن بسام، ص 78.

(39) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 326 ـ 32.

وفي يده عكاز معقد[40].

ويبدو أن الحاكة بدأوا بالتكتل منذ القرن الثاني، إذ كان جماعة منهم في بغداد يقضون لياليهم يسمرون مجتمعين، واستضافوا ليلة إبراهيم الموصلي ليغني لهم[41]. وفي القرن الرابع كان للنساجين «قامة» يشرفون على أعمالهم[42] وقد تمكن النساجون من إحباط محاولة صمصام الدولة بأن يجعل على الثياب الإبريسمات والقطنيات التي تنسج في بغداد ونواحيها ضريبة العشر، فاجتمعوا بجامع المنصور، وعزموا على المنع من صلاة الجمعة، وكادت المدينة تفتتن فأعفوا من إحداث هذا الرسم.

وتحرك النساجون في سنة 389هـ بعد أن حاول أبو نصر سابور وضع العشر على ما يعمل من الثياب الإبريسميات والقطنيات بمدينة السلام، فثار أهل العتابيين وباب الشام من أجل ذلك وقصدوا المسجد الجامع بالمدينة يوم الجمعة، في العاشر من ربيع الأول، ومنعوا الخطبة والصلاة، وضجوا واستغاثوا، وباكروا الأسواق على مثل هذه الصورة، وأحرقوا دور الموظفين، وتمكن ناظر بغداد من القبض على جماعة من القامة اتهموا بما جرى من الحريق، وصلب أربعة منهم؛ واستقر الأمر على أخذ العشر من قيمة الثياب الإبريسميات فقط، وثبت هذا الرسم ورتب في جبايته ناظرون ومتولون، ووضعت الختوم على جميع ما يقطع من المناسج، هذا فيما كانت صناعة القزّ قد أصحبت تحت إشراف الدولة منذ سنة 372هـ[43].

ويبدو أن بعض الحاكة كانوا يختصون بحياكة أصناف معينة، ومن ذلك وجود دور خاصة بالقطن والقزّ، كما عرف «صاحب الحرير» الذي يشرف على نسج الحرير وبيعه[44]. وكان الكاغد يصنع من الحرير في دار القز[45].

وارتبط جملة من أصحاب المهن بالغزل والنسيج، منهم الندافون الذين يندفون القطن. ولم يحظ هؤلاء بمكانة إجتماعية محترمة. ولعلهم كانوا من الموالي، ولم يكن أحدهم يحظى بالإحترام مهما بلغ من الورع؛ فقد خوطب أحد الندافين بالقول: لو وضعت يمين

---

(40) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 125.

(41) الخطيب البغدادي، ص 6، ص 176.

(42) ذيل مسكويه، ج 4، ص 336.

(43) ذيل مسكويه، أبو شجاع، ج 3، ص 117 ـ 118، تاريخ الصابي، ج 4، ص 336.

(44) معجم البلدان، ج 2، ص 457، الخطيب البغدادي، ج 12، ص 173.

(45) معجم البلدان، ج 2، ص 422.

رجليك على حراء ويسراهما على بئر زمزم، ثم تناولت قوس قدح فندفت، ما كنتَ إلاّ نداقا[46].

ومن المهنيين الذين ارتبطوا بصناعة الغزل والنسيج، القصارون والصباغون الذين يقصرون ويصبغون الخيوط والمنسوجات[47]. وقامت في بغداد سوق خاصة بالصباغين. وكان منهم من يستخدم أولاده أو الغلمان الصغار في مساعدته[48]، وكان النساء يتعاطين صباغة النسيج في منازلهن، فقد ادعت ميمونة الواعظة أنها لبست قميصاً غزلته أمها وصبغته بماء السنابل[49].

وليس لدينا الكثير من أخبار الخياطين، ويبدو أن هذه المهنة انتعشت على أيدي العبيد والموالي[50]. ويتحدث الجاحظ عن تأثير المهنة في لغة صاحبها، فيذكر جعفر الخياط، الذي يصف معركة عسكرية، مستخدماً في كلامه مصطلحات مهنته. ومنها الدرز، والجربان، والإبرة، والفتق، والسراويل الضيق، والطيلسان والأزرار، والعروة، والكشتبان، والقراض يقص به القماش، والحجزة، والجيب[51].

ويبدو أن الخياطين كانوا يتجمعون في سوق واحدة، فيذكر الجاحظ «سوق الخلقان» كما يتحدث التنوخي عن «أهل سوق» الخياطين[52].

ولدينا ثلاث قصص تدور حول الخياطين، وجميعها تصفهم بالخير، وأنهم كانوا على علاقات جيدة مع كبار رجال السلطة. أولاها: تتحدث عن شيخ خياط في سوق الثلاثاء، يقرىء القرآن هناك، ويخيط بأجرة. وقد تمكن هذا الخياط من حماية حقوق العديد من الناس من اعتداءات رجال السلطة، على أثر حادثة حاول فيها أحد القادة الأتراك، اغتصاب إحدى النساء العابرات، فكان خلاصها على يد الخياط بأن أذّن لصلاة الصبح في غير وقتها، فاكتشف الخليفة السبب، وطلب إليه أن يؤذن كلما رأى منكراً استعصى على الشيخ أمره[53].

---

(46) الثعالبي، خاص الخاص، ص 82، البصائر والذخائر، ج 3، ص 509.

(47) معالم القربة، ص 139، الماوردي، ص 256.

(48) الخطيب البغدادي، ج 10، ص 198، ابن الجوزي، الأذكياء، ص 43. وابن الاخوة، ص 41 ـ 42.

(49) المنتظم، ج 7، ص 226. والسنابل، نباتات متعددة الأنواع، أنظر، أبو عمران القرطبي، شرح أسماء العقار، بعناية مايرهوف (القاهرة 1940) ص 55 ـ 56.

(50) أنظر، محاضرات الأدباء، ج 1، ص 463، والفرج بعد الشدة، ج 2، ص 299.

(51) رسائل، ، الجاحظ، رسالة في صناعات القواد، ص 383 ـ 385، والحجزة معقد السراويل والازار.

(52) المكان نفسه، أيضاً نشوار المحاضرة، ج 1، ص 66.

(53) أنظر القصة في المنتظم، ج 5، ص 131 ـ 133.

والقصة الثانية تتحدث عن خياط وعلاقته بالوزير ابن الفرات. فقد كان الوزير، وهو بعد متوسط الحال، يجتاز أحد الدروب الضيقة فسال عليه ميزاب ووسخ ثيابه، ورأى ذلك الخياط، فأسرع إلى ابن الفرات وأدخله إلى داره، وأخذ ثيابه فدفعها إلى زوجته لتغسلها. وفي وزارة ابن الفرات الأولى(296 هـ)، قصد الخياط الوزير، فأحسن إليه بأن جعله رئيساً على الخياطين في داره، فما مضت على الخياط مدة حتى صار صاحب عشرات ألوف[54].

وتتحدث القصة الثالثة عن خياط أطروش (أطرش) كان يعمل لدى ياقوت، ولما ملك عماد الدولة استدعى الخياط ليخيط له ثياباً، وكان الخياط موصوفاً بالحذق. فلما خاطبه عماد الدولة في تفصيل الثياب، ظن أنه إنما يستجوب حول ودائع ياقوت، فحلف في الجواب أنه لا وديعة عنده سوى اثني عشر صندوقاً لا يدري ما فيها، وكانت تحوي الكثير من المال[55].

ويبدو أن مهنة الخياطة كانت تؤمن لصاحبها حياة متواضعة. وفرح أحد الخياطين بأن أصبح ابنه طنبورياً يأكل الجوامركة ويشرب نبيذ القاطرميزات[56] كما يبدو أن بعض الخياطين اختصوا بخياطة ملابس معينة. فمنهم القلانسي والطيالسي[57].

وقد اهتم المحتسب بمراقبة الخياطين، وطلب إليهم تجويد خياطتهم وألا يمطلوا زبائنهم، وأن يخبروهم بالموعد الذي يترقبون إنجاز عملهم فيه[58].

3 ـ الحذاءون

نزل الحذاءون في سوق خاصة بهم في الكرخ، وكان في باب الجسر درب خاص بباعة الأخفاف[59]. وكان مصلحو الأحذية يتجولون في المحلات والدروب وينادون: «شراك نعال». وكان منهم من يقوم بتصليح الأحذية في دكانه، حتى وصف بيت

---

(54) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 66 ـ 67.

(55) ابن عبد الملك الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص 89، انظر أيضاً، مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 299.

(56) المنتظم، ج 5، ص 132، الهفوات النادرة، ص 400، والجوامرك الفني من الطير.

(57) ابن الأخوة، ص 140، ابن بسام، ص 77. الخطيب البغدادي، ج 6، ص 14.

(58) ابن بسام، ص 78.

(59) الخطيب البغدادي، ج 11، ص 11، ج 6، ص 73، ج 7، ص 138.

الإسكاف بأن فيه من كل جلد رقعة، ومن كل أدم قطعة، وقيل: همّ كبير كبيت الأدم[60].

وقامت في بغداد سوق الدباغين، تعالج الجلود، وتصنع فيها المحفظات والأجربة[61]. وخير الجلود ما دبغ بالقرظ ثم الأرطي ثم السلم؛ وشرها ما دبغ بالآلاء. ويعطي دباغ القرظ الجلود لونها الأحمر، ويبدو أنه كان يجعل الجلود قاسية، كان القرظ يخلط بورق الشث ليكسب الجلد الليونة. وقد أقبل البغداديون على اللون الأحمر، فكان الدباغون عند ندرة ورق القرظ، يلجأون إلى استخدام الصباغ كاللك والفوّه، وربما استخدموا صباغ التمر والسلم، فتسمى الجلود عندها بالحور[62].

وللدباغة أصولها. تؤخذ الجلود وتلقى بالدباغ دون أن يمرط شعرها، وهذا ما يفعل في جلود النعال المشعرة والفراء. أما سائر الجلود فيمرط شعرها أو صوفها، وتلقى إما بماء ضرب بالغلقة، وهي عشبة تجفف وتطحن، ثم تمرط ويستنقى ما فيها من بقايا اللحم، ثم تطرح في الدباغ، وإما أن تعطن أي أن تدفن في حفرة حتى يسترحي شعرها وصوفها، وتمرها، ثم تلقى بالدباغ. وقد يكون العطان بأن يوضع ملح أو فرث في الجلود لمدة يومين حتى لا ينتن، ثم ينشر للسبب نفسه[63].

وقد تطلى وجوه الجلود التي تلي اللحم بالكلس وتُغمل ثم تمرط، ولا يفعل ذلك بجلود البقر، لأن الكلس يفسدها، لذا كانت تمرط بالغلقة أو بلبن العشر، بعد أن تؤخذ قضبانه رطبة، ويترك لبنها لتجمع بالأواني، وإن لم يجد الدباغون غلقة أو لبناً حلقت الجلود بالشفار[64].

تمر الجلود بمرحلة تنقيتها، ويلقى بها في الدباغ، فتغمس وتدلك ثم يلقى بدباغ القرظ ويخرج منه، ويترك ليصيبه ندى الليل وشمس النهار، أو ينفح عليه الماء، فلا يلبث أن يحمرّ بما فيه من قوة القرظ[65]. هذا، وكانت الجلود مختصة ببعض الأحذية، فمن جلود الضأن تصنع أحذية تسمى السلف، وهي أضعف من الماعز وأكثر ليناً، ومن جلود

(60) معجم الأدباء، ج 5، ص 304، فوات الوفيات، ج3، ص 62، ثمار القلوب، ص 241 ـ 242.
(61) الخطيب البغدادي، ج 6، ص 173.
(62) أبو حنيفة الدينوري، كتاب النبات، ص 106، 118، 120.
(63) المصدر نفسه، ص 108 ـ 109.
(64) المصدر نفسه، ص 111.
(65) المصدر نفسه، ص 116 ـ 117.

البقر يصنع حذاء يدعى السبت[66].

4 ـ باعة الأطعمة

مع نمو طبقة أصناف الحرف، ظهرت جماعة واسعة من باعة الطعام، يقدمونه لأصحاب الحوانيت في أوقات الصباح الباكر، أو للذين يبقون في حوانيتهم ظهراً، إذ كان الكثير من المهنيين يخرجون من منازلهم في الصباح، ولا يعودون إلاّ في المساء، ولا يتناولون طعام الغداء في بيوتهم إلا يوم يوم الجمعة[67].

ولدينا رأيان متباينان حول طعام السوق. فمنهم من كان يعيبه[68]، بينما اعتبره أبو الفتح الاسكندري أفضل من طعام البيوت[69].

باعة الهريسة: انتشر الهراسون الذين كانوا يطبخون هريستهم باكراً، ويقصدها الزبائن عند خروجهم للصلاة الأولى. وكانت الهريسة من الأطعمة المرغوبة، إلاّ أنها من أطعمة الشتاء على الأخص، وكانت سيدات البيوت تشتري الهريسة من السوق لتقدمها على موائدها[70].

وكان الهراسون يروجون لبضاعتهم، ورأى الباهاني في بغداد ثلاثة منهم يروجون لهريستهم، وقد أخرج أحدهم هريسته على المغرفة ويقول لها: إنزلي ولك الأمان، وآخر يقول: يا قوم، الحقوني، أدركوني، أجذبها وتجذبني، والغلبة لها، والثالث يقول: أنا لا أدري ما يقولون، من أكل من هريستي لقمتين، أسرج ببوله شهرين[71].

واستوقف غلام هراس رجلاً وأخذ بلجام مركوبه، وبيده غضارة هريسة ينادي عليها، ورفعها إلى أنف الراكب ليشمها وقال له: جمع اللوز والغنم. وكان أحد الهراسين ينادي على هريسته ويقول: إلى كم تغلط؟ وربما وقف الهراسون ينادون بعضهم قرب بعض، إمعاناً في التنافس[72].

---

(66) المصدر نفسه، ص 105.
(67) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 112.
(68) أبو الفرج الإصفهاني، أدب الغرباء، ص 38.
(69) مقامات بديع الزمان، المقامة البغدادية، ص 60.
(70) الخطيب البغدادي، ج 11، ص 178، ج 13، ص 9، الأذكياء، ص 225.
(71) البصائر والذخائر، ج 1، ص 116، 128، وأيضاً، محاضرات الأدباء، ج 1، ص 473.
(72) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 1، ج 2، ص 129.

وذكر أبو طالب المكي أن الهراسين في القرن الثالث كانوا يستخدمون الأولاد وأهل الذمة في أوقات صلاة الظهر، كما كان الذميون يعملون في إعداد الهريسة ليلاً وبيعها صباحاً، لأن الهراسين من المسلمين يكونون في المساجد إلى طلوع الشمس[73]. وربما كان صحيحاً ما ذكره المكي، إذ ترك لنا محمد بن الحسن الكاتب البغدادي[74] وصفاً تضمن طريقة طبخ الهريسة في بغداد، والتي تستغرق الليل بطوله، وذكر أنه يتطلب أن توقد النار وقوداً متصلاً في أول الليل إلى الربع منه، ولا بد من تحريكها باستمرار طوال هذه المدة، ثم يقتضي بعد ذلك أن يطرح فيها دجاج مقطع فوق القمح واللحوم، وشيء من عيدان دارصيني[75]، وتترك إلى نصف الليل. ثم تضرب ضرباً شديداً، حتى تنعقد انعقاداً سلساً، وتترك إلى الفجر، ثم يعاد ضربها، ثم ترفع وتسلى الإلية الطرية وتجعل على وجهها، وتؤكل بالمري العتيق وماء الليمون الطري[76]، وعملها في التنّور خير من عملها على كانون.

وذكر المقدسي أن للهراسين في بغداد مواضع فوق دكاكينهم، فيها الحصر والموائد، وخدام وطشوت وأباريق وأشنان، فإذا انحدر الرجل دفع دانقاً[77].

باعة اللحوم: انتشر القصابون في بغداد، ولم يكونوا يحظون بتقدير المجتمع. فقد وصفهم المنصور بأنهم سفهاء وفي أيديهم الحديد القاطع، كما وصفوا بالغش والنتانة[78]. وكانوا يعلقون اللحوم في حوانيتهم وينادون عليها، ويرغبون في سمنتها.

وكان لحن القصابين في حديثهم موضع سخرية الناس، مما يثير حنقهم؛ ويروي أبو زيد النحوي حادثة تدل على سفاهتهم وضيقهم بالزبائن[79].

قامت في بغداد أسواق خاصة ببيع حيوانات الذبح واللحوم، وكانت تباع فيها

---

(73) قوت القلوب، ج 2، ص 539.

(74) كتاب الطبيخ، ص 52.

(75) الدارصيني، القرفة، ولا تزال تعرف بهذا الإسم في بغداد اليوم.

(76) ورد ذكر الليمون في حكاية أبي القاسم، ص 44، الذي كان يستخدم على موائد الطعام، والمري نوع من الصلصة.

(77) أحسن التقاسيم، ص 129.

(78) تاريخ بغداد، ج 1، ص 80، ج 9، ص 78، محاضرات الأدباء، ج 1، ص 473، حكاية ابي القاسم، ص 120، أخبار الحمقى، ص 126.

(79) أنظر، تاريخ بغداد، ج 9، ص 78، محاضرات الأدباء، ج 1، ص 473، أخبار الحمقى، ص 126، النويري، نهاية الأرب، ص 313.

لحوم الأغنام والأبقار والجمال[80]. وكان في بغداد «درب البقر» و«سوق الغنم» التي كانت في القرن الرابع عند باب جامع المنصور، ويجري النداء فيها على المواشي[81]. وذكر الأزدي أنه كانت تقام في سوق البقر سوق أسبوعية يباع فيها البقر بالنداء، ويدفع عنها التجار رسماً عرف بحق الراعي[82].

وكان القصابون يتضامنون فيما بينهم. قال الجاحظ: «إنه ليبلغني أن رجلاً من القصابين يكون في سوقه فيتلف ما في يديه، فيخلي له القصابون سوقهم يوماً، ويجعلون له أرباحهم، فيكون بها منفرداً، وبالبيع مفرداً، فيسدون بذلك خلته»[83].

الشواءون والرواسون:

قامت في بغداد مهنة الشوائين الذين يقدمون الشواء للزبائن. ووصف لنا بديع الزمان شواء بغدادياً، وهو يقص اللحم ويضعه في التنور فوق النار، ثم يرش عليه السماق ويقدمه للزبون مغلفاً برقاق الخبز[84].

وكان الرواسون (باعة الرؤوس) يجتمعون في درب خاص بهم «درب الرواسين» عند باب الشام في الجانب الغربي[85]، حيث تحتشد أسواق بغداد.

خضع باعة اللحوم لمراقبة المحتسب، الذي منع على الجزارين ذبح الماشية المريضة والمقرحة، وأمرهم بإفراد لحوم الحيوانات بعضها عن بعض وعدم خلطها. وسمح المحتسب ببيع الرؤوس والأكارع النيئة، بعد أن تكون قد سمطت ونظفت، وطلب إلى القصاب أن يميز بين رؤوس البقر والضأن. كما فرض المحتسب على الشوائين إنضاج لحومهم، وفرض عليهم تطيين تنانيرهم بطين طاهر[86].

باعة الأسماك والطيور:

تجمع «السماكون» في محلة خاصة عرفت بـ«قنطرة السماكين»، حيث كانوا يقدمون السمك طازجاً أو مشوياً أو مقلياً[87]. ويبدو أنهم كانوا يستوردون الأسماك ويخزنونها

---

(80) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 295.

(81) تاريخ بغداد، ج 9، ص 18، ج 10، ص 133، الهفوات النادرة، ص 59.

(82) حكاية أبي القاسم، ص 7.

(83) رسائل الجاحظ، رسالة في ذم أخلاق الكتاب، ج 2، ص 201.

(84) مقامات، المقامات البغدادية، ص 60 ـ 61.

(85) الخطيب، ج 6، ص 61، نشوار المحاضرة، ج 3، ص 67.

(86) معالم القربة، ص 93، 99، 100، 105، 106.

(87) الخطيب البغدادي، ج 13، ص 39، ج 9، ص 22.

خوفاً عليها من الفساد. وفرض المحتسب على السماكين نظافة أسماكهم لئلا تنتن، وأمر الشوائين منهم بأن يكون إعداده أمام زبائنهم[88].

قامت في بغداد سوق للدواجن في «درب الدجاج»[89]، وكان من باعة الدجاج من يبيعها للطبخ، ومنهم من يتخذها للبيض والغلة. وكان في بغداد محلات متخصصة ببيع الطيور التي تتخذ للزينة في المنازل[90].

الخبازون:

قامت في بغداد مخابز كان سكان البيوت يرسلون إليها بعجينهم[91]؛ ويبدو أن المخابز توزعت في الأحياء، وشكل دخانها إزعاجاً للناس. ولاحظ عبد الله بن طاهر أن جيرانه يخبزون ويتصاعد من وقودهم دخان كثيف. وكان الشاعر المعروف بالخبزأرزي يتعاطى خبز الأرز على الطابق الذي يشعل تحته سعف النخل. وكان الخبز يباع في الدكاكين، وفي سوق خاصة عرفت بالخبازين[92].

التمارون:

قامت في بغداد سوق خاصة يتجمع فيها التمارون الذين يتجرون بالتمر. وقد أصيبت التمور بكارثة سنة 372هـ حتى اضطر التمارون إلى الاستلاف[93]. ويبدو أن سوق التمارين كانت رائجة، حتى فرضت عليها الضرائب[94]. وربما كان بعضهم ميسوراً، فقد خصص أحد التمارين لأعمى خمسة دراهم شهرياً، إلا أن كثيرون منهم كانوا من ذوي البيوع الصغيرة، يحمل الواحد منهم تمره ويتجول في الشوارع منادياً، ومنهم من يجلس في الشارع يبيع تمره وقد وضعه على منسف[95].

وقد تمكن التمارون من أن يتكتلوا لحماية مهنتهم وتمورهم. فيتحدث التنوخي عن

---

(88) ابن الاخوة، ص 111.
(89) الخطيب، ج 11، ص 16.
(90) الحيوان، ج 2، ص 232، الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 99.
(91) الأذكياء، ص 61.
(92) أنظر الخطيب البغدادي، ج 9، ص 486، ج 13، ص 299، ج 12، ص 183، الأذكياء، ص 61، مناقب بغداد، ص 26.
(93) أبو شجاع، ذيل مسكويه، ج 3، ص 67.
(94) الصولي، أخبار الراضي، ص 229.
(95) نشوار، ج 2، ص 59، ج 3، ص 60، معجم الأدباء، ص 304.

شيخ للتمارين[96]، وقد انتفضوا على الجند الديلم وعلى متضمن رسوم الزوارق التي تحمل التمور من بغداد وإليها، ولحقوا بالمتضمن وقتلوه وأخذوا رأسه ونصبوه في سوقهم[97]، مما يعني أن مهنتهم كانت تتعرض لرسوم عالية.

وكان الدبس يستخرج من التمر. وتجمع دبّاسو بغداد في محلة «أصحاب الدبس»؛ ويبدو أن عدد العاملين بها كان كبيراً، مما جعلهم يطلبون إعفاءهم من الرسوم، فحقق ناصر الدولة الحمداني رغبتهم بإعفاء الدبس والبسر سنة 330هـ[98].

البقالون:

انتشر البقالون في بغداد في حوانيتهم الصغيرة، وعند إخراج الأسواق من مدينة المنصور إلى الكرخ، أبقى الخليفة على بقال في كل ربع من أرباع المدينة، على ألا يبيع إلاّ الخل والبقل وحده. وقام البقالون في محلات بغداد بالقرب من منازل الناس، ومنهم من كان يتجول بين الأحياء ليبيع سلعته[99]. وكان البقالون من أصحاب البيوعات اليسيرة، فقد تجادل أحد البقالين مع أحد الأغنياء فقال له: أنت رب مائة ألف دينار، وأنا بقال لا أملك مائة فلس، وإنما أعيش بكدي[100]. واشتهر عن البقالين سفاهة ألفاظهم[101].

باعة السويق:

انتشر باعة السويق في بغداد، وعرف في المدينة مسجد باسمهم[102]، وكان السويق يباع في بغداد بكميات كبيرة. وذكر أحد باعة سويق الحمص في حدود سنة 345هـ أنه أحصى ما يتخذ في سوقه من سويق الحمّص في كل سنة، فكان مبلغه مائة وأربعين كراً تباع جميعها، وهذا السويق لا يأكله إلاّ الفقراء والمرضى الذين كان يوصف لهم[103]. وكان سويق اللوز يمزج بالسكر والعسل وهو من أنواع السويق المرغوبة في

---

(96) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 60.

(97) الصولي، أخبار الراضي، ص 206.

(98) الطبري، ج 8، ص 359، الصولي، أخبار الراضي والمتقي، ص 229.

(99) الطبري، ج 7، ص 651. الخطيب البغدادي، ج 9، ص 418، أبو شجاع، ذيل مسكويه، ج 3، ص 59.

(100) البخلاء، 35.

(101) التعبير في الرؤيا، 77آ، الخطيب ج 6، ص 161.

(102) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 130، أيضاً، الخطيب، ج 6، ص 280.

(103) الخطيب، ج 11، ص 411.

فصل الصيف، بعد أن يضاف إليه الثلج[104]. ومن أنواع السويق: سويق الشعير، وسويق الحنطة، وسويق الأرز[105].

باعة الباقلاء:

كانت الباقلاء تباع في بغداد بكثرة، وكانت قدور باعتها تظهر للعيان على أبواب حوانيتهم، وكان الفقراء من الناس يرسلون بصحونهم الفارغة إلى الباقلاني ليملأها، ومنهم من يكتفي بماء الباقلاء يبل به كسرات الخبز[106].

الحلوانيون وأصحاب المطاعم:

اشتهرت في بغداد دار البطيخ التي كانت تباع فيها الفواكه والرياحين[107]، كما اشتهرت بغداد بصناعة الحلوى، وعرفت منها الأنواع العديدة[108].

واشتهر من الباعة والصناع في بغداد في القرن الرابع نجاح الأسود الذي يعمل الخلال السلطاني المقوّم. وكانت المخللات معروفة لدى البغداديين، إذ كانوا يتناولونها بعد الطعام لتغسل الزفر والدهن، كما أنهم عرفوا نوعاً من الحلوى اسمه «خل وخردل»، وهو مصنوع من اللوز الحلو المقشور، ويدق ناعماً ثم ينقع بالخلّ الثقيف حتى يرق، ويخلط مع يسير من أظفار الطيب، ولعل هذا ما قصده الأزدي في وصفه له بالمرادي الفضي، ثم ذكر الخلال المطيب المأموني[109].

واشتهر «شركة العطار» ببيع المحلب. واشتهر من باعة الأطعمة والأشربة «قيراط» الذي يبيع الشواء، و«حبش» بائع القطائف، و«عمر» بائع الفالوذج، كما اشتهر منهم «زريق» بائع الفقاع، و«ابن سيرين» بائع المخلط، و«كيكي» البقال في الكرخ، الذي يبيع الجبن والزيتون.

ووصف أبو القاسم البغدادي طباخاً حبشياً في دور بني معن ببغداد اسمه «نارنج»، فقال بأنه عنوان النعم، وترجمان المروءة، وطبيب الشهوة. ويعطينا صورة

---

(104) المصدر نفسه، ج 13، ص 9.

(105) أنظر، الطبري، ج 8، ص 351.

(106) الخطيب، ج 9، ص 191، 408.

(107) الثعالبي، ثمار القلوب، ص 519.

(108) أنظر، حكاية أبي القاسم، ص 38، 44 حيث توجد لائحة طويلة جداً من الأطعمة والحلوى البغدادية، وأنواع الفاكهة التي كانت تباع في أسواقها، انظر أيضاً، خاص الخاص، ص 56 ـ 60.

(109) حكاية أبي القاسم، ص 41، أيضاً، محمد بن الحسن البغدادي، الطبيخ، ص 65 ـ 69.

أوضح عن الحركة داخل المطعم، فالطباخ يحشد الموائد ويضع الزخارف على الخوان، ويكتفي باللحظة، ويفهم بالإشارة، ويسبق إلى الإزارة، ويساير الزبائن، ولا يقدم في العشاء ما يقدمه في الغداء، ويباعد بين ألوان الصيف والشتاء[110].

5 ـ السقاءون والثلاجون

كان من الطبيعي في مدينة بضخامة بغداد أن ينتشر فيها السقاءون، يبيعون الماء المبرد بالحباب أو بالثلج من الحرفيين والتجار والمتسوقين[111]، وكان في بغداد مشرعة تعرف بمشرعة الروايا، يأتيها السقاءون ويملأون جرارهم منها[112]. وكان المحتسبون يوصون موظفيهم بمراقبة السقائين وجرارهم ونظافة مياههم[113].

استخدم السقاءون البغال في حمل قربهم وجرارهم إلى الزبائن، أو إلى بيوتهم أو بيوت أسيادهم[114]. ودخل السقاءون أرباب مهنة إلى بيوت القادرين، الذين كانوا يسعون لشراء الغلمان وتشغيلهم سقائين؛ ولعل هؤلاء كانوا يتمتعون بشروط خاصة[115].

ويبدو أن سقائي بغداد كانوا محمودي السيرة. فقد وصف ذو النون المصري سقاءِ المدينة بالمروءة والظرف، وذكر أن أحد سقائيها رفض ديناراً دفعه إليه ذو النون حين كان أسيراً في بغداد[116]. وروى أحمد بن أبي دؤاد خبراً عن سقاء بغدادي كسرشفة كوزه قبل أن يسقيه منه، خوفاً من أن تكون الشفة قد تلوثت[117]. وكان سقاء بغدادي يعتم بمنديل دبيقي، بيده كيزان خزف، وزجاج مخروط، تفوح منها رائحة المسك. وكان أحد السقاة بعيساباذ يتعاطى الحديث[118].

كان السقاة يروجون لمياههم، فكان الساقي ينادي بقوله: رحم الله من شرب.

---

(110) حكاية أبي القاسم، ص 61، 86، 101.

(111) الفرج بعد الشدة، ج 2، ص 181، معجم البلدان، ج 1، ص 437.

(112) تاريخ بغداد، ج 1، ص 116.

(113) ابن بسام، ص 25 ـ 26، ابن الاخوة، ص 239 ـ 240.

(114) الفرج بعد الشدة، ج 2 ص 353، أيضاً، البصائر والذخائر، ج 1، ص 75.

(115) البصائر والذخائر، ج 2، ص 554، نشوار المحاضرة، ج 6، ص 33.

(116) تاريخ بغداد، ج 1، ص 50.

(117) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 68، وانظر ابن الاخوة، ص 239، حيث أوصى بأن يستخدم السقاء كوزاً جديداً عند وصول رئيس أو كبير.

(118) تاريخ بغداد، ج 1، ص 50، ج 12، ص 207.

وربما تكايدوا وتنافسوا على بيع المياه. ففي أيام المنافسة المذهبية، كان السقاة يدخلون المساجد ويترحمون على معاوية عند سقيهم الماء من الناس، حتى منعهم المعتضد[119].

وليس لدينا فكرة واضحة عن المبالغ التي كان يتقاضاها السقاة، فقد دفع ذو النون المصري ديناراً ثمن شربة ماء، ودفع ابن أبي دؤاد سبعة دراهم لم يكن يملك غيرها، وذكر ابن الفقيه أن الراوية في القرن الثالث كانت تغلو فتبلغ الدرهمين[120].

الثلاجون:

لجأ البغداديون إلى تبريد المياه بواسطة الحباب والكيزان، إلا أنهم كانوا يعدلون إلى استعمال الثلج ليحصلوا على فاعلية أكثر. ومنذ نهاية القرن الثاني عرفت بغداد محلة «أصحاب الثلج» أو «درب الثلج» حيث يكبسونه ويبيعونه[121].

وقد أورد ابن الجوزي في أخبار سنة 332هـ أنه تساقط ببغداد ثلج كثير فجمعه الثلاجون وكبسوه. وذكر أيضاً أن أبا سليمان الثلاج ادعى أنه باع أربعة أرطال ثلجاً من عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ليعالج بها هذا جارية غالية عليه، في وقت عز فيه الثلج ببغداد، ودفع إلى الثلاج خمسين ألف درهم، منها عشرون ألف درهم ثمن الرطل الأخير، وعشرة آلاف لكل رطل من الثلاثة الأولى[122].

وكان بعض الموسرين يكبسون الثلج في دورهم، فقد كان عبد الله الثلاج في أيام الموفق يجمع في كل سنة ثلجاً كثيراً لنفسه ويشربه[123].

إلا أن لدينا من الأخبار ما يدل على أن الفقراء كان باستطاعتهم الحصول على الثلج، فقد كان الماء المثلج يباع في شوارع بغداد، ومر أبو العباس بن الفرات في طريق له على أرحاء عبد الملك وقد عطش، فاستسقى شيخاً قدم له ثلجية نظيفة فيها ماء بارد[124]، وذكر الفضل بن الربيع أن مزيناً استضافه أثناء فراره خوفاً من المأمون، فقدم إليه طعاماً نظيفاً وثلجاً[125].

---

(119) المصدر نفسه، ج 13، ص 208، المنتظم، ج 5، ص 171.

(120) تاريخ بغداد، ج 1، ص 50، نشوار المحاضرة، ج 3، ص 68، ابن الفقيه، بغداد، ص 79.

(121) معجم الأدباء، ج 7، ص 75، الخطيب البغدادي، ج 9، ص 347، ج 12، ص 211.

(122) المنتظم، ج 6، ص 118، 335، 336.

(123) الخطيب البغدادي، ج 10، ص 136.

(124) الصابي، الوزراء، ص 231، أيضاً، المقامة البغدادية، ص121.

(125) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 296.

إلا أنه من الثابت أن الخليفة وكبار رجال القصر كانوا يستهلكون الثلج بكميات كبيرة. فقيل: إن نفقات الثلج في زمن المتوكل بلغت مليون درهم. وأقام مفلح الأسود مأدبة للمقتدر سنة 312هـ، فسكّر أنهار بستانه ورصف بعضها، وطرح فيها 50 ألف رطل ثلجاً، وأجرى فيها الماء والشراب[126].

ولم يكن ولع الوزراء بالثلج بأقل من ولع الخلفاء به، وأشهرهم ابن الفرات الذي كان يقدم لرواد داره الماء المثلج في الفصول الأربعة، فكان سعر الثلج يرتفع دائماً في بغداد أيام وزارته؛ وذكر أنه سقى الناس في أول يوم من وزارته الثانية أربعين ألف رطل من الثلج[127].

وكان الثلج يعطى ضمن مخصصات رجال الإدارة. فقد كانت وظيفة ابن بقية وزير معز الدولة سنة 358هـ في كل يوم ألف رطل ثلجاً[128].

وكان الزهاد لا يقبلون على الماء المثلج، ويعتبرونه من بهرج الدنيا. ورفض علي بن عيسى أن يفطر صيامه على ماء مثلوج، أنفذته إليه إحدى النافذات في قصر المقتدر[129].

وليس لدينا معلومات واضحة حول طريقة وصول الثلج إلى بغداد، والأماكن التي كان ينقل منها. وذكر المقدسي أن الثلج يحمل إلى سكان العراق من البعد[130]، ولكنه لم يحدد البلدان التي يحمل منها. ولدينا من المعلومات ما يفيد بحمل الثلج مسافات بعيدة. فيذكر الطبري أن محمد بن سليمان عامل البصرة، أرسل ثلجاً إلى المهدي في مكة في موسم الحج سنة 160هـ. وذكر الثعالبي أن بطيخ خوارزم كان يحمل إلى المأمون، ثم الواثق، في قوالب من رصاص معبأة بالثلج[131]. وذلك يعني توصل العراقيين إلى طرق متقدمة في كبس الثلج، تسمح لهم بنقله من مصادره. ولدينا إشارة إلى صناعة الثلج في بغداد، إذ يقول مسكويه: إن عضد الدولة حظر عمل الثلج وجعله متجراً خاصاً[132].

---

(126) **الذخائر والتحف**، ص 107، 219.

(127) انظر، ابن الطقطقى، **الفخري**، ص 226، الصابي، **الوزراء**، ص 262، **المنتظم**، ج 6، ص 138.

(128) الهمذاني، **تكملة الطبري**، ص 213، مسكويه، ص 285.

(129) **معجم الأدباء**، ج 7، ص 75، الصابي، **الوزراء**، ص 302.

(130) **أحسن التقاسيم**، ص 126.

(131) **تاريخ الطبري**، ج 8، ص 134، **لطائف المعارف**، ص 226.

(132) أبو شجاع، **ذيل مسكويه**، ص 71.

6 ـ الحجّامون والفصّادون والمزينون

تـرك التراث العـربي في أذهـاننـا صـورة عن الحجـام الفضـولي، ويـرتبط فضـول الحجامين بفقرهم فقد طلب عيسى بن هشام حجاماً خفيف اليد، حديد الموسى، نظيف الثيـاب، قليل الفضـول؛ ولعله كان يـطلب أمراً صعبـاً، وتوهم أنـه وفق بحجام ارتـاح إليه، رجلٍ لطيف البنية، مليح الحلية في صـورة الدميـة، ولكنه لم يلبث أن اكتشف فيـه فضـولاً عبّر عنـه بسلسلة من الأسئلة، وسمع منـه هـذيـانـاً بـوابـل من الآراء اللغـويـة والفلسفية[133].

كان العبيد وأهـل الذمـة يمارسـون مهنة الحجـامة، ويتحـدث التنوخي عن رومي مزين. وكان في دار ابن الجصاص خصيان بيض مزينون، وكان ابن أبرونا في أول حياتـه يحجم ويفصد على الطريق[134].

وكان الحجام يجلس على الطريق في شوارع بغداد، ويضـع محاجمـه أمامـه، أما من يتعاطى قص الشعر، فكان يحمل منديلاً ويضعه على عنق الزبون[135].

وفي شروط الحجامة نقل عن علي بن موسى الرضـا، ولي عهد المأمون، أنـه وضع رسالة عالج فيهـا موضـوعات شتى منهـا الحجامـة والفصد[136]. واقـترحت الرسـالة أن يكون الاحتجام بين الليلتين الثانية عشرة والخامسة عشرة من الهـلال، فإذا نقص الشهـر فلا يجوز الاحتجام، لأن الدم ينقص في نقصـان الهلال، ويزيد في زيادته. وترى الرسـالة أن يكون الوقت بين الاحتجام والآخـر بعدد السنـين، فابن عشرين يحتجم كـل عشرين يوماً، وابن ثلاثين كـل ثلاثـين يومـاً، وهكذا. وفي فـوائد الحجـامة قـالت الرسـالة: إن حجـامة النقـرة تنفع من ثقـل الرأس، وحجـامة الأخـدعين تخفف عن الـرأس والـوجـه والعينـين وهي نافعـة لوجـع الأضراس. وقد يحتجم تحت الـذقن لعلاج الفـلاج وفسـاد اللثة، وتنفع الحجامة بين الكتفين في معالجة خفقان القلب الناتج عن الحرارة والامتلاء،

---

(133) أنظر، محاضرات الأدباء، ج 1، ص 462، ثمار القلوب، ص 235، وبديع الزمان الهمذاني، المقامات، ص 171، 174.

(134) الفـرج بعـد الشـدة، ج 4، ص 296، نشـوار المحـاضرة، ج3، ص 43، معجم الأدبـاء، ج 3، ص 143.

(135) الخطيب البغدادي، ج 6، ص 258، ج 9، ص 157.

(136) صاحب زيني، ملتقى العصرين في الحجامة والفصد، عـرضه فـوزي رسول، مجلة الـتراث الشعبي، سنة 5، عدد 9 (بغداد، 1974)، ص 149 ـ 156.

وحجام الساقين ينفع في أمراض الكلى والمثانة والأرحام ويدر الطمث، ويفيد في أمراض البثور والدمامل.

ومن شروط الحجامة أن تكون في موسم التبدل الفصلي، أي في الربيع، إذ يكون الجسم مثقلاً بالإفرازات والفضلات المتراكمة خلال فصل الشتاء. ويجب أن يكون الاحتجام في يوم صاحٍ صافٍ لا غيم فيه، ولا ريح شديدة، ويخرج من الدم ما يرى من تغيره. ويمنع على المحتجم دخول الحمام، لأنه يورث الحمى الدائمة.

وتقترح الرسالة أطعمة وأشربة معينة يتناولها المحتجم. ففي الشتاء عليه أن يأخذ بعد الحجامة بقدر حمصة من الترياق الأكبر ويشربه، وإن كان الفصل صيفاً، فعليه أن يتناول السكنجبين العنصلي، ويمزجه بالشراب المفرح المعتدل، أو شراب الفاكهة، ويتناول عليه جرعات من الماء الفاتر، وينصح بتناول السكنجبين العسلي في الشتاء البارد، فيساعد في اجتناب البرص والبهق والجزام. ولا يجوز أكل طعام مالح بعد ذلك بثلاث ساعات، خوفاً من الجرب. وإن شاء المحتجم يمكنه أن يتناول كل الطباهيج، وأن يصب شيئاً من المسك وماء الورد ساعة الفراغ من الاحتجام.

ويمكن للمحتجم في الصيف تناول السكباج والهلام يسلق بماء الملح، ثم يؤخذ اللحم المسلوق ويوضع على البقول الباردة المسلوقة مع الخل. وتنصح الرسالة المحتجم بالامتناع عن كثرة الحركة والغضب ومجامعة النساء يوم احتجامه.

أما الفصد، وهو إخراج الدم من العروق، فيخلص الجسم من الدم الفاسد، أو الوسخ، ويفيد في معالجة أمراض العينين والرأس والوجه والأضراس.

ومن شروط الفصد، أن يقطر على العروق شيء من الدهن، ثم تكميد موضع الفصد بالماء الحار ليظهر الدم، وخاصة في الشتاء. وينصح المفتصد باجتناب النساء قبل اثنتي عشرة ساعة[137].

كان الفصادون يمارسون مهنتهم في الشارع، ينتظرون زبائنهم، ومنهم من يفصد أصحاب الدكاكين فيعالجهم[138]، بينما تقصد النساء زبائنهن في البيوت، وربما تعاطت الفصد القابلات[139].

---

(137) المكان نفسه، والاخدعان: عرقان خلف العنق، والترياق الأكبر دواء، السكنجبين نوع من البصل البري.

(138) معجم الأدباء، ج 3، ص 143، أخبار الحمقى والمغفلين، ص 147.

(139) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 94، أخبار الحمقى، ص 154.

وصف الجاحظ الحجامين بالاستهتار بالنبيذ[140] وكان منهم من يهتم بالثقافة ورواية الشعر. وعرفت عن الحجامين مواقف تتسم بالعزة والأنفة والانتصار لمهنتهم. فقد اجتمعوا مرة وقرروا مقاطعة زبائنهم؛ وانتصر أحد الحذائين لمهنته على حجام فقال له: أنت تمشط وتسرح، وأنا أحذو، وأنت تشق بمبضع، وأنا أشق بمخصف، فما فضلك عليّ؟ وتحدث أحد عمال الوزير ابن الفرات عن حجام كريم النفس آواه ورفض المكافأة[141].

أدرك المجتمع العباسي محاسن الحجامين والمزينين فيما بعد؛ فنقل عن ابن طباطبا وصفاً لمهارة الحجام داود بن بنكلة، وتحدث عن لطفه ورفقه. وتحدث محمد بن مسافر عن مزين حاذق، وكأنه أحدث له وجهاً سوى وجهه. وتحدث أبو ذر البلخي عن ثواب الحجام الذي يجرح زبونه ليأخذ الفاسد من دمه[142]؛ فيما يتحدث شاعر عن بخل المحجوم. ووصف السري الرفاء مزيناً حاذقاً، فكانت راحته تمر على الرأس مرّ النسيم، ويخبرنا أنه ينعم بخدمته، والزبائن منذ نشأته في نعيم مقيم[143].

وكثيراً ما تعرض الحجامون لمضايقات المحجومين، فيضجر الواحد من مهنته، ويهرب من امتحان عسير؛ فهذا أبو علقمة وقد دعا بحجام، وطلب منه تنقية محاجمه، وشد قضب الملازم، وإرهاف المشارط، وإسراع وضع المحاجم وتعجيل نزعها، وطلب إليه أن يكون شرطه وخزاً، ومصه نهزاً، وألا يكرهنّ آبياً، ولا يردنّ آتياً[144].

حرفيون مختلفون:

انتشر في بغداد أصحاب حرف أخرى. منهم الخواصون الذين يقطون الخوص ويسفونه، ويصنعون منهم القفاف والصحاف. وكان في بغداد العطارون والصيادلة الذين يعالجون مختلف أنواع الأعشاب[145]. وشاركت النساء في أعمال الطيب والتجميل، واشتهرت منهن جمرة العطارة[146]. وكان لباعة الحناء والخضاب سوق

(140) الحيوان، ج 2، ص 15.

(141) أنظر، محاضرات الأدباء، ج 1، ص 460، 462، الصابي، الوزراء، ص 128.

(142) معجم الأدباء، ص 461، 462.

(143) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج 4، ص 369، ج 2، ص 184. أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، المكان نفسه.

(144) أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ج 2، ص 284.

(145) تاريخ بغداد، ج 7، ص 74، أيضاً، ج 6، ص 9، 171.

(146) الطبري، ج 8، ص 104.

خاص يجري فيه الخضاب[147].

وكان الصاغة يعالجون المعادن والأحجار في دكاكينهم المجهزة بالكير في سوق خاصة، ويتحدث الخطيب البغدادي عن محل كبير يضم عدة عمال لصناعة الإبر[148].

وكان في بغداد العديد من عمّال قطاع البناء، منهم الأجري الذي يقيم أتوناً يطبخ فيه الآجر، وكان الآجريون ينزلون في درب بنهر طابق عرف باسمهم[149]. وكان الدلالون يدورون في الشوارع ينادون على سلعهم، وشاهد أبو العيناء يوماً منادياً في «الوراقين» ينادي على مصحف ويذكر شمائله، وكان السماسرة يقومون كوسطاء في العمليات التجارية، وكثر الحمالون الذين ينقلون أغراض الناس[150].

وانتشر في شوارع بغداد أصحاب مهن طفيلية فكان معبر الأحلام يجلس على قارعة الطريق ينتظر زبائنه[151]. وكان منهم القرادون الذين يصحبون معهم قروداً مدرّبة. وذكر التنوخي رواية عن قرّاد يجتمع إليه الناس، وقد درّب قرده على تمثيلية معينة، فيقول له القراد: تشتهي أن تكون بزازاً أو عطاراً؟ ويعدد له الصنائع ،القرد يومي برأسه أن نعم، حتى قال له في آخرها: تشتهي أن تكون وزيراً؟ فيومي برأسه أن لا، ويصيح ويعدو من بين يدي القراد[152].

وكان رجل يتكلم على الطريق في بغداد، ويقص على الناس بأخبار ونوادر ومضاحك، ولا يستطيع من يراه أو يسمع كلامه إلا أن يضحك، وكان بذلك يتقرب من الناس، يلتمس برهم ويتعيّش بما يناله منه[153].

وعرفت بغداد النواحين، الذين ينوحون على الموتى. وكان من النواحين من ينوح على الحسين بن علي. ومنهم ابن أصدق، وهو نواح مشهور وخلب النائحة العلوية التي تنوح في بيوت الرؤساء وذوي الجاه. وكانت في بغداد نائحة مشهورة بيعت بثلاثين ألف درهم عزية[154].

---

(147) الخطيب، ج 9، ص 417.

(148) المصدر نفسه، ج 9، ص 462، ج 11، ص 192.

(149) المصدر نفسه، ج 6، ص 127، وج 1، ص 40، أيضاً، نشوار، ج 6، ص 69.

(150) الخطيب، ج 7، ص 8، 11، ج 9، ص 189، أيضاً، أخبار الحمقى، ص 146.

(151) الخطيب البغدادي، ج 9، ص 462.

(152) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 345.

(153) مروج الذهب، ج 2، ص 509 ـ 510.

(154) نشوار المحاضرة، ج2، ص 230، 233، أيضاً، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص 83.

7 ـ المهن الثقافية

المعلمون:

انتشر التعليم في بغداد، وأقبل الأعاجم على تعلم اللغة العربية كي يحظوا بالتقدير الكافي في إدارات الدولة. وزاد في إقبال الناس على التعلّم تكريم الخلفاء للعلماء، فوافى الكثير منهم العاصمة لكي يكونوا على مقربة من القصر. ويذكر أن المأمون أحاط نفسه بالفقهاء، واختير له منهم مائة لمجالسته، كما اختير له جماعة من أهل الأدب[1].

وجيء بالمحدثين إلى دار الخلافة، فاشتد الطلب على الحديث، وأعطيت أرقام كبرى حول عدد طالبيه. فقد بلغ عددهم في مجلس سليمان بن حرب أربعين ألف رجل بينهم المأمون وقواده. وبلغ عدد طلاب الحديث في جامع الرصافة أكثر من مائة ألف شخص، وكان المحدث عاصم بن علي (ت 221هـ) يجلس على سطح المسقطات، ويجلس الناس في رحبة النخل التي في الجامع، فيما كان أحد المستملين يركب نخلة معوجة ويستملي عليها. وبلغ عدد طلاب الحديث لدى أبي مسلم الكجي (ت 290هـ)[2]أربعين ألفاً. وكان إبراهيم بن محمد نفطويه (ت 323هـ) يجلس إلى أسطوانة بجامع المنصور مدة خمسين سنة، لم يغير محله منها، وكان إلى ذلك يبدأ في الصباح الباكر في مسجد الأنباريين ببغداد، فيقرأ على سامعيه[3]؛ وكان للجنيد حلقة ببغداد في جامع المنصور[4].

كان جامع المنصور أقدم مراكز التعليم في بغداد، وتأكدت أهميته طوال العهد العباسي، وتمنى الخطيب البغدادي أن يملي الحديث فيه، وسأل ذلك ربه يوم حجه، وقد تحققت أمنيته بعد أن وافق الخليفة القائم بأمر الله (ت 467هـ)، فأمر نقيب النقباء بأن يؤذن لأبي بكر في أن يعقد حلقات الحديث في الجامع[5].

وأقبل العديد من العامة على طلب الحديث، ويبدو أن مهنة المحدث لم تكن تدرّ على صاحبها الرزق الكافي، حتى وصفت بأنها «صنعة المفاليس». فقد كان أحد المحدثين يتقاضى دانقاً واحداً عن الحديث الواحد، وكان بعض طلاب الحديث يشتركون في تأدية

---

(1) أنظر، ابن النديم، الفهرست، ص 87، أيضاً، طيفور، بغداد، ص 30 ـ 31.

(2) الخطيب البغدادي، ج 711 ص 247، 248، 332. ج 9، ص 33، ج 6، ص 222.

(3) ياقوت، معجم البلدان، ج 1، ص 108، ابن النديم، ص 127.

(4) الخطيب البغدادي، ج 6، ص 49.

(5) معجم الأدباء، ج 1، ص 241، 247.

رسم التعليم، فيحضرون الحلقات الجماعية ويؤدون رسماً معيناً[6].

إلا أن المحدثين لم يعتمدوا على دخلهم من هذه المهنة، بل عملوا في مهن أخرى، فكان بعضهم يعمل في اللؤلؤ، ومنهم من يعمل حداداً، ومنهم من امتهن الرقص في الأعراس، ويحدّث في غير أوقات العمل. وكان آخر يعمل شاهداً ويغسل الموتى. وكان جماعة من الدباغين يتلقون الحديث[7]. وكان أبو بكر الصبغي (ت 344هـ) يبيع الصبغ، وكان حانوته مجمع الحفاظ والمحدثين[8]. وقد أثار عدم تفرغ طلاب الحديث حفيظة أحد العلماء الذين يرغبون في الطلاب المتفرغين فقال لطلابه: «إني لأعرف رجلاً تمضي عليه الأيام في وقت طلبه للعمل، لا يكون له عيش إلاّ من ورق الكرنب الذي يلقيه الناس، وإني لأعرف رجلاً باع سراويله غير مرة في شراء كاغد، حتى يسوق الله عليه من حيث يخلفها. . . وأنتم تطلبون العلم، فإذا لم يكن لدى أحدكم شغل، يمضي ليسمع العلم»[9].

ووقف بعض الفقهاء موقفاً سلبياً من أجر التعليم، كالحنفية جميعهم، وأحمد بن حنبل، وسفيان الثوري، وقالوا: بأنه لا يجوز للمعلم أن يأخذ أجراً عن تعليمه القرآن والحديث. واتهم ابن سعدان بأنه حامل درّة، ومعلم صبية، وآخذ على كتاب الله أجرة[10].

شق الخلفاء والأمراء طريق التعليم الدنيوي باستقبالهم المعلمين في قصورهم. فاستقدم المنصور الشرقي بن القطامي، وأوكل إليه مهمة تأديب المهدي، واستدعى المفضّل الضبي وعفا عنه وضمّه إلى المهدي، وقام المفضل بجمع مجموعة الشعر المعروفة بـ«المفضليات». وكان الكسائي مؤدب الرشيد، ثم استدعاه لتأديب ولديه الأمين والمأمون. واتخذ الخلفاء ذلك تقليداً، فاستدعوا العلماء إلى قصورهم ليؤدبوا الأمراء. وكان إسحق بن إبراهيم بن عبد الله يعلّم المقتدر وأولاده، وكان أبو عبد الله اليزيدي (ت 310هـ) قد استدعي في آخر عمره لتعليم ولد المقتدر[11].

---

(6) الخطيب البغدادي، ج 12، ص 324، أيضاً ج9، ص 76، 436.

(7) المصدر نفسه، ج 9، ص 218، 369، ج 6، ص 127، 202، 73.

(8) السبكي، طبقات الشافعية، ج 2، ص 168.

(9) معجم الأدباء، ج 2، ص 370.

(10) آدم متز، ج 1، ص 325؛ الشابشتي، الديارات، ص 89.

(11) الخطيب، ج 9، ص 278، ابن النديم، الفهرست، ص 19، 20، 103، 108.

وكان الوزراء والولاة يستدعون المعلمين لتعليم أبنائهم أيضاً. فقد نجح الزَّجَّاج في دخول دار الوزير عبيد الله بن سليمان بواسطة أستاذه المبرد، ثم لم يلبث أن تأثلت حاله بعد أن تولى القاسم بن عبيد الله الوزارة، وحصل على آلاف الدنانير. وكان أبو الهندام معلماً، فدخل بغداد ووصل إلى الوزير القاسم بن عبيد الله ومدحه، فأدخله الوزير في جماعته[12]. وفي القرن الرابع تقلد الآمدي الكتابة لهارون بن محمد الضبي صاحب عُمان في قصر المقتدر. وكان ثعلب اللغوي يدرس ولد محمد بن عبد الله بن طاهر، وجعل له سبع وظائف من الخبز الخشكار، ووظيفة من الخبز السميذ، وسبعة أرطال من اللحم، وعلوفة رأس، وأجرى له في الشهر ألف درهم. وقد تأثلت حال ثعلب، فخلّف واحداً وعشرين ألف درهم وألفي دينار، ودكاكين بباب الشام قيمتها ثلاثة آلاف دينار، وضاع له قبل أبي أحمد الصيرفي ألف دينار كان يتجر بها. واستطاع بعض الأدباء والعلماء الحصول على مخصصات دائمة. فقد أعطي الزَّجَّاج رزقاً في العلماء والفقهاء والندماء، وحصل أبو عثمان المازني على رزق من الدولة[13].

ولم يلق جميع الأدباء والعلماء والمعلمين النجاح، بل كان منهم من أصابه البؤس والتعاسة. فقد كان أبو زيد البلخي معلماً سيء الحظ، وجرّت عليه آراؤه ويلات الحرمان[14]. وكان أبو معشر الفلكي يضاغن الكندي ويغري به العامة ويشنّع عليه بعلوم الفلاسفة[15]. وقوطع أحد اللغويين لأنه كان يبسّط النحو ويعلمه لمن يرغب من العامة، فتركه طلابه لئلا يستمر في ذلك ويعلّم الصبيان النحو[16].

على أن مهنة التعليم لم تلق دائماً وأصحابها الإحترام. فقيل في المعلمين الكثير بما يحقرهم ومهنتهم، وضربت الأمثال برغفانهم المختلفة بحسب اختلاف آباء الصبيان في الغنى والفقر، والجود والبخل[17]. وسيقت الأحاديث التي تندد بهم. واتهموا بضعف العقل والتفيهق والتشدق، وإبداء تصرفات غريبة تعجب الصبيان ولا تنفرهم، ويكون فرحهم بها سبباً للملازمة والحرص على التعلّم والحفظ والرواية والدراسة[18]. ونقل

---

(12) المصدر نفسه، ص 128، الخطيب، ج 6، ص 90 ـ 91.

(13) معجم الأدباء، ج 1، ص 58، ج2، ص 133، 144، 384، ج 3، ص 58.

(14) المصدر نفسه، ج 1، ص 141، ابن النديم، ص 128، 204.

(15) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص 286.

(16) ابن النديم، ص 105.

(17) الثعالبي، ثمار القلوب، ص 243.

(18) أنظر، الخطيب البغدادي، ج12، ص 144. معجم الأدباء، ج 2، ص 280 ـ 281.

البعض صوراً مزرية عن حياة المعلمين، وذكروا أن بعضهم كانوا يدخلون في تشاتم مع صبيانهم[19].

لاحظ الجاحظ أن معلمي الصبيان والأدب والذين تعرضوا لأقاويل الناس، وعوملوا بعدم الإحترام، وراح يدافع عنهم ويبين فضائلهم، ويرد على من اتهمهم بالقصور. قال الجاحظ[20]: «أما للمعلمين الذي سخرهم لنا ووصل حاجتهم إلى ما في أيدينا، وهؤلاء الذين هجوتهم وشكوتهم وفحشت عليهم وألزمت الأكابر ذنب الأصاغر، وحكمت على المجتهدين بتفريط المقصرين، ورثيت لآباء الصبيان عن إبطاء المعلمين عن تحديثهم، ولم ترث للمعلمين عن إبطاء الصبيان عما يراد بهم، من صرف العلوم لمن يحفظونه ويدرسونه. والمعلمون أشقى بالصبيان من رعاة الضأن ورواض المهاري. ولو نظرت إليهم علمت أن النعمة فيهم سابقة، والشكر عليها لازم واجب».

وقسّم الجاحظ المعلمين إلى نوعين: منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة، ومنهم من ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم، المرشحين للخلافة؛ فالكسائي وقطرب لا يعدان في الحمقى، ولا يجوز ذلك على من دونهما؛ ثم طبقة معلمي كتاتيب القرى، فإن لكل حاشية وسفلة فما هم في ذلك إلّا كغيرهم[21].

وبالرغم من أن النوادر التي حيكت حول المعلمين تنسب في معظمها إلى الجاحظ وضعاً أو رواية[22]، فإن الجاحظ يدافع بحرارة عن المعلمين، متخطياً بذلك المواريث التي حملها المجتمع العباسي عن احتقار المعلمين، خالصاً إلى تقدير دورهم في المجتمع الجديد، فنراه يكرس حق الطبقات الدنيا في التعليم. قال الجاحظ: «لو استقصيت عدد النحويين والعروضيين والفرائضيين والحسّاب والخطاطين والقضاة والحكماء والولاة، لما وجدت أكثرهم. إلّا من المعلمين» ثم نراه ينتقل إلى تصنيف المعلمين، وهو تصنيف تقليدي يبدو واضحاً أن الجاحظ لا يأخذ به، فيقرر أن المعلمين معلمي الكتاب والحساب والفرائض والقرآن والنحو والعروض والأشعار والآثار والأخبار، ثم نراه يعدد التعليم التقليدي الذي كان منصرفاً في اتجاهين: تعليم الأوائل الذي يضم التعليم

---

(19) أنظر، نشوار المحاضرة، ج 3، ص 148.

(20) رسالة في المعلمين، تحقيق حاتم صالح الضامن، مجلة المورد، م 7، ع 4، (بغداد، 1978)، ص 149، 153.

(21) البيان والتبيين، ج1، ص 270، وواضح هنا أن الجاحظ يخرج معلمي الكتاتيب من أصناف المعلمين.

(22) أنظر أخبار الحمقى والمغفلين، ص 140 ـ 143، خاص الخاص، ص 65 ـ 66.

المدرسي، والتدريب على ألوان الفروسية واللعب بالرماح، وتعليم أبناء الرعية الفلاحة والتجارة وسائر أصناف المهن[23]. وهذا التقسيم لم يقبل به الجاحظ لأنه لم يعد ملائماً.

ومن المؤكد أن دخول عدد من الأعلام في سلك التعليم أكسبه المزيد من الاحترام، فقد ذكر أن ابن السكيت كان يساعد والده في تأديب الصبيان في درب القنطرة ببغداد، وكان الوشاء نحوياً معلماً في مكتب العامة[24].

لم يكن التدريس مهنة تدر المال على صاحبها، وكان معلمو الكتاب على قناعة شديدة، بحيث يعيش معظمهم على الكفاف. وكان فقرهم يبدو على ملابسهم وهيئتهم الخارجية مما يذهب بهيبتهم ويفسد علاقاتهم مع تلامذتهم[25].

إلا أن بعض المعلمين كان يتقاضى أجوراً عالية من طلاب الدروس الخصوصية، فقد تقاضى الكسائي 70 ديناراً أجرة تدريسه كتاب سيبويه، ورفض المازني عرضاً من أحد اليهود بأن يعلمه كتاب سيبويه مقابل مائة دينار[26]. وكان الكسائي قد دفع خمسين ديناراً للأخفش أجراً لقراءته كتاب سيبويه عليه، دون أن يطلب الأخفش شيئاً، وإنما فعل ذلك الكسائي من باب الاعتراف بالجميل. وكان أبو بكر العسكري لا يشرح كتاب سيبويه إلّا لمن يدفع له مائة دينار[27].

وكان المؤدبون يلجأون إلى ضرب تلامذتهم، فذكر أن مربي المأمون ضربه سبع درر[28]، وروى أسحق الموصلي أن أباه ابراهيم أسلم إلى الكتّاب فكان لا يتعلم شيئاً ولا يزال يضرب ويحبس ولا ينجع ذلك فيه حتى فرّ إلى الموصل، حيث تعلّم الغناء. وأسلم الشاعر علي بن بجلة إلى الكتاب وضربه فيه مربيه[29]. ولاحظ أبو نواس وضع المدارس وصوّر الكتّاب وصاحبه وما فيه من ضرب التلامذة[30].

---

(23) رسالة في المعلمين، ص 150 ـ 151.

(24) معجم الأدباء، ج 7، ص 300، الفهرست، ص 132.

(25) أنظر، زلهايم، العلم والعلماء في عصور الخلفاء، عربه عطية رزق، (دار الأمانة، بيروت، 1972) ص 23 وما بعدها، أيضاً، نشوار المحاضرة، ج 3، ص 147 ـ 148.

(26) معجم الأدباء، ج 6، ص 85، أيضاً، ج 2، ص 382.

(27) زلهايم، ص 21.

(28) الخطيب البغدادي، ج 10، ص 184.

(29) الأغاني، ج 5، ص 3.

(30) أنظر، احمد امين، ضحى الإسلام، ط 7، (مكتبة النهضة المصرية، 1964)، ج 2، ص 51 ـ 52.

الوراقون والخطاطون:

أدى انتشار التعليم وإقبال الناس على اقتناء الكتب إلى قيام سوق واسعة لها. وذكر اليعقوبي أنه كان في بغداد في القرن الثالث سوق للوراقين كان فيه أكثر من مائة حانوت، وأصبحت هذه السوق مقصداً لرجال الأدب، فكان أبو الفرج الإصفهاني يدخل سوق الوراقين في بغداد، وهي عامرة، والدكاكين مملوءة بالكتب، فيشتري كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته[31].

وانتشر الناسخون، يعملون في خدمة البلاط ورجال الأدب، وأصبحت الوراقة مهنة يعتمد عليها في تحصيل القوت، فكان أحد الوراقين يكتسب من مهنته وينفق بعضاً من دخله، ويساعد الفقراء بما يتبقى لديه. وأملق السّريّ الرفاء فلجأ إلى العمل في الوراقة[32].

ويبدو أن المهنة كانت من المهن المتواضعة، فكان الوراق يعيش بضيق وسوء حال، ووصف وراق مهنته فلم ير أشقى من الوراقين[33]، وذكر أن المستعين قبل الخلافة كان خاملاً يرتزق بالنسخ[34]. واعتبر الجاحظ مهنة الوراقين من مهن الكهولة[35].

كان الوراقون ينسخون بناء لطلب زبائنهم، ومنهم من يقوم بنسخ الكتب الرائجة. فنسخ أحدهم كتاب المغازي وباع الجزء الأول منه بعشرة دنانير أو عشرين ديناراً[36]، وكان الحسن بن شهاب يشتري كاغداً بخمسة دراهم ويبيعه بمائتي درهم، وأقله بمائة وخمسين درهماً، وكسب من الوراقة خمسة وعشرين ألف درهم راضية[37]. وفي النصف الأخير من القرن الرابع كان أحد القضاة يعمل في نسخ الكتب، فكان ينسخ في كل يوم عشر ورقات ويتقاضى عنها عشرة دراهم[38].

ويبدو أن أجور الوراقين ترتبط بأسعار الورق، فإن الورق يقلّ ويرتفع سعره أثناء

---

(31) **البلدان**، ص 245، الخطيب البغدادي، ج 711 ص 399.
(32) أنظر، **الفهرست**، ص 150، 160، الخطيب، ج 9، ص 94، ج 12، ص 9.
(33) الثعالبي، **خاص الخاص**، ص 69، 75.
(34) ابن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، ج 1، ص 142.
(35) **الحيوان**، ج 1، ص 202.
(36) الخطيب البغدادي، ج 10، ص 113، ج 12، ص 142.
(37) ابن أبي يعلى، **طبقات الحنابلة**، (دمشق، 1950)، ج 2، ص 187.
(38) الخطيب، ج 12، ص 37.

الاضطرابات الداخلية[39]؛ ويرتبط السعر أيضاً بنوع الورق. فكان الوراقون يستعملون الأنواع المختلفة من القراطيس، من جلود فلجان، وصكاك، وقرطاس مصر، وورق صيني، وورق تهامي، وجلود أدم، وورق خراساني. وفي القرن الرابع كان يستخدم الكاغد الفرعوني النفيس[40].

وقد أخذ الوراقون منذ القرن الرابع يتفننون في مهنتهم، فاستخدموا الأوراق الجيدة النوع، وتفننوا في استخدام أنواع الحبر، وأقبلوا على اقتناء أدوات الكتابة الثمينة[41].

وقامت إلى جانب الكتابة مهنة التجليد والتذهيب، ويذكر ابن النديم ابن أبي الحريش الذي كان يجلّد في خزانة الحكمة، واشتهر من المذهبين عدة أسماء عرفت بذوقها وفنها في تذهيب المصاحف[42].

واختصت المصاحف بخطوط في العهد العباسي، وظهر خط يعرف بالعراقي، وهو المحقق الذي يسمى وراقياً، ولم يزل يزيد ويحسن حتى انتهى الأمر إلى المأمون، فأخذ أصحابه وكتّابه بتجويد خطوطهم، فتفاخر الناس في ذلك[43].

واشتهر في القرن الرابع بنو مقلة الذين كانوا من أجود الخطاطين، فقد كان مقلة الأب خطاطاً، وأخذ أولاده المهنة عنه، واشتهر منهم الوزير أبو علي (ت 328هـ)، ولم ير مثلهم في الخط طيلة هذا القرن[44].

ويبدو أن أهمية الوراقة تأكدت منذ فجر الحضارة الإسلامية، فوضعت حولها مؤلفات، تبين أنواع الأقلام المناسبة، وغير ذلك، لكي تكون في متناول من يرغبون في تعاطي هذه المهنة:

(39) أنظر، خاص الخاص، ص 9.
(40) ابن النديم، ص 67، الخطيب البغدادي، ج 12، ص 326.
(41) أنظر، معجم الأدباء، ج 6، ص 47 ـ 48.
(42) الفهرست، ص 20.
(43) المصدر نفسه، ص 18.
(44) المصدر نفسه، ص 20.

الاضطرابات الداخلية[39]؛ ويرتبط السعر أيضاً بنوع الورق. فكان الوراقون يستعملون الأنواع المختلفة من القراطيس، من جلود فلجان، وصكاك، وقرطاس مصر، وورق صيني، وورق تهامي، وجلود أدم، وورق خراساني. وفي القرن الرابع كان يستخدم الكاغد الفرعوني النفيس[40].

وقد أخذ الوراقون منذ القرن الرابع يتفننون في مهنتهم، فاستخدموا الأوراق الجيدة النوع، وتفننوا في استخدام أنواع الحبر، وأقبلوا على اقتناء أدوات الكتابة الثمينة[41].

وقامت إلى جانب الكتابة مهنة التجليد والتذهيب، ويذكر ابن النديم ابن أبي الحريش الذي كان يجلّد في خزانة الحكمة، واشتهر من المذهبين عدة أسماء عرفت بذوقها وفنها في تذهيب المصاحف[42].

واختصت المصاحف بخطوط في العهد العباسي، وظهر خط يعرف بالعراقي، وهو المحقق الذي يسمى وراقياً، ولم يزل يزيد ويحسن حتى انتهى الأمر إلى المأمون، فأخذ أصحابه وكتّابه بتجويد خطوطهم، فتفاخر الناس في ذلك[43].

واشتهر في القرن الرابع بنو مقلة الذين كانوا من أجود الخطاطين، فقد كان مقلة الأب خطاطاً، وأخذ أولاده المهنة عنه، واشتهر منهم الوزير أبو علي (ت 328هـ)، ولم ير مثلهم في الخط طيلة هذا القرن[44].

ويبدو أن أهمية الوراقة تأكدت منذ فجر الحضارة الإسلامية، فوضعت حولها مؤلفات، تبين أنواع الأقلام المناسبة، وغير ذلك، لكي تكون في متناول من يرغبون في تعاطي هذه المهنة:

(39) أنظر، خاص الخاص، ص 9.
(40) ابن النديم، ص 67، الخطيب البغدادي، ج 12، ص 326.
(41) أنظر، معجم الأدباء، ج 6، ص 47 ـ 48.
(42) الفهرست، ص 20.
(43) المصدر نفسه، ص 18.
(44) المصدر نفسه، ص 20.

8 ـ التجار

كان للتجار وظيفة اجتماعية مرموقة داخل المجتمع العباسي، وسمحت لهم المؤسسات الاجتماعية بهذه المكانة دون أن يشكلوا مؤسسة خاصة ذات أنظمة وقوانين تحدد تصرفاتهم، ودون أن تقيدهم مجموعة من الحقوق والواجبات. والقيود التي كانت تحد من تصرفات التجار هي فقط، تلك التي فرضها عليهم المحتسب في مجال نشاطهم الاقتصادي، أو تلك التي فرضتها الدولة من صحة أوزان ومقاييس ونقود[1]. ولم يخل سلوك التجار أحياناً من مراعاة التقاليد التجارية والقواعد الأخلاقية للمجتمع. ولذلك شكل التجار طائفة إجتماعية «عائمة» ومفتوحة، يستطيع أي راغب أن يمارس مهنة التجارة أو أن يعتزلها دون قيود، مسترشداً بالفوائد التي يمكنه الحصول عليها[2]، بعكس ما كان متاحاً أمام بعض طوائف المجتمع العليا، كالكتّاب والموظفين، الذين لم يكن ذلك متيسراً لهم، بل كان عليهم ممارسة نوع من التقاليد الخاصة، التي طالما جعلتهم موضع المراقبة، والتي حرمتهم من المشاركة في النشاط التجاري[3].

لكن احترام التجار لم يكن ليرفعهم إلى مستوى طبقة الكتاب والوزراء والقضاة. ولم يخل الأمر من ازدراء التجار الجشعين أو المغفلين. فابن الزيات الوزير، كان في صغره يصرّ على تعلم «صناعة الكتابة» رغم نصائح أبيه، الذي كان واحداً من كبار تجار الكرخ في القرن الثالث[4]. ووبّخ المعتضد وزيره عبيد الله بن سليمان لقيامه في مجلسه لتاجر[5]. وفي القرن الرابع، كان ابن الجصاص، الذي اشتهر بأنه «قارون الأمة» لفرط يساره وكثرة أمواله، كان يوصف في دوائر القصر بأنه أجهل الناس[6]. ويبدو أن هذا الموقف من التجار كان نهائياً لدى الجهات الرسمية في الدولة، مما حمل الجاحظ على وضع رسالته المعروفة «في مدح التجار وذم عمل السلطان»، يدافع فيها عن وظيفة التجار الإجتماعية، وما تضفيه عليهم من مركز إجتماعي أمام أتباع السلطان، الذين اعترف بعضهم «بفضيلة التجار، وتمنوا حالهم وحكموا لهم بسلامة الدين وطيب الطعمة، وعلموا أنهم أورع الناس، وأهناهم عيشاً، وآمنهم سراً...»[7].

---

(1) انظر، الطبري، ج 8، ص 576.
(2) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 256.
(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 368، الطبري، ج 9، ص 160.
(4) الأغاني، ط. الهيئة العامة، ج 23، ص 46.
(5) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 78.
(6) الثعالبي، المضاف والمنسوب، ص 451.
(7) رسائل الجاحظ، دار النهضة الحديثة، ص 142.

ولاحظ رجال الطبقة العاطلة عن العمل، من الخاصة والأغنياء، عيوب التجار، واتهموهم بالغش والخداع والمداهنة، «وأنهم تعاطوا المنكر حتى عرف، وتناكروا المعروف حتى نسي، يتمسكون من الملة بما صلح من البضائع، يسرّ أحدهم حيلة يرزقها لسلعة ينفقها، وغيلة لمسلم يحميه الإسلام، ويعد الذي كان منه حذقاً بالتكسب، وعلماً بالتجارة»[8].

اتجه التجار لترجمة أهميتهم الاقتصادية إلى أهمية إجتماعية، فأقاموا علاقات مع القصر، الذي كان يجد فيهم أعواناً له. فعند وثوب ابراهيم بن المهدي على المأمون في بغداد، لجأ إبراهيم إلى الإستدانة من مياسير التجار. وكان التجار يبتاعون غلة السلطان، ويقدمون أثمانها سلفاً، فيساعدون السلطة على تخطي الأزمات المالية[9]. وقام التاجران اليهوديان فنحاس، وهارون، بالإشراف على جهبذة الدولة وتأمين الأموال مدة 16 سنة، كما وأن الراضي أسف بأن لم يكن في عهده مياسير من التجار يلجأ إليهم في الملمات مثل ابن الجصاص[10]. وكان للمتقي تاجر يراعي أموره ويمده بالأموال اللازمة[11].

كانت الدولة تدعم نشاط التجار، فقدمت لهم المساعدة حيث كان ذلك باستطاعتها. فقد ساعد المعتصم تجار الكرخ بعد حريق الجمل الذي أصاب سوقهم، وأعطاهم خمسة ملايين درهم[12]. وفي سنة 323هـ وقع حريق في الكرخ أصيب به جماعة كبيرة من التجار، فأطلق الراضي ثلاثة آلاف دينار مساعدة لهم، وأعطى الهاشميين أصحاب العقار عشرة آلاف درهم[13]. وكانت دستنبويه أم ولد المعتضد تعطي التجار الأرباح الواسعة[14].

تيسر للتجار، لا سيا المستوردين وباعة الطرائف وتجار الرقيق، إقامة علاقات مع القصر وكبار رجال الحاشية، واستطاعوا أن يجنوا الثروات الطائلة. ويروي ابن الجصاص أسباب الثروة التي حصل عليها، ويعود ذلك إلى علاقته بأبي الجيش بن طولون

---

(8) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج 3، ص 62، أنظر أيضاً حول الموقف من التجار، ابن خلدون، المقدمة، ط. الشعب، ص 339.

(9) الأغاني، ج 23، ص 48، 176، أيضاً، نشوار، ج 1، ، ص 80، وزراء الصابي، ص 376.

(10) الصولي، أخبار الراضي، ص 17.

(11) الخطيب البغدادي، ج 4، ص 231.

(12) الخطيب البغدادي، ج 4، ص 139، نشوار المحاضرة، ج 2 102.

(13) الهمذاني، تكملة الطبري، ج1، ص 92، المنتظم، ج 6، ص 276.

(14) العيون، ج 4، ص 170.

(خمارويه)، إذ استولى على عقد من الجوهر قيمته مئتا ألف دينار بطريقة تنقصها الأمانة[15]. وأقرض بعض التجار الأموال إلى متقلدي الأعمال، وتمكن بعضهم من إقامة علاقات وثيقة مع الخلفاء، حتى كوفيء أحدهم بوظيفة في القضاء[16].

وتوصل التجار إلى بناء مستوى إجتماعي جيد، نتيجة للثروات التي جنوها. فأقاموا في بيوت جميلة، وفيرة الأثاث، وتمكنوا من ترفيه أنفسهم، فأقبلوا على اللذات وتبذير الأموال بدون طائل. فقد كان ابن الدكيني، أحد أبناء التجار ببغداد، يضاهي المقتدر في حياته اليومية، وقيل إنه كان يدفع للمغنيات مائتي دينار يومياً، وعشرة آلاف درهم، ويهب لهن الخلع، كل خلعة بثلاثة آلاف درهم أو أكثر أو أقل، وأنفق في فصاد فصدته عشيقته ثلاثة آلاف دينار، حتى أتى على ثروته. وأنفق أحد البغداديين مال تجارته البالغ 50 ألف درهم على جارية أتلفها في أيام[18].

كان التجار يعيشون عيشة سهلة يحيط بهم غلمان لخدمتهم، ويركبون البرذون الفاره المزين بالفضة، ويرتدون الثياب الحسنة، ويتناولون مختلف أنواع الفاكهة، ويزينون مجالسهم بالرياحين[19].

ولم تكن العمليات التجارية تخلو من الأخطار، وقد لاحظ الجاحظ بعضها، إذ يقول: «فراكب البحر أشد خطراً، ومشتري طعام الأهواز أشد تهوراً، ورافع الشراع يعرض هلكه، والمتعرض للملام والمعرّض نفسه للسباع أقل شفقة... وكيف دار الأمر فإن التاجر قد استقر الذل وتغشى ثوب المذلة»[20].

وكانت الملاحظات التي تتصل بأخلاق التجار تدين سلوكهم دائماً. فقد عبّر الجاحظ بمرارة عن نقمته على سلوك تجار عصره، بالقول: «دعني من قولهم: أصرفه إلى الصيارفة، فإن صناعة الصرف تجمع من الكتّاب والحسّاب المعرفة بأصناف الأموال، ولا تجد بداً من حلّة السلطان. ودعني من قول من يقول: كانت قريش تجاراً... ومن قاس تجار الكرخ وباعته وتجار الأهواز والبصرة على تجار قريش، فقد أخطأ، ولو كانت علتهم كعلة تجار الأبلّة ومحتكري أهل الحيرة لثلمت من أقدارهم في صدور العرب...

---

(15) أنظر، نشوار المحاضرة، ج 2، ص 312 ـ 313.

(16) الفرج بعد الشدة، القاهرة، ج 1، ص 9، وج 2، ص 13، نشوار المحاضرة، ج 2، ص 316، الخطيب البغدادي، ج 4، ص 231، الطبري، ج 9، ص 20.

(17) أنظر، المقامة المضيرية، ص 107، 109.

(18) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 178، 187.

(19) الفرج بعد الشدة، ط. بيروت، ج 2، ص 384، 385.

(20) رسالة في المعلمين، تحقيق حاتم صالح الضامن، ص 157.

ولو كانوا كغيرهم من التجار لما أوجهوهم وقربوهم، ولما أقاموا لهم قرى الملوك، وحبوهم بكرامة الخواص. . .»[21].

وفي تقديرنا أن النعوت التي ألصقها الخاصة بالتجار، كانت محاولة لقطع الطريق على أي دور غير اقتصادي يمكن أن يطمح إليه التجار، وعلى الأخص، حرمانهم من ممارسة أي دور سياسي، بل لدينا من الإشارات ما يدل على أن تأثير التجار على الدولة أخذ يضعف شيئاً فشيئاً. وبرز ذلك على الأخص في العهد البويهي، حيث تراجع دور التجار لصالح الإقطاع العسكري، فتعرضوا لسلسلة من الاضطهادات، كان منها مصادرتهم وتتبع رساميلهم، ومراقبة بيع بعض المنتجات بشدة.

فقد صودر ابن الجصاص في أعقاب انقلاب ابن المعتز على مبلغ اختلف في تقدير قيمته بين ستة أو 10 ملايين من الدنانير، وكان ابن الجصاص محل طمع الوزير ابن الفرات الذي وصفه بأنه بيت مال يمشي على الأرض، وعمل على مصادرته[22]. وتتبع أمير الأمراء توزون (331هـ) التجار وقبض على جماعة منهم وطالبهم بالمال[23]. وفي سنة 381هـ جرى تتبع التجار في مكاسبهم ومتاجرهم وذخائرهم، وكان أحد الحكام يقول: «ليس يجب أن يكون للرجال من الرعية أكثر من عشرة آلاف درهم، لأنها ذخيرة لذي الخاصة وبضاعة لذي التجارة». وجرى تتبع بعض الباعة في سنة 381هـ. وفي سنة 384هـ صودر التجار، وفتحت المخازن، وأخذت أمتعة المجهزين والبحرانيين، فماج الناس وكادت الفتنة تثور[24].

وفي سنة 324 هـ فرض على التجار أن يقدموا الأموال للدولة على سبيل القرض، فاستتروا وضرب ابن جبير الدقاق وأخذ منه مال[25]. ودفعت الفتن المتصلة ببغداد سنة 331هـ تجارها إلى الهرب مع الحاج إلى مصر والشام[26]. وفي حدود سنة 363هـ أخضع الوزير ابن بقية، أحد كتاب عضد الدولة تاجرين لعملية ابتزاز، فقد أعطاهما مبلغ 8 آلاف درهم ليتاجروا له بها، فأعطياه نيفاً وستين ألف درهم[28].

---

(21) المصدر نفسه، ص 156.

(22) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 25، 31، والصابي، الوزراء، ص 245.

(23) الهمذاني، تكملة الطبري، ج 1، ص 134.

(24) أبو شجاع، ذيل مسكويه، ج 3، ص 189، 98، 159.

(25) الصولي، أخبار الراضي، ص 76.

(26) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 135.

(27) الفرج بعد الشدة، ط. بيروت، ج 1، ص 174.

(28) ياقوت، معجم الأدباء، ج 6، ص 264.

كان التجار محل طمع العيارين والشطار، ففي أثناء الصراع بين الأمين والمأمون، تعرضوا لمضايقات عديدة وفرضت عليهم ظروفهم الضيقة وتوقّف تجارتهم، مراسلة طاهر بن الحسين والتنصل مما جرى من مخالفة البغداديين لخلافة المأمون[29]. وتعرض التجار لنقمة الحنابلة الذين طرحوا النيران في محلات الكرخ في سنة 323هـ، فأدى ذلك إلى احتراق 48 صفاً فيها، ثم وقع حريق آخر احترق فيه الحدادون والصيارف والعطارون[30].

وقد تتبع قطاع الطرق التجار، وأخذوا منهم أموالهم[31]، وطمع فيهم اللصوص، فأخذوا يكسبونهم في بيوتهم ومحلاتهم[32]، حتى اضطروا إلى تخبئة أموالهم، وقد بالغوا في الاحتياط على أموالهم، فكان بعضهم ربما أخفاها في «برنية»، أو في البيوت والأماكن المهجورة، أو في أماكن يصعب الوصول إليها داخل بيوتهم[33].

وكان التشنيع على التجار يجري بشكل مستمر، فاتهموا بصلواتهم وخفتها، حتى وصفت الصلاة القصيرة بصلاة التجار. واتهموا بوضع الأحاديث التي تحمي سلوكهم. وكان بعضهم لا يتورع عن ارتكاب التجسس على زملائه ليعرف أسرارهم ومزاحمتهم، ولا يتأخر عن شراء ما في بغداد من سلع بغية احتكارها. وتباهى أحد التجار بأنه سرق مائة وستين مثقالاً ذهباً. وكان ابن الجصاص يتباهى بأن أساس ثروته ما سرقه من بعض جواهر خمارويه الطولوني[34]. وأورد الدمشقي العديد من تدليسات التجار ودعاياتهم الكاذبة، وطرق نشرها، وإعطائهم صورة غير صحيحة عن الأسعار[35] مما كان موضع تندر الناس وبعض الكتاب[36].

وأدرك بعض التجار ما لحقهم ومهنتهم من مهانة، فالتاجر عند الناس ظالم وإن أنصفهم، ومبغض وإن تحبب إليهم، ومكروه الجوار، وإن أحسن جواره[37]، حتى قال

---

(29) الطبري، ج 8، ص 467 ـ 468.

(30) الهمذاني، تكملة، ص92.

(31) أنظر، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 228، 231، 235، 241، 265.

(32) أنظر، المصدر نفسه، ص 256، نشوار، ج 1، ص 342، ج 2، ص 339.

(33) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 342، 344، ج 3، ص 134.

(34) المصدر نفسه، ج 1، ص 80 ـ 81، 84، 136، ج 2، ص 312 ـ 313.

(35) الإشارة إلى محاسن التجارة، ص 95 ـ 99.

(36) أنظر الجاحظ، رسالة في المعلمين، ص 157، أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ج 3، ص 62.

(37) الدمشقي، ص 100.

الجاحظ: «وكيف دار الأمر، فإن التاجر قد استشعر الذل، وتغشى ثوب المذلة»[38].

ولم يكن التجار جميعاً بمستوى ابن الجصاص الذي استطاع بقوة ماله تهديد الوزير علي بن الفرات، بأنه باستطاعته عزل الوزير مقابل أن يدفع للمقتدر مبلغ مليوني دينار، ليتمكن من حماية مصالحه التجارية وممتلكاته[39]، بل كان منهم صغار الباعة، كالبقلي والراهداري (المتجول)، ومنهم من رأسماله دينار أو ديناران، أو ثلاثة. وكانت النساء التاجرات من فئة صغار التجار[40].

أدى النشاط التجاري إلى بروز تجار وسطاء وسماسرة ودلالين. فكان أحد تجار الكرخ يعامل رجلاً من الخراسانية يبيع له في كل سنة متاعاً يقدم به، فينتفع من سمسرته بألوف كثيرة. وتمكن سمسار من أن يجمع في خلال ثلاث سنوات ألوف الدنانير، وتمكن آخر في سنيات من جميع عشرة آلاف دينار[41]. وقد اشتهر سماسرة كازرون بثرواتهم الطائلة[42]. وافتقر أحد كبار التجار وتدهورت أوضاعه، فاضطر إلى أن يعمل دلالاً، وتمكن من أن يكسب في مهنته الجديدة أموالاً طائلة، أعادت له مركزه التجاري[43].

أمام التوتر في علاقات التجار بسائر طوائف المجتمع، قام بعضهم بمساع الغرض منها توفير القناعة في صحة عمله، حتى اقتنع أحدهم بأنه يتاجر بناء لرأي أربعة من الفقهاء. وأفضى الأمر بأحد التجار بعد أزمة ضمير، إلى أن اعتزل المهنة ولزم المسجد[44]. واتجه بعض التجار إلى التصدق ببعض مالهم على أعمال خيرية. ففي القرن الرابع اعتاد أحد التجار أن يحمل في كل سنة إلى الحج مالاً ينفقه عمن احتاج إلى النفقة. وأنفق تاجر آخر في موسم الحج مبلغ 10 آلاف دينار في أعمال الثواب. وأوقف ابن رزق الله، التاجر البغدادي، أكسية في بلاد الروم لتدفئة أسرى المسلمين، وعقد صفقة مع راهب بيزنطي مقابل أن ينفق الأكسية في كل سنة[45]. ويبدو أن المساهمات من هذا النوع كانت كثيرة، إلا أنه لم تلبث أن توقفت في النصف الثاني من القرن الرابع، بعد

---

(38) رسالة في المعلمين، ص 157.

(39) الصابي، الوزراء، ص 128.

(40) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 117، الفرج بعد الشدة، ط. القاهرة، ج 1، ص 110.

(41) المصدر نفسه، ج 2، ص 12، 13، 16.

(42) ياقوت، معجم البلدان، ج 5 ص 479.

(43) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 197.

(44) الخطيب البغدادي، ج 2، ص 30، ج 6، ص 235.

(45) عريب، صلة الطبري، ط. الاستقامة، ص41، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 85، 56.

أصيب التجار بثرواتهم[46].

ويمكن أن نلخص القول في التجـار بأنهم تكونوا من فئتين أساسيتين:

1 ـ فئة كبار التجار ذوي الرساميل الكبرى، وقد قسمهم أبو الفضل الدمشقي إلى ثلاثة أصناف[47]:

أ ـ الخزان الذي يشتري البضائع وقت توفرها والزيادة في المعروض منها، ويحفظها حتى تصبح قليلة بسبب قلتها، أو زيادة الطلب عليها.

ب ـ الركاض، الذي يتعامل مع بلدان مختلفة.

ج ـ المجهز الذي يبقى ثابتاً في مقره وينتدب عنـه من يسافـر إلى البلاد الأخـرى، ويكون له وكلاء مأمونون من ذوي الخبرة.

2 ـ فئة صغار التجار الرهداريين. وهم الباعة من بقالين وسمانين وسـماكين وغـيرهم من باعة السلع الغذائية والمواد المصنعة.

ولقد حظي التجار بتشجيع الـدولة طـوال القرن الثـالث والربـع الأول من القرن الرابع، ولكنهم تعرضوا لنقمة أصحاب السلطان بعد هذه الفترة. ويلاحظ أن تقدير دور التجار الاقتصادي كان أكثر إيجابية في أيام السلم وسيادة الأسرة المالكة، وأن هذا التقدير يصبح سلبياً أيام الفوضى والسيطرة العسكرية للأجانب.

وفي سلَّم الطوائف المهنية، اعتبر التجار في مرتبة أدنى من مرتبة الموظفين والقضاة، ويبقى تقـويمهم العقـلي والخلقي في مـرتبـة دنيـا، فهم غـالبـاً متهمـون في دينهم وعقلهم وسلوكهم.

وفي السلَّم المهنيّ العـام، وضع أبـو يـوسـف، الصيـارفـة، والبـزازين وأصحـاب الضياع والتجار والأطباء في فئة الموسرين، بينما يأتي الخياطون والصباغـون والإسكافيـون والخزازون، ومن شابههم، في فئة واحدة، هي أقل الفئات كسباً[48].

---

(46) نشوار، ج 1، ص275.

(47) الإشارة إلى محاسن التجارة، ص 49 ـ 42، ع.ع. الدوري، ت.ع. الإقتصادي، ص 125 ـ 126.

(48) الخراج، ص 133 ـ 134.

الفصل الحادي عشر

تكتلات الصناع

1 ـ الأسواق

قامت أسواق بغداد في طاقات مدينة المنصور بإزاء كل باب سوق[1]، ثم نقلت إلى منطقة الكرخ. وتقول رواية أبي العيناء: إن نقل الأسواق إلى الكرخ تم بناء على ملاحظة أبداها رسول ملك الروم إلى المنصور، وفيها انتقد وجود الأسواق داخل المدينة، لأنها تختلط الناس، ويمكن أن يدخلها الأعداء والجواسيس[2]. وترد لدى الطبري رواية أخرى تحكي محاولة محتسب المنصور تزعم حركة عصيان ضد الخليفة بالاشتراك مع التجار والمتعاطين مع السوق، مما دفع بالخليفة إلى إخراج الأسواق من مدينته، وسمح بأن يجعل في كل ربع بقال، على أن لا يبيع إلا بالبقل والخلّ[3].

ومهما تكن الأسباب المعلنة لإخراج الأسواق من المدينة المدورة، فإنه لا يمكننا إغفال الأسباب العمرانية التي كان منها: ضيق المدينة بسكانها والتطورات التي لحقت بالقطائع من تعديل وتغيير، وزيادة في عدد سكان الأرباض من غير العسكريين، وبخاصة بعد أن صارت العاصمة مقصداً للسكان وطالبي العمل فيها، وإخراج الأسواق، وتوسيع شوارع المدينة المدورة، التي ذكر أن المنصور أمر بجعل عرض الشارع منها 40 ذراعاً، وهدم الدور التي كانت ضمن هذا المشروع[4].

ولا تخفي بعض المصادر نقمة المنصور على أصحاب السوق، ولا سيما الجزارين

---

(1) ابن الفقيه الهمذاني، بغداد مدينة السلام، ص 37.

(2) ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص 13 ـ 14، أنظر أيضاً الخطيب البغدادي، ج 1، ص 80.

(3) الطبري، ج 7، ص 654 ـ 655.

(4) الخطيب البغدادي، ، تاريخ بغداد، ج 1، ص 79 ـ 80.

الذين وصفهم بالسفه في أيديهم الحديد القاطع. فأمر بجعل سوقهم آخر الأسواق[5]. والثابت أن الأسواق في الأرباض قامت لتلبي حاجة السكان، إذ أمر الخليفة أصحاب الأرباع أن يجعلوا في القطائع ذرعاً معلوماً للتجار يبنون فيه وينزلونه[6].

احتلت السوق الجديدة مناطق الكرخ وباب الشعير وباب المحوّل، وعرفت جميعها باسم الكرخ، وامتدت بين نهر الصراة وقصر عيسى، وأمر المنصور بأن يبنى لأهل الأسواق جامع يجتمعون فيه يوم الجمعة، حتى لا يدخلوا المدينة[7].

وقامت عند باب المحول سوق عظيمة فيها أصناف التجارات. والمحوّل هي المحطة التي كانت تنتهي إليها السفن التجارية القادمة عبر الفرات، حيث يتم تحويلها إلى بغداد بسفن أخرى عبر نهر عيسى، أحد فروع الفرات، الذي ينضم إلى دجلة، فيعاد إصعادها في دجلة إلى بغداد[8].

ويبرز دور النقل التجاري في تحديد مكان الأسواق، إذ كانت منطقة باب الشعير مرفأً للسفن التي توافي بغداد من الموصل والبصرة[9]. وكانت منطقة باب الشعير أقرب نقطة للجانب الشرقي من المدينة، مما جعلها تكتسب أهمية خاصة، إذ كان يقوم عندها أول جسر عقد في بغداد[10]. أما الكرخ، فهي قرية قديمة كبرت وتوسعت بنزول الناس فيها بعد بناء المدينة المدورة، وزاد من أهمية دورها اتخاذ الأسواق في باب المحول وباب الشعير، فقامت فيها سوق للنخاسين، ثم انتشرت الأسواق ممتدة على جانبي الطريق[11]. ويبدو أن السوق توسعت بسرعة، حتى اقترح بضع التجار على المهدي أن يسمح لهم في التوسع بالبناء على نفقتهم، على أن يؤدوا الضرائب عما يبنوه. وأصبحت الكرخ في القرن الثالث تغطي مساحة بطول فرسخين وعرض فرسخ واحد، وامتدت بين قصر وضاح وسوق الثلاثاء[12].

---

(5) المصدر نفسه، ج 1، ص 80، أيضاً ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص 13.
(6) البلدان، ص 242.
(7) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 79، 80.
(8) البلدان، ص 244، أيضاً أحمد سوسة، فيضانات بغداد، ج 1، ص 214.
(9) ابن الفقيه، بغداد، ص 47، معجم البلدان، ج 1، ص 445.
(10) أنظر، فيضانات بغداد، ص 228 ـ 229، ويلاحظ المكان أيضاً على الخريطة ص 217، ابن الفقيه، بغداد، ص 39.
(11) البلدان، ص 245.
(12) ياقوت، معجم البلدان، ج 4، ص 448، اليعقوبي، البلدان، ص 246.

ومن أسواق الكرخ المتخصصة قام عند ربض وضاح سوق غلب عليه الوراقون، وقدر ما به في القرن الثالث بأكثر من مائة حانوت للوراقين[13]. وقامت فيها «سوق البطيخ» أو دار البطيخ لبيع مختلف أنواع الفاكهة، ولا بد أنها كانت كبيرة بحيث أنها كانت تقوم داخل المدينة المدورة قبل تحويل الأسواق في درب الأساكفة ودرب الزيت ودرب العاج[14]. وعند نهر كرخايا كانت منازل التجار، ودعي الفرع باسم نهر الدجاج، لأنه كان يباع عليه الدجاج[15]. وقامت في قطيعة الربيع من الكرخ سوق البزازين وتجارها من خراسان[16]، وفي ظهر قطيعة الربيع قامت منازل التجار وأخلاط الناس من كل بلد، كل درب فيها يعرف بأهله وكل سكة بمن فيها[17].

وبين الكرخ ونهر الصراة قامت سوق عرفت بسويقة أبي الورد، فيها سائر البياعات، كما قامت الكناسة، حيث مرابط دواب العامة وتجار الدواب[18]. وبإزاء باب البصرة عند القنطرة الجديدة قامت سوق كبيرة فيها سائر التجارات المتصلة[19]، وعند باب الشام قامت أسواق عرفت بسوق باب الشام، ضمت جميع التجارات والبياعات ممتدة ذات اليمين وذات الشمال، آهلة عامرة بالدروب الطوال، كل درب ينسب إلى أهل بلد من البلدان. وكان ربض الحربية، أكبر أرباض بغداد، كثير الدروب والأسواق، وأهله من مختلف المقاطعات الشرقية. وفي الشارع الأعظم الممتد من باب الشام إلى الجسر الذي على دجلة، قامت سوق عامرة ذات اليمين وذات الشمال، وبالقرب من هذا الشارع قام ربض الرقيق الذي كان فيه رقيق أبي جعفر[20]. وقامت سوق عامرة في ربض الهيثم بالقرب من بستان القس، كانت متصلة بسويقة نصر في ربض حميد بن قحطبة[21].

وعرفت بغداد العديد من الأسواق المنسوبة إلى المهن والتجارات، منها درب

---

(13) البلدان، ص 245.

(14) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 80، الثعالبي، ثمار القلوب، ص 411. ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص 14.

(15) البلدان، ص 246، ياقوت، معجم البلدان، ج 5، ص320.

(16) البلدان، ص 245.

(17) المصدر نفسه، ص 246، 252.

(18) المصدر نفسه، ص 244.

(19) المصدر نفسه، ص 245.

(20) المصدر نفسه، ص 248.

(21) ابن الفقيه، بغداد، ص 49، معجم البدان، ج 3، ص 25، 288.

الزعفران الذي ينزله أهل البز والعطر، ومحلة سور الحلاويين[22].

وكان ازدهار الأسواق في بغداد الغربية حافزاً للكثيرين من أصحاب القطائع لأن يحولوا قطائعهم إلى أسواق ومستغلات، والإنتقال إلى الجانب الشرقي ليحصلوا على قطائع جديدة من المهدي الذي كان كريماً عليهم. وقسمت القطائع في هذا الجانب كما قسمت في الجانب الغربي[23]، وأخذت الرصافة في الإزدهار.

قامت في القطائع منازل الجند وسائر الناس من التُناء والتجار في كل محلة وفي كل ربض. وانتشرت الأسواق، واشتهر من هذه الأسواق، سوق العطش العظمى الواسعة التي بناها المهدي وحمل إليها كل ضرب من التجار لينافس الكرخ وسماه سوق الري، فغلب عليه سوق العطش[24]. وقامت سوق «خضير» التي اختصت بالتجار الصينيين الذين يبيعون فيها طرائفهم، ثم قامت سوق يحيى بن الوليد التي عرفت باسم سوق يحيى وفيها دكاكين عالية ضمت الدقاقين والخبازين والحلاويين[25].

وقد توسعت المدينة في القرن الثالث، حتى قدر اليعقوبي أن في الجانب الشرقي أربعة آلاف درب وسكة، وخمسة عشر ألف مسجد سوى ما زاده الناس[26]، ومع إغراق هذه الأرقام في المبالغة، فإنها تعبر عن تطور مهم ناله الجانب الشرقي. وقد أعطى ابن الجوزي وصفاً لبغداد في القرن الرابع، فذكر محلة باب الطاق، وهي واحدة من عشرة محالّ، كل محلة كبلد من بلاد الشام، وفي الجانب الغربي من هذه السوق كانت تقوم الدكاكين العالية والدروب العامرة، من دقاقين وخبازين وحلاويين. وفي نهاية الدور الشاطئية قامت دار معز الدولة ذات المسناة، حيث قامت سوق رحبة الجسر التي تضم، «سوق الأساكنة» و«سوق الطير» الذي يجمع الرياحين. وفي حواشي سوق باب الطاق قامت أسواق الصيارف وأصحاب الطيالس وسوق المأكول من خبازين وقصابين، وسوق الصاغة ذات البناء الحسن. وكان للجانب الشرقي سوق كبيرة للوراقين يجلس فيها العلماء والشعراء. وكان فيه سوق الرصافة التي وصفت بأنها عظيمة جامعة[27]. وكانت سوق الثلاثاء تتصل بشارع الميدان من الرصافة، وهي سوق قديمة كانت تقام فيها سوق

---

(22) ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص 28.

(23) البلدان، ص 251).

(24) المصدر نفسه، ص 252، 253، الخطيب البغدادي، ج 1، ص 93.

(25) البلدان، ص 252، 254.

(26) البلدان، ص 254.

(27) مناقب بغداد، ص 25 ـ 26.

أسبوعية قبل بناء بغداد، ويحضرها أهل كلواذى وأهل بغداد، وأصبحت هذه السوق في القرن الرابع مركزاً هاماً لتجارة البزّ[28].

وعرفت في بغداد في القرن الرابع «سوق الأحد» ولعلها سوق أسبوعية، ورد ذكرها في أحداث سنة 312هـ، أما «سوق الشتاء»، فمن المرجح أنها خاصة بالبضائع والملبوسات الشتوية[29].

ومن الأسواق المتخصصة يذكر الخطيب البغدادي: محلات القطانين، والحطابين، وسوق الخزازين، والبزازين، وأصحاب الصابون، وجميعها في الجانب الغربي[30]. وقامت في هذا الجانب أيضاً «سوق العروس» التي وصفت بأنها مجمع الطرائف، وربما سميت بهذا الاسم لاحتفال الناس بتجهيز العرائس بالطرائف والنفائس[31]. وكان في هذا الجانب طاق اللعب، وسوق خاصة ببيع الشراب، عرفت بسوق الداذي، حيث كانت تباع فيها الخمور بشكل سري[32]. ومن أسواق هذا الجانب المتخصصة سوق النحاسين التي عرفت بصينية الكرخ، وسوق الرفائين وسوق الحلائين[33]، ومنها: أسواق العطارين والصيادلة وأصحاب المدهون بالكرخ، وكان في هذا الجانب سوق للخشب في باب الشعير، وآخر للحصر والبواري[34].

ومن أسواق الجانب الشرقي المتخصصة «سوق الداية» الذي كان موقعه وراء بستان الزاهر، ومحلتي سوق السلاح والمخرم. ولعله كان يختص بما يحتاجه الأطفال الحديثي الولادة من سلع وملبوسات[35]. وكان في هذا الجانب سوق للمأكول ضم باعة خبز الأرز (الخبزأرزيين)، والقصابين، وكان فيه أيضاً سوق السلاح، ومحلة لبيع السيوف في باب الطاق[36].

---

(28) ابن الفقيه الهمذاني، بغداد، ص 56، 58، معجم البلدان، ج 3، ص 283.

(29) عريب، ط. المعلوف، صلة الطبري، ص 85، ص 75.

(30) تاريخ بغداد، ج 1، ص 116.

(31) الثعالبي، ثمار القلوب، ص 318، 319، أيضاً حكاية أبي القاسم، ص 23.

(32) معالم القربة، ص 36.

(33) حكاية أبي القاسم، ص 22.

(34) الصولي، أخبار الراضي، ص 68، ابن الجوزي، المنتظم، ج 7، ص 75.

(35) مناقب بغداد، ص 27، والداية هي المرضع والمربية، أنظر، الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 317.

(36) مناقب بغداد، ص 26، عريب، ط. المعارف، ص 137.

2 ـ تنظيم الصناع

وجهت عناية خاصة إلى الأسواق في بغداد، بمن فيها من تجار وباعة وصناع، فوجدت أسواق رئيسية وأخرى فرعية، حتى كان لكل ناحية ومحلة سوقها. وكان لكل أنواع التجارات والبياعات شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع، لا يختلط فيها قوم بقوم، ولا تجارة بتجارة، ولا يباع صنف مع غيره، وكل سوق مفردة، وكل أصحاب أهل صنف منفرودن بتجاراتهم[37].

وكان من دوافع تقسيم الأسواق حسب تخصصها، مراعاة عدم اختلاط أصحاب الزهائم والروائح الكريهة بالعطارين، وأرباب الأسقاط بأصحاب الأنماط[38].

ومن أسباب تجميع الأسواق أيضاً ضرورة توافر المواد الأولية، حيث كان يجتمع في السوق صنّاع السلعة وباعتها. أو لما كان في وقوع الكثير من أسوق بغداد عند نقاط المواصلات، حيث تقف المراكب المنحدرة إلى المدينة عبر الأنهار[39] ومن ذلك، بناء الجسر عند باب الشعير حيث قامت بعض أسواق المدينة، فجاء بناؤه في هذا الموضع يلبي حاجة السوق الداخلية والخارجية، فقد سهل ذلك انتقال سكان بغداد إلى السوق للتبضع، كما أمّن وصول البضائع المستوردة والخامات إلى الأسواق، إذ كان يقوم عند باب الشعير مرسى ترسو فيه المراكب القادمة إلى بغداد[40]. وكانت بعض الأسواق تنتشر على الأنهار والقنوات، كسوق العلافين وسوق الدواب في الجانب الشرقي من المدينة، وقامت في الجانب الغربي أسواق البزازين والجزارين وأصحاب الصابون وأصحاب القصب وأصحاب الطعام[41]. ويذكر الخطيب البغدادي محطة القطانين حيث يفرغ القطن القادم إلى بغداد في مشرعة القطانين، عند محلة القطانين، التي أقيم عليها جسر سنة 383هـ، كما يذكر محطة «الحطابين» التي عقد عندها جسر سنة 448هـ[42].

ومن دوافع تجمع الأسواق، تكتل أصحاب الحرفة الواحدة من أجل حماية وتنظيم

---

(37) اليعقوبي، البلدان، ص 241، 242، 245، 267، ابن الفقيه، بغداد، ص 38.

(38) ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص 28.

(39) البلاذري، فتوح البلدان، ص 447، أنظر أيضاً، ع.ع. الدوري، نشوء الأصناف والحرف، مجلة كلية الآداب، عدد 1 (بغدادا، 1959)، ص 137 ـ 138.

(40) الطبري، ج 8، ص 52، ابن الفقيه، بغداد، ص 38 ـ 39.

(41) أنظر، سهراب، ص 129، 130، 133.

(42) تاريخ بغداد، ج 1، ص 116.

شؤون حرفهم، والشعور بروح الجماعة[42]. ولاحظ الجاحظ «تعاطف أهل الصناعات على نظائرهم، وتعصب رجالها على غيرهم، وهم إنما يجرون في ذلك إلى غاية محمودة»، وقال الجاحظ: «إنه ليبلغني أن رجلاً من القصابين يكون في سوقه، فيتلف ما في يديه، فيخلي له القصّابون سوقهم يوماً، ويجعلون له أرباحهم، فيكون بربحها منفرداً وبالبيع مفرداً، فيسدون بذلك خلته، ويجبرون من كسره»[43]. ويذكر التنوخي شيئاً من هذا القبيل حدث في القرن الرابع، فقد عجز أحد التجار عن الوفاء بالتزاماته، فكفله أحد تجار الكرخ وساعده على النهوض بتجارته، وأمهل تجار بغداديون زميلاً لهم بدفع ديونه مدة عشر سنوات[44].

وكان للتنافس بين أصحاب الحرفة الواحدة أثر في تجمعهم في سوق واحدة[45]، ليتمكنوا من مراقبة بعضهم بعضاً، والتعرف على الأسعار التي بها تشترى السلعة وتباع. ومن مظاهر المنافسة ما ذكره أبو حيان التوحيدي من تنافس الهراسين ببغداد، وتكايدهم، والمناداة على فضائل هريستهم[46]. وذكر التنوخي أنه رأى غلام هراس يحمل بيده غضارة هريسة ينادي عليها ويتقدم من الناس ويشجعهم على الشراء قائلاً: «جمع اللوز والغنم» ثم يحلف ويتقدم بها من أنف الزبون ليجعله يشمها[47].

وكان المحتسب ينصح الصناع بالتجمع في سوق واحدة تعرف بصناعتهم، فإن ذلك لقاصدهم أرفق، ولصنائعهم أنفق[48]. على أن تجمع الأسواق لم يكن يخلو من أضرار، منها إثارة المشاكل الحادة بين أصحاب الحرف، كالذي جرى بين الأساكفة وأصحاب الطعام في الموصل سنة 307هـ. ومنها، الإقتتال الذي جرى داخل أسواق بغداد سنة 308هـ، والذي أدى إلى إحراقها[49].

وكان على أصحاب السوق حمايتها، فأقيمت الظلال فوقها. وفي سنة 297هـ أمر الناس بالطواف بأسواقهم لحمايتها من مفتعلي الحرائق، وطلب إليهم ألّا يظهروا سراجاً

---

(43) رسائل، ج 2، ص 199 ـ 201.

(44) الفرج بعد الشدة، ط. بيروت، ج 1، ص 95، نشوار المحاضرة، ج 3، ص 50.

(45) الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 173.

(46) البصائر والذخائر، ج 1، ص 128.

(47) نشوار، ج 1، ص 100.

(48) الشيزري، ص 11 ـ 12، ابن بسام، ص 17.

(49) ابن الأثير، ط. صادر، ج 8، ص 121، ط. القاهرة، ج 6، ص 165، العيون والحدائق، ج 4، ص 209.

ولا ناراً[50]. وفي القرن الرابع فرضت حراسة مشددة على الأسواق[51]. ونظراً لتعدد الحرائق داخل الأسواق، فرض على أصحاب الدكاكين سنة 297هـ أن يضعوا أمام كل دكان جب ماء أو خابية أو جرار، تكون عدة متى وقعت النار في موضع ما، وأخذ السقاءون يبيتون في مركز شرطة الجسر[52].

إلا أن الأسواق كانت عرضة للحرائق بصورة مستمرة. فقد وقع حريق بالكرخ سنة 307هـ التهم الكثير من الدور والناس، وفي سنة 323هـ وقع حريق عظيم بالكرخ أحرق أسواق العطارين والصيادلة وأصحاب المدهون والخزازين والجوهريين، وكان قبل ذلك بقليل قد وقع حريق أقل خطراً في أسواق أصحاب الحناء والأشنان، ولم يُعَدْ إصلاحه، ثم عاد الحريق إلى الكرخ (سنة 332هـ)، وكان عظيماً، فأحرق الأسواق من حد طاق التكك إلى السماكين، وعطف على أصحاب الكاغد وأصحاب النعال، وذهبت النيران بأمتعة بالبزازين وأموال خطيرة، ونهب الخرابون والعيارون ما سلم من الحريق[53].

ولم تنج الأسواق من حرائق مفتعلة، فقد اتهم ابن عائشة وأصحابه الذين عارضوا المأمون في بغداد، بإحراق سوق العطارين والصرافين والفرائين وأصحاب الراه (البيوع الصغيرة)[54]. وفي سنة 326هـ، وعلى أثر جدال بين بقال وبعض جند ابن رائق، أمر هذا أصحابه فأحرقوا حوانيت كثيرة في سوق الثلاثاء إلى ناحية المخرم من الجانب الشرقي[55]. وفي سنة 362هـ قتل أحد رجال صاحب المعونة بالكرخ، مما دفع بالوزير إلى تجريد حملة تأديبية ضد أهل السوق، وطرح النار من النحاسين إلى السماكين، فاحترقت بذلك أموال عظيمة، وتلف جماعة من الناس في الدور والحمامات. وفي سنة 364هـ أوقع العيارون حريقاً في سوق الخشابين من باب الشعير، وامتد إلى الجزارين وأصحاب الحصر وصف البواري[56].

أمام هذه التهديدات المستمرة، وجد أهل الأسواق أن عليهم تأمين حراسة

---

(50) الطبري، ج 9، ص 291، **العيون والحدائق**، ج 4، ص 149.

(51) **التعبير في الرؤيا**، ص 77 ب.

(52) **العيون**، ج 4، ص 149.

(53) ابن الأثير، ج 8، ص 121 الصولي، **أخبار الراضي**، ص 68، 261 ـ 262.

(54) طيفور، **بغداد**، ص 98.

(55) الصولي، **أخبار الراضي**، ص 104.

(56) **المنتظم**، ج 7، ص 60، 75.

محلاتهم، كما كانت هذه الحرائق التي جاءت في أوقات ضعف السلطة، سبباً لأن يفرض العيارون أنفسهم حراساً على الأسواق، ويتناولوا أجوراً عن ذلك[57].

وكان من آثار تكتل الصناع والحرفيين والتجار، أن قامت أماكن سكنية متجانسة. ويذكر الطبري أن المنصور طلب إلى عماله بناء الكرخ وأن يجعلوها صفوفاً وبيوتاً لكل صنف[58]. ولم تلبث الأسواق أن ضاقت بأصحابها، فتوسعوا وبنوا بباب الشعير وقطيعة الربيع التي غصبها التجار وبنوا فيها[59]. وأقام التجار الأغنياء في محلة باب المراتب، ونزل التُسْتريون صنّاع الثياب التسترية، المحلة التي عرفت باسمهم والتي كانوا يصنعون بها تلك الثياب[60].

وعلى نهر عيسى، أقام الزياتون وباعة الأشنان وباعة الرمان[61]، وأقام الصرافون بدرب عون[62]، وتحدث الهمذاني عن محلة ينزلها وجوه التجار[63].

وكان من نتيجة هذا التكتل في محلات وشوارع خاصة، أن قامت تنظيمات خاصة بالمحلات، فكان لكل درب رئيس، ولكل محلة شيخ، يتميز بكثرة تجاربه ويشرف على مراعاة شؤون أهل محلته[64].

وكان للأصناف شيوخ، فللنخاسين شيخ، وللملاحين شيخ، وللبزازين شيخ[65] وكان الشيوخ يستشارون في صناعاتهم، كما كان لهم الحكم على أبناء صناعتهم، وكلمتهم مسموعة بينهم[66].

وأطلق على شيخ الصنف لقب «رئيس». فقد أحسن علي بن الفرات إلى خياط وجعله رئيساً على الخياطين في داره. وكان للفراشين رئيس، وللخدامين رئيس،

---

(57) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 99، المنتظم، ج 7، ص 75.

(58) تاريخ، ج 7، ص 653.

(59) ابن الفقيه الهمداني، بغداد، ص 38.

(60) ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ص 146، 262.

(61) الخطيب، ج 1 ص 111.

(62) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 133.

(63) مقامات، 107.

(64) اليعقوبي، البلدان، ص 48، الحيوان، ج 3، ص 20، أيضاً، الإمتاع، ج 2، ص 26.

(65) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 70، الحيوان، ج 2، ص 126، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص 108، المنتظم، ج 8، ص 172.

(66) الطبري، ج 7، ص 654، مروج الذهب، ج 2، ص 507.

وللصوص رئيس[67]. واكتسب رؤساء الصناع أهمية خاصة باعتبارهم ذوي خبرات عالية، وكان أعضاء الصنف يحلفون بحياة شيخهم أو رئيسهم[68]. وتحدث إخوان الصفاء عن أهمية الرئيس الاجتماعية في صنفه من ترؤسه لمجالسهم[69].

ويلي الأستاذ الرئيس في المرتبة[70]، وكان الأستاذون بمرتبة الأدلاء، وقيل: إنه لا بد لكل صانع من البشر من أستاذ يتعلم منه صنعته[71]. وكان للقطانين أستاذ، وللمغنين أستاذ، وللصوص أستاذ[72]، وللمكدين أستاذ، وللخدم أستاذ[73].

ووجدت الأصناف رتبة «المختار» وقد أطلقت على الرئيس في حرفته[74]. كما وجدت رتبة «الخليفة» أو «الخلفة»، وهو الذي ينوب عن الرئيس في الحرفة[75].

ووجدت مراتب العريف والنقيب والمنكب، والعريف فوق النقيب، وقد قيل: إن أبا حنيفة ضرب لأنهم أرادوه عريفاً على الحاكة فرفض[76]. وكان «نوفل» عريف الكناسين في الكرخ في القرن الثالث، وكان للمكدين عريف يجبي منهم رسم العرافة[77]. وكان في قصر المقتدر عريف على الفراشين. وكان العريف يتولى مراقبة صنفه. وعليه أن يكون حاذقاً في صناعته ليتولى امتحان الصناع[78].

وكان الصناع يتدربون على يد الأستاذ[79]. ووجد إخوان الصفا أن من الناس من هو مطبوع على تعلم صناعته بسهولة، إذ رأى أهل تلك الصناعة في أعمالهم بأدنى تأمل كأنه قد وقف عليها. ومنهم من يحتاج إلى تعلم شديد وحث دائم وترغيب، ولذا فضل

---

(67) نشوار، ج 1، ص 67، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 281، 311، ج 3، ص 271.

(68) الفرج، ج 4، ص 215، نشوار، ج 3، ص 233، حكاية أبي القاسم، ص 108.

(69) رسائل، ج 1، ص 289.

(70) أنظر، ع.ع. الدوري، الأصناف، ص 146، الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 296.

(71) رسائل إخوان الصفاء، ج 1، ص 294.

(72) الخطيب، ج 1، ص 74، الأغاني، ط. بولاق، ج 5، ص 242، نشوار المحاضرة، ج 5، ص 274 - 256، الفرج، ج 5، ص 396.

(73) مقامات الحريري، ص 256، نشوار المحاضرة، ج 4، ص 185، الفرج، ج 4، ص 364.

(74) نصر بن يعقوب الدنيوري، التعبير في الرؤيا، ورقة 82آ، أنظر أيضاً ورقة 57ب.

(75) الطبري، ج 9، ص 227، الصابي، الوزراء، ص 17.

(76) محاضرات الأدباء، ج 2، ص 465، الخطيب، ج 3، ص 67.

(77) الحيوان، ج 3، ص 13، البخلاء، ص 46، 53.

(78) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 185، محاضرات الأدباء، ج 2، ص 465.

(79) الأغاني، ج 5، ص 104، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 110.

الإخوان أن يمتهن الأولاد صنائع الآباء والأجداد، فهي أنجع من صناعة الغرباء، ويكونون فيها أحذق وأنجب[80]. وكان الأستاذ يطعم الصانع ويكسوه، وكانت أجرة الصانع أقل من أجرة الأستاذ[81].

وكان المبتدئون ممن يرغبون في الانتساب إلى الصنف يتدرّبون على أيدي الصناع، وكان من الضروري إتقان الصنعة قبل ممارستها[82]. ويفهم من رسالة وضعها عبد القادر البغدادي (ت 1093 هـ) أن الصانع الصغير عرف بالتلميذ أو غلام الصانع أو متعلم الصنعة أو الأكار[83].

وقد تكونت لدى الصناع تقاليد اكتسبت قوة العرف والعادة، اعترف القضاء بها، وعرفت لديهم بـ«السنة» وأخذ المحتسبون بها[84]. فقد نصح الماوردي المحتسب باعتماد العرف الجاري بين أهل الصنائع أساساً يمكنه الرجوع إليه، وأمر المحتسب صناع الخُمُر والوقايا باتباع العادة الجارية في الطول والعرض وعدد الخيوط[85]. واستمر الأخذ بالعرف والعادة، حتى عرف فيما بين الصناع بـ«الدستور»[86].

وأدى تكتل الأصناف المنظم إلى شعورهم بدورهم ومقدرتهم. فقد شكل التمارون وحدة متضامنة، ودافعوا عن مصالحهم ضد الضرائب التي فرضها «عبدون» متضمن رسوم السفن التي تنقل التمور من البصرة إلى بغداد، وألحق بمهنتهم البلاء، فاضطرهم إلى مطاردته حتى قتلوه. واجتمع ناصر الدولة إلى التمارين، بعد أن توفرت لديه القناعة بفرض الضرائب على تمور البصرة التي يسيطر عليها البريدي، في محاولة منه لمحاربته إقتصادياً. وتمكن ناصر الدولة من فرض الرسوم على التمور والدبس[87].

وكان للملاحين دور مهم في مقاومة طغيان الجند من الديلم في بغداد[88]. وامتنع

---

(80) **رسائل**، ج 1، ص 290 ـ 292.

(81) **الفرج بعد الشدة**، ج 4، ص 339، الطبري، ج 7، ص 655، المقدسي، ص 131.

(82) الدوري، **الأصناف**، ص 147، **الأغاني**، جـ 25، ص 224.

(83) **رسالة التلميذ**، نشرها هارون، في **نوادر المخطوطات** المجلد الأول، ص 221ـ 224.

(84) الدوري، **الأصناف**، ص 141، وكيع، أخبار القضاة، ج 2، ص 351، 372. أيضاً ابو حيان التوحيدي، **الأمتاع**، ج 3، 62.

(85) أنظر، ابن الأخوة، ص 113، ط. القاهرة، ص 181، **الأحكام السلطانية**، ص 240، ابن بسام، **نهاية الرتبة**، ص 194.

(86) Massignon: Corps **des Métiers**, op. cit. p.377.

(87) الصولي، **أخبار الراضي والمتقي**، ص 206، 229، 235.

(88) **المصدر نفسه**، ص ص 207.

الحلاقون عن حلق شعور الناس حتى طالت، ولم يعودوا إلى عملهم إلّا بعد أن اعتذر الناس إليهم[89]. وفي سنة 389هـ قاد «القامة» على عمال النسيج حملة تعبئة داخل أفراد صنفهم، ضد الرسوم التي أراد صمصام الدولة أن يفرضها على الثياب المنسوجة من الإبريسم والقطن، ونتج عن ذلك اضطرابات واسعة داخل بغداد، اضطر بعدها صمصام الدولة لأن يقبض على بعض القامة وأن يعدم أربعة منهم، حتى هدأت موجة الاضطرابات[90].

وكان التماسك من مميزات أهل الأسواق، فكان القصابون يتعاطفون مع من تكسد سوقه منهم ويخلون له السوق أو يعملون لحسابه حتى يعتدل وضعه[91]. وفي سنة 422هـ اقتتل أهل الأسواق في بغداد، وتضامن أهل كل سوق في القتال، فشارك القلاءون وأهل الكرخ وأهل سوق السلاح وأهل سوق الثلاثاء والأساكفة والرهادرة (صغار الباعة). وفي العام نفسه اقتتل أصحاب الخلقان وأصحاب الأكسية في الكرخ في منافسة تجارية[92]. وفي سنة 423هـ قاد أهل الكرخ حملة ضد العيارين الذين سلبوا جزازاً، فاضطر هؤلاء لأن يعيدوا بعض ما أخذوا[93].

---

(89) محاضرات الأدباء، ج 1، ص 462.

(90) ذيل مسكويه، ج 4، ص 336.

(91) الجاحظ، رسائل، ج 2، ص 201.

(92) ابن الجوزي، المنتظم، ج 8، ص 506، 57، وهذه الفترة هي فترة اقتتال مذهبي، فالأحداث الأولى اقتتل فيها أصحاب الأصناف من مذهبي السنة والشيعة، إلا أن أصحاب الأكسية وأصحاب الخلقان كانوا جميعاً من الشيعة.

(93) المصدر نفسه، ص 62.

3 ـ الحسبة

أصبحت الحسبة من النشاط الرسمي في حقل العمل، بعد أن عجت المدينة بأرباب المهن والتجارات. وقد وضعت القواعد لعمل المحتسب بوصفه المسؤول الرسمي عن فرض أحكام الشريعة، لا سيما بعد أن تداخلت العناصر الإيجابية والسلبية في القوانين العادية. وكان من مسؤوليات المحتسب المحافظة على الآداب العامة لتأمين نقاوة الإيمان، وحماية معتنقيه من التلاعب والتهويل والنصب والابتزاز[1].

كان على المحتسب التجول في الأسواق والأماكن التي يباشر فيها مهماته، وأن لا يبقى على دكته، ولا ضير في تجوله ماشياً أو راكباً في الأسواق. وقد أمر الوزير علي بن عيسى في القرن الرابع محتسب بغداد بالطواف في الأسواق[2].

وكانت مهمات المحتسب النظر في مصالح الرعية وكشف أحوال السوقة وأمور المتعيشين[3]، وكان عليه مزاولة أعماله على أتم وجه. فكان المعتضد يوصي محتسبه في بغداد بألّا يبخس أحد شيئاً من حقه، ورسم له مراقبة الصنج والموازين والطوافين ومراعاتهم حتى لا يخسوا[4].

وتوجب في المحتسب الإلمام بغش المبيعات وتدليس أرباب الصناعات[5]. وكان الجهيني محتسباً للبصرة في القرن الرابع، فضبط العامة ورفع الغشوش، وكان يعرف أسرار الصنائع والأمتعة، حتى كان كأنه لا يحسن شيئاً غيرها. وكان علي بن الطيب السرخسي محتسب بغداد في عهد المعتضد، واحداً من كبار المثقفين وممن ألفوا في حقول شتى، وكان بعض المحتسبين مطلعين على المؤلفات العلمية[6]. وكان يطلب في من يتولى الحسبة أن يكون من القضاة والعدول. ففي سنة 339هـ أوكلت وظيفة محتسب بغداد إلى قاضي الشام الذي كان يقيم في بغداد ويستخلف على عمله في القضاء[7]. إلا أنه لم يكن دائماً يولّى الحسبة رجال من الفقهاء والعلماء. فقد أوكل الوزير عبيد الله بن سليمان

---

(1) روبن ليفي، في مقدمته لكتاب ابن الاخوة، معالم القربة الحسبة P.XVI.

(2) ابن الاخوة، ص 220، ابن بسام، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص 15.

(3) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج 2، ص 108.

(4) المنتظم، ج 5، ص 130.

(5) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 108.

(6) المسعودي، مروج، ج 2، ص 515، القفطي، تاريخ الحكماء، ص 77.

(7) ابن الأثير، ط. صادر، ج 8، ص 76، الخطيب البغدادي، ج11، ص 238.

الحسبة في بغداد إلى يعقوب الصايغ الذي وصف بجهله[8].

وربما وجد من المحتسبين من أساءوا وظيفتهم. فقد كان الدانيالي محتسب بغداد سنة 319هـ مذموماً من الناس. وقام محتسب بغداد سنة 329هـ بعمل منكر، إذ احتال على جارية في دار ابن بنان الخلّال حتى أخذ حلياً وثياباً، وذاك أنه دس من استعار منهم بيتاً، وجعل فيه آلات لتزييف الدراهم، ثم كبسه وطيف به على جمل في جانبي بغداد[9].

وكان على المحتسب مراقبة الأسواق والطرقات، والتأكد من صحة المكاييل والأوزان[10]. لم يكن من حق المحتسب التدخل في الأسعار، إلا أن ذلك لم يمنع إبراهيم بن بطحاء محتسب بغداد، من أن يسعّر الدقيق في أعقاب شغب ضد الغلاء سنة 307هـ[11].

وكان صلاحيات المحتسب تطال القطاع المالي والنقدي، وقد تدخل محتسب بغداد سنة 271هـ هارون بن إبراهيم الهاشمي «فأمر أهل بغداد بأن يتعاملوا بالفلوس، فتعاملوا بها على كره ثم تركوها»[12] وكان على المحتسب أن يمنع بيع الفضة بالفضة، والذهب بالذهب، إلا ضمن شروط دقيقة جداً[13].

طالت مهمات المحتسب مراقبة رجال الإدارة والقضاة والوعاظ. فكان يراقب الأذان والإمامة وأداء الشهادة والقضاة، وفي العرف اختص بأمور منها: إراقة الخمور، وكسر المعازف، وإصلاح الشوارع[14].

فقد سأل محتسب مؤذناً في أوقات الصلاة إن كان عالماً بها، وإلا فلا يدعه يؤذن مع الناس بالصلاة في غير وقتها[15]، وفي سنة 292هـ «نودي في بغداد ألا يقعد على الطريق ولا في المسجد الجامع قاص ولا منجم ولا زاجر، وحلف الوراقون أن لا يبيعوا كتب الكلام بالجدل، «وكلف المحتسب بتنفيذ هذا الأمر[16]. وقام محتسب بغداد بتحطيم

---

(8) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج 2، ص 436.

(9) ابن الطقطقى، ص 274، الصولي، أخبار الراضي والمتقي، ص 148.

(10) الشيزري، ص 12، ابن الاخوة، ص 85.

(11) الشيزري، ص 12، ابن الاخوة، ص 64، الهمذاني، تكملة الطبري، ص 65.

(12) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 396.

(13) الشيزري، ص 74 ـ 75.

(14) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، (القاهرة، 1969) ج 2، ص 12.

(15) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 292.

(16) ابن الأثير، ط. الكتاب العربي، ج 6، ص 72.

دنان خمر كانت تحمل للمعتضد[17]. وكان المحتسب يراقب القضاة؛ فقد مر إبراهيم بن بطحاء متولي الحسبة بجانبي بغداد بباب قاضي القضاة، فرأى الخصوم على بابه ينتظرون جلوسه للنظر بينهم، وقد تعالى النهار وهجرت الشمس، فاستدعى المحتسب حاجب القاضي وطلب إليه أن يبلغ القاضي ضرورة الجلوس للخصوم، أو إبلاغهم عذره فينصرفوا. وطلب المحتسب في القرن الرابع أن يجلس قاضي بغداد للخصوم في المسجد الجامع، لكي يناله القوي والضعيف[18].

ومنذ القرن الثاني كان المحتسب في العهد العباسي يمنع من التعرض للنساء وهن متنقلات في الشوارع. وكان بعض المحتسبين يتشددون في صلاحياتهم حتى أن محتسب بغداد أحرق طاق اللعب، من أجل ما يعمل فيه الملاهي[19].

وكان للمحتسب مساعدون وخلفاء، وله أعوان وغلمان يتقوّى بهم على المخالفين، وقد يستعين بالشرطة[20]. فكان لمحتسب بغداد سنة 390هـ ستة خلفاء[21]. وربما كان هؤلاء الخلفاء موزعين إقليمياً أو مهنياً، فقد أشار الصابي إلى وجود عمال على سوق الغنم ودار البطيخ ودار القطن وسوق الرقيق والمسك[22]. وذكر ياقوت أن أحمد بن محمد بن موسى (ت 324هـ) ولي حسبة سوق الرقيق[23]، ويؤكد الصابي وجود خلفاء للمحتسب أثناء حديثه عن وجود طبقتين بين المحتسبين، فيذكر أن ابراهيم بن بطحاء محتسب بغداد وسوق الرقيق يجري بمجرى الطبقة الأولى، أي يوازي من يتولى مصر والأهواز وفارس وإصبهان[24].

ولا نعرف ما إذا كان أصحاب المهن يدفعون رسوم الحسبة إلى الدولة، ولا بد أن ذلك قد تفشى بشكل غير شرعي، مما حمل معز الدولة على تضمين الحسبة ببغداد سنة 350هـ[25].

---

(17) ابن الاخوة، معالم القربة، ط. (الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1976)، ص 67 ـ 69.

(18) المصدر نفسه، ص 305، نشوار المحاضرة، ج 2، ص 110.

(19) ابن الاخوة، ط. القاهرة، ص 81، الخطيب البغدادي، ج 7، ص 269.

(20) الشيزري، ص 7، 8، 10.

(21) المنتظم، ج 7، ص 216.

(22) الوزراء، ص 158، 145ف.

(23) معجم الأدباء، ج 66.

(24) الوزراء، ص 176.

(25) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 431.

وكان المحتسب يتقاضى راتباً قدره مائة دينار شهرياً، ولكن الدانيالي محتسب بغداد طلب زيادة راتبه، فأعطي مائة دينار أخرى تُسَبَّبُ برسم الفقهاء[26].

---

(26) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 65، مسكويه، ج1، 215.

الباب الرابع

واقع العامة الاجتماعي

الفصل الثاني عشر: مستوى المعيشة

القسم الأول: الأسعار

القسم الثاني: أ ـ الأجور والرواتب

ب ـ النقود

الفصل الثالث عشر: مظاهر الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية

الفصل الرابع عشر: الخدمات والمرافق العامة

الفصل الخامس عشر: حياة العامة اليومية

أولاً: الحياة العائلية

ثانياً: المعتقدات والعادات الشعبية

ثالثاً: المناسبات والأعياد

رابعاً: الهوايات والملاهي

الفصل السادس عشر: الملذات والملاهي

أولاً: الملذات

ثانياً: الخلاعة

الفصل الثاني عشر

مستوى المعيشة

تمهيد

تذخر المصادر بالمعلومات عن بذخ رجال القصر والوزراء وكبار الموظفين والقادة، ولكنها لا تمدنا بما يكفي عن حياة الحرفيين والفلاحين الذين كانوا يعيشون عيشة مضنية.

كانت بغداد مدينة كبرى تعج بالناس، ومنذ أيام الرشيد وحتى أيام المأمون كانت معسكراً لكثرة الناس بها ومصيرهم إليها من كل بلد. ويبدو أن كثيراً من الفلاحين غادروا قراهم إلى المدينة[1].

وقد أسهمت الحروب الداخلية في العراق في خراب السواد كحرب الخلافة بين الأمين والمأمون، ثم حرب المستعين والمعتز، وكان لثورة الزنج الأثر السيء في تخريب الزراعة وأنظمتها، وأصيب نظام الري في عهد إمرة الأمراء إصابات بالغة، لم تستطع أن تنقذه منها مبادرات الدولة المحدودة[2].

وظهر تفاوت كبير بين مستوى العيش عند الطبقات الدنيا من العامة وبين طبقات الخاصة والمترفين، لم تخف آثاره الإجتماعية[3]. وقد تفننت الطبقة العليا في ضروب العيش التي تفسح المصادر مكاناً واسعاً لوصفها[4]، وافتتن كبار الوارثين والأغنياء بالبحث عن الوسائل لإتلاف أموالهم[5]. وعبّرت الطبقات الدنيا عن مرارتها عن طريق

---

(1) ابن الفقيه، بغداد، ص 60، أبو يوسف، الخراج، ص 41.

(2) الصولي، أخبار الراضي، ص 105 ـ 106، 225، والمنتظم، ج 6، ص 300، مسكويه، ج 2، ص 165، حـ 3، ص 9.

(3) أنظر، الشابشتي، الديارات، ص 199.

(4) انظر، ابن الزبير، الذخائر والتحف، والتنوخي، الفرج بعد الشدة، ج 1، ص 103.

(5) أنظر، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 177 ـ 186.

الانتفاضات ومساعدة حركات الخروج على الدولة بالانضمام إلى التنظيمات السرية المعادية للسلطة، كما حدث في حركات القرامطة. وانطلق الأعراب والبدو يهاجمون السواد والأراضي المحيطة ببغداد[6]. ولقد حاولت السلطة إعادة تنشيط القرى وزراعتها، فتشدد الوزراء والعمال بتشجيع عمارة الأرض لزيادة الإنتاج وتثبيت الفلاحين في أراضيهم.

لكن الصراع العسكري الذي دار بين القادة في عهد إمرة الأمراء لفرض سيطرتهم على بغداد، وما رافقه من سيطرة على أراضي الإنتاج الزراعي، ومن تخريب للأراضي الزراعية ولشبكات الري فيها، كان ضربة قاصمة للزراعة[7]. فحصلت سلسلة من المجاعات والأمراض التي أودت بأرواح كثير من سكان بغداد، كما دفعت بأعداد كبيرة منهم إلى الهجرة منها[8].

وأعطت بعض الإجراءات التي اتخذت في عهد معز الدولة لتوفير ظروف ملائمة للرخاء نتائج مفيدة، فجرت محاولات لسد بثوق الرفيل وبادوريا، وقيل: إن معز الدولة حمل التراب بنفسه ثم خرج إلى النهروانات وسدّ بثوقها، فعمرت بغداد وبيع الخبز النقي عشرين رطلاً بدرهم[9].

وكان ظهور الاتجاه الإقطاعي في العهد البويهي، الذي برز بشكل إعطاء الجند الإقطاعات بدل الرواتب، مقدمة لحدوث تغييرات إقتصادية مهمة، فلقد أدى وضع إمكانات البلاد بأيدي الجند الترك والديلم، إلى تدهور عام في الوضع الإقتصادي في العراق بعامة[10]، وأصيب النظام النقدي والمالي بالركود، وضعفت الفعاليات الصيرفية في العهد البويهي[11].

---

(6) شكلت غزوات البدو والأعراب عائقاً مهماً ضد السلطة العباسية، وتذخر المصادر بأخبار عملياتهم.

(7) مسكويه، ج 2، ص 128.

(8) تكملة الهمذاني، اخبار سنة 364هـ، ص 218 ـ 219.

(9) مسكويه، ج 2، ص 165.

(10) المصدر نفسه، ص 97 ـ 99.

(11) الدوري، تاريخ العراق الإقتصادي، ص 227.

القسم الأول: الأسعار

1 ـ الحبوب:

تتفاوت المعلومات التي تعطيها المصادر الأولية حول أسعار الحبوب في العراق، من حيث أهميتها. فالمعلومات المسجلة حول أسعار القمح تتعلق بسعره عند غلائه. ولكن بعض المصادر تعطينا شيئاً من المعلومات حول الأسعار العادية للقمح، مما يسمح بتكوين فكرة عن تطور سعر هذه السلعة. فالمعلومات التي يوردها ديونيسيوس التلمحري تبين السعر العادي للقمح في العقد الثامن من القرن الثاني[1]، فيقول: إن عمال الخراج كانوا يجبرون الفلاحين على بيع إنتاجهم من القمح بمعدل 50 أو 60 أو 70 جريباً لدينار واحد، ويعني هذا أن السعر التجاري لكل 30 ـ 40 جريباً هو دينار واحد[2].

ومع ملاحظة تفاوت الأسعار في البلاد التي تنتمي إلى وحدة إقتصادية، يمكننا التساؤل عما إذا كان مسموحاً إفتراض أن السعر العادي للقمح في الموصل الذي يذكره ديونيسيوس التلمحري هو السعر السائد في العراق قاطبة. إلا أنه يمكننا التأكيد أن سعر القمح في بغداد كان مرتفعاً، إذ يذكر المقدسي في القرن الرابع، أن بغداد كانت تستورد كمية كبيرة من قمح الموصل[3]. ومهما يكن من أمر، فإن سعر القمح في القرن الثالث كان مرتفعاً في السواد، إستناداً إلى قائمة قدامة بن جعفر التي تذكر أن سعر الكرين المقرونين من الحنطة والشعير بأوسط الأسعار كان ستين ديناراً بسعر 15 درهماً لكل دينار[4]. هذا في حين أن ابن حوقل الذي زار مدينة الموصل سنة 358هـ يذكر أنه بيع فيها الكر من الحنطة والشعير بـ500 درهم وبسعر 15 درهماً لكل دينار[5]، مما يعني حدوث الغلاء في تلك المنطقة، ويلفت نظرنا وقوع الغلاء في الموصل سنة 349هـ وهروب الناس منها إلى بغداد، في حين أن الكر القمح ببغداد بيع في سنة 358هـ بـ90 ديناراً[6].

هذه الأسعار هي لتجار الجملة، الذين كان باستطاعتهم الشراء بسعر أقل

(1) أنظر Ashtor, **prix et salaires**. p. 42.

(2) الجريب يساوي 71، 22 كلغ، أنظر، هنتس، المكايل والأوزان الإسلامية، ص 61.

(3) أحسن التقاسيم، ص 136 ـ 138.

(4) نبذ من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، ص 239.

(5) صورة الأرض، ص 196، 197، ويكون سعر والكر = 15/ 500= 1/3 33 ديناراً.

(6) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 178، 201.

فيحققون أرباحاً طائلة، ويوضح ذلك، رواية للتنوخي نقلها عن حامد بن العباس الذي كان يتضمن غلات الدولة، فيقول حامد: إنه باع الكر بنيف وعشرين ديناراً في عهد الأمير الموفق، وحقق ربحاً مقداره 36 ألف دينار من بيدر واحد من بيادر «الصلح» وبقي البلد بأسره ربحاً[7].

والواقع أن بغداد عرفت أزمات الغلاء منذ نهاية القرن الثاني. ففي عهد الرشيد وقعت أزمة غلاء، فأمر الناس بكثرة الدعاء والبكاء، وكسر آلات الطرب[8]. وفي سنة 207هـ غلا السعر ببغداد والبصرة حتى بلغ سعر القفيز من الحنطة بالهاروني 40 درهماً إلى 50 درهماً بالملجم[9]، ولعل أسباب هذا الغلاء غرق السواد وبغداد في شتاء سنة 206هـ[10]. وفي سنة 251هـ أثناء الحرب الأهلية بين أنصار المستعين والمعتز، وقعت أزمة غلاء، فبيع قفيز الحنطة بمائة درهم، وواضح أن سبب هذا الغلاء هو خراب سواد بغداد وانقطاع ورود الميرة إليها. ومنع الجيش المحاصر للتجار البغداديين من استيراد المواد، واستمرت الشكوى من الغلاء حتى سعر المعتز غلة طساسيج بغداد في سنة 252هـ بـ 35 دينار للكرين من الحنطة والشعير[11] أي أقل من 60 درهماً لقفيز القمح[12] وهو تخفيض مهم بالنسبة للسعر الذي يذكره اليعقوبي في عهد المستعين.

وفي سنة 260هـ وقع غلاء مفرط بالعراق دام عدة شهور، وبلغ الكر الحنطة في بغداد 150 ديناراً والشعير 120 ديناراً[13].

وفي سنة 226 هـ حصل ارتفاع في الأسعار بسبب حرب الزنج[14]. وفي سنة 270هـ لحقت بثوق في نهر عيسى وفاضت مياهه حتى أغرق سبعة آلاف دار في الكرخ،

---

(7) نشوار المحاضرة، ج 8، ص 155، والصلح، كورة فوق واسط، مراصد الإطلاع، ص 849.

(8) الابشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، (القاهرة، 1952)، ج 1، ص 64.

(9) القفيز الهاروني 8 مكاكيك، القاموس، ج 2، ص 187،، والملجم 10 مكاكيك من مكاكيك الهاروني، الطبري، ج 8 ص 57، وتكون النسبة بينهما 10/ 8 وهو خلاف ما ذكره طيفور ص12 من أن الملجم 8 مكاكيك، ويؤكد رأينا الخبر أعلاه.

(10) الطبري، ج 8، ص 581 ـ 596.

(11) تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 449، الطبري، ج 9، ص 335 ـ 336، الكر 60 قفيزاً.

(12) قدرنا هنا سعر الدينار بـ 115 درهماً وراعينا نسبة 1/2 بين سعري الشعير والقمح، انظر لاحقاً هامش رقم 19.

(13) الطبري، ج 0، ص 510، ابن الأثير، ج 5، ص 376.

(14) ابن الأثير، ج 6، ص 26.

ووقع الغلاء، وفرض محتسب بغداد سنة 271هـ التعامل بالفلوس[15]. وفي العام التالي (272هـ) غلا السعر ببغداد بعد أن منع أهل سامراء من انحدار السفن بالطعام، ومنع الطائي حاكم بغداد، أرباب الصناع من الدياس متربصاً غلاء الأسعار، وكانت ردة الفعل الشعبية وثوب العامة بالطائي وأصحابه لمدة يومين[16].

وفي سنة 281هـ عالج المعتضد قلة الميرة ببغداد والغلاء الناتج عنها. وفي سنة 297هـ تأخرت الأمطار فزادت الأسعار[17]. وفي الربع الأخير من القرن الثالث بيع الكران المعدلان من غلة السواد بـ 90 ديناراً من الحنطة الشعير[18]، أي أن سعر الحنطة 60 ديناراً للكر الواحد و30 ديناراً للكر الشعير، باعتبار أن نسبة سعر القمح إلى سعر الشعير هي اثنان إلى واحد[19].

وعرف الثلث الأول من القرن الرابع سلسلة من أزمات الغلاء الحادة، ففي سنة 304هـ أصيبت الغلات واشتد الغلاء[20]. وفي سنتي 307 ـ 308هـ عصفت ببغداد موجة من الاضطرابات ضد الغلاء، وكادت أن تقضي على عهد المقتدر. وسبب هذا الغلاء هو ضمان الوزير حامد بن العباس أراضي الخراج بمبالغ تزيد عن المعدل السنوي بـ 400 ألف دينار، وهو ما وقف علي بن عيسى ضده لمعرفته برغبة حامد في رفع الأسعار[21]. إلا أن المقتدر خضع للمغريات المالية وعقد الضمان لحامد فما لبث أن ارتفع السعر، فتحركت بغداد بعامتها وخاصتها ووقع شغب عظيم. ونفى حامد وقوع الغلاء واستدل بأن سعر الخبز الحواري 8 أرطال بدرهم، واستمر الشغب وهاجمت العامة دكاكين الدقاقين، فتحرك القصر وأمر حامد بإزالة احتكار القمح لتنحط الأسعار، ويبدو أن هذه الإجراءات لم تعط أكلها، فتحرك الجند لارتفاع الأسعار، وسيطرت العامة على المساجد ونشبت المعارك في شوارع بغداد ومساجدها بين العامة والشرطة، ووقع القتلى من الطرفين، فأمر الخليفة بتسعير القمح والشعير وخفض سعر الكر خمسة دنانير، إلا أن

---

(15) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 395، 396.
(16) الطبري، ج 10، ص 10، ابن الأثير، ج 6، ص 60.
(17) المنتظم، ج 5، ص 147، ج 6، ص 89.
(18) الصابي، وزراء، ص 209، وقد توهم محقق الكتاب عبد الستار فراج وقوع خطأ في الأسعار التي يوردها الصابي، وذلك نتيجة الخطأ بين الكر المعدل والكر الفالج الذي يساوي 2/5 المعدل.
(19) أبو يوسف، الخراج، ص 39، أنظر أيضاً، مسائل الإمام أحمد، ص 197.
(20) الصابي، الوزراء، ص 283 ـ 307.

نصراً الحاجب طلب إطلاق الغلات وعدم التسعير فانتهت الأزمة[21].

وفي سنة 310هـ حصلت فيضانات في السواد وغرقت مئات القرى، وكانت السنوات التالية سنوات غلاء بسبب قلة الميرة، حتى وصف عريب عهد وزارة الخاقاني (312 ـ 313هـ) بأنه عهد الغلاء[22].

واستمرت الأسعار تتصاعد ببطء حتى سنة 323هـ حيث وقع الغلاء، فبلغ ثمن الكرين من القمح والشعير 120 ديناراً، أي بزيادة 30 ديناراً على السعر الطبيعي الذي قرره قدامة في نهاية القرن الثالث[23]، أو ما يعادل أكثر من 33% من السعر التقليدي. وكان الخبز قد بيع في هذا العام أربعة أرطال بدرهم، وأظهر قوم من بني هاشم المصاحف وشكوا الجوع. وفي العام التالي (324هـ) شغب العامة في مسجد الرصافة لغلاء السعر، وأشار الوزير بأن يُسعر المكوك من الدقيق بثلاثة دراهم فما نفع ذلك، وأمر في شهر محرم بأن يتعامل الناس بالدراهم الرديئة من غليط وممسوح، ولم يصلح السعر إلا بعد أن وجّه الحسين بن عبد الله الحمداني بمائة كر من الدقيق لتوزع على أشراف بغداد وفقرائها، ثم انحدرت زواريق كثيرة للتجار تحمل القمح إلى بغداد. وفي جمادي الأولى من العام نفسه عزّ الخبز والدقيق في بغداد وسواها، ولم يوجد أياماً، ووقع الطاعون في بغداد ففني الكثير من سكانها[24].

وفي سنة 326هـ تسببت حملات ابن رائق في تخريب النهروان وشبكة الري حوله، فافتقر الناس وغلت الأسعار، ووقع الغلاء في العام التالي (327هـ)، وبيع القمح بالسعر الإعتيادي سنة 329هـ بسعر 25 ديناراً للكر[25]، ثم لم يلبث أن وقع الغلاء فبلغ الكر من الدقيق 160 ديناراً، وكثر الموت ببغداد؛ وكان السبب في هذا الغلاء شح الأمطار[26]. وفي سنة 330هـ في جمادي الآخرة بيع الرطل من الخبز في عسكر البريدي

---

(21) أنظر، مسكويه، ج 1، ص 70، 72، 75، أيضاً عريب، صلة تاريخ الطبري، ط. المعارف، ص 77، والواقع أن مسكويه يذكر أن هدوء بغداد جاء بعد التسعير إلا أن عريب يذكر أن التسعير لم يغن الناس شيئاً مما حمل نصر الحاجب على التدخل وطلبه عدم التسعير وإغراق السوق.

(22) تكملة الطبري، ص 31، صلة الطبري، ط. المعارف، ص 108.

(23) الهمداني، تكملة الطبري، ص 93، المنتظم، ج 6، ص 277، الخراج، ص 249.

(24) الصولي، أخبار الراضي، ص 61، 71، 83.

(25) المصدر نفسه، ص 106، 123، 148.

(26) تكملة الطبري، ص 120، المنتظم، ج 6، ص 318، 319، تجارب الأمم، ج 2، ص 8، حيث يذكر أن الدقيق بيع بـ 130 دينار.

القريب من بغداد بدرهم واحد، ثم لم يوجد، وبعد هدوء حركات العيارين واستقرار الوضع رخصت الأسعار، ولكن لم يلبث أن عز الدقيق في بغداد وبلغ المكوك 6 دراهم ولم يصلح السعر إلا بعد وصول كمية من الدقيق إلى بغداد[27]، ثم قفز السعر فبيع الكر الحنطة بـ 210 دنانير ثم إلى 316 ديناراً، وأكل الفقراء الميتة ودام الغلاء وكثر الموت وخرج أصحاب السلطان إلى قرب بغداد، فأغاروا على ما حصد من الزرع[28]. ويبدو أن أسباب هذا الغلاء تعود إلى ما فرضه البريدي من رسوم على الحنطة والشعر وأصناف الحبوب بمعدل خمسة دنانير، فارتفع سعر الحنطة إلى 316 ديناراً وبيع الخبز الخشكار كل رطل بقيراط صحيح أميري[29]. وكانت سنة 331هـ قاسية على البغداديين، ففي رجب غلت الأسعار وعزّ كل شيء من سائر الأطعمة والملبوس، حتى أكل الناس الكلاب. وفي ذي القعدة كبس أهل قطيعة الدقيق فأخذ منهم عشرون كراً دقيقاً وأحيلوا بثمنه على أحد رجال السلطة، ثم مضى جماعة من أصحاب أمير الأمراء توزون إلى القطيعة ليأخذوا دقيقاً كما فعلوا من قبل، فوثبت بهم العامة وقتلت منهم نفسين وغلا السعر بعد هذه الإضطرابات وفقدت الفاكهة[30].

وفي سنة 332هـ غلت الأسعار في بغداد والمناطق المحيطة بها، حتى بيع القفيز من الدقيق الخشكار بنيف وستين درهماً، وبيع الخبز الخشكار ثلاثة أرطال بدرهم، وعانت بغداد من التضخم المالي ونقصت قيمة العقار حتى صار ما يساوي ديناراً يُباع بأقل من درهم حقيقة. ويفسر الصولي أسباب هذا الغلاء باضطراب حبل الأمن في بغداد وجوارها فخاف التجار على غلاتهم فيقول: «في تكريت كان نحو من مائة وخمسين زورقاً فيها دقيق وحنطة وشعير وسقط وشحم وثياب تنتظر أمن الطريق إلى بغداد»[31].

وفي سنة 333هـ زاد غلاء السعر على الناس، فشغبوا في الجانب الغربي، ومنعوا الصلاة. ويبدو أن بثقاً أصاب نهر عيسى أثر في ري المزروعات حوله، فحاولت السلطات سد البثق، لكنها لم توفق[32].

---

(27) الصولي، أخبار الراضي والمتقي، ص 223، 225، 226.
(28) السيوطي، ص 425، المنتظم، ج 6، ص 326.
(29) ابن الأثير، ج 6، ص 284.
(30) المصدر نفسه، ص 296، الصولي، ص 237، 243، 244، المنتظم، ج 6، ص 331.
(31) ابن الأثير، ج 6، ص 299، أيضاً أخبار الراضي، ص 251.
(32) أخبار الراضي، ص 278.

وفي سنة 334 أثناء الصراع بين معز الدولة البويهي وناصر الدولة الحمداني، اشتد الغلاء ببغداد حتى أكل الناس الميتة والكلاب والسنانير، وأخذ بعضهم ومعه صبي من أولاده وأولاد الجيران قد شواه، وأكل الناس ضروب الشوك، وانحدر الكثر من أهل بغداد إلى البصرة، وبيعت الدور والعقارات بالخبز، ولم تهبط الأسعار إلا بعد دخول الغلات، وبيع الكر المعدل من الحنطة بعشرين ألف درهم(33)، وانتشر المخبرون السريون يدلّون على من عنده قوت من حنطة أو مؤونة لعياله(34).

وفي العام نفسه، منع أصحاب ناصر الدولة الحمداني في الجانب الغربي وصول الغلات إلى البويهيين في الجانب الشرقي، وغلت الأسعار حتى بيع الخبز في الجانب الشرقي كل رطل بدرهم وربع الدرهم، فيما كان يباع في الجانب الغربي كل خمسة أرطال بدرهم لورود الغلة إليه من الموصل(35).

وفي سنة 349هـ حصل ارتفاع في الأسعار في العراق، وبخاصة في الموصل، حيث بيع الكر من الحنطة بـ 1200 درهم(36)، وفي عام 358هـ بيع الكر المقرون من الحنطة والشعير بخمسمائة درهم وهو ما اعتبره ابن حوقل سعراً طبيعياً. وبيع الكر الحنطة في بغداد هذا العام بأكثر من 90 ديناراً، وهو عام اقترن الغلاء فيه بقلة مياه نهري دجلة والفرات(37).

وفي سنة 364هـ زادت الأسعار وعدمت الأقوات وبيع الكر من الدقيق بـ 175 ديناراً، وكانت الدراهم تصرف كل أربعة عشر بدينار واحد وبيع كل ثلاثة أرطال خبز بدرهم(38).

وفي سنة 372هـ زادت الأسعار زيادة مفرطة ولحق الناس مجاعة عظيمة وبلغ الكر الحنطة في رمضان ثلاثة آلاف درهم تاجية، وبلغ في ذي القعدة أربعة آلاف وثمانماية درهم، فضج الناس وكسروا المنابر، ومنعوا صلاة الجمعة لعدة أسابيع ومات خلق من الفقراء جوعاً على الطريق، ثم تناقصت الأسعار في ذي الحجة. وفي سنة 376هـ زادت

---

(33) ابن الأثير، ج 1، ص 321، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 351.
(34) مسكويه، ج 2، ص 83.
(35) ابن الأثير، ج 6، ص 316.
(36) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 178، ابن الأثير، ج 7، ص 37.
(37) صورة الأرض، ص 197، الهمذاني، تكملة، ص 201.
(38) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 221.

الأسعار فبيعت الكارة من الدقيق الخشكار بنيف وتسعين درهماً وفي سنة 377هـ بيعت الكارة من الدقيق الخشكار بمائة وخمسة وستين درهماً، وجلا الناس عن بغداد، ثم زاد السعر في ربيع الآخر فبلغ ثمن الكارة الخشكار مائتين وأربعين درهماً.

وفي سنة 378هـ غلت الأسعار وعدم الناس الأقوات وظهر الموت في المحرم، وبيعت الكارة الدقيق بستين درهماً[39].

وفي سنة 382هـ غلت الأسعار وبيع الرطل الخبز بأربعين درهماً، والجوزة بدرهم. وفي سنة 383هـ بلغ الكر الحنطة 6600 درهم غياثية، والكارة الدقيق 260 درهماً، وشغب الديلم لفساد النقد وغلاء السعر[40].

وفي سنة 392هـ بلغت الكارة من الدقيق الخشكار ثلاثة دنانير مطيعية في جمادي الأولى، وفي جمادي الآخرة ارتفعت إلى خمسة دنانير، ولحق الناس من ذلك شدة ومجاعة[41].

وغلت الأسعار في سنة 393هـ وعدمت الحنطة وبلغ الكر منها مائة وعشرين ديناراً، وتتابع الغلاء في القرن الخامس، حتى وصف أحد الشعراء القحط بالذئب في أكله الناس[42].

أسعار الأرز: ليس لدينا الكثير من الإشارات حول أسعار الأرز. فيذكر الخطيب أنه بيع في عهد المنصور المكوك من الأرز بدانق[43]. وباع أحد موظفي الحسن بن مخلد الأرز في نهاية القرن الثالث بسبعة دنانير للكر المعدل. وفي عهد إمارة ناصر الدولة الحمداني على بغداد سنة 331هـ إشتكى أحد الزراع أنه استثني منه أكثر من 40 كراً من الأرز، وكان الشاكي يتحدث عن الكر المعدل، وذكر أن ثمن الكر بالنصف يساوي 30 ديناراً[44].

وهذا الفرق الحاصل بين السعرين كان يذهب لجيوب التجار أرباحاً.

وعدا هذه الإشارات الثلاث إلى سعر الأرز، فإن المصادر تسكت عن سعر هذه

(39) المنتظم، ج 7، ص 121، 132، 136، 141، والكارة تساوي 120 ليتراً.

(40) المصدر نفسه، ص 170، 172، والجوزة، حسب هتس ص 24 ـ 25، تساوي حوالي 20 غراماً، وهو ما لا يتوافق وما ورد أعلاه.

(41) تاريخ الصابي، ج 4، ص 418.

(42) المنتظم جـ 27 ص 222 ـ 223 ، الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص 265 .

(43) تاريخ بغداد، ج 1، ص 70، حيث يذكر أن 6 مكاكيك بيعت بدرهم.

(44) نشوار المحاضرة، ج 8، ص 118، 158.

المادة. مما يجعل أية استنتاجات تفتقر إلى الكثير من عنصر الدقة. ويبدو أن سبب إغفال ذكر الأسعار يعود إلى عدم اعتماد سكان العراق على الأرز مصدراً من مصادر الخبز، في حين أن خبز الأرز كان منتشراً في خورستان؛ وكان الزنج في ثورتهم ضد الدولة يهتمون بتأمين مادة الأرز[45].

ونلاحظ أن المعلومات حول الأسعار لم تترك أي شك في ارتفاعها في العهد العباسي ولا سيما القمح. وقد كان هذا الإرتفاع ناتجاً عن صراع القوى الإقتصادية. ومن المؤكد أن مضاربات كبار الملاكين وكبار الموظفين الذين احتكروا إنتاج مناطق واسعة كانت في رأس أسباب ارتفاع مصطنع للأسعار، ففي عهد المعتضد كانت أسعار الحبوب غالية، وباع الوزير أبو العباس بن الفرات الكرين المعدلين من القمح والشعير بتسعين ديناراً[46]. وارتفاع السعر سنة 308هـ كان بسبب تضمن الوزير حامد بن العباس لخراج السواد واحتكاره لكميات كبيرة من القمح، ولكن المقتدر اتخذ إجراءات استثنائية فتدخل بعد سلسلة من الإضطرابات ولجأ إلى التسعير، ثم صلح السعر بإطلاقه حرية تجارة القمح، كما لجأت الدولة إلى إجراء استثنائي آخر في النصف الثاني من القرن الرابع، يقضي بتسعير الخبز على أساس ثمانية أرطال بدرهم واحد للفقراء، وتركت السعر حراً لسائر فئات الشعب[47].

وعلى العموم، فإن الدولة مارست سلطاتها للحد من قوة المضاربين، كما كانت تراقب الأسعار، ومارست تقليداً رسمياً أرسى قواعده المنصور الذي طلب من أصحاب الأخبار أن يزودوه بأسعار المنتجات الزراعية في الأقاليم[48]. وكان التموين المنتظم للمدن الكبرى بأسعار معتدلة من المهمات الثابتة للسلطات عندما كانت الجماعات الأجنبية تستولي على السلطة، إذ كانت تعمل على تفادي غضب سكان المدينة، ذلك لأنها تعرف أن ارتفاع أسعار القمح والخبز يثير اضطرابات العامة والجند كما حدث سنة 307، ففي سنة 321هـ قلد الراضي الحسن بن هارون أعمال واسط على أن يدفع مائة ألف كر شعير و10 آلاف كر أرز وأربعمئة كر سمسم[49]. وفي سنة 335هـ عمل معز

---

(45) ابن حوقل، ص 229، ابن الأثير، ج 6، ص 28.
(46) الصابي، الوزراء، ص 209.
(47) مسكويه، ج 1، ص 73 ـ 75، الإمتاع والمؤانسة، ج 2، ص 26.
(48) الطبري، ج 8، ص 96.
(49) أنظر، الهمذاني، اج 1، ص 84.

الدولة على أن يرسل ناصر الدولة القمح إلى بغداد وأعفي من الضريبة، كما تسلم وزيره الصيمري ألف كر من الحنطة والشعير وانحدر بها إلى بغداد، وانحلت الأسعار بعد أن استولى معز الدولة على البصرة فكونت مع بغداد سوقاً اقتصادية واحدة. وكانت غلات نصيبين محل طمع معز الدولة مما جعله يشن حملة على الحمدانيين للإستيلاء عليها سنة 347هـ. ويبدو أثر نجاح هذه السياسة في هبوط سعر الخبز الذي بيع النقي منه سنة 345هـ عشرون رطلاً بدرهم واحد[50]. وفي سنة 377هـ جرت محاولة لإصلاح الأسعار في بغداد، بأن تنقل إليها الغلات من بلاد فارس في البحر، كما جدّ العامل على ذلك في حملها من كل بلد[51].

ولكن السلطات كانت تساهم في الإحتكار ورفع الأسعار عن طريق إجبار الفلاحين على دفع ضريبة عينية عالية، وتحملهم على بيع إنتاجهم بأسعار مخفضة بالتواطؤ مع التجار[52]. ويذكر مسكويه أن من أسباب الغلاء سنة 330هـ ظلم البريدي للناس وافتتاحه الخراج والجوالي في آذار، وفرضه الضرائب على الحنطة بمقدار سبعين درهماً، كما فرض الضرائب على سائر المكيلات وعلى الزيت، وقبض على نحو 500 كرّ كانت للتجار[35].

وكان أعضاء الأسرة العباسية ورجال السلطة من كبار الموظفين يخزنون الحبوب، وربما تدخلت السلطة بأن تأمرهم عند ارتفاع الأسعار ببيعها بأسعار منخفضة[54].

وأوضح مسكويه بشكل كاف في أخبار سنة 347هـ أثر السياسة الإقطاعية التي نفذها معز الدولة وما جرته على البلاد، إذ أمر بتسبيب الجند ما يستحقونه من مخصصات على أراضي واسط والأهواز والبصرة، وأخرجهم لاستيفاء أموالهم، فانفتح عليه من باب الفساد، ما كان أضر عليه من زيادة أوزارها في أصول استحقاقاتهم. ذلك أن الجند آثروا أن تتأخر أموالهم المسببة لتكثر أيام مقامهم وصيروا أصول أموالهم بضائع يتجرون بها، وحلت التجارات في صدورهم، وإجازة ما يحصل لهم في الطريق بغير ضريبة ولا مؤونة،

---

(50) أنظر، مسكويه، ج 2، ص 25 ـ 26، 108، 110، 112، 171.

(51) أبو شجاع، ذيل مسكويه، ج 3، ص 137.

(52) أنظر، كتاب التاريخ المنسوب لديونيسيوس التلمحري، عرضه فاروق عمر، مجلة بين النهرين، (عدد 4، 1976 بغداد)، ص 154.

(53) تجارب الأمم، ج 2، ص 25 ـ 26.

(54) المصدر نفسه، ج 1، ص 74.

ثم تجاوزوه إلى الدخول في الإلجاء فملكوا البلاد واستطالوا على العمال وحموا التجار ومن اعتصم بهم. واشتدت سياسة الإلجاء في سنة 358هـ بعد أن تسلط شيرزاد على بختيار البويهي[55].

وكانت الدولة تحدد الأسعار، ولكن مثل هذا الإجراء لم يكن ليتم إلا في حالات الضرورة القصوى، في حين أن الدولة غالباً ما كانت تتحاشى تحديد الأسعار لسببين:

1 - معارضة الفقهاء الذين كانوا يعتقدون أن التسعير مناقض للشريعة الإسلامية. ومع أنه وجد من تصدى لتحقيق الأحاديث حول التسعير واعتقاد البعض أنها موضوعة[56]، إلا أن الرأي الذي بقي سائداً هو الذي يقول بعدم التسعير.

2 - إن تحديد الأسعار كان يوجد ظروفاً سيئة، فيعمد التجار إلى إقفال مخازنهم يخبئون فيها بضائعهم[57]، فترتفع الأسعار وتجبر السلطات على التراجع عن قراراها.

ويمكن القول إن تأثير السلطة على ارتفاع الأسعار كان ضمن الحدود التي تتدخل فيها مع رجال السلطة نفسها، ولكن لم يكن ينتج عن تدخلها هذا إلا اختلافات طفيفة في مستوى الأسعار، وفي الوقت نفسه نستطيع القول إن سياسة الحكومة لم تكن مسؤولة إلا جزئياً عن ارتفاع أسعار القمح في القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع. وهذا ما يحملنا على التساؤل: لماذا إذن كان سعر القمح يرتفع، وهو الغذاء الأساسي، في عهد ازدهار الامبراطورية الإسلامية؟.

يجيبنا التاريخ الإقتصادي على هذا التساؤل. إن العلاقة بين حجم الكتلة النقدية في بلد ما وبين مستوى الأسعار العام في اقتصاد يتميز بالملكية الخاصة لوسائل الإنتاج مؤكدة نظرياً، وثابتة إختبارياً. فالتوازن قائم بين حجم الإنتاج وبين كمية النقود التي بحوزة الجمهور والمعدة لشراء السلع وتأمين الخدمات، إلا أن ازدياد حجم الكتلة النقدية يؤدي إلى زيادة سرعة إنفاق هذا الفائض، فيرتفع الطلب على السلع والخدمات. والعلاقة بين التغير في حجم الكتلة النقدية والتبدل في مستوى الأسعار، هي علاقة إطرادية ووثيقة جداً، فكلما ارتفع حجم الكتلة النقدية ارتفع مستوى الأسعار أيضاً[58].

---

(55) المصدر نفسه، ص 157، 174.

(56) أنظر، المصدر نفسه، ج 1، ص 74، أبو يوسف، ص 53، تاريخ بغداد، ج 12، ص 93.

(57) ابن الأثير، ط. صادر، ج 8، ص 443.

(58) أنظر، يوسف شبل، آزمة الغلاء، (بيروت، 1978)، ص 60 - 61.

وعلى هذا يمكننا تفسير تذبذب الأسعار بشكل عام في العراق في العصر العباسي بتغير كميات المعادن الثمينة المتداولة. ونقترب أكثر من فهم هذه العلاقة إذا ما عرفنا أن النقد الذهبي لم يوضع قيد التداول الواسع في العراق إلا في نهاية القرن الثالث.

ولكن الغلاء كان قد بدأ منذ مطلع القرن الثالث، مما يعني أن هنالك أسباباً أخرى قد أسهمت في صنع هذا الغلاء، منها زيادة الطلب على القمح على الكمية المعروضة منه، وارتباطه بتناقص مساحة الأرض المزروعة وهجرة الفلاحين إلى المدينة[59]، ثم إهمال العناية بزراعة الأرض، وأخيراً، زيادة عدد السكان، وجميعها أسباب أدت إلى ارتفاع الأسعار.

وتسهم العادات الاستهلاكية في تحديد مرونة الطلب على السلعة، ففي حالات غلاء الطحين والخبز كانت المرونة تظهر في استعمال طحين القمح دائماً، ولكن بأشكاله المختلفة، النقي أو الخشكار المخلوط بالنخالة والأنواع الأخرى غير النقية، حتى أن الزنج أثناء ثورتهم، لم يأكلوا خبز الشعير، إلا بعد أن فقدوا القمح، أثناء تراجعهم العسكري[60].

ويبدو أنه خارج الفئات المسحوقة، لم يكن سكان العراق يأكلون خبز الأرز، في حين أن هذا الخبز كان منتشراً في الأهواز وغيرها[61]. وحين كان المؤرخون يتحدثون عن الخبز، فإنهم بالتأكيد كانوا يقصدون خبز القمح.

2 ـ اللحوم

تشكل اللحوم المادة الغذائية الأساسية بعد القمح والخبز؛ ويبدو أن معظم الأطعمة البغدادية كانت تعتمد على اللحوم. وتضمن كتاب «البخلاء» العديد من المقاطع التي يتحدث فيها عن اللحوم، كما يبين صاحب «كتاب الطبيخ» إعتماد المطبخ البغدادي اللحوم مادة أساسية، ويتحدث أبو المطهر الأزدي عن أنواع الأطعمة الجيدة ويضع في رأسها لحوم الحملان والطيور[62].

وكان الأغنياء يفضلون اللحوم الطرية، ففضل الحسن بن سهل المخ والمح والحمل

---

(59) أنظر، فاروق عمر، تاريخ ديونيسيوس التلمحري، ص 154، الهمذاني، تكملة الطبري، ص 178.

(60) أنظر، الطبري، ج 9، ص 631.

(61) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 229.

(62) الجاحظ، ص 11، 15، 23، 33، 43، حكاية أبي القاسم، ص 39 ـ 40.

الذي رضع شهرين ورعى شهرين، ومنهم من يفضل لحوم الحملان المطبوخة بالأرز واللبن، واعتبر لحم الحمل المشوي من أطعمة الوجهاء[63].

وكان الفقراء يأكلون لحوم البقر الغليظة ويكرهها الأغنياء لصعوبة هضمها. وكانوا أيضاً يأكلون بطون الماشية وأمعائها وأكارعها ورؤوسها ولحوم الجمال[64].

ويبدو أن أسعار اللحوم خضعت للظروف نفسها التي خضعت لها معظم السلع. ففي عهد أبي جعفر كان اللحم رخيصاً، فبيع كبش بدرهم وحمل بأربعة دوانيق، وفي جبانة كندة بيع ستون رطلاً من لحم الغنم بدرهم واحد، فيما كان ينادى في المحلة نفسها على لحم البقر تسعين رطلاً بدرهم. وفي عهد الأمين بيع الكبش بخمسة عشر درهماً والنعجة بعشرين[65].

والسبب في هذا الرخص هو سعي المنصور لتأمين العيش السهل للعاملين في المدينة الجديدة وتأمين وسائل الحياة لمن يريد الإقبال على بغداد.

ولكن لم تلبث أسعار اللحوم أن ارتفعت، نتيجة لزيادة سكان بغداد التي وصفت بأنها كانت معسكراً في أيام الرشيد إلى أيام المأمون، لكثرة الناس بها ومصيرهم إليها من كل بلد، فكان اللحم يعز في بعض الأوقات وربما بيع اللحم في العاصمة على ستة أوراق[66]. وفي عهد المهدي بيع البطن (الكرش) الدسم في بغداد بدرهم، وبيع رأس خروف في القرن الثالث بدرهم واحد[67]. ولاحظ الجاحظ الغلاء في السواد وبغداد بخاصة، فقد ذكر أن سعر الجدي في البصرة عشرة دراهم وفي بغداد أكثر من ذلك[68]، في حين بيع الجدي في الأهواز بدرهمين[69]، وكان سعر الجمل في بغداد عشرة دراهم[70] وفي القرن الرابع كان ثمن طعام جيد من الشواء لشخصين في أحد محلات شوائي بغداد

---

(63) الثعالبي، خاص الخاص، ص 56 ـ 57.

(64) التعبير في الرؤيا، ق 154، 155ب، أيضاً، حكاية أبي القاسم، ص 42.

(65) تاريخ بغداد، ج 1، ص 70. علي بن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص 40.

(66) ابن الفقيه، بغداد، ص 60.

(67) تاريخ بغداد، ج 9، ص 18، ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، بعناية محمد حامد الفقي (القاهرة، 1952)، ج 1، ص 430.

(68) البخلاء، ص 43.

(69) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 10.

(70) الأغاني، ط. الهيئة العامة، ج 21، ص 90.

يساوي عشرين درهماً[71].

وكان الإهتمام بتوفير اللحوم من المهمات الدائمة للسلطة، فكانت الأغنام تنقل بالسفن إلى بغداد حيث تباع في سوق الأغنام[72]، وكان ورود الماشية إليها يؤدي إلى خفض الأسعار، فقد انخفضت الأسعار فيها بعد أن غنم المعتضد أموال بني شيبان والأعراب وبيعت الشاة بدرهم والبعير بخمسة[73].

3 ـ السلع الغذائية الأخرى

البيض: ليس لدينا الكثير من الإشارات حول أسعاره، ففي بغداد اشترى تاجر بيض ثلاثين بيضة بأربعة دوانيق أي 2/3 الدرهم[74].

وعن أسعار السكر، لدينا إشارة وردت في أخبار سنة 364هـ، أثناء غلاء عدمت إثره الأقوات في بغداد وبيع العشرة الأمناء من السكر بنيف وأربعين درهماً[75]. ويبدو أن هذه الإشارة لا تحدّد نوع السكر، كما لا تترك مجالاً لتقدير نسبة الغلاء.

ولدينا أخبار مختلفة عن أسعار بعض السلع وهي من القلة بحيث لا نتمكن من تكوين نظرة عن تطور أسعارها. فقد بيع السمن في بغداد في عهد المنصور 12 رطلاً بدرهم و8 أرطال بدرهم، وبيع العسل 10 أرطال بدرهم والزيت 16 رطلاً بدرهم.

كذلك فإن الإشارات حول أسعار الخضار قليلة وأحياناً نادرة، ويبدو أن الأسعار كانت رخيصة، ربما بسبب انتشار المباقل في بساتين البيوت والأراضي القريبة من بغداد. فقد بيع الباقلاء في نهاية القرن الثالث في الكوفة 30 مداً بدرهم واحد[76]؛ ويبدو أنه كان رخيصاً جداً في بغداد في القرن الرابع فكان طعام الفقراء الأساسي ويعيّر آكلوه به[77]. وفي القرن الثالث بيع الباذنجان العشرين بدانق وبيع الخس 345هـ العشرون بدرهم[78].

---

(71) مقامات الهمذاني، المقامة البغدادية، ص 62.
(72) الطبري، ج 9، ص 349، تاريخ بغداد، ج 10، ص 133.
(73) ابن الأثير، ج 7، ص 76.
(74) الخطيب، ج 2، ص 318.
(75) المنتظم، ج 7، ص 76، والمن العراقي، يساوي 5،816 غ.
(76) تاريخ بغداد، ج 1، ص 70، ج 9، ص 466، 467.
(77) أنظر، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 22 ـ 23.
(78) النويري، نهاية الأرب، ج 4، ص 14، نشوار، ج 1، ص 129.

وكانت الطبقات الفقيرة تستهلك الكثير من الخضار والحبوب. فقد كان في بغداد في مطلع القرن الثالث أكثر من 600 مقلى للسويق يأكله الفقراء عندما يفتقد اللحم والفاكهة، فيتناولونه مع التمر والسكر وغيرهما. وذكر محمد بن صالح الهاشمي القاضي أنه في سنة 360هـ حصر في بغداد ما يباع من سويق الحمص في كل سنة فبلغ 240 كرّا، أي ما أصله 280 كراً من الحمص(79).

وتمدنا المصادر ببعض أسعار الثمار. ففي القرن الثالث بيع الكرّ اللوز بستين ديناراً، ثم لم يلبث أن ارتفع فأصبح سعره 90 ديناراً(80). وكان التمر من المأكولات الشائعة، فقد بيع في بغداد عند تأسيسها 60 رطلاً بدرهم. أما في القرن الرابع فقد بيع المائة رطل بدرهمين، وبالرغم من عدم اختلاف أسعاره بين هذين القرنين، إلا أن فلاحي بادوريا اشتكوا خراج التمر إلى الوزير علي بن عيسى وادعوا أنهم كانوا يدفعون درهماً بدل خراج النخلة التي تحمل مائة رطل. وبيع التمر في القرن الرابع بأسعار زهيدة، في سنة 313هـ كان الموسم مزدهراً، فبيع الرطب بحبة، وعمل منه تمر وحُمل إلى البصرة، ونسب أهل بغداد إلى البغي. وفي سنة 331هـ بيع الألف رطل بـ 7 دنانير، وفي سنة 332 بيع التمر رطلان بدرهم على أثر أمطار غزيرة سببت دماراً شاملاً في بغداد، فانتشر الغلاء. وفي سنة 364هـ، وعلى أثر ضائقة إقتصادية بيع التمر ثلاثة أرطال بدرهم(81).

4 ـ أسعار المنسوجات:

تمدنا المصادر بمعلومات طيبة عن أسعار بعض الملبوسات. ولعل هذا يستند إلى موروث ديني حدد الإطار الذي تراوح فيه أسعار الملبوسات. وذكر أبو طالب المكي أن بعض العلماء كانوا يكرهون أن يكون على الرجل من الثياب ما تجاوز قيمته الأربعين درهماً، وبعضهم يصل إلى مائة درهم. واعتبر ما جاوزها سرفاً. وذكر المكي أيضاً أن جمهور العلماء وخيار التابعين كانوا يرتدون ثياباً تتراوح قيمتها ما بين العشرين والثلاثين درهماً، وأن جمهور المتقدمين من الصحابة كانوا يدفعون أثمان أزرهم اثني عشر درهماً للإزار الواحد، فكانوا يلبسون ثوبين بقيمة نيف وعشرين درهماً. واشترى النبي صلى الله

(79) ابن الفقيه، بغداد، ص 59 ـ 60، الخطيب البغدادي، ج 1، ص 119 ـ 120.
(80) الخطيب، ج 9، ص 189.
(81) المصدر نفسه، ج 1، ص 87، أيضاً نشوار المحاضرة، ج 8، ص 87، المنتظم، ج 7 ص 76، 196، 33، الصولي، أخبار الراضي، ص 213.

عليه وسلّم ثوباً بأربعة دراهم، وكانت قيمة ثوبيه من عشرة دراهم إلى دينار، واشترى سراويل بثلاثة دراهم، ولبس يوماً واحداً ثوباً سيراء من سندس قيمته مائتي درهم[82]. وقومت ثياب سفيان الثوري ونعلاه بدرهم وأربعة دوانيق[83]. واشترى المنصور ثوبين ليّنين بثمانين درهماً، بعد أن طلب صاحب القماش مائة وعشرين درهماً[84]. وفي سنة 160هـ اشترى فقيه ثوباً بثماني دراهم ورأى زميل له أن لا يشتري قميصاً بأكثر من أربعة دراهم، في حين كانت ملابس هذا الزميل من رداء وإزار وقميص تساوي عشرة دراهم[85].

كانت أسعار الملبوسات تختلف بحسب أنواع القماش وثروة الناس. إلا أن الغالب غلاء الأسعار بالنسبة إلى مداخيل الأفراد، فكان الفقراء يعالجون حاجتهم بترقيع ثيابهم مرات عدة[86].

كانت ملابس أحد كتاب الخيزران خسيسة، أرفعها طيلسانه الذي يساوي 30 درهماً[87]. وفي القرن الثالث كان ثمن كساء درهمين[88]، وبيعت عمامة بـ 18 درهماً، وباع دعبل منديله بدرهم وكسر[89]، وكانت أجرة خياطة منديل في القرن الثالث درهمين. وفي سنة 228هـ بيع مطرف خز بأربعين ديناراً، وكانت جبة سعيدية تساوي 6 أو 7 دنانير[90].

وكانت الثياب الأنيقة تكلف غالياً، فملابس الليث بن سعد تساوي ما بين 18 و20 ألف درهم، وفي القرن الثالث كان الكساء الطبري يساوي 400 درهم والقومسي 100 درهم، وسرق ثوبان لمحمد بن عبد الله بن طاهر قيمتهما 1500 ديناراً[91]. وخلف أبو يوسف القاضي في جملة كسوته مائتي سراويل خز، وكانت كل من هذه

---

(82) قوت القلوب، ج 1، ص 525، والسيراء نوع من البرود فيه خطوط صفراء ويخالطهاالحرير.

(83) المصدر نفسه، ص 524.

(84) الطبري، ج 8، ص 99.

(85)تاريخ بغداد، ج 9، ص 261، 262.

(86) البخلاء، ص 37، الطبري، ج 8، ص 253.

(87) طيفور، تاريخ بغداد، ص 14.

(88) بدائع البدائه، ص 44، أيضاً، الجهشياري، نصوص ضائعة من كتاب الوزراء، بعناية ميخائيل عواد (بيروت، 1964)، ص 32.

(89) الخطيب البغدادي، ج 2، ص 48، ج 10، ص 315.

(90) المصدر نفسه، ج 2، ص 262.

(91) المصدر نفسه، المكان نفسه، الحيوان، ج 3، ص 27، الديارات، ص 123.

السراويلات مختصة بتكة أرمنية تساوي ديناراً، وفي القرن الرابع كانت التكك الأرمنية في بغداد تباع الواحدة منها من دينار إلى عشرة[92] وبيعت مجموعة من الأثواب الخز الخضراء اللون، فكان سعر أقلها جودة مائة دينار[93].

وفي سنة 282هـ بيع في البصرة ثوب مصمّت بعشرة دنانير. وكفن الخليفة المعتضد 289هـ بثوبين قوهيين ثمنهما 16 قيراطاً[94]. وفي سنة 301هـ اشترى القاضي أبو عمر شقة قميص بمائتي دينار وكانت الشقة من النوع الدبيقي التستري الفاخر، فيما كان ثمن دراعه وقميص الوزير علي بن عيسى عشرين ديناراً[95]. وبيعت فرجية[96] الطائع سنة 363هـ، وكانت من الوشي القديم بمائة وأربعين ديناراً. وكان لأبي عمر القاضي حوالي سنة 368هـ ثوب يماني قيمته خمسون ديناراً. وكان لدى عضد الدولة سنة 372هـ خزانة فيها مجموعة من سقلاطونيات قيمة الثوب منها خمسة دنانير[98]. ودفع أحدهم ثمن مقنعة للرأس ثلاثة دراهم.

ولدينا بعض الاشارات حول أسعار البسط (مفردها بساط) في القرن الثالث، منها ما بلغ ثمنه 50 ألف درهم، ومنها ما بلغ 5000 درهم ومنها ما ثمنه 700 درهم[99].

5 ـ سلع مختلفة

ليس لدينا سوى معلومات ضئيلة عن أسعار بعض السلع الأخرى. فقد دفع أحد الزهاد دانقين ثمن صابون للحمام[100]. وكان سعر 3 ـ 4 إبرات في القرن الرابع درهماً. ودفع رجل درهمين ثمناً لعصا مجوفة. ودفع أحدهم دانقاً ثمن «ورقة دواة» ليكتب

---

(92) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 254، ابن حوقل، ص 296.

(93) الديارات، ص 44.

(94) المنتظم، ج 5، ص 159، ج 6، ص 34.

(95) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 51.

(96) الفرجية، كساء واسع ذات أكمام واسعة طويلة وكانت من ملابس العلماء عادة، أنظر، Dozy, Dictionnaires des vêtements, p.p. 377 ff.

(97) المنتظم، ج 7، ص 67.

(97) غرس النعمة، الهفوات النادرة، ص 54، نشوار المحاضرة، ج 3، ص 129، ذيل مسكويه، ج 3، ص 67.

(99) الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 18، 286.

(100) المنتظم، ج 5، ص 6.

رسالة[101]. ودفع ناسخ خمسة دراهم ثمن كاغد نسخ عليه ديوان المتنبي[102]، وكان رطل الحبر يباع بأربعة دراهم، واشترى الشريف الرضي (ت 406هـ) جزءاً من امرأة بخمسة دراهم، فوجد فيه جزءً بخط ابن مقلة، فدفع ثمن الرقعة خمسة دراهم أخرى. وبيع صحن من دار الشريف الرضي بتسعة وأربعين درهماً، فيما كان ثمنه خمسة دنانير[103]. وبيع دورق بدرهم. واشترت أم المقتدر طائراً بألفي درهم، وبيع عقد في القرن الرابع بمائة وعشرين ألف دينار[104].

وفي القرن الثالث دفع أحدهم ألف درهم مهراً لزوجته. وزوّج قائد شرطة بغداد بناته ودفع لكل واحدة منهن خمسة آلاف دينار ليؤمن لهن البحبوحة والستر، ودفع للمأذون الشرعي خمسمائة دينار، ودفع أحد الرجال المتوسطي الدخل مهراً قيمته ألفا درهم[105].

وباع حواء أفعى بدينارين؛ وبيع عشرون عقرباً بدرهم، وبيع سنور صغير بدرهم، وبيع سرج من جلد نمور البربر بخمسين ديناراً[106].

6 ـ أسعار الجواري والرقيق

أقبلت البيوت العباسية على اقتناء الرقيق من جوار وخصيان، واختلفت أسعار الرقيق بحسب استخدامه. ودخلت عوامل أخرى في تحديد سعره، فالخصي يباع أغلى من الفحل، والساذجة تباع أرخص من المدربة، والشقراء أغلى من السوداء[107].

ولدينا جملة من الأخبار حول أسعار الرقيق، ففي القرن الثالث بيع العبد بمائتي درهم. وبيع العبد المعدّ للعمل المنزلي بعشرة دنانير[108]، وأهدي ماسويه الطبيب جارية مدربة وجميلة ثمنها 800 درهم، وكان ليعقوب بن الربيع جارية أعطي فيها مائة ألف

---

(101) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 190، ج 2، ص 166، ج 5، ص280.

(102) ابن أبي يعلى، ج 2، ص 187.

(103) المنتظم، ج 7، ص 183، 279. 280، 114 الخطيب البغدادي ج 9، ص 189، الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 99، ج 4، ص 11.

(105) المصدر نفسه، ج 3، ص 150، ج 4، ص 7، بدئع البدائه، ص 44.

(106) الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص114، 202، ج 5، ص 315، التبصر بالتجارة، ص 24.

(107) الجاحظ، رسائل، ج 2، ص 165، أيضاً، ابن بطلان، رسالة في شري الرقيق وتقليب العبيد، مصدر سابق، ص 372، 379.

(108) الأغاني، ج 3، ص 212، الجاحظ، الحيوان، ج 6، ص 410.

دينار فلم يبعها[109]. وطلب الناطفي ثمن جاريته عنان من هارون الرشيد مائة ألف دينار، فلم يدفع، وتمكن من ضمها إلى نفسه بعد وفاة سيدها مقابل 250 ألف درهم، وكانت عنان من مولدات اليمامة، اشتراها الناطفي ورباها، وكانت صفراء جميلة الوجه مليحة الأدب والشعر، سريعة البديهة. وبيعت جارية بعشرين ألف درهم، وبيعت «حبشية» جارية عون في القرن الثالث بمائة وعشرين ألف دينار[110].

وإذا كان في هذه الأسعار طابع المبالغة، إلا أنها تعطينا فكرة عن الغلاء الذي أصاب الجواري فرفع أثمانهن في القرن الثالث.

لكن أسعار الغلمان كانت أقل بكثير من أسعار الجواري. فقد اشترى أبو العيناء سنة 283هـ من البصرة غلاماً بـ 30 ديناراً[111]، وروى إسماعيلويه الربان لبزرك بن شهريار صاحب كتاب «عجائب الهند» رواية تحايله على ملك سفالة الزنج وسبعة من مرافقيه، وكيف تمكن من ضمهم إلى عبيده، وقدّر ثمن الملك بثلاثين ديناراً، وقدر ثمن مرافقيه السبعة بمائة وستين ديناراً، وعليهم ثياب تساوي عشرين ديناراً[112]، أي بمعدل عشرين ديناراً للعبد، وهي الأسعار التي كان ينادى بها على الزنوج في سوق النخاسة بعُمان التي كانت مركزاً لتجارة العبيد. علماً بأن عبيد أفريقيا صنفوا من النوع غير المرغوب فيه، ومع ذلك فقد اشترى طاهر بن الحسين غلاماً ساقياً بألف دينار، ولو طلب بائعه مائة ألف لأعطيها[113]، وارتفعت أسعار الرقيق البيض في القرن الرابع، وهم الذين كانوا يحملون من بلاد الصقالبة خلف خوارزم وقد انقطعوا بخراب الثغور مما رفع أسعارهم، فبيعت الجارية والخادم من غير صناعة على وجوههما بألف دينار[114]. وأكثر وفي القرن الرابع أيضاً، باع أحدهم جارية له مغنية بألف وخمسماية درهم نتيجة الحاجة الماسة إلى المال. وعرض نخاس في بغداد في القرن الرابع جارية كبيرة القدم وطلب ثمنها خمسة آلاف درهم. وبيعت «حبابة» في بغداد بثلاثين ألف درهم عزية[115]، واشترى

(109) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص 245، تاريخ بغداد، ج 14، ص 267.

(110) الأغاني، الهيئة العامة، ج 23، ص 85، 91. الرقيق النديم، قطب السرور في أوصاف الخمور، ص 69، الجاحظ، رسائل، ج 2، ص 177.

(111) المنتظم، ج 5، ص 159.

(112) عجائب الهند، بعناية، نقولا زيادة، ص 111 ـ 112.

(113) المقدسي، ص 242، المنتظم، ج 6، ص 282، قطب السرور، ص 2.

(114) المقدسي، ص 24، الاصطخري، ص 45.

(115) نشوار المحاضرة، ج 5، ص 180، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص 75، والدراهم العزية نسبة إلى عز الدولة بختيار البويهي.

أحد متوسطي النعمة جارية مغنية بألف دينار، واشترى ابن رائق أمير الأمراء جارية مولدة كانت لابنة ابن حمدون النديم وكانت سمراء موصوفة بحسن الغناء، فدفع ثمنها 13 ألف دينار ودفع لمن دله عليها ألف دينار. وفي سنة 326هـ طولب ابن عبدوس بمال تقرر أمره على خمسة عشر ألف دينار، أخذت منه بألوف منها جارية مغنية كانت له وترك له من أجلها الباقي[116].

---

(116) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 183، المنتظم، ج 6، ص 391، الصولي، أخبار الراضي، ص 101.

أسعار الأطعمة من مصدر حيواني

السلعة	السعر	الفترة التاريخية	ملاحظات	المصدر
جمل	$\frac{1}{3}$ الدرهم	عهد المنصور	رخص	تاريخ بغداد، ج 1، ص 70
كبش	درهم واحد	عهد المنصور	رخص	تاريخ بغداد، ج 1، ص 70
كبش	15 درهماً	عهد الأمين	غلاء	الأزدي، بدائع البداائة، ص 40
نعجة	20 درهماً	عهد الأمين		الأزدي، بدائع البداائة، ص 40
جدي	أكثر من 10 دراهم	القرن الثالث	غلاء	البخلاء، ص 43
جدي	درهمان	القرن الثالث	في الأهواز	نشوار المحاضرة، ج 2، ص 10
جمل	10 دراهم	القرن الثالث		الأغاني، ج 21، ص 90
جمل	خمسة دراهم	عهد المعتضد	رخص بسبب الغنائم	ابن الأثير، ج 7، ص 76
شاة	درهم واحد	عهد المعتضد	رخص بسبب الغنائم	ابن الأثير، ج 7، ص 76
تيس	دينار واحد	القرن الرابع		الهفوات النادرة، ص 59
لحم بقر	90 رطلاً بدرهم	عهد المنصور	القرن الثاني - رخص	تاريخ بغداد، ج 1، ص 70
لحم	6 دراهم	عهد الرشيد	غلاء	ابن الفقيه، بغداد، ص 60
لحم البطن (الكرش)	درهم واحد	عهد المهدي	—	تاريخ بغداد، ج 9، ص 18
رأس خروف	درهم واحد	القرن الثالث	—	الفراء، طبقات الحنابلة، ج 1، ص 430
شواء لشخصين	20 درهماً	القرن الرابع	—	مقامات بديع الزمان، ص 62
البيض	45 بيضة بدرهم	القرن الثالث	—	تاريخ بغداد، ج 2، ص 318
السمن	12 رطلاً بدرهم	عهد المنصور	رخص	تاريخ بغداد، ج 1، ص 70
العسل	10 أرطال بدرهم	عهد المنصور	رخص	تاريخ بغداد، ج 1، ص 70

أسعار الأطعمة من مصدر نباتي

السلعة	السعر	الفترة التاريخية	ملاحظات	المصدر
الزيت	16 رطلاً بدرهم	عهد المنصور	رخص	تاريخ بغداد، ج 1، ص 70
الباقلاء	20 مداً بدرهم	نهاية القرن الثالث	رخص في الكوفة	تاريخ بغداد، ج 9، ص 466 ـ 67
الباذنجان	20 حبة بـ $\frac{1}{2}$ الدرهم	القرن الثالث	رخص	النويري، نهاية الأرب، ج 4، ص 14
الخس	20 خسة بدرهم	سنة 345 هـ	رخص	نشوار المحاضرة، ج 1، ص 129
اللوز	60 ثم 90 درهماً للكر	القرن الثالث	ارتفاع السعر	تاريخ بغداد، ج 9، ص 189
التمر	60 رطلاً بدرهم	عهد المنصور	يستمر السعر في هذا المستوى	تاريخ بغداد، ج 1، ص 87
التمر	رطلان بدرهم	332 هـ	دمار وغلاء	أخبار الراضي، ص 213
السكر	المن بأربعة دراهم	364 هـ	غلاء/المن 816,5 غ	المنتظم، ج 7، ص 76

أسعار الجواري والغلمان

السلعة	السعر	الفترة التاريخية	ملاحظات	المصدر
عبد	200 درهم	القرن الثالث		الأغاني، ج 3، ص 212
عبد	10 دنانير	القرن الثالث	معد للعمل في المنزل	الحيوان، ج 6، ص 410
جارية	800 درهم	القرن الثالث	مدربة وجميلة	ابن أبي أصيبعة، ص 245
جارية	100 ألف دينار	القرن الثالث	مغنية رفيعة التدريب	الأغاني، ج 23، ص 85، 91
جارية	120 ألف دينار	القرن الثالث	حبشية	رسائل الجاحظ، ج 2 ص 177
غلام	30 ديناراً	القرن الثالث	في البصرة	المنتظم، ج 5، ص 159
عبد إفريقي	30 ديناراً	القرن الرابع	ملك سفالة الزنج	عجائب الهند، ص 111 ـ 112
عبد افريقي	20 ديناراً	القرن الرابع	مع ثيابه	عجائب الهند، ص 111 ـ 112
غلام ساقٍ	ألف دينار	القرن الثالث		قطب السرور في أوصاف الخمور، ص 2
جارية أو غلام ساذج	ألف دينار	القرن الرابع	صقلي ـ ندرة	المقدسي، الاصطخري ص 45
جارية مغنية	1500 دينار	القرن الرابع	سعر رخيص	نشوار، ج 5، ص 280
جارية كبيرة القدم	5 آلاف درهم	القرن الرابع		حكاية أبي القاسم، ص 75
جارية مغنية	30 ألف درهم	القرن الرابع	حبابة المشهورة	حكاية أبي القاسم، ص 75
جارية مغنية	13 ألف دينار	القرن الرابع	سعر رخيص	نشوار، ج 1، ص 183
جارية مغنية	١٣ ألف دينار	القرن الرابع		المنتظم، ج 6، ص 391
جارية	15 ألف دينار	القرن الرابع		الصولي أخبار الراضي 101

أسعار المنسوجات

السلعة	السعر	الفترة التاريخية	ملاحظات	المصدر
بساط	700 ـ 50 ألف درهم	القرن الثالث		الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 18، 286
10 خرق لصنع قلنسوة	20 ديناراً	القرن الرابع		المفوات النادرة، ص 326
طيلسان	30 درهماً	القرن الثاني	صاحبه فقير	الطبري، ج 8، ص 253
كساء	درهمان	القرن الثالث		طيفور، تاريخ بغداد، ص 14
منديل	درهم وكسر	القرن الثالث	صاحبه دعبل الخزاعي	نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب، ص 32
قميص	4 دراهم	القرن الثالث	صاحبه زاهد	تاريخ بغداد، ج 9، ص 261
كساء طبري	400 درهم	القرن الثالث		الحيوان ج 3، ص 27
كساء قومسي	100 درهم	القرن الثالث		الحيوان، ج 3، ص 27
ثوب	750 ديناراً	القرن الثالث	صاحبه أمير بغداد	الديارات، ص 123
ثوب أخضر خزّ	100 دينار	القرن الثالث		الديارات، ص 44
ثوب مصمّت	10 دينانير	282 هـ	في البصرة	المنتظم ج 5، ص 159
ثوب قوهي	8 دراهم	289 هـ		المنتظم، ج 6، ص 34
ثوب يماني للقاضي	50 ديناراً	368 هـ		المفوات النادرة، ص 54
ثوب سقلاطوني	5 دنانير	372 هـ		نشوار المحاضرة، ج 3، ص 129
عمامة	18 درهماً	القرن الثالث		بدائع البدائة، ص 44
جبة سعيدية	6 ـ 7 دنانير	القرن الثالث		تاريخ بغداد، ج 10، ص 315
مطرف خزّ	40 ديناراً	228 هـ		تاريخ بغداد، ج 10، ص 315
قماش قميص دبيقي	200 دينار	301 هـ	للقاضي	نشوار، ج 1، ص 51
قميص	20 ديناراً	301 هـ	للوزير علي بن عيسى	نشوار، ج 1، ص 51
فرجية	170 دينار	363 هـ	للخليفة الطائع	المنتظم، ج 7، ص 67
تكة أرمنية	1 ـ 10 دنانير	القرن الثاني ـ الرابع	—	نشوار، ج 1، ص 254، ابن حوقل، ص 296

أسعار بعض سلع مختلفة

السلعة	السعر	التاريخ	ملاحظات	المصدر
حمل تبن	10 دراهم	القرن الرابع	غلاء	المنتظم، ج7، ص76
صابون للحمام	دانقان	القرن الثالث		المنتظم، ج7، ص6
إبرة	3 ـ 4 إبرات بدرهم	القرن الرابع		نشوار، ج1، ص190
عصا	درهمان	القرن الرابع		نشوار، ج2، ص166
ورقة	1/2 درهم	القرن الرابع		نشوار، ج2، ص280
كاغد	5 دراهم	القرن الرابع	كاغد كبير	طبقات الحنابلة، ج2، ص187
رطل حبر	4 دراهم	القرن الرابع		المنتظم، ج7، ص183
جزاز	5 دراهم	القرن الرابع		المنتظم، ج7، ص279
رقعة خط	5 دراهم	القرن الرابع	بخط ابن مقلة	المكان نفسه
صحن	49 ديناراً	القرن الرابع		المنتظم، ج7، ص280
دورق	دانق	القرن الثالث		تاريخ بغداد، ج9، ص189
طائر	2000 درهم	القرن الرابع		الفرج، ج3، ص99
عقد جواهر	120 ألف دينار	القرن الرابع	طائر زرياب مغني	الفرج، ج4، ص11
مهر زوجة	2000 درهم	القرن الثاني		الفرج، ج3، ص150
مهر زوجة	1000 درهم	القرن الثالث	مهر عادي	بدائع البدائه، ص44
عقارب	20 عقرباً بدرهم	القرن الثالث	مهر عادي	الحيوان، ج4، ص114
أفاعي	ديناران	القرن الثالث		الحيوان، ج4، ص202
سنور صغير	درهم	القرن الثالث	للصيادلة	الحيوان، ج5، ص315
سرج من جلد نمور البربر	50 ديناراً	القرن الثالث		التبصر بالتجارة، ص24

القسم الثاني: الأجور والرواتب

1 ـ الأجور:

تعطي المصادر بعض المعلومات عن أجور العاملين في بغداد، وتأتي هذه المعلومات متناثرة دون أن تمكننا من تكوين نظرة دقيقة حولها.

كان الأستاذ من الصناع العاملين في بناء بغداد يتقاضى يومياً من قيراط إلى خمس حبات[1]. وعمل رئيس البنائين يوماً وبعض يوم في بناء طاق فطلب أجرة عن عمله خمسة دراهم، إلا أن المنصور ساومه وأعطاه أربعة دراهم عن تلك المدة[2]، مما يجعلنا نقدر أجره اليومي بأربعة دراهم، لأن المنصور كان يرمي إلى اختبار طاقة رئيس البنائين الإنتاجية في سبيل تقدير نفقات بناء مدينته، وليتمكن من مطالبة الموظفين المشرفين على البناء بالفائض من الأموال حسب تقديراته. وكان أحد العبيد يعمل في الخياطة ويدفع لسيده درهمين يومياً كضريبة، وكان يتقاضى درهمين أجرة خياطة القميص، ودرهماً أجرة خياطة السراويل[3]، واكتفى هذا العبد بدرهمين أجرة خياطة رداء، بعد أن تناول الطعام وبعض الشراب عند صاحب الرداء، مما يجعلنا نقدر أجره اليومي بثلاثة دراهم. وكان من يعمل في الوشي في عهد المهدي يتقاضى مائة درهم شهرياً[4].

وفي عهد الرشيد كان المشرف على مطبخ هرثمة بن أعين يتقاضى 15 درهماً شهرياً، ثم زيد إلى عشرين، ثم إلى أربعة وعشرين بعد أن أبلى المشرف في الاقتصاد بالنفقات، وسمح له سيده المقتر بأن يتناول طعامه مما يطبخ[5].

وكان «الزَّجّاج» في القرن الثالث يعمل في خرط الزجاج ويتقاضى أجراً يومياً بمقدار درهم ودانقين أو درهم ونصف، ويدفع منها درهماً أجرة تعمله النحو، وشرط على نفسه أن يدفع للمبرد درهماً في اليوم مدى حياته[6]. واضطر حداد في القرن الرابع لأن يعمل بدرهم واحد يومياً. ودفع بقال لكاتب حساباته نصف درهم وطعاماً وكسوة[7].

---

(1) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 70، الطبري، جـ 7، ص 655، والقيراط 1/12 من الدرهم ويساوي أيضاً 4 حبات.

(2) الطبري، ج 7 ص 654 ـ 655.

(3) المسعودي، مروج الذهب، ج 2، ص 284، أيضاً، ، الفرج، جـ 2 ص 39.

(4) الخطيب البغدادي، ج 9، ص 288.

(5) نشوار المحاضرة، ج 8، ص 45.

(6) المصدر نفسه، ج 1، ص 174، ج 4، ص 324.

(7) الفرج بعد الشدة، ط. بيروت، ج 2، ص 247، ج 4، ص 324.

وكان أحد الناسخين في القرن الثالث ينسخ الجزء الأول من كتاب «المغازي» فيبيعه بعشرة دنانير[8]. وكان الحسن بن شهاب (335 ـ 427هـ) ينسخ الكتب، فيشتري كاغداً بخمسة دراهم ويبيعه بعد نسخه بمائتي درهم، وأقله بمائة وخمسين درهماً، وكسب من الوراقة خمسة وعشرين ألف درهم راضيّة[9]. وتقاضى الكسائي 70 ديناراً أجرة تدريس كتاب سيبويه، وكان أبو بكر العسكري لا يقرىء كتاب سيبويه إلا بمائة دينار[10]، واشترك ثلاثة رجال في القرن الرابع في دفع ثلاثة دنانير أجرة تعلم كتاب «الألفاظ» للفراء[11].

أما أجور العمال العادين فكانت متدنية جداً. فقد كان الروزكاري العامل في بناء بغداد يتقاضى أجراً يومياً من حبتين إلى ثلاث حبات[12]، وكان أحد الخدم يعمل في قصر أبي جعفر مقابل عشرين درهماً في الشهر، وتقاضى عبد عن أجره اليومي أربعة أرغفة[13]. وفي القرن الثالث كان إسماعيل الديلمي يعمل في حراسة الأرحاء ويتقاضى 1/3 درهم في السهرة[14].

وكان أحد صغار الباعة يبيع الفلفل بقيراط والحمص بقيراط، فلا يربح إلا الحبة والحبتين من خشب الفلفل، وكان أصحاب البيوع الصغيرة يحصلون على أرباح مماثلة[15] وكان ملاح يتقاضى درهمين أجرة نقل راكب في نهر دجلة؛ ودفع أحدهم درهمين أجرة حفر قبر، ودفع عبد ديناراً ثمن كتاب عطف ومحبة ليسترجعه سيده. وادعى عطار في القرن الرابع أنه ربح في عام واحد مبلغ ألف وستماية دينار[17].

وكانت بعض الأجور تدفع عيناً لا نقداً. فكان الفلاحون يتقاضون أجورهم عيناً من عمال الخليفة أو من مشتري الغلات والمحاصيل. وكان أحد العبيد يتقاضى أربعة

---

(8) الخطيب البغدادي، ج 10، ص 113.

(9) ابن أبي يعلى الفراء، طبقات الحنابلة، ج 2، ص 187، والمقصود بالدراهم الراضية نسبة إلى الخليفة الراضي، أي دراهم صحيحة.

(10) معجم الأدباء، ج 6، ص 85، ج 7، ص 42.

(11) الخطيب البغدادي، ج 12، ، ص 156.

(12) الطبري، ج 7، ص 655، الخطيب البغدادي، ج 1، ص 70.

(13) الفرج بعد الشدة، ج 2، ص 400، ج 4، ص 53.

(14) ابن أبي يعلى، ج 1، ص 107.

(15) البخلاء، ص 31، الفرج بعد الشدة، ج 1، ص 224.

(16) الفرج بعد الشدة، ج 1، ص 255، ج 3، ص 65، ج 4، ص 348.

(17) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 245.

أرغفة عن أجره اليومي، وتقاضى قاص ثلاثة أرطال من الخبز أجرته، ودفع تاجر يهودي لأحد الفقهاء أجراً ثلاثة أرطال خبزاً ودانقي فضة عن عمله في الدكان يومياً. وعرض بجكم أمير الأمراء ببغداد على عمال استخدموا في حفر أرض له أن يعطيهم التراب الذي يجتمع من حفرهم فأبوا، وأعطوا ألف دينار. وكان معز الدولة قبل إمارته يحتطب لأهله ويتقاضى أجره خبزاً وبصلاً، وتقاضى نسّاخ كواغد بدلاً عن نسخه وتذهيبه لجزء من القرآن[18].

ولدينا عدة إشارات عن معدل نفقات العائلة الشهرية، وتعود هذه الإشارات إلى أسرات متباينة الأحوال في فترات مختلفة. ففي عهد الرشيد كانت العائلة الفقيرة تحتاج إلى 300 درهم سنوياً، واحتاجت عائلة أخرى إلى 600 درهم[19]. وفي عهد المأمون كانت العائلة في حاجة إلى 15 ديناراً شهرياً للطعام والحاجات الضرورية فقط[20]، وعرض المعتضد على أحد اللصوص بأن يرسمه التوابين وأن يعطيه عشرة دنانير شهرياً تكفيه لعيشة مريحة[21]، وأطلع إسماعيل القاضي على خلة أحد الوكلاء ببابه فأمر بأن يخرج له عشرين درهماً في كل شهر[22]. وأجرى ابن أبي حامد (القرن الرابع) على رجل دينارين وقفيز دقيق شهرياً، بعد أن اكتشف عجزه عن سد نفقاته[23]. وفي القرن الرابع كان مبلغ ثلاثين ديناراً يكفي النفقات الشهرية لإحدى عائلات الفئات المتوسطة. فقد عمل أب على أن يعد لولده لكل يوم ديناراً مدة عمره وهو معدل ما يكفي الرجل المتوسط وعياله، «وكان أحد الفقهاء، ينفق ديناراً كل يوم ولا يكفيه أقل منه دانقاً»[24].

ويمكننا أن نقرر بأن مبلغ الثلاثين ديناراً لم يكن باستطاعة العديد من تحصيله. فقد كان أحد الموسرين يعمد إلى صغار الباعة فيعطيهم من عشرة دنانير إلى مائة درهم ليزيد في رؤوس أموالهم، كما يعمد إلى من يبيع في الأسواق مثل طنجير وقدر وقميص خلق، وإلى امرأة تبيع غزلها، فيعطيهم أضعاف أثمان ما يبيعون ليحسنوا أوضاعهم[25].

---

(18) المصدر نفسه، ج 2، ص 97، ج 8، ص 118؛ الفرج بعد الشدة، ج 2، ص 400، الهفوات النادرة، ص 66، المنتظم، ج 6، ص 322، ج 7، ص 525، معجم الأدباء، ج 5، ص 448.

(19) نشوار المحاضرة، ج 5، ص 285، وكيع، ج 7 ص 246.

(20) الفرج بعد الشدة، ج3، ص 84.

(21) المسعودي، مروج الذهب، ج 2، ص 508.

(22) البصائر والذخائر، ج 3، ص 177 ـ 178.

(23) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 348.

(24) المنتظم، ج 6، ص 333، الخطيب البغدادي، ج 13، ص 190.

(25) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 117 ـ 118.

2 ـ الرواتب:

رواتب الموظفين: كان صغار الموظفين يتقاضون رواتب ضئيلة بالنسبة لرواتب كبار الموظفين، إلا أنها كانت على أي حال أعلى من مداخيل عامة الناس.

بلغت الرواتب في العهد الأموي، وأول العهد العباسي ثلاثمائة درهم وما دونها. فكان الحجاج يجري على يزيد بن أبي مسلم ثلاثمائة درهم شهرياً. وعرض على جرير الرازي (الربع الأخير من القرن الثاني) أن يتولى ربعاً من الأرباع، على أن يخصص له مائة درهم شهرياً[26]. ولم تزل الرواتب في عهد العباسيين في هذا المستوى حتى بعض عهد المأمون، إذ وسع الفضل بن سهل على الكتاب جراياتهم، فكان أول من سَن زيادة الأرزاق[27].

إلا أن بعض الرواتب لم تزل صغيرة. فقد خُص أحد البوابين بجارٍ سنوي بلغ خمسين ديناراً، وبلغت أجرة صاحب جمال المعتمد ثلاثين ديناراً شهرياً[28]. وفي القرن الرابع كان صاحب خبر يتقاضى سبعة دنانير برسم النوبة. وكان ابن جبير يكتب بين يدي ابن الفرات وكان راتبه خمسة وعشرين ديناراً. ولما تولى ابن الفرات الوزارة بلغ به إلى مائة دينار، وكان يعقوب بن إصطفن يتقاضى في أيام مؤنس عشرة دنانير ثم بلغ أربعين ديناراً في وزارة ابن الفرات الثانية. وكان ابن مقلة يكتب لأبي الحسن بن الفرات في ولاية أخيه أبي العباس على ديوان السواد، ويتقاضى أجره عشرة دنانير شهرياً، ثم تقدمت حال ابن الفرات فأرزقه ثلاثين ديناراً. ولما تقلد أبو الحسن الوزارة جعل رزق ابن مقلة 500 دينار شهرياً[29]. ويمكن أن نعتبر أنه في مطلع القرن الرابع كان الكاتب المبتدىء يتقاضى عشرة دنانير، والكاتب المتوسط الخبرة يتقاضى عشرين ديناراً، والكاتب الجيد التدريب يتقاضى بين 30 و40 ديناراً. وكان صغار الكتبة يتابعون تدريباً خاصاً يتضمن المعرفة بأصول الكتابة في الدواوين وتحسين الخط[30].

وكان بعض الكتبة والموظفين يقبضون رواتب متوسطة، فقد أعطي أبو معشر

---

(26) الطبري، ج 8، ص 96، الخطيب البغدادي، ج 7، ص 258.

(27) الثعالبي، لطائف المعارف، ص 22، الطبري، ج 8، ص 95.

(28) نشوار المحاضرة، ج 8، ص 57، 64؛ أيضاً، الفرج، ج 2، ص 115، 242.

(29) الصابي، الوزراء، ص 158، 164، 198.

(30) نشوار المحاضرة، ج 8، ص 54 ـ 55.

المنجم 100 دينار راتباً وثلاثين ديناراً نزلاً، نظير رئاسته للمنجمين في قصر المعتز[31].
وفي سنة 306هـ أعطي كاتب في ديوان عطاء المغرب مائة وخمسين ديناراً، وأعطي آخر في بيت المال 180 ديناراً. إلا أن الرواتب أنقصت في سنة 315هـ في محاولة من علي بن عيسى لإصلاح الوضع المالي، فاقتصر في أرزاق العمال على عشرة أشهر في السنة، وفي أرزاق أصحاب البرد والمنفقين على ثمانية أشهر في كل سنة، فكان الفتح بن جعفر يتقاضى عن ديوان المشرق مائة دينار كل شهر، وتقاضى ابن مقلة 100 دينار عن ديوان الخاصة[32].

وكان رأس الجالوت الذي يمثل الطائفة اليهودية لدى الخليفة يتقاضى سنوياً سبعمائة دينار تقتطع من المبلغ الذي يدفعه اليهود جزية، وخصص رئيس مدرسة سورا الدينية بمبلغ ألف وخمسمائة دينار سنوياً تدفع لمؤسسته[33].

أما عن رواتب ومخصصات الهيئة القضائية والوظائف المشابهة لها، فنعرف أن محتسب بغداد سنة 315هـ كان يتقاضى مائة دينار شهرياً. وفي عهد المعتضد كانت مخصصات القاضي وخليفته وأولادهما وعشرة من الفقهاء تبلغ خمسمائة دينار شهرياً[34]. ويعتقد أن للقاضي وأولاده منها 200 دينار، ولخليفته وأولاده مائة دينار، وخصّ كل من الشهود بعشرين ديناراً[35].

وفي سنة 334هـ تسلم محمد بن صالح الهاشمي قضاء بغداد، ولما أسندت إليه رئاسة القضاة، شرط ألا يتناول على القضاء أجراً، ورتب لكاتبه في كل شهر ثلاثمائة درهم، ولحاجبه مائة وخمسين درهماً، ولمن يعرض عليه الأحكام مائة، ولخازن ديوان الحكم ومن معه من الأعوان ستمائة درهم[36].

ـ **أجور الأطباء**: اهتم الخلفاء بالأطباء، وأكرموهم وأغدقوا عليهم. فقد أعطي ماسويه الطبيب في القرن الثاني راتباً شهرياً بلغ 600 درهم، وعلوفة دابتين، ونزل خمسة غلمان، خصه بها الفضل بن الربيع. وأجرى عليه الرشيد، بعد أن أصبح طبيبه

---

(31) المصدر نفسه، ص 57.

(32) مسكويه، ج 1، ص 68، 158، الصابي، الوزراء، ص 340.

(33) Ashtor,prix, op. cit., p. 67.

(34) مسكويه، ج 2، ص 34، الصابي، الوزراء، ص 26.

(35) عبود الشالجي، الرواتب في الإسلام، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد 26، (بغداد، 1975)، ص 269.

الخِـاص، مبلغ ألفي درهم في الشهـر، وخصـه بمعـونـة سنـويـة بلغت عشرين ألف درهم[37]. وفي القرن الرابع أعطى معز الدولة جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع، لمعالجته جارية الأمير، مبلغ ألف درهم وملابس ثمينة، وأعطته الجارية ألف درهم أخرى وأعطيات غيرها، ووصله الصاحب بن عباد بعد أن زاره في الري بمبلغ ألف دينـار[38]. وكـان جبرائيـل يتقاضى في حـوالي 360هـ عن عمله في البيمارستـان مرتبـاً شهريـاً قـدره ثلاثمابة درهم شجاعية، ، وله رسم خاص ثلاثمابة درهم أخـرى[39]. وفي عهد المعتضـد كانت أرزاق رؤساء المتطببين وتـلامذتهم في القصر الملكي تبلغ 670 دينـاراً شهريـاً، فيما كانت نفقات البيمارستان الصـاعدي وأرزاق المتـطببين والكحـالين والعـاملين فيه وأثـمان الطعام والأشربـة أربعمائـة وخمسين دينـاراً شهريـاً[40]. ورغب أحدهم أن يحصن نفسـه برقية ضد سم الأفعى فدفع درهماً، وتقاضى أحد المتـطببين ثـلاثين درهمـاً ثمن علاج من سم الأفعى[41]. وكان أحد الأطباء يتقاضى من زبون له مائتي درهم في العام نـظير سقيه دهن الخروج[42] وكان ابن أبرونا الطبيب يتقاضى عـلى الفصاد دانقـاً ونصف دانق[43]. وتقاضى كحال أجرة جراحة عين مريض ثمانين درهماً[44].

ـ أجور الجند: كان مرتب الجندي حتى عهد الأمـين 80 درهماً، ودفـع عيسى بن محمد بن أبي خالد القائد الذي خاض حرب البغداديين ضـد الحسن بن سهل (201هـ) أربعين درهماً للفارس، وعشرين درهماً للراجل[45]، وادعى إبراهيم بن المهدي أن راتب الجندي من جنوده بلغ في حده الأقصى ثلاثين درهماً[46]. وفرض المأمـون للجيش الموجـه لغزو الروم سنة 218هـ مائة درهم للفارس، وأربعين درهماً للراجل[47].

---

(36) الكندي، الولاة والقضاة، الملحق، ص 573 ـ 574.
(37) ابن أبي أصيبعة، ص 243.
(38) ابن القفطي، تاريخ الحكماء، ص 147، 149.
(39) ابن أبي أصيبعة، ص 221.
(40) الصابي، الوزراء، ص 24، 26، 27.
(41) الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 147 ـ 148.
(42) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 94.
(43) تكملة الطبري، ص 185.
(44) ابن جلجل، ص 81.
(45) الطبري، ج 8، ص 443، 550.
(46) الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 349.
(47) الطبري، ج 8، ص 631.

وارتفعت الرواتب في القرن الرابع، وبخاصة أن القادة صاروا يستقطبون العناصر في سبيل تدعيم قوتهم، إلا أن القواعد التي تدفع فيها الرواتب كانت تساير الأصول التي رتبت في عهد المعتضد، فكان الرجل من الحجرية يتقاضى كل خمسين يوماً مبلغ خمسة دنانير إن كان من الأصاغر، وتقاضى الجندي منهم الذي صنف من الأكابر ضعف هذا المبلغ. وزادهم بعد ستين دينارين فسموا الإثني عشرية، وقد رفع المكتفي رواتب الجميع، فأعطى الأصاغر 12 ديناراً و16 ديناراً للأكابر(48).

وكان الفارس يتقاضى شهرياً ما يوازي 15 ديناراً في حوالي سنة 304هـ، فقد ذكر مسكويه أن المبلغ الإجمالي للفرسان كان 150 ألف دينار شهرياً، وذكر عريب أن عدد الفرسان بلغ سنة 317هـ إثني عشر ألف فارس، مما يعني أن عددهم كان حوالي 10 آلاف في سنة 304هـ، خاصة وأن عددهم تزايد بين سنتي 304 ـ 317هـ، وزيد راتب الفارس في سنة 317هـ إلى 41 ديناراً وثلثي الدينار(49).

ودفع لأصحاب النوبة من الرجالة ومن برسمهم من البوابين بمعدل 7 دنانير في النوبة، ويؤكد ذلك ما ورد في أخبار الوزير ابن الفرات من أن «صاحب الخبر» كان له رزق أصحاب النوبة وقيمته سبعة دنانير(50)، ولكنّ التنوخي يورد خبراً مفاده أن أحد الرجالة الأتراك في عهد الديلم قبض 240 ديناراً عن شهرين، وهذا أمر غريب، وإذا صححنا قول الراوي فقرأنا ستين بدلاً من شهرين، يبقى المبلغ كثيراً، والأرجح أن المبلغ بالدراهم وليس بالدنانير(51)، فقد ذكر عريب والصابي أن رزق الرجالة كان 7 دنانير في النوبة بعد زيادة دينار واحد، كذلك كانت أجور المصافية(52).

ويبدو أن الرواتب قد زيدت بعد عودة المقتدر إلى الخلافة سنة 317هـ، فقد وعد الرجالة بست نوب وزيادة دينار، ووعد الغلمان بأربعة أشهر، وسائر الجند برزق 4 أشهر وزيادة خمسة دنانير لكل واحد(53).

في العهد البويهي تحولت الرواتب إلى إقطاعات. ففي سنة 387هـ أعطي 500 ديلمي صغير و300 كردي إقطاعاً بمائة ألف دينار. فيما كان إقطاع القادة يتراوح بين 20

(48) أنظر، الصابي، الوزراء، ص 15 ـ 21.

(49) تجارب الأمم، ج 1، ص 43. صلة الطبري، ط. الاستقامة، ص 98 ـ 99. ، ط. المعارف، ص 123.

(50) الصابي، الوزراء، ص 15، 164.

(51) الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 233.

(52) أنظر، الوزراء، ص 16، عريب، ص 99، والنوبة ستون يوماً، ذكرها الصابي، ص 16.

(53) عريب، ص 100.

ألفاً وثلاثين ألف درهم، وهم ممن جاء مع فخر الدولة، وأعطى قواد الديلم الخوزستانية إقطاعاً لكل منهم ما بين 200 إلى 300 ألف درهم. في حين أن معز الدولة دفع سنة 348هـ إلى كل غلام عشرة دراهم، وعشرون درهماً لمن كان نقيباً في اليوم، وذلك تشجيعاً لهم ليتمكنوا من جمع الضرائب بشكل يرضي الأمير[54].

(54) مسكويه، ج 2، ص 174، ذيل مسكويه، ص 165، 166، 294، 295.

3 ـ النقود

سيطر العرب على شعوب كانت تعتمد أنظمة نقدية مختلفة، إذ كان الدينار الذهبي معتمداً في منطقة النفوذ البيزنطي، بينما اعتمد الدرهم الفضي في الأراضي التي كانت خاضعة للفرس[1]. وورث العرب ذهب بيزنطة المكتنز في الكنائس لصالح الأديرة في سوريا ومصر، كما ورثوا ذهب الفرس المتكدس على شكل حلى ومنقولات ثمينة في قصور الطبقة العليا[2]. وأدى التوسع الإقليمي العربي إلى امتلاكهم أراض غنية بالمعدنين الثمينين.

وقد أفاد العسكريون العرب والأرستوقراطية الإدارية من هذه الثروات، فتكونت طبقة من حديثي النعمة، ونشطت حركة الاستهلاك، وانفتحت آفاق جديدة في الإنتاج الزراعي والنشاط التجاري وتمصير المدن. ووجدت الدولة نفسها أمام واقع جديد، إقتضى اتخاذ إجراءات معينة للمحافظة على حاجة البلاد من النقود، خاصة بعد أن أحس العرب بقوتهم السياسية والاقتصادية التي تمكنهم من التخلي عن النظامين النقديين الفارسي والبيزنطي[3].

نفذ عبد الملك بن مروان في سنتي 74 ـ 75هـ الإصلاح النقدي ليعطي النقد صفته الإسلامية. فضرب الدينار الذهبي الذي يزن 25،4 غ، وضرب الحجاج الدرهم الفضي الذي يزن 97،4 غ[4]. ويذكر أن من أسباب هذا الإصلاح النقدي إيجاد نقد موحد ذي وزن ثابت، بدلاً من دراهم الفرس ذات الأوزان المختلفة[5]. وقد ساهم نظام العطاء، في ضرورة إيجاد نظام نقدي مستقر، إذ كثيراً ما كان النظام النقدي القديم يثير الخصومات بين أرباب الأموال وبين من تجب له الزكاة. فيُريد أرباب الأموال إعتبار النصاب بالدراهم الكبار، بينما يريد من تجب له الزكاة إعتباره بالصغار[6].

ويبدو أن خطوة عبد الملك استهدفت إيجاد نظام تعاملي يضبط النقود والموازين، وقد جاء ذلك على شكل اقتراح تقدم به سمير اليهودي إلى الحجاج، وبين فيه الحاجة إلى

---

(1) EHRENKREUTZ, ANDREW, **Monetary Aspects of Medieval Near Eastern Economic History**, in Studies in the Economic History of the Middle East, Ed. Cook (London, New york. 1970) p. 37.

(2) Lombard, **L'Islam dans sa prèmiere grandeur**, pp. 104 - 105.

(3) **op. cit**; p. 112.

(4) Ashtor, **prix et Salaires**, p. 39.

(5) البلاذري، فتوح البلدان، ص 571.

(6) علي بن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مجلد 6، عدد 1 ـ 2 (1951) ص 141. انظر أيضاً، EHRENKREUTZ.

نقد سليم، وإلى ضرورة ضبط الأوزان، وبين أهمية ذلك في عدم وقوع التغابن بين الناس، ولتسهيل أعمالهم[7].

وبعد أن كانت الدنانير تضرب في أيام الأمويين في الشام فقط، أخذ العباسيون منذ القرن الثالث يضربون الدينار الذهبي في العراق والمشرق، خاصة بعد أن أصبح التوسع بضرب الذهب ممكناً في كل أراضي الامبراطورية العباسية، لاستيلائهم على ذهب السودان[8]، الذي كانت الدولة تعمل على حمايته من الاضطرابات لضمان وصول حصتها من الإنتاج التي تبلغ الخمس[9].

وقد أضافت ظروف البلاد الشرقية وقائع جديدة، من ازدهار التجارة وتنوع المحاصيل وتفاوت في الموارد المعدنية لكل مقاطعة، سمحت جميعها بقيام دور عديدة للضرب، وتكرس ذلك في لا مركزية الضرب، فأضيف على المسكوكات إسم معدن الضرب، مما يعني قيام دور السكة في أماكن المناجم التي تنتمي إلى المدن. وقد ظهرت كلمة «معدن» على دينار الوليد بن عبد الملك سنة 91هـ، ودينار أخيه هشام وعليه عبارة «معدن أمير المؤمنين بالحجاز» وظهرت لأول مرة أسماء مدن الضرب على الدينار الإسلامي بالكتابة العربية في زمن المأمون سنة 198هـ وعليها اسم «مدينة السلام»[10].

ونتيجة للامركزية سك النقود، وضعت قيد التداول أنواع مختلفة من النقود المعدنية على نفس التقسيم، ولكنها كانت ذات قيمة شرائية مختلفة[11]، مما دفع بالحكومة إلى تحمل مسؤوليات تأمين المواد الأولية، وخاصة المعادن الثمينة ومراقبة السكة، وتوزيع النقد، وعينت الموظفين لمراقبة الغش[12].

وقد تميز النظام النقدي في المشرق طيلة العهدين الأموي والعباسي بثبات الدينار، بسبب استمرار تدفق الذهب، وحافظ الدينار العباسى على وزنه البالغ 4،25 غ، كما حافظ على نسبة الذهب في الدينار الأموي البالغة 96%من وزنه[13].

---

(7) أبو هلال العسكري، الأوائل، ج 1، ص 369، 370.

(8) Ashtor, p. 40.

(9) أنظر، الطبري، ج 9، ص 204 ـ 205.

(10) محمد باقر الحسيني، مدن الضرب على النقود الإسلامية، مجلة المسكوكات، (بغداد، 1974)، العدد 5، ص 105.

(11) أنظر: مهاب درويش البكري، نفائس الدراهم العباسية، م. المسكوكات، عدد 5، ص 55 ـ 72.

(12) EHRENKREUTZ pp. 39 - 40 ، البلاذري، فتوح، ص 57، 76.

(13) Ashtor, p. 40.

وبعد أن أصبح الدينار واسع الانتشار نتيجة لتمكن التجار وأصحاب السلطة من الوصول إلى الذهب، أخذ الدرهم يتراجع لصالح الدينار، حيث نلاحظ أن واردات العراق كانت في عهد المعتمد (ت 279هـ) تسجل بالدراهم. بينما سجلت في عهد المعتضد (279 ـ 289 هـ) بالدينار. وجاء ذلك في بيان النفقات الذي تقدم به وزيره، والتي قدرها بـ 2،520 مليوني ديناراً سنوياً، وبما يساوي 7000 دينار يومياً، وهو المبلغ الذي تعهد بتقديمه أحمد بن محمد الطائي مقابل ضمانه لبعض أراضي السواد[15].

ويبدو أن اقتراحات سمير اليهودي في وضع نظام نقدي راسخ كانت لها دلالتها الواضحة في التعبير عن نمو العلاقات التبادلية، التي عادت لتفرض نفسها من جديد في الربع الأخير من القرن الثالث. فإن إقبال المعتضد على اقتناء الذهب يشير إلى سيطرته كمعدن نقدي متين[16]، ويبين حاجة الخلافة إلى دعم مركزها كقوة أساسية من القوى الاقتصادية العاملة[17] وكفصيل أساسي بين فصائل الطبقة الحاكمة، خاصة بعد قيام إمارات داخل الخلافة تتمتع بأرصدة طيبة من الذهب.

وأمام توفر الذهب والإقبال عليه، وضعت كميات ضخمة من العملات الذهبية قيد التداول، وزاد إقبال الفئات الغنية على الاستهلاك، مما دفع بالأسعار للإرتفاع[18]، فتضعضع المركز المالي للفئات الاجتماعية الدنيا وأدى ذلك إلى انفجارات اجتماعية في القرن الرابع.

وأدى انخفاض قوة الدينار الشرائية إلى أن أخذ الخلفاء والحكام بوضع الدنانير التي تحمل أسماءهم، وأطلقوا عليها اسم «أميرية» وكان مفروضاً فيها أن تكون صحيحة. ولا شك أن تلاعباً جرى بضرب الدينار، استدعى أن يقوم ناصر الدولة الحمداني، أمير أمراء بغداد، بضرب الدينار الإبريزي (330هـ) الذي بيع بثلاثة عشر درهماً بعد أن كان سعر الدينار عشرة دراهم[19].

---

(14) أنظر، البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر، ص 236، 242.

(15) ابن خرداذبة، ص 8 وما بعدها، الصابي، الوزراء، ص 15.

(16) انظر، المنتظم، ج 6، ص 67، وحول تذبذب الفضة قبل عهد المعتضد، انظر مهاب درويش البكري، نفائس من الدراهم العباسية، مرجع سابق.

(17) أنظر، حول محاولة المتعتضد الاستدانة من التجار، المنتظم، ج 5، ص 136.

(18) المقريزي، «النقود القديمة الإسلامية»، نشره انستاس ماري الكرملي في: **النقود العربية وعلم النميات**، (القاهرة 1939)، ص 50.

(19) ابن الأثير، أحداث 330هـ، ج 6، ص 284، 285.

وفي العهد البويهي تابع الدينار تدهوره، ووضعت في عهد معز الدولة دنانير رديئة[20]. ولعل ذلك كان في عودة الدرهم إلى اعتباره النقد الأساسي في تحديد سعر الصرف، إذ نجد المعاملات المالية تجري على أساس الدرهم. وإذا كانت العلاقة بين الدينار والدرهم قد حافظت بوجه عام على نسبة 15 إلى 1[21]، إلا أن هذه العلاقة لم تلبث أن اضطربت نتيجة للتلاعب في ضرب النقود من المعدنين. فقد ضرب عضد الدولة البويهي دراهم جيدة سماها «التاجية»[22]. ولكن سرعان ما فسد النقد، مما دفع الجند سنة 383هـ إلى الثورة ضد الغلاء وفساد النقد، وطالبوا بتسليمهم ناظر خزانة المال ودار الضرب، وبنتيجة هياجهم وعدوا بتجويد النقد؛ واعترض الحاج أيضاً في ذلك العام بحجة أن الدراهم التي دفعوها لخفارتهم في العام الفائت كانت نقرة مطلية، وطولبوا بالعوض[23]. وفي سنة 387هـ كان التعامل بالدرهم «الغياثي» الذي كان عياره 5، 8 من 10، في محاولة لتحسين الدرهم، وضربت في سنة 389هـ الدراهم «الفتحية»[24]. وهذا الضرب المتواتر والسريع للدراهم في الربع الأخير من القرن الرابع، يعني تدهوراً بقيمة الدرهم. ويعكس ذلك تعثر الوضع المالي للدولة. وهو ما اضطر بهاء الدولة لأن يكسر الأواني من الفضة والذهب ويضربها نقوداً[25]. ويبدو التدهور النقدي في نص أورده هلال الصابي في أخبار سنة 390 هـ يتحدث فيه عن تشدد أحد عمال البويهيين في تحصيل الضرائب «وثقل على المقطعين والأكرة، وردّ عل ما كان يؤخذ من مال الخفارة والحماية ورقاً قيمة الدينار به مائة وخمسون درهماً إلى العين مصارفة عشرين درهماً بدينار عتيق، فتضاعف التقرير وزاد التثقيل»[26]. وكما هو واضح من هذا النص الذي يتحدث عن ظلم ولاة الضرائب، يتبين التدهور الكبير في قيمة الدرهم، كما يتبين لنا وجود دنانير أقل جودة.

ويمكننا تعليل اضطراب الوضع النقدي بالأسباب التالية:

1 ـ زيادة المعدن الرخيص في الدرهم[27].

---

(20) المقريزي، النقود الإسلامية، ص 51، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 142.

(21) أنظر، نشوار المحاضرة، ص 41، 55، أيضاً، ابن حوقل، صورة الأرض ص197.

(22) مسكويه، ج 1، ص 60، المنتظم، ج 7، ص 121.

(23) أبو شجاع، ذيل مسكويه، ج 3، ص 250 ـ 251، ابن الأثير، ج 7، ص 165.

(24) ذيل مسكويه، ج 3، ص 254، 293، ج 4، ص 338.

(25) أبو شجاع، المصدر السابق ص 253.

(26) المصدر السابق، ج 4، ص 364.

(27) المصدر نفسه، ص 372.

2 ـ وقوع مصر نهائياً تحت السيطرة الفاطمية ومنع وصول ذهبها إلى العراق[28] مما دفع إلى السوق بدنانير رديئة.

3 ـ ولأن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة فإن التعامل بالدينار تراجع ليكنزه المتمولون، مما جعل سعره يساوي 150 درهماً، ومن هنا كان إجبار دافعي الضريبة على الدفع بالدينار العتيق الصافي[29].

ويمكن لدى قراءة تطور الأوضاع الإقتصادية في بغداد والعراق أن نسجل الملاحظات التالية:

1 ـ تراجع الإزدهار الإقتصادي الذي يتجلى بتقلص النشاط التجاري والاعتماد المتزايد على الزراعة ذات الدخل المحدود.

2 ـ تخلف الزراعة نفسها خاصة في العصر البويهي، لكثرة الضرائب وجشع الموظفين وخراب نظم الري.

3 ـ تدهور النظام النقدي واختلال العلاقة بين النقدين المعدنيين.

4 ـ وجود فروقات شاسعة بين مداخيل العامة ومداخيل موظفي الإدارة.

5 ـ هبوط المستوى العام للمعيشة في بغداد منذ عهد المقتدر والذي ازدادت وتيرته في العصر البويهي.

وأرى من المناسب أن أنقل ما لاحظه أبو علي التنوخي من تدهور أوضاع بغداد خلال القرن الرابع، فقد لاحظ تخلف بغداد، وذكر أن عمارتها في سنة 345هـ بلغت عشر ما كانت عليه أيام المقتدر في الأبنية والناس[30]. ولاحظ في مناسبة أخرى تدهور الأوضاع في بغداد في سنة 318هـ أي في نهاية عهد المقتدر وما كان عليه البغداديون من همّ وغم. واعتبر أحد البغداديين في النصف الثاني من القرن الرابع، أن ما كانت عليه بغداد في السابق أفضل بكثير مما هي فيه، وقال مشيراً بيده إلى سوق باب الطاق: «لو وقف إنسان في هذه السوق العظيمة وصاح: يا مكروب، لما بقي فيها أحد إلّا وقال له لبيك»[31].

وما من شك في أن الاضطرابات الإقتصادية في بغداد تركت آثاراً سيئة على

(28) النجوم الزاهرة، ج 4، ص 29.
(29) ذيل مسكويه، ج 4، ص 364.
(30) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 130.
(31) المصدر نفسه، ج 3، ص 167.

المجتمع البغدادي، برزت آثارها في ظهور طوائف إجتماعية تتحايل بأساليب متفاوتة في سبيل الحصول على لقمة العيش تارة، أو اللجوء إلى وسائل سلبية تعتزل فيها مظاهر المشاركة الاجتماعية. وقد تمثلت هذه المظاهر ببروز جماعات من الفقراء واللصوص وأهل الكدية والزهاد والمتصوفين.

الفصل الثالث عشر

مظاهر الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية

1 ـ الفقر:

وجد الفقراء في بغداد منذ بنائها. فقد شوهد الزمنى والمعاقون يطلبون الصدقة على الجسر في عهد أبي جعفر[1]، وقيل إن المنصور كان يفرق مالاً على النساء والقواعد والأيتام والعميان وكان في بغداد والٍ على «الأضراء» قطع عنهم أرزاقهم فتوسط لهم أبو جعفر الرازي ورفع ظلامتهم إلى المنصور، الذي عزل كاتبهم وولى عليهم من أحبوا[2]. وبلغ الأمر إلى أن وضع رجال المعونة على أبواب المساجد يمنعون الفقراء من دخولها[3].

ويبدو أن الفقر شكل ظاهرة إجتماعية مستمرة، ظهرت معالمها على ألسنة رجال الأدب الذين عالجوا الموضوع بأساليب مختلفة، فقد وصف الحمدوني (القرن الثالث) وضع الفقراء في المجتمع[4] بقوله:

من كان في الدنيا له شارةٌ ... ونحن من نظّارة الدُّنْيا
نَرْمُقُها من كثبٍ حَسْرةً ... كأننا لفظٌ بلا معنى

وترك لنا أبو حيان التوحيدي أحاديث عديدة عن الفقر والفقراء. وكان هو نفسه يعاني شدة الفقر، ويقول: «لقد اضطررت، بعد الشهرة والمعرفة، في أوقات كثيرة، إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين

---

(1) الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات، بعناية سامي مكي العاني، (بغداد، 1972)، ص 68.

(2) البيهقي، المحاسن والمساوىء، ص 587.

(3) الخطيب البغدادي، ج 6، ص 145، ج 7، ص 78.

(4) أبو اسحق الحصري القيرواني، زهر الاداب وثمار الالباب، بعناية زكي مبارك ومحمد محي الدين عبد الحميد، ط 4، (بيروت، 1972)، ج 2، ص 556.

والمروة». وكان أبـو سليمان المنطقي يعاني شـدة العوز، حتى كـان في حاجـة إلى رغيف، وعجز عن أجرة مسكنه وعن وجبة غدائه وعشائه. وعانى الفيلسوف أبو بكر القومسي من الضرّ والفاقة، وكابد الشدة والإضاقة، حتى لبس الأطمار البالية[5].

وكان الفقراء يشكون قلة الطعام وكثرة العيال وقلة الملابس والمفـروشات[6]، حتى أن كتـاب الإدارة لم يسلمـوا من ذلـك[7]. وعم الإمـلاق في النـاس حتى تمنى بعضهم الموت[8]. ولا بد أن الأزمـة الإقتصاديـة أسهمت في ذلك، ويقـول التنـوخي في القـرن الـرابع: «إن الشـدة والفقر وضيق أحـوال النـاس، جعلهم يستحبـون البخـل، وجعـل التجـار يتحـذرون النـاس، والنـاس يمسكـون عن الاحسـان، وذلـك في الأكـثر لضيق أحوالهم»[9].

وكانت حالات الفقر تظهر بوضوح في المناسبات الاجتماعية وخاصة في الأعياد، إذ كان يتعذر على الكثير من العائلات تأمين الملابس والألعاب لأطفالهم[10].

وكان للأزمات الإقتصاديـة والسياسيـة بالـغ الأثر في حياة الناس، حتى إن بعضهن أخـذن وهن يأكلن أبنـاءهن أو أبناء جـاراتهن، عقب موجـة الغلاء التي اجتـاحت بغداد والعـراق سنـة 334هـ، إذ بيـع في هـذا العـام الكرّ الحنـطة بـ 20 ألف درهم وجـاع الهاشميون سنة 320هـ فذبح لهم أحد الهاشميين الأغنياء الذبائح وطبخها لهم[11].

ولـدينا بعض من مـظاهر الفقـراء البغداديـين، فقد وصف التنـوخي فقيـراً بـأنـه «أشعث أغبر في السبال في هيئة سؤال الخراسـانية وزيهم». ووصف لنـا فقيراً آخـر بأنـه يلبس عـمامـة وسخـة ورداء وجبـة وقميصـاً طـويـلاً، في رجله جـومقـان، وهـو بـلا سراويل[12]. ونقل المسعودي وصفاً لبيت الأصمعي الـذي كان يعـاني الفقر، فكـان فيه خب مكسـور ومقعد وسخ، وكان كل شيء في بيته رثاً[13].

---

(5) معجم الأدباء، بعناية مرغوليوث، ج 5، ص 383، 388، أيضاً، الإمتاع والمؤانسـة، ج 1، ص 31.

(6) أنظر، البيهقي، المحاسن والمسـاوىء، ص 286، ابن قتيبه، عيـون الأخبـار، ج 1، ص 245، الخطيب البغدادي، ج 13، ص 206، ج 12، ص 383. الجاحظ، رسائل، ج 2، ص 178.

(7) المنتظم، ج 5، ص 38.

(8) فوات الوفيات، ج 1، ص 354 ـ 355.

(9) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 275.

(10) المسعودي، مروج الذهب، ج 2، ص 351.

(11) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 351، حمزة الإصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض، ص 159.

(12) الفرج بعد الشدة، ط. القاهرة، ج 2، ص 13، 23.

(13) مروج الذهب، ج 2، ص 293.

إزاء تفاقم الفقر، حاول بعض الأغنياء الحد من التناقض الإجتماعي بين بذخ الخاصة وفقر العامة، فانتشرت عادة الإحسان إلى الفقراء من تقديمات نقدية أو مواد استهلاكية، وأخذ بعضهم يشارك في أجور الزمنى والمساكين[14]. فكان أحد الأغنياء يوزع الأطعمة على الفقراء في بغداد حتى كان يجتمع على بابه العدد العظيم منهم، وكان يقدم لهم الأطعمة والحلوى التي لا يستطيعون أكلها. وكان أحد الميسورين يوزع من المال على أقاربه ما يقدر عليه[15]. وكان ابن أبي بكرة يوزع على جيرانه الأضاحي والكسوة في الأعياد، وكان حماد بن أبي سليمان يفطر في كل ليلة من شهر رمضان خمسين إنساناً، ويكسوهم يوم الفطر ثوباً ثوباً، ويعطيهم مائة مائة[16].

ويبدو أن مساعدة الفقراء صارت من سياسة الرسميين؛ فكان ابن الفرات يجري على خمسة آلاف من الناس أقل جاري أحدهم خمسة دراهم في الشهر، ونصف قفيز إلى عشرة أقفزة ومائة دينار؛ وفي وزارته الثالثة تذكر طلاب الحديث وأطلق لهم من خزانته عشرين ألف درهم[17]. وكان حامد بن العباس الوزير سنة 306هـ ينصب الموائد في داره كل يوم ويطعم الجلة والعامة والحاشية، وكان يعطي لبوابيه وخدمه اللحوم التي يحملونها إلى بيوتهم، كما رفض أن تقدم لهم الباقلاء. وكان ابن بسطام يوزع في كل شهر عشرين كرّاً حنطة ودقيقاً على حاشيته وعلى المستورين والفقراء[18]. ويبدو أن تقديم المساعدات صار تقليداً رسمياً، حتى أن النساء والأرامل والضعفاء وأبناء السبيل والفقراء كانوا يقفون بباب الوزير كل يوم[19].

وكان طعام الفقراء متواضعاً، فقد يتألف من خبز شعير وربيثة وبقل وكراث، أو من رغيف وقطعة من الجبن، أو من الباذنجان وخبز الشعير، أو من الخس والكرفس والجبن الدينوري والقنبيط. وكان لحم البقر أسمى ما يطمح إليه الفقراء، وكانوا يأكلون بطون البقر القاسية، كما كانوا يستهلكون الكثير من الحبوب، من أرز وماش وعدس ولوبياء[20].

---

(14) الزبير بن بكار، **الأخبار الموفقيات**، ص 69.

(15) **نشوار المحاضرة**، ج 1، ص 120، الخطيب، ج 6، ص 367.

(16) **الإمتاع والمؤانسة**، ج 3، ص 5.

(17) الصابي، **الوزراء**، ص 223.

(18) **نشوار المحاضرة**، ج 1، ص 23، ج 8، ص 115.

(19) أنظر، **نشوار المحاضرة**، ج 1، ص 83، الصابي، **الوزراء**، ص 163.

(20) **مروج الذهب**، ج 2، ص 246، **حكاية أبي القاسم البغدادي**، ص 42، 72، 92، 93، 100، 122. **نشوار المحاضرة**، ج 1، ص 121.

ولم يكن الفقراء يعرفون الحلوى، بل كانت حلواهم من عصيدة التمر، أو التمر والكسب، أو الناطف والمبريخ[21].

وتألفت فاكهتهم من مشمش مقدد، وخوخ مقدد، وزبيب أسود، وسمسم مقلو، وباقلى منفوخة[22].

وقد جابه الفقراء واقعهم البائس بأساليب مختلفة كان منها اللجوء إلى اللصوصية، أو التحول إلى الكدية والتطفيل، أو اصطناع الزهد والتصوف، كما كان من وسائلهم اللجوء إلى التحرك الشعبي.

2 ـ اللصوص:

شكل اللصوص في العصر العباسي الثاني حركة قوية. ويبدو أنهم يعودون إلى أصول اجتماعية فقيرة ومظلومة، نشأت عن التحولات التي عرفها المجتمع العراقي من قيام مدن كبرى تعج بالسكان، وزيادة الاستهلاك وارتفاع الأسعار، وتضعضع وضع الفلاحين، وازدياد الضغط البدوي على سكان المدن في القرن الرابع[23]. هذه التطورات خلفت فئات إجتماعية عاجزة عن تحصيل عيشها، ناقمة ومتمردة، مقصرة عن استيعاب شروط الحياة الجديدة.

وقد ترك لنا الجاحظ فقرة تبين مدى اتساع هذه الفئة، على لسان أحد أبطال بخلائه الذي يعبر عن عدم خشيته الفقر، بأنه سوف يحتال في أمره، وإن لم يوفق فإنه سوف يلجأ إلى وسائل، منها[24]: «خرجت قاطع طريق، أو صرت للقوم عيناً ولهم مجهراً. سل عني صعاليك الجبل، وزواقيل الشام، وزط الآجام، ورؤوس الأكراد، ومردة الأعراب، وفتّاك نهر بط، ولصوص القفص. وسل عني القيقانية، والقطرية، وسل عني المتشبهة وذباحي الجزيرة. لم تشهدني وكردويه الأقطع أيام سندان، ولا شهدتني في فتنة سرنديب، ولا رأيتني أيام حرب المولتان. سل عني الكتفية، والخليدية، والخربيّة، والبلالية.. وما كان النقاب هداماً حتى نشأت، وما كان الاستغفاء إلا استلاباً حتى بلغت».

(21) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 121، ج 3، ص190 ـ 191، حكاية أبي القاسم، ص 42.

(22) حكاية أبي القاسم، ص 48 ـ 49.

(23) أنظر، حول دور البداوة في القرن الرابع، Sourdel, **Civilisation de L'Islam.** pp. 266 - 69.

(24) يذكر الجاحظ هنا أشهر جماعات اللصوص في عهده، وهم منسوبون إلى أقاليم ظهروا فيها، أما الكتفية والخليدية والخربية والبلالية، فهي جماعات من الغوغاء مارست السطو، أنظر، الثعالبي، **يتيمة الدهر**، ج 3، ص 25. **والبخلاء**، هوامش هارون، ص 326.

وتمدنا بعض المصادر بأخبار بعض اللصوص، وتحمل هذه الأخبار دلالات واضحة حول أسباب اللصوصية التي مارسها أصحابها، وارتباطها بالأوضاع الإجتماعية السائدة. فيذكر الصولي أن ابن حمدي اللص الذي قتل سنة 332هـ «كان حمالاً بنواحي سوق الحديد في باب درب الشوك ثم صار لصاً ببغداد»[25].

وينقل التنوخي عن ابن حمدي أسباب تلصصه، ويربط هذا اللص بين طرده من الجندية ومطاردة السلطة لثروات الناس وبين احترافه اللصوصية فيقول:

«الله بيننا وبين هذا السلطان الذي أحوجنا إلى هذا، فإنه قد أسقط أرزاقنا وأحوجنا إلى هذا الفعل، ولسنا فيما نفعله نرتكب أمراً أعظم مما يرتكب السلطان. وأنت تعلم أن ابن شيرزاد ببغداد يصادر الناس ويفقرهم، حتى أنه يأخذ الموسر المكثر فلا يخرج من حبسه، إلا وهو لا يهتدي إلى شيء غير الصدقة. وكذلك يفعل البريدي بواسط والبصرة، والديلم بالأهواز. وقد علمت أنهم يأخذون أصول الضياع والدور والعقار، ويتجاوزون ذلك إلى الحرم والأموال، فاحسب أننا مثل هؤلاء، وأن واحداً منهم صادرك»[26].

ويذكر التنوخي قصة اللص الكرخي وسبب لجوئه إلى اللصوصية، قال اللص: «نشأت فلم أتعلم غير معالجة السلاح، وجئت إلى بغداد أطلب الديوان (للجندية) فما قبلني أحد، فانضفت إلى هؤلاء الرجال، وطلبت قطع الطريق. ولو كان السلطان أنصفني ونزّلني بحيث أستحق من الشجاعة، وانتفع بخدمتي، ما كنت أفعل هذا بنفسي»[27] وواضح أن الكرخي يتحدث عن لجوئه إلى اللصوصية بعد أن ضاقت في وجهه سبل العيش».

ويبدو موقف اللصوص المتعارض مع الأوضاع السائدة، من نظرتهم الحاقدة إلى رجال السلطة والمال. قال بعض اللصوص: «اللص أحسن حالاً من الحاكم المرتشي، والقاضي الذي يأكل أموال اليتامى». وقال عثمان الخياط، من شيوخ اللصوص في القرن الثالث: «لم تزل الأمم يسبي بعضهم بعضاً ويسمون ذلك غزواً، وما يأخذونه غنيمة، وذلك من أطيب الكسب. وأنتم في أخذ مال الغدر والفجرة أعذر، فسموا أنفسكم غزاة

---

(25) أخبار الراضي والمتقي، ص 250.

(26) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 239.

(27) المصدر نفسه، ص 237، ط. القاهرة، ج 2، ص 119.

كما سمى الخوارج أنفسهم شراة. وأنشد»[28].

سأبغي الفتى إما جليسُ خليفةٍ يقوم سواء أو مخيفُ سبيل
وأسرقُ مالَ اللهِ من كل فاجرٍ وذي بطنة للطيباتِ أكول

وبرر ابن سيار حقده على التجار بقوله لأحد ضحاياه: «أما قرأت ما ذكره الجاحظ في كتاب اللصوص عن بعضهم؟ قال (الجاحظ): إن هؤلاء خانوا أماناتهم ومنعوا زكاة أموالهم، فصارت أموالهم مستهلكة بها، واللصوص فقراء إليها، فإذا أخذوا أموالهم - وإن كرهوا أخذها - كان ذلك مباحاً لهم، لأن عين المال مستهلكة بالزكاة وهؤلاء يستحقون الزكاة بالفقر، شاء أرباب الأموال أم كرهوا».

وحين نوقش اللص بأنه لا يمكنه معرفة ما إذا كان هؤلاء التجار ممن استهلكت أموالهم الزكاة، أجاب بأن استدعى أحدهم وسأله عن نصاب الزكاة في تجارته، فاتضح أن التاجر لا يعرف ذلك، مما جعله يستنتج أن التاجر وغيره من زملائه لم يزكوا قط[29].

ويخبرنا أبو حيان التوحيدي عن دور الاضطرابات السياسية والاجتماعية في تنشيط اللصوصية، فيقول: «إن أسود الزبد كان عبداً يأوي إلى قنطرة الزبد، ويلتقط النوى، ويستطعم من حضر ذلك المكان يلهو ويلعب، وهو عريان لا يتوارى إلا بخرقة، ولا يؤبه له ولا يبالى به، فلما حلّت النفرة، ووقعت الفتنة، وفشا الهرج والمرج، ورأى هذا الأسود من هو أضعف منه قد أخذ السيف وأعمله، طلب سيفاً وشحذه، ونهب وأغار وسلب، وظهر منه شيطان في مسك إنسان[30].

وقد انتشر اللصوص في بغداد حتى صارت اللصوصية موجة عامة شملت المدينة فترة من الزمن، تنشط أو تضعف تبعاً لأساليب المكافحة أو مدى ما يتحقق من أمن داخل المدينة.

وفي القرن الرابع تواترت كبسات اللصوص الليلية داخل العاصمة، يجردون حملات متصلة على الدور ينقبونها ويسطون على ما فيها[31]. وفي سنة 309هـ كبس اللصوص منزل أحد الصيارفة فأخذوا له ذهباً وفضة بقيمة 30 ألف دينار. وفي سنة

(28) الراغب الإصفهاني، محاضرات الأدباء، ج 2، ص 190 - 191.
(29) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 232 ، 233 ، 234.
(30) الإمتاع والمؤانسة، ج 3،، ص 160.
(31) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 342.

315هـ اكتشف أن أحد اللصوص في درب الأقفاص من باب الشام خنق جماعة من الناس، وكان يحتال على النساء ويكتب لهن كتب العطف، ويدعي علم النجوم، فيذهبن إليه ويسلبهن ويقتلهن. وفي سنة 320هـ أوقف زعيم عصابة كانت تقطع الطريق في دجلة، وقتل مع جماعة من عصابته في احتفال عام جرى في بغداد. وفي سنة 330هـ اشتد بلاء اللصوص على الناس في بغداد، حتى كبست منازلهم ليلاً ونهاراً[32]. وفي سنة 331هـ ظهر ابن حمدي الذي كان يقطع الطريق على المراكب السميريات في منطقة واسط، وصار إليه من ذلك مال عظيم، وطاردت السلطة عصابة ابن حمدي وظفرت بجماعة منهم فقتلوا وصلبوا، وفي العام التالي أخذ سبعة من أصحاب ابن حمدي فضربوا وطيف بهم وقتلوا وصلبوا في الجسر، وقتل أيضاً رجل يعرف ببرغوث كان يقطع الطريق بناحية المزرفة[33]. ولم يلبث ابن شيرزاد، أحد قواد توزون أمير الأمراء أن خلع على ابن حمدي وضمنه بغداد، على أن يدفع 15 ألف دينار مما يسرقه هو وأصحابه، وكان المبلغ يستوفى مشاهرة[34]. ويبرر الصولي سبب استخدام ابن حمدي في السلطة، أنه أريد بذلك أن يرتدع جميع اللصوص الذين كانوا من عصابته، إلا أن ابن حمدي كان يرسل أصحابه على الناس، فكان لهم في كل يوم حادثة عظيمة، وكبس وإغارة على الأموال. ويبدو أن الأعمال التي أحدثها ابن حمدي أثارت البغداديين، مما حمل رجال الدولة على حزم أمرهم والتخلص منه ومن جماعته سنة 332هـ، فترك ذلك موجة من الرضا على قادة بغداد[35].

ولما كانت اللصوصية تنشط في فترة الفوضى، فإنا نرى تراجع دور اللصوص ونشاطهم في العهد البويهي القوي، إلا أن هذا الدور يعود لينشط في فترات الضعف التي كانت تنتاب الحكم البويهي. ففي سنة 358هـ اغتنم اللصوص فترة اضطرابات مذهبية داخل بغداد فاختطفوا أحد رجال الدين وهو يحمل ألف درهم أخذها من أحد الصرافين، ثم وجد الشيخ مقتولاً مطروحاً في نهر الصراة. وفي سنة 370هـ ظهر ابن الصيدلاني اللص في جوار بغداد، كان يتزعم جماعة من الصعاليك. واستفحل أمر اللصوص في سنة 398هـ حيث كثرت غاراتهم في بغداد، وكبسوا عدة مواضع، وقصد

---

(32) المنتظم، ج 6، ص 159، 206، 249، 326.

(33) الصولي، أخبار الراضي والمتقي، ص 243 ـ 245، والمزرفة، قرية تبعد عن بغداد ثلاثة فراسخ وهي قرب قطربل، معجم البلدان، ج 5، ص 121.

(34) ابن العبري، ص 287 ـ 288، العيون والحدائق، ج 4، ص 387 ـ 388.

(35) أخبار الراضي والمتقي، ص 259.

قوم منهم مسجد براثا وأخذوا حصره وستوره ومناديله، فجدّ أصحاب الشرطة في طلبهم حتى ظفروا ببعضهم، فشهروا وكحلوا وقطعوا[36].

وشكل اللصوص عصابات متخصصة ينماز بعضها من بعض بطريقة تنفيذ عملياتها. قال عثمان الخياط[37]: «السارق في الحضر والسفر خمسة: المحتال، وصاحب ليل، وصاحب طريق، والنباش، والخناق. فالمحتال اسم لمن لا يعمل إلا بحيلة ولا يقتل، فهو لا يعرف بالصبر والنجدة، فاللصوص يُبهرجونهم ولا يستصحبونهم. وأما صاحب الليل فالنقّاب، والمتسلق، والمكابر، وأشباههم. والنباش معروف. وأما الخناق فما منهم واحد إلاّ وهو صاحب بعج ورضخ؛ والرضخ إنما يكون في الأسفار ويصحب الرجل المنفرد من الرفقة ومعه حجران أملسان ململمان قدر ملء الكف، فإن قدر عليه ساجداً أو نائماً وإلا فقائماً، فيعمد إلى صماخه ولا يخطيء، وأكثرهم لا يرضى بالقتل مخافة المطالبة. ومن الخناقين من يحمل الرجل إلى داره بحيلته، فإذا ألقى الوتر في عنقه، ضرب أصحابه بالطبل والصنج وتصايحوا، كما تفعل النساء بالبيوت ليخفى صوته».

وذكر بديع الزمان الهمذاني لائحة طويلة للصوص والطرارين وكلهم منسوب إلى حيل وأعمال خاصة بهم[38].

فمن اللصوص من كان يفش أقفال الدكاكين ويستولي على محتوياتها، ومنهم من كان يسطو على دور العازبين من الأغنياء، وإذا كشف أمره أدعى على صاحب الدار بأنه إنما يقامره، ومنهم من يدخل الدار الآهلة نهاراً، ويتوخى أن تكون فيها النساء وحدهن، فإن تمت له الحيلة أخذ منها أشياء وانصرف، وإن فطن له ادعى أنه صديق الزوجة وأنه من بعض غلمان القواد، فيضطر صاحب الدار للتستر على زوجته خوف الفضيحة[39].
ومن اللصوص من كانوا يترصدون ثروة التجار والصيارفة ويراقبون دخولهم وخروجهم من بيوتهم. فقد راقبت عصابة من اللصوص دار أحد أثرياء الصيارفة فأعياهم تسلقها، واحتالوا بحيلة مناسبة بأن قام أحد أفراد العصابة بانتحال صفة المتصدق، واستدرجوا الجارية الوحيدة في المنزل، فتمكن بعض أفراد العصابة من الدخول إلى المنزل[40].

---

(36) المنتظم، ج 7، ص 47، 105، 397.

(37) محاضرات الأدباء، ج 2، ص 189.

(38) أنظر، المقامات، المقامة الرصافية، ص 157، وما بعدها.

(39) الفرج بعد الشدة، ط. بيروت، ج 4، ص 257، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 156، ج 8، ص 224، الأذكياء، ص 148.

(40) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 157، 158، ج 8، ص 226، 227.

ومنهم من كان يغير على قبور الموتى، أو يأتي المقامات، ومن ينوّم بالبنج، أو يحتال بنيرنج[41].

نظم اللصوص أنفسهم في عصابات، وكان عدد أفراد العصابة كبيراً، حتى بلغ أحياناً مائة نفس مجهزين بالسفن والقسي والنشاب[42]، بل إن لصوص بغداد في سنة 332هـ انتسبوا جميعاً إلى ابن حمدون وعرفوا بالحمدونية[43]. وكان للصوص رئيس يشرف على عملهم[44] واتخذوا أعواناً يرصدون لهم الأماكن التي يريدون السطو عليها، أو يراقبون التجار الذين يرغبون في سرقتهم، أو الأسواق التي يزمعون على بيع مسروقاتهم فيها. وقد سمى الجاحظ بعض عونة اللصوص، فكان منهم «العين والشاغل والطراد». فالعين، هو الذي يلزم الصيارف يتأمل كل مال محمول، يأتي السفن، فيتعرف على موضع الحرز، ويأتي دار قوم يتطلب أنه يتوضأ فيتعرف على خزائنهم والموضع الذي يقصدون منه. والمؤتي الذي يتولى البيع والابتياع لهم، ويجعل عند ذلك كأنه أمير قرية أو زعيم محلة. والشاغل هو الذي يشغل القوم عن اللص. والطراد، إذ ظفروا باللص، يجيء إليه فيضربه ما لا يضربه السلطان، ويقول: هذا والله صاحبي الذي ذهب بمالي، ويحتال بذلك حتى يتشاغل عنه القوم. فإذا تشاغلوا عنه أفلته وتأسف مع القوم[45].

ويتحدث أحد زعماء اللصوص عن «عين» لعصابته كان يندس بين قافلة التجار، يعرف بما تحويه ويحدد أكثر التجار ثروة. وترك لنا أحد اللصوص صورة عن تنظيم العمل أثناء تنفيذ عملية السرقة داخل النهر، وكان له عصابة تتألف من ملاح وقارىء متعامي وسابح. فكان الملاح يدور في الشارع في أوقات المساء، وقد سبقه المتعامي فجلس في إحدى المشارع. فإذا رأى الملاح راكباً ناداه وأرخص له الأجرة وحمله في مركبه. فإذا بلغ القارىء وصاح به، شتمه الملاح حتى لا يشك الراكب في براءة ساحته. فإن حمله الراكب فذاك، وإن لم يحمله رفقه الملاح حتى يجعله يحمله، وينطلق المقرىء بقراءة جيلة، ويذهل الراكب، فإذا بلغ المركب إلى موضع فيه رجل سابح من أفراد العصابة، فيسبح حتى يلاصق السفينة، وعلى رأسه قوصرة، فلا يفطن الراكب، فيسلب الرجل المتعامي الشيء الذي يرغب، فيلقيه إلى السابح فيأخذه هذا ويعود به إلى الشط[46].

---

(41) **المنتظم**، ج 6، ص 115، مقامات الهمذاني، ص 159، والنيرنج أو النيرنجات: السحر.

(42) **الفرج بعد الشدة**، ج 4، ص 235، ويتحدث في ص 264، عن عصابة عدد رجالها سبعون رجلاً.

(44) الفرج بعد الشدة، ج 24 ص 236، 241.

(43) الصولي، أخبار الراضي والمتقي، ص 259.

(45) **محاضرات الأدباء**، ج 2، ص 189.

(46) **الفرج بعد الشدة**، ج 4، ص 254، 255، 264، والقوصرة وعاء مثل الكيس يتخذ من القصب.

أقام اللصوص خلايا منظمة تكون فيها السلطة للرئيس، وكانوا يحترمون التقاليد التي تنظم علاقاتهم داخل الخلية. فكان اللص يدخل الخلية بلا إستئذان ويجتاز إلى غرفة فيها أوتاد وبوراي، وعلى كل وتد إزار ومئزر، ثم ينزع ثيابه ويعلقها على أحد الأوتاد ويتزر بالمئزر ويتشح بالإزار ويجلس. ثم يجيء الآخرون فيفعلون مثل فعل زميلهم إلى أن يتكاملوا، ثم يأتون بطعام يأكلونه بطريقة خاصة، ويتناولون أقداحاً يسيرة من النبيذ، ثم يأخذ أحدهم قدحاً كبيراً ويشرب نخب زعيم اللصوص أو من يكرمونه، وكانوا يخصصون يوماً يقتسمون فيه ما سلبوا[47].

وفي القرن الثالث ظهرت في بغداد جماعة التوابين، وهم «شيوخ أنواع اللصوص الذين قد كبروا وتابوا، فإذا جرت حادثة علموا مِنْ فِعْل من هي فيدلون عليه، وربما اقتسموا مع اللصوص ما سرقوه»، وكانوا يوضعون بتصرف أصحاب الشرطة بعد رسمهم. ويبدو أن التوابين كانوا يرسمون من قبل رجال السلطة؛ فقد عرض المعتضد على أحد اللصوص بأن يرسمه من التوابين وأن يجري له في كل شهر عشرة دنانير تكفيه لأكله وشربه وكسوته، وروى التنوخي حكاية تبين أن أصحاب السلطة كانوا يشجعون اللصوص على ترك السرقة[48].

كان اللصوص ينتمون إلى الفئات الإجتماعية الدنيا، فمنهم الزطي، والعبد الأبق، وبعضهم من رواد المواخير ودور القمار ودكاكين الرواسين[49]. وفي القرن الخامس الهجري صار الجند يمارسون اللصوصية، فقد ذكر ابن البناء أنه في سنة 460هـ «نودي في الجانب الغربي بأن من كان له مال وما يخاف عليه فلينقله ويتحرز»[50].

إلا أن بعض اللصوص مارسوا مهنتهم بأساليب تدل على موقف أخلاقي رسموه لأنفسهم، لذا كانوا يتخاطبون بـ«الفتيان»، وكانوا يحبون أن يدعوا بذلك. وقد ترك بعضهم أقوالاً تدل على مظاهر فتوتهم. كان عثمان الخياط يقول[51]: ما سرقت جاراً وإن كان عدواً، ولا كريماً، ولا كافأت غادراً بغدره». ومن مظاهر فتوّتهم الصدق، والوفاء

---

(47) أنظر، المصدر نفسه، ص 253 ـ 254 ، 255.

(48) مروج الذهب، ج 2، ص 507 ـ 508، أيضاً، الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 398.

(49) خاص الخاص، ص 24، الفرج، ج 3، ص 393، مروج الذهب، ج 2، ص 507.

(50) يوميات ابنالبناء، نشرها جورج مقدسي، بعنوان:

Autograph Diary of An Eleventh- Century Historian of Baghdad, in B. S. O. A. S., University of London, 18, (1956) p. 239.

(51) الفرج، ج 4، ص 253، 254، 265، 266.

بالعهد، والأمانة في المعاملة. ويقول عثمان الخياط: «ما خنت ولا كذبت منذ تفتيت».

ومن مظاهر هذه الفتوة أيضاً: التعزز عن إلحاق الأذى بالناس وكره القتل، ومعاملة الفقراء برقة، بعكس ما عاملوا به الأغنياء[52]. فقد اشتهر عن ابن حمدون الفتوة والظرف، ولم يكن يعرض لأرباب البضائع اليسيرة التي تكون دون الألف درهم، وإذا أخذ ممن حاله ضعيفة شيئاً قاسمه عليه وترك شطر ماله في يديه. ولم يكن يفتش امرأة ولا يسلبها. وكان اللصوص يجيرون من يستجير بهم وينظمون حراسته حتى يبلغ مأمنه، كما كانوا يفون بعهودهم وإلتزاماتهم[53].

وذكر أبو حيان التوحيدي قصة فتوة أسود الزبد. «فمما ظهر من حسن خلقه، مع شره ولعنته وسفكه للدم وهتك للحرمة... أنه إشترى جارية كانت في النخاسين عند الموصلي بألف دينار، وكانت حسناء جميلة، فلما حصلت عنده امتنعت عليه. فقال لها: ما تكرهين مني؟ قالت: أكرهك كما أنت. فقال لها: ما تحبين؟ قالت: أن تبيعني، قال لها: أوخير من ذلك، أعتقك وأهب لك ألف دينار؟ قالت: نعم. ففعل ذلك بحضرة القاضي ابن الدقاق عند مسجد ابن رغبان. فعجب الناس من نفسه وعلو همته وسماحته، ومن صبره على كلامها..[54].

وظاهر مما أسلفنا أن اللصوص شكلوا عصابات لها قوتها وخطرها، وهي عصابات على مستوى من التنظيم والتدريب، لها رؤساؤها وأهدافها ومباديها وحيلها، ولها نظمها الأخلاقية. فلم يكن أفرادها يطلبون إلا الاحتياط بما يحفظ حياتهم، ولم يكونوا يتعرضون للفقراء والنساء، بل كانوا يلاحقون التجار والأغنياء، الذين منعوا الزكاة وحصلوا على الثروات الطائلة بشكل غير مشروع.

3 ـ التطفيل:

شكل الطفيليون ظاهرة إجتماعية داخل المجتمع البغدادي، ويعبر عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي عن واقع الطفيليين المعيشي بقول عمه الأصمعي[55]:

يا أيّها السائلُ عن منزلي ... نَزَلْتُ في الخانِ على نفسي

---

(52) محاضرات الأدباء، 2، ص 191، أيضاً: الأذكياء 196.

(53) الفرج، ج 3، ، ص 238 ـ 239، 242، 293 ـ 294، ج 4، ص 238 ـ 240، الأذكياء، ص 194 ـ 196.

(54) الإمتاع والمؤانسة، ج 3، ص 161.

(55) الخطيب البغدادي، التطفيل وحكايات الطفيلين وأخبارهم، عني بنشره القدسي (دمشق، 1346 هـ)، ص 8.

يغدون على الخبزِ من خابزٍ   لا يقبل الرَّهْن ولا ينسي
آكل من كيسي ومن كسرتي   حتى لقد أوجعني ضرسي

وقد اهتم الخطيب البغدادي بأصول التطفيل التاريخية، فنقل عن الأصمعي أن التطفيل منسوب إلى «طفيل»، وهو رجل من أهل الكوفة من بني غطفان، وكان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها، فكان يقال له: طفيل الأعراس والعرائس. والعرب تسمي الطفيلي: الرائش والوارش، وهو الداخل على القوم بدون دعوة وهم يطعمون، والواغل، الذي يدخل على القوم وهم يشربون[56].

وإذا كان العرب قد كرهوا التطفيل، وأوجدوا لذلك أسانيد في أحاديث نبوية تتعلق بآداب الضيافة، إلا أن أثر الوضع المعيشي كان ظاهراً في تعاملهم، خصوصاً بعد أن عجزت جماعات من الناس عن العمل، وقصرت عن تحصيل أسباب عيشها، فصار أسهل عليها تعاطي التطفيل، من التعامل مع القصاب أو البقال.

وقد ترك لنا أبو المطهر الأزدي وصفاً لحالة طفيلي «يشم القدور شم الذباب، وإذا ما استبان آثار عرس أو ختان أو مطعماً في اختلاب، لم يروع دون الدخول ولم يرهب على الباب لكزة البواب، ذاك أشهى من التكلف والغرم، وغيظ البقال والقصاب، يرى ركوب البريد في طلب الثريد. . .»[57]. ويذكر الخطيب البغدادي شيئاً من ذلك، إذ يقول إن شيوخاً بالبصرة اتخذوا التطفيل مهنة[58].

كان الطفيليون يسعون وراء الأكل بغض النظر عن صاحبه أو مصدره، فكان أحدهم يغشى علياً لقدره ومعاوية بقدره[60] «وربما كانوا يتجشمون المخاطر في سبيل ذلك، كما جرى مع أحد الطفيليين الذي دسّ نفسه بين زنادقة يساقون إلى المحاكمة[61]. وكان أصعب ما يعترض جماعة الطفيليين، هو منعهم من الدخول إلى الدور التي تقام فيها الولائم، فكانت معاناتهم تبدأ مع البوابين وتنتهي بهم، فإن تجاوز هؤلاء كان يعني الوصول إلى الدعوة والتمكن من الطعام. وكان لا بد لهم من سلوك سبل عديدة؛ وتحدثنا بعض النصوص عن بعض تحايلهم، فقد رهن أحدهم نعليه على

---

(56) المصدر نفسه، ص ص9 ـ 10.
(57) حكاية أبي القاسم، ص 13 ـ 14.
(58) التطفيل، ص 51.
(60) حكاية أبي القاسم، ص 10، 15.
(61) المسعودي، مروج الذهب، ج 2، ص 532.

سكرجات عند بقال وعاد إلى البواب فدخل بحجة أن أهل العروس كلفوه بشرائهـا. فلما فرغ رد على البقال سكرجاته وقال: ليس يرضونها، يريدونها شامية. وربما عرف المتطفـل أن أحداً من أهل العروس غائب، فيأخذ ورقة ويجعلها على شكل رسالة من الغائب يحتج بها للدخول[62]. وكان بعضهم يحتال في الدخول بوضع أحد نعليه في كمه، ويأخذ شيئاً يخلل به أسنانه، كأنه قد أكل حتى شبع، وأنـه قد نسي أحـد نعليه في الـدار، فيسمح لـه البواب[63]. ومن الطفيليين من كان يتطيب ويعتني بهندامـه وبلباسـه، ليزيـد في تضليل البـواب. ومن أجل التخلص من أخـطار البوابـين، وضع رئيس الـطفيليـين دعـاء لقنـه زمـلاءه، ويقول هـذا الدعـاء: «اللهم لا تجعل البـواب لكَـازاً في الصـدور، دفّـاعـاً في الظهور، طرّاحاً للقلانس، وهب لنا رأفته وبشْرَهُ، وسهل لنا إذنه»[64].

ويبدو أن الطفيليين قد وضعوا أصولاً للمهنة جاءت على شكل نصـائح ووصـايا، فلم يكن يستحسن عندهم الكلام عـلى الطعـام إلا أنْ يكون الكـلام مقتصراً عـلى كلمة نعم، فـلا بأس في ذلـك، لأنها تساعـد على المضـغ[65]. وحفـظوا عن طفيـل العـرائس وصيته إلى ابنه عبد الحميد التي يقول فيها: «إذا دخلت عـرساً فـلا تلتفت تلفت المريب، وتخيّر المجالس، فإن كان العرس كثير الـزحام فـأمر وانْـه، ولا تنظر في عيـون أهل المـرأة ولا أهل الرجل ليظنونك منهم، وإذا كان البواب غليظاً وقاحاً فابـدأ به وانهه من غـير أن تعنفه، وعليك بكلام بين النصيحة والإدلال».

ومن نصائحهم أن لا ينادم طفيلي حائكاً ولا حجاماً ولا خياطاً ولا مكارياً ولا دلالاً لأنهم يذهبون بالجاه عند الإخوان وأهل الفقه، فكان على الطفيلي مصاحبة بزاز وعطار أو صيرفي وصيدلاني[66].

وقـد حفظ لنا الخـطيب البغدادي نـسخـة عهد في التـطفيل[67] كتبهـا أبـو إسحق الصابي بناء لطلب عز الدولة البـويهي إلى «عليك» أحـد نقباء الـديلم، وكان عليـك هذا كثير التطفيل على جند عز الدولة وقـواده وحجابـه، فرسم لـه أن يستخلف على التـطفيل

---

(62) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ج 2، ص 204، انظر ايضـاً، الأذكياء، ص 178، التـطفيل، ص 65.

(63) التطفيل، ص 60، البصائر والذخائر، ج 2، ص 204.

(64) التطفيل، ص 51، 66.

(65) المصدر نفسه، ص 68، الإمتاع والمؤانسـة، ج 3، ص 36.

(66) التطفيل، ص 69، 82، 84.

(67) المصدر نفسه، ص 99 وما بعدها.

خليفة. ويتضمن هذا العهد أمره بما يلي:

تعهد موائد الكبراء والعظماء، وسمط الأمراء والوزراء، وتتبع ما يعرض لموسري التجار، وأمره بمصادقة قهارمة الدور ومدبريها، وبمرافقة وكلاء المطابخ وحماتها، فإنهم يملكون أزمّة مطاعمهم، وأمره أن يتعهد المتسوقين ومواسم المتبايعين، وأمره أن يذهب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين، والنائحات والمخنثين، وأمره أن يتجنب مجامع العوام المقلين، ومحافل الرعاع المقترين، وأمره أن يتعهد الأدوية المقوية المشهية للطعام.

كان الطفيليون ثقلاء أحياناً، فوصفوا بأنهم «كأمر الله يحدث كل ليلة».

ووصف أبو الجهم الطفيليّ بقوله[68]:

كم لطمةٍ في حر وجهك صلبةٍ	من كل بواب سفيه ضابطِ
حتى وصلت فنلت أكلة ضيغمٍ	متضمّخٍ بدمٍ وأنف ساقطِ

ووصف أبو القاسم البغدادي طفيلياً بالثقيل الذي يعربد على الندماء، ويقترح أنواع الغناء، ويشتهي بعد الغداء والعشاء ألوان الصيف والشتاء[69]. ووصف الطفيلي بأنه يأكل لمّاً ويوسع ذماً[70]. وقال ابن المدبر: إن الطفيلي يحتمل دخوله بيوت الناس وإفساده عليهم ما يريدونه من الخلوة بندمائهم، والخوض في أسرارهم لخصال: منها أن يكون لاعباً بالشطرنج أو النرد، أو ضارباً بالعود أو الطنبور، وربما كان في الطفيليين من تجتمع فيه هذه المواهب ويجمعون إليها حسن الرماية بالبندق والبرجاس[71]. ودافع الطفيليون عن تطفلهم بحجج كثيرة[72]، واعتقدوا أن كل الناس متطفلون، سواء أكان التطفل على طعام أو ثمينة[73].

4 ـ المكدون والشحاذون:

عرفت بغداد الشحاذين والمكدين الذين كانوا يتقنون فن استخراج الأموال من أصحابها. وقد تفنن أفراد هذه الطائفة حتى ليصح القول بأن الكدية شكّلت حرفة لها

---

(68) الثعالبي، ثمار القلوب، ص 35، محاضرات الأدباء، ج 1، ص 639.
(69) حكاية أبي القاسم، ص120.
(70) محاضرات الأدباء، 1، ص 638.
(71) مروج الذهب، ج 2، ص 465 ـ 466.
(72) أنظر، محاضرات الأدباء، ج 1، ص 638.
(73) المكان نفسه، أنظر أيضاً، أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج 3، ص 34.

نظمها وتقاليدها، وبلغ من شدتها أن اعتبر أحد عمال الإدارة العباسية في القرن الرابع، أن قصص كرم البرامكة إنما وضعها المكدون[74].

وقد أولى الأدب أخبار المكدين العناية التامة، فكان الجاحظ رائداً في هذا المضمار، فتحدث عن أسماء المكدين وميزاتهم وما يحتالون به.

فمن المكدين المخطراني، الذي يأتي في زي ناسك ويدعي أنه فقد لسانه، والكاغاني، الذي يتجنن ويتصارع ويزبد، والبانوان الذي يقف على الباب ويسأل الحسنة، والقرسي الذي يعصب ساقه وذراعه ليحبس الدم فيهما فتبدوان كأن فيهما بلية، والمشعب، الذي يحتال للصبي حين يولد، بأن يجعل فيه عاهة ويسأل الناس بها، والفاور الذي يحتال لخصيته ويدعي أن بها سرطاناً أو خرّاجاً، والكاغان الغلام المكدي المؤاجر، وكان عليه مسحة جمال، والعوّاء الذي يسأل بين المغرب والعشاء، والإسطيل، وهو المتعامي، والمزيدي، الذي يدور ومعه دريهمات وربما احتمل صبياً على أنه لقيط، وربما طلب في الكفن؛ والمستعرض ذو المظهر الحسن ويدعي الحياء، والمقدسي، الذي يقف على الميت ويسأل في كفنه، والزكوري، الذي يطلب خبز الصدقة[75].

وقد تفنن المكدون حتى بلغوا في حرفتهم كل مبلغ. فمنهم من استغل صراع المذاهب الإسلامية في بغداد، فيقف واحد على باب جسرها يتوسل علي بن أبي طالب، ويقف آخر على الباب الثاني للجسر يتوسل معاوية، ويجيئهما من ذلك المال الكثير، يقتسمانه في المساء؛ ومنهم من يقف على الطريق ينشد الرقائق والزهديات، ومنهم من يتصدق بقراءة القرآن[77]، ومنهم من يتصدق ويدعي أنه هرب من المحنة[78]، ومنهم من يصحب زوجته إلى الخارج ويجاور في مسجد إحدى المدن مظهراً النسك، حتى إذا لاحظ المصلون نسكه ادعت عليه زوجته أنه قتل ولدها وفرّ، فيضطر المصلحون إلى أن يجمعوا لها دية ولدها، ومنهم من يدعي التصوف، فيدخل على بجكم أمير أمراء بغداد فيعظه حتى يبكيه، فيرسل إليه بجكم بألف درهم فيحملها وينصرف[79].

---

(74) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 16.

(75) أنظر، البخلاء، ص 46، 51 ـ 53.

(76) أنظر، البيهقي، المحاسن والمساوىء، ص 582 ـ 583.

(77) نشوار المحاضرة، ج2، ص 358، ج 3، ص 61.

(78) الخطيب البغدادي، ج 12، ص 205، والمحنة هي امتحان المعتزلة للناس، حول القول بخلق القرآن الذي كان من مبادىء الاعتزال.

(79) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 351، 355، 359.

وتحدث أحد شيوخ المكدين في بغداد عن ثروة جمعها من الكدية، فقال: إنه قد تعلم السريانية حتى صار يقرأ كتبهم التي يصلون بها، ثم لبس زي راهب وخرج إلى سر من رأى، فكان يدخل على القواد الأتراك ويدعي أنه راهب منذ ثلاثين سنة، وأنه قد عقد العزم على اعتناق الإسلام، بعد أن رأى النبي في المنام ودعاه إلى اعتناق الإسلام على يد القادة الأتراك[80].

ونقف في القصيدة الساسانية التي نظمها أبو دلف الخزرجي على أصناف المكدين وحيلهم[81]، فكان منهم من يستخدم التعاويذ وهو الكاغ، والدروز الذي يدور على السكك والدروب ويسخر بالنساء، ومن يقوم في مجالس القضاء، ومنهم من يبكي في الأسواق عند البرد حتى يُعطى، ومنهم من يطوف في الحوانيت ويأخذ منهم تمرة أو تينة أو جوزة، ومنهم من يدعون الذهاب إلى الغزو فيقتسمون الثياب والسلاح الذي يعطون، ومنهم من يرش ماء الورد على الناس أو يبخرهم أو يبيع العطر على الطريق، ومنهم من يدعي الطب بواسطة الرقية، ومنهم من يدعي التقوى والصلاح والقتال في بلاد الروم، ومنهم من يقصد المساجد يتكدى فيها، ومنهم من يدعي أن مأواه الأتون وليس له غيره مأوى، ومنهم من يدعي النظر في الفأل والزجر والنجوم، ومنهم من يدعي أنه من الشيعة ويحمل السبح والألواح من الطين، ويزعم أنها من قبر الحسين بن علي، ومنهم من ادعى أنه من الكيسانية، ومنهم من ينوح على الحسين، ومنهم من يدور في الأسواق يروي فضائل أبي بكر، ومنهم من يكتري الصبيان والنساء ويكدي عليهم، ومنهم من يجلس في الطريق يتكدى بتعبير الأحلام، ومنهم من يطحن النوى والحديد والزجاج بيديه وأضراسه.

وتحدث بديع الزمان الهمذاني في مقاماته عن بعض تصرفات المكدين. ففي المقامة الأسدية يبدو أبو الفتح الإسكندري بطل المقامات، وهو يقف على رأس ابن وبنية بجراب وعصية، وينشد شعراً يتكدى به عليهما. وفي المقامة الجرجانية يبدو المكدي ومعه أطفال صغار في أطمار، وهو يقف أمام جماعة يستجديهم بعد أن قذفته إليهم ريح الاحتياج، ونراه يستجدي راحلة وزاداً، وهو يعترف صراحة أنه يحترف الكدية، ونراه في مكان آخر يشكو كثرة البنات والفقر، ويطلب مساعدة جماعة ما كان منها إلا أن أفرغت ما في جيوبها، وأعطاه بعضها ملابس ومطارف. ونراه في مكان آخر يزعم أنه جاء ببشارة

(80) المصدر نفسه، ج 8، ص 272 ـ 274.

(81) أنظر، الثعالبي، يتيمة الدهر، ج 3، ص 359ـ 377.

من النبي، وهو دعاء علمه له في المنام، ثم أوصاه أن يعلم ذلك أمته، فما أتم كلامه حتى انهالت عليه الدراهم[82].

ولم يكن الحريري في مقاماته بعيداً عن أجواء الجاحظ وأبي دلف والهمذاني؛ فقد كان أبو زيد السروجي بطل مقامات الحريري مكدياً يلجأ إلى حيل مختلفة، في سبيل الحصول على المساعدات من الناس. فهو تارة واعظ يسحر الجمهور بوعظه، فما إن يهم بالرحيل حتى يعرض كل منهم يده في جيبه ويخرجها بما جادت به نفسه. ونراه في مقبرة يعظ زوارها ويسألهم مالاً، فيملأون كمه منها ما استطاعوا[83]. ونراه مرة أخرى داخل المسجد يخرج من جعبة يحملها رقاعاً كتبت بألوان الأصباغ، يناولها لعجوز حيزبون لتوزعها على الحضور، وقد تضمنت هذه الرقاع أبياتاً من الشعر يستجدي فيها، ثم تعود لتسترجعها بعد أن دفع قارئوها ما قدروا عليه، ونراه وقد احتال على القاضي مرات[84]، ونراه مرة وقد لبس ملابس النساء وخلفه صبية أنحف من المغازل يمشي إلى جماعة في أحد شوارع بغداد، ويطلب منهم مساعدته، ونراه مرة يدعي أن صديقه مات وليس عنده ثمن كفن، بعد أن كان حليف الجود، وبعد أن كان يرفل في النعيم ولبس الخز والحرير[85].

وهو في جميع الحالات يدعي أن لجوءه إلى الكدية كان بسبب الفقر، وأنه اضطر إلى المكر حتى تستدير رحى المعيشة[86]. ولعل أهم ما في مقامات الحريري نصيحة البطل لابنه في احتراف الكدية ليصير قائد الكتيبة الساسانية[87]. فبعد أن يعلن أبو زيد إفلاس طرق العيش السليم، لم يبق إلا الحرفة التي وضع ساسان أسسها، فإن أهلها أعز قبيل، وأسعد جيل، لا يرهقهم من حيف ولا سل سيف، وينصح ولده بالسعي والسفر والنشاط، فقد كان مكتوباً على عصا ساسان شيخ المهنة: «من طلب جلب ومن جال نال».

ثم يدعوه إلى الإقدام والبكور، ويدعوه للتحلي بالعيافة والقيافة، وعدم القنوط عند الرد. «وإذا خيرت بين ذرة منقودة، ودرة موعودة فمل إلى النقد، وفضل اليوم على

---

(82) مقامات، ص 37، 45، 46، 50، 53، 54، 64، 67، 82.
(83) مقامات الحريري، ص 17 ـ 21، 99.
(84) المصدر نفسه، ص 61، 73، 322، 345.
(85) المصدر نفسه، ص 112 ـ 113، 171.
(86) أنظر، ص 74، 75، 431.
(87) أنظر، المقامة الساسانية، ص 433 ـ 441.

الغد، فإن للتأخير آفات، وللعزائم بدوات».

ثم يدعوه إلى الإرتحال، فإن أعلام شريعة الساسانية وأشياخ عشيرتهم، أجمعوا على أن الحركة بركة، والطراوة سفتجة. . وعليه تخير الرفيق المسعد، فإن الرفيق قبل الطريق.

ويختم أبو زيد وصيته لابنه بقوله: يا بني قد أوصيت واستقصيت، فإن اقتديت فواهاً لك، وإن اعتديت فآهاً منك، فقال له ابنه: أبت، لا وضع عرشك ولا رفع نعشك، فلقد قلت سدداً وعلّمت رشداً.

وقال راوي الحريري، الحارث بن همام: فأخبرت أن بني ساسان، حين سمعوا هذي الوصايا الحسان، فضلوها على وصايا لقمان.

5 ـ الزهّاد والمتصوفون:

اتخذ الزهاد أشكالاً سلوكية تتلخص بالانقطاع عن ممارسة كل النشاطات الاجتماعية والتفرغ لممارسة الشعائر الدينية وحدها، مع قهر النفس وترويضها على تحمل أشق حالات هذه الممارسات، وحرمانها من كل مشتهيات العيش.

وإذا كان الزهد في فجر الإسلام قد سلك خطاً أخلاقياً لدى رجال الصحابة، إلا أنه لم يلبث أن أصبح منذ القرن الثاني ظاهرة تعلن في مضمونها معارضة للأوضاع الإجتماعية والسياسية القائمة[88]. وإذ كانت السلطة تطلب دائماً تأييد موقفها في نزاعاتها ضد الحركات السياسية المناوئة لها، وعلى الأخص حركة الحنابلة والحركات الشيعية المناوئة التي استمرت تناهض العباسيين طيلة عهودهم، إلا أنها عجزت عن وقف تدهور الوضع المعيشي لكافة الناس، فكان انكفاء العديد من رجال الدين والعلماء عن ساحة الصراع بمثابة احتجاج على سيرة الدولة في معالجة الأوضاع السائدة، معلنين تمسكهم بمبادىء الإسلام الأساسية، زاهدين في الدنيا[89] وقد تمكن الزهاد بموقفهم هذا من لفت نظر السلطة. قال يحيى بن أكثم: «قال لي المأمون: لم يبق في هذه الكورة أحد يُستحيى منه غير بشر بن الحارث». وقال أبو بكر الوراق «الناس ثلاثة: العلماء والأمراء والقراء، فإذا فسد الأمراء فسد المعاش، وإذا فسد العلماء فسدت الطاعات، وإذا فسد القراء

---

(88) جولد تسهير، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة عبد القادر حسن، وآخرون، ط 2، (القاهرة، 1959)، ص 146 ـ 147.

(89) أنظر، قاسم غني، تاريخ التصوف في الاسلام، ترجمه صادق نشأت، (القاهرة، 1970)، ص 36 ـ 37.

فسدت الأخلاق». وكان بشر يقول: يأتي على الناس زمان لا تقر فيه عين حكيم، ويأتي عليهم زمان تكون فيه الدولة للحمقى على الأكياس»، وكان المحاسبي يقول: «الظالم نادم وإن مدحه الناس، والمظلوم سالم وإن ذمّه الناس»، وكان أبو بكر الوراق واضحاً في موقف الزهاد بقوله: «إحذر صحبة السلطان إبقاء على نفسك، والملوك إبقاء على عيشك، والأغنياء إبقاء على ملكك...»[90].

ومن الطبيعي أن يرتبط موقف الزهاد من المجتمع بالفقر سبباً أو نتيجة، فكان أن انتشرت فيما بينهم فلسفة الفقر، وراحوا يدافعون عنها. وذكر المسعودي[91] أن ابراهيم بن جابر القاضي، كان في بغداد، قبل ولايته القضاء، يعالج الفقر ويتلقاه من خالقه بالرضا، ناصراً للفقر على الغنى، وادعى أنه رأى في منامه علي بن أبي طالب يوصيه بأن على الفقراء التعزز على الأغنياء ثقة بالله. ولكن ابراهيم بعد ولايته القضاء في حلب، قطع لزوجته أربعين ثوباً تسترياً وقصباً وأشباه ذلك دفعة واحدة، وخلّف مالاً عظيماً لغيره.

وكتم رويم بن أحمد الزاهد حبّ الدنيا أربعين سنة، ولما ولي إسماعيل بن إسحاق قضاء بغداد جذبه إليه وجعله وكيلاً على بابه فترك التصوف ولبس الخز والقصب والدبيقي، وأكل الطيبات وبنى الدور[92].

وعقد أبو طالب المكي فصلاً في الزهد، واعتبر طلب الفقر أحد أركان الزهد. وتحدث عن الفقراء وفضلهم، ونقل أخباراً عن النبي في تفضيل الفقر منها: «يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»، ومنها: «أطلعت في الجنة فإذا أكثر أهلها الفقراء، وأطلعت في النار فإذا أكثر أهلها الأغنياء».

وذكر أبو طالب المكي بكاء الفقراء حزناً على طلب المزيد من الفقر، لأن تحفة المؤمن من الدنيا الفقر»[93].

وقام بعض الزهاد بتطبيق أقسى شروط الزهد على أنفسهم، فقيل إن أبا بكر الزقاق كان يرب فقره مدة سبعين سنة. وتنزه أبو محمد البربهاري عن ميراث أبيه البالغ

---

(90) السلمي، **طبقات الصوفية**، ص 40، 44، 60، 222، 237.

(91) **مروج الذهب**، ج 2، ص 518.

(92) **المنتظم**، ج 6، ص 137.

(93) **قوت القلوب**، ج 1، ص 491، وحول تفضيل الفقر، أنظر السلمي، **طبقات الصوفية**، ص 64 ـ 65، 135، 149، 151.

سبعين ألف درهم، ولم يكن إبراهيم بن محمد بن نوح الزاهد يملك من الدنيا إلاّ الدار التي يسكنها وحانوتاً يستغله بـ 17 درهماً شهرياً يتقوّت بها[94]. وكان أحد الزهاد في نهاية القرن الثالث يكتفي لقوته بباذنجانة مشوية أو لعقة بن أو باقة فجل، ورفض 10 آلاف دينار قدمهاإليه المعتضد[95]، وكان أحد المتعبدين البغداديين لا يأكل إلا القمام ولا يلبس ما يباع ولا ما يشترى، ولا يمسك بيده ذهباً ولا فضةً، مشرداً ستة أشهر في العباسية وستة أشهر حول دار البطيخ. وكان داود بن علي (ت 270هـ) ينزل قطيعة الربيع وبين يديه طبق فيه أوراق هندباء وعصارة فيها نخالة يأكل منها، ويرفض عطاء بألف درهم. ووجد أبو بكر بن مسلم صاحب قنطرة البردان يوم عيد وعليه قميص مرقوع نظيف مطبق، ولديه قليل من الخرنوب يقرضه. وكان أبو الفضل الشيباني يلبس ثوباً أسود ويتمنى الموت وهو على هذه الصورة[96] ولم يكن الحسين بن أحمد المعروف بابن البغدادي الزاهد يدخل الحمام ولا يحلق رأسه، ويغسل ثيابه بالماء من غير صابون ويأكل خبز الشعير، لأن الشعير والقمح في نظره سواء[97]. وأفنى إبراهيم الحربي ثلاثين سنة من عمره على رغيفين يومياً، إن جاءته أمه أو أخته بهما أكل، وإلا بقي جائعاً عطشان إلى الليلة الثانية. وصار فيها بعد يأكل نصف رغيف و14 تمرة إن كانت برنياً و20 تمرة إن كانت دقلاً، وقضى شهر رمضان، فكان إفطاره بدرهم ودانقين ونصف طيلة الشهر، ودخل الحمام واشترى صابوناً بدانقين[98]. واشتهى زهير بن محمد لحماً مدة أربعين سنة، ونذر أن لا يأكله حتى يدخل بلاد الروم مجاهداً، وسايرت زوجة بدر المغازلي زوجها في زهده، فباعت داراً لها بـ 30 ديناراً فرّقت ثمنها على الفقراء[99].

وقد حصل الزهاد على تقدير اجتماعي عالٍ، فلما توفي غلام الخليل سنة 275هـ أغلقت أسواق بغداد وخرج الرجال والنساء والصبيان للصلاة عليه، وصلى معظم المشيعين على شاطيء دجلة، وانحدروا ركباناً ومشاة وفي الزواريق إلى كلواذى

---

(94) المنتظم، ج 6، ص 42، 76، 323.

(95) المصدر نفسه، ج 5، ص 6.

وأتوقف هنا عند كلمة (بن) وهي كما تبدو في النص تعني البن المعروف اليوم، وأشك بقوة في وجود البن في القرنين الثالث والرابع، ولو وجد لما تجاوزها كل من الدينوري في «التعبير في الرؤيا» والازدي في «حكاية أبي القاسم».

(96) المصدر نفسه، ج 5، ص 23، 26، 51، 75، 76.

(97) ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، ج 2، ص 178.

(98) المنتظم، ج 6، ص 5.

(99) المصدر نفسه، ج 5، ص 4، 154.

وما بعدها[100].

وتابع المتصوفة سياسة الزهاد في أسلوب العيش[101]. قال أبو تراب النخشبي: الفقير قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث نزل. وكان أبو الحسين النوري يقول: «التصوف ترك كل حظ للنفس»، وسئل النوري في مجلس للسلطان: من أين تأكلون؟ فقال: لسنا نعرف الأسباب التي تستجلب بها الأرزاق، نحن قوم مدبرون[102]. وكان من الصوفية من يعتقد أن الله جعل قلوب العارفين أوعية الذكر، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع، وقلوب الفقراء أوعية القناعة، ومن المتصوفين من اعتقد أن المعاش أقدار ترد في أوقات من أسباب الغيث[103]. وقد وصف التصوف بأنه الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات، لأن التصوف هو صفاء المعاملة مع الله وأصله العزوف عن الدنيا[104].

ويبدو أن الصوفية تخلوا عن مسلك الزهاد، فاتخذ التصوف معهم شكلاً أشبه بالمؤسسة، خصوصاً بعد أن صارت للتصوف مراتبه ودرجاته. وبعد أن صار الصوفية أشبه بالمكدين[105].

وقد وقف الحلاج الصوفي موقفاً واضحاً من تصرفات بعض الصوفية[106].

ليس التصوف حيلة وتكلفاً	وتقشفاً وتواجداً بصياحِ
ليس التصوف كذبة وبطالة	وجهالة ودعابة بمزاح
بل عفة ومروءة وفتوة	وقناعة وطهارة بصلاح

ولاحظ التنوخي تصرفات بعض رجال المتصوفة وإنكار الناس لها واتهامهم بالتحايل لكسب الأموال، كما لاحظ أبو حيان التوحيدي أن بعض المتصوفين كان يتمنى أن يكون حماراً لينجو من مؤونة العيش[107].

---

(100) المصدر نفسه، ص 96.

(101) في الواقع إن المؤلفات التي تتحدث عن الزهاد تتحدث عن الصوفيين في آن واحد، وينعت المتصوف بالزاهد عادة.

(102) **طبقات الصوفية**، ص 149، 166، 169.

(103) المصدر نفسه، ص 135. 151.

(104) الخطيب البغدادي، ج 7، ص 246.

(105) أنظر، أبو طالب المكي، **قوت القلوب**، ج 1، ص 528 وما بعدها، أنظر أيضاً، آدم متز، **الحضارة الإسلامية**، ج 2، ص 27.

(106) كامل مصطفى الشيبي، **شرح ديوان الحلاج**، (بيروت ـ بغداد، 1974) ج 1، ص 349.

(107) التنوخي، **نشوار المحاضرة**، ج 2، ص 357، التوحيدي، **المقابسات**، ص 195.

وتوقف الثعالبي عند الصوفية وذكر ما اتهمهم به الناس من كثرة الأكل حتى كان يقال: آكل من الصوفية؛ ووصفوا بأنهم رقصة أكلة، حتى بلغ من عنايتهم بأمر الأكل إلى قطع أكثر الأوقات به[108].

والواقع أن بعض الصوفية انغمسوا في الحياة واستغلوا مكانتهم، فتعاطى بعضهم الغلمان وطاردهم، ولاحظ يوسف بن الحسين الرازي أن آفة الصوفية هي في صحبة «الأحداث» وإرفاق النسوان، ويبدو أن ذلك كان شائعاً فيهم؛ حتى أن هذا المتصوف عاهد ربه أكثر من مائة مرة ألا يصحب حدثاً[109].

وكان العامة يقدرون الصوفية ويطيعون أوامرهم، وكان البعض شديد التعلق بهم، حتى عدّوا من آمنوا به من الأبدال وقوّام العالم وقطب الوقت وصاحب الزمان[110].

وكان الصوفية يجتمعون في بغداد في جامع المنصور في حلقة يتجارون على الهواجس والخطرات، كما يجتمع إلى هذه الحلقات العديد من الناس يستمعون إلى شرح شيخهم[111].

وهكذا فإن الاضطرابات الاقتصادية والسياسية تركت آثارها على حياة البغداديين ومصادر عيشهم، فراحت جماعات منهم تفتش عن عيشها في زحمة هذا الصراع.

فمنهم من اغتنم فرصة اضطراب الأمن وراح يقطع الطريق ويتشبه برجال السلطة الذين يصادرون الناس، ومنهم من راح يقطع الطريق بعد أن فشل في الحصول على وظيفة جندي، ومنهم من احتال على لقمته بالادعاء بأنه تضرر من المحنة، ومنهم من رأى في الصراع المذهبي والسياسي بين البغداديين سانحة للحصول على لقمة العيش.

ولا بد أن بعض الناس عجزوا عن الانخراط في طوائف اللصوص والمكدين والمتطفلين، فقادهم عجزهم إلى الإنتحار شنقاً أو غرقاً.

فقد ترك لنا أبو حيان التوحيدي وصفاً لحادثة انتحار شيخ من أهل العلم. فيذكر أنه ساءت حال هذا العالم «وضاق رزقه واشتد نفور الناس منه، فدخل يوماً منزله ومد

---

(108) انظر، ثمار القلوب، ص 174 ـ 176.

(109) طبقات السلمي، ص 166، 167، 190، 191. أيضاً، الرسالة القشيرية، ص 23 ـ 24.

(110) نشوار المحاضرة، ج2، ص 349، 353.

(111) المصدر نفسه، ج 1، ص 99.

حبلاً إلى سقف البيت واختنق به، وقد قام بذلك وخلص نفسه من شقاء طال به، وفاقة شديدة وإضاقة متصلة»[112].

ويذكر أبو المطهر الأزدي قصة انتحار ابن غسان الطبيب النصراني، فقال: «وكان آخر أمره المسكين أنه غَرّق نفسه في كرداب كلواذى، وذلك لأسباب اجتمعت عليه من صفر اليد وسوء الحال»[113].

(112) المقابسات، ص 196.

(113) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص 83.

الفصل الرابع عشر

الخدمات والمرافق العامة

كان من الطبيعي في مدينة مثل بغداد أن تظهر الحاجة إلى بعض الخدمات العامة. ولكن رجال الإدارة لم يولوا الخدمات عناية تامة، فمثل هذه الخدمات كانت متروكة للمبادرات الفردية. ويبدو أن الخدمات التي كان للهيئة الحاكمة دور المبادرة فيها تتصل بسلطة رجال البلاط ومدى ممارستهم لها.

الجوامع:

قامت المساجد والجوامع في بغداد مع بناء المدينة، إذ أن حاجة الناس إلى ممارسة فريضة الصلوات الخمس كل يوم، واجتماع أهل المدينة كلهم يوم الجمعة لإقامة الصلاة والاستماع إلى الخطبة الرسمية، جعلا من الجامع نقطة أساسية في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية للمدينة الإسلامية. وقامت المنشآت العامة والخاصة تتسابق لتجد لها محلاً قرب المسجد بغية تسهيل ممارسة شعائر الصلاة[1].

ونظراً لأهمية الجامع فقد اتخذ مكانه في مركز المدينة وبالقرب من قصر الحاكم. فكان جامع المنصور ملاصقاً لقصر باب الذهب، حيث يقيم الخليفة. وقد هدم هذا الجامع في عهد الرشيد بين سنتي 192 ـ 193هـ وأعيد بناؤه بالآجر والجص، بعد أن كان مبنياً بالطين واللبن، وأمر الرشيد بأن يكتب عليه اسمه وأن يذكر اسم البناء والنجار، وزاد حوله سوراً من الآجر[2].

---

(1) أنظر، عفيف بهنسي، جمالية الفن العربي، (الكويت، 1979)، ص 135.

(2) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 107، أنظر أيضاً، ارنست كونل، الفن الإسلامي، عربه أحمد موسى (بيروت، 1966)، ص 33، 108.

وبذلك تتضح الأهمية السياسية لعمل الرشيد ورغبته في الظهور بمظهر راعي شؤون المسلمين.

وتابع هذا الخط جماعة من الخلفاء، وأولوا جامع المنصور عنايتهم، كما اهتموا ببناء مساجد أخرى. فقد ذكر أن الصلاة كانت تقام في «الصحن العتيق» الذي هو الجامع حتى زيد فيه سنة 261 هـ الدار المعروفة بدار القطان التي كانت قديماً ديواناً للمنصور.

ثم زاد فيه المعتضد «الصحن الأول» وهو قسم من قصر المنصور، بعد أن أخبر بضيق المكان واضطرار الناس إلى الصلاة في أماكن لا تجوز الصلاة بمثلها، وبلغت كلفة هذه الزيادة عشرين ألف دينار[3]. وذكر المقدسي عن مسجد «فسا» بإقليم فارس أن للجامع صحنين على عمل مدينة السلام[4].

وفي سنة 159هـ بنى المهدي جامع الرصافة في الجانب الشرقي، فكانت صلاة الجمعة تقام في الجانبين في جامعي المدينة والرصافة إلى خلافة المعتضد، إذ أصبح الناس يصلون في دار القصر الحسني، وليس فيها رسم مسجد، بل كان يؤذن للناس في الدخول وقت الصلاة[5]. ثم أنشيء المسجد الثالث في عهد المكتفي الذي هدم مطامير أبيه وجعل موضعها مسجداً جامعاً[6]. وكان في بغداد في «براثا» مسجد يجتمع فيه المتشيعون ويقصدونه للصلاة والجلوس فيه، ورفع خبرهم إلى المقتدر الذي أمر بهدمه حتى سوّي بالأرض، ومكث خراباً إلى سنة 328هـ حين أمر بجكم أمير أمراء بغداد بإعادة بنائه، فبني بالجص والآجر وسقف بالساج المنقوش، ووسع بما ابتيع من أملاك الناس وكتب في صدره اسم الراضي، وأقيمت فيه صلاة الجمعة سنة 329هـ[7].

وفي سنة 379هـ بني مسجد في الجانب الغربي في قطيعة أم جعفر من محلة القلائين، وكان القائم بأعمال بنائه أبو أحمد الموسوي العلوي، بعد أن استأذن الطائع لله في ذلك[8]. وذكر هلال بن المحسن الصابي، أن أبا بكر الهاشمي بنى مسجداً بالحربية في أيام «المطيع» ليكون جامعاً يخطب فيه، فمنع الخليفة من ذلك، وبقي المسجد على هذه الصورة حتى خلافة القادر، الذي أمر بالصلاة فيه سنة 383هـ. وهكذا كان في النصف

---

(3) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 108، ابن الجوزي، المنتظم، ج 5، ص 243.
(4) أحسن التقاسيم، ص 431.
(5) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 108 ـ 109.
(6) المصدر نفسه، ص 109.
(7) المصدر نفسه، ص 109 ـ 110.
(8) المصدر نفسه، ج 1، ص 110.

الأول من القرن الخامس ستة مساجد جامعة تقام فيها صلاة الجمعة[9].

انتشرت في بغداد المساجد العادية التي كان يقصدها الناس للصلوات الخمس، وراعت هذه المساجد مواقع التجمعات البشرية. فأقيمت داخل أسوار المدينة المدورة، ثم لم تلبث أن نشأت في الأرباض والأسواق، وعرف منها مسجد الهمدانيين ومسجد الأنصار الكبير[10]، وكان منها مسجد كوثر ومسجد قيراط الذي أقيم في الصحراء التي نسبت إليه ومسجد ابن رغبان، ومسجد كبير عرف باسم مسجد عبد الله بن مالك. وكان في الجانب الغربي مسجد أبي بكر الهذلي في بداية عهد المدينة[11].

وعرف في بغداد الغربية أيضاً مسجد الواسطيين، وكان فيها مسجد الشرقية، نسبة إلى قرية كانت شرقي الصراة[12]. وعرف في بغداد أيضاً مسجد السواقين، ومسجد مشرعة الروايا[13].

ومن المساجد التي تذكرها المصادر القديمة مسجد باب الجسر[14] ومسجد على دجلة ومسجد في الفرضة ومسجد الكرخي[15]. وأقام طاهر بن الحسين مجموعة من المساجد في شارع الأنبار، فكان في أول حصاره الأمين كلما بلغ إلى موضع من ذلك الشارع بنى فيه مسجداً ومنارة، وبقي منها المسجد المعروف بمسجد طاهر في طرف بغداد[16].

ومع تقدم بغداد، أصبح البناء كله بالآجر، واستعيض عن الأعمدة، بدعامات مبنية مزودة غالباً بأعمدة ملحقة تقام عليها العقود، واستغني عن توسيع رواق المحراب وإقامة قبة عليه، كما أصبحت المئذنة تقام خارج المسجد[17].

ولا بد أن المنائر التي يرد ذكرها منفردة قد بنيت خارج المساجد، منها تلك التي ذكرها ابن الفقيه وكانت في شارع الأنبار، والتي بناها كلها طاهر بن الحسين، ومنها منارة

---

(9) المصدر نفسه، ص 111.

(10) الخطيب البغدادي، ص 32، 286.

(11) الطبري، ج 8، ص 431. ابن الفقيه، بغداد، ص 45، 47، 50.

(12) المصدر نفسه، ص 44، 47.

(13) الخطيب البغدادي، ج 11، ص 347، 411.

(14) الخطيب، ج 6، ص 254.

(15) ابن عبد الملك الهمداني، تكملة الطبري، ص 68، 166.

(16) ابن الفقيه الهمذاني، بغداد، ص 49، 50.

(17) ارنست كونل، الفنون الإسلامية، ص 33.

الحكم في طرف باب الأنبار[18].

وكان في بغداد «مصلّى» يقوم خارج سور الجانب الشرقي بين باب الشماسية وباب البردان، حيث كانت تتم الصلاة في الهواء الطلق، منها صلاة العيدين وصلاة الاستسقاء، ثم صار موضعاً لتجمع الجند المتمردين[19].

المقابر:

من الملاحظات التي أبديت أمام المنصور حول بناء مدينته أنه لا مقبرة فيها، فكان أن عمل المقبرة المعروفة بمقبرة قريش سنة 159 هـ[20]. والواقع أن المقبرة، التي هي مدينة الأموات، كانت ترافق بناء المدينة، إذ يذكر الخطيب البغدادي مقابر باب الشام التي دفن فيها عبد الله بن علي العباسي سنة 147هـ، وهي، حسب البغدادي، أقدم مقابر بغداد، ودفن فيها فيما بعد جماعة من العلماء والفقهاء[21].

اكتسبت المقابر أهميتها بإسباغ القدسية على بعض رجالات الدين نتيجة للمنافسات المذهبية أحياناً، ولظهور كرامات بعضهم أحياناً أخرى، فقد كان أبو علي الخلال شيخ الحنابلة يقصد قبر موسى بن جعفر العلوي في مقابر قريش كلما ضاق صدره بالهموم[22]، وقيل إن قرب مقبرة القطيعة في بغداد نبياً مدفوناً، فأوصى عبد الله بن أحمد بن حنبل أن يدفن فيها، واشتهرت مقبرة باب الدير بعد دفن الشيخ معروف الكرخي فيها[23].

وأقيمت المقامات على المدافن، فكان مقام ذي النون المصري مدعاة لأن يدفن بجانبه الجنيد ومعلمه السري، وصارت تقام المصليات عند المقابر ليتبرك بها المؤمنون منذ نهاية القرن الثالث[24]. وأقام الحمدانيون في بغداد المصليات على قبور العلويين، كما أقيمت على قبر الإمام الأعظم أبي حنيفة صفة مع مصلى صغير[25].

---

(18) بغداد، ص 49، 51.

(19) LESTRANGE pp. 204-5 أيضاً، العيون والحدائق، ج 4، ص 245.

(20) ابن الفقيه، بغداد، ص 38.

(21) تاريخ بغداد، ج 1، ص 120.

(22) المكان نفسه.

(23) المصدر نفسه، ص 121.

(24) Massignon, **Les Saints Musulmans enterrés à Baghdad**, in Opera Minora, T. III p. 94, 96, 97.

(25) Op. cit, p. 97.

كان هذا الموقف من العلماء والزهاد مدخلاً للتأليف في هذا المجال، فخصص الخطيب البغدادي فصلاً كتب فيه عن قبور العلماء والزهاد والفقهاء في بغداد حتى منتصف القرن الخامس[26]. وذكرت مخطوطة لم يعثر عليها بعد، وضعها ابن الساعي في «مقابر بغداد»، وذكر البندنيجي في القرن السابع عشر الميلادي الكثير من القبور في كتابه «جامع الأنوار»[27].

وإزاء النظرة التقديسية التي أحاطت ببعض رجال الدين، تغيرت أسماء بعض المقابر وعرف بعضها بأسماء المشهورين من المدفونين فيها. من ذلك مقبرة الإمام أحمد بن حنبل التي يذكرها ابن الجوزي، وهي نفسها مقبرة باب حرب التي عرفت في أول عهد بغداد وأقيمت خارج المدينة المدورة وراء الخندق مما يلي قطربل، وقد اكتسبت تقديراً خاصاً لأن فيها «أربعة من أولياء الله، وهم أحمد بن حنبل، ومعروف الكرخي، وبشر الحافي، ومنصور بن عمار»[28].

وفي عهد الخطيب (ت 463هـ) كان في جانبي بغداد مقابر عدة بنواحي الكرخ، منها مقبرة باب الكناس ومقبرة الشونيزي التي فيها قبر سري السقطي وغيره من الزهاد، ولعلها الشونيزي الكبرى، ومقبرة باب الدير التي فيها قبر معروف الكرخي الذي تنال البركة منه[29]، وفيها قبر محمد بن إسحاق صاحب «السيرة» وقبر أبي حنيفة النعمان إمام أصحاب الرأي، ومقبرة عبد الله بن مالك، وتعرف بالمالكية، وقد ضمت أيضاً قبور الكثير من الفقهاء والمحدثين والزهاد والصالحين؛ ومقبرة باب البردان؛ وكان عند المصلى المرسوم بصلاة العيد قبر يعرف بقبر النذور[30].

الجسور:

كان لا بد لبغداد، وقد افترشت محلاتها ضفتي النهر، من الاعتماد على المراكب في المواصلات بين الجانبين. لذلك كان لا بد لمن يريد العبور من جانب إلى جانب من أن يستعمل المركب أو أن يعبر راجلاً. وأقيمت الجسور لعبور المشاة، فكان أن عقد المنصور الجسر عند باب الشعير سنة 157هـ حيث كان يقوم في القديم مرفأ للسفن التي

---

(26) أنظر، تاريخ بغداد، ج 1، ص 120، 127.

(27) Mossignon, op. cit. p. 94.

(28) لمنتظم، ج 7، ص 236، أيضاً: الخطيب البغدادي، ، ج 1، ص 121.

(29) تاريخ بغداد، ج 1، ص 122.

(30) المصدر نفسه، ص 123.

توافي منطقة بغداد من الموصل والبصرة[31]. وقيل إن المنصور أمر بعقد ثلاثة جسور أحدها للنساء، ثم عقد لنفسه وحشمه جسرين بباب البستان[32].

وكان في عهد الرشيد ثلاثة جسور[33]، اثنان منها عند باب الشماسية، وكان بالزندورد جسران عقدهما الأمين[34]، كما أنه عقد جسراً عند باب موسى[35]، وكان لأبي جعفر جسر عند سويقة قطوطا. وقد بقيت هذه الجسور إلى مقتل محمد الأمين، ثم عطلت وبقي منها ثلاثة إلى أيام المأمون، ثم عطل واحد[36]. وأقيم جسر على نهر ديالى سنة 203هـ. وكان في بغداد في منتصف القرن الثالث جسران، أعلى وأسفل[37].

كانت الجسور تبنى من السفن، وقد ترك رواة الطبري إشارات صريحة عن سفن هذين الجسرين، فقد اجتمع العامة والجند في حركة تمرد ففتحوا السجن وقطعوا أحد الجسرين وضربوا الآخر بالنار وانحدرت سفنه. وفي أخبار سنة 251هـ ذكر الطبري أن عدد سفن جسر النهروان، يفوق العشرين سفينة؛ وفي إشارة أخرى، ذكر الطبري أن الجسر الأعلى في بغداد تعرض لنيران أحرقت عامة سفنه، فاندفع العامة لإطفاء النيران التي تعلقت بسفن الجسر[38].

وفي القرن الرابع كان في بغداد جسران خشبيان عقدا بين الجانبين، أحدهما يمتد من باب خراسان إلى أن يبلغ باب الياسرية[39]. ويبدو أن الجسور المبنية على السفن كانت منتشرة في العراق، فقد كان يصل أراضي بغداد بمدينة صرصر جسر من سفن يقوم فوق نهر صرصر، وكان على نهر الملك جسر من سفن[40]. ويذكر أبو علي بن شاذان الذي عاش في القرن الرابع، أنه أدرك ببغداد ثلاثة جسور، أحدها يحاذي سوق الثلاثاء، وآخر عند باب الطاق، والثالث في أعلى البلد عند الدار المعزية بمحاذاة الميدان. وذكر آخر، أن الجسر الذي كان يحاذي الميدان نقل إلى الفرضة بباب الطاق فصار هناك

---

(31) ابن الفقيه، بغداد، ص 39، 47، الطبري، ج 7 ص 52، الخطيب البغدادي، ج 1، ص 75، 115.

(32) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 116.

(33) الطبري، ج 8، ص 298.

(34) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 116.

(35) الطبري، ج 8، ص 480.

(36) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 116.

(37) الطبري، ج 8، ص 572، ج 9، 359.

(38) المصدر نفسه، ج 9، ص 262، 303، 359.

(39) الاصطخري ص 84.

(40) المصدر نفسه، ص 85.

جسران يمضي الناس على أحدهما ويرجعون على الآخر. وقال هلال بن المحسن الصابي: عقد جسر بمشرعة القطانين في سنة 383هـ فمكث مدة ثم تعطل، ولم يبق ببغداد سوى جسر واحد بباب الطاق، إلى أن حول سنة 484هـ فعقد بين مشرعة الروايا من الجانب الغربي ومشرعة الحطابين من الجانب الشرقي[41].

الشوارع والطرقات:

كان لبغداد شارعها الأعظم[42]، وتأتي بعده السكك التي كانت تصطف الدور فيها. ثم الدروب والأزقة[43]. ويعطي اليعقوبي معلومات عن عرض الشوارع والدروب في بغداد، إذ أمر المنصور مستخدميه بتوسيع الشوارع فيها، وأن يجعلوا عرض الشارع خمسين ذراعاً بالسوداء، والدروب ستة عشر ذراعاً[44]. ويبدو أن هذه الشوارع كانت داخل المدينة فقط بعد أن أمر المنصور بتوسيعها لدواع أمنية، وكان غرضه إقامة فسحة كبيرة أمام القصر تمكن حراسه من رصد التحركات المعادية. وجاء هذا القرار الذي قضى بإخراج الأسوق إلى الكرخ وتوسيع الشوارع، بعد ثورة أهل الأسواق سنة 157هـ بقيادة يحيى بن زكريا محتسب بغداد[45]. ويذكر البلاذري أن المنصور مرّ في بعض السكك الضيقة بالبناء فأمر بهدم ما ضيقت به من ذلك البناء، وبلغ الهدم دار أبي دلامة[46].

وذكر الخطيب البغدادي أنه عند نزول المنصور في بغداد سنة 145هـ لم يكن يسمح لأحد فيها بالتجول راكباً ما خلا المهدي[47]، وذلك لضيق شوارعها. ويصف اليعقوبي شوارع سامراء بأنها واسعة بالنسبة إلى شوارع بغداد[48] وإذا ما راجعنا ما هو معروف وباق من شوارع المدن الإسلامية الوسيطة في أيامنا، والتي تقترب في معظمها من مفهوم الزقاق في اتساعها[49]، فإنا نشك كثيراً في مدى اتساع شوارع بغداد. وإذا

---

(41) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 116.

(42) أبو بكر الصولي، أخبار الراضي، ص 207، أيضاً جيل نحلة المدور، حضارة الاسلام في دار السلام، (القاهرة، 1935)، ص 21.

(43) عبد العال عبد المنعم الشامي، جغرافية المدن عند العرب، مجلة عالم الفكر، مجلد 9، عدد 1، (الكويت 1978) ص 143.

(44) اليعقوبي، البلدان، ص 242.

(45) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 79 ـ 80.

(46) أنساب الأشراف، ق 3، ص 214.

(47) تاريخ بغداد، ج 1، ص 79 ـ 80.

(48) البلدان، ص 266.

(49) أنظر، محمد عبد الغني حسن، ملامح من المجتمع العربي، (دار المعارف، القاهرة، 1951)، ص 77.

ما عرفنا أن درب الزعفران بالكرخ الذي نزله أهل العطر والبز[50] وقبلنا بأن عرضه يقارب ثمانية أمتار، فإنه يصعب علينا القبول بأبعاد الشوارع الأخرى. وقد وصف كتاب «ألف ليلة وليلة» زقاقاً في بغداد «هب فيه النسيم وراق»[51]، ولم يكن هذا ليوجد في شوارع عريضة في مدينة تعرف حرارة مرتفعة جداً، بل كانت الشوارع والدروب فيها ضيقة بنسبة متفاوتة لتؤمن زيادة في مساحة الظل، ولتؤمن كمية أكبر من البرودة التي تتسرب بين الدروب والأزقة[53]. وإذا كانت الشوارع اليوم تسمح بنسبة أكبر من تهوية وإضاءة البيوت، فإن البيت البغدادي في العصر العباسي كان يعتمد كلية في الإضاءة والتهوية على داخله، حيث الصحن والحديقة[54].

ويبدو أن شوارع بغداد ودروبها كانت منتشرة جداً. فحسب اليعقوبي بلغ عدد السكك والدروب في الجانب الغربي ستة آلاف، فيما بلغ عددها في الجانب الشرقي أربعة آلاف درب وسكة. وذكر أحد الموظفين أنه كان لداره أربعة عشر باباً تؤدي إلى أربع عشرة سكة وشارع وزقاق نافذ[55].

كانت الطرق تستخدم لانتقال المشاة أو راكبي دواب النقل. وكان المكارون يؤجرون دوابهم من حمير وعماريات وجمازات[56]، وكانوا يتخذون من باب الكرخ مكاناً لدوابهم[57]. وكان التجار يستخدمون الحمير في انتقالهم، وكذلك الفقهاء والقضاة، أما الوزراء والقواد فكانوا يستخدمون الخيل[58].

والظاهر أن حرمة الطرقات لم تكن مؤمنة دائماً. فقد كان صبيان بغداد يلعبون في الشوارع والطرقات[59]، وربما عبثوا بالرجال إذا ما رأوا فرصة لذلك[60]. وكان أبو

---

(50) ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص 28.

(51) أنظر، طبعة (بولاق، 1352هـ) ج 1، ص 47.

(52) أنظر، بديع الزمان، مقامات الهمذاني، ص 157.

(53) غوستاف لوبون، حضارة العرب، تعريب عادل زعيتر (القاهرة، 1964) ص 365.

(54) عبد العال الشامي، المرجع السابق، المكان نفسه، انظر أيضاً، الفرج بعد الشدة، ط. القاهرة، ج 2، ص 18.

(55) البلدان، ص 250، 254، أيضاً، الفرج بعد الشدة، ط. القاهرة، ج 2، ص 146.

(56) الخطيب البغدادي، ج 2، ص 246، الأغاني، ط. الهيئة العامة، ج 21، ص 64، 66، والعماريات والجمازات أنواع من الابل.

(57) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص 2.

(58) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 112، ج 3، ص 33.

(59) الخطيب البغدادي، ج 6، ص 93.

(60) الصابي، الوزراء، ص 162، الأغاني، ج 20، ص 191.

نواس يتهاجن ويجلس على قارعة الطريق ومعه بعض الهاشميين، وكان المخنثون يتمشون في الشوارع ويلحق بهم الناس[61]. وكان الباعة يقعدون في الطرقات رغم المنع من ذلك[62]، وكانت أيدي الجند تمتد إلى النساء العابرات في وضح النهار[63].

وقد عني بنظافة المدينة عند بنائها، فكانت الرحاب تكنس كل يوم، ويحمل التراب المتجمع إلى خارج[64]. إلا أن كثرة الأوساخ لم تلبث أن أصبحت واقعاً مستمراً في شوارع بغداد. فكانت الأوساخ والعذرة تلقى في الطرقات[65]، وكانت الأسواق في القرن الثالث مغطاة بغبار الأرز والنخيل، ويرتفع الدخان فيها بشكل ظاهر، وتشاهد بكثرة نوى النبق والتمر مرمية في الطرقات والأسواق[66]. وتحدث الوهراني عن وخم المسالك والمساكن ببغداد[67]، وكانت الأوساخ والغبار تنتشر في شوارعها في فصل الصيف[68]، وكانت هذه الأوساخ تتحول إلى وحول في فصل الشتاء، فيما كانت السماء تمطر الغبار[69]. إلا أن هذه الطرق كانت تنظف وتسوى حين استقبال قائد أو سفير[70].

وقد وجه المحتسب عنايته نحو الطرقات، فمنع إخراج جدار دار أو دكان إلى الممرات، وكل ما فيه أذية وإضرار للسالكين، كالميازيب الظاهرة من الحيطان في زمن الشتاء، ومنع أيضاً مجاري الأوساخ الخارجة من الدور في الصيف إلى وسط الطريق[71].

ومنع المحتسب أيضاً جلوس السوقة في الطرقات الضيقة، ومنع إخراج المصطبة إلى الممر لئلا يضيق على المارة، كما منع من ربط الدواب على الطرق، ومنع طرح الكناسة على جواز الطريق[72].

---

(61) الخطيب، ج 6، ص 86، نشوار، ج 2، ص 224، 225.

(62) المنتظم، ج 3، ص 171.

(63) نشوار، ج 3، ص 33.

(64) الخطيب ج 1، ص 77.

(65) ابن الفقيه الهمذاني، بغداد، ص 112.

(66) المنتظم، ج 5، ص 144، الجاحظ، البخلاء، ص 28.

(67) ركن الدين محمد بن محرز الوهراني، منامات الوهراني ومقاماته، (القاهرة، 1968)، ص 22.

(68) الخطيب، ج 13، ص 225.

(69) المصدر نفسه، ج 1، ص 79، ج 13، ص 204، ج 9، ص 225.

(70) العيون والحدائق، ج 4، ص 76، 145..

(71) ابن بسام، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص 14.

(72) ابن الاخوة، معالم القربة، ص 78، 79، محمد بن سعيد المجيلدي، التيسير في أحكام التسعير، (الجزائر، 1971) ص74، 75.

كـان الورعـون يمتنعون عن الشراء ممن يقعـد عـلى الـطرقـات للبيـع ، لأن ذلـك يغصب مواضع مرور الناس، إن كان الطريق ضيقاً، أو يؤدي إلى تضييقها بكثرة الجلوس فيها، ولأن الشراء منه إعانة على ما يتعاطى مما هو ممنوع شرعاً. ولم يكن يسمح بـالتجول في الشوارع والسكك والأزقة إلا للباعـة الذين تتعلق تجـارتهم بما يلزم سيـدات البيوت، على أن يمروا في حاجتهم كما يمر غيرهم[73].

إلا أن أوامر المحتسب لم تكن محترمة دائماً، فكان باعة الباقلاء في بغداد يبيعـون في الشوارع حتى لم يوجد من الباعة من يضع قدره داخل الباب[74]. وكان الباعة المتجولون يدخلون الأحياء ويبيعون بضائعهم في الطرقات[75].

واهتم الفقه بالمسائل المتفرعة عن العمران داخل المدينة الإسـلامية، وكـان بذلـك يلبي حاجة تشريعية في تنظيم العلاقات الداخلية بين الملكيات الخاصة. وهو ما تـرعاه في أيامنا أجهزة البلديات والأنظمة الخاصة بالتنظيم المدني. فقد أثار نمو المدينة ونـظام الإرث الإسلامي بعض المسائل حول حق التمتع بالملكيـة الفرديـة، ولا سيما الملكيـة العقاريـة، وما يمكن أن ينتج عن ممارسة هذا الحق من الاصطدام بملكية القطاع العام.

اهتم القـانون الإسـلامي بالشـارع الحقيقي في المدينـة والمفتوح من طـرفيه، وهـو الـطريق النـافـذ أو الـطريق العـام أو «طـريق المسلمـين»، والـذي من حق الجميـع أن يسلكوه[76]. وأكد الإسلام على احترام الملكية غير المبنية، وجاء في نص الحديث النبـوي الشريف: «من اقتـطع شبـراً من الأرض ظلماً طـوقـه الله بـه يـوم القيـامـة من سبـع أرضين»[77]. وأضاف ابن الأمام، الفقيه المالكي، في روايته للحـديث، كلمتي «الطريق العام وفناء الدار»[78].

وقد فرق الفقهاء بين الشارع والزقاق الذي هو سكة غير نافـذة، فاعتـبروا الزقـاق ملكية جماعية خاصـة بالمجـاورين له، وعـرّفوا الفنـاء بأنـه المساحـة الحرة التي تـترك أمام

---

(73) ابن الحاج، المدخل، ج 4، ص 104، ابن الاخوة، ص 78.

(74) الخطيب، ج 9، ص 191.

(75) أبو شجاع، ذيل تجارب الأمم، ج 3، ص 59.

(76) تاريخ بغداد، ج 5، ص 259، أيضاً أنظر، أبو الحسن عـلي بن خليل الـطرابلسي الحنفي، معين الحكـام، (القاهرة، 1973) ص210.

(77) ابن حجر العسقلاني، بلوغ المرام من أدلة الاحكام، (القاهرة، 1373هـ) ص 163. انظر أيضـاً، صحيح البخاري، (القاهرة، 1313هـ) ج 3، ص 171.

(78) Brunshwig, R., Urbanisme Medieval et Droit Musulman, R, E. I, 1947, p. 131.

البناء، واعتبروا أن لكل مالك حق الإرتفاق على هذا الفناء[79].

وأكـدت الشريعة عـلى حمايـة هذه الحقـوق، منـطلقـة من قـواعـد عـامـة، تقضي بالمحافظة على الملكية الفردية والملكية العامة. فالاستيلاء عـلى الفناء مثـلاً، من شأنـه أن يقضي على حقوق الآخرين بالمرور عبر هـذا الفناء. والفنـاء عملياً، هـو محطة للراحـة أو مربط للبهائم أو مركز للشحن والتفريغ، وهو أيضاً الحـد الطبيعي لسـائر العقـارات التي تقوم حوله، والقاعـدة العامـة التي تحمي هذه الحقـوق، هي التأكيـد على مصلحـة كافـة المسلمين بحرية المرور لهم ولحيواناتهم. وهـذا ما سمـح للمقيمين حـول أطراف الـزقاق بالإفادة منه وفقاً للقاعدة الشرعية: لا ضرر ولا ضرار[80].

ومنـع الفقه الحنفي من حفـر بئر في الـطريق العام أو الفنـاء، وحمّل صـاحب البئر ضـمان الأضرار الناتجـة عن فعله، كما منـع من إخـراج جنـاح أو نصب ميـزان أو وضـع الحجـارة والأخشاب والمتـاع وبنـاء الـدكـاكـين وصب المـاء عـلى الشـوارع أو القعـود في الطريق، وحمّل من يقـوم بمخالفـة هذه القـواعد مسؤوليـة التعويض عن أي ضرر يلحق بالآخرين[81]. واهتم الفقـه الحنفي ببناء الحـائط وما يتفـرع عنه من حقـوق وواجبات، فوضع ابن الشحنة فصلاً خاصاً أورد فيه مجمل آراء الفقهاء في هذا الشأن[82].

الفنادق والخانات:

وهي منشآت سكنية وتجارية ينزلها المسـافرون والتجـار من وطنيين وأجـانب[83]، وقـامت الخانـات في بغداد مـع بناء المـدينة المـدورة[84]. كـان الخـان يتـألف من صحن مستطيل تحف به أروقة تشتمل على حجرات. وتضم الأروقة التجار والبضائع والحيوانات حتى لا يبقـوا في العراء. وخصص الـطابق الأرضي للمتـاجـر والإسـطبـلات، ويشتمـل الطابق العلوي على حجرات للنازلين ويضم أيضاً مخازن للتجار[85]. وترك لنا الـواسطي صورة مستوحاة من مقامة الحريري «الواسطية» تبين أحد الخانات. صور الواسطي الخان

---

(79) Ibid.

(80) Op. cit, pp. 132- 3, 137.

(81) معين الحكام، ص 210، 211.

(82) أنظر. ابن الشحنة، لسان الحكام في معرفة الأحكام، في ذيل معين الحكام، ص 409 ـ 411.

(83) المنتظم، ج 5، ص 39.

(84) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 57، أنظر أيضاً، تاريخ بغداد، ج 10، ص 58.

(85) عبد العال الشامي، ص 158.

وهو يتألف من طبقتين وأمامه صحن وتضم الطبقة حجرات متلاصقة ذات أبواب على عقود[86].

كانت الخانات تستخدم السطوح لينام عليها المسافرون الذين يختلطون جميعاً، وتخص العائلة بزاوية معينة[87]. وكان بعض النازلين يطيلون إقامتهم في الخانات، وربما عقدوا فيها حلقات تدريس أو جلسات سمر[88].

وكانت الخانات تعرف بأسماء أصحابها، وعرف في بغداد خان أبي زياد الذي كان في عهد المنصور، ومنها فندق حسين الخادم[89]. واشتهر في بغداد في القرن الثالث خان عاصم، ويبدو أن هذا كان يملك شبكة من الخانات، إذ وصفه الخطيب البغدادي بصاحب الخانات[90]. وكان في بغداد خان بقرب دار صالح المسكين[91]. وذكر اليعقوبي خان النجائب[92]. وعُرف في بغداد في القرن الرابع خان النرسي[93].

الحمامات:

بنيت الحمامات في بغداد بناء لطلب المنصور[94]، ومع أن المتشددين من المسلمين تحرجوا من دخول الحمامات العامة[95]، إلا أنها اقترنت بحقول النشاط العام، واحتلت مكاناً مهماً في الحياة اليومية للبغداديين. فالحمام وسيلة أساسية في تأمين طهارة المسلم التي تمكنه من تأدية واجباته الدينية. وهذا ما يفسر اقتران رغبة المنصور في بناء المساجد والحمامات معاً[96]، وفي المصادر أنه أقيم عِند مشرعة الروايا مسجد وبالقرب منه حمام[97]، وذكر ابن الأثير أنه في سنة 332هـ، وعلى أثر فيضان، تعطل كثير من الحمامات والمساجد والأسواق والعقارات[98]. وألف إبراهيم الحربي الزاهد (ت 285هـ)

(86) ثروت عكاشة، فن الواسطي من خلال مقامات الحريري، وجه الورقة 89.
(87) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 146.
(88) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 97.
(89) تاريخ بغداد، ج 1، ص 95، ج 13، ص 41.
(90) المصدر نفسه، ج 9، ص 200 ـ 201.
(91) الأغاني، ط. الهيئة العامة، ج 21، ص 86؛ وصالح المسكين هو ابن المنصور.
(92) البلدان، ص 243.
(93) المنتظم، ج 7، ص 288.
(94) البلدان، ص 242.
(95) السبكي، طبقات الشافعية، ج 2، ص 131.
(96) البلدان، ص 242.
(97) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 130، أيضا، تاريخ بغداد، ج 11، ص 347.
(98) الكامل، ط. صادر، ج 8، ص 418.

كتاباً في الحمام وآدابه[99].

وقيل: إن عدد الحمامات البغدادية بلغ في القرن الثالث ستين ألفاً[100]. وكان عددها في عهد المقتدر عشرة آلاف حمام[101]، وقيل حسب رواية أخرى إن عددها بلغ سبعة وعشرين ألف حمام. وأحصيت حمامات بغداد في عهد معز الدولة (334 ـ 356 هـ) فبلغت سبعة عشر ألفاً، وكان عددها في عهد عضد الدولة خمسة آلاف حمام، وبلغ عددها في سنة 383هـ خمسة آلاف حمام[102].

ومن الناحية الاقتصادية كانت الحمامات من أنواع الاستثمار المجزية[103]. وقد وضع أبو الفضل الدمشقي مواصفات لأفضل الحمامات، كأن تتوسط المدينة وأن تكون مصارف الماء فيها واسعة مستقلة، وأن تكون بيوتها متوسطة مكتنزة[104]. وفي إعلان عن جودة أحد الحمامات، ذكر أنه حمام ساخن واسع الباب[105].

وكان أصحاب الحمامات يتنافسون، ويستخدمون الشعراء في إعلانهم. ووصف حمام بوران في بغداد بأنه حمام جيد ويقبل عليه الزبائن ويغل غلة جيدة[106].

وذكر الشيزري أن خير الحمامات ما قدم بناؤه واتسع هواؤه وعذب ماؤه وقدّر الأتّان وقوده بقدر مزاج من أراد وقوده[107].

وأعجب ابن بطوطة[108] بحمامات بغداد الكثيرة، فذكر أنها من أبدع الحمامات، وأكثرها مطلي بالقار، حتى يخيل لرائيه أنه رخام أسود. وفي كل حمام منها خلوات كثيرة مفروشة بالقار، مطلي نصف حائطها مما يلي الأرض به والنصف الأعلى مطلي بالجص الأبيض. وفي داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه أنبوبتان، إحداهما تجري بالماء البارد، فيدخل الإنسان الخلوة منها منفرداً لا يشاركه أحد إلا إذا أراد اصطحاب أحد معه. وكان في كل خلوة حوض آخر للاغتسال فيه أنبوبتان تجريان بالماء الحار والبارد.

---

(99) **معجم الأدباء**، ج 1، ص 45 ـ 46، أيضاً، ابن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، ج 1، ص 16.

(100) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 117.

(101) **نشوار المحاضرة**، ج 1، ص 128.

(102) **رسوم دار الخلافة**، ص 21، **تاريخ بغداد**، ج1، ص 118.

(103) الثعالبي، **ثمار القلوب**، ص 318.

(104) **الإشارة إلى محاسن التجارة**، ص 81.

(105) الثعالبي، **ثمار القلوب**، ص 318.

(106) المكان نفسه.

(107) **نهاية الرتبة**، ص 86.

(108) **رحلة ابن بطوطة**، ص 149 ـ 150.

ويبدو أن فرش أرض الحمامات بالرخام كان شائعاً، فقد نقل عن أعرابي أنه دخل حماماً فزلق على رخام الحمام وانشج رأسه[109]، ويذكر ابن الجوزي في أخبار 533هـ أن علي بن أفلح كان قد بنى داراً كبيرة وجعل فيها حماماً عجيباً، ضم بيت مستراح فيه بيشون، إن فركه الإنسان يميناً خرج الماء حاراً وإن فركه شمالاً خرج بارداً[110].

وشيدت الحمامات على نظام يضمن للمستحم عدم تعرضه للإيذاء بالإنتقال السريع من البرد إلى الحر أو العكس، فقد كانت تشتمل على عدة بيوت أولها مبرد مرطب، وثانيها مسخن، والثالث مسخن مجفف[111].

وكان طاقم العاملين في الحمام يتألف من خمسة أو ستة رجال، وهم حمامي وقيم وزبال ووقاد وسقاء، وذكر هلال الصابي أن العاملين في الحمام هم: صاحب الصندوق والقيم والوقاد والزبال والمزين والحجام[112]. وفرض المحتسب شروطاً لعمل طاقم الحمام[113]. وكان الوقود يتألف من الزبل والشوك اليابس[114].

وفرض المحتسب على قامة الحمامات العامة غسلها وكنسها وتنظيفها بالماء الطاهر، ودلك البلاط بالأشياء الخشنة، كما فرض شروطاً صحية أخرى، ومنع دخول المجذوم والأبرص[115].

كانت الحمامات مسرحاً لمظاهر إجتماعية. فقد كانت تزين بالصور[116] وكانت تزدحم يوم الجمعة[117] وكان العيارون يأوون إليها وينامون فيها[118]. ولاقى دخول المرأة إلى الحمام التشجيع، وكانت المرأة تتفنن في تبرجها في الحمام، ووجهت إليها الانتقادات لدخولها الحمام بغير مئزر أو بمشاركة غيرها من المستحمات[119].

ويعطينا الوشاء صورة عما يجري داخل الحمامات. فمنهم من ينظر إلى سوءات

---

(109) أبو حيان التوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة**، ج 1، ص 226.
(110) **المنتظم**، ج 10، ص 80 ـ 81.
(111) **الشيزري**، ص 86.
(112) الخطيب، **تاريخ بغداد**، ج 1، ص 117، **رسوم دار الخلافة**، ص 19.
(113) ابن بسام، **نهاية الرتبة**، ص 68 ـ 71.
(114) **البخلاء**، ص 44، **مروج الذهب**، ج 2، ص 509.
(115) **الشيزري**، ص 87 ـ 88، ابن الاخوة، ص 155 ـ 156.
(116) **حكاية أبي القاسم**، ص 7.
(117) **الفرج بعد الشدة**، ج 3، ص 218.
(119) **تلبيس ابليس**، ص 400، ابن الاخوة، ص 157.

غيره، ومنهم من يدلي رجله في البئر التي ينصب إليها الماء، ومنهم من يتمرغ على حرارة أرض الحمام، ومنهم من لا يتزر، ومنهم من يضطجع داخل الحوض[120]. وفي سنة 467هـ أمر المحتسب بأن يمنع الناس من دخول الحمامات من دون ميازر[121].

وترك بديع الزمان الهمذاني لوحة إجتماعية ساخرة، تحكي تهافت عمال الحمام على رأس الزبون، فتنتهي المنافسة بأن احتسب صاحب الحمام رأس الزبون لنفسه[122].

وكانت ملابس الزبائن عرضة للسرقة داخل الحمام، حتى تخصصت جماعة من اللصوص بهذا النوع من السرقات. وكان من اللصوص من يراقب المستحم، حتى إذا ما خلع ثيابه ونزل إلى الحوض فر اللص بثياب المستحم، ومنهم من يبدل نعليه[123]. وذم ابن سكرة الهاشمي حمام ابن موسى في بغداد لتكاثر اللصوص عليه، بعد فقده نعليه في هذا الحمام[124]. ونسجت حول الحمام بعض المعتقدات الشعبية بعضها يقول بأن الجن يسكنون الحمامات، وبعضها يقول بأن الشياطين تنتشر في الحمامات بين العشائين وقريباً من الغروب[125].

ويبدو أن الحمامات كانت تترك الأوساخ التي تجري في الشوارع العامة مما حمل فخر الدولة حاكم بغداد سنة 467هـ على أن يأمر المحتسب بمنع الحمامين من إجراء مياه الحمامات إلى دجله وأن يلزمهم بحفر آبار تجتمع فيها المياه[126].

مياه الشرب والخدمة:

وجه المنصور عنايته نحو تأمين المياه. فعند بناء المدينة حفرت الآبار والأقنية، وأخذت من نهر كرخايا عبر قناة متقنة وأجريت إلى داخل المدينة للشرب ولضرب اللبن وبل الطين، وجرت المياه في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها معقودة عقداً وثيقاً، فكانت تدخل المدينة وتنفذ في أكثر شوارع الأرباض جارية صيفاً وشتاء، في هندسة لا ينقطع لها ماء. وشق المنصور من دجلة قناة سماها نهر دجيل، كما

---

(120) الظرف والظرفاء، ص 287.
(121) المنتظم، ج 8، ص 294.
(122) مقامات، ص 171.
(123) المصدر نفسه، ص 159، 161.
(124) المنتظم جـ 7، ص 186.
(125) المصدر نفسه، ج 6، ص 51، ابن الاخوة، ص 155.
(126) المنتظم، ج 8، ص 294.

جر لأهل الكرخ وما اتصل به نهر الدجاج[127].

وذكر الجاحظ الوسائل والطرق التي كانت تؤمن بها المياه، منها القنطرة والجرف وجسر الدوار[128]. وقد اهتم المنصور بإقامة القناطر، منها التي كانت عند التقاء الصراتين العليا والسفلى، والتي عرفت بالقنطرة العتيقة، وبنيت بالآجر والجص. وعرفت بغداد قناطر أخرى، منها قنطرة الروميين، والقنطرة الجديدة، تمييزاً لها عن العتيقة[129].

ويبدو أن مياه قصر الخليفة لم تكن مؤمنة في أيام بغداد الأولى، إذ ينقل الخطيب البغدادي روايات تفيد بأن المياه كانت تنقل إلى القصر على ظهر البغال التي دعيت بغال الروايا. ثم أمر باتخاذ قنى الساج من باب خراسان إلى القصر. وتذكر المصادر القنوات التي كانت في بغداد والتي كانت تجري فيها الأنهار، والكثير منها أنشيء في القرون الثلاثة الأولى من الحكم العباسي. وكان بعض هذه الأقنية مكشوفاً وبعضها مغطى، فكانت انهار «الحربية» عبارة عن قنوات تحت الأرض وأوائلها مكشوفة[130] واتجه رجال الدولة والأثرياء إلى إقامة سبل الماء، من ذلك بركة زلزل الموسيقي، الذي كان غلاماً لعيسى بن جعفر، وحفرت هيلانة قيّمة المنصور حوضاً، عرف باسمها وجعلته للسبيل. وأقام داود بن المهدي حوضاً كما أقام مبارك التركي دولاباً عرف باسمه[131]. وحفر المعتضد بحيرة وجعل لها نهراً يغذيها[132]. وكان الناس ولا سيما العامة يحفرون الآبار في بيوتهم ويستخدمون مياهها، وقد استمرت هذه الطريقة زماناً طويلاً، وكانت موجودة في القرن الرابع[133].

بعد الازدهار والتوسع الذي عرفته بغداد، انتشرت فيها مهنة السقائين الذين كانوا يحملون الماء على ظهورهم ويبيعونه، وقد عرف في بغداد درب باسمهم[134]. وكان السقاء أحياناً يحمل الماء على ظهر دابته التي عرفت بالراوية وليبيعه ويرتزق منه[135].

---

(127) اليعقوبي، البلدان، ص 238، 245، 251. أيضاً، سهراب، عجائب الأقاليم، 133.

(128) الحيوان، ج 1، ص 311.

(129) البلدان، ص 244، 249.

(130) تاريخ بغداد، ج 1، ص 78 ـ 79. وأيضاً: سهراب، ص 129 ـ 134.

(131) الخطيب، ج 1، ص 88، ابن الفقيه الهمذاني، بغداد، ص 58، 59.

(132) سهراب، ص 129.

(133) الجاحظ، البلدان، بعناية صالح العلي، مجلة كلية الآداب، (بغداد، 1969) ص 501، نشوار المحاضرة، ج 2، ص 342.

(134) الخطيب، ج 12، ص 207، ابن الفقيه، ص 50.

(135) الخطيب، ج 9 ص 436. أنظر أيضاً الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص 366.

وكان سقاة الماء يسقونه في الجوامع، وجعلوا من التعصب للخلفاء مصدراً للتعيش[136]؛ وحافظوا على نظافتهم ونظافة أوعيتهم[137]، وقد كان من اختصاص المحتسب الإشراف على السقائين، فيأمرهم بالدخول في النهر حتى يبعدوا عن الشط ومطارح الأوساخ ولا يستقون من موضع النهر بقرب الدواب، أو مستخدم أو مجرى حمام، بل عليهم الابتعاد عنه، ومن اتخذ من السقائين راوية جديدة أمره المحتسب بنقل الماء إلى مطاحن الطين أياماً، ولا يبيعون الماء للشرب فإنه يكون متغير الطعم والرائحة من أثر الدباغة والزفت، فإن زال التغير أذن لهم المحتسب ببيعه من الناس للشرب والاستعمال[138].

وذكر الخطيب البغدادي مكان مشرعة الروايا وكان فيها تربة وإلى جانبها مسجد وبالقرب منها حمام، مما يعني كثرة السقائين[139].

وفي القرن الرابع كان الجانب الشرقي من بغداد يشرب بواسطة الدوالي، والجانب الغربي بواسطة الدواليب[140]. وزادت تعقيدات المياه في هذا القرن. وقامت السلطة تتابع الإهتمام بمعالجة مشاكل المياه. ففي سنة 370هـ زادت دجلة وانفجر بثق وسقطت قناطر الصراة ووقعت القنطرتان الحديدة والعتيقة. فأعيد بناؤهما بناءً وثيقاً وأنفق عليهما الكثير. وفي العام التالي (371هـ) أمر عضد الدولة بحفر النهر من عمود الخالص وساق ماءه إلى بستان داره، واتخذ في داره مزملة يشرب منها الجند والعامة[141]. وفي سنة 382هـ أمر الكوكبي بحفر الأنهار المخترقة لأسواق الكرخ وما يتصل بها، وجبى من أرباب العقار مالاً كثيراً[142]. وكان هذا الإجراء بعد أن انطمرت أنهار الكرخ وصارت الحاجة ماسة إلى إعادة تنظيفها وإجراء مائها.

العناية الصحية:

عرف العراق البيمارستانات قبل الدولة العباسية. وكان لجنديسابور وأطبائها شهرة واسعة في عهد المنصور، فقد كان لهم حذق بهذه الصناعة وعلم من زمن

(136) المنتظم، ج 5، ص 171.
(137) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 50.
(138) الشيزري، ص 117، ابن الاخوة، ص 240.
(139) تاريخ بغداد، ج 11، ص 247.
(140) الاصطخري، ص 84، ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص 26.
(141) المنتظم، ج 7، ص 105، 107، أيضاً معجم الأدباء، ج 5، ص 358.
(142) المنتظم، ج 7، ص 168.

الأكاسرة[143]. وأول حديث عن بيمارستانات في بغداد ورد عن إنشاء يحيى بن جعفر بيمارستاناً وإسناد رئاسته إلى طبيب هندي[144]. كما يذكر أبي أصيبعة خبر إنشاء الرشيد لبيمارستان في بغداد[145]. وفي عهد المأمون أوصى طاهر بن الحسين ابنه بأن ينصب لمرضى المسلمين دوراً تقيهم، وقوّاماً يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم[146].

وقد بدت أهمية العناية بالصحة بعد انتشار سلسلة من الأمراض عرفها العراق عامة وبغداد خاصة. ففي سنة 166هـ كثر الوباء في دار السلام والبصرة[147] وفي سنة 258هـ إنتشر الوباء في بغداد، وكان كل يوم يموت فيها ما بين خمسمائة إلى ستمائة، ومات فيها أكثر من عشرين ألف إنسان. وفي سنة 300هـ كثرت الأمراض والعلل والعفن ببغداد في الناس وكلبت الكلاب والذئاب. وفي سنة 301هـ كثرت الأمراض الدموية بالناس ببغداد وكان طاعوناً قاتلاً. وفي سنة 376هـ كثر الموت بالحميات الحادة فهلك من الناس خلق كثير[148].

هذا الواقع الصحي، دفع بالخلفاء ورجال الدولة إلى تكريم الأطباء، مما أدى إلى انتشار الطب. وقد أسرف رجال الدولة في الإغداق على الأطباء، ونشر القفطي قائمة برزق ورسوم وصلات حصل عليها جبرائيل بن بختيشوع في القرنين الثاني والثالث، ذكر أنها بلغت في كل شهر عشرة آلاف درهم. هذا عدا عطاءات الخاصة من الأسرة الحاكمة والبرامكة الذين خدمهم مدة ثلاث عشرة سنة[149]. وكان مخصص جبريل الكحال، طبيب المأمون، ألف درهم كل شهر. وأقطع المتوكل حنين بن إسحق إقطاعاً اشتمل على ما غلته خمسين ألف درهم، وقرر له جار جيداً[150] ولم يكن العلاج مسألة دينية، ولم يقف رجال الفقه منها موقفاً عدائياً أو سلبياً[151]. فقد كان عبد الرحمن المتطبب يعالج

---

(143) ابن أبي أصيبعة، ص 183، القفطي، ص 133.
(144) ابن النديم، **الفهرست**، ص 435.
(145) **طبقات الأطباء**، ص 245.
(146) طيفور، ص 27.
(147) **العيون والحدائق**، ج 3، ص 279.
(148) **المنتظم**، ج 5، ص 8؛ ج 6، ص 115، 121؛ ج 7، ص 131.
(149) القفطي، ص 142 ـ 143.
(150) ابن العبري، ص 240، 251.
(151) ذكر آدم متز أن الصالحين لم يكونوا يحبون معالجات الأطباء، أنظر، **الحضارة الإسلامية**، ج 2، ص 199.

أحمد بن حنبل وبشراً الحافي[152]، وحزن قاضي القضـاة ابن أبي عمر لموت طبيب، لأن فخر البلد بكثرة رؤساء الصناع[153].

وكـان الأطباء يعـالجون العـامة، وكـان داود بن حنـين طبيبـاً للعـامـة[154] وكـان حنين بن إسحق يرفض عمل الأدوية القاتلة ويمنعه من ذلك الدين وشرف الصناعة، لأن الصناعة موضوعة لنفع أبناء الجنس ومقصورة على معالجتهم. وكان الأطباء يقسمـون بأن لا يعطوا دواء قتالاً لأحد[155].

وانتشر بناء المارستانات في بغداد في القرنـين الثالث والـرابع. وكـان رجال الـدولة ينفقـون عليها. ففي عهـد المتوكـل كلف الطبيب إسرائيـل بن زكريـا الـطيفـوري ببنـاء بيمارستان، فاختار أرضاً مساحتها خمسـون ألف ذراع، ودفع له ثلاثمائـة ألف درهم للنفقة على بناء المارستان. وبنى صاعد المعتضدي المارستان الصاعدي عند باب المحول؛ وأقـام بدر مولى المعتضـد في المخرم البيـمارستان الـذي عرف بـاسمه وكـان ينفق عليه من وقف شجاع أم المتوكل[156] وبلغت نفقات بيمارستان صاعد في عهد المعتضد، والـذي لم يكن يوجد غيره يومئذ، وأرزاق المتطببين والمثانين والكحالين ومن يخدم المغلوبـين على عقـولهم والبـوابـين والخبـازين وغـيرهم وأثـمان الـطعـام والأشربـة أربعـمائـة وخمســين دينـاراً في الشهر[157].

وفي سنة 302هـ اتخذ علي بن عيسى المارستان بالحربية وأنفق عليـه من مالـه وقلده سعيـد بن يعقوب متـطببه مـع سـائـر المارستـانات ببغـداد ومكة والمـدينـة. وكـان عـدد البيمارستانات خمسة في سنة 304هـ أشرف عليها سنـان بن ثابت[58]. وفي أول محـرم من سنة 306هـ افتتح سنان بيمارستان السيدة الذي اتخذه لها بسوق يحيى، وجلس فيه ورتب المتطببين وقبل المرضى، وكانت النفقة عليه في كل شهر ستمائـة دينار، وجعلت النفقـة فيه على يدي يوسف بن يحيى المنجم. لأن سناناً لم يدخل يده في شيء من النفقة[159].

---

(152) **المنتظم**، ج 5، ص 29.
(153) **نشوار المحاضرة**، ج 3، ص 223.
(154) ابن العبري، ص 281 ـ 282.
(155) المصدر نفسه، ص 251 ـ 252.
(156) ابن أبي أصيبعة، ص 225، 301، متز، ج 2، ص 200.
(157) الصابي، **الوزراء**، ص 26 ـ 27.
(158) ابن الجوزي، ج 6، ص 128، 139، ابن أبي أصيبعة، ص 316.
(159) ابن أبي أصيبعة، ص 302، القفطي، ص 195.

وفي هذه السنة أيضاً أشار سنان على المقتدر أن يبني بيمارستاناً ينسب إليه، فأمره باتخاذه، وبني في باب الشام وسمي بالمقتدري، وأنفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار. وفي سنة 311هـ اتخذ أبو الحسن بن الفرات مارستاناً في درب المفضل وأنفق عليه مائتي دينار شهرياً[160]، وكان عليه ثابت بن سنان سنة 313هـ، وقد خصصه الوزير لمعالجة العاملين تحت إمرته الذين يحق لهم التداوي فيه والعناية كلما ألمّ بهم مرض أو وهن[161].

وفي عهد الراضي بني بجكم دار ضيافة للضعفاء والمساكين بواسط وابتدأ بعمل المارستان في بغداد وهو الذي جدده عضد الدولة وافتتح سنة 372هـ، وكان موقعه في الجانب الغربي ورُتب فيه الأطباء والمعالجون والخزان والبوابون والوكلاء والناظرون ونقلت إليه الأدوية والأشربة والفرش والآلات[162].

وبنى معز الدولة سنة 355هـ مارستاناً موضع الحبس الجديد ببغداد وعمل على أن يقف عليه وقفاً، وأفرد لذلك مستغلاً بالرصافة ببغداد وضياعاً بكلواذى وقطربل وجرجرايا غلتها خمسة آلاف دينار، ومات معز الدولة قبل أن يتم ذلك[163].

كانت النفقة على البيمارستانات تجري من وقوف خاصة يقفها رجال الدولة أو الأغنياء، وكان أبو الصقر الكلوذاني مسؤولاً عن وقف مخصص بعضه لنفقات بيمارستان بدر المعتضدي، وبعضه الآخر إلى بني هاشم، وكان أبو الصقر يصرف إلى بني هاشم مالهم ويزيد لهم، ويؤخر نفقة البيمارستان ويضيقه. فكتب سنان إلى علي بن عيسى يشكو فعل أبي الصقر ويعرفه ما لحق بالمرضى من الضرر وقصور مخصصاتهم من الفحم والمؤن والدثار عن حاجتهم. إلا أن علي بن عيسى كتب إلى أبي الصقر يلومه على فعله ويأمره بأن يقدم نفقة البيمارستان على نفقات الهاشميين، وأن يحتال بكل حيلة لما يطلق لهم ويعجل، حتى يدفأ من البيمارستان من المرضى والممرورين بالدثار والكسوة والفحم، وأن يقام لهم القوت ويتصل لهم العلاج والخدمة[164].

---

(160) ابن أبي أصيبعة، 302، القفطي، ص 194، ابن الجوزي، ج 6، ص 146، 174.

(161) ابن أبي أصيبعة، ص 305، زيغرد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، (بيروت، 1969)، ط 2، 231.

(162) المنتظم، ج 6، ص 320، ج 7، ص 112 ـ 113.

(163) المصدر نفسه، ج 7، ص 33.

(164) ابن أبي أصيبعة، ص 302 ـ 303.

وكانت العناية بالبيمارستانات تشمل اختيار أحسن الأطباء. ومن الأطباء الذين عملوا في بغداد، محمد بن زكريا الرازي (ت 320هـ) الذي دبر بيمارستان بغداد زماناً، وكان كريماً متفضلاً باراً بالناس حسن الرأفة بالفقراء والأعلاء، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرّضهم. وكان سنان مسؤولاً عن البيمارستان في عهد المقتدر، كما عمل ابنه فيه من بعده[165].

ويبدو أن البيمارستانات في بغداد انتشرت خلال القرن الرابع حيث عرفت أكبر عدد منها، ووضعت زيغرد هونكه قائمة بأسماء البيمارستانات الإسلامية الوسيطة كان منها عشرة على الأقل في بغداد خلال القرون الثلاثة الأولى لبناء العاصمة[166].

وكان بعض الأطباء يقدم الخدمات الطبية في داره، وبعضهم ينتقل إلى البيوت يعالج المرضى[167]، وكان الأطباء يهتمون بتحسين مستوياتهم العلمية، وقيل: إن الأطباء والصيادلة كانوا ينشرون اختباراتهم ليعول عليها في البيمارستانات ودكاكين الصيادلة[168].

إلا أن الدولة أشرفت على امتحان الأطباء سنة 319هـ بعد أن غلط طبيب في معالجة رجل من العامة فمات، وكلف المقتدر محتسب بغداد إبراهيم بن بطحا بمنع الأطباء من العمل إلا من امتحنه سنان بن ثابت، وأحصي الأطباء في جانبي بغداد لامتحانهم فبلغ عددهم أكثر من ثمانماية وستين رجلاً، سوى من استغني عن امتحانه لاشتهاره بالتقدم في صناعته، وسوى من كان في خدمة السلطان[169].

وكان على أطباء العيون اجتياز امتحان يسمح لهم بعده بمزاولة المهنة، وكان الكحالون يؤدون امتحانهم أمام المحتسب الذي يمتحنهم بكتب في طب العيون[170]، كما كان الصيادلة يخضعون لامتحان يحدد قدراتهم[171].

---

(165) ابن العبري، ص 275، 281، 291.

(166) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 340 ـ 341.

(167) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 152، تكملة الطبري، ص 185.

(168) ابن العبري، ص 255.

(169) القفطي، ص 191.

(170) فرات فائق خطاب، الكحالة عند العرب، (بغداد، 1975، وزارة الإعلام) ص15.

(171) ابن أبي أصيبعة، ص 224.

الخدمات المكتبية:

ينبغي أن نشير هنا إلى أن الخدمات المكتبية لم تكن تبلغ قطاع العامة أول الأمر، بل كانت محصورة في عدد من المهتمين بالعلم. وكان لجوء عدد كبير من الوراقين إلى اكتساب العيش عن طريق مهنة الوراقة عاملاً مساعداً في انتشار الكتب وبخاصة بعد أن شاع تصنيع الورق حتى صارت الكتب تباع في الأسواق بالمفرد أو بالمزاد بواسطة شخص يسمى «المنادي»[172].

ومع توسع التعليم أخذ إقبال العامة على التعلم يزداد شيئاً فشيئاً، حتى قوطع أحد المعلمين لأنه كان يعلّم النحو لمن يرغب من العامة[173]، كما يذكر ياقوت الحموي نادرة لطيفة جرت مع النحوي علي بن عيسى الربعي (ت 420هـ)، وذاك أن أحد بني رضوان التاجر نازعه في مسألة لغوية، فقام علي مغضباً، وأخذ شرح سيبويه وغسله وجعل يلطم به الحيطان ويقول: «لا أجعل أولاد البقالين نحاة»[174]. ولا شك أن هاتين الحادثتين تدلان على توسع التعليم حتى أصبح يغطي عدداً أكبر من الناس، فأقبل العامة على تعلم النحو، حتى ظهر منهم من يقول الشعر[175].

بدأ الاهتمام بجمع الكتب مع الإقبال على اقتناء النسخ العديدة من القرآن الكريم وشروح السنة التي كانت وسيلة أساسية لإجادة العلوم القرآنية. وأخذت الترجمات من الثقافات الفارسية واليونانية والهندية والسريانية تتوالى بتشجيع من الخليفة وكبار رجال الدولة. فتنافس الأمراء والوزراء في الحصول على النسخ الأولى من المخطوطات الثمينة، مما كان له كبير الأثر في كثرة التأليف ونمو المكتبات. وقد أسس الخليفة المنصور مكتبة عامرة كانت ملحقة بقصره، وعين فيها الوراقين وحمل إليها مئات المخطوطات، وطلب من المترجمين نقل الفلسفة والطب اليونانيين والأدب الفارسي إلى اللغة العربية[176].

وكان إقبال العلماء على اقتناء المكتبات الخاصة كبيراً، فكان الواقدي (ت 207هـ)

---

(172) أنظر، كوركيس عواد، خزائن الكتب القديمة في العراق، (بغداد، 1948)، ص 11 ـ 12، 24، أيضاً: ابن الجوزي، أخبار الحمقى، ص 146.

(173) الفهرست، ص 105.

(174) معجم الأدباء، ج 5، ص 284.

(175) أنظر، أبو محمد القارىء، مصارع العشاق، (بيروت، د.ت، دار صادر) ج 2، ص 116، حيث يورد المؤلف من شعر اكار.

(176) فؤاد قزانجي، المكتبات والصناعة المكتبية في العراق، (بغداد، 1972) ص 17، 19.

يملك مكتبة ضخمة حتى قيل: إنه عند انتقاله من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي في بغداد حمل كتبه على مائة وعشرين قر، وقيل: إنه خلّف بعد وفاته ستمائة قمطر كتباً[177]، كل قمطر منها حمل رجلين، وكان له كاتبان مملوكان وبيع له من الكتب بألفي دينار[178]. وكان ابن أبي بعرة جماعاً للكتب، وله خزانة كبيرة أخرج منها قمطراً فيه نحو ثلاثمائة رطل، يضم جلود فلجان، وصكاكاً، وقرطاس مصر، وورقاً صينياً، وورقاً تهامياً، وجلود أدم، وورقاً خراسانياً[179]. وكان أبو الفرج الإصفهاني يدخل سوق الوراقين ببغداد وهي عامرة، والدكاكين مملوءة بالكتب، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته. وكان ابن النديم نفسه وراقاً يبيع الكتب ببغداد[180].

عرفت بغداد المكتبات الرسمية العامة منذ أيام البرامكة في عهد الرشيد، إذ أنشأوا خزانة الحكمة التي عرفت في عهد المأمون بدار الحكمة أو بيت الحكمة، بعد أن توسعت الخزانة وضمت أقساماً للنقل والترجمة وسائر الأعمال الفنية[181]. وكان صاحب جزيرة قبرص قد أرسل إلى المأمون خزانة من كتب اليونان فجعل سهل بن هارون خازناً لها، وعمل المترجمون في نقل هذا التراث، وكان يوحنا بن ماسويه أميناً على هذه المهمة، وبقي إلى أيام المتوكل[182].

وقد انتشرت المكتبات في بغداد في القرن الثالث، حتى بلغت أكثر من مائة دار للكتب، فقد كان للمعتضد خزانة للكتب، وكان لابن حنبل اثنا عشر حملاً عدلاً يضعها في بيت يشبه التابوت[183].

واتخذ علي بن يحي المنجم خزانة كتب كبيرة في ضيعته القفص من قرى بغداد وسماها خزانة الحكمة. وكان الناس يقصدونها من كل بلد، فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم، والكتب مبذولة لهم، والصيانة مشتملة عليهم، والنفقة من مال علي بن يحي. وقيل: إن أبا معشر المنجم دخلها وهو في طريقه إلى الحج، وكان إذ ذاك لا يتقن

---

(177) الخطيب البغدادي، ج 3، ص 5 ـ 6، والوقر هو الحمل الثقيل، وهو هنا حمل الدابة، والقمطر: ما تصان به الكتب.

(178) الفهرست، ص 150.

(179) المصدر نفسه، ص 67، والفلجان هي الجمال ذات السنامين، والأدم هي الظبأ البيض التي تسكن الجبال فيهن غبره.

(180) الخطيب البغدادي، ج 11، ص 399، معجم الأدباء، ج 6، ص 408.

(181) الفهرست، ص 160، كوركيس عواد ص 105.

(182) عواد، ص 106 ـ 107.

(183) فؤاد قزانجي، ص 16، أيضاً عواد، ص 113، 195، 196.

شيئاً من النجوم، فأعجب بها، وأضرب عن الحج، وتعلم فيها النجوم[184].

وكان في بغداد دور للكتب في القرن الربع. فيذكر الخطيب البغدادي دار الكتب وخازنها[185] مما يعني أنها كانت إدارة رسمية. ويذكر مسكويه أن عضد الدولة أفرد في داره موضعاً يجتمع فيه الفلاسفة والحكماء، ويتفاوضون آمنين من السفهاء ورعاع العامة، وأقيمت لهم مخصصات متصلة، فرغب الأحداث في التأدب والشيوخ في التأديب، وانبعثت القرائح ونفقت أسواق الفضل، بعد أن كانت كاسدة[186].

وكانت دار الكتب منتدى المتأدبين وملتقى القاطنين منهم والمغتربين، وقد ترك الفنان الواسطي الذي زين برسومه مقامات الحريري[187] لوحة فنية أثبت فيها العلماء المختلفين إلى دار الكتب، وهم يجلسون على الأرض ويتناقشون، كما ظهرت في الصورة الخزائن التي ترصف رفوفها بالكتب.

وكانت المكتبة عادة مؤلفة من ثلاث حجرات، الكبرى منها لحفظ وعرض المخطوطات وجلوس القراء، وأخرى لأعمال النسخ والتجليد وخزن الكتب والمواد المكتبية الأخرى، وغرفة ثالثة تستعمل مأوى لخازن المكتبة[188].

ووصف المقدسي مكتبة عضد الدولة في شيراز فقال: إنها «حجرة على حدة، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم إلا وحصل فيها، وهي أزج طويل في صفّة كبيرة، فيه خزائن من كل وجه، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق، عليها أبواب من فوق، والدفاتر منضدة على الرفوف، لكل نوع بيوت وفهرسات فيها أسامي الكتب، لا يدخلها إلاّ وجيه»[189].

وتطور مشروع عضد الدولة من غرفة داخل داره إلى أن أصبحت «دار العلم»، وهي تزيد على دور الكتب بالتعليم وإجراء الأرزاق على من يلازمها[190]. ولعل أولى

---

(184) معجم الأدباء، ج 5، ص 467.

(185) تاريخ بغداد، ج 6، ص 203، وج 11، ص 13.

(186) تجارب الأمم، ج 2، ص 408.

(187) مقامات الحريري، ص 24، أنظر أيضاً، ثروت عكاشة، فن الواسطي من خلال مقامات الحريري، ظهر الورقة رقم 5.

(188) قزانجي، ص 23.

(189) أحسن التقاسيم، ص 449.

(190) آدم متز، ج 1، ص 311.

دور العلم، تلك التي بناها أبو نصر سابور سنة 383هـ، إذ ابتاع داراً في الكرخ بين السورين وعمرها وبيضها وسماها «دار العلم»، ووقفها على أهله، ونقل إليها كتباً كثيرة، ابتاعها وجمعها وعمل لها فهرساً، ورد النظر في أمورها ومراعاتها والإحتياط عليها إلى الشريفين أبي الحسين شيبة وأبي عبد الله الحسني، وإلى القاضي أبي عبد الله الضبي، وكلف الشيخ أبا بكر محمد بن موسى الخوارزمي فضل عناية بها[191].

ويبدو أن دار العلم هذه كانت أول المدارس الحديثة التي عرفتها بغداد، وكانت مركزاً من المراكز العلمية لدعم الدعاية الشيعية[192]، ويظن لاوست بأن الفهرست الذي وضعه ابن النديم كان فهرساً للكتب التي ضمتها خزانتها[193]. ويرجح أن أبا العلاء المعري كان صديقاً لأحد خازنيها، فقد زارها وأقام بها يوم كان ببغداد[194]. ويذكر ابن الأثير أن هذه الدار احترقت سنة 451هـ ونهب بعض كتبها، وكان بها عشرة آلاف وأربعمائة مجلد من أصناف العلوم، منها مائة مصحف بخطوط بني مقلة، وكان العامة قد نهبوا بعضها عند الحريق، فأزالهم عميد الملك عن النهب واختار من كتبها لنفسه[195].

ومن دور العلم تلك التي أنشأها الشريف الرضي في بغداد، وجعلها موضعاً لدراسة الطلاب وسكناهم، وكانت المواد مؤمنة فيها وأعطي كل طالب فيها مفتاحاً ليأخذ منها ما يحتاج إليه، دون أن ينتظر خازناً يعطيه[196].

خدمات أخرى: كانت الدولة تقدم بعض الخدمات الإجتماعية الأخرى، وخاصة للفقراء. فأنشأت «ديوان البر» لإدارة الصدقات والأوقاف الخيرية[197]. وتضمنت نفقات المعتضد مبلغ 15 ديناراً كل يوم توزع على الفقراء. كما تضمنت نفقات للمؤذنين في المساجد وبعض نفقات تجهيزها[198]. وفي سنة 295هـ أمر المقتدر بهدم الحوانيت التي بناها المكتفي بعد أن أخبر بأنها أضرت بالتجار الضعفاء لأنهم كانوا

---

(191) المنتظم، ص 7، ص 172.

(192) LAOUS.T h, **Les Agitations Religieuses à Baghdad aux IV et V Siècles**, in Islamic Civilisation, Papers on Islamic History (Oxford, 1973), D.H. Richards, p. 170.

(193) LAOUST, La pensée et L'Action politique D'Al-Mawardi, in **REI**, (1968) p. 45, Not 4.

(194) عبد الله الفياض، دور العلم وخزائن الكتب في العهد البويهي، المجلة التاريخية، ح 1، ع 1، (بغداد، 1970) ص 78، أيضاً كوركيس عواد، ص 141.

(195) الكامل في التاريخ، ج 8، ص 88.

(196) عبد الله الفياض، ص 80.

(197) مسكويه، ج 1، ص 151.

(198) الوزراء، ص 24، 25، 26.

يقعدون فيها لتجارتهم بدون أجرة[199].

وفي العهد البويهي وضع عضد الدولة الأعـطيات لـلأئمة والمؤذنـين في المساجـد، وللفقراء والمرضى الذين يلجأون إليها، وللأطباء والفقهاء والشعراء والنحويين والمنجمين والمهنـدسين والنســابـين، وسمـح لـوزيـره أن يعمـر الأديـرة، وأن يسـاعـد فقـراء أهـل الذمة[200]. وكان عضد الدولة عند افتتاح خراج كل سنة، يخصص مبالغ معينة يتصدق بها على قضاة النواحي ووجوه أهلها، كما وجد في أوراقه ما يدل على كثرة صدقاته[201].

(199) عريب، ط. المعارف، ص29.
(200) أبو شجاع، ص 69.
(201) المصدر نفسه، ص 66.

الفصل الخامس عشر

حياة العامة اليومية

أولا: الحياة العائلية

الدور والمنازل

كان رب العائلة في سعة حال إذا كان يملك داراً طيبة، فيها فرش نظيف وله جوار للخدمة، وفي الدار من الآلات، الطشت والإبريق والجرار والقدور والغضائر والجامات والسكرجات والصواني والأطباق والقناني[1]. وكانت دور السراة كبيرة وواسعة ومجهزة بحمام، وطعامهم نظيف، وفي مجالسهم الشرب والفواكه المختلفة[2]. كما كانت دورهم مجهزة بشرفات وأفاريز، وتحيط بها البساتين[3]. وجهزت بالرواشن[4]. وكانت الدور تتألف من مجوعة بيوت تضم المجالس والصحون، مزينة بالجص، ويضم بعضها مجلسين متقابلين، وخزائن ومستراحاً[5].

كانت الجدران تؤزر بالساج، وتجهز الدار بأبواب حديدية، وربما كانت الأبواب من الخشب الملبس بالحديد، أو من الخشب فقط[6].

وكانت الدار تجهز بدهليز، ويقام بناء علوي يسمى «العلية»، ويصعد إليه بالدرج[7]، وكانت بعض الدور تجهز بالصُّفَّات في الداخل، والدكات في الخارج،

---

(1) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 193، الصابي، الوزراء، ص 227.

(2) الأغاني، ج 21، ص 8. ونشوار، ج 2، ص 193.

(3) الأغاني، ج 2، ص 239.

(4) نشوار، ج 2، ص 69.

(5) المصدر نفسه، ج 2،، ص 17، 18.

(6) المصدر نفسه، ج 2، ص 339، الصابي، الوزراء، ص 115.

(7) الفرج بعد الشدة، ج 2، ص 140 ـ 142، الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 38، مقامات الهمذاني، ص 109.

فتفرش ويستريحون عليها[8].

وكانت الأبواب تجهز بحلقات تقرع بها، وقد ذكرت المقامة المضيرية حلقة باب ادعى صاحب الدار أن ثمنها ثلاثة دنانير معزية جيدة، وأن وزنها ستة أرطال[9]، وهي تدور بلولب في الباب، وقد يجهز الباب بمفتاح رومي[10].

وكان لدار أحد الموظفين أربعة عشر باباً[11]. وادعى بطل المقامة المضيرية أن شباك داره دقيق الصنعة، كأنما خط تعريجها بالبركار، وأن الشباك قطعة واحدة من خشب الساج[12]. وكانت الدار تجهز ببيت الخلاء الذي دعي بالكنيف، وقد ترصف أرضه بالرخام[13].

وكانوا يرفعون في البناء. والمواد الأولية التي تستخدم في البناء، هي الطين واللبن والآجر والجص والأجذاع والخشب والحديد. وكان البناء في بغداد يكلف أكثر منه في البصرة[14].

وانتشرت في بغداد تجارة العقار واستغلاله، إلّا أن الريع العقاري كان أقل من ريع التجارة[15]. وفي سنة 332هـ تعطلت أتاتين الآجر لقلة البناء بعد فيضان أصاب بغداد بخسائر فادحة[16].

وكشفت حفائر سامراء عن طريقة بناء الدور عند أهل العراق في القرن الثالث الهجري. فكانت الدور فيها تبنى على مثال واحد، يصل بينها وبين الشارع أو الدرب، دهليز مسقوف، يبلغ عرضه ثلثي طوله، يفضي إلى صحن واسع قائم الزوايا، ويتصل به من جانب العرض القاعة الكبرى بشكل حرف لاتيني مقلوب ⊥، وفي أركانها غرفة صغيرة ويحيط بالصحن أيضاً غرف متجاورة مربعة للسكنى، يستعمل بعضها الحريم، وبعض هذه الغرف للمرافق المنزلية. وفي معظم الدور أفنية صغرى ثانوية تشتمل على

---

(8) الوزراء، ص 236، أبو الفرج، أدب الغرباء، ص 83.

(9) يقدر هتس، المكاييل الإسلامية، ص 35، الرطل البغدادي بـ 25، 406 غ.

(10) مقامات الهمذاني، ص 108، الفرج بعد الشدة، ج 2، ص 140.

(11) الفرج، ج 2، ص 146.

(12) مقامات الهمذاني، ص 108.

(13) الفرج بعد الشدة، ج 1، ص 81،ع مقامات، ص 116 ـ 117.

(14) الأغاني، ج 23، ص 222، الجاحظ، البلدان، ص 501.

(15) الخطيب، ج 13، ص 195، الجاحظ، البخلاء، ص 27.

(16) ابن الأثير، ط. صادر، ج 8، ص 416.

أماكن للمرافق المنزلية أيضاً. ولا تخلو الدور قط من حمامات ومجـار تحت الأرض، وكثيراً ما يكون فيها آبار، وتشتمل أحياناً على صحون ذات أسطوانات، وعلى سراديب للسكنى مجهزة بوسائل التهوية. وقد يبلغ عدد الغرف في الدار الواحدة ستين غرفة، وبها شبـابيك تقفل بألواح من الزجـاج المتعدد الألـوان ويتراوح عـرض اللوح بين العشرين والخمسـين سنتيمتراً[17]. وكان لقصر المتوكل (الحير) واجهة من ثلاثة أبـواب أكبرهـا الأوسط، وإلى جانبه البابان الصغيران[18]، وقد قلّده الناس حتى اشتهر هذا البناء، وبني قصر التـاج في بغـداد على هـذا الطراز، فكـانت واجهته عـلى خمسة عقـودٍ كـل واحـد منهـا عـلى عشرة أساطين، والأسطوانة على خمسة أذرع[19].

وقد كانت أبنية الخلفاء الخاصة متميـزة بدون شـك، فيذكـر أن جعفر بن يحي بنى داراً ليس فيها لبنة ولا صنـوبرة وأنفق عليهـا عشرين مليون درهم، وبنى المـأمون منـازل عـلى شط دجلة. ولم يكن للمعتصم لـذة في تـزيـين البنـاء، وكـانت غـايتـه فيـه إلى الاحكام[20]، أما المتوكل فيبدو أنه كان بناء بني العباس الثاني؛ وتورد المصادر أسـماء أكثر من أربعة وعشرين بناء للمتوكل في سامراء أنفق عليها الملايين من الدراهم[21].

تجهيز البيوت: كـانت البيوت تجهـز بدهـاليز تؤلف جـزءاً من البيت[22]، وكانت تقـام أيضـاً تحت البنـاء[23]، ويستعملهـا عـادة الأثـريـاء والتجـار يخفـون أشيـاءهم الثمينة داخلها. ونحن نميل إلى أنه كانت للدهليز وظيفة سكنية، فهو جزء من المسكن ولم يكن جزءاً تزيينياً، أو ذا وظيفة بنائية فقط، بل كانت له مهمات أمنية وصحية، ولا شـك بأن الدهليـز كان يستخـدم للنوم، وقـد طلب أحد أبـطال الجاحظ النـوم في دهليز أحـد البخلاء[24].

والإشـارات حول تكـاليف البناء وأسعـار البيوت قليلة. ففي القـرن الثالث كـان

---

(17) CRESWELL, A short Account, p. 287.
وانظر أيضاً، آدم متز، ج 2، ص 203 ـ 204.

(18) اليعقوبي، البلدان، ص 226.

(19) ياقوت، معجم البلدان، ج 2، ص 5.

(20) الطبري، ج 8، ص 291، 575، ج 9، ص 121.

(21) أنظر، الاصفهاني، أدب الغرباء، ص 48 ـ 50، يـاقوت، معجم البلدان، ج 3، ص 175، الشـابشتي، الديارات، ص 364 ـ 371.

(22) ياقوت، معجم الأدباء، ج 1، ص 9، ومقامات الهمذاني، ص 109.

(23) عريب، ذيول الطبري، ص 18 (طـ دار المعارف).

(24) البخلاء، ص 39.

إيجار دار الفضل بن الربيع ألف درهم في الشهر[25]. ودفع واحد من متوسطي النعمة خمسة آلاف دينار بدل بناء داره وشراء جميع ما فيها من الفرش والثياب والمركوب والجواري والغلمان[26]، وفي سنة 252هـ باع موظف داره بمائة ألف دينار[27]، وأعطي رجل دُمّر داره بالفيضان عشرة آلاف درهم ليبني داراً يعلو بناءه السابق[28].

وفي القرن الرابع اشترى قاضي القضاة داراً بأربعة وعشرين ألف دينار، وباعت زوجة الزاهد بدر المغازلي داراً لها بثلاثين ديناراً وفرقت ثمنها على الفقراء[29].

وكان الأغنياء الذين ينفقون ثرواتهم ينقضون دورهم ويبيعون أنقاضها من آجر وغيره[30]. وكانت الدور تقطع إلى المفضلين، فأقطع فقيه سنة 305هـ داراً بباب خراسان، كما كانت تعطى مهراً للزوجة[31].

وكانت بيوت الأغنياء مجهزة بأدوات التبريد[32]، وكانت البرادات من الخيش الذي يبل بالماء، ثم يروّح الخيش كحركة المروحة، وكانت تعلق على البرادة كيزان الماء ليجعلوها تبرد[33]. وكان الوزير حامد بن العباس يعلق على حراقته الخيش[34].

أما دور العامة فكانت تجتمع بعضها قرب بعض في مراكز الأحياء المكتظة بالسكان، وليس حولها أسوار أو حدائق، وتطل نوافذها على الشوارع بحيث إذا ارتفع المار على حجر تيسر له أن يرى ما بداخل البيت[35]، وقد وصف أحدهم بيوت منطقة الكبش والأسد في بغداد، وهي منطقة سكنها الفقراء، فكانت كهيئة القرية يسكنها المزارعون والحطابون[36]. وربما كانت البيوت الفقيرة مؤلفة من الصفة فقط، وكانت ميازيبها تصب على الطريق فتؤذي المارة[37].

---

(25) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج 3، ص 353.

(26) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 183.

(27) الطبري، ج 9، ص 397.

(28) الأغاني، ط. الهيئة العامة، ج 23، ص 223.

(29) أبو شجاع، ذيل مسكويه، ص 118، المنتظم، ج 7، ص 154.

(30) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ط. القاهرة، ج 2، ص 34 ـ42.

(31) الخطيب، ج 7، ص 155، عريب، ط. الاستقامة، ص 48.

(32) الاغاني، ، ج 19، ص 235. طيفور، ص 52، ونشوار المحاضرة، ج 2، ص 135.

(33) الفرج بعد الشدة، ج 2، ص 75، نشوار المحاضرة، ج 2، ص 319.

(34) نشوار، 3، ص 43.

(35) المدور، حضارة الإسلام في دار السلام، ص 26.

(36) الخطيب، ج 1، ص 71.

(37) الصابي، الوزراء، ص 40، 64.

وبنى الجنود سنة 252هـ بيوتاً لهم في بغداد من البواري والقصب، وكان العيارون يأوون إلى الحمامات والمساجد[38].

كانت التجهيزت الداخلية والصحية في بيوت العامة فقيرة. فلم تضم بعض البيوت إلاّ بارية، وضم بيت أحد الزهاد في محلة باب الشام سريراً ينام عليه صاحبه[39]. وربما أقام الفقراء بيوتاً للبقر إلى جانب مأواهم إذا تيسر لهم ذلك[40]. واقتصر تجهيز البيت أحياناً على حصير ومخدة وجرار وكيزان وغضائر وقدر[41]. وربما جهزت الدور بآبار وكانت مياهها غير نظيفة أحياناً[42]، وكان الفقراء يغتسلون في البئر أو أمام الدار[43]، إذ لم توجد الحمامات في دورهم، وإن وجدت فقد يضمها مع بيت الخلاء مكان صغير غير نظيف تعافه النفوس[44]. ولم يكن باستطاعة الفقراء استعمال الخيش، بل كانوا يقارعون حر بغداد بالنوم على السطوح[45]. كما لم يكن باستطاعتهم الحصول على الثلج، فيلجأون إلى تبريد المياه بالجرار[46]. ولم يكن باستطاعة الفقراء حماية أنفسهم من البراغيث والبعوض التي عرفت بغداد منها الكثير[47]، في حين كان الميسورون يتوقون ذلك بالكلة التي لا يجد البعوض متخللاً فيها، أو يدخنون بيوتهم بدخنة توخّياً للنظافة[48].

وكانت الدور تضاء بالقناديل الزجاجية والمسارج الخزفية، واستخدموا لذلك الزيوت في القناديل والدهون في المسارج، واستخدموا الصابون في النظامة، واتخذوا التنانير والمطابخ لطهو الطعام وربما جعلوها في العلالي على سطوح الدور، واتخذوا في دورهم بالوعات لتصريف الفضلات الإنسانية، وكان هناك رجال كثيرون يقومون على تنظيفها[49]. وكانت هذه البلاليع تؤدي إلى شبكة مجارير، ويذكر ابن الجوزي أنه في

---

(38) الطبري، ج 8، ص 468، ج 9، ص 357.
(39) الفرج بعد الشدة، ج 2، ص 12، 105 (ط. القاهرة).
(40) نشوار، ج 3، ص 271.
(41) الفرج بعد الشدة، ج 2، ص 141.
(42) الجاحظ، البلدان، ص 501، البخلاء، ص 17، نشوار، ج 2، ص 342.
(43) نشوار، ج 1، ص 338، طيفور، ص 92.
(44) الفرج، ط. القاهرة، ج 1، ص 81.
(45) الأغاني، ج 2، ص 332، والبخلاء، ص 49.
(46) البخلاء، ص 36، 45.
(47) الخطيب، ج 7، ص 26.
(48) الثعالبي، ثمار القلوب، ص 246، الاصفهاني، أدب الغرباء، ص 70.
(49) الجاحظ، البخلاء، ص 21، 63، 82، 83.

أعقاب مطر غزير سنة 330هـ امتلأت البالوعات وفاضت ودخلت دور الناس[50].

أما عدد البيوت، فيذكر يزد جرد أن عدد منازل بغداد في القرن الرابع كان إثني عشر ألفاً[51]، ولا ندري صحة هذا الرقم، وهل يدخل في تقديره منازل الفقراء والمهنيين الذين كانوا يتخذون لأنفسهم دوراً متقاربة[52].

العائلة

شكلت العائلة عماد البيت البغدادي، وكان تشجيع الزواج سياسة معمولاً بها. فقد رفع أحد مستشاري المهدي إليه اقتراحاً بتزويج العزاب[53]. وفي القرن الرابع كان أحد القضاة يحض على تزويج البنات وحفظهن بالأزواج[54].

ويتم الزواج عادة عن طريق الخاطبة التي تتولى المراسلة بين الرجل والمرأة، مبينة صفات كل منهما. كما أن الدلالة أو الخاطبة كانت تساعد في تلبية مواصفات الخاطبين في زوجة المستقبل، كأن تبحث عن زوجة أو وارثة غنية[55].

إلا أن الزواج عن طريق الخاطبات لم يكن يخلو من المخاطر، وذلك أنهن كن يتسترن على عيوب العرائس[56]، لذا كان الزواج يتم عن طرق أخرى أيضاً، منها الإتصال المباشر بين الخطيبين، حيث يتعارفان في الأسواق التجارية أو عن طريق الصداقات العائلية[57]. وعلى العموم فإن الرجال كانوا يتشددون في اختيار نسائهم[58].

وكان الرجال ربما دخلوا في سفارة الزواج لأصدقائهم، وربما شاوروا فيمن يزوجونهم بناتهم. فقد قصد أحدهم مسجداً في بغداد وسأل في رجال خطبوا ابنته[59].

وطلب أحد الرجال من زوجته أن تخرج إلى الأعياد وتدخل الأعراس وتسأل عن الرجال المشهورين، وأن تطلب المواضع المعروفة وأصحاب الأنساب المرضية والأخلاق

(50) المنتظم، ج 6، ص 326.
(51) الصابي، رسوم دار الخلافة، ص 19.
(52) الحيوان، ج 3، ص 29.
(53) الطبري، ج 8، ص 119.
(54) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 6.
(55) أنظر، البصائر والذخائر، ج 2، ص 426.
(56) المصدر نفسه، ص 685.
(57) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 324، 359.
(58) أنظر، البيان والتبيين، ج 3، ص 227.
(59) المنتظم، ج 6، ص 376، معجم الأدباء، ج 3، ص 88.

الكريمة لبناتها. كما طلب إليها أن تخرجهن في الجمعات يتصفحن محاسن العزّاب ويخترن أولي الأنساب[60].

من الرجال من تزوجوا من جواريهن، ومنهم من يعتق جاريته ثم يتزوج منها[61]. كما كانت الزوجات تتزوج من مماليك أزواجهن ويعرف الزوج عندها بزوج الحرة[62]، ومنهن من عملت على استرداد الزوج لحريته لتتزوج به. ومن الأزواج من لم يتمكن من تحقيق حريته إلا بعد أن يكاتب سيده على أموال يؤديها أقساطاً[63]. ومنهن من ساعدت خطيبها على رفع قدرته الإقتصادية ومكانته الإجتماعية ليتمكن من الزواج منها[64].

وكان زواج الأمهات مكروهاً، واعتبرت المناسبة أقرب إلى العزاء منها إلى التهنئة. فقد تلقى أحدهم رسالة من صديق له يعزيه عن زواج أمه. وكتب إبراهيم بن هلال الصابي رسالة إلى صديق له تزوجت أمه يهنيه فيها بزواجها، كما يعزيه لتمكنه من إسخاط نفسه وإرضاء أمه[65]، وكتب صديق إلى صديقه يعزيه بزواج أمه ويرجو الله أن يكرمها بالقبر[66]. وكتب أبو بكر الخوارزمي رسالة إلى مسكويه الذي تزوجت أمه قال فيها: «وقد كنت أسأل الله تعالى أن يبارك لها في حياتها، والآن أسأله أن يعجل لك بوفاتها؛ فإن القبر أكرم صهر، وإن الموت أستر ستر، ولا تذهب نفسك حسرات على ما سبقك عليه الدهر وغلبك عليه الرزق»[67].

وكان المهر يتفاوت حسب قدرة الزوج، فقد دفع جعفر بن يحي البرمكي مهراً عن أحد أبناء العامة قيمته ألف دينار، ودفع زوج في القرن الرابع صداقاً قيمته ألف دينار، ودفع آخر ألفي درهم[68]. وأعتق أحدهم جاريته وتزوجها على صداق قيمته عشرة دنانير[69]، وأعطى زوج زوجته داراً عن مهرها[70].

---

(60) **الهفوات النادرة**، ص 289.

(61) **الفرج بعد الشدة**، ج 4، ص 315، 353، **معجم الأدباء**، ج 5، ص 302.

(62) **المنتظم**، ج 7، ص 119.

(63) **نشوار المحاضرة**، ج 2، ص 287، **الفرج بعد الشدة**، ج 3، ص 74.

(64) **المنتظم**، ج 6، ص 259، ج 7، ص 119.

(65) **نشوار المحاضرة**، ج 2، ص 264، ج 3، ص 211.

(66) آدم متز، ج 2، ص 174.

(67) **رسائل أبي بكر الخوارزمي**، (القسطنطينية، 1297هـ) مطبعة الجوائب، أعادت طبعه مكتبة الحياة (بيروت، 1970)، ص 213.

(68) **الفرج بعد الشدة**، ج 3، ص 150، ج 4، ص 398، 409.

(69) **معجم الأدباء**، ج 5، ص 302.

(70) **الخطيب البغدادي**، ج 7، ص 155.

واهتم أهل العروس بتجهيز بناتهم واعتبروه من الضرورات اللازمة. فقد رفضت إحدى الأمهات أن تزف ابنتها إلى زوجها قبل أن تجهزها بما يليق. واهتم الأغنياء بتجهيز إمائهن، أما الفقراء فكانت إماؤهن تزف بدون جهاز[71].

وكانت حفلات الأعراس تُقام وسط ضجيج الطبول والزمور، وتدعى إليها جماعات النساء اللواتي يتزين ويتحلين بأنواع الحلي[72]، وكانت المدعوات الفقيرات يلجأن إلى استعارة الملابس والحلي ليلبسنها في مثل هذه المناسبات[73] وفي أثناء حفلة العرس تبرز أمام العروس الحسناء جارية سوداء وتوقف بإزائها لتكون أظهر لمحاسنها وكالوردة لجمالها وكمالها[74]. وفي نهاية الاحتفال تهدى الزوجة إلى زوجها بعد انقضاء جزء من الليل، وتجلى عليه في داره[75].

وكان الأهل يوصون بناتهم بمعاملة أزواجهن بالمعروف. فقد أوصت أم ابنتها بأن تكون لزوجها فراشاً ووطاء، وألا تكتئب إذا كان فرحاً. وأوصت أخرى ابنتها بأن تدني سترها، وأن تكرم زوجها وأن تتجنب المراء. وأوصى رجل ابنته بطاعة زوجها وعدم الغيرة والعتاب، وقال آخر لابنته ليلة الإهداء: «كوني لزوجك أمة يكن لك عبداً، وعليك باللطف فإنه أبلغ من السحر»[76].

وكانت المرأة تقوم بتأمين خدمات البيت والإشراف على إنجازها، وربما استقبلت زوجها بطشت ماء ليغسل وجهه ورجليه، وربما قامت هي بالعمل بنفسها. وكانت تعوّل على إعداد طعام يوم الجمعة حيث تجتمع العائلة في يوم الراحة الأسبوعية، كما تهتم بإعداد الحمام ووسائل الراحة[77]. ولعل هذا كان من واجبات المرأة أو الخادمة فقط، فقد سخر أحدهم من صديق له لإعداده الحمام بنفسه[78]، وربما تسبب تأخر الزوجة في إعداد طعام زوجها بتعرضها لنقمته، وقد تدفع المرأة حياتها على يد زوجها الغيور تحت وطأة شكوك لا أساس لها[79].

---

(71) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 368، 409.

(72) المصدر نفسه، ص 367، المنتظم، ج 7، ص 124.

(73) الأغاني، ط. بولاق، ج 5، ص 30.

(74) ثمار القلوب، ص 319.

(75) الفرج بعد الشدة، ج 4، ، ص 367.

(76) البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر، ص 19 ـ 20.

(77) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 30، ج 4، ص 350.

(78) المفوات النادرة، ص 68.

(79) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 339، ج 3، ص 37.

إلا أن المرأة لم تكن في موضع الضعف دائماً. فمنهن من استولت على ميراث زوجها دون سائر الورثة[80]، ومنهن من اشتكى أزواجهن كثرة النفقات غير المجدية، وتحكمت بعض الغنيات بأزواجهن[81]. ويبدو أن غلبة النساء على الرجال في القرن الرابع أمر مسلّم به، فقد ذكر التنوخي أن الناس كانوا يتذاكرون في مجالسهم غلبة النساء، وأن جهاز العروس كان يضم سرجاً ولجاماً لتقييد الزوج بهما، فإن تراخى لحظة وضعت الزوجة السرج على قفاه واللجام في فيه وركبته، ولا تنزل عنه إلا بطلاق أو موت. وتحدث أبو المطهر الأزدي عن مناكاة الزوجة لزوجها وإلحاق الأذى به[82].

وأدت التطورات الإجتماعية إلى خروج المرأة من بيتها، فكانت تخرج إلى الأسواق لشراء حاجاتها[83] كما أن الفقيرات والأرامل خرجن لبيع غزلهن وما أنتجنه داخل بيوتهن[84]. وربما خرجت المرأة وحدها أو مصحوبة بنساء أخريات[85].

وأدّى خروج المرأة من البيت إلى تعرضها لمضايقات مختلفة. وصار التعرض للنساء في الشوارع من الأمور التي تقع باستمرار[86]، وتعرض بعضهن لاعتداءات من الجند[87]، كما تعرض بعضهن لابتزاز موظفي القضاة، فكان صاحب أحد القضاة يتعرض للنساء فلا يرددنه[88]، كما تعرض بعضهن للإغتصاب والقتل على يد بعض الشذاذ واللصوص[89].

أمام هذه الصعوبات التي صادفتها النساء، اتخذت بعض الإجراءات لحماية تحركهن خارج البيت، فمنع الرجال من التحدث مع النساء في الشوارع، وتعرض أبو نواس لتقريع ابن عائشة بسبب تحرشه بالنساء، وخرج الحنابلة في القرن الرابع يمنعون

---

(80) المصدر نفسه، ج 2، ص 168.

(81) الفرج بعد الشدة، ج 4. ص 350، 426.

(82) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 30، حكاية أبي القاسم، ص 19.

(83) أنظر، الخطيب البغدادي، ج 9، ص 188، ج 12، ص 282، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 359.

(84) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 118، الخطيب البغدادي، ج 6، ص 9، أنظر أيضاً، مقامات الحريري، ص 112.

(85) نشوار، ج 3، ص 218 الفرج، ج 4، ص 359، الخطيب البغدادي، ج 9، ص188، ج 12، ص 282.

(86) أنظر، نشوار، ج 2، ص 225، 226، 279، أيضاً، ج 3، ص 33.

(87) الفرج، ج 1، ص 355، المنتظم، ج 5، ص 132.

(88) مسكويه، ج 2، ص 148.

(189) المنتظم، ج 5، ص 127، نشوار، ج 3، ص 219.

مشي النساء مع الرجال في شوارع بغداد، وتبنى المحتسب هـذا الموقف فصـار من مهماتـه منع مرافقة الرجال للنسـاء[90]. وفرضت عقوبات مشددة على رجال وجـدوا مع نسـاء في مواقف اعتبرت مريبة، فقد ضرب أحدهم لأنه كان مـع بنت القاضي في دارهـا، وصلب أحد موظفي الإدارة على باب حمام وجد فيه مع جـارية رئيسـه وهما عـلى حال ريبـة[91]. وأدى الأمـر إلى أن خضعت تصرفات السيـدات لمراقبـة رجال شرطـة هم أشبـه بشرطـة الأخلاق، كانوا يرفعون تقارير دورية[92].

وشاركت المرأة في النشاط الإجتماعي والديني، فكان منهن من يشاركن الرجـال في مجالس الوعظ التي يعقدها الواعظون[93]، وترك لنا الواسطي لـوحة مستـوحاة من مقـامة الحريري «الرازية»، يبين فيها مشاركة سبع نسـاء في مجلس للوعظ[94].

ومارست بعض النسـاء وظيفة الواعـظة، فقد اشتهـرت منهن ستيتية (ت 377هـ) وهي أم القـاضي أبي الحسين المحـاملي، وكـانت تلم بالفـرائض وأنواع العلوم الـدينيـة، وتغني وتتعاطى الفقه عـلى مذهب الشـافعي[95]. واشتهرت منهن الـواعظة ميمـونة بنت ساقولة (ت 393هـ) وقد نقـل عنها ابن الجـوزي بعضاً من أقـوالها في مـواعظهـا، وهي تحض على عدم معصية الله وعدم إلحـاق الأذى بالآخـرين. واشتهر من النسـاء الفقيهات أمـة السـلام وتكنى أم الفتـح (ت 390هـ) وهي بنت القـاضي أبي بكـر بن شجـرة[96] واشتهـرت منهن مضغـة ومخـة وزبـدة، أخـوات بشر بن الحـارث، وكن عـالمـات زاهدات[97].

واشتهر من النسـاء من عملن في الكتابة، منهن منية الكاتبة بمكتب لأم ولد المعتمـد على الله[98]. وبرزت منهن عابدة أو عـائدة الجهنيـة، كانت امـرأة فاضلة، كـاتبة، وهي زوجة عم الوزير أبي جعفر بن شيرزاد، وكـانت خليفته عـلى كتابتـه لبجكم وسبكتكين،

---

(90) معالم القربة، بعناية ليفي، ص 31، ابن الأثيرج 6، ص 248.
(91) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 117، الصابي، تاريخ، ذيل مسكويه، ج 4، ص 419.
(92) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 350.
(93) المنتظم، ج 6، ص 365.
(94) ثروت عكاشة، فن الواسطي، ص 48، ظهر الورقة 58 ملون.
(95) المنتظم، ج 7، ص 139، تاريخ بغداد، ج 14، ص 442 ـ 443.
(96) المنتظم، ج 7، ص 214، 226.
(97) تاريخ بغداد، ج 14، ص 436 ـ 437.
(98) المصدر نفسه، ص 441.

وقالت شعراً في هجاء الوزير محمد بن القاسم الكرخي[99]. واشتهرت منهن أيضاً عاتكة المخزومية التي كانت تقول الشعر ومدحت عضد الدولة ببغداد؛ واشتهرت بنت أخيها بقول الشعر في بغداد ونقل عنها التنوخي قصيدة أرسلتها إلى سيف الدولة تمدحه فيها[100].

زينة المرأة

اهتمت المرأة البغدادية بزينتها. وكان احتشاد بغداد وبيوتها بالإماء عاملاً كافياً لإثارة غيرتها. فأقبلت على التزين، وسهل لها ذلك وجود أسواق لبيع العطور ووسائل التطيب.

ويبدو أن استخدام وسائل الزينة بدأ في داخل القصر، وتمثل نساء الأغنياء بما يجري في القصر حتى طالت العامة. ويتحدث اليعقوبي عن تأثر الناس بأم جعفر لاتخاذها القمص اللؤلؤ المعضلة بالجوهر وشمع العنبر. كما يذكر أنها اتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه، فطرّت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والأصداغ وشعور الأقفاء، بعد أن رأت من ابنها الأمين إقباله على الغلمان، فاتخذ الناس من الخاصة والعامة الجواري المطمومات وسموهن الغلاميات[101].

كانت العائلات المتوسطة والموسرة تستخدم الحمامات الخاصة داخل بيوتهن[102]؛ واستخدمت الفقيرات بيوتهن وآبارها وباحاتها للحمام[103]. وكان ربما يعقب الحمام إزالة الحفاف، وهو الشعر الزائد في جسم المرأة، وربما استخدمت الماشطة في هذا العمل[104].

ويبدو أن المرأة البغدادية كانت تزين وجهها بطلاء أحمر عرف بالكلكون[105]. واستخدمت النساء أصباغاً لشفاههن، وربما كانت من لحاء شجر الجوز وقشر ثمارها[106].

---

(99) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 222، 223. وورد في المصدر نفسه، ج 5، ص 267، أنها امرأة عم أبي محمد المهلبي الوزير.

(100) المصدر نفسه، ج 5، ص 269، 270.

(101) مشاكلة الناس لزمانهم، ص 27؛ والجواري المطمومات، المجزوزات الشعر.

(102) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 78.

(103) نشوار، ج 1، ص 338.

(104) الفرج، ج 4، ص 78.

(105) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 344. والكلكون تعني لون الورد الأحمر.

(106) بدري محمد فهد، العامة، ص 268، أيضاً، زكية عمر العلي، التزيق والحلى عند المرأة في العصور العباسية، (بغداد، 1976) ص 64.

واستخدمت النساء الكحل لعيونهن، ومنهن من استعملنه فوق المحجر وتحت الحاجبين[107].

واهتمت النساء بزينة شعرهن، فبعضهن كن يعرقبنه على أصداغهن، وبعضهن يجعلنه غداير وضفاير[108]، ويبدو أن بعضهن كن يجعلن شعرهن مجعداً، كما أنهن كن يعتنين بزينة سوالفهن[109].

واستخدمت النساء الخضاب لشعرهن، والحناء لأيديهن[110]. وكان الخضاب الذي أقبل عليه الرجال والنساء يجري في سوق خاصة[111]. وكان العطارون يؤمنون مواد الزينة، فاشتهر منهم «جمرة العطارة» في القرن الثالث[112]، واشتهر في القرن الرابع «شركة العطار» الذي اشتهر ببيع المحلب، وهو يستعمل في السواك، الذي يعول عليه في جمال الأسنان وصيانة الفم[113].

ولا بد أن تزين المرأة قد قطع شوطاً بعيداً، ونستدل بفنون الزينة المختلفة التي تركها لنا ابن بطلان ضمن نصائحه إلى تجار الرقيق، فكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة، وكم صفروا البياض الحادث على القروح في العين والبرص والبهق في الجلد، وجعلوا العين الزرقاء كحلاء، وكم من مرة حمّروا الخدود المصفرة، وأعدموا الخدود شعر اللحى، وأكسبوا الشعور الشقر حالك السواد، وجعدوا الشعور السبطة، وبيضوا الوجوه المسمرة، ورطلوا الشعور الممرطة، وأذهبوا آثار الجدري والوشم والنمش والحكة[114].

العناية بالأطفال

تستدعى القابلة إلى الدار حين وضع المرأة، وكان الزوج يجلس في مكان آخر ينتظر الولادة[115]. وقد ترك لنا الحريري في المقامة التاسعة والثلاثين صورة فنية عن

---

(107) الطبري، ج 8، ص ص 191، حكاية أبي القاسم، ص 58.
(108) الأغاني، ج 6، ص 203، حكاية أبي القاسم، ص 52، 58.
(109) حكاية، ص 52، التزيق والحلي، ص 52.
(110) حكاية أبي القاسم، ص 10، الطبري، ج 8، ص 191.
(111) تاريخ بغداد، ج 9، ص 417.
(112) الطبري، ج 8، ص 104.
(113) حكاية أبي القاسم، ص 41، الظرف والظرفاء، ص 276.
(114) رسالة في شري الرقيق وتقليب العبيد، ضمن نوادر المخطوطات، مجلد 1، ص 355.
(115) نشوار، ج 7، ص 199، أنظر أيضاً، فن الواسطي، اللوحة التي رسمها الواسطي مخطوط باريس ظهر الورقة 122.

امرأة أصابها الطلق وعسر الولادة حتى خيف على الأم والجنين. ونرى أبا زيد السروجي يلجأ إلى «عزيمة الطلق» الشائعة الإنتشار، واستحضر قلماً مبرياً وزبداً بحرياً وزعفراناً قد نقع في ماء ورد. فسجد أبو زيد وعفر خديه بالتراب وسبح، ثم أخذ القلم وكتب على الزبد بالمزعفر كلمات العزيمة، ثم غافل الحضور وطمس الكلمات المكتوبة وتفل عليها مئة تفلة، وشد الزبد في خرقة حرير بعد أن ضمخها بالعبير وأمر بتعليقها على فخذ الماخض وأن لا تعلق بها يد حائض، فلم تكن إلا لحظات حتى خرج الوليد[116].

كان الوليد الذكر يصاحب بضجة وسرور[117]، ورأى البعض أن «من بركة المرأة بكورها بالأنثى»[118]. ويدخل على المولود أحد الأتقياء ليحنكه ويؤذن في أذنه، وكان بعض الأهل يهتم بأخذ ارتفاع الشمس ساعة الولادة لمعرفة طالع المولود[119].

وكانت بعض العائلات تتخذ بعض الإجراءات، منها أن ترش جدة الطفل الملح في الغرفة لطرد الأرواح الشريرة، وربما أوقدت القابلة ناراً جيدة تضعها غير بعيدة عن المهد وتترك لثلاث أو أربع ليال ولا يجرؤ أحد من الناس على المرور بينها وبين الوليد، في محاولة لتطهير نفس الطفل[120].

وكانت المرأة تربي أطفالها. إلا أن بعض الأغنياء كانوا يستدعون مربيات عرفن باسم «الدايات» يتولين إرضاع الأطفال والإهتمام بشؤونهم الصحية[121].

وكانت تربية الأطفال تتطلب في الأمهات درجة من الوعي. فالأم العاقلة لا ترضع وليدها غيلاً، ولا تحرك مهده حركة تورثه الدوار ولا تنومه بأن تضرب بيدها على جنبه، لأن ذلك يورثه الفزع[122]. ويبدو أن النساء كانت تعي هذا الأسلوب في تربية طفلها، فكانت لا تنوّم ولدها وهو يبكي خوف أن يسري الهم في جسده ويدب في عروقه، ولكنها كانت تمازحه وتضاحكه حتى ينام وهو مسرور، فينمو جسده ويصفو لونه ويشف عقله، ويستبدل ببكائه ضحكاً[123].

---

(116) مقامات الحريري، ص 340 ـ 342.

(117) نشوار المحاضرة، ج 7، ص 198، أيضاً، مقامات الحريري، ص 342.

(118) حديث نبوي، نقله الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 4، ص 418.

(119) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 332، ج 7، ص 198 ـ 199.

(120) MAZAHERI, Ali, La vie quotidienne des musulman, p. 42.

(121) أنظر، الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 317.

(123) الحيوان، ج 1، ص 286، 287.

(123) مروج الذهب، ج 2، ص 488.

وكانت العائلات الغنية تستدعي المرقصات لهذه الغاية[124]، وكان أبو جعفر المنصور يحمل حفيدته زبيدة ويرقصها، وقيل إن اسمها الذي اشتهرت به إنما هو الذي كان يرقصها على نغمته. وقيل إن لقب سيبويه مأخوذ من كلمات أغنية فارسية كانت أمه ترقصه على أنغامها[125].

وقامت في بغداد صناعة لعب الأطفال التي كان مكانها الرئيسي طاق اللعب، وربما كان هذا الطاق مسرحاً يجري فيه التمثيل واللعب، مما اضطر محتسب المقتدر إبراهيم بن بطحا لأن يحرق هذا الطاق في القرن الرابع[126]. وقد تفننوا في صناعة هذه اللعب، فجعلوا منها الكبيرة يزينونها بالملابس الجميلة والحلي[127]. وكانت العائلات الغنية تجعل الأقراط في آذن لعب الأطفال[128].

وليس لدينا معلومات عن وجود أماكن خاصة بلهو الأطفال، إلا أن ملاعب أولاد العامة كانت في الدروب، يلعبون بالجوز أو يعبثون بالمارة[129].

وكان ختان الأولاد عملية ضرورية. وزعم الجاحظ أن الختان في العرب في النساء والرجال من لدن إبراهيم وهاجر[130]. وفي عملية الختان مناسبة للاحتفال، ففي ختان أولاد المقتدر جرى ختان جماعة من أولاد العامة معه[131]، ويرى العامة فيها مناسبة للغناء[132].

ويبدو أن العادة في أولاد المسلمين أن يختنوا وهم غلمان، إذ يذكر الجاحظ أن ختان الغلمان أيسر من ختان المواليد الجدد. وذكر أن أناساً من أطباء النصارى زعموا أن اليهود يختنون أولادهم في اليوم الثامن[133]. ولاحظ الجاحظ أن الكثيرين من أولاد النصارى والمسلمين كانوا يصابون بسوء من أثر الختان بسبب استعمال أدوات غير نظيفة، وأن أولاد السفلة والفقراء يؤمن عليهم خطأ الخاتن، وذلك غير مأمون على أولاد الملوك وأشباههم.

---

(124) الحيوان، ج 1، ص 287.
(125) تاريخ بغداد، ج 12، ص 199، ج 14، ص 433، وسيبويه تعني شذا التفاح.
(126) المصدر نفسه، ج 7، ص 269.
(127) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 323.
(128) فوات الوفيات، ج 1، ص 373.
(129) المصدر نفسه، المكان نفسه، تاريخ بغداد، ج 7، ص 77.
(130) الحيوان، ج 7، ص 27.
(131) المنتظم، ج 6، ص 127.
(132) النويري، نهاية الأرب، ج 4، ص 250.
(133) الحيوان، ج 7، ص 25 ـ 26.

وذكر الجاحظ أن ليس من التـدبير أن يحضر الصبي والخـاتن إلا سفلة الخدم، ولا يحضره من يهاب[34].

(134) المصدر نفسـه، ص 26 ـ 27.

ثانياً: المعتقدات والعادات الشعبية

انتشرت في بغداد معتقدات شعبية تعود إلى أسباب عديدة. وقد جمع المحسن بن علي التنوخي في «الفرج بعد الشدة» أربعمائة واثنتين وتسعين قصة، تدور جميعها حول رجال أحاقت بهم مخاطر اجتماعية ومعيشية وسياسية، وانتهت بانفراج أعقبه تحسن في أوضاعهم الاقتصادية والشخصية، أو برفع الظلم عنهم. ويمكننا أن نلخص الأسباب الخلفية للمعتقدات الشعبية البغدادية بما يلي:

1 ـ ظهور فئات واسعة من طوائف العمال والحرفيين الذين اعترضت أسباب رزقهم المخاطر العديدة، وظهور عجز فئات كبيرة عن تحصيل عيشها.

2 ـ انتشار القهر السياسي وعدم القدرة على مجابهته.

3 ـ قيام جملة من السنن الاجتماعية رتبت على الناس واجبات محددة حدت شيئاً فشيئاً من قدراتهم ودفعت بهم أكثر فأكثر نحو التعلق بأمور غيبية.

إزاء هذه المعوقات النفسية، اتجه البغداديون إلى إنشاء عالم خاص توخوا منه أن يحل مشاكلهم الشخصية التي لم تكن الأنظمة المتاحة تقترح لها حلاً. فقامت في ضوء هذا الواقع جملة من المعتقدات الثابتة، آمن بها الكثيرون، ويندرج معظمها في سلم الخرافات بالمفهوم العصري للكلمة.

فقد اشتهر في بغداد طلسم الخنافس الذي قيل إن أبا معشر عمله، وانتشر بعدها في أكثر دور البغداديين[1]. وعرف البغداديون كتب العطف (الحجاب) التي تعلق على أجسام أصحابها لتحجب عنهم الأضرار وتسهل لهم محبة الغير[2]. ولدينا صورة عن كتاب عطف استخدمه عبد ليرقق قلب سيده، ويتضمن الكتاب سورة الفاتحة والمعوذتين وسورة الإخلاص وآية الكرسي، وآيات العطف[3]. ويعلق كتاب العطف على العضد الأيمن لصاحبه، وهو على طهارة.

وشاع الإعتقاد بمعرفة الطالع. ولعله كثر في بغداد حتى أمر المعتضد (سنة 279هـ)

---

(1) البصائر والذخائر، ج 3، ص 503، ابن العبري، ص 239.

(2) الفرج بعد الشدة، ج 1، ص 222، 225.

(3) المعوذتان: سورة الفلق وسورة الناس، وآية الكرسي: الآيات 255 ـ 257 من سورة البقرة. وآيات العطف هي: الآية 63 من سورة الأنفال والآية 21 من سورة الروم والآية 103 من سورة آل عمران.

بأن لا يقعد على الطريق ولا في المسجد الجامع قاص ولا صاحب نجوم ولا زاجر»[4]. وقد يعوّل كاشف الطالع على القرآن، فيأخذه ويفتحه ويرى ما وقعت عليه يده من آياته. ويتبرك الناس بأدعية خاصة كانوا يتوجهون بها إلى الله، وهي كلمات معروفة بعينها. واعتقد البعض بأدعية الصوفية التي كان لها فعل السحر، وتنتهي دائماً بالخير لمن يتلوها[5]. وازداد اعتقاد العامة في القرن الرابع، بفوائد الدعاء من بعض القصاصين، فكان العامة يأتون إليهم في المسجد ويرمون برقعهم التي تحدد نوع الضائقة، فيقوم القصاصون بالدعاء لصاحبها، ويطلبون أن يفرج الله كربه، أو أن يحقق أغراضه[6].

وشاع الاعتقاد بالتبرك بقبور بعض الرجال الصالحين. فكان الشافعي يتبرك بقبر أبي حنيفة ويسأل الله حاجاته عند ذاك القبر. وكان الكثير من العامة يتبركون بمشهد الكاظمين في مقابر قريش. واشتهر في بغداد مشهد النذور، وهو مدفن لأحد العلويين، اعتقد الناس بأنه ما يكاد ينذر له نذر إلاّ صح، وذكر المحسن التنوخي أنه كان أحد من نذر له مرات عديدة فبلغ مراده بعدها ولزمه الوفاء بنذوره، وجرب عضد الدولة النذر بنفسه بعد أن كان يعتقد أن الأخبار حول هذا القبر هي من مبالغات العامة[7].

وانتشر الاعتقاد بالرقية بين البغداديين. وكان أحدهم يكتب رقية للمرأة إذا خافت أن تسقط جنينها، وتعلق الرقية في وسطها، وقيل بأن هذه الرقية مجربة على سنين طويلة فلم يخطيء صاحب الرقيّة. وكان منهم من يكتب رقية لإعادة العبد الآبق، ويدفن الرق في عتبة باب. ومنهم من يكتب رقية للرعاف ويعلقها على جبهة المرعوف. كما كان يكتب رقية للخرّاج على ورق سلق وتوضع الرقية عليه[8].

وكان أحد الرجال مشهوراً بطريقة خاصة لمعرفة السارق، وسبيله أن يأخذ قدحاً فيه ماء، ويأخذ خاتماً ويشده بشعره ويدليه في القدح، ويكتب خمس رقاع فيها أسماء خمسة متهمين بالسرقة، ويكتب عليها السارق في القدح. ثم يضع رقعة يكتب فيها اسم المتهم على حرف القدح ويقرأ آية قرآنية. فإذا ضرب الخاتم القدح، نظر في الرقعة ليعرف اسم السارق، وإن لم يضرب الخاتم، وضع رقعة أخرى، وهكذا حتى يعرف

---

(4) المنتظم، ج 5، ص 122.

(5) الفرج، ج 1، ص 184، 197، 205، 223، 232.

(6) أنظر، أبو الفرج الاصفهاني، أدب الغرباء، ص 33.

(7) تاريخ بغداد، ج 1، ص 123، 134، الفرج، 1، ص 242.

(8) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 149، 151.

اسم السارق[9].

وكان هذا الرجل يجهز تمائم خاصة لإعادة الآبق. فهو بعد أن يكتب آيات قرآنية[10] يزيد عليها دعاء يقول: اللهم اجعل الأرض علوّها وسفلها، وسهلها وجبلها، وبرها وبحرها، في قلب فلان بن فلان أضيق من مسك شاة حتى يرجع[11].

وكان أحد الرجال يحفظ رقية تشفي من لسعة العقرب، وتقضي الطريقة بأن يردد كلمات تعويذة عدة مرات[12]، وقيل: إن هذه التعويذة جربت ضد لسعة الزنبور فأعطت نتيجة جيدة[13]، وكانت عجوز تتعاطى تعويذة ضد البثور التي تسميها الدروك[14].

وكان أبو زيد السروجي يكتب «عزيمة الطلق» التي تساعد المرأة على تسهيل ولادتها الصعبة[15]. وكان أحد الصوفية يحمل فصاً عليه نقش كأنه طلسم، وزعم أن النظر إلى هذا الفص يزيل غمّ الناظر إليه. وكان صوفي آخر يزوّد أصدقاءه بدعاء يجمع بين صديقين افترقا[16].

وانتشر بين البغداديين من الخاصة والعامة الإهتمام بالزراقين والمنجمين. وكان الخلفاء يقربون المنجمين ويضعونهم في قصورهم[17]. واهتم الموفق بالمنجمين، وقيل إنه استدعى أبا معشر ومنجماً آخر وامتحنهما في حمل بقرة، كما امتحنهما في تفاحة، وكان كل منهما يستخدم زيرباجه[18]. ولجأ المعتصم، حين قاد جند بغداد في خلافة عمه

---

(9) المصدر نفسه، ج 3، ص 28.

(10) يكتب الفاتحة بشكل مدور، ويكتب في وسطها الآية 40 من سورة النور.

(11) نشوار، ج 3 ص 29.

(12) المصدر نفسه، ص 91، وتقول كلمات التعويذة «باسم الله لومر سر لومر بهل بتي تنبه كرورابا كرورابا ابتهج ابتهج بهشترم بهوداله مهراشترم لوته قرقره سفاهه»، هذه الكلمات في النشوار، ج 3، ص 200 ـ 201، بكلمات مختلفة.

(13) المصدر نفسه، ج 3، ص 202.

(14) المصدر نفسه، ج 2، ص 94.

(15) مقامات الحريري، ج 240، ص 94.

(16) نشوار، ج 3، ص 198، 199، المنتظم، ج 6 ص 305.

(17) النظر، الفهرست، ص 394، 396، 397، 398، ، 400.

(18) نشوار، ج 2، ص 327، 328، والزيرباجة أصلها فارسية: زيركاه، وهي شبكة مربعة تشتمل على مئة بيت يرسم في كل منها حرف مفرد، وللمنجمين فيها أعمال يزعمون أنهم يستدلون بها على المغيبات، أنظر، ادي شير، ص 82.

إبراهيم بن المهدي، إلى منجم كان يجلس على رحبة الجسر ببغداد ليطمئن إلى مستقبله. وضم أبو يوسف البريدي إلى خدمته المنجم أبا القاسم غلام زحل[19] وانتقل هذا إلى خدمة عضد الدولة البويهي[20].

وادعى أحد الزراقين أن أكثر معامليه من النساء[21]. وتنبأ ثلاثة من الأعراب وهم يمرون قرب دار قاضي بغداد بوفاته بعد ثلاثة أيام، وبأنه سيدفن في داره، واهتم إسماعيل بن بلبل بالبحث عن عائف ينبئه عن علاقته مع صاعد بن مخلد، فأخبره العائف بأنه سيطاح بصاعد وأنه سيتولى الوزارة للموفق[22].

التقاليد المدفنية

ظهرت في بغداد خلال القرنين الثالث والرابع تقاليد جنائزية خاصة. كان الرجال يجلسون لقبول التعازي فيها كانت النساء تحيط بالميت[23] يندبنه ويلطمن حوله[24]. وكانت النائحات يجلسن مع أهل الميت من النساء ينحن بأناشيد خاصة. وقال الجاحظ إن النائحات مستأجرات ينتحلن الحزن وهن خاليات[25]. وكانت النساء تشيع الجنازة إلى المقبرة حيث يلطمن أيضاً، وكانت ترافقهن النائحات، فقد ذكر أن «سكينة نائحة الرافضة» المشهورة رافقت جنازة ابن الجعابي سنة 355هـ[26] واشتهر من النائحات خلب التي وصفت بأنها مجيدة وكانت بطلة النوح على الحسين في مناسبة عاشوراء قبل سنة 334هـ. وقيل إن البربهاري أمر أنصاره من الحنابلة بمطاردتها وقتلها[27]، واشتهرت في القرن الرابع أيضاً حبابة التي كانت تغني وتنوح في الكرخ، وقد تهالك الناس على غنائها ونوحها بالعراق، واشتراها خراساني من أهل الشاش بثلاثين ألف درهم عزية، وخرج بها إلى المشرق حيث توفيت بعد سنة. واشتهرت أخت لها كانت تدعى صبابة، وكانت

---

(19) نشوار، ج 7، ص 204 ـ 213.
(20) القفطي، أخبار الحكماء، ص 224.
(21) الفرج، ج 2، ص 325.
(22) نشوار، ج 2، ص 319 ـ 320.
(23) المصدر نفسه، ج 5، ص 130.
(24) الأغاني، ج 7، ص 38، ط. الهيئة العامة، ج 20، ص 68.
(25) رسائل الجاحظ، ج 2، ص 252.
(26) المنتظم، ج 7، ص 38، 289، تاريخ بغداد، ج 3، ص 31.
(27) نشوار، ج 2، ص 233.

تفوق أختها في الحسن والجمال، إلا أنها دونها في الصنعة والحذق، وكانت حديث البغداديين[28].

وشارك الرجال في النوح، واشتهر منهم ابن أصدق الذي كان ينوح في ذكرى عاشوراء[29].

وانتشرت عادة بناء القبة فوق الضريح[30]، ولاحظ المقدسي في القرن الرابع أن قبور نساء بغداد كانت تقام عليها القباب العالية[31]. إلا أن قبور الفقراء لم تكن على مثل هذا الترف، فكانت بسيطة ومبنية باللبن[32].

وكانت الجنائز تشيع بأناشيد خاصة، فعند تشييع أحمد بن حنبل كان زعماء الحنابلة يصرخون بين الفينة والأخرى[33]:

وأظلمت الدنيا لفقد محمد وأظلمت الدنيا لفقد ابن حنبل

وأوصى أبو طالب المكي (ت 386هـ) أحد أصدقائه بأن ينثر على جنازته السكر واللوز وأن يقول: «هذا للحاذق»[34]. وعند تشييع الخطيب البغدادي سنة 463 هـ كان جماعة ينادون «هذا الذي كان يذب عن رسول الله، هذا الذي كان ينفي الكذب عن رسول الله، هذا الذي كان يحفظ حديث رسول الله»[35].

ويبدو أن النساء كانت لهن مراسم معينة في الحداد، فقد ذكر الوشاء أن اللون الأزرق والحداد هو للأرامل والمقرعات[36]. وعند إيقاع أبي طاهر الجنابي بالحاج سنة 311هـ خرجت نساء بغداد حافيات منشرات الشعور مسودات الوجوه، يلطمن ويصرخن في الشوارع[37]. وعند وفاة القائم سنة 467هـ أغلقت الأسواق وعلقت المسوح وفرشت البواري مقلوبة، وتردد النواحون في الطرقات ينوحون، ولطم نساء

(28) حكاية أبي القاسم، ص 83، 84.
(29) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 230.
(30) المصدر نفسه، ج 5، ص 122.
(31) أحسن التقاسيم، ص 129.
(32) المنتظم، ج 7، ص 56.
(33) مروج الذهب، ج 2، ص 44.
(34) المنتظم، ج 7، ص 190.
(35) السبكي، طبقات الشافعية، ج 3، ص 15.
(36) الظرف والظرفاء، ص 249.
(37) العيون والحدائق، ج 4، ص 223 ـ 224.

الهاشميين ليلاً[38]. وفي سنة 403هـ توفيت بنت أبي نوح زوجة نصر بن إسرائيل كاتب المناصح أبي الهيجاء، فأخرجت جنازتها ومعها النوائح والطبول والزمور والصلبان والشموع[39].

---

(38) المنتظم، ج 8، ص 295.
(39) المصدر نفسه، ج 7، ص 262.

ثالثاً: المناسبات والأعياد

1 ـ المناسبات الإسلامية:

يوم الجمعة: وهو يوم الراحة الأسبوعية[1]. ونظراً لاكتساب صلاة الجمعة أهمية خاصة[2]، فقد كان المسلمون يحافظون على طهارتهم في هذا اليوم بدخولهم الحمامات. وارتدائهم الثياب الجميلة[3].

وذكر الخطيب البغدادي أن صفوف المصلين في القرن الثالث كانت تمتد من جامع المنصور إلى باب خراسان على دجلة والصلاة قائمة بمكبرين يتلون التكبير عند الركوع والسجود والنهوض والقعود، وقد يضطر المصلون إلى الصلاة في سميرياتهم لكثرة الإزدحام. وفي القرن الرابع كان المصلون في جامع الرصافة يقفون على مسافة توازي المسافة السابقة[4]. ووصف المقدسي صلاة الجمعة في بغداد بأنه يوم مشهود[5].

ونظراً للأهمية الاجتماعية لصلاة الجمعة وعلاقة مراسم الخطبة بالسلطة، كان الخلفاء يقلدون إمامة مساجد بغداد للرجال المقربين. وفي سنة 361هـ كان الحسن بن عبد العزيز الهاشمي إماماً لجامع الرصافة، وابنه أبو بكر إماماً في جامع دار الخلافة، وابنه عثمان إماماً في جامع المنصور[6].

وكان إعلان مواعيد الصلوات يتم بقرع الطبول بدار الخليفة، وفي عهد تراجع سلطة الخليفة تمكن معز الدولة من الحصول على الإذن بأن تضرب الطبول أمام داره في الغداة والعشائين، ثم أقر الأمر في عهد عضد الدولة[7].

وكان في دار الخلافة دار خاصة عرفت بدار الطبل، آهلة بالمنكمين عامرة بالساعات لإدراك وقت الأذان، فإذا دخل وقت الصلاة ضربت النوبة في جميع الأوقات[8].

---

(1) نشوار المحاضرة، ج 8، ص 269.
(2) سورة الجمعة، آية رقم 9، أنظر أيضاً، المكي، قوت القلوب، ج 1، ص 60، 61.
(3) الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 33، المنتظم، ج 7، ص 56.
(4) تاريخ بغداد، ج 1، ص 48 ـ 49.
(5) أحسن التقاسيم، ص 183.
(6) المفوات النادرة، ص 329.
(7) الصابي، رسوم دار الخلافة، ص 136 ـ 137.
(8) ابن الكازروني، مقامة في قواعد بغداد، (بغداد، 1962)، ص 18.

على أنه كان للبغداديين في يوم الجمعة أوقات يقضونها في غير الصلاة. فقد كان الشعراء يجتمعون كل جمعة في القبة المعروفة بهم (قبة الشعراء) من جامع المدينة (جامع المنصور) فيتناشدون الشعر، ويعرض كل واحد منهم على أصحابه ما أحدث من القول بعد مفارقتهم في الجمعة التي قبلها، وكان يحضرها دعبل وأبي الشيص وابن أبي فنن وأبو تمام، والناس يستمعون إنشادهم. وكان من رواد هذه القبة في القرن الرابع أبو بكر الشبلي[9].

ومن البغداديين من كان يدخل بساتين الكرخ ويحمل زاده معه، حتى إذا حانت صلاة الجمعة اغتسل ومضى إلى المسجد. وكان البعض يقضون أوقاتهم في زيارة أصدقائهم، وكانت معظم العائلات تجعل راحتها في دورها، مما يجعل من الضروروي إعداد الولائم التي تستلزم كمية أكبر من اللحوم، لذا فإن القصابين كانوا يعملون قبل ظهر يوم الجمعة ليتمكنوا من تلبية رغبات زبائنهم[10].

رمضان وعيد الفطر: فرض الله على المسلمين صيام شهر رمضان، التاسع من التقويم الهجري، وهو الشهر الذي أنزل فيه القرآن[11]. وكان المسملون يمارسون شعائر خاصة بهذا الشهر، وربما انقطعوا عن الممارسات العادية في حياتهم اليومية، لينصرفوا إلي المسجد الذي يصبح مكانهم الرئيسي، يقيمون فيه صلاة التراويح[12].

واعتقدوا أن أبواب الجنان تفتح كلها فلا يغلق منها باب واحد في الشهر كله، وتغلق أبواب النار فلا يفتح منها باب واحد في الشهر كله، وينادي مناد في السماء إلى عمل الخير وإلى الامتناع عن الشر، وأنه يغفر فيه للمستغفر وتقبل توبة التائب، وتستجاب دعوة الداعي، ولله عند وقت كل ليلة فطر من رمضان عتقاء يعتقهم من النار[13].

وكان للبغداديين فيه عادات يمارسونها. ففي أول الشهر تفتح دور المضيف للعوام والفقراء والأيتام، فلا يبقى من لا يشمله إلا مقام ويحصل له القوت في الصيام، وأطايب الطعام تصل إلى الفقير والسائل، وإذا بقي من الشهر أربع ليال خلع مخزن الخلافة

---

(9) تاريخ بغداد، ج 8، ص 249، ج 12، ص 95، 96.

(10) الجاحظ، البخلاء، ص 24 ـ 25، 111، 133.

(11) سورة البقرة، آية 183، 185.

(12) أنظر، CRUNEBAUM, Mohammadan festivals, PP. 54- 56.

(13) تاريخ بغداد، ج 1، ص 284.

الهدايا على كبار رجال الدولة، ثم يصار إلى التوسع حتى ينال الخاص والعام[14]. وكانت الشوارع تضاء طوال الشهر. وأوصى المأمون بالاستكثار من القناديل في شهر رمضان، لأن فيها أنساً للسابلة وضياء للمجتهدين[15]. ووصف ابن الكازروني ليالي رمضان البغدادية فقال إن ليالي الصيام مشرقة بالمصابيح والمساجد منيرة بالصلوات والتراويح، أما العوام فكانوا ينكبون على الملاذ والغناء والفرح إلى منتهى العشاء، ثم ترفع قناديل التسحير[16]. وكانت دار الخلافة تضاء بالأنوار ويتعالى منها التكبير[17].

وكان الناس يتبادلون التهاني بحلول الشهر[18]، ويخرجون من أموالهم صدقات ويقيمون المآدب، وقيل إن الصاحب بن عباد كانت تبلغ نفقاته في هذا الشهر جميع ما يطلق منها في جميع شهور السنة[19].

وكان الناس يهيئون للعيد النفقات الضرورية لعائلاتهم[20] وكانوا يحتفلون برؤية هلال شوال، وهي من المناسبات التي تسر لها النفوس، حيث تقرع الطبول احتفالاً بليلة العيد[21].

وفي أول أيام العيد يخرج الناس إلى المصلى في باب الشماسية، حيث يؤدي الخليفة والوزير وكبار رجال الدولة صلاة العيد. ووصف لنا هلال الصابي هذه المناسبة في عهد المقتدر إذ يخرج الوزير إلى المصلى ومنه يتوجه إلى دار الخليفة، ويخرج نازوك صاحب الشرطة في خمسمائة فراش يحملون الشموع المواكبية الضخمة، سوى غيرهم من أصحاب النفط، وهم عدد أكثر[22]، ويجري استعراض الجند. ويخرج الناس لرؤية الموكب والعساكر[23]، ثم ينصرف الخليفة إلى القصر فيجلس لتقبل التهاني، وبعدها توضع المآدب وتوزع الهدايا[24]، فيما ينصرف العامة لتبادل زيارات التهاني بالعيد، ، وقد لبسوا

---

(14) مقامة في قواعد بغداد، ص 25، 26.
(15) الثعالبي، خاص الخاص، ص 8.
(16) مقامة في قواعد بغداد، ص 25.
(17) الأغاني، ج 6، ص 78.
(18) معجم الأدباء، ج 3، ص 197، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 197.
(19) يتيمة الدهر، ج 3، ص 36.
(20) تاريخ بغداد، ج 14، ص 284.
(21) الثعالبي، ثمار القلوب، ص 648، المنتظم، ج 10، ص 58.
(22) رسوم دار الخلافة، ص 9 ـ 11.
(23) المنتظم، ج 10، ص 35، 157، ابن الكازروني، ص 26.
(24) ثمار القلوب، ص 187، معجم الأدباء، ج 5 ص67.

ثياباً جديدة لهذه المناسبة[25].

الحج: اعتبر ابن الكازروني موسم الحج أعظم مناسبات بغداد، يهرع فيه الناس إلى الفرجة ما بين فتى وفتاة، وشاب قد فتن بحسن فتاة، يرتعون في رياض الجانب الغربي ما بين ماش أو ممتط صهوة عربي. وتدوم هذه المظاهر عدة أيام نظراً لقدوم مجموعات جديدة من الحجاج، فيخرج البغداديون للترحيب بهم[26]. ومعظم هؤلاء الحجاج من مناطق خراسان الذين ينزلون في بغداد ويجعلونها محطة لهم[27]. ويجتمع الحجاج في باب الكناسة ويهرع إليهم الناس مودعين، بعضهم يؤذن فيهم بين محامل متزاحم[28] ومواكب تضم حامل الأعلام وطبول تقرع، وقراء يقرءون ودعاة يدعون[29].

وكان في عودة الحجاج إلى بغداد مناسبة أخرى للاحتفال، إذ يخرج المتفرجون والمستقبلون يتلقونهم بالزينة ويضربون لهم القباب[30]. وفي سنة 319هـ وصل الحاج إلى بغداد، فخرج أهلها إلى استقبالهم، وأظهروا الفرح والسرور، ونشروا الزينة في الأسواق، وأخرجوا الثياب والحلي والجواهر ونصبت القباب في الشوارع[31]، وربما خرج الخلفاء لاستقبال الحجاج الخراسانية[32].

ويترأس بعثة الحج عادة الخلفاء أو أولياء العهد أو الأمراء العباسيون، فقد مات المنصور محرماً، وحج الرشيد تسع مرات[33]؛ ولكن ولاية الحج صارت منذ العهد البويهي توكل إلى أحد العلويين. وتوكل إلى والي الحج مهمة حفظ الحجاج ومساعدتهم. ومنذ أن ظهرت صعوبات تأمين الخدمات للحجاج أو صعوبة تأمين حمايتهم، أخذ الخلفاء يعينون مساعداً لرئيس البعثة، ويسمى عادة والي الأحداث أو والي أعمال الموسم[34]. وأهم المخاطر التي كان يتعرض لها الحاج هي غارات الأعراب والقرامطة.

---

(25) المنتظم جـ 26 ص 329.

(26) مقامة في قواعد بغداد، ص 24.

(27) أنظر، المنتظم، ج 6، ص 2، ج 7، ص 263، 576.

(28) الأغاني، ط. الهيئة العامة، ج 18، ص 345.

(29) مقامة في قواعد بغداد، ص 24.

(30) المصدر نفسه، ص 25، المنتظم، ج 6، ص 236، أيضاً، الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص 41.

(31) عريب، صلة الطبري، ط. المعارف، ص 135.

(32) المنتظم، ج 6، ص 2، ج 7، ص 215.

(33) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 116، 125.

(34) الطبري، ج 9، ص 140، 150، 198، 206، 221، 612.

ففي سنة 266هـ هجم الأعراب على كسوة الكعبة وانتهبوها، وقطعوا طريق قافلة الحجاج سنة 269هـ وساقوا نحواً من خمسة آلاف بعير مع أموالها، وفي سنة 285هـ خرج الأعراب بالأجفر على الحجاج وانتهبوهم. وفي سنة 289هـ تعرض القرامطة لطريق الحج فقطعوها، وكان أعظم ما لحق الحجاج ما جرى سنة 311هـ حين هاجمهم أبو طاهر القرمطي ونهبهم وسبى بعضهم ومات أكثرهم عطشاً وجوعاً[35]. وفي عهد المقتدر بطل الحج بسبب استمرار القرامطة بالإغارة على قوافلهم، خاصة بعد أن أغاروا على مكة واقتلعوا الحجر الأسود، ولم يستأنف إلّا في سنة 327هـ بعد أن تم اتفاق في عهد الراضي مع القرامطة على خفارة الحج، فكان يطلق عن الجمل خمسة دنانير وعن المحمل سبعة[36]. وكان مبلغ ما دفعته الدولة على بذرقة الحج سنة 328هـ خمسين ألف دينار[37]، وفي مطلع القرن الخامس عادت الاضطرابات وبطل الحج من العراق، فتوقف فيها الحجاج الخراسانيون 402هـ لفساد الطريق. وفي سنة 406هـ هلك الحجاج بسبب المياه وفسادها، فوصل إلى بغداد ستة آلاف من أصل عشرين ألفاً، وذكر ابن الجوزي أن الحج تأخر واضطرب لأن السلطة في بغداد لم تتفق مع الأعراب على تأمين الحجاج[38].

ويثير موسم الحج موجة من النشاط غير العادي، فكان التجار الخراسانيون يتخذون من بغداد نقطة تجارية هامة، يحملون بضائع المشرق إلى بغداد، ويحملون البضائع البغدادية إلى الحجاز[39]، كما أن التجار البغداديون يرافقون قوافل الحج إلى مكة والمدينة[40]. وذكر المقدسي أن الحجاج يدفعون مكساً في بغداد عند عودتهم من الحاج، للمحمل ستين درهماً[41]. وربما اغتنم الخليفة الفرصة ليتلو على التجار الشرقيين أوامره الإدارية، فقد تلا المعتضد على مسامع حاج خراسان (285هـ) أمره بتولية عمرو بن الليث الصفار ما وراء نهر بلخ وعزل الساماني. وفي سنة 391هـ جلس القادر للحجاج وأعلمهم أنه قد جعل ولاية العهد لابنه أبي الفضل[42].

---

(35) المنتظم، ج 5، ص 56، 65، 33؛ ج 6، ص 2، 33، 188.
(36) العيون والحدائق، ج 6، ص 257، المنتظم، ج 9، ص 296.
(37) المنتظم، ج 6، ص 300ـ 296301.
(38) المصدر نفسه، ج 7، ص 262 ـ 263، 276.
(39) الصابي، تاريخ، ذيل مسكويه، ج 4، ص 392.
(40) المنتظم، ج 6، ص 43.
(41) أحسن التقاسيم، ص 134.
(42) المنتظم، ج 6، ص 2، ج 7، ص 215.

وتنتهي مناسك الحج في ليل التاسع من ذي الحجة بالوقوف على عرفة، وفي صبيحة اليوم العاشر يقدم الحاج الأضاحي ويبدأ العيد[43].

وقد حرص البغداديون على اختلاف طبقاتهم على نحر الأضاحي. فالخليفة ينحر على باب داره، وكذلك أهل بلده فيمتار الفقراء ويؤجر الأغنياء[44]. وكان المقتدر يفرق يوم عرفة من الإبل والبقر أربعين ألف رأس، ومن الغنم خمسين ألفاً[45]. وذكر ابن الجوزي، أن هذا الخليفة وزع في يوم التروية[46] ويوم عرفة من البقر والغنم ثلاثين ألف رأس، ومن الإبل ألفي رأس[47] وورد في لائحة علي بن عيسى ما يفيد أن نفقات المقتدر كانت تضم مخصصات مالية للأضاحي[48]. وكان الناس يوزعون الأضاحي ويتهادونها[49]، وكانوا جميعاً حريصين على لحوم الأضاحي حتى لم يكن يخلو منها دار يوم العيد، حتى الفقراء منهم[50].

وكان الناس يرتدون الثياب الجديدة في العيد[51]. وكانت بغداد ترتدي حلة زاهية، وتسير فيها المواكب، يحمل رجالها الأعلام، وينفخون بالبوقات، ويتخذون المحامل[52].

موسم الترب: يتحدث ابن الكازروني عن موسم الترب (مفردها تربة)، وفيه يركب الوزير في موكب مشهّر إلى الرصافة، حيث يدفن ولاة الخلافة، ويقرأ الناس هناك ويدعون، وفي الليل يجتمع المتصوفة والفقهاء ويقرأ القراء، وفي الصباح توزع الحلوى وأطايب الطعام والغذاء، ما يستغرق حد الإكثار ويعم ذوي الإقتار[53].

عاشوراء: في سنة 352هـ أمر معز الدولة الناس بإقامة ذكرى عاشوراء، وأن

---

(43) البيروني، الآثار الباقية، ص 334

(44) مقامة في قواعد بغداد، ص 26.

(45) النجوم الزاهرة، ج 3، ص 234.

(46) الثامن من ذي الحجة، أنظر، الآثار الباقية، ص 334.

(47) المنتظم، ج 6، عص 68، 69.

(48) رسوم دار الخلافة، ص 24.

(49) أنظر، المفوات النادرة، ص 222، معجم الأدباء، ج 5، ص326.

(50) ابن الفقيه، بغداد، ص 102، الخطيب، تاريخ بغداد، ج 7، ص 75، البخلاء، ص 107.

(51) المفوات النادرة، ص 69. مقامات الحريري، ص 61.

(52) رسوم دار الخلافة، ص 24، مقامة في قواعد بغداد، ص 24، وانظر، فن الواسطي، وجه الورقة ج1.

(53) مقامة في قواعد بغداد، ص 26.

يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء، وأن يظهروا النياحة، ويلبسوا قباباً عملوها بالمسوح، وأن يخرج النساء منشورات الشعور، مسودات الوجوه، وقد شققن ثيابهن، يدرن في البلد بالنوائح، ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي[54]. وكان من تقاليدهم زيارة كربلاء، لذا كره فيه العامة تجديد الأواني والأثاث. ويذكر البيروني أن الزهاد من الشيعة كانوا يصلون في اليوم التاسع من محرم وسموه تاسوعاء[55].

وفي 18 ذي الحجة سنة 352هـ أمر معز الدولة بإظهار الزينة في بغداد وأظهر الفرح وفتحت الأسواق بالليل وذلك فرحاً بعيد الغدير[56]، وضربت الدبادب والبوقات، وكان يوماً مشهوداً، وجرت عادة الشيعة في الكرخ وباب الطاق بنصب القباب وتعليق الثياب وإظهار الزينة في هذا اليوم، وإشعال النار في ليلته، ونحر جمل في صبيحته[57] وزيارة مقابر قريش والكاظمين[58]. ودفع هذا الموقف أهل السنة في بغداد إلى أن ادعوا أن اليوم الثامن من يوم الغدير (26 ذي الحجة) هو الذي حصل فيه النبي في الغار وأبو بكر معه، ففعلوا كما فعل الشيعة في يوم الغدير، كما جعل السنة بإزاء عاشوراء يوماً بعده بثمانية أيام نسبة إلى مقتل مصعب بن الزبير، وزاروا قبره بمسكن، كما يزار قبر الحسين[59].

2 ـ المناسبات النصرانية والفارسية

استمر النصارى يمارسون أعيادهم الدينية بحرية، وشارك المسلمون البغداديون في هذه الأعياد، قاصدين التنزه واللهو في مناطق أديرة بغداد المخضرة، ملتمسين خمورها المشهورة[60]. حتى يمكننا القول بحق إن أعياد النصارى كانت للبغداديين كافة.

كانت معظم هذه الأعياد تقام في الأديرة، وذكر الشابشتي «أن أعياد النصارى

---

(54) ابن الأثير، ج 7، ص 7.

(55) البيروني، **الآثار الباقية**، ص 329. ويذكر أيضاً أن العاشر من محرم كان من الأيام التي يسارع فيها الناس إلى الخيرات منذ عهد النبي. حتى اتفق فيه قتل الحسين بن علي.

(56) ابن الأثير، ج 7، ص 7 ـ 8، وغدير خم على مرحلة من مكة نزل بها النبي عند منصرفه من حجة الوداع وجمع القتب والرحال وعلاها آخذاً بعضد علي بن أبي طالب وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه...، البيروني، ص 334، **ثمار القلوب**، ص 636 ـ 637.

(57) **المنتظم**، ج 7، ص 206.

(58) ابن الأثير، ج 7، ص 8.

(59) **المنتظم**، ج 7، ص 206.

(60) أنظر، أبو الفرج الاصفهاني، أدب الغرباء، ص 34.

ببغداد مقسومة على ديارات معروفة ومنها: أعياد الصوم، وتقع هذه الأعياد في أربعة آحاد: الأحد الأول منه عيد دير العاصية، وهو على ميل من سمالو. والأحد الثاني عيد دير الزريقية، والأحد الثالث عيد دير الزندورد، ثم دير درمالس، وعيده أحسن عيد يجتمع إليه نصارى بغداد ويقصده اللاهون[61].

وكان عيد دير الثعالب يوماً مشهوداً في بغداد، لا يتخلى عنه أحد من نصارى ومسلمين، وكان موعده في آخر سبت من شهر أيلول[62].

ويقع عيد دير أشموني في الثالث من تشرين الأول، وهو من الأيام البغدادية المشهورة، حتى يجتمع أهلها إليه كاجتماعهم إلى بعض أعيادهم، ويخرج الناس إليه بالطيارات والزبازب والسميريات، كل إنسان بحسب قدرته، ويتنافسون فيما يظهرونه هنالك من زيهم، ويباهون بما يعدونه لقصفهم، ويعمرون شطه وأكتافه وديره وحاناته[63].

ومن أعياد النصارى، عيد الفصح، الذي كانت احتفالاته تتم في دير سمالو، فلا يبقى نصراني إلاّ حضره وتقرب فيه، ولا أحد من أهل الطرب واللهو من المسلمين إلاّ قصده للتنزه فيه[64]. وكان الاحتفال بعيد الشعانين من المناسبات التي يخرج فيها البغداديون من أهل الظرف واللعب بالنبيذ والطعام والقيان، فيرون النصارى ويشربون ويتفرجون[65]. وقد ترك لنا أبو الفرج الإصبهاني صورة لاحتفال الجواري الروميات بعيد الشعانين في قصر المأمون. فكان عشرون منهن مزنرات، وقد تزينَّ بالديباج وعلّقن في أعناقهن صلبان الذهب، في أيديهن الخوص والزيتون[66]. وكان نصارى بغداد يحتفلون بليلة الميلاد ويسهرون فيها[67]، وكان من عاداتهم فيها إشعال النيران واللعب بالجوز[68].

---

(61) **الديارات**، ص 3 ـ 4.

(62) المصدر نفسه، ص 24، البيروني، **الآثار الباقية**، ص 310.

(63) **الديارات**، ص 46.

(64) المصدر نفسه، ص 14.

(65) ابن العبري، ص 239، 240. أيضاً، **نشوار المحاضرة**، ج 5، ص 281.

(66) **الأغاني**، ط. بولاق، ج 19، ص 138، ط. الهيئة العامة، ج 22، ص 213 ـ 214.

(67) **ثمار القلوب**، ص 633 ـ 634.

(68) **المنتظم**، ج 8، ص 96، آدم متز، ج 2، ص 281.

واحتفلوا بعيد رأس السنة في أول كانون الثاني ويسمونه القلنداس[69].
ويبدو أن الخليفة كان يشارك في هذا العيد، إذ ورد في لائحة نفقات القصر التي أعدها علي بن عيسى سنة 306هـ ما يدل على هذه المشاركة[70]. وكان صبيان النصارى يجتمعون ويطوفون في بيوتهم ويخرجون من دار إلى أخرى ويغنون: قالندس قالندس بصوت عال ولحن، فيطعمون في كل دار ويسقون أقداحاً من الشراب[71]. ولعل البيروني كان يتحدث عن أعياد الملكيين.

الأعياد الفارسية: أما أعياد الفرس فقد انتشرت بين البغداديين ومارسوها بطقوسها، وكانوا يحتلفون بعيد النيروز أو النوروز وهو رأس السنة الشمسية عند الفرس وأول شهر فروردين ماه[72]. فكان الخلفاء يحتفلون به ويتقبلون الهدايا على طريقة ملوك الفرس. وقيل: إن أول ما احتفل به في عهد العباسيين كان في أيام المأمون، إذ افتتح الهدية فيه أحمد بن يوسف الكاتب، فإنه أهدى الخليفة سفط ذهب فيه قطعة عود هندي في طوله وعرضه وكتب معه: «هذا يوم جرت فيه العادة بإتحاف العبيد السادة[73]».
وكان الخليفة المتوكل يجلس إلى الظهر فيتقبل الهدايا، ثم يعيد توزيعها على خلصائه، ومن هذه الهدايا تماثيل من العنبر[74]. كما كان المتوكل يحتفل بيوم النيروز وبين يديه أهل السماجات وعلى وجوههم أقنعة تغير أشكالهم، فيما الخليفة يضحك منهم وينثر عليهم الدراهم[75]. وكان الإحتفال يرافقه تناول الخمور حتى لو كان في شهر رمضان، ويستقبل الخليفة الشعراء بمدائحهم[76].

وكان من عادة العامة أن يرش بعضهم بعضاً بالماء يوم النيروز، حتى حرم المعتضد ذلك سنة 282هـ[77]. ويبدو أن المعتضد المتشدد أراد أن يغير من تقاليد هذا العيد، فكان تحديده ليوم النيروز في الحادي عشر من حزيران رأفة بالمزارعين، إلا أن العامة

---

(69) القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، بعناية فاروق سعد، (بيروت، 1973)، ص 116، أيضاً، الآثار الباقية، ص 292.

(70) رسوم دار الخلافة، ص 24.

(71) الآثار الباقية، ص 292.

(72) عجائب المخلوقات، ص 121.

(73) صبح الأعشى، ج 2، ص 420، معجم الأدباء، ج 2، ص 170.

(74) نشوار المحاضرة، ج 8، ص 246.

(75) الديارات، ص 40، 57.

(76) الأغاني، ط. الهيئة العامة، ج 19، ص 230.

(77) الطبري، ج 10، ص 39.

استمرت في الاحتفال بليلة النيروز بإشعال النيران ورش الماء وحثو التراب، والملاعب، حتى أصبح يسمى بالنيروز المعتضدي، مما اضطره إلى أن يأمر بمنع الاحتفالات بهذه الطريقة سنة 284هـ، ولكنه عاد من منعه بعد يومين، ففعلت العامة من ألعابها فجاوزا الحد، حتى صبوا الماء على أصحاب الشرطة[78].

ووصف التنوخي احتفال أم المقتدر بالنيروز المعتضدي، وقد استخدمت أقمشة نفيسة جعلتها مثل حب القطن وأشبعتها بدهن البلسان وغيره من الأدهان الطيبة، وأوقدت في المجامر الرام على رؤوس الحيطان، بدلاً من حب القطن والنفط والمجامر والطين، التي كان يستخدمها العامة[79].

وكانت ترافق احتفالات النيروز مظاهر فرح، يستخدم فيها العامة ألعاباً كبيرة تسمى الدوباركة، وهي على قدر الصبيان يجعلها البغداديون على سطوحهم في ليالي النيروز المعتضدي، ويلعبون بها ويخرجونها في زي حسن من فاخر الثياب والحلي، ويحملونها كما يفعل بالعرائس، وتخنق بين يديها الطبول والزمور، وتشعل النيران[80].

ويبدو أن النصارى في القرن الثالث لم يكونوا يشاركون في هذا العيد[81]، إلا أنهم أخذوا في القرن الرابع يحتفلون به ويجعلون في بيوتهم موائد عامرة تضم مختلف أنواع الفواكه من خوخ وبطيخ وتمر وغيرها[82].

بعد عيد النيروز بعدة شهور كان البغداديون يحتفلون بعيد فارسي الأصل أيضاً وهو عيد المهرجان، وكانت طقوس هذا العيد تمارس طوال شهر مهرماه، ويسمى اليوم السادس عشر من هذا الشهر مهروز أو يوم المهرجان[83].

وإذا كان النيروز يعلن دخول فصل الربيع، فإن المهرجان يعلن بدء الشتاء، وفيه يغير الناس أثاثهم وكثيراً من ملابسهم، استعداداً للبرد والشتاء[84]. وفي هذا العيد كان الناس يتبادلون الهدايا[85]. وكان أبو إسحاق الصابي محبوساً بأمر عضد الدولة في يوم

---

(78) المصدر نفسه، ص 53، البيروني، ص 266.

(79) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 293، 294.

(80) المصدر نفسه، ج 2، ص 232.

(81) المصدر نفسه، ج 8، ص 246.

(82) أنظر، AHSAN, M. M, **Social Life under the Abbasids,** . (New- york 1979) p. 289.

(83) البيروني، ص 222، المسعودي، مروج الذهب، ج 1، ص 436.

(84) البيروني، ص 223، صبح الأعشى، ج 2، ص 412. مروج، ج 1، ص 433.

(85) الذخائر والتحف، ص 28، 29، محاضرات الأدباء، ج 1، ص 424.

المهرجان، فأرسل إليه الصابي بقصيدة مرفقة بدرهمين خسروانيين وكتاب المسالك والممالك، وأرسل في مهرجان آخر بكتاب مع اصطرلاب[86].

وكانوا يحتفلون بعيد السذق أو السدق، وتفسيره المائة، لأنه يبقى مائة يوم على دخول السنة الجديدة من سنيهم، ويسمى أيضاً ليلة الوقود. وفي هذا العيد يوقدون نيراناً وينحرون قرابين لدفع مضرته ويشعلون البخور. ومن تقاليدهم فيه إرسال الوحوش في ليلته، وتطيير الطير في لهب النار، والشرب والتلهي حولها[87].

وترك لنا مسكويه وصفاً لاحتفال كبير أقامه مرداويج بإصبهان في ليلة وقود، وقد جمع لها الأحطاب من الجبال، وجمع النفاطين والزراقات[88]، ومن يحسن معالجتها واللعب بها، وصيدت له الغربان والحداء وعلق بمناقيرها وأرجلها الجوز المحشو مشاقة ونفطاً وعمل بمجلسه الخاص تماثيل من الشمع وأساطين ضخمة منه[89]. ونقل لنا ابن الجوزي صورة عن احتفال بغداد بالسدق في القرن الخامس[90]، وقد جرى الاحتفال بدجلة وأشعلت النيران والشموع الضخمة في السميريات والزوارق الكبار، وعلى كل زورق قبة كبيرة، وخرج أهل بغداد للفرجة فباتوا على الشواطيء، وزينت دجلة بإشعال النار، وأظهر أرباب المملكة من زينتهم ما قدروا عليه، وحملوا في السفن بأنواع الملاهي، وأخذوا السفن الكبار وجعلوا فيها الحطب، وأشعلوا فيها النيران، ونزل أهالي الجانب الغربي يحملون الشموع. وكان على سطح دار المملكة إلى دجلة حبال قد أحكم شدها، وفيها سميرية يصعد بها رجل في الحبال، ثم ينحدر بها وفيها نار.

وجرت العادة أن يحتفل البغداديون في أول يوم من آذار ماه، الشهر السادس من التقويم الفارسي، بيوم الكوسج[91]، ومن وصفه يبدو أنه يشبه الكرنفال. ويتناول الكوسج في هذا اليوم بعض الأدوية المسخنة ويطلى ببعض الأطلية الحارة، ويخرج راكباً

(86) يتيمة الدهر جـ 2، ص 280 ـ 281.

(87) **عجائب المخلوقات**، ص 125، البيروني، ص 226.

(88) الزراقات، مفردها زرّق وهو ذكر البازي، أنصر، كشاجم، **المصايد والمطارد**، ص 55، 73.

(89) **تجارب الأمم**، ج 1، ص 310، والحدأة، طائر يستخدم في الصيد، أنظر، **عجائب المخلوقات**، ص 444.

(90) **المنتظم**، ج 9، ص57.

(91) **نشوار**، ج 3، ص 114، ادي شير، ص 140، وهو الرجل الانط الناقص الأسنان والذي لم تنبت له لحية.

في شهرة خاصة من الثياب المضحكة للناس[92]. ويحمل الكوسج في يده مروحة يتروح بها ويقول: الحر الحر، والناس يتضاحكون. وكان يحمل أيضاً نقيع المغرة، وهو طين أحمر يلطخ به ثياب من لم يسمح له بشيء[93]. واعتبر الثعالبي أن احتفال الكوسج سنّة بغدادية، ينصرف فيها الناس إلى التنعم بمعايشهم[94].

---

(92) ثمار القلوب، ص 647.

(93) عجائب المخلوقات، ص 123.

(94) ثمار القلوب، ص 647.

رابعاً: الهوايات والتسلية

مارس البغداديون هوايات مختلفة معظمها موروث. من هذه الهوايات ما كان يمارس داخل البيوت، ومنها ما يمارس خارجها. ويهمنا هنا أن نقف عند بعض الهوايات التي مارستها العامة أو تلك التي كانت تشترك فيها مع الخاصة.

الشطرنج

وصفت هذه اللعبة بأنها لعبة قديمة جداً، وأنها تعلّم الحرب وتشحذ اللب وتدرب الإنسان على التفكير، وتعلمه شدة البصيرة[1].

مارس كبار رجال الدولة العباسية هذه الهواية[2]، ويبدو أنها كانت شائعة بين البغداديين ويمارسها العامة، ويتكسبون بها[3]، وكان الغلمان يلعبونها، كما اعتبرت من شروط التطفيل[4].

تطلبت هذه اللعبة من لاعبيها أوقات طويلة، حتى وصفت بأنها لعبة المتعطلين. ويأخذ اللاعبون أوضاعاً معينة في جلوسهم تؤمن لهم الراحة، وكان أحدهم يبرك على الأرض ويتكيء على ذراعه كالنائم[5].

ويرافق ذلك ما يتنادرون به في لعبهم ويتكايدون، واعتبروا ذلك عدة للاعب، وقيل: إن المأمون دعا كبار رجاله ليلاعبهم فكانوا يتوقرون بين يديه فقال لهم: «الشطرنج لا يطلب مع الهيبة، قولوا ما تقولون إذا خلوتم»[6]. لذا فإن جميع الروايات التي بين أيدينا حول الشطرنج، تحكي تغايظ اللاعبين. وربما كان هذا التغايظ يعطي اللعبة نوعاً من الحماسة لمتابعتها، نظراً للوقت الطويل الذي تستغرقه، والذي يؤدي إلى سهو اللاعبين[7]. وكان من أهداف التكايد إغفال الند عن لعبة يوشك أن يلعبها، فيلجأ الند إلى إثارته حتى يسهو عنها[8]. وربما أدى التغايظ بين الشطرنجيين إلى التشاتم

(1) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 271.

(2) محاضرات الأدباء، ج 1، ص 722.

(3) المصدر نفسه، ص 726، أيضاً، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 312، أيضاً، الحيوان، ج 4، ص 147.

(4) نشوار، ج 2، ص 270، مروج الذهب، ج 2، ص 465.

(5) محاضرات الأدباء ج 1، ص 726، نشوار المحاضرة، ج 2، ص 270، 271.

(6) محاضرات الأدباء، ج 1، ص 724.

(7) الهفوات النادرة، ص 57.

(8) حكاية أبي القاسم، ص 95.

وسب الحاضرين، وربما عبر الشطرنجي عما في قرارة نفسه من مواقف تجاه نده. وكانوا يلجأون في التكايد إلى أساليب تستفز الند، فيصف أحدهم نفسه بأبي الهول ونده بأبي الفزع، أو يصف نفسه بالصيدلاني وخصمه ببزر القطن، وكانوا يستخدمون مصطلحات خاصة، منها «تي» و«بس» وشاهك وسر كلاهك، وأطيل حزنك فاهلك. وقد يوهم اللاعب نده بأنه يكاد يقع في فخ، ويتحدى المتفرجين ويستفزهم ويعتذر لمنظم السهرة[9].

وربما تدخل المتفرجون فيوجهون اللاعبين، وربما أسهموا في مكايدة الشطرنجيين، فكان أحد المتفرجين يعبيء في ظهر أحد اللاعبين عدة مخدات فلا يشعر بها، فإذا انقضى الدست أحس اللاعب فنحاها عن ظهره وشتمهم[10]، وكان أبو عمر الصيرفي يسهو في لعبه حتى يجعل على رقبته وظهره الشيء الكثير والثقيل ولا ينتبه له[11].

وأخيراً يبدو لنا مدى انتشار اللعبة وولع الناس بها من النوادر التي رويت عن رجال يحتضرون. فقد أوصى أحدهم ابناً له: احذر يا ولدي جانب الرخ، واخش وثوب الفرس، واتق نزوات الفيل[12]. وقيل لآخر وهو يحتضر: قل: لا إله إلا الله، فقال: شاهك، ودع الرخ[13].

النرد: النرد من الألعاب الشائعة، فكان من ملاهي العامة والخاصة التي يمضون بها أوقات فراغهم، يعبثون بها ويلهون ويقامرون. وكان البوابون والطفيليون يتقنون اللعبة[14]. وكان السجناء يلعبونها داخل سجونهم[15].

وهذه اللعبة تثير طباع لاعبيها، نظراً لتحكم الفصين في تحديد اللعبة، إلا أن اللاعب محتاج إلى أن يكون صحيح النقل وسابقه، صحيح الحساب، حسن الترتيب وجيده. لذلك اعتبرت هذه اللعبة ذات نتيجة سلبية في شحذ الذهن، وأنها جعلت مثلاً

---

(9) انظر، المفوات النادرة، ص 57، 58، 59، 145، 305، حكاية أبي القاسم، ص 94 ـ 96.

(10) حكاية، المكان نفسه، المفوات، المكان نفسه، نشوار، ج 2، ص 270.

(11) المفوات، ص 66.

(12) حكاية أبي القاسم، ص 98.

(13) نشوار، ج 2، ص 271.

(14) المفوات النادرة، ص 231، 234، أيضاً، الديارات، ص 11، 173، والمحموحي، ج 2،، ص 464 ـ 465.

(15) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 216.

للمكاسب التي لا تنال بالكياسة والحيل[16].

واتفق على أن النرد وسيلة للتسلية والعبث والمقامرة والتكايد. فقد ذكر أن أحدهم غلب رسيله (نده) وكان شرطهما أن يتصافعا[17]، وغلب آخر رسيله وطلب إليه وهو يغيظه أن يصلي على النبي حتى لا تصيب غلبته العين، وكان آخر يكفر ويعرّض بأن غلبه كان من فعل الله، فامتنع رسيله أن يلاعبه، وشرط عليه أن لا يكفر، فعاد وغلبه دفعات، فما كان من المغلوب إلاّ أن استشاط غضباً وقال: يا هذا، لست أنقض الشرط، ولكن أليس هذا قصد قبيح منك؟[18]. وذكر أن جحظة البرمكي استضاف رجلاً جائعاً التهم جميع ما قدمه إليه جحظة من طعام ثم لعبا بالنرد، فغلب جحظة عدة مرات، حتى كانت الفصوص تجيء على ما يريد الرجل من الأعداد. فما كان من جحظة إلا أن أخرج رأسه من قبة الخيش إلى السماء، وكأنه يخاطب الله عزَّ وجلّ وقال: لعمري، إني أستحق هذا، لأني أشبعتُ من أجعته[19].

الشاذكلي

هي، إحدى المناسبات التي يشارك فيها البغداديون. ولم تترك لنا المصادر إلاّ النادر من أخبار هذه الهواية، مما يوحي بأنها كانت مقصورة على الأغنياء ويشارك فيها العامة. ولدينا رواية الشابشتي[20]، التي يطلب فيها المتوكل أن يعمل شاذكلاه، فأخبر بأنه لا يكون إلاّ بالورد، فأمر الخليفة أن يضرب له خمسة ملايين درهم صغار وأن تصبغ بالحمرة والصفرة والسواد، واغتنم يوماً تحركت الريح وأخذ بنثرها وسط حضور كبير.

والخبر الثاني عن أبي القاسم البريدي، فإنه شرب على ورد بعشرين ألف درهم على رخصه في البصرة، وطرح فيهم الكثير من قطع الند والكافور والتماثيل ولعب به شاذكلي[21].

السماجة والتمثيل

ومن الحياة الهزلية كان أصحاب السماجة يهزلون ليضحكوا الناس. فقد كان

---

(16) المسعودي، ج 2،، ص 565، 566.
(17) الهفوات، ص 231.
(18) نشوار، ج 2، ص 272.
(19) المصدر نفسه، ج 2، ص 292.
(20) الديارات، ص 160.
(21) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 304.

المتوكل يحتفل بالنيروز والسماجة بين يديه، ويجذبون ثيابه ويضحك منهم، فلاحظ ذلك أحد أعوانه وحذره من أنه يمكن للأعداء أن يندسوا بين هؤلاء المقنعين ويغتالوه[22]. وعند موت الأفشين، أخرج من منزله صور السماجة وأصنام محلاة[23]. ووصف أبو حيان التوحيدي أحد الرجال فقال: إنه يحاكي المومسات ويخرج في أصحاب السماجات[24].

ولا بد أن التمثيل كان إحدى المهن المنتشرة ببغداد، فقد تحدث الشابشتي عن رجل هدد آخر بأن يخرج أمه في الخيال[25]؛ وتحدث التوحيدي عن تمثيل الحكايات[26]. كما تحدثت قائمتا نفقات القصر في عهد المقتدر عن النفقات المخصصة لأهل السماجة والمخرفين والمضحكين في القصر[27].

وكان في بغداد سوق للعب توضع فيه مختلف أنواع اللعب، بعضها من الطين على أشكال الحيوانات تباع للصبيان في الأعياد[28]. ولدينا خبران عن طاق اللعب ببغداد، ففيها يذكر الخطيب البغدادي أن أبا سعيد الاصطخري محتسب بغداد في عهد المقتدر قد أحرق طاق اللعب لما يعمل فيه من ملاه[29]، يقول الماوردي ومن نقل عنه: إن الاصطخري أقر هذا السوق، لأنه يقصد بألعابه مساعدة المربيات على تربية الأولاد[30].

ومن الألعاب لعبة من الياسمين في شكل الجواري[31]. ومن لعب الصبيان الدبوق[32]. ومن الألعاب المشتركة الكعاب، والجوز، ولعبة الأربعة عشر، والثلاثة أبواب[33]؛ ولعلها من ألعاب القمار.

---

(22) الديارات، ص 39 ـ 40.

(23) الطبري، ج 9، ص 114.

(24) الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 59.

(25) الديارات، ص 188.

(26) البصائر والذخائر، ج 3، ص 484.

(27) الصابي، الوزراء، ص 19، رسوم دار الخلافة، ص 24.

(28) معالم القربة، ص 56.

(29) تاريخ بغداد، ج 7، ص 269.

(30) الأحكام السلطانية، ص 51، معالم القربة، ص 36.

(31) بدائع البدائه، ص 300.

(32) المصدر نفسه، المكان نفسه.

(33) التعبير في الرؤيا، ص 159ب ـ 160آ. ونرجح أن لعبة الأربعة عشر، تقوم بأن ينقسم اللاعبون إلى فريقين كل منهما في سبعة أشخاص، يتسابقون على الظفر بذبيحة أو شاة بينهما، ويدفع الخاسر ثمنها.

الفصل السادس عشر

الملذات والملاهي

أولا : الملذات

عرفت بغداد حالات من الإقبال على إشباع الحواس، فانتشرت فيها المقاصف والخمارات، ودور القيان، والإقبال على الجنس والمآكل. وقد اهتمت بعض المصادر بتصوير هذه النواحي لدى البغداديين، وحسبنا منها ما ورد في «الديارات» و«الأغاني» حيث تسجل العديد من مظاهر المجون البغدادية في القرن الثالث، و«حكاية أبي القاسم البغدادي» التي تتحدث عن مباذل البغداديين في القرن الرابع، ومنها «خاص الخاص» الذي يضم منتخبات تعود للقرنين معاً.

والأسباب في انتشار مظاهر الإقبال على اللذات الحسية معروفة. منها ترف القصر والطبقة الخاصة التي اتسعت شيئاً فشيئاً، فضمت الهاشميين «وأصحاب» العباسيين «وأنصارهم» من العرب الذين استقدموا إلى بغداد، ثم كبار القادة السياسيين والعسكريين من غير العرب، ثم كبار الموظفين والكتاب وجماعات المنجمين والأطباء. ومنها الثراء الذي أصاب الكثير من التجار البغداديين الذين جاروا الخاصة بأنواع الرفاه، ومنها شيوع الرقيق الذي أصبحت بغداد أحد مراكز تجارته الرئيسية. ولم تلبث هذه المظاهر أن تفشت في فئات العامة.

أ ـ الأغذية

يصنع الخبز عادة من القمح والشعير والأرز وحبوب أخرى أقل جودة[1]. واعتبرت الحنطة «أم الطعام» لأن لها فضلاً على سائر الحبوب[2]. وفي المواريث الغذائية،

(1) انظر، الرازي، منافع الأغذية، ص 2.
(2) الثعالبي، ثمار القلوب، ص 255.

اكتسب الخبز مكانة عالية، وووصف الغني في الجاهلية بأكل الخبز؛ ونال بنو هاشم مكانة عالية حين هشم سيدهم الخبز لقومه[3]. وفي المواريث الأخلاقية اكتسب الخبز مكانة شريفة. فالعجين مال شريف، والرغيف إصابة عمر، وصفاؤه صفاء الدنيا[4]. ومن حيث القوة الاقتصادية اعتبر القمح قوام أهل الأرض «المنتجين» وأمير الأغذية[5].

ومن أنواع الخبز حسب مادته، من القمح، الحواري النقي، وهو من زهرة الطحين، وكانت تستهلكه الطبقة الغنية، ومنه الحواري الحال، وقد وصف بأنه يشبه الأغنياء[6]، ومنه الخبز الخشكار، وهو من النوع الوسط الممزوج بالنخالة، قليل الجودة، قليل النقاء وهو كثير التداول[7]، وقد وصف الدينوري آكله بأنه في عيش طيب ودين وسط[8]، ومنه خبز السميذ.

واعتبر خبز الأرز في الدرجة الثانية من الخبز. وهو أعسر هضماً، لذا كان الناس يأكلونه مع المالح أو الدسم الكثير، أو اللبن، أوالثوم. ويقول الرازي: إنه كان شائعاً بين العامة[9].

واعتبر تناول خبز الشعير من أنواع العيش النكد، وهو خبز الفقراء ومنه المتكرج، والكسرة[10].

وينبغي هنا أن نضيف أصنافاً من سائر الحبوب كانت تستخدم في صناعة الرغيف أيام المجاعات والحروب، ومنها الذرة والعدس والفول... على أن أفضلها كان الخبز المتخذ من الحنطة الحمراء الرزينة واللزجة، أو ما يتخذ من الحنطة البيضاء الهشة الخفيفة التي تحتاج إلى كميات أقل من الملح والبورق والخمير[11].

أما إعداد الخبز فكان يتخذ أشكالاً مختلفة، منها: الرغيف، والجردقة، والقرص أو

---

(3) الجاحظ، البخلاء، ص 230.

(4) نصر بن يعقوب الدينوري، التعبير، ق 153ب.

(5) البخلاء، ص 126.

(6) Ch. pellat, Khubs, E.I[2], IV, p. 43 أيضاً، التعبير في الرؤيا، ص 154آ.

(7) pellat, Ibid.

(8) التعبير، ق 153ب.

(9) منافع الأغذية، ص 8. أنظر أيضاً، M. RODINSON, Ghidha, E.I[2], II, p. 1087.

(10) التعبير، ق 53ب، أنظر أيضاً، Khubs, E.I[2] IV, p. 43.

(11) الرازي، منافع الأغذية، ص 6 ـ 7، والبورق Borax أو ملح الصوديوم. أنظر، صحاح الجوهري، بعناية مرعشلي، ج 1، ص 124.

القرصة، والرقاق[12]. وحسب طريقة إعداده، فهو خبز التنور، وخبز الفرن، وخبز الطابق، وخبز الملة، والبرازيدق، والفطير، والمختمر الكثير الملح والبورق أو الخالي منها. وأفضلها الرغيف النضيج اللين وخبز الرقاق. واعتبر خبز الملة أكثرها سوءاً، فلا يأكله إلّا مضطر، أما البرازيدق، فقد اعتبر من النوع الوسط، واعتبر الخبز الفطير والمختمر من الأنواع السيئة التغذية[13].

ب ـ الأطعمة

اعتبرت المآكل من الملذت الحسية. وقد أثار الإقبال على الطعام نوعاً من الأدب بيّن فضائل الأطعمة، ونرى آثار هذا الموقف عند الثعالبي[14]. واهتم أبو المطهر الأزدي بعرض لائحة طويلة من الأطعمة الخاصة بالفقراء والأغنياء، ووضع نصر بن يعقوب الدينوري لائحة مصغرة عن الأطعمة البغدادية في القرن الرابع[15]، هذا بالإضافة إلى كتب الطبيخ التي وضعت، والتي تتناول عادة الطبخات التي كانت تعد في دور الأغنياء.

تُعدّالأطعمة داخل البيوت للإستهلاك الخاص، ويستثنى منها بعض الأصناف القليلة، كمحلات الشوائين، والسماكين، والهرائسيين، وبعض المحلات التي تصنع الحلويات.

وكان الشائع بين البغداديين تخزين الأطعمة، وهي طريقة موروثة عن سكان الشرق في القديم، الذين كانوا يخزنون الحبوب في الاهراءات والمطامير، كما عرفت مجموعة من التعليمات التي ترمي إلى حفظ الفواكه طازجة، وعلى الأخص العنب الذي روعي أن يحفظ من التسوس كي لا يتلف[16].

أما تجفيف المنتجات وحفظها، فقد كان أقل الأساليب كلفة. فمنذ الجاهلية كان العرب قد عرفوا تجفيف اللحوم وحفظها بواسطة الدهن، وهو ما عرف بالقديد، كما جففوا الأسماك واللحوم وحفظوها بالأملاح والتوابل وعرفت بالنمكسود[17].

---

(12) التعبير، ق 153ب ـ 154آ.

(13) الرازي، ص 2، 6، التعبير، ق 154آ و E.I² V, p. 43. وخبز الملة سميك يخبز على الرماد الحار.

(14) أنظر، حكاية أبي القاسم، البغدادي، ص 20 ـ 21، خاص الخاص، ص 56 ـ 60، وثمار القلوب، ص 608 ـ 616.

(15) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص 46، 48، 72، 100، 101، 122، التعبير في الرؤيا، 153ب ـ 154آب.

(16) Ghidha, E.I², II, p. 1088.

(17) الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 229، الدينوري، التعبير في الرؤيا، ق 154ب، مفردات ابن البيطار، =

وجففوا الفواكه كالتين والمشمش والخوخ والزبيب والإجاص، كما كبسوا الخضار وجعلوا منها المخللات. ووصف لنا الأزدي طريقة كبس الزيتون، فيدخن ويخلط باللوز المقشر والصعتر. وكبسوا السلجم الأبيض والأحمر ونقعوه في خل الخمر، وكبسوا الخيار بالخل، وكبسوا الاشترغار والباذنجان بماء حب الرمان ونقيع الدقل وماء السماق[18].

واستخدموا من الحوامض ماء الليمون والأترج، وماء الحصرم، وماء الريباس، والملح الدراني، والحلتيت والمحروث[19].

واستخدموا الثمار الطازجة وذات النوى اليابسة فدخلت في صناعة الأطعمة أو استخدمت مستقلة كنقل ومنها: الموز، والجلوز، والشاهبلوط، والنارجيل، والفستق الرطب، وقصب السكر، والخوخ المسكي، والشمعي، والبطيخ الرمشي المضلع، والقفصي، والبطيخ الخراساني الأبرش بحمرة، والعنب الرازقي، والتين الوزيري، والتفاح المسكي، والتفاح الدامـاني الأحمر، والسفرجل، ورمان مرمر، والمشمش والكمثرى الشامي، والسلطاني، والزرجون، والنهاوندي، والخزري، والسجستاني، والحسيني. ومن التمور بسر ماء السكر، وشمراخ، والجيسوان والطبرزد، والأزاد، والقرشة، والخاستوي والعبدسي، والحركان، والعروسي، والهلباث، والحمران، والهرون، والبسر المطبوخ، والتمر المصنع الإبراهيمي، والصرفاني، والبرني، والمِلعق، والصيحاني، والعمري، والبدالي، والقرشي، والبربن. ومنها القسب، والمنثور، والدقن، والمدفون.

واستخدموا الزبيب الطائفي، والنبق الاهوازي، والسكر السليماني، والطبرزد، ولب ا فستق، واللوز المقشر، وقصب السكر المقطع المغسول بماء الورد[20].

= ج ٤، ص 184، أبو بكر الرازي، منافع الأغذية، ص 24 ـ 25.

(18) حكاية أبي القاسم، ص 38، 48، منافع الأغذية، ص 3، والاشترغار هو نرجيل العجم، والدقل هو النخل، أنظر، محمود مصطفى الدمياطي، معجم أسماء النبات الواردة في تاج العروس، (القاهرة، 1966) ص 68، 141.

(19) حكاية، ص 38، 39، والحلتيت هو Ferula Tingitana وهو صمغ، والمحروت هو أصل شجرة الحلتيت وهي ذكية الرائحة.

(20) حكاية، ص 43، 45، 48، والجلوز هو البندق، وليس الجلموز كما ورد خطأ، أنظر، مفردات ابن البيطار، ج 1، ص 166، التعبير في الرؤيا، ق 156ب، والزرجون قبل الكرم، معجم أسماء النبات، ص 61، والجيسوان من رديء التمر، والحمران أو الحومر والحمرا هو التمر الهندي، والطبرزد والهلباث من تمور البصرة، أنظر، ابن سيده، ج 11، ص 133، 134، والأسماء الباقية لم نعثر عليها كما أن بعضها معروف.

أما أصناف الطبخ، فقد اختلفت بحسب المناسبات والفئات الإجتماعية. فالخرس هو الطعام الذي يتخذ صبيحة الولادة للرجال والنساء، والاعذار طعام الختان، والوكيرة طعام البناء، وكان للنفساء طعامها الخاص[21].

أما أصناف الأطعمة حسب المادة الأساسية فيها، فهي عادة من طعام الأغنياء. وتشكل اللحوم والأسماك مادتها الأساسية. واللحوم المفضلة تلك التي تكون غنية بالسمن والدهن[22].

وأكل البغداديون لحوم الطيور مشوية أو مطبوخة، من فراريج كسكرية؛ وفضل الأغنياء صدور البط بماء حب الرمان وماء التفاح والتوت الشامي، وأكلوا الدراريج، كما أكلوا الأسماك بأشكال مالح القاس ومالح السرة ومالح ناعم والمالح الممقور، ومنها الشبوط والبني والطريخ المقلو بالبيض وقريض السمك بالخل، وأكلوها على شكل صحناء وربيثاء. وأكلوا الكبود، من كبود الدجاج المسمن، وكبود المواشي، والمبعر والمحشو، وطبخوا الأكارع، وحشوا الأمعاء، وشووا الرؤوس، واعتبروا أفضلها الرؤوس التنورية[23].

وكان الشواءون في الأسواق يعدون الأصناف المختلفة من لحوم الحملان والبقر، والدجاج والسمك، وكانت الأسماك الصغيرة تمرغ بالدقيق وتقلى بالدهن، نظراً لغلبة الحسك على اللحم فيها[24].

ومن الأطعمة المشهورة، الهريسة التي كانت طعام الخاصة والعامة[25]، ومنها السكباج التي كانت متيسرة للأغنياء والفقراء[26]، وتصنع من اللحم السمين المغمور بالماء وترش عليه الكسفرة الشقراء وعود دارصين (قرفة) وبعد غليانها يضاف إليها البصل الأبيض والكراث والجزر، إن كان موسمه، وإلا فتطرح شرائح من الباذنجان[27]، وقد وصفها الثعالبي بأنها مخ الأطعمة وسيد المرق، فإذا طبخت اللحم بالخل فقد ألغيت من المعدة ثلث المؤونة[28]. ويبدو أن الفقراء كانوا يصنعونها من لحم البقر، فيما كانت عند

---

(21) الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 213 ـ 214.

(22) المصدر نفسه، ص 231، التعبير، ق 154ب.

(23) حكاية أبي القاسم، ق 39، أيضاً: التعبير، ق 155ب.

(24) حكاية، ص 41، التعبير، ق 154ب ـ 155آ ـ

(25) البصائر والذخائر، ج 4، ص 33 ـ 34، الخطيب البغدادي، ج 13، ص 9.

(26) حكاية أبي القاسم، ص 100، أيضاً التعبير في الرؤيا، ق 155 ب.

(27) البغدادي، الطبيخ، ص 13.

(28) ثمار القلوب، ص 612.

الأغنياء من لحوم الغنم والطيور والعصافير(29).

ومن الأطعمة المعروفة الديكبريكة، وهي تصنع من اللحم والبصل والكراث والكسفرة، وبعد أن تغلى يلقى عليها خل ومري، وبعضهم يضيف إليها القليل من السكر(30). وقد ورد ما يدل على أن الديكبريكة كانت من طعام الخلفاء وكبار القوم والأغنياء، وأنها كانت كثيرة الدهن والزفر(31).

ومن أطعمة الأغنياء الزيرباج التي تتخذ من قطع من اللحم السمين والحمص، ويطرح عليها الخل وبعض السكر واللوز، وتصبغ بالزعفران، ويمكن أن تستبدل اللحوم بالدجاج، ويبدو أنها كانت من أطعمة الخاصة والأغنياء(32).

ومن الأطعمة الغالية الكلفة «الطباهجة»، التي تتألف من شرائح اللحم والإلية وبعض البهارات(33)، وذكر الأزدي منها الطباهجة المعروفة بالمؤلّفة العطرية المعمولة بماء التوت وماء العنب(34).

والمضيرة من أصناف الطعام الشهيرة، وصنعتها أن يقطع اللحم السمين أوساطاً مع الإلية والفراخ، وتغلى مع البصل والكراث، ويطرح عليها الكسفرة اليابسة والكمون وبعض البهارات، وبعد أن تنضج وينشف ماؤها يلقى عليها من اللبن قدر الحاجة(35)، والواضح أن المضيرة من الأطعمة التي تطبخ باللبن، وهي من أطعمة الأغنياء، وتشهد بذلك المقامة المضيرية الواردة في مقامات الهمذاني.

أما الأطعمة التي تستهلكها العامة فقد كانت فقيرة من الدسم. فهي تتألف عادة من الشواء المنتشر في الأسواق ومن لحوم الرؤوس والأكارع والسمك الصغير المقلو أو المكبب الصغير والصحناة والربيثاء ولحوم البقر والجمال وبطونها(36). والواقع أن استهلاك

---

(29) التعبير في الرؤيا، ق 155ب، 156آ.

(30) الطبيخ، ص 15.

(31) ابن الجوزي، المنتظم، ج 7 ص 254، 260.

(32) الطبيخ، ص 16، أيضاً، الفرج بعد الشدة، ج4، ص 358، 367.

(33) الطبيخ، ص 17.

(34) حكاية أبي القاسم، ص 41، أنظر أيضاً، التعبير في الرؤيا، ق 156آ.

(35) الطبيخ، ص 24.

(36) أنظر، يتيمة الدهر، ج 2. ص 262، مقامات الهمذاني، ص 60، 61. نشوار المحاضرة، ج 1، ص 121، ج3، ص 67، الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 286، حكاية أبي القاسم، ص 42، 116.

اللحوم السمينة والدهن كانت من مظاهر الغنى، فكان العرب يمدحون كثير الشحم، ووصفوا الثريد الكثير السمن بأنه من أجود الأطعمة[37].

ومن الأطعمة الأخرى الكشكية المطبوخة بالكشك، والدوغ أو الدوغباج المطبوخ من اللبن الحامض المنزوع الدسم، وهي من الأطعمة الشعبية الشائعة[38].

وتترك بعض المصادر انطباعاً بذم طعام الفقراء، فالطعام المذموم هو الزبد والجبن، وهجي آكلو التمر وآكلو الثريد، هذا فيما راح البخلاء والعاجزون عن استهلاك اللحوم يمدحون السخينة والتمر، واعتبروهما من صالح الأغذية والأقوات[39].

وذكر الوشاء بعض محلات الأطعمة التي لا يحسن بالظرفاء دخولها كدكان الرواس ودكان الهراس، وكره لهم أكل طعام الأسواق[40]، وذكر أبو الفتح كشاجم نصيحة في باب الطعام فقال: «لا تتعرض للطبيخ البقري إلّا في زمن الباذنجان، ولا الحصرمي إلّا في زمن الفراغ»، وذم الأزدي العامة ونعتهم بأصحاب الشواء والقلايا[41].

واعتبر الدينوري الكشك والثريد، والثريد بلا لحم من أطعمة الفقراء[42]، ووصف الأزدي موائد الفقراء بأنها بلا خلّ ولا بقل، عليها الباذنجان والشلجم والخيار والقثاء والزعرور، ووصف طعامهم بأنه من «الكوك والكركر والجفندر والكرنب والشلجم والأرز والماش والعدس واللوبيا والعرفة والأربيانه مما يأكله الوقادون والزبالون» وذكر من أطعمتهم الشورباء والباذنجان الساذج أوالمحشو باللحم والذي اعتبروه زبداً في وعاء[43].

وذم كثرة استهلاكهم للخس، والكرفس، والقنبيط، والجبن الدينوري، والجبن الرومي[44] وتحدث المسعودي عن طعام عائلة فقيرة وتألف من خبز الشعير وخبز ملّة وربيثة وبقل وكراث[45]. وفي الأحوال الأكثر سوءاً كان الفقراء يلجأون إلى أكل

---

(37) البخلاء، ص 231، 234.

(38) حكاية أبي القاسم، ص 100، التعبير في الرؤيا، ق 156آ.

(39) المصدر نفسه، ص 216، 231، 234؛ والسخينة طعام يتخذ من الدقيق دون العصيدة في الرق وفوق الحساء، صحاح الجوهري، ط. مرعشلي، ج 1، ص 574.

(40) الظرف والظرفاء 285 ـ 286.

(41) حكاية أبي القاسم، ص 5، 101.

(42) التعبير، ق 156آ.

(43) حكاية، ص 43، 100، 101، والعرفة: السردين، والكركر: صغار حب الصنوبر، والأربيان: نوع من الأسماك.

(44) المصدر نفسه، ص 38، 122.

(45) مروج الذهب، ج 2، ص 241.

الحيوانات من غير المواشي والطيور. فيتحدث الجاحظ عن جماعة من الحوائين في بغداد والبصرة، يأكل أحدهم أي حية في جونته غير مشوية، ويأكل عشرين عقرباً نيئاً بدرهم، وأما المشوي فإن ذلك عنده عرس[46]. أما الجراد والكمأة فقد كانا من الأطعمة التقليدية للفقراء، فقد ورد إقبال البغداديين على شرائهما في أخبار سنة 299هـ، التي كانت خصبة بإنتاج الجراد والكمأة، حتى بيع الكمأة 20 رطلاً بدرهم والجراد 8 أرطال بدانق، وفي سنة 330هـ وأثناء أزمة إقتصادية خانقة كثر الجراد وجيء به من القرى المجاورة وبيع المائة رطل بدرهمين وثلاثة وعاش به الفقراء[47]، وكان الجراد يباع في بغداد مطبوخاً من قبل باعة خاصة به[48]. ولدينا أخبار عن فقراء كانوا يأكلون السنانير من شدة حاجتهم إلى الطعام[49].

ولعل أكثر أنواع الأطعمة استهلاكاً من العامة هي الباقلّى. فقد بلغ ثمن ما يباع في أحد جانبي بغداد في اليوم الواحد ستين ألف دينار[50]، وكان الناس يتحلقون حول باعة الباقلاء في بغداد، وكانوا يتقامرون بالباقلى[51]، كما كان عثمان الخياط يوصي الشطار بأن يجعلوا نقلهم باقلى[52] وكان باعة الباقلاء يخرجون قدورهم خارج أبواب حوانيتهم في مجال التنافس[53].

ومن أصناف باعة الطعام، الذين يبيعون مختلف الأطعمة في المحلات العامة، يذكر «قيراط» الذي كان يبيع الشواء و«كيكي البقال» في الكرخ الذي يبيع الجبن والزيتون[54]. ويذكر ابن البناء حادثة وقعت في سنة 462هـ، إذ أراد أحد قلائي الباذنجان أن ينصب مقلى في باب أحد محلات البقالة مما تسبب بفتنة بين أصحاب السوق[55].

---

(46) الحيوان، ج 4، ص 303.
(47) العيون والحدائق، ج 4، ص 161، 381.
(48) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 211.
(49) المصدر نفسه، ج 3، ص 286، المفوات النادرة، ص 63.
(50) رسوم دار الخلافة، ص 20.
(51) ناصر الخاني، صور عباسية، (بيروت، دون تاريخ)، ص 137، 139.
(52) الحيوان، ج 2، ص 366.
(53) الخطيب البغدادي، ج 9، ص 191.
(54) حكاية أبي القاسم، ص 42.
(55) ابن البنا، Autography Diary, Bsoas, 19 (1957) p. 291.

ج - الحلوى:

عرف البغداديون أنواعاً مختلفة من الحلويات كان قوامها الشهد والسكر والمن والتمر[56] يضاف إليها بعض أنواع النقل. ومن هذه الحلويات الفالوذج واللوزينج والأخبصة والعصيدة والمربيات والقطائف[57].

والواقع أن العامة لم تكن تعرف الأنواع الشيقة من الأطعمة. وقد ترك لنا أبو علي المحسن التنوخي حواراً بين المقتدر وأحد الملاحين. فبعد أن تناول الخليفة طعام الملاح، طلب الحلوى، فأجابه الملاح: نحن لا نعرف الحلوى. فاستغرب المقتدر وقال: ما ظننت أن في الدنيا من يأكل طعاماً بلا حلوى بعده. فقال الملاح: حلوانا التمر والكسب. وفي موضع آخر يذكر أن الفقراء كان لهم في عصيدة التمر كفاية[58]. وذكر الأزدي أن حلوى العامة هي عادة من العنب الأسود وحلاوة مدلوكة باليد كالناطف والمبريخ[59].

وهكذا يمكن تصوير الوضع المعيشي للعامة بما قاله الجاحظ عن الفقير[60]: مرقته سلقة، ورداؤه علقة، وجردقته فلقة، وسمكته شلقة.

---

(56) التعبير في الرؤيا، ق 156آ.

(57) أنظر، يتيمة الدهر، ج 4، ، ص 176، 178، التعبير في الرؤيا، ق 156آ. البصائر والذخائر، ج 2، ص 643، ج 4، ص 62، 146، 204.

(58) نشوار المحاضرة، ج 3، ، ص 190 ـ 191، أيضاً، ج 1، ص 121.

(59) حكاية أبي القاسم، ص 42.

(60) الحيوان، ج 1، ص 107.

2 ـ مجالس اللهو

أ ـ الخمور

أقبلت جماعات من البغداديين على احتساء الخمور. وانطلق متناولوها يدافعون عن مواقفهم من الخمر ويحسنون شربها ويبينون فوائدها[1].

واعتبرت الخمر إحدى اللذات. فكان أبان اللاحقي يرى لذة العيش في الخمر والجواري[2]، وكان أبو نواس أحد الدعاة لهذا النوع من العيش، يعتبر بغداد ساحة كبرى يمارس فيها لذاته[3]:

واخلع عذارك لا تأتي بصالحة   ما دمت مستوطناً أكناف بغدادِ
نعّم شبابك بالخمر العتيق ولا   تشرب كما يشرب الأغمار من ماذي

وقد أتاح هذا المناخ المتحرر انتشار مجالس الشراب، يتداولون فيها شعر المجون. وأطلق المجان على جماعتهم اسم «الفتيان»[4] حتى ارتبطت الخمرة بالفتوة في القرن الثالث ارتباطاً متلازماً[5]. وجعل الفتيان لمجالسهم آداباً دعيت بآداب الفتوة، واشتملت أيضاً على آداب المنادمة والمؤاكلة والمحادثة.

وقد ترك لنا الجاحظ صورة عن آداب هذه الفتوة على لسان أبي فاتك «قاضي الفتيان»، الذي كان ينزل باب الكرخ ويجتمع الفتيان عنده، ويعلمهم آداب الفتوة فكان يقول لهم: «أحسنوا التدبير في جودة النبيذ، فإنه من أفضل ما تحوطون به أنفسكم وتحفظون مرؤاتكم»، كما كان يوصيهم بإتقان آداب المؤاكلة[6]. واستمر نعت الشاربين بالفتيان خلال القرن الرابع[7].

وتطلبت جلسات الشرب الناجحة حسن اختيار النديم والساقي. وقد وصف مطيع بن إياس إحدى جلسات الشرب في خمارة بغدادية التي ضمت مطربة حوراء،

---

(1) أنظر، نشوار المحاضرة، ج 3، ص 141، 143، أيضاً: العقد الفريد، ج 6، ص 361، 363.
(2) أنظر، غروينباوم، شعراء عباسيون، ص 39، 61.
(3) أنظر، وديعة طه النجم، الشعر في الحاضرة العباسية، (الكويت، 1977)، ص 164.
(4) الأغاني، ط. بولاق، ج 16، ص 149، ط. الهيئة العامة، ج 18، ص 101. أيضاً وديعة النجم، المرجع السابق، ص 151.
(5) أنظر، الجاحظ، البخلاء، 100، 119.
(6) المصدر نفسه، ص 67، 76، قطب السرور، ص 334 ـ 339.
(7) نشوار، ج 3، ص 159.

والندامى حوله، وكؤوس الراح تدور عليهم لامعة كنجوم الدجى[8]. ووصف أبو عثمان الناجم (ت 314هـ) سلامة الساقي وقال فيه[9]:

سلامة بن سعيد يجيد حث الراح
إذا تغنى زمرنا عليه بالأقداح

ووصفه في مناسبة أخرى:

أدر يا سلامة كأس العقار وضاه بشدوك شدو القماري
وخذها معتقة مزة تصب على الليل ثوب النهار

واكتسب الساقي أهمية خاصة في جلسات الشاربين، حتى أن وكيلاً لطاهر بن الحسين اشترى ساقياً بألف دينار، ولو طلب بائعه مائة ألف لأعطيها[10]. ويبدو أن الساقي المرغوب فيه هو النحيل الأهيف، المقدود كالغصن. ووصف ساقي حانات العامة بصورة كريهة، فهو سمين، وله ركبة كأنها محلاج نداف، وكأنه والكأس في يده جمل يسبح، ويصلح للصلب ولا شيء سواه. وربما كان شيخاً أبيض الرأس واللحية في هيئة المؤذنين أو الحجامين. وفضلوا السقاة النصارى واليهود[11]، واستهجنوا أن يكون الساقي مسلمًا، واعتبروه خروجاً على تقاليد الحانات.

كان الشاربون يدفعون الأموال للندماء[13]، ويبدو أن المبلغ يحدده الشاربون، إذ ليس لدينا معلومات حول المبالغ التي كانوا يدفعونها. كما أنه ليس لدينا معلومات حول أسعار الخمور التي كانت تختلف باختلاف أصنافها. فوصفت خمور محلة الروم بغلائها[14]. وذكر الرقيق النديم أن بعض الحانات كانت تغالي في أسعار الخمور، ومنها ما يقدم فيها الخمر مجاناً لبعض الشاربين[15]، وكانت الخمور في دير قوطا مبذولة للشاربين مجاناً[16]. والغالب على أسعار الخمور غلاؤها، وقد ذكر بعضهم أنه كان يرهن

(8) تاريخ بغداد، ج 13، ص 225.
(9) الديارات، ص، 94گ.
(10) قطب السرور، ص 2.
(11) حكاية أبي القاسم، ص 47، 48، 70.
(12) الديارات، ص 66، أنظر أيضاً، جبور عبد النور، الجواري، ص 52 ـ 53.
(13) الديارات، ص 25.
(14) حكاية أبي القاسم، ص 48.
(15) قطب السرور، ص 115.
(16) الديارات، 62.

أثوابه ليتمكن من شربها، وبعضهم يشتريها بالربا دناً بدنين[17].

ولعل غلاء الخمور هو الذي عرّض منتجيها وبائعيها للملاحقة والمصادرة من قبل السلطة التي تبحث عن المال، ففي سنة 333هـ كبس النباذون في ضواحي بغداد، واتهم الجاثليق بأن النبيذ المنتج في دار الروم كان لحسابه، وأن له على النباذين قائماً (قيماً)، وصودر على خمسين ألف درهم، ثم صودر النباذون وحبسوا[18]. وفي سنة 392هـ، صودرت الحانات وأخذ ما فيها[19]. وتعرضت حانات بغداد في القرن الخامس للسرقة ولغزوات الجند، كما تعرضت لنقمة المحتسب، الذي أراق خمورها وكسر عيدانها وطبولها[20].

ويبدو أن بعض الخمور كان يداخلها الغش، ويذكر أبو المطهر الأزدي[21] طريقة الغش في الخمر الداذي، إذ تضاف إليها أقماع الزبيب وثجير الصباغين وقشور الرمان حتى تكتسب ألواناً داكنة، في حين أن الداذي النقي هو الذي يقطف من الشجر ويضرب في العصير التمري الصافي الزلال، ثم يروّق ويشمس حتى يستحيل مائعاً. ومن الداذي المغشوش ما يكون عكراً أسود، وهو مزيج من وضر الدبس وماء الكشوث[22].

واعتبر نصر بن يعقوب الدينوري نبيذ التمر من النوع السيء بعكس نبيذ الزبيب[23]، فيما اعتبر آخرون النبيذ التمري المعمول بالداذي من الأنواع الجيدة، نظراً لتركيزه وشدة إسكاره. وكان النبيذ الحامض مكروهاً، كما اعتبر نبيذ البلاذر من النوع السيء نظراً لخفته وقلة نسبة الكحول فيه[24].

ولا ريب في أن العامة كانت تستهلك الأنواع السيئة من الخمور[25]، فيما كانت طبقة الخاصة تستهلك أجود الأصناف. فقد كان إسحاق الموصلي يشرب نبيذ القاطرميز

---

(17) الأغاني، ج 5، ص 13، 22.

(18) الصولي، أخبار الراضي والمتقي، ص 279 ـ 280.

(19) تاريخ الصابي، ذيل مسكويه، ج 4، ص 411.

(20) يوميات ابن البنا، Autographie diary (18, 1956) pp. 239, 248, (19, 1957), p 82.

(21) حكاية أبي القاسم، ص 106 ـ 107.

(22) المفوات النادرة، ص 288، والكشوث نبات يتعلق بأغصان الشجر ويجعل في الخمر ليكسبها الحموضة، أنظر حول أنواع الخمور، نهاية الأرب، ج 4، ص 76 ـ 88.

(23) التعبير في الرؤيا، ق 58آ.

(24) نشوار المحاضرة، ج 3، ص 39، 141.

(25) أنظر، أبو بكر الرازي، منافع الأغذية، ص 16 ـ 18.

المشمس[26]، وكان أبو نواس وابن المعتز يفخران بشرب الخمرة المعتقة في جرار مزفتة[27]. وحمد الله قصار أن صار ابنه طنبورياً وأيسر، فصار يشرب نبيذ القاطرميزات[28]، وهذا يعني أن نبيذ القاطرميز كان من النوع الجيد[29].

ولا بد من أن يكون بعض صانعي الخمرة قد برعوا أكثر من غيرهم، ومن هنا ما نراه على الرواويق أو الدنان المكتشفة في سامراء. فقد كتب أحدهم على الراووق والراقود: أحمد بن موسى: مشمس، وعلى آخر، مفلح: مشمس، وعلى آخر، أحمد بن موسى، مطبوخ[30]، وهذا يدعو إلى استنتاج إن أحمد بن موسى ومفلح هما منتجا الخمرة، ونزداد ميلاً إلى القبول بهذه الفكرة بعد أن نطلع على ما ذكره الأزدي من أن ابن سيرين كان يبيع الخمر الصريفيني الجيد[31] وما ذكره ياقوت الحموي من أنه كان في بغداد تاجر خمر يدعى إسحاق الواسطي يبيع الخمر الصريفيني، ويضع على فوهة الزجاجة كاغداً وخاتماً كتب عليه اسمه واسم الشراب[32].

ب ـ الحانات:

قامت الخمارات في أول عهد بغداد في باب الكرخ[33]، ولم تلبث أن انتشرت في البساتين المحيطة بالمدينة بعد أن أصبحت الكرخ منطقة مكتظة بالسكان. وكان من الطبيعي أن تكثر في البساتين المروية القريبة من الأديرة[34] حيث يمكن للشاربين أن يشتروا خمورهم[35]، إذ أن الإسلام اتخذ موقفاً واضحاً وصريحاً بتحريم إنتاج الخمور وتسويقها وشربها. وقد ارتبط هذا الموقف بمواريث شرقية قديمة وبمواقف أخلاقية[36]،

---

(26) الأغاني، ج 1، ص 135.

(27) Rice, Deam Or drink soum phaintaing from samarra re-examined, MARABICA. V (1958) pp. 24- 25.

(28) المفولات النادرة، ص 400.

(29) أراني هنا مضطراً لمخالفة رأي رايس الذي يعتبر فيه أن القاطرميز ليس من أوعية حفظ الخمر، انظر هامش رقم 26.

(30) أنظر اللوحات. Rice, pp. 21- 22, plonche, III D.

(31) حكاية أبي القاسم، ص ص 86.

(32) معجم الأدباء، ج 5، ص 260.

(33) أنظر، الأغاني، ط. دار الكتب، ج 10، صص 219، أدب الغرباء، ص 74، غرونياوم، شعراء عباسيون، ص 39.

(34) أنظر، الديارات، في أماكن متعددة.

(35) أنظر، الصولي، أخبار الشعراء، ص 62.

(36) A. J. WENSINCK, KHAMR, E.I²; IV, 1027.

رتبت دائماً على مستهلكيها نتائج سلبية[37]. وهذا ما جعل إنتاج الخمور وبيعهامحصوراً بأهل الذمة، فرسخ في أذهان شاربيها أن الخمرة تلك التي يبيعها «شيخ لا يفصح العربية، مجوسي اسمه شهريار، أو يهودي اسمه شلوما، أو نصراني اسمه يامروا»[38]. وكان أفضل أنواعها تلك التي عتقت في كركين، أو التي عتقها يهود سورا، أو تلك التي أنتجت في محلة دير الروم[39].

ويقدم لنا التاريخ الاقتصادي لبلاد ما بين النهرين أسباباً مقبولة لاختصاص أهل الذمة بصناعة الخمور. فقد كانت أراضي الهلال الخصيب غنية بأنواع العنب الجيد الذي تنتج منه الخمور الراقية، كما أن تجارة الخمور كانت قد اختصت بالنصارى واليهود وبتأثير الحظر الإسلامي، مما أكسب أهل الذمة تقليداً في معرفة أنواع الخمور الجيدة وصناعتها[40].

انتشرت المواخير في ضواحي بغداد، في شط الصراة، ومطالع الفرات، والزبيدية، ومسناة الدار المعزية، وبصرى، والمزرقة، والبردان، وأوانا، والقفص، وقطربل، وعكبرا، وكركين، وبزوغى[41]، ولكن لم تلبث أن انتشرت في محلات بغداد المأهولة وأسواقها، فقامت في الكرخ، وباب الطاق، وسوق العطش، ودرب الزعفران، والرصافة، وبين السورين[42].

كانت هذه الحانات تضم القيان من مغنيات وراقصات وندمان وغلمان ومخنثين، الذين كانوا يضفون على مجالس الشرب حللاً من اللهو والتهتك. وأصبحت خمارات بغداد محجة اللاهين من سكان المدن العراقية.

وكان بعض الجماعات من اللاهين يخرجون إلى البساتين وضفاف الأنهار في ضواحي بغداد، بعد أن يتزودوا من حاجاتهم ما يقدرون عليه من الخمر والمآكل،

---

(37) Elisseff, N. Thémes et motifus des Milles et une nere, p. 134.

(38) قطب السرور، ص 161.

(39) الديارات، ص 66، 71، حكاية أبي القاسم، ص 48، وكركين من قرى بغداد ينزلها النصارى، وسورا منطقة ينزلها اليهود.

(40) Rice, op. cit. pp. 2-22; SADAN, KHAMR, E.I^2, pp. 1029-30.

(41) أنظر، حكاية أبي القاسم، ص 48، 70، 88، والديارات، ص 54، 62، 66، 69، الأغاني، ج 5، ص13، 22.

(42) أنظر، نشوار المحاضرة، ج 2، ص 356، الإمتاع والمؤانسة، ج 2، ص 165، 167، 169، وحكاية أبي القاسم، ص 79، 81.

ويقصفون في العراء؛ وكـان الأغنياء يضربـون الخيم والفساط وتعـزف عليهم القيان التي ترافقهم[43]. وقد ترك لنا الواسطي لوحة لجماعة يقصفون في أحد البساتين البغدادية أمام إحدى النواعير ويرافقهم المغنون والموسيقيون[44].

أما المتحرجون فكانوا يتناولون الخمر في بيوتهم، وكان منهم محدثون ونحويون[45]، وذكر ياقوت أن بعض القضاة كانوا ينادمون الوزير المهلبي ويجتمعون عنده ليلتين في الأسبوع على أطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة، وهم ابن قريعة، وابن معروف، والقاضي التنوخي وغيرهم، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه، وهبوا ثوب الوقار للعقار، وتقلبوا في أعطاف العيش بين الخفة والطيش، ووضع في يد كل منهم طاس من ذهب بألف مثقال، مملوءاً شراباً قطربلياً وعكبرياً، فيغمس لحيته، بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ثم يرش بعضهم على بعض ويرقصون بأجمعهم، وعليهم المصبغات ومخانق البرم[46].

وكان علي بن عبد العزيز (ت 423هـ) أحد كبار الموظفين يدعو زملاءه وأصدقاءه، ويدعو الحاذقين في الغناء وعدداً من الإماء، وكان بين المدعوين القاضي أبو بكر الأزرق، وجيء له بالخمر على أنه شراب القارص، وشرب ستة أرطال من الخمر بأسماء مختلفة، مرة قارص، ومرة مدام، وتارة خندريس، وأخرى قهوة، ويحرد إذا قيل له خمر[47].

ونقل الثعالبي[48] طرفة عن أبي محمد السرجي الذي كان من ظرفاء الفقهاء والمحدثين ببغداد، فقد ركب السرجي يوماً في سفينة مع نصراني، فلما بسط هذا سفرته سأله السرجي مساعدته، ولما فرغا أحضر النصراني شرابه، وأراد السرجي أن يجد رخصة في الشراب فقال: ما هذه؟ وأدرك النصراني مراده فقال: خمر اشتراها غلامي من يهودي، فقال السرجي: نحن أصحاب الحديث نكذب سفيان بن عينية ويزيد بن هارون،

---

(43) أنظر، الديارات، ص 5، 46، 47، 54، 62.

(44) ناهدة النعيمي، مقامات الحريري، شكل 60، ص 274.

(45) أنظر، تاريخ بغداد، ج 12، ص 45، ج 6، ص 239، 331.

(46) معجم الأدباء، 5، ص334، والبرم حسب ابن البيطار هو اسم زهر من شجر السبط يكون ببغداد طيب الرائحة يتخذونه في بساتينهم.

(47) المصدر نفسه، ص 260.

(48) خاص الخاص، ص 61.

أفنصدق نصرانياً عن غلام يهودي؟ والله ما أشربها إلا لضعف الإسناد، ومد يده إلى الكأس وشربها.

ج - المغنيات والمغنون

ضمت الحانات المغنيات والمغنين والراقصات والجواري الساقيات، وقد اهتم أصحاب دور القيان بتدريب المغنيات وتثقيفهن، نظراً إلى أن أكثرهن من الأعاجم. وكان بعضهن يجهلن معاني ما يغنين[49]، فكان النخاس يمتحن الجارية إذا ظن أنها رومية، ويزعم أصحابها بأنها مولدة، بأن يجعلها تقول: «ناعمة» و«شمس» ثلاث مرات متواليات، ليتأكد من سلامة لسانها[50].

واعتبرت الجواري المكيات والمولدات أفضل من غنى[51]. وكانوا يعلمون الجواري السود والصفر الغناء، ولم يكونوا يعلمون الجارية الحسناء. وأول من علّم الجواري المثمنات كان إبراهيم الموصلي الذي بلغ بالقيان كل مبلغ، ورفع من أقدارهن[52].

واشترط في المغنية الجيدة أن يكون غناؤها مطبوعاً سليماً، وأن يكون صوتها شحرورياً، وأن يكون أداؤها صحيحاً، وأن يكون تدريبها جيداً[53].

واشهر من مغنيات بغداد في القرن الثالث، عريب وبدعة جاريتها، وسراب وشارية وجواريها، وندمان ومنعم ونجلة وتركية وفريدة وعرفان[54]. وبلغ عدد الجواري المغنيات في بغداد سنة 306هـ أربعمائة وستين جارية مغنية في جانبي المدينة وكلهن من الجواري، بالإضافة إلى عشر مغنيات من الحرائر، هذا إلى العديد من الجواري والحرائر اللواتي كن يغنين في البيوت، أو اللواتي كن لا يتظاهرن بالغناء، لشدة رقابة الأولياء عليهن[54].

ولدينا بعض أسماء المغنيات ومحلات غنائهن في بغداد خلال القرن الرابع؛ فمنهن زاد مهر، جارية أبي علي بن جهور، وكانت بارعة الجمال شجية العبارة[55]. وخرعوبة

---

(49) أنظر، المفوات النادرة، ص 22، 45.

(50) الجاحظ، البيان والتبين، ج 1، ، ص 93.

(51) المكان نفسه، أيضاً، ابن بطلان، ص 352.

(52) الأغاني، ج 5، ص 9.

(53) ابن بطلان، ص 385.

(54) الديارات، ص 154.

(54) حكاية أبي القاسم، ص 87.

(55) الإمتاع والمؤانسة، ج 2، ص 183 حكاية أبي القاسم، ص 71.

التي جمعت الذكاء مع الملاحة، قد رخّم الدلال ألفاظها وفتّر النعيم ألحاظها[56]. ومنهن صلفة، جارية أبي عابد الكرخي؛ وبنت حسنون التي كان يطرب ابن الحريري على غنائها، وخلوب جارية ابن أيوب التي كان يتمرغ في مجلسها أبو عبد الله المرزباني، وعلم القضيبية التي كانت تغني في محلة دار القطن عند جامع المنصور، والتي كان يتواجد عليها ابن خيرون، ويمزق أطماره، ويدق الحيطان برأسه. ومنهن درّة جارية أبي بكر الجراحي فكانت في درب الزعفراني ولا تقعد في السنة إلّا في شهر رجب، ويطرب على غنائها القاضي ابن صبر. وكان قاضي القضاة ابن معروف يطرب على غناء عليّة، وكان أبو إسحاق الجرجاني يطرب على صوت درة البصرية. ومنهن أيضاً فتوة القصرية التي كان يعشقها الشاعر ابن الحجاج، ومنهن خاطف التي كان يطرب على غنائها ابن نباتة السعدي الشاعر، ومنهن سندس جارية ابن يوسف صاحب ديوان السواد التي كان يطرب على غنائها أبن الأزرق الكلوذاني، وكانت تتشاجى وتتدلل وتتفتل وتتكسر. ومنهن علوة جارية ابن علوية في درب السلق بالكرخ التي كان يطرب إليها أبو محمد البرداني. ومنهن نهاية جارية السلمي التي كان يطرب إليها ابن المتيم الصوفي، ومنهن ريحانة جارية ابن اليزيدي التي يطرب إليها ابن غيلان البزاز، فتنقلب عيناه ويسقط مغشياً عليه، ويسعفونه بالكافور وماء الورد، ويقرأون في أذنه آية الكرسي والمعوذتين، وكان يرقى «بشراهيا مراهيا»[57]، ومنهن ترف الصابئة التي كان يطرب على غنائها ابن الصوفي، ومنهن أقحوان جارية ابن الأعمى في محلة بين السورين؛ وكان مجلسها يغص بنبلاء الناس وكان ابن البخاري يطرب على غنائها. ومنهن روحة جارية ابن الرصافة التي كان ابن الوراق يطرب على غنائها ومنهن الثنائي منتظم وعلوة جاريتي بنت خاقان، وكان ابن مهدي يطرب على غنائها. ومنهن حبابة جارية أبي تمام الزينبي التي كان يطرب إليها ابن غسان النصراني الطبيب، وهي التي كانت تنوح في الكرخ، وكانت لها أخت اسمها صبابة زلزلت بغداد في وقتها. ومنهن دلال جارية ابن قهوة، التي كان يطرب على غنائها أبو سعد الرقي ومنهن جارية طلحة الشاهد في سوق العطش، والتي كان غلام بابا يطرب على غنائها. ومنهن بلّور جارية ابن اليزيدي المؤلف بين القلوب المحرقة[58].

وإلى جانب هذه الأماكن الخاصة والحانات، كانت تقام مجالس الطرب في أماكن

---

(56) حكاية 76.

(57) شراهيا مراهيا، وردت في الإمتاع والمؤانسة، هيا شراهيا، ج 2، ص 167، وهي كلمة عبرانية معناها يا حيّ يا قيّوم كما يزعم أخبار اليهود. وهي يونانية بمعنى الأزلي. القاموس، ج 4، ص 287.

(58) أنظر، حكاية أبي القاسم، ص 78، 87، الإمتاع والمؤانسة، ج 2، ص 165، 182.

مفتوحة معزولة، ويدعون إليها المغنيات والجواري[59]، ويبدو من هذه الصورة انتشار الغناء في جميع محلات بغداد وشوارعها، حتى أن أحد الفقهاء ذكر أنه كان يمشي في شوارع بغداد فيسمع أصوات المغنيات من البيوت[60].

ويبدو أن الإقبال على مجالس الغناء لم يكن مقصوراً على فئة دون فئة، فقد ذكر إبراهيم الموصلي أن جماعة من الحاكة أقاموا سهرة دعوه إليها، وأخذوا يقترحون عليه، فاكتشف فيهم إلماماً بأنواع الغناء. وطلب العامة من إبراهيم بن المهدي أثناء البيعة له في بغداد، أن يغني لكل جانب ثلاثة أصوات. وتلقى فتيان بغداد أشعب فغناهم وطربوا لغنائه[61]. وكانت مختلف فئات الشعب تستمع إلى الغناء، فقد كان المحدث أبو القاسم ابن بنت منيع (ت 317هـ) يحضر مجلس خاطف المغنية (ت 361هـ) ويتواجد، وكان عمره يقارب المائة سنة. وتوفي أحد رجال الصوفية في ملهى بالكرخ فيه جارية تقول بالقضيب فتواجد على غنائها فدق صدره وأغمي عليه فمات[62]. وكان أحد كبار الموظفين لا يرى غضاضة في أن تغني زوجته لزواره من وراء ستارة[63].

تعززت مكانة بعض المغنيات، فكان بعضهن لا يغني إلاّ لمولىً مالك يطلب منهن الغناء[64]. وكانت المغنية المشهورة مواهب، جارية لأبي علي الحسن بن هارون الكاتب، فباعها واشتراها أحد الكتاب ودفعها إلى حميه المهلبي، الذي أعتقها وزوجها غلاماً من غلمانه، وقد ترقت بها الحال حتى أصبحت تخدم معز الدولة بغنائها[65]، وكان عضد الدولة يستدعي المغنيتين مشغلة الثقيلة وظلوم الشهرامية ويستمع إلى غنائهما[66]. وشهرت شيرين الحمدونية بحسن غنائها فاشتراها محمد بن رائق ثم قتل عنها، فتزوجها الحسين بن حمدان[67]، وبلغ الأمر ببدعة الصغيرة (الحمدونية) أنها كانت تحضر المجالس ومعها عدة جوار وخدم وفراشين[68].

---

(60) تاريخ بغداد، ج 10، ، ص 332.

(61) المصدر نفسه، ج 2، ص 4، 176، 177، ج 7، ص 38.

(62) نشوار المحاضرة، ج 2، ، ص 343، 356.

(63) المصدر نفسه، ج 7، ص 115.

(64) الفرج بعد الشدة، ج 4، ، ص 340.

(65) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 277، 278.

(66) الهفوات النادرة، ص 14.

(67) المنتظم، ج 6، ص 391، الصولي، أخبار الراضي، ص 101.

(68) نشوار، ج 2، ص 66.

اعتبرت المغنيات البغداديات من أفضل المغنيات[69]، حتى أنهن كن يبعن بأسعار عالية جداً، فقد اشترى أحد متوسطي النعمة جارية تغني له في بيته ودفع ثمنها ألف دينار[70]، واشترى محمد بن مقلة المغنية شيرين بثلاثة عشر ألف دينار، ودفع ألفاً سمسرة[71]. واشترى خراساني حبابة المغنية بثلاثين ألف درهم عزية[72]، وبيعت مغنية جيدة اسمها شراة بثلاثين ألف دينار في القرن الرابع، وفي حدود سنة 380هـ سام أحد الأمراء الديلم جارية بغدادية فطلبت سيدتها ألوف الدنانير، إلا أن الجارية رفضت العرض لأن الأمير أعور[73].

واشتهر في بغداد عدد من المغنين، ذكر الشابشتي منهم مطربي القرن الثالث وهم : عمرو بن نانة، وأحمد بن أبي العلاء، وابن الحفصي، وابن المكي، وسلمك الرازي، وعثعث، وسليمان الطبال، والمسدود، وأبو حشيشة، وابن القصار، وصالح الدفاف، وزنام الزامر، وتفاح الزامر[74].

واشتهر منهم في القرن الرابع ابن بهلول، صاحب الصوت القوي الناعم الرخيم، وعرف بإشاراته الخالية ودمائته الحلوة. ومنهم غلام الأمراء، والموصلي، ومذكور، وابن القصباني، وعلّون غلام ابن عرس[75].

واشتهر منهم ابن طرخان الطنبوري الذي أعجب به ابن رائق. ووصفه التنوخي بأنه كان أهلاً للإعجاب، وكان أطيب الناس حلقاً وأحسنهم صنعة، وكان يجس الطنبور جساً أطيب من الضرب، وكان ابن رائق يشرب على غنائه[76]. وقد هجي ابن طرخان على لسان محمد بن عبد الواحد ووصفه بأنه يصيح بحلق بلا طبقة، وقال[77]:

فارقت بينك والإيقاع في قَرَنٍ ... فأنت أطفل من كلب على مَرَقهْ
فإن دعيت ففي الأحيان عن غلط ... وإن حظيت بشيء فهو من صدقه

(69) حكاية أبي القاسم، ص 50.
(70) المفوات النادرة، ص167.
(71) المنتظم، ج 6، ص 391.
(72) حكاية أبي القاسم، ص 83.
(73) المفوات النادرة، ص 188، 238.
(74) الديارات، ص 154.
(75) حكاية أبي القاسم، ص 84، 86.
(76) نشوار، ج 3، ص 284.
(77) المصدر نفسه، ج 1، ص 92.

وهذه الصفات هي لمطرب العامة الذي وصفه أبو المطهر الأزدي[78] بأنه جهم ضخم، يقتل الغناء خارجاً عن الإيقاع، لا معنى في جملته، ولا فائدة في تفصيله، خضيب الشعر، طويل الشارب، أكول مضحك، وإذا غنى أخذ بالعويل.

أما المطرب الجيد فقد وصف بالمعرب المطبوع المغرب، الذي يقول الشعر ويكسوه اللحن الصحيح ويغني به على الوتر الفصيح، غناء يرتفع له حجاب الأذن ويأخذ بمجامع القلب ويمتزج بأجزاء النفس، غناء يحرك النفوس ويرقص الرؤوس، ويملأ الآذان سروراً، يشفي بغنائه ويحث بطرائه[79].

وقد أحصي عدد المغنين من الذكور في بغداد سنة 305هـ فبلغ خمسة وسبعين مغنياً[80]. ويبدو أن المغنين كانوا يضمون أيضاً الموسيقيين الذين يعزفون على آلات موسيقية مختلفة، إذ تختص كل آلة بنوع معين من الغناء.

وقد وردت أسماء الأدوات الموسيقية، وأسماء اللاعبين بها في عدة مصادر، ومنها: العود، والبربط، وهما من الوتريات ينقر عليهما[81]، ومنها: الكرّاع، وهي نوع من الطبل الصغير وتسمى المغنية التي تلعب عليها كراعة، وعرفها الأزدي بالكراعة العراقية[82]، ومنها: الطنبور، ويسمى من يجر عليه بالطنبوري، ومنه نوعان، الطنبور البغدادي، والخراساني[83]. ومن الوتريات الرباب، والصنج. وكانت أبرع العازفات من السامريات، ومنها، المعازف وهي في أوصافها التي ذكرها الفارابي تشبه آلة القانون الحالية وتقترب من آلة السنطور، ومنها: الدف، الذي كانت تضرب به الجواري، ومنها: الطبل، الذي كانت تستخدمه النساء، وقال الأزدي: إن أفضلهن الطبالة العثعثية، مما يعني أن لعثعث مدرسة خاصة في ضرب الطبل[84]، ومنها المزمار، الذي عرف منه عدة أنواع، وذكر الأزدي الزامرة الزنامية، ويفهم منه أنها كانت مختصة بالعبيد

---

(78) حكاية أبي القاسم، ص ص 11، 50.

(79) المصدر نفسه، ص 49.

(80) المصدر نفسه، ص 87، الإمتاع، ج 2، ص 184.

(81) التعبير في الرؤيا، ق 158ب.

(82) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 174، حكاية أبي القاسم، ج 2، ص 50.

(83) التعبير، 159آ، أيضاً، عبد الأمير صراف، الفارابي والآلات الموسيقية المشهورة في بغداد، مجلة المورد، م 4، عدد 3، (بغداد، 1975) ص91.

(84) التعبير، ق 159آ، نشوار، ج 2، ص 174، عبد الأمير صراف، ص 94. حكاية أبي القاسم، ص 50.

(السود) يزمرون بها ببراعة[85].

ومن الراقصات، وردت أنواع منهن: الزفانات اللاتي يؤدين رقصة هي نوع من أنواع الدبكة، والتي كان المخنثون يشاركون فيها[86]، وعرفت رقصة الدستبند التي ترقص في الأعياد[87]. وأشهر الراقصات هن الأُبُلّيات، وقد جمع منهن في قصر المتوكل أربعائة أبلية. والأبلية، تسمى بالنبطية بامرأة كانت تسكنها يقال لها هوب خمارة[88] وقد ورد ذكرالأبلية في حكاية أبي القاسم، وفسرها بعضهم بأنها المرأة المغنية في الحفلات[89].

وكان الصوفية يمارسون الرقص، واشتهر منهم «درة» الذي كان يرقص في الحانات، وكان يقيم حفلات داخل البيوت. واشتهر منهم أيضاً، أبو العباس الصوفي، الذي وصف بأنه كان أخف الناس روحاً، وأشدهم مجوناً، وأطيبهم قولاً ورقصاً[90].

واعتبر الرقص من الملاهي المقبولة، وهو تعبير عن الفرح والراحة وتطلب في الراقص أو الراقصة، خفة البدن، وتبدل الحركات، وتنوعها[91].

وذكر المسعودي أن أنواع الرقص ثمانية: الخفيف، والهزج، وخفيف الرمل، وخفيف الثقيل الثاني، وثقيله، وخفيف الثقيل الأول، وثقيله. وأكد أيضاً على شروط يجب توفرها في الراقص، منها: أن يكون خفيف الروح، حسن الطبع على الإيقاع. وأن يكون طويل العنق والسوالف، رقيق الخصر، يلبس ثياباً مستديرة من أسافلها، لطيف الأقدام، لين الأصابع ومنها: أن يكون كثير التصرف في ألوان الرقص وأحكامها، ثابت القدمين، وأن تتناسق القدمان في عملها[92].

د ـ الأغاني

ترك لنا التراث الغنائي العباسي منظومات فصحى في أكثريتها الغالبة. ولعل

---

(85) صراف، ص 93، حكاية، 50، أيضاً، صحاح الجوهري، ج 1، ص 547، مادة: (زنم).

(86) نشوار، ج 2، ، ص 174، الأغاني، بولاق، ج 10، ، ص 77.

(87) التعبير في الرؤيا، ق 169ب.

(88) الديارات، ص 150، ابراهيم السامرائي، كتاب البخلاء، مجلة التراث الشعبي، م 5، عدد 6 ـ 7 (بغداد، 1974)، ص 25.

(89) حكاية، ص 50، الديارات، ص 152.

(90) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 189، 191، ج 2، ص 278.

(91) التعبير في الرؤيا، ق 159آ ـ ب.

(92) مروج الذهب، ج 2، ص 491.

السبب في سيادة هذا اللون، هو أن القصر كان الزبون الأفضل لشراء المغنيات بأسعار عالية[93]. وفي تقديري أن لتشجيع الغناء في العصر العباسي الأول أسباباً سياسية. فقد فوجىء الخلفاء ورجال السلطة الجدد بأن المغنيات المشهورات كن لا يزلن يرددن أغان في مدح بني أمية[94]، ولا بد أن من هذه الأغاني ما كان يتردد داخل الحانات؛ ومن هنا فإن حشد المغنين والشعراء والموسيقيين، إذ كان يضفي على القصر هالة من العظمة، فإنه كان أيضاً يسهم في تثبيت الوضع الجديد، ويُسخر في هزيمة تراث بني أمية الذي لم يزل يتردد على أَلْسِنَة المغنين. وليس بعيداً عن هذا احتضان القصر لمطيع بن إياس وأبي نواس وغيرهما من زعماء التجديد الشعري[95]؛ كما أن انصراف ابراهيم الموصلي إلى تدريب فوج جديد من المغنيات الحسان، لم يكن إلاّ ليخدم أسياده أصحاب القصر، فأصبح لزاماً على النخاسين امتحان سلامة لسان المغنيات وتثقيفهن حتى يدركن معاني ما يغنين.

ووجد الشعراء أن عليهم أن يتقربوا من الخلفاء بأبيات تصلح للغناء، فقد طلب أحد المغنين إلى شاعر أن ينظم له أبياتاً يغنيها أمام الخليفة المأمون[96]. وكان سرور المتوكل كبيراً بمغن جلس بين يديه يمدحه بأغنية، ويتوسل الخير بعد رؤية وجه الخليفة، ويعاتب حبيبته ويتوعدها بعدل المتوكل[97].

وقد فتح إقبال البغداديين على الغناء آفاقاً واسعة أمام الشعراء، فنظموا أبياتاً سهلة الفهم في مدينة يختلط فيها سكان من أصول مختلفة تطغى على أحاديثهم اللهجات الشعبية[98]. وأخذ بعض أنواع الشعر الشعبي يظهر على أَلْسِنَة المغنين. فقد ذكر أن الرشيد كان يعجبه غناء الملاحين في الزلالات إذا ركبها، لكنه كان يتأذى بفساد لغتهم، فأمر بأن ينظم لهم الشعراء شعراً يغنون فيه، وتلقف أبو العتاهية هذه الدعوة فنظم شعراً ودفعه إلى ملاح حفظه وغناه[99]. وقيل إن إبراهيم الموصلي غنى أمام الخليفة بشعر شعبي قال فيه[100]:

---

(93) أنظر، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 341، حيث عزم يحيى البرمكي على شراء جارية قوالة بثلاثين ألف دينار، أنظر أيضاً، ص 310، حيث يذكر المؤلف أن المقتدر اشترى جميع مغنيات دار قيان بغدادية.

(94) أنظر، الهفوات النادرة، ص 21، 24، أيضاً، نهاية الأرب، ص252.

(95) أنظر، الهفوات النادرة، ص 394، حيث يذكر طرد حماد الراوية ربيب بني أمية من مجلس جعفر بن المنصور، بعد أن انشد حماد قصيدة تحتوي على كلمات بدوية.

(96) الديارات، ص 19.

(97) الهفوات النادرة، ص 23 ـ 24.

(98) البصائر والذخائر، ج 1، ص 216، أيضاً، المقدسي، ص 128.

(99) الأغاني، ط. بولاق، ج 3، ص 177، 178.

(100) محمود العبطة، الفولكلور في بغداد، (بغداد، 1963)، ص 24.

أنــا جــت مــن طــرف المــوصــل أحــمــل قــلــل خــمــريــا
مــن شــارب المــلــوك فــلا بــد مــن ســكــريــا

ومعروف أن إبراهيم الموصلي تعلم الغناء على يد جوانويه المجوسي وجماعته من المغنين[101].

وقيل أيضاً: إن «الموال» أو «المواليا» ظهر في بغداد بعد أن انتقل إليها من واسط، وأن الرشيد لما قتل البرامكة طلب ان يُرثى من بينهم جعفر، فرثته جارية بهذا الوزن وجعلت تقول يا مواليا، وغنت[102]:

يــادار أيــن ملوكِ الأرضْ أيــن الفــرسْ أين الــذين حموهــا بــالقنــا والتــرسْ
قــالت تراهم رممـا تحت الأراضي الدرس سكـوت بعد الفصـاحة ألسنتهم خـرس

إن غناء إبراهيم الموصلي والموال في رثاء البرامكة ما هما إلا دليل على انتشار هذا اللون من الغناء قبل العباسيين. وقد حفظ لنا غرس النعمة الصابيء نموذجين لغناء شعبي كان يغنيهما شيخ دمشقي في عهد الوليد الثاني (توفي 126 هـ) ويقول في أولهما[103]:

ســلّور في الــقِــدْر ويــلي عــلوه جــاء الــقطّ أكــله ويــلي عــلوه

ثم يقول في ثانيهما:

وتــرمــيــني حــبــيــبــة بــالــدرّاقــن وتحــســبــني حــبــيــبــة لا أراهــا

وهذا ما يجعلنا نرجح أن فن الموال لم يكن عراقي النشأة، وأنه على الأقل لم يكن عباسي النشأة.

والواقع أن الغناء يساير توزع المجتمع النفسي، فيتوزع بدوره إلى أنواع يلبي كل واحد منها حاجات مختلف الفئات الإجتماعية. وبالتالي، فإن الغناء لجأ إلى الشعر المنظوم كما لجأ إلى الشعر الشعبي. ومع غموض الموقف، فإننا نرجح وجود أنواع من الشعر الشعبي كانت تنتشر في الحانات على ألسِنة الجواري الجاهلات، أو من تلك الأغاني التي يغنيها عمال الحرف أثناء مزاولتهم أعمالهم، ثم الشعر الفصيح الذي ينقسم بدوره إلى قسمين: قسم يغنى في قصر الخليفة وبيوت كبار الموظفين والأمراء، وقسم يغنى في مجالس

---

(101) الأغاني، ج 5، ص 4.
(102) أنظر، عبد الكريم العلاف، الطرب عند العرب، (بغداد، 1963)، ص 93.
(103) الهفوات النادرة. ص 392، ولعل تصحيف: عليه، ولعلع معبد الذي روى القصة قد أخطأ في النقل. والسلور: سمكة.

طرب من نوع خاص، وتتميز بالغزل العفيف أو الصوفي.

ولدينا شواهد تساعدنا على تبني مثل هذا الترجيح. فقد ذكر أن للقدماء لحون يستعملونها وقت الحمل والتراجع في الحرب، وأن للرعاة أصواتاً يستعملونها عند تسريحهم وفي وقت جمعهم لما يرعونه من الإبل والغنم والخيل[104]. ويتحدث البعض عن غناء الصيادين والسقائين والمكارين والطحانين وعمال البناء[105].

ولا بد أن هذه الأغاني قد عرفت بعض التحوير في انتقالها من شخص إلى آخر، مع المحافظة على اللحن والإيقاع. ومع شيوع الغناء في بيوت الناس والشوارع في مختلف المناسبات، أصبح القبول بالشعر المكسور والمغلوط طبيعياً، دون أن يوجد من يتصدى لإصلاحه[106] وإذا أضفنا إلى هذا أن المغنين الشعبيين الذين امتهنوا الغناء ليكسبوا عيشهم كانوا من أصول غير عربية، أصبح بإمكاننا تقدير مدى ظهور وشيوع الشعر العامي في الغناء[107].

ومن فنون الشعر العامي التي عرفها البغداديون كان الموال، الذي لا يلزم فيه مراعاة قوانين اللغة العربية من إعراب آخر الكلمات، بل إنه يحب اللحن، ويجوز فيه استعمال الألفاظ الجارية في تخاطب العوام من الناس لفظاً وكتابة[108].

وينقسم الموال إلى ثلاثة أقسام: الأول منها، رباعي، ويتألف من أربعة أشطر. والثاني، أعرج ويتألف من خمسة أشطر، والثالث، النعماني، الذي يتألف من سبعة أشطر[109].

وعرف البغداديون الزجل الذي انتشر في الأندلس وانتقل إلى المشرق وغنته العامة في بغداد وسمي بالحجازي[110].

ومن الغناء العامي أيضاً عرف «القوما»، وهو شعر شعبي بغدادي كان ينشد في

---

(104) الحسن بن احمد بن علي الكاتب، كمال أدب الغناء، (القاهرة، 1975)، ص 23 ـ 24.
(105) نهاية الأرب، ج 4، ص 60، 239 ـ 243، أيضاً الحيوان، ج 4، ص 193.
(106) كمال أدب الغناء، ص17، 24، نهاية الأرب، ج 4، ص231.
(107) انظر أدب الغناء، ص 24 حيث يتحدث عن مطلع غنائي شعبي. الالا. ويتحدث صاحب أدب الغناء، ص 29، عن الغناء على مشط الحديد، ولعله آلة موسيقية شعبية.
(108) العلاف، الطرب عند العرب، ص 93.
(109) المرجع نفسه، ص 94.
(110) المرجع نفسه، ص 96، أيضاً الفولكلور في بغداد، ص 23.

سحور رمضان، إذ كان جماعة من العامة يطوفون بالليل في شهر رمضان على الحارات، وينادون بالسحور، ويخرجون ذلك في كلام موزون على هيئة الشعر، وإن لم يكن من بحار الشعر المنقولة عن العرب[111].

وتؤكد لنا بعض النصوص وجود الشعر العامي الذي تركته بعض المصادر، ولعل أوضحها تعبيراً ما نسب إلى الخليفة المعتمد من شعر عامي وصف بالشعر «المرذول» ومن ذلك قوله[112]:

مالي وهذا الهوى مالي   لو أمكنني افتديته بمالي
وهذا الحبيب ما يواصلني   فأنا مع هجرانه في قتال
وكنت والله ما بدا لي   بدالي على ما أرى في حبه

ومنه هذا المخمس:

دخلت يوماً الجوسقا   فاصطدت طيراً أبلقا
أخذه مني الموفقا   فحين أخذه صفقا
وطار منه فرقا

ومن شعره أيضاً:

مهمّ مهم مهم   وأمر فظيع وأمر صرم

أيحسن أن تتركوا كلكم   وأقعد في البيت كنّي حرم
ويمضي الأمير أبو أحمد   ويضرب بالطبل كردم كردم

ويذكر أن المعتمد كان مولعاً بالغناء[113]، وكان ينظم الأشعار ويرسلها إلى عريب المغنية (ت 277هـ)، وكانت تتضايق من شعره العامي وتقول: «ويلي كم أغني من حروف ألف با تا ثا»[114].

ومن الشعر الشعبي الذي كان يغنى في الحانات، ترك لنا الأزدي نصوصاً

---

(111) الطرب عند العرب، ص 97، الفولكلور في بغداد، ص 24.
(112) الديارات، ص 103، 105.
(113) مروج الذهب، ج 2، ص 489.
(114) الديارات، ص 99، أنظر أيضاً، فوات الوفيات، ج 1، ص 141.

كثيرة[115]. فمنها ما كانت تغنيه فتوة القصرية:

يا ليتني أجي بقربهم   فإذا فقدتهم انقضى بختي

ومنها ما كانت تغنيه ترف الصابئة:

لب الهوى كلما دعاكا   ولاح في الحب من نهاكا
من لام في الحب أو لحاكا   فزده في غيك انهاكا
إن لم تكن في الهوى كذاكا   فإن أربابه سواكا

ومنها ما كان يغنيه أحد المغنين في مغن آخر:

أبو العباس قد حجّ   وقد عاد وقد غنى
وقد عانق عياراً   فهذا هم كما كنا

ويعقب الأزدي على هذا الغناء بقوله: وأصحابنا البغداديون يستملحون قولهم «هم كما كنا» ويرونه من العيّ الفصيح.

ومن فنون الغناء الشعبي العراقي فن الدوبيت وعرفه الجوهري بأنه الغناء[116]، وهو قالب رباعي دخل العربية من الفارسية وانتشر في بغداد وفقدت أصوله قبل القرن الخامس[117]. وقد اختصت الرباعية الفارسية ببحر الهزج، واقتصرت في موضوعاتها على الغزل أو الخمريات أو التصوف[118]، ولعل هذا ما جعل الدوبيت مناسبة للغناء البغدادي الذي قام على الصوت وهو وحدة غنائية فيها بين البيتين إلى الأربعة[119].

وما لدينا من الرباعيات المغناة مختصة بالغناء الصوفي أو ما عرف بـ«القول»، وعرفت المغنية بالقوالة، فقد ذكر أن أحد المتصوفة كان يترنم بالرباعيات[120]. وكان هذا اللون من الغناء يرافقه الضرب بالقضيب ويفضله المتحرجون، وقد وصفه المأموني الشاعر بقوله[121]:

---

(115) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص 79، 81، 84.

(116) الصحاح، ج 6، ص 2294.

(117) أنظر، هلال ناجي، رسالتان فريدتان في عروض الدوبيت، مجلة المورد، م 3، عدد 4 (بغداد، 1974) ص 159، ويذكر أنه عثر على رباعية تعود للقرن الرابع.

(118) احمد نصيف الجنابي، الوزن والقافية بين العربية والفارسية، مجلة المورد، مجلد 1، عدد 3 ـ 4 (بغداد، 1972)، ص 131.

(119) رسائل الجاحظ، ج 2، ص 176، الازدي، بدائع البدائه، ص 150.

(120) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 100.

من الملاهي وليس ينكرهُ ذو ورعٍ حين ينكر اللعبا
يلهو به من لها وما اقترف الذنوب في فعلةٍ ولا اقتحبا
يضرب وجه الثرى به فترى كل فؤادٍ به قد اضطربا
إذا تثنى ثنى القلوب وقد أهدى إليها السرور والطربا

ويذكر التنوخي أن جعفر بن يحيى طلب جارية قوالة[122]. واشتهرت من القوالات «خاطف» التي كانت تغني بالقضيب، وكانت تدعى إلى الحفلات وهي كبيرة السن، وكان أحد المحدثين يحضر مجلسها ويتواجد من «قولها»[123]، وكان أبو الفتح الصوفي البغدادي يحضر عند جارية «تقول» بالقضيب فتواجد في مجلسها ومات، وكانت تغني بأبيات عبد الصمد بن المعذل[124]:

وجهك المأمول حجتنا يوم تأتي الناس بالحجج

وكان الشبلي الصوفي يتواجد على قول ابن طومار[125]. وكان مجلس تحفة القوالة (ت 326هـ) يحضره جلة القوم من الفقهاء وتغني لهم من وراء ستارة[126] وتقول:

بيَ شُغْلٌ عن الشغل عنه بهواه وإن تشاغلَ عنّي
سَرُّهُ أن أكون فيه حزيناً فسروري إذا تضاعف حزني
ظنَّ بي جَفْوةً فأعْرَضَ عَنّي وبدا منه ما تخوف مني

أما القوالون من الرجال فقد اشتهر بعضهم بقراءة القرآن المنغمة. والعلاقة بين القراءة والألْحَان واضحة النشأة. فقد ذكر ابن قتيبة[127] أن أول من قرأ بالألحان عبد الله بن أبي بكرة، وكانت قراءته حزناً وليست على شيء من ألحان الغناء ولا الحداء، وانتهت طريقته إلى سعيد العلاف الذي أعجبت قراءته هارون الرشيد، حتى عرف بقاريء أمير المؤمنين؛ وكان القراء كلهم: الهيثم وأبان وابن أعين وغيرهم يدخلون في القراءة من ألْحَان الغناء والحداء والرهبانية، فمنهم من كان يدس الشيء من ذلك دساً

---

(121) **يتيمة الدهر**، ج 4، ص 191.
(122) **الفرج بعد الشدة**، ج 4، ص 339.
(123) **نشوار**، ج 2، ص343.
(124) **المصدر نفسه**، ص 356.
(125) **الثعالبي، الاعجاز والايجاز**، (بيروت، د. ت. دار صعب)، ص 76.
(126) **الخطيب البغدادي**، ج 13، ص 274.
(127) **المعارف** (بيروت، 1970)، ص 232.

رقيقاً، ومنهم من كان يجهر بذلك حتى يسلخه، حتى كان محمد بن سعد الترمذي، فإنه قرأ على الأغاني المولدة المحدثة.

واشتهرت بغداد بقرائها، ونذكر منهم: محمد بن جعفر المعروف بأبي بكر الآدمي، وقد وصفه ابن الجوزي بـ«صاحب الألحان» وقال: إنه كان من أحسن الناس صوتاً[128]، واشتهر منهم أيضاً: ابن بهلول، الذي كان يقرأ القرآن بألحان يتواجد عليها الصوفية[129]، وكان هذا يغني في مجالس الغناء بأغاني الزهد والرقائق، ويوقع بالقضيب[130]؛ وكان منهم الحسين بن غريب البقال[131] وابن القصباني، الذي يوقع بالقضيب[132]، وكان منهم أبو بكر المقريء وشيخ القراء في أيامه (ت 324هـ) يغني بالقضيب، وقد أدهش مستمعيه في سهرة ضمت جماعة من أصدقائه[133].

والواقع أن الغناء حظي باحترام البغداديين في القرن الرابع، وعبر نصر بن يعقوب الدينوري عن هذا الموقف باقتران المغني بالحكيم أو المذكِّر أو الخطيب، ولعل هذا انعكاس لواقع يسود أوساطاً معينة تقدر في الغناء الجيد «إنشاده القصائد بلحن حسن وصوت عال، فإن ذلك أفضل لأصحاب الألحان وأصحاب الموسيقى ولجميع من كان منهم». ومع هذا فقد اعتبر احتراف الأشراف للغناء عملاً مشيناً. كما اعتبر غناء الأغنياء في المحلات العامة أمراً قبيحاً، وسمح للفقراء والموالي باحتراف هذه المهنة[134].

---

(128) المنتظم، ج 6، ص 392، 393.

(129) نشوار، ج 2، ص 356.

(130) حكاية أبي القاسم، ص 84، وانظر نموذجاً من غنائه في المكان نفسه.

(131) نشوار، ج 1، ص 188.

(132) حكاية أبي القاسم، ص 85.

(133) تاريخ بغداد، ج 5، ص 147.

(134) التعبير في الرؤيا، ق 159آ ـ ب، أيضاً الأغاني، ج 6، ص 74.

ثانياً: الخلاعة

1 ـ مجالس القيان

انتشرت القيان في دور الكشاخنة أو القيانين، وقضت مهنة النخاس أن تكون له دار خاصة يعرض فيها جواريه أمام الزبائن، ليتمكنوا من إقامة علاقات معهن، فيكشف عن مواهب جواريه من جهة، ومن جهة أخرى كان يتوخى أن تكتسب الجواري الساذجات الخبرات الكافية، من غناء ومنادمة ومسامرة عن طريق احتكاكهن بثقافة زوار القيان[1]. ولم تلبث دور القيان أن أصبحت مركزاً دائماً من مراكز اللذات الحسية، تقدم فيها الأطعمة والأشربة، وتعرض فيها الجواري خبراتهن من الغناء والرقص والمداعبة[2].

وتصور لنا بعض المصادر العلاقات داخل القيان بين ثلاثة أطراف، هي: المقيّن أو القيّان، والقينة، والزبون أو الضيف أو الزائر. فنرى المقين يتصنع الغيرة ويراعي الرقباء، ويشدد الحجاب، حتى يضطر العاشق إلى الشراء، فيما هو يغري بقيانه ويقود عليهن[3]. وينصح المقين القينة بسلوك معين مع الزوار، فهي تغازلهم وتتصنع الغيرة من صويحباتها وتهديه الهدايا في النيروز والمهرجان[4]. ويتسقط القيّان أخبار الأغنياء ورجال السلطة ويبلغ سعادته بأن تقع القينة في هوى أحدهم[5]. وكان القيان يقوم بدعوة أصحابه وأصدقائه إلى مجالس القيان؛ وقد تتدلل القينة على سيدها إن كانت ذات نفوذ[6].

وهناك نوع آخر من القيان كن يعملن في الحانات، وقد وصف علي بن الجهم العلاقة داخل الحانة بين الغانيات «والضيف» (الزبون) وصاحب الحانة. فذكر أنه كان ينزل بباب الكرخ على قيان جميلات من قيان المفضل. ورأى سرور المقين بإطراح الضيف حبائله، وإذا وجد أن ضيفه متزمت، فإنه يأتيه ويذم الوقار وأهله، وينصحه بالابتعاد عن ضوء المصباح، ويتغافل عن ضيوفه ولا يرد الأيدي المريبة ما دام ينال حظه من المآكل والملبس. وليس في الحانة من ممنوع، ما دامت هدايا الضيوف جمة، وما داموا يشربون،

---

(1) أنظر، نشوار، ج 1، ص 305.

(2) أنظر، الجاحظ، رسالة في القيان، رسائل، ج 2، ص 170.

(3) المصدر نفسه، ص 165، 166.

(4) المصدر نفسه، ص 173.

(5) المصدر نفسه، ص 179.

(6) حكاية أبي القاسم، ص 71.

وبعد أن تخبو شعلة المصباح يقبل الضيوف على الغانيات ويضمونهن[7].

وكان هناك طريقة أخرى تعمل بها الجواري، وهي أن ينتقلن إلى البيوت يعملن في حفلات اللهو الخاصة، فيغني المغنون، بينما الحضور يلهون بالجواري، وقد يقوم بهذا العمل نخاس أو قيان أو صاحب جارية، فيكون له فيه سبيل للارتزاق وكسب العيش[8]

وقد ازدهرت بيوت القيان في القرن الرابع حتى عملت النساء قيانات، وكانت لهن قيانهن اللواتي يعرضنها على الزبائن. فكانت إحدى النساء تدير داراً للقيان اشتراهن المقتدر جميعاً[9] وكانت إحدى المغنيات تدير بيتاً آخر[10]. وعشق بجكم أمير أمراء بغداد جارية في قيان كانت تديره هاشمية، وكانت «الزكورية» تدير قياناً[11].

وكان أصحاب دور القيان يحصلون على ثروات كبيرة، وكان أكثر زبائن الدور إنفاقاً، هم الوارثون[12]. وذكر أحد هواة القيان بأنه كان ينفق مائتين أو ثلاثمائة دينار جذوراً على جارية مغنية ينقلها إلى بيته[13]، وكان هاو آخر يجذر بمائتي دينار يومياً، وينثر على الجواري مئات الدراهم. وكان آخر ينفق يومياً مائة دينار على جارية[14]. وذكر آخر أنه كان يجذر الجارية بخمسين ديناراً[15]. وأنفق أبو بكر بن السراج (ت 316هـ) أموالاً كثيرة على مغنية في القيان[16].

وكان أصحاب دور القيان يستحثون أصحاب الأموال على الانفاق بوسائل مختلفة، فمنهم من يحقّر المبلغ الذي يملكه الهاوي، إمعاناً في دفعه على الانفاق[17] ومنهم من يتواطأ مع أبناء الأغنياء بالادعاء عليهم بدين في ذمتهم، ليتمكن الشباب من الحصول

---

(7) مصطفى جواد، مقدمة كتاب الفتوة، لابن المعمار الحنبلي، ص 21، الأغاني، ط. دار الكتب، ج 10، ص 219 ـ220، ديوان علي بن الجهم، ص 52 ـ 53.

(8) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 310.

(9) الفرج بعد الشدة، جـ 4 ص 216، أيضاً نشوار جـ 1 ص 305.

(10) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 66، ج 8، ص 263.

(11) المصدر نفسه، ج 1،، ص 187، 196.

(12) المصدر نفسه، ص 191.

(13) المصدر نفسه، ج 2، ص 60، 62، والجذور هي أجور المغنيات والجواري.

(14) المصدر نفسه، ج 1، ص 184، 189.

(15) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 334.

(16) الديارات، ص 118.

(17) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 187.

على النقود من ذويهم[18].

كان القيانون يحصلون على المبالغ التي يدفعها الزبائن إلى الجواري، ويقبضون سلفاً أجرة من يسمحون بإخراجهن إلى بيوت الزبائن[19]. وليس لدينا معلومات عن حصة المغنيات من المبالغ التي يتقاضاها المقينون. فقد كانت إحدى المغنيات تتقاضى خمسة دنانير عن الليلة التي تغني فيها[20]، وطلبت مغنية دينارين لتقضي مع رجل ليلته، وذكر الأزدي أن أجور المغنيات غالية[21]، ويبدو أن الأجور تتفاوت بين الجواري حسب الرغبة فيهن، أو حسب قدراتهن الغنائية، وهذا ما جعل المقينين يغالون في أسعار المرغوبات، طمعاً في ربح أوفر[22].

ووصفت الجارية البغدادية بأنها لا تعرف الود، ولا تعرف إلا الدرهم والدينار[23]، فقد أخرجت إحدى الجواري عاشقاً لها من دار القيان، بعد أن علمت بفقره، وادعت أنها تخاف عليه من سيدتها، وجعلته ينتظر تحت شرفة الدار، وجاءت بماء السكباج وأراقته عليه[24]. ويجد الجاحظ عذراً للجارية، فهي تعاشر جماعة من الخلعاء والمجان وتعيش حياة ليس فيها ذكر لعفاف أو أخلاق[25].

وكان الواقع المعيشي يتفاوت بين الجواري. فقد تمتع بعضهن بمستوى جيد من المعيشة[26]، واشتكى صيرفي صغير من نفقات جاريته، حتى أنها أثرت في رأسماله البالغ ألف دينار، الذي انخفض حتى ربعه، وعندما أوقفها على واقعه وطلب إليها الإقتصاد في طلباتها، أخذت بمشاكسته، مما اضطره إلى بيعها[27]. وتحدث الأزدي عن زاد مهر جارية ابن جمهور[28]. فذكر أن هذا كان كثير التعاتب والتهاجر والدلال والملل، وكانت جاريته

---

(18) المصدر نفسه، ج 3، ص 12.
(19) المصدر نفسه، ج 1، ص 66، **الأذكياء**، ص 44.
(20) **الهفوات النادرة**، ص 20.
(21) **حكاية أبي القاسم**، ص 53، 72، 73.
(22) أنظر، **نشوار المحاضرة**، ج2، ص 66، **الأذكياء**، ص 44.
(23) **حكاية أبي القاسم**، ص 72.
(24) **نشوار المحاضرة**، ج 1، ص 179.
(25) **رسائل**، ج 2، ص 176.
(26) أنظر، **حكاية أبي القاسم**، ص 54.
(27) **الفرج بعد الشدة**، ج 4، ص 350.
(28) **حكاية أبي القاسم**، ص 71.

تقابله بالمثل، وتشكو سوء طعامها من الباذنجان، وعدم حمله إليها المحلب، وادعائه أن محلب السوق غير طيب. وضاق ابن جمهور من غيرة زوجته من الجارية، فأخذهما خارج بغداد، فأرسل الجارية إلى البصرة والزوجة إلى واسط. فاستاءت الجارية وكتبت إليه تشكو قصور ما خصصه لها عن نفقاتها، وادعت أن مبلغ خمسة وثلاثين درهماً شهرياً لا يكفيها ولو شربت فقاعاً أو دبقاً، وهددته بأنها مضطرة إلى أن تخرج إلى الغناء الذي يتبعه الزنى، وأصرت على أن يرسل إليها بنفقة تكفيها كسوتها وطعامها. وتبين رسالة هذه الجارية مدى المنافسة بينها وبين زوجة السيد فتصفها بالحمارة البلهاء، والتي يكسر الزوج الجوز على رأسها ولا تجسر على معارضته، وتهدد الجارية سيدها بأنها ستدقه دق الكشك وتهينه هوان الكتان[29].

ومما يضايق الجواري خشية أصحابهم من حملهن، حتى لا يذهب ثمن الجارية[30] إذ يمنع عليه بيعها بعد أن تصبح أم ولد[31]، لذلك كان الرجال يتبعون مع جواريهم طريقة العزل، مما يثير نقمتهن. وكان بعضهم يستخدم طريقة لمنع الحمل هي كناية عن مسحوق مؤلف من البنج وحليب الفرس[32]، وكان بعضهم يعاشرهن بطريقة شاذة فيضايقهن سلوكه[33].

ووجد من العامة من اقتنى الجواري، إلا أنهم كثيراً ما يضطرون إلى بيعهن بعد إملاق. فقد اضطر أحدهم لأن يبيع جاريته بألف وخمسماية دينار، وباع أحدهم جاريته بألف درهم وكسر، وباع آخر جاريته بثلاثمائة دينار، وباع تاجر جاريته بألف دينار[34].

2 ـ الاستهتار

ترك انتشار الجواري في حانات بغداد وبيوتها آثاره على حياة اللهو، فانتشر المجون وكثر المستهترون، وظهر إلى العلن مجون الرجال والنساء[35]. ولاحظ الجاحظ العلاقة

---

(29) أنظر، المصدر نفسه، ص 73 ـ 75.

(30) أنظر، نشوار، ج 3، ص 37، أيضاً، النويري، نهاية الارب، ج 4، ص 65. أنظر أيضاً، الحيوان، ج 7، ص 89، حيث يتحدث الجاحظ عن نساء تستف الاثمد لمنع الحمل.

(31) أنظر، موطأ مالك، ج 2، ص 50، أبو هلال العسكري، الأوائل، ج 1، ص 240.

(32) حكاية أبي القاسم، ص 73.

(33) تاريخ بغداد، ج 7، ص 132.

(34) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 317، 346، 348، 353.

(35) أنظر، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 187، ج 2، ص 279.

بين الحانات والدعارة فقال: إن في الجمع بين القيان والرجال إثارة للغلمة والفجور[36]، وإن بيوت الكشاخنة ترمي القينة في حجور الزناة، فتخرج مع الرجال إلى منازلهم وتمكنهم من نفسها[37]. ولاحظ الأزدي اقتران الغناء بالزنى، وذكر أن المغنية التي تدخل بيوت الرجال يدخل الزنى من سراويلها[38].

وتوضح لنا قصة ذكرها التنوخي، مسرباً آخر من مسارب الزنى، غير طريق القيان. فقد رفع أصحاب الأرباع تقارير إلى صاحب شرطة بغداد، تتضمن معلومات حول نساء من أبناء الطبقة العليا كن يتعاطين الفجور، وجميعهن من بنات الوزراء والأمراء والأجلاء الذين بادوا أو ذهبت مراتبهم[39]. ويصور أبو سعد الدينوري انتشار الدعارة والقوادين في القرن الرابع من خلال حديثه عن بعض أرباب المهن، كالبستاني وبياع الطيور الملونة والتياس وجلاء الصفر والحمامي والحذاء والدلال والزجاج والساحر والصياد والطرائفي[40]. ولعل انتشار الدعارة في بغداد وبعض المدن الإسلامية هو الذي حمل نقفور (354هـ) على اتهام المسلمين بالزنى واللواط[41].

وقد ترك لنا التنوخي قصة عن القيادة والدعارة في دمشق[42] ولعلها قصة رمزية رغب راويها أن تنطبق على بغداد ودمشق وغيرهما من المدن العباسية. فالقصة خالية من أسماء أبطالها، كما أنها تخلو من ذكر أسماء المحلات الدمشقية وهو ما لا نعهده في قصص أبي علي التنوخي، مما يجعلنا نعتقد بأن القصة رمزية قصد بها بغداد كما قصد بها التشهير بالقوادين وبأساليبهم، ولعله أوردها ليتهم بها أجهزة الحكم بتعاطيها أعمال القيادة والدعارة وتسهيل ما يرتكبونه.

والقصة تروي حكاية شاب وافر العيش، تدرب على جمع الدعار، وقد عزم على العيش من غير أي جهد، فجاءت نصيحة والده له وهو على فراش الموت، تبين أصول المهنة التي تركز على مصاحبة كبار رجال الدولة لترتفع عنه المراقبة، وليكتسب بهم جاهاً يحميه من شبهات رجال الشرطة. وتنصح القصة بالإكثار من الجواري والمغنيات،

---

(36) رسائل، ج 2، ص 164.

(37) المصدر نفسه، ص 174، 175.

(38) حكاية أبي القاسم، ص 71، 75.

(39) الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 6، نشوار المحاضرة، ج 3، ص 102.

(40) التعبير في الرؤيا، أنظر، ق 77ب، 78ب، 79ب، 80آ، 81آ، 82آ.

(41) معجم البلدان، ج 4، ص 28.

(42) أنظر، نشوار المحاضرة، ج 2، ص 172 ـ 182.

وتجديدهن بين فترة وأخرى، كما تنصح بالإكثار من الغلمان والخمور.

والمعلومات حول ظهور العاهرات في بغداد تشير إلى أنها نشأت في الخمارات[43]، ومع نمو المدينة خرجت الجواري إلى الشوارع والتقين الرجال فصحبوهن إلى بيوتهم[44]، أو أخرجوهن إلى البساتين، أو استغلوا المحلات الخربة[45]. أما الأغنياء، فكانت فرصهم أكبر، فهم من رجال ونساء يملكون القوة المحركة ويملكون الجاه، وباستطاعتهم تقديم الطعام والخمر والمكان المناسب[46]. وحكى لنا التنوخي حادثة عن امرأة كانت تستقبل عشيقها في بيتها بمعرفة زوجها، حتى أن هذا العشيق كان يقوم بتأمين جميع حاجات بيتها، وتوصل العشيق إلى أن شرط على الزوجين عدم اجتماعهما[47].

ومع القرن الثالث نشأت في بغداد دور للدعارة تديرها بعض النساء وتستدرج الرجال إليها[48]. وما إن دخل القرن الرابع حتى أصبحت الدعارة في حماية رجال الدولة. فقد كان كبار رجال السلطة يستخدمون القوادين، وذكر أن نزاعاً مسلحاً وقع بين قائدين بسبب نزاع بين قوادين على قحبة[49].

والواقع أن رجال الشرطة في القرن الثالث كانوا يكبسون الدور ويلاحقون الدعارة ويراقبون الأخلاق ويحبسون المرأة التي يقبض عليها متلبسة[50]، ويلاحقون القوادين ويحلقون رأس من يقبض عليه وذقنه، ويشهر به بالنداء[51].

لكن اضطراب الأمن وضعف السلطة ووجود رجال شرطة ضعفاء سهل انتشار دور الدعارة في بغداد في القرن الرابع، حتى اكتسب بعضها طابع الحماية الرسمية. وتأتي أخبار هذه الدور مترافقة باحتجاجات البغداديين على الفساد.

ففي القرن الرابع اضطرت السلطة تحت الضغط لأن تداهم النباذين والقوادين المنتشرين في ضواحي بغداد[52]، ويتحدث الصولي بطريقة يفهم منها استفحال أمر

---

(43) **الأغاني**، 20. العامة، ج 10، ص 333.

(44) **البصائر والذخائر**، ج 3، ص 536.

(45) **أدب الغرباء**، ص 91، 98.

(46) أنظر، **نشوار المحاضرة**، ج 5، ص123، 259، **المفوات النادرة**، ص 49.

(47) **نشوار المحاضرة**، ج 8، ص 235.

(48) المصدر نفسه، ج 5، ص 259.

(49) الصولي، **أخبار الراضي**، ص 277.

(50) **الفرج بعد الشدة**، ج 4، ص 6، **نشوار المحاضرة**، ج 2، ص 101، 102، ج 5، ص 150.

(51) **نشوار**، ج 2، ص 179.

(52) الصولي، **أخبار الراضي**، ص 279.

القوادين في حدود سنة 333هـ، وذكر أن المناطق التي انتشروا فيها كانت قرب دار الروم في بغداد وفي أوانا[53] خارج المناطق الآهلة.

ويذكر التنوخي أن ابن الحراصة[54] ضمن الفجور والقمار واللصوص ببغداد، مقابل أن يدفع إلى القائد الديلمي شير مردي مبلغ ألفي درهم. وكان ابن الحراصة هذا، إذا عجز عن جمع مال الضمان يقبض على من يجتاز ببابه ويدخلهم الدار، ويجبرهم على أن يطأوا من يريدون، وأن يدفعوا له قيمة معينة، وإلا فهم مضطرون أن يدفعوا قبل أن يخرجوا.

وكان ابن الحراصة يقيم بالجانب الشرقي من بغداد في مكان آهل على شط دجلة وقرب بيوت كبار الموظفين. ويبدو أن من الدعار من كان يمارس عمله في صحن الدار المكشوف على عابري النهر، مما يجعلنا نظن بازدحام المكان، وكان هذا القواد يحمي داره برجال أشداء يدافعون عنه ضد احتجاجات الناس، والجدير بالذكر أن هذه الدار استمرت تعمل مدة طويلة حتى ضج البغداديون على معز الدولة، فأمر بمداهمتها وتفريق جمع الداعرين[55].

والظاهر أن نشاط الدعار أخذ في الاشتداد، حتى ذكر ياقوت أن بنت ابن العلاف زوجة أبي منصور بن المزرع كانت عاهرة، ولبست الجبة المضربة، وتعممت بالمقياد، وتخرج ليلاً مع العيارين، وتشرب إلى أن تسكر، وتعود سحراً إلى بيتها، وربما انتهى بها السكر إلى الحد الذي لا تملك أمرها معه، فيحملها العيارون إلى دار زوجها على تلك الحال[56].

ويبدو أن دور الدعارة اتخذت شكلاً علنياً في القرن الخامس، فيذكر ابن الجوزي[57]، أنه في سنة 467هـ تقدم فخر الدولة إلى المحتسب في الحريم الطاهري بنفي المفسدات وبيع دورهن، فشهر جماعة منهن على الحمير مناديات على أنفسهن، وأبعدهن إلى الجانب الغربي.

(53) المصدر نفسه، ص 280، أيضاً، **حكاية أبي القاسم**، ص 88.

(54) **نشوار المحاضرة**، ج 1، ص 349.

(55) المصدر نفسه، ص 349، 350.

(56) **معجم الأدباء**، ج 5، ص 308، وذكر ابن يعقوب الدينوري، أن الثياب المنقشة تلبسها المغنيات والزواني، **التعبير في الرؤيا**، ق 164آ.

(57) **المنتظم**، ج 8، ص 293 ـ 294.

وليس لدينا إشارات حول ما كانت تتقاضاه القحاب، ويبدو أنهن يتقاضين أقل من القيان، مما جعلهن مزاحمات حقيقيات، حتى أن جارية بغدادية ذمت قحاب بغداد ووصفتهن بالنتانة[58]. والإشارة الوحيدة تلك التي وردت في حكاية أبي القاسم، والتي طلبت فيها جارية مبلغ دينارين لكي تقضي ليلتها بين أحضان شاب عاشق[59].

ويبدو أن القحاب التي كانت تغشاهن العامة لم يكنّ على جمال ملفت للنظر، وربما كن من العجائز ولا يتقن فن الغزل، ويسمين بأسماء تقليدية[60].

3 ـ الغلمان

عرفت بغداد معاشرة الغلمان المردان، وقد ترك لنا الجاحظ رسالة يتبارى فيها نخاسو الغلمان والجواري بإظهار محاسن كل منهما[61]. ويبدو أن ولع الأمين بالغلمان كان يكرس واقعاً إجتماعياً[62]. فكانت مجالس القاصفين حافلة بالغلمان بعضهم يغني وبعضهم يسقي وينادم. وشاع الاستهتار بالخدم حتى تهادوا الغلمان[63]، وتمتعوا بهم كما تمتعوا بالجواري[64]، وضمت دور الدعارة الغلمان إلى جانب الجواري[65].

انتشر المخنثون في طرقات بغداد، يتماجنون مع المشاة والمتنزهين[66]، ويعرضون أنفسهم على اللوطيين، حتى تغاير الرجال على الغلمان[67].

وتباهى الكثير من الرجال بمعاشرة الغلمان، واعترف أبو الفرج الإصفهاني أنه كان يعشق غلاماً من أبناء الجند[68] وباهى أحدهم بمعاشرته لغلامه[69]. وتعشق جندي من

---

(58) حكاية أبي القاسم، ص 74.
(59) المصدر نفسه، ص 73.
(60) أنظر، المصدر نفسه، ص 65.
(61) مفاخرة الجواري والغلمان، رسائل الجاحظ، ج 2، ، ص 91، 137.
(62) مشاكلة لناس لزمانهم، ص 27.
(63) الديارات، ص 56، 61، 69.
(64) نشوار المحاضرة، ج3، ص 37.
(65) المصدر نفسه، ج 2. ص 174.
(66) المصدر نفسه، ص 202، 224، 225، 227.
(67) الأغاني، ج 20، ص 338.
(68) أدب الغرباء، ص 83.
(69) نشوار، ج 2، ص 227.

الرجالة المغني الحسين بن غريب فأنفق عليه مالاً وباع عقاراً[70] وابتلى كبار رجال السلطة بالغلمان، فلم يخل منه القاضي والوالي[71].

وقد اشتهر الصوفية بالأحداث والغلمان[72]. وكان منهم من يغازل الغلمان في شوارع بغداد[73]. وراود صوفي غلاماً أمرد حتى غلبه على نفسه[74].

وأصبحت الحانات تقدم الغلمان المرد في حفلاتها الغنائية، حيث كانوا يحاكون النساء في تهتكهم ودلالهم. وذكر الأزدي[75] أن ابن غسان الطبيب النصراني عشق غلام الأمدي الحلاوي الذي كان يعمل في باب الطاق، واضطر ابن غسان إلى الانتحار في كرداب كلواذا لفرط حبه للغلام، ولفقره وقصر ذات يده عن الانفاق. وعشق أبو سليمان المنطقي غلاماً موصلياً في حانة، فتن الدنيا وملأها عيارة وخسارة، وافتضح أصحاب النسك والوقار وأصناف الناس من الكبار والصغار بحديثه وظرفه ودله وتمنعه المطمع، وتشكيكه بين الوصل والهجر.

وكان غلام ابن عرس إذا حضر مجلساً ألقى إزاره وقال لأهل المجلس: اقترحوا واستفتحوا فإني عبدكم، أخدمكم بغنائي، وأساعدكم على رخصي وغلائي؛ من أرادني مرة أردته ألف مرة، ومن أحبني رياء أحببته إخلاصاً، ومن مات لي مت عليه، لم أبخل ولم أتعسر عليكم، وأنا غداً مضطر إليكم إذا بقل وجهي، وتدلى سبالي، وتولى جمالي، وتكمش خدي، وتعوج قدي. ويمر في هذا وما شابهه من الكلام، حتى لا يبقى أحد إلاّ ويبضّ عرقه ويذكو طبعه، ويدغدغ روحه، يقبله ويغمزه بطرف، ويخصه بتحية[76].

ووصف الغلام المرغوب بغنج الحركات وخنث الأعطاف، بابلي الطرف، يمشي بخصر دقيق وردف ثقيل، ووجه مشرق، وشفتاه مرجان أو عقيق، وثغره كالدر، وصدغه كالنون. وكأن عنقه إبريق فضة، له ردف كأنه عجنة من لباب السميذ قد خمصت في دهن الفالوذج، سهل الإتيان. ويكون اسمه «فاتناً» أو «رائعاً» و«بديعاً» أو «نسيماً» أو «وصيفاً» أو «ريحاناً»[77].

---

(70) المصدر نفسه، ج 1، ص 227.

(71) أنظر، مقامات الحريري، ص 86، 88، نشوار، ج 8، ص 299.

(72) السلمي، طبقات الصوفية، ص 190، 191، ق 233. أيضاً، تاريخ بغداد، ج 14، ص 429.

(73) طبقات الصوفية، ص 166 ـ 167.

(74) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 346.

(75) حكاية أبي القاسم، ص 84 ـ 85.

(76) المصدر نفسه، ص 66.

(77) المصدر نفسه، ص 65، 66، 67.

ووصف غلام العامة والفقراء بالدب العريض، كنز الشعر يذهب ذات اليمين وذات الشمال، وهو تيس يبخر المجلس بصنانه، أو كأنه بغل خلي من عنانه، ومن قذارته كمن عض بصلة أو أكل فجلة[78].

وكان بعض الغلمان يتلقى هدايا المعجبين، وفيها الثياب الجميلة والدنانير التذكارية النادرة، ومنهم من يحصل على الطعام والشراب التي يجهزها أفضل الصناع. وقد يلاقي الغلام العنت من بعض الساكرين ويضيق بعربدتهم، ويعبر عن موقفه بالامتناع عن مجالستهم أو الامتناع عن الغناء[79].

وعرفت شوارع بغداد مشادات بين الغانيات والغلمان بسبب المنافسة التي تقوم بينهم. فقد انتقدت إحدى الغانيات امتلاء جسم أحد المخنثين وسمنته، ورد عليها شاتماً ومهاتراً. وهاترت مغنية مغنياً فرد عليها وعيرها بقذارة أعضائها[80]، وعبرت جارية عن ضيقها من منافسة غلمان سيدها[81].

وعرفت بغداد بعض الرجال البغائين، ويبدو أن هذا النوع من المجون كان مقصوراً على كبار القوم من أصحاب الأبوات وأرباب النعم والكتبة أبناء الطبقات العالية[82].

وتشح المعلومات حول نفقات الرجال على غلمانهم. فقد ادعى أحدهم أنه دفع أربعين ديناراً لغلام مرغوب لم يكن يقدر عليه أحد من البغداديين[83]، وكان أحد المؤاجرين يتقاضى خمسين درهماً في اليوم من راغبيه[84] ودفع أحدهم دينارين لغلام[85].

---

(78) المصدر نفسه، ص 67، 68.

(79) المصدر نفسه، ص 86، 134.

(80) **نشوار المحاضرة**، ج 2، ص 225، 226.

(81) **حكاية أبي القاسم**، ص 74.

(82) **نشوار**، ج 2، ص 228.

(83) **فوات الوفيات**، ج 4، ص 148.

(84) **نشوار المحاضرة**، ج 2، ص 202.

(85) **البصائر والذخائر**، ج 1، ص 225.

الباب الخامس

حركات العامة

الفصل السابع عشر: الحركات الاجتماعية والسياسية

الفصل الثامن عشر: الحركات الدينية

أ ـ الحركات السنية

ب ـ الحركات العلوية

ج ـ استنتاج.

خاتمة

الفصل السابع عشر

الحركات السياسية والاجتماعية

عرف المجتمع العباسي تحولات أساسية، فاختفت العصبيات القبلية شيئاً فشيئاً، وحل محلها التضامن الديني، الذي شكل درعاً لحماية حقوق الجماعة، حيث لم يأخذ منفذو القانون الرسمي باعتبارهم إلا حقوق الأشخاص والأفراد، وقصروا في رعايتهم لحقوق الجماعات، تاركين للعامة تدبير أمورها[1].

وكان التضامن بين العامة البغدادية يتخذ صوراً مختلفة، كلما ألمّت بالمجتمع أزمات سياسية أو اقتصادية، وكلما تعرضت بلاد المسلمين لأخطار العدوان الخارجي، حيث كانت مظاهر السلطة الرسمية تختفي، وتقوم القوى المحلية بتنفيذ قوانينها لحماية حقوقها بأشكال وأساليب مختلفة، متأثرة بعوامل التعصب للمهنة أو الحي أو المذهب[2]. وكثيراً ما كانت هذه الممارسات تنتهي بدمار محلات المدينة وأسواقها على أيدي أصحاب العصبيات الجديدة، التي شكلت أنواعاً من «الأحزاب» بالمعنى الواسع للكلمة.

كان نشاط العامة يتخذ شكل حركات تمرد تستهدف الحكام أحياناً، والتجار أحياناً أخرى، كما كانت تقوم بحركات تستهدف النيل من جماعات أخرى من العامة؛ وكانت الفئات الدنيا تسرع في التعبير عن رأي العامة في الأحداث الجارية، مستخدمة طاقاتها في

---

(1) أنظر CAHEN, **Les Mouvements populaires et Autonomisme Urabain dans L'Asie musulmane du Moyen Age, in, Arabica,** (1958) p. 229, et **Arabica,** (1959) p. 26.

(2) يستوقفنا هنا تجمع مسلمي بغداد في أحياء خاصة بكل من السنة والشيعة، وقد أصبحت الكرخ مركزاً للشيعة، وهي منطقة الأسواق منذ عهد المنصور، وأصبح الجانب الشرقي مركزاً لأهل السنة، وهو الذي وصفه ابن حنبل بأنه «كنانة السنة». أنظر الخطيب البغدادي، ج 1، ص 81، 95.

إسناد جملة من القضايا الإجتماعية والدينية. وكانت هذه الفئات الدنيا من العيارين والشطار، الذين كانوا في غالبيتهم من العراة المسلحين بالحجارة والعصي، ومن نزلاء السجون والسوقة وباعة الطريق والرعاع والأوباش والمطوعة والمبيضة الخارجين على السلطة.

كان العيارون ينشطون للسيطرة على بغداد كلما اشتد الصراع حول السلطة فيها. وقد فتحت الحرب الأهلية التي رافقت حرب الخلافة بين الأمين والمأمون، الباب أمامهم للتدخل في الحياة العامة في بغداد. فبعد الهزائم التي لقيها جيش الأمين في خراسان، قام قائد الجيش باعتقال الخليفة وإجباره على التنازل لصالح أخيه. وهبت الحربية والعامة من أهل الأرباض ليقاتلوا قائد الجيش الحسين بن علي بن ماهان وأسروه وأعادوا الأمين إلى الخلافة. ويقول الطبري: إن الأمين نظر إلى قوم ليس عليهم لباس الحرب والجند، ولا عليهم سلاح، فأمر بفتح مخازن السلاح لهم. فانتهبوه، وقام السجناء بفتح سجونهم وخرجوا منها[3].

وبهذه الطريقة أصبح العيارون في عداد القوة المدافعة عن العاصمة بعد أن صار جيش المأمون على أبوابها[4].

ولم تلبث العامة أن أصبحت القوة الأساسية في الدفاع عن المدينة، بعد أن ذلت الأجناد وتواكلت عن القتال، إلاّ باعة الطريق والعراة وأهل السجون والأوباش والرعاع أهل السوق، وظهر منهم «الهرش» كأحد زعمائهم. وفي ذلك قال شاعر بغدادي: بأن الحرب أخرجت من سواقط بغداد آساداً غيلاً، تراسها من البواري والخوص، وكتائبها من الطرارين والمقامرين[5].

وذكر المسعودي أن العيارين اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص وسموها الخوذ، ودرقاً من الخوص والبواري، مطلية بالقير ومحشوة بالرمل والحصى[6].

نظم العيارون أنفسهم عسكرياً، فعلى كل عشرة منهم عريف، وعلى كل عشرة

---

(3) الطبري، ج 8، ص 429، 430.

(4) المصدر نفسه، ص 443.

(5) المصدر نفسه، ص 448، 451.

(6) **مروج الذهب**، ج 2، ص 318. والدواخل: مفردها دوخلة، وهي المنسوجة من الخوص، ويجعل فيها التمر. والدرق كرات يقذف بها.

عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده. فالعريف له أناس مركبهم غير ما للمقاتلة، وكذلك النقيب والقائد والأمير. ولكل منهم ناس عراة في أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر، ومقاود ولجم وأذباب من مكانس ومذاب[7].

وذكر المسعودي أن عدد العراة بلغ في إحدى المعارك مائة ألف مجهزين بالرماح والقصب والعرادات من القراطيس على رؤوسها، وكانوا ينفخون في بوقات من القصب وقرون البقر[8].

كانت هذه الحرب مناسبة ظهرت فيها قوة العامة القتالية. وإذا كان صحيحاً ما قاله الشاعر الأعمى في العيارين من أنهم لا يمتون إلى الأمين بصلة نسب ولا بلد، وإنهم لم يقاتلوا لشيء عاجل يصير في أيديهم، وأنه لن يصير مقاتلهم قائداً أو وزيراً[9]، إلا أنه من الثابت أنهم قاتلوا ضد نظام إجتماعي طالما نظر إليهم باحتقار وإهمال، وبخاصة أن الكثيرين منهم كانوا من الأفارقة والأحباش والسندية والهندية والصقالب والنوبيين الذين أكسبهم القتال حريتهم[10].

وأدت الحرب الأهلية إلى نزول جماعات من العيارين في الأحياء والدروب، وتولوا جباية الرسوم وخفارة المحلات، وسطوا على ممتلكات الناس. وقد أثارت هذه التصرفات جماعة من العامة واتهمت العيارين بأنهم يقومون بأعمالهم هذه بدعم من السلطة.

تزعم خالد الدريوش وسهل بن سلامة الأنصاري حركة الإعتراض على بعض تصرفات العيارين، وعرفت حركتهما باسم «المطوعة»، ونظمت نفسها داخل الأحياء لقمع الفساق (201هـ)[11].

كان الدريوش لا يرى الخروج على السلطان، وكان يحارب الشطار ويقبض عليهم ويسلمهم إلى السلطة. أما سهل بن سلامة فقد دعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلّق مصحفاً في عنقه. فبدأ بجيرانه وأهل محلته، فأمرهم ونهاهم وقبلوا به، ثم

---

(7) المصدر نفسه، المكان نفسه.

(8) المصدر نفسه، ص 322.

(9) المصدر نفسه، ص 322، 323.

(10) الطبري، ج 8، ص 450.

(11) المصدر نفسه، ص 433، 551.

دعا الناس جميعاً إلى ذلك فبايعوه، وجعل له ديواناً يثبت فيه أسماء مناصريه، فأتاه خلق كثير[12]. وكان ممن بايعه منصور بن المهدي وخزيمة بن خازم والفضل بن الربيع[13]، وجميعهم من الشخصيات السياسية المهمة في بغداد.

تمكن سهل والدريوش من ضم جماعات كبيرة من الشطار. ويبدو أن سهلاً، وهو حجازي أنصاري من المدينة المنورة، وينتمي إلى أسرة ناصرت العباسيين في خراسان، كان يملك قوة سياسية كبيرة تسببت في حمله إلى المعتقل حيث بقي 12 شهراً[14]. ولم يلبث أن تناهت إلى البغداديين أخبار مقتل هرثمة بن أعين، وهو سليل أسرة خراسانية قاتلت في صف بني العباس، وكان أحد قادة جيش المأمون، بدسيسة من الحسن بن سهل، كما بلغهم أن الحسن وضع المأمون قيد الإقامة الجبرية، وأن المأمون بايع لعلي بن موسى الرضا بولاية العهد، فثار العباسيون في بغداد يدافعون عن مصالح أسرتهم في الخلافة، وبايعوا إبراهيم بن المهدي خليفة. وتهيأ البغداديون لمقاومة الحسن بن سهل، الذي عين نائباً عن الخليفة في العراق، فخرج الشطار والعيارون واتخذوا مواقعهم في المسالح استعداداً للقتال[15].

ظهر العيارون في هذه المرحلة أصحاب هوية سياسية، ونزعوا عن أنفسهم الاتهامات التي وسموا بها من أنهم من المرتزقة يبيعون قدراتهم القتالية، وأظهروا بالتفافهم حول الدريوش وسهل بن سلامة ومحاربتهم الحسن بن سهل أنهم أصحاب قضية. واعترف المعتصم الذي كان مسؤولاً عن جيش عمه إبراهيم، بأن العامة في بغداد قاتلوا دفاعاً عن مدينتهم وليس طمعاً بجائزة[16].

ومنذ عهد المعتصم بدأت احتكاكات العامة بالجند التركي، إذ تجمع الروايات أن سبب انتقال المعتصم بجنده من بغداد إلى سامراء كان لضيق العامة بالجند. فقد كان هؤلاء يؤذون العوام في بغداد بإجراء خيولهم في الأسواق، وما ينال الضعفاء والصبيان والشيوخ من ذلك، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعض الجند فقتلوه عند صدمه امرأة أو

---

(12) المصدر نفسه، ص 552.

(13) المصدر نفسه، ص 553.

(14) المصدر نفسه، ص 563.

(15) المصدر نفسه، 557، 570.

(16) نشوار المحاضرة، ج 7، ص 213.

شيخاً كبيراً أو ضريراً[17].

ولجأ المتوكل إلى استرضاء العامة والتحالف معها بعد أن أحس أن الجنود الأتراك يضيقون عليه الخناق في سامراء، وكان من نتائج تلك السياسة العودة عن القول بخلق القرآن واعتماد السنة[18].

وقد أثار مقتل المتوكل على أيدي الأتراك (247هـ) موجة من النقمة ضد تسلط الجند، فحدثت في سامراء سنة 248هـ حركة شعبية عبرت عن استنكار العامة لعبث الأتراك بالخلافة، وشارك في هذه الانتفاضة الغلمان الشاكرية ونحو ألف رجل من «الغوغاء» و«السوقة»، من أصحاب الفقاع وأصحاب الحمامات وغلمان الباقلاء وأصحاب الناطف والسقائين[19].

وبعد مدة قصيرة شغب الجند والشاكرية ببغداد ناقمين على الأتراك قتلهم المتوكل واستيلاءهم على أمور المسلمين، وقتلهم من أرادوا قتله، من غير رجوع إلى ديانة ولا احترام لرأي المسلمين. فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير، وانضم إليهم الأبناء والشاكرية، وفتحوا السجون وقطعوا أحد الجسرين، وأحرقوا الآخر. وقد أذكى هذه الإنتفاضة وزاد من أسبابها ما انتهى إلى أهل بغداد وسامراء وما قرب منهما من أخبار مقتل عمر بن عبيد الله الأقطع وعلي بن يحيى الأرمني في الثغور. وأقبلت العامة من نواحي الجبل وفارس والأهواز وغيرها لغزو الروم، دون أن يتحرك الجيش. فقام العامة بنهب دور الموسرين وأخرجوا أموالاً كثيرة، ففرقوها فيمن نهض إلى حفظ الثغور[20]، وامتدت هذه الحركة إلى سامراء، ففتح العامة السجن وأخرجوا من فيه واصطدموا برجال الجيش ووقع الكثير من الأضرار في حوانيت التجار التي رماها رجال وصيف بالنفط[21].

وفي سنة 251هـ اشتد الصراع بين الخليفة والأتراك، ففر المستعين إلى بغداد للاحتماء بأهلها، وأقبل الأتراك على المعتز وبايعوه بالخلافة، وشبت الحرب بين الخليفتين التي كانت بغداد وجوارها مسرحاً لها.

اتخذ محمد بن عبد الله بن طاهر قائد شرطة بغداد وأميرها سلسلة من الاجراءات

---

(17) أنظر: المسعودي، ج 2، ص 366، الطبري، ج 9، ص 18، العيون والحدائق، ج 3، ص 381 ومسكويه، ذيل العيون والحدائق، ص 478.

(18) الطبري، ج 9، ص 190، والمسعودي، مروج، ج 2، ص 391.

(19) الطبري، ج 9، ص256 ـ 258.

(20) المصدر نفسه، ص 262، أيضاً تاريخ ابن العبري، ص 254.

(21) الطبري، ص 263.

العسكرية، وأمر أن يقبل في الجيش من يرغب من العيارين، وأن يجعل عليهم العرفاء، تصنع لهم التراس من البواري المقيرة، وأن يعمل لهم مخال تملأ بالحجارة[22].

تمكن العيارون أصحاب البواري من الصمود أمام الجيش النظامي من الأتراك، بل تمكنوا مع من انضم إليهم من المبيضة والغوغاء من إعطاب مجانيق الترك[23]. وازداد دور المبيضة بعد أن زاد عددهم، وتمكنوا من إلحاق الهزائم بالأتراك بعد أن نصبوا لهم الكمائن، حتى قتلوا منهم الكثير وشحنوا رؤوس القتلى إلى بغداد بالشبارات[24]. ويقول الطبري: إن محمد بن عبد الله الطاهري أعطى كل من جاء برأس تركي أو مغربي خمسين درهماً، وكان أكثر ذلك العمل للمبيضة والعيارين[25].

بعد هذا النجاح الذي لاقاه العيارون، أمر الطاهري بأن يتخذ لعياري بغداد كافركوبات[26]، وأن يجعل فيها مسامير من الحديد، فقسمت فيهم. ثم أثبت أسماءهم في الجند، وترأسهم رجال منهم، نقل لنا الطبري بعض أسمائهم منهم: ينتويه ودونل ودحجال وأبو نملة وأبو عصارة، وكان ينتويه أثبت هؤلاء القادة، وكان رئيساً على عياري الجانب الغربي حتى نهاية الحرب. وكان يخرج إلى مواضع الأتراك خارج بغداد ويقاتلهم في غارات، فكان العيارون يقاتلون بالحجارة بينما يرميهم الجند بالنبال[27].

وفي الجانب الشرقي برز ديكويه وأبو جعفر المخرّمي، من قادة العيارين، في خمسمائة من رجالهم، وشاركهم جماعة من المبيضة في هجوم على الأتراك، فأبلوا بلاء حسناً[28].

استبسل العيارون في الدفاع عن بغداد في وجه الأتراك، حتى كان منهم غلام لم يبلغ الحلم ومعه مخلاة فيها حجارة يرمي بها الأتراك فلا يخطيء وجوههم. إلا أنهم جوبهوا بتراجع قادة المستعين ومفاوضتهم أصحاب المعتز[29]. فثارت العامة بمحمد بن عبد الله بن طاهر، وسبوه وشتموه، وطوقوا داره، التي ينزلها المستعين، عدة مرات، وطلبوا إلى الخليفة الانتقال عنها، وجهزوا الزواريق بالنفاطين، واستعدوا لضرب

(22) المصدر نفسه، ج 9، ص 288.

(23) المصدر نفسه، ص 293، 294، والمبيضة، الذين يرفعون شعاراً أبيض عكس الشعار العباسي الأسود، والمقصود بالمبيضة جميع الذين يخلعون السلطة العباسية ويقاتلون ضدها.

(24) المصدر نفسه، ص 295.

(25) المصدر نفسه، ص 296.

(26) وهي المقارع.

(27) الطبري، ج 9، ص 309، 310.

(28) المصدر نفسه، ص 311.

(29) المصدر نفسه، ص 311، 312، 313، 331، 334، 335، 342.

محمد بن عبد الله، وحاولوا منع المستعين من التنازل[30].

ولم تهدأ حركات العيارين بعد تنازل المستعين، فقد اغتنموا فرصة شغب الجند من أجل الحصول على رواتبهم، فانضم العيارون إليهم، ومنعوا الخطبة للمعتز، وتحرك عامة الجانب الغربي وانتهبوا مراكز الإدارة، فأمر ابن طاهر بإحراق الدكاكين التي على باب الجسر، تأديباً لأصحابها من التجار والعامة الذين ناصروا الجنود[31].

وهكذا انتهت الحرب بعد حصار بغداد مدة 14 شهراً، وبعد أن أكدت عدة وقائع على صعيد العامة أبرزها:

1 - الأصول الإجتماعية لحركة العيارين وارتباطها بسوء حالهم والفاقة التي نالت منهم[32].

2 - التفاف العامة حول الخلافة وقتالها ضد الأتراك المتسلطين.

3 - تضامن عامة سامراء مع عامة بغداد، حتى أن المعتز اضطر إلى إعطاء كل أسير بغدادي دينارين، وأمر برؤرس القتلى منهم فدفنت بدلاً من تعليقها والتشهير بها. وكان هذا الموقف بعد أن ضج عامة سامراء بالبكاء وارتفعت أصوات نسائهم بالدعاء ضد المعتز[33].

4 - خوف رجال الجيش من عامة بغداد، وتقرب الخليفة منهم بعد انتهاء الحرب[34].

5 - تراجع دور الأبناء الخراسانية نهائياً، واندماجهم السياسي والعسكري أولاً، ثم الاندماج الإجتماعي لاحقاً مع العامة.

واستمر موقف العامة من الأتراك في موقف المناويء، ففي سنة 255هـ تحركت العامة، وطالب أمير بغداد بالإفراج عن أبي أحمد بن المتوكل، قائد حرب المعتز ضد المستعين، والذي نفاه أخوه المعتز، ووقعت بين المتقاتلين مجزرة قتل وغرق فيها كثير من البغداديين في الحرب التي خاضتها العامة ضد حراس دار سليمان أمير بغداد[35].

وفي العام نفسه كانت للعامة حركة أخرى، وقاتلوا صعاليك الريّ الذين استقدمهم سليمان إلى بغداد، فأساءوا مجاورة أهل بغداد وجاهروا بالفاحشة وتعرضوا

(30) أنظر، الطبري، ج 9، ص 338، 345.

(31) المصدر نفسه، ص 358، 359.

(32) المصدر نفسه، ص 340.

(33) المصدر نفسه، ص 313، 314.

(34) المصدر نفسه، ص 345، 366.

(35) المصدر نفسه، ص 392، 393.

للحرم والعبيد والغلمان. فتجمع الشاكرية والعامة وفتحوا سجن باب الشام واخرجوا من فيه، واضطربت الأمور حتى فقد أمير بغداد هيبته. وشجع جند المدينة عامتها على النهب حتى قيل: إن عدد من شارك من العامة في النهب بلغ مائة ألف، ووثبوا بمنازل الصعاليك ونهبوها، بعد أن اضطر أصحابها إلى الفرار[36].

بعد هذه المرحلة، أصبحت حركات العامة وعياريها تتجه نحو مقاومة السلطة ممثلة بجنودها، وبخاصة بعد عودة مقر الخلافة إلى بغداد، فأصبحت القوة العسكرية المجردة في مقابل قوة العامة التي عبرت عن نفسها بأشكال مختلفة.

ففي سنة 269هـ وثبت العامة بالجند بعد أن رمى جندي امرأة بسهم، فاستعدى السلطان على رئيس الجندي فامتنع عن تأديبه، بل قام زملاء الجندي برمي الناس بالسهام فقتلوا وجرحوا جماعة، فردت العامة بأن قتلت جنديين ونهبت دار القائد ودوابه وفر هارباً من بغداد[37].

وفي سنة 271هـ وثب العامة على النصارى وخربوا الدير العتيق الذي وراء نهر عيسى وانتهبوا كل ما كان فيه من متاع، وقلعوا الأبواب الخشب وهدموا بعض حيطانه وسقوفه ونبشوا الموتى، فصار إليهم الحسين بن إسماعيل صاحب شرطة بغداد فمنعهم من هدم ما بقي منه، وكان يتردد إليه أياماً، والعامة تجتمع في تلك الأيام حتى يكون بينهم وبين رجال الشرطة قتال، ثم بني ما كانت العامة هدمته، وكان ذلك بتأثير من عبدون بن مخلد[38]. وعادت العامة في ربيع الآخر من العام التالي فهدمت ما كان بني من البيعة وانتبهت مالاً عظيماً. وكان السبب ما أنكرته العامة من النصارى من ركوب الدواب[39].

وفي سنة 284هـ أخذ نصراني شهد عليه بأنه شتم النبي فحبس، فاجتمع العوام بسبب النصراني، فصاحوا بالوزير وطالبوه بإقامة الحد، ثم اجتمع أهل باب الطاق (الشيعة) وما يليها من الأسواق ومضوا إلى الخليفة بعد أن اصطدموا برجال الشرطة الذين فروا أمامهم، فخرج إليهم المعتضد وسمع شكواهم، ثم أرسل معهم رسولاً إلى القاضي لينظر في ادعائهم[40].

---

(36) المصدر نفسه، ص 401، 403.

(37) ابن الأثير، ج 6، ص 50.

(38) المنتظم، ج 5، ص 81 ـ 82، الطبري، ج10، ص 80.

(39) المنتظم، ص 84، 85.

(40) المصدر نفسه، ج 5، ص 170.

وفي سنة 272هـ ثارت العامة بسبب الغلاء الذي اعتبر الطائي صاحب الشرطة مسؤولاً عنه[41].

واغتنمت العامة فرصة احتضار الموفق (277هـ)، وأسرعوا في النهب، فنهبوا دار الوزير ودور النبلاء والأجلاء، وفتحت الجسور وأبواب السجون، وذكر المسعودي أن ما فعلته العامة كان أمراً فظيعاً غليظاً[42].

وفي سنة 284هـ كان لأهل بغداد ثورة مع الخليفة لصياحهم بالخدم السودان، «يا عقيق صب ماء واطرح دقيق، يا عاق يا طويل الساق». فاشتكى السود إلى المعتضد ما يلحقهم في الأزقة والشوارع من العامة، فأمر بجماعة من العامة فضربوا بالسياط، مما كان سبباً لشغب أنصارهم[43].

وفي سنة 289هـ توفي وصيف الخادم في السجن وصلبت جثته على جسر بغداد. وشغبت العامة، وعمدت إلى الجثة وتماجنت بها، فخرج نحو مائة ألف شخص وهم يحملون الجثة ويصيحون حولها: الأستاذ، الأستاذ، ثم طرحوه في دجلة[43].

ومنذ عهد المقتدر (295هـ)، أخذت حركات العامة تزداد وتأخذ أشكالاً جديدة وفي فترات متقاربة ومناسبات مختلفة.

بعد مقاومة رجال المقتدر لانقلاب ابن المعتز خرج هذا إلى العامة واستنجد بها[4]. وبعد فشل الإنقلاب خرج العيارون ونهبوا دور معارضي المقتدر وطاردوهم، واعتقلوا علي بن عيسى، ومحمد بن عبدون، وسلموهما إلى الخادم، وحين حاول قائد الشرطة مقاومتهم قاتلوه واتهموه بأنه كان من أصحاب ابن المعتز[45].

وفي سنة 297هـ شب حريق مفتعل في أسواق الكرخ، وهبت العامة ترغب في النهب وفتح السجون، واتهمت الجند بإشعال الحريق[46].

وفي سنة 299هـ اعتقل الوزير علي بن الفرات، وصودر، وخرجت العامة تنهب المحلات لمدة ثلاثة أيام، فكان صاحب الشرطة يخرج بتسعة آلاف فارس لمقاومتهم.

---

(41) ابن الأثير، ج 6، ص 60.
(42) **مروج الذهب**، ج 2، ص 492، 493.
(43) المصدر نفسه، ص 515.
(44) المصدر نفسه، ص 522.
(45) ابن الأثير، ج 6، ص 31.
(46) عريب، ط. المعارف، ص 32، **العيون والحدائق**، ج 4، ص 134، **تكملة الطبري**، ص 5.

وأحس الوزير الجديد أن عليه مراعاة العامة فتقرب منها حتى أنه كان يصلي مع جماعة من الملاحين[47]. وفي سنة 302هـ أغار الأعراب على الحاج وهم راجعون من مكة فنهبوهم، فجهزت الدولة حملة ضد الأعراب، وتمكنت من اعتقال بعضهم وحملتهم أسرى إلى بغداد، فوثبت بهم العامة وقتلتهم ورمت بجثثهم إلى دجلة[48].

وفي هذه الفترة جرت جملة من الاضطرابات العسكرية، فاستولى ابن أبي الساج على الريّ، وهددت حملات الفاطميين سلطة العباسيين في مصر، فانقطع ورود الخراج إلى بيت مال العامة (خزينة الدولة). واضطرت الدولة لتجهيز الجيوش لمقاومة حركات التمرد حتى كانت تتكلف ما يزيد على 133 ألف دينار يومياً[49].

أثار الوضع السياسي المتأزم سلسلة من الاضطرابات داخل بغداد، كان الجند أبطالها الرئيسيين. ففي سنة 303هـ تحركوا وطالبوا بزيادة مخصصاتهم[50] وألحّ بعضهم (306هـ) في طلب أرزاقهم التي لم يقبضوها منذ ثلاثة أشهر، كما شغب الفرسان طلباً لأجورهم[51]، فأقيل الوزير ابن الفرات، وأوكلت الوزارة إلى شخصية ضعيفة وهو حامد بن العباس، ثم استعين بعلي بن عيسى ليقوم بأعمال الإدارة بدلاً من الوزير[52].

بعد ذلك بدأت في بغداد حركات تململ عبّرت عن نفسها بأشكال مختلفة، فازداد نشاط اللصوص (304هـ)، وشغب نزلاء السجن الجديد (306هـ)، ووثب بنو هاشم على علي بن عيسى لتأخر أرزاقهم (306هـ)[54]، وقامت في العام نفسه فتنة بين العامة والحنابلة[55].

بعد هذه الاضطرابات رأت السلطات عزل صاحب الشرطة، وعين نجح الطولوني بدلاً عنه، فأقام في الأرباع فقهاء يعمل أصحاب الأرباع بما يفتون به. فضعفت هيبة الشرطة، واستلان اللصوص والعيارون جانب نجح، وكثرت الفتن وتفاقم أمر

---

(47) المصدر نفسه، ص 157، تكملة الطبري، ص 711 12، عريب، ص 40.

(48) المنتظم، ج 6، ص 128، 130، ابن الأثير، ج 6، ص 152.

(49) أنظر، العيون والحدائق، ج 4، ص 177، 180، 190، 193.

(50) عريب، ط. المعارف، ص 56.

(51) العيون والحدائق، 4، ص 194. مسكويه، ج 1، ص 57.

(52) مسكويه، ص 59.

(53) المنتظم، ج 6، ص 139، 146.

(54) عريب، ط. المعارف، ص 70.

(55) ابن الأثير، ج 6، ص 161.

اللصوص والعيارين، حتى كانوا يقولون: «اخرج ولا تبالي ما دام نجح والي»[56]. وفي سنة 307هـ تمردت العامة وكسرت الحبوس وأفلت المساجين[57].

وفي نهاية العامة 308هـ شبت في بغداد ثورة عارمة كان الغلاء سببها المباشر. ويحكي مسكويه الأسباب الداخلية لهذه الثورة؛ كان حامد بن العباس قد ساءه تفرد علي بن عيسى بتدبير الوزارة، فعزم على أمر يوفر له سلطة لدى الخليفة ويبعد علي بن عيسى، فتضمن حامد أعمال الخراج بالسواد والأهواز وإصبهان، ودفع أربعماية ألف دينار زيادة عن متوسط خراجها[58].

قبل المقتدر المتعطش إلى الأموال بعروض حامد، رغم تحذير علي بن عيسى بأن هذا الضمان سيؤدي إلى زعزعة الأوضاع الاقتصادية. ولم تمض أشهر حتى انفجرت العامة والخاصة بسبب الغلاء، وشغبوا شغباً متصلاً أشفى به النظام على الزوال، وشارفت بغداد على الخراب[59]. ووصف حمزة الإصفهاني خطورة هذه الاضطرابات بأنها أزالت عن الجند والرعية هيبتهم، وأنها كانت فاتحة لسلسلة من الاضطرابات امتدت على ربع قرن[60].

بدأت هذه الحركة الخطيرة باجتماع العامة وتظلمهم من زيادة السعر، وضجوا في وجه علي بن عيسى، ثم نهبوا دكاكين الدقاقين ببغداد، وانتقلوا إلى باب الخليفة وعلت صيحاتهم بالاحتجاج. ويؤكد مسكويه[61] ثورة العامة بخطباء الجمعة وقطعهم الصلاة واستلابهم الثياب ورجمهم ممثلي السلطة بالآجر، واجتماع الكثير منهم في المسجد الجامع بدار الخليفة، حتى أنهم وثبوا بالحاجب ورموه بالآجر، ثم ساروا إلى دار حامد الذي أمر غلمانه برمي العامة بالنشاب فقتلوا جماعة منهم، كما أن حامد أرسل جماعة من رجاله فدخلوا المسجد الجامع بالجانب الغربي على دوابهم وقتلوا جماعة من العامة، فخرج أنصارهم يطوفون بالأسواق يحملون قتلاهم ويندّدون بالسلطة. وفي اليوم التالي اجتمع عدد كبير من العامة فأحرقوا الجسر، وفتحوا السجون، ونهبوا دار صاحب الشرطة ودور غيره.

---

(56) مسكويه، ج 1، ص 69.
(57) المنتظم، ج 6، ص 153.
(58) تجارب الأمم، ج 1، ص 59، 60، 69.
(59) المصدر نفسه، ص 70، 72، 73.
(60) تاريخ سني ملوك الأرض، (بيروت، 1961)، ص 152 ـ 153.
(61) تجارب الأمم، ج 1، ص 73 ـ 74.

اضطر المقتدر لإنـزال قوة من الجنـد لوقف شغب العـامة، وقـدر عدد رجـال هذه القوة بالألـوف، فأحـرقت سوق بـاب الطاق من الجـانب الشرقي وقبضت على من فيـه. وقبض الجند على جماعة من الجـانب الغربي فضرب بعضهم بـالسياط وقـطعت أيدي من اتهم منهم برجم الحجارة.

شـارك الجند في هذه الثورة، فضج الرجال المصافية في دار الخليفة ضيقاً بالغـلاء، ولم تهدأ ثورات العامة والجند إلّا بعد أن أمر المقتدر بفتح الدكـاكين والمخـازن التي لحامـد وللسيدة شغب والأمراء أولاد الخليفة والوجوه، من أهل الـدولة[62]، بعـد أن لاقت فيها بغداد الخراب والدمار طوال أربعة أشهر (نهاية ذي القعدة ـ نهاية ربيع الأول)[63].

وكان للعامة ضجة في سنة 310 هـ بعد أن اعتدى أحد رجال الشرطة على عروس زفت إلى زوجهـا فغصبها وأدخلهـا إلى داره. وتدارك الخليفـة الأمـر بـأن أعفى صـاحب الشرطة من مهامه[64].

وفي سنـة 312هـ حصلت فتنة للعـامة في بغـداد. فبعد أن أوقـع القرامـطة بقافلة للحـاج فني معظم أفـرادها، انتشرت نسـاء الضحايـا في شـوارع بغـداد حفـاة نـاشرات شعورهن مسودات الوجوه يلطمن ويصرخن في الشـوارع، وانضم إليهن نساء المنكـوبين على أيدي ابن الفرات وولده المحسن، وتكونت بذلك صورة مأساوية فظيعـة. فتحركت العامة في المساجد الجامعة في الجـانبين، واتهمت ابن الفـرات بأنـه يمالىء القـرامطة، وأن ما تم كان بتـدبير منـه وأنه يسعى للقضـاء على المسلمـين، فوثبت العـامة بـالوزيـر وابنه ورجمتهما، وامتنعت من صلاة يوم الجمعة[65].

اندفع قادة الجنود المعـارضين لابن الفـرات فقبضوا عليـه في داره وحملوه معتقلاً في طيار، وكانت العامة ونساء الرجال المنكوبين بانتظاره، فأخذوا يضجون ويدعون عليـه، ورجمـوا الطيـار الذي يحمله، ونـادوا: «قد قبض عـلى القرمـطي الكبير» ويقصـدون ابن الفرات، وعند وصـوله إلى دار الخـلافة، كـان حشد كبـير من السفن الـسميريـات يغص بـالعامـة فرجمـوا الوزيـر وكتابـه، ولم يستطع الجنـد ردهم إلا بعـد أن اضـطروا لـرميهم بالسهام[66].

---

(62) المكان نفسه.

(63) حمزة الإصفهاني، ص 152، عريب، ص 78.

(64) عريب، ص 96.

(65) مسكويه، ج 1، ص 121 ـ 122.

(66) المصدر نفسه، ص 126.

وفي سنة 315هـ هدد القرامطة بغداد، فاضطرب الأمن فيها، وخرج العيارون، فأمر علي بن عيسى الجند بالطواف في الشوارع ليلاً لضبط العيارين والمتشبهين بالجند، وأباح دم من ظهر منهم، ونقل التجار أمتعتهم إلى منازلهم، واكترى وجوه الناس السفن وأقاموا فيها[67]. ولقد أثرت انتصارات القرامطة في نفوس البغداديين وجنود العاصمة، واضطربت الأوضاع، فهب الجنود يشتمون المقتدر، وحلفوا الأيمان المغلّظة بأنه لا صلوات لهم كما ليس لهم حج لأنه عطل حجهم، كما أنه عطّل ثغرهم؛ ثم اتجهوا إلى قصر الثريا فأحرقوه وانتهبوه وانتهبوا دار الأترجة وسائر قصور الخليفة. وزاد في أسباب الاضطراب دخول الروم إلى ثغر شمشاط، فذبحوا الناس في قبلة جامعه، وأوقع القرامطة بجيش ابن أبي الساج، وأسروه. فلما اتصلت هذه الأخبار ببغداد، هاج الناس وماج الجند وشغب الحجرية، وأغلظوا في التهجم على الخليفة وطالبوه بالتخلي؛ وانتقل سكان الجانب الغربي إلى الشرقي خوفاً من القرامطة، الذين وصلوا الأنبار وشردوا أهلها إلى بغداد[68].

وفي سنة 316هـ هاجم القرامطة قرية قصر ابن هبيرة فقتلوا جماعة من أهلها، وهرب السكان إلى بغداد، فضجوا في الأسواق واستنفروا العامة ومنعوهم من فتح دكاكينهم، فانضم إليهم الخلق الكثير من العامة، فأحرقوا مستغلات بإزاء مجلس السلطان، وأغلظوا القول للخليفة، ثم اتجهوا إلى ديوان بادوريا، فأحرقوا ما كان فيه من سجلات، وعدلوا إلى باب الخليفة يضجون ويبكون، فساعدهم جماعة من موظفي دار الخلافة، وأخرج الفيالون الفيلة وقد هزلت من الجوع، فبكت العامة لها وقالوا: «وامحمداه»[69].

وفي سنة 317هـ ظهرت حركة عصيان للجند مطالبين بأرزاقهم، فأحاطوا بدار الخلافة وخلعوا الخليفة وانتهبوا الدار. وفشت الفوضى وهبت العامة، وفتحت السجون، وأفلت كل لص وجان، وانتهبت دور الناس، فكانت من أشأم الليالي على أهل بغداد، لما لحقهم من الجند وأهل العصبية والأجلاف، وأقفلت الأسواق، حتى عجز الناس عن التسوق، وعدم القوت[70].

وأعيد المقتدر إلى الخلافة في خلال يومين، فاضطربت الأمور في بغداد إلى أن ولي

---

(67) مسكويه، ج 1، ص 179، الهمذاني، تكملة، ص 54.

(68) حمزة الاصفهاني، ص 153 ـ 154.

(69) المصدر نفسه، ص 155.

(70) المصدر نفسه، ص 156، أيضاً، عريب، ط. المعارف، ص 122 ـ 123.

شرطة بغداد ابنا رائق، إبراهيم ومحمد، فضبطا البلد، وطاف كل واحد منهما بالليل في جانبه، فأقيمت الحدود واستوفيت الحقوق[71].

وفي سنة 318هـ زاد طغيان الرجالة الذين كانوا يحرسون دار الخلافة[72] وتحكموا على القضاة، وطالبوهم بحل الحبوسات وإخراج الوقوف من أيديهم، واكتنفوا الجناة وعطلوا الأحكام واستطالوا على الناس. وثار الفرسان ضد تسلط الرجالة وانضمت العامة إليهم لنصرتهم على الرجالة حتى أثخنوهم، وانتصروا عليهم وأخرجوهم من دار الخلافة، ونودي في العامة بأن يستبيحوا أموال الرجالة، وقتل العديد منهم ورميت جثثهم في دجلة، حتى امتنع الصيادون عن صيد السمك أياماً، وامتنع الكثير من الناس عن شرب ماء دجلة[73].

وكانت سنة 319هـ سنة اضطرابات متصلة، ففي صفر اتصل شغب الفرسان على الخليفة، وانضم إليهم العامة، ومضوا إلى السجون في الجانبين وفتحوها وأخرجوا كل من فيها، وأحرقوا مجلس الشرطة في الشرقية، ونقب جماعة من العيارين سور دار الخلافة ليدخلوها. ثم توالى حريق الأسواق ببغداد؛ وفي جمادي الآخرة شغب الفرسان من جديد واستمر شغبهم أحد عشر يوماً، وجعلوا العامة من أهدافهم هذه المرة، فكانوا يسلبون ثيابهم[74]. وكانت نتيجة هذه الأحداث مقتل الكثير من جماعات العامة، التي كانت أسواق بغداد مسرحاً[75].

وفي شعبان من العام نفسه ورد الخبر إلى بغداد بهزيمة جيش الخليفة على أيدي الديلم الذين تبعوا الجيش المنهزم إلى حلوان، فاضطرب الناس وماجوا، وعطلت الأسواق، وانتشر الأعراب في السواد، وحملوا الغلات، وكبسوا القرى، وسبوا الحرم.

وتفاقم الأمر بعد نزول القرامطة في الكوفة وجلاء الناس عن قصر ابن هبيرة، فدخلوا بغداد مستغيثين، فهاج العامة وتركوا السوق، واعتصموا بالمساجد حتى مرت أيام لا يجدون فيها الطعام. وامتد ذلك إلى شهر رمضان. وفي اليوم الثالث من هذا الشهر أغلق التجار بباب الكرخ حوانيتهم، وامتنع أهل الخراج من الأداء، ووثبوا على

---

(71) عريب، ط. المعارف، ص 125.

(72) استولى الرجالة على دار الخلافة وصاروا يتولون حراستها أثناء ثورة الجند على المقتدر سنة 317هـ، المصدر نفسه، ص 128، ط. المعارف.

(73) المصدر نفسه، ط. المعارف، ص 128، حمزة الاصفهاني، 157.

(74) حمزة الاصفهاني، ص 158.

(75) عريب، ط. المعارف، ص 135 ـ 136.

المستخرج وقتلوه، ثم أطلقوا السجناء، وزاد الأمر سوءاً ثورة الرجالة من الجند، فطينوا وجوههم ودخلوا الأسواق وسلبوا الناس[76].

وفي ذي الحجة ورد بغداد أهل دينور بالويل والاستغاثة، وسودوا وجوههم، ورفعوا المصاحف، وذكروا أن مرداويج الجيلي استعرضهم ووضع القتل فيهم، وباتوا يستغيثون ولا يغاثون، ومضوا إلى باب الوزير، فرماهم غلمان داره بالنشاب؛ فلما كان يوم النحر حضروا إلى الجامع، ووثبوا على الخطيب وقطعوا الخطبة، وقصوا على الناس ما حل بهم، فأغاثهم العامة وانطلقوا ضد السلطان[77].

وفي سنة 320هـ اشتدت ثورة العامة في بغداد. ففي المحرم انتهبوا دار الوزير واصطبله؛ وفي جمادى الأولى، اجتمع أهل الثغور والجبال إلى دار السلطان واستنفروا الناس ببغداد، وذكروا ما ينالهم من الديلم والروم، وأن الخراج إنما يؤخذ منهم ومن غيرهم ليصان به عامة الناس ويدفع عدوهم عنهم، فثار الناس معهم وساروا إلى الجامع بمدينة المنصور وكسروا داربزين المقصورة وأعواد المنبر، ومنعوا الخطبة، وضربوا الخطيب لأنه يدعو لرجل لا ينظر في أمور المسلمين، قد اشتغل بالغناء والزنا عن النظر في أمور الحرمين والثغور. وفي جمادي الآخرة سوّد الهاشميون وجوههم وانتشروا في الطرق يطالبون بأرزاقهم وصاحوا: الجوع الجوع؛ واشتد هياج العامة فكشف الدعار وأصحاب العصبية رؤوسهم، وحملوا أصناف الحديد، وتحاربوا في محلتي القنطرة الجديدة وشاطيء الصراة[78]. وبمقتل المقتدر في سنة 320هـ انتهت فترة اضطرابات دامت ربع قرن ناصبت فيها العامة الخليفة العداء، والغريب في الأمر أن جثة المقتدر قام العامة بدفنها، بل بني في موضع مقتله مسجد كانت الرعية تصلي فيه وتدعو على قاتله، وذلك تعبيراً عن موقف العامة من تسلط الجند على الخليفة[79].

استهل القاهر عهده (320هـ) بالتضييق على رجال الخلافة، فثار الجند وطالبوا بمال البيعة، وفتحوا السجن وحاربوا الموكلين به، وأيدتهم العامة في ذلك، فخرج قائد حرّاس دار الخلافة وقاتل العامة حتى تفرقوا[80].

وازدادت الأوضاع الداخلية سوءاً، وتسارع تفكك الدولة، وشحت الموارد. وفي

---

(76) المكان نفسه.

(77) حمزة الاصفهاني، ص 159.

(78) عريب، ص 121، ط. الاستقامة، حمزة الاصفهاني، ص 159.

(79) أنظر، عريب، ط. المعارف، ص 152.

(80) المصدر نفسه، ص 155.

هذا الجو نشرت أخبار حول إسراف الراضي أثارت غضب العامة (322هـ)[81]، وانتشر الغلاء في بغداد سنة 323هـ وضج الناس منه، وخرج بنو هاشم وأظهروا المصاحف وشكوا الجوع، ثم كانت لهم حركة أخرى ضد مظاهر الفقر فسودوا وجوههم ومنعوا الإمام من خطبة الجمعة[82].

وفي العام نفسه، أوقع أبو طاهر الجنابي بالحاج وقتل جماعة منهم، ونهب قوافلهم، فثارت العامة في بغداد ووثبت بأصحاب المعاون في الطرق والمساجد، ونال الراضي من ذلك أمر عظيم، وأعلن أنه لا يملك المال والجند لمحاربة القرامطة، ورأى أن ليس لديه ما يقدمه إلّا الصيام أياماً[83].

وازداد الموقف الاقتصادي تعقيداً في سنة 324هـ. فثار بنو هاشم في شهر محرم بإمام الجامع الغربي، ثم انتقلوا إلى جامع الجانب الشرقي فوثبوا بالقاضي وما تركوه يخطب، ورأى الوزير أن يعالج قلة الواردات بالتبكير بافتتاح الخراج، فضج الناس، وغلا السعر، وخرجت العامة في ثورة عارمة في جامع الرصافة، ودخل الجند في طلبهم إلى صحن الجامع، فصعد العامة إلى السطوح، ورموا الفرسان بالحجارة حتى هربوا. وفي اليوم التالي، ثار العامة بباب الطاق وراح الجند يحاربونهم حتى قبضوا على جماعة منهم، ولم تهدأ الثورة إلا بعد أن سعر الدقيق وأبيح التعامل بالدراهم الغليظة والممسوحة[84]. وفي سنة 324هـ. شغلت الشرطة عن العامة فتحركوا وعاثوا[85].

في سنة 325هـ حاول لؤلؤ قائد شرطة بغداد إقامة علاقات جيدة مع العيارين وأصحاب العصبية، وأثبت بعض العيارين في عداد رجاله، وفي سنة 326هـ ضجت العامة من تعنت أصحاب لؤلؤ ووضعهم الجبايات والغرامات، فعزل عن شرطة بغداد[86]، وكانت في شعبان من هذا العام حركة لعياري المخرّم ضد غلاء السعر، واصطدموا ببعض الجند، فلم يكن من هؤلاء إلّا أن أحرقوا حوانيت كثيرة في سوق الثلاثاء إلى المخرم، وترك هذا الحادث آثاره السيئة في نفوس الناس والخليفة[87].

---

(81) الصولي، أخبار الراضي، ص 54.

(82) المصدر نفسه، ص 61، 66.

(83) المصدر نفسه، ص 61، المنتظم، ص 276.

(84) الصولي، ص 70 ـ 71.

(85) المصدر نفسه، ص 82.

(86) المصدر نفسه، ص 89، 98.

(87) المصدر نفسه، ص 104.

وفي السنة نفسها وجد يهوديّ مع مسلمة، وكان هذا غلاماً لجهبذ يهودي، فضرب صاحب الشرطة الغلام، وتدخل أحد نافذي اليهود حتى ضرب صاحب الشرطة وسط جمع من اليهود في يوم الجمعة، فافتتن العامة وأثاروا الاضطرابات[88]؛ ورجمت العامة كاتب ابن رائق وأرادت قتله لتسلطه على الناس[89].

وفي سنة 327هـ لجأ قائد شرطة بغداد إلى عياريها وجعلهم في عداد رجاله، فسيطروا على بغداد، وجرى ذلك بعد أن غادر الخليفة العاصمة إلى الموصل برفقة بجكم أمير الأمراء ليقاتل الحمدانيين، فاضطرب الأمر في بغداد، فدخلها ابن رائق، وانتعش العيارون بذلك وعظم أمرهم إلى أن خرج صاحب الشرطة على رأس جماعة من رجاله لتهدئة الوضع[90]. واندفع العامة في تأييد ابن رائق ضد بجكم، وهزئوا من الخليفة ومن بجكم وجنده، حتى طاردوهم في الشوارع ساخرين منهم[91].

ثم خرج ابن رائق عن بغداد بعد تهديد الراضي له، فشغبت العامة وفتحت السجون وهدمتها، مما اضطر الراضي الموجود في الموصل إلى إرسال حاجبه وتعيينه قائداً للشرطة، فطارد الزعار وأخذ جماعة من العيارين، وطاف في الجانبين حتى سكن البلد؛ وأرسل الراضي بكتاب يطمئن فيه البغداديين بأنه لم يطلق يد بجكم عليهم، مما ساهم بإسكان الناس الذين كرهوا بجكم وتصرفات رجاله[92].

وبعد عودة الراضي إلى بغداد أصدر أوامره بعدم تعدي الجند والعامة بعضهم على بعض، وأحل دماء من اعتدى منهم، في محاولة لإحلال السكينة، فوفق إلى حين. ثم ما لبث أن انتشر الغلاء فاضطرب العامة وكبسوا الحمامات وأخذوا ثياب الناس، واعتدوا على الجنازات[93].

وعرفت السنة 328هـ كثرة اللصوص، فهبت العامة تطاردهم حتى قتلت العيار المشهور بالمسلماني، أحد زعماء اللصوص. وفي سنة 329هـ تدخل العامة إلى جانب الديلم الذين ثاروا ضد البريديين في الجانب الشرقي، كما نصرت جند الجانب الغربي[94].

---

(88) المنتظم، ج 6، ص 293.

(89) الصولي، ص 106، 107.

(90) المصدر نفسه، ص 119، 121.

(91) العيون والحدائق، ج 4، ص 329.

(92) الصولي، ص 121 ـ 122، العيون، ج 4، ص 330.

(93) الصولي، ص 132 ـ 133.

(94) المصدر نفسه، ص 139، 203، أيضاً، مسكويه، ج 2، ص 17.

واستولى كورتكين الديلمي على إمرة الأمراء في بغداد (329هـ)، وثارت به العامة بعد أقل من يوم، لنزول جنده من الديلم في دور العامة بغير أجرة، فاجتمعت العامة في جامع دار السلطان فضجت، ومنعت الإمام من الصلاة وكسرت المنبر[95] وفي العام نفسه انتفض التمارون ضد ملتزم الضرائب على السفن التي تنقل التمور ولحق به جماعة منهم فقتلوه، وهب الديلم وعزموا على إحراق سوق التمارين وما يليه من أسواق الكرخ[96].

واشتد ضغط الديلم على الخليفة والعامة، فخرج لؤلؤ قائد شرطة بغداد ينادي في جانبيها ببراءة الذمة من الديلم، ويحرض العامة عليهم، فما عرف أحد من شذاذ بغداد وملاحيها وعياريها موضع أحد من الديلم، إلاّ نهبه وقتله وأخذ جميع ما يملك[97].

اغتنم ابن رائق فرصة النقمة على كورتكين ورجاله الديلم، وتوجه إلى بغداد ليستولي عليها. وكان للعامة دور مهم في انتصار ابن رائق، إذ تجمعوا في سميريات ورجموا الديلم وطاردوهم، حتى حاصروهم في أزقة بغداد وقتلوا منهم الكثير، وعزم العامة على تطهير بغداد من الديلم، فأوقفوا المارة ومن يشبهون بهم، وسألوهم عن الأماكن التي يختبيء فيها الديلم[98].

وفي سنة 330هـ عزم البريدي على المسير إلى بغداد وإزالة ابن رائق، فخرج الخليفة المتقي ومعه ابن رائق والوزير والجيش وساروا بين أيديهم المصاحف المنشورة والقراء، واستنفرت العامة لقتال البريدي، واجتمع العديد من العيارين بالسكاكين المجردة في جميع أحياء الجانب الشرقي من بغداد[99]. ولما اقترب البريدي من بغداد، استنهض ابن رائق العامة وأدخلهم الجيش.

وجر انتظام العامة في الجند الويلات، فقد هزم العيارون على أيدي ديلم البريدي، وقتل منهم الكثير غرقاً، كما كان تجنيدهم سبباً في ظهور العصبيات بينهم واتصال الحروب بين جماعاتهم، فافتتن عامة الجانب الغربي، وأحرق نهر طابق، واتصلت الكبسات في الليل والنهار، واستنفر الناس وقتل بعضهم بعضاً، وفتح الحبس،

---

(95) أنظر، العيون، ج 4، ص 360، مسكويه، ج 2، ص 18.

(96) الصولي، ص 206.

(97) المصدر نفسه، ص 207.

(98) المصدر نفسه، ص 207 ـ 209، مسكويه، ج 2، ص 20 ـ 21.

(99) الصولي، ص 223، العيون، ج 4، ص 363، مسكويه، ج 2، ص 23 ـ 24.

واستمرت الفتنة طويلاً[100].

وكان رد فعل الديلم شرساً ضد أهل بغداد. فقد أخذوا في النهب والسلب، وكبسوا الدور وأخرجوا أهاليها ونزلوا مكانهم، ومنعوا العامة من حمل السلاح. وزاد في الأمر غلاء الأسعار، وظلم البريدي للناس، وافتتاح الخراج في آذار وخبطه التناء وأهل الذمة حتى تهاربوا، وفرضه الضرائب على الحنطة والزيت. عندئذ ثارت العامة وخرجت تقاتل البريدي، وقد تسلحت وانتشرت في الطرقات ليلاً ونهاراً، وأفلت الأمر حتى خرج الناس إلى جوار بغداد فحصدوا غلات غيرهم، وحملوها إلى منازلهم[101].

كان للعامة دور عسكري مرموق في إخراج البريدي من بغداد وأيدت ناصر الدولة الحمداني الذي حاول استرضاء العامة بإصلاح النقد وضبط الذعار. إلا أن تفشي الغلاء في بغداد جعل مدة إمارته فيها التي دامت ثلاثة عشر شهراً من أشأم الأيام على البغداديين كما وصفها الصولي[102].

اضطربت الأمور على ناصر الدولة، فتمرد السجناء واستغاثوا من الجوع والسجن والمرض، وانتشر اللصوص في بغداد، وخرج الناس هاربين إلى كل وجه[103]. وبالرغم من ذلك ألحّ الخليفة والتجار على ناصر الدولة بالبقاء في بغداد. إلاّ أن ضيق الأموال والغلاء، وضعف مركز أخيه سيف الدولة في واسط، شجعاه على الإنسحاب من بغداد[104]، فدخلها توزون سنة 331هـ وتسلّم إمرة الأمراء، ورأى أنه بحاجة إلى مساعدة العيارين، فأثبت جماعة منهم في جنده[105].

وفي السنة 333هـ ابتلي العامة بزيادة الضرائب وكبسات اللصوص، وزاد غلاء السعر، حتى اضطربت العامة وشغبت، وعطلت الصلاة في المساجد، وتكلمت بالعظائم[106].

وفي سنة 334هـ ازداد طغيان رجال الدولة وتشددوا في فرض الضرائب والمصادرات، وكثرت كبسات اللصوص، حتى طاردتهم السلطة، وكلما قبضت على لص

---

(100) الصولي، ص 223، مسكويه، ج 2، ص 24، العيون، ص 364.

(101) مسكويه، ج 2، ص 26، العيون، 365، ابن الأثير، ج 6، ص 284، الصولي، 224.

(102) أخبار الراضي والمتقي، ص 227، 231.

(103) المصدر نفسه، ص 228، 232، 236، العيون، ص 380، أنظر أيضاً مسكويه، ج 2، ص 38.

(104) مسكويه، ج 2، ص 39، الصولي، ص 239، 242.

(105) الصولي، ص 263.

(106) المصدر نفسه، ص 278.

قتلته العامة قبل أن يصل إلى الوالي(107).

وعرفت سنة 334هـ بداية الإحتلال البويهي لبغداد، فنزل الجند في بيوت الناس حتى لحقهم بذلك شدة عظيمة. واغتنم العامة فرصة الحرب بين ناصر الدولة الحمداني ومعز الدولة البويهي، فانضموا إلى ناصر الدولة وضم قوماً منهم إلى جنده(108). ودفع العامة ثمن موقفهم هذا غالياً، فبعد هزيمة ناصر الدولة قتل الديلم جماعة منهم، وهرب جماعات من رجال ونساء وصبيان خوفاً من الديلم فماتوا في الطريق؛ وانطلق الديلم في بغداد ينهبون أسواقها وينتقمون من العامة، ولم يتوقفوا إلاّ بعد أن قتل الصيمري جماعة، وصلب بعض غلمان الديلم(109). ورافق هذه الحرب انتشار الغلاء حتى أكل الناس الموتى والحشيش والجيف وروث الدواب، وضبط جماعة وهم يشوون أولادهم وأولاد جيرانهم(110).

وفي عهد معز الدولة هدأت حركات العامة نسبياً، وذلك بفعل الإجراءات التي اتخذها، فقد قام بعمل استقطب عياري بغداد وأحداثها وفقراءها، وشجع السعاة لحاجته إليهم، وأقبل الأحداث على التدرب على الركض، واشتهر منهم ساعيان عرف أحدهما بمرعوش والآخر بفضل حتى صارا من أئمة السعاة في بغداد، وتعصب الناس لهم. وأنشأ معز الدولة حلبة صراع تتوسطها شجرة محملة بالجواهر، فمن غلب فهي له، وكان يجتمع على ذلك أحداث بغداد، فانتشرت حلبات الصراع في بغداد، حتى إذا برز منها جماعة وضعوا أنفسهم أمام معز الدولة، وشجع السباحة حتى تعاطاها أهل بغداد، فأحدثوا فيها الطرائف(111).

وقام معز الدولة بإصلاح الأراضي الزراعية، وحث على ذلك في السواد، وقام بنفسه بالمشاركة في سد بثق نهر الرفيل وبثق بادوريا والنهروانات، حتى عمرت بغداد ورخصت الأسعار فيها، مما قرّبه من قلوب العامة، فوقفوا إلى جانبه في حروبه سنة 345هـ ضد منافسيه(112).

ويبدو أن تدهور الأوضاع الإقتصادية في بغداد، دفع ببعض بني العباس إلى

---

(107) مسكويه، ج 2، ص 83 ـ 84، العيون والحدائق، ج 4، ص 427.

(108) ابن الأثير، ج 6، ص 334، مسكويه، ج 2، ص 85، 91.

(109) مسكويه، ج 2، ص 93 ـ 94، المنتظم، ج 6، ص 349، ابن الأثير، ج 6، ص 217.

(110) مسكويه، ص 95، المنتظم، ج 6، ص 334.

(111) المنتظم، ج 6. ص 341.

(112) مسكويه، ج 2، ص 125، 128 ـ 129، 165.

الانخراط في صفوف العيارين، حتى نشبت حركة للعيارين سنة 350هـ. وكان المتسبب فيها رجل عباسي قتل علوياً وهما على خمر، فقبض الوزير المهلبي على العيارين والأحداث، وأصحاب العصبية والزعار، وحملة السكاكين، من بني العباس وغيرهم، وجعلهم في زوارق، ونفاهم عن بغداد[113].

وفي نهاية سنة 361هـ جرت حركة عظيمة للعامة، فقد قام الروم باحتلال نصيبين، وقدم إلى بغداد قوم من ديار بكر وديار ربيعة واستنفروا المسلمين في المساجد الجامعة والأسواق وحكوا لهم ما جرى، وتجمع معهم خلق كثير من أهل بغداد، وصاروا إلى دار المطيع لله، وحاولوا الهجوم عليها، وقلعوا بعض شبابيكها، وأسمعوه كلاماً كثيراً واتهموه بالعجز.

وكان الأمير البويهي يصطاد في الكوفة فتوجه إليه وفد من كبار رجالات بغداد، وطلبوا إليه الذود عن المسلمين[114]. وكلف سبكتكين الحاجب بإعداد جيش يضم من يرغب في الجهاد؛ ويعلق مسكويه: إن سبكتكين تقبل ذلك تقبل المنافق، فركب في بغداد واستنفر المسلمين، فانضم إليه أعداد كبيرة من العامة بأصناف السلاح والسيوف والرماح والقسي، فجعلهم كالعدة لنفسه وصاروا وبالاً على بغداد، وأظهروا ضروب العصبية، وأثاروا الفتن، وتفاقم شرهم.

وزاد أمر العامة حتى قتلوا صاحب المعونة لأنه قتل رجلاً من العوام، وقام خلفه يقاتل العامة، فثارت في وجهه وقاتلته، فرد بأن أحرق أسواق الكرخ وأحرق الرجال والنساء في الحمامات[116].

واستمر تحرك العيارين في بغداد سنة 364هـ، حيث ظهر لهم زعماء أشهرهم: ابن كبرويه، وأبو الدود، وأبو الذباب، وأسود الزبد، وأبو الأرضة، وأبو النوابح[117]. وتولى هؤلاء الزعماء الدفاع عن محلاتهم وجبوا أموالها، وقامت بينهم الحروب حتى غزا العامة بعضهم بعضاً[118].

---

(113) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 86 ـ 88، الصابي، الوزراء، ص 358، 359.

(114) أنظر، الإمتاع والمؤانسة، ج 3، ص 153، وما بعدها، حيث أسماء بعض أعضاء الوفد البغدادي وحواره معهم.

(115) أنظر، تجارب الأمم، ص 304 ـ 305.

(116) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 211.

(117) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج 3، ص 160.

(118) مسكويه، ج 2، ص 305.

تركت حركات 364هـ آثارها على بغداد، فقد جعلت جماعة كبرى من العامة إلى جانب القائد التركي سبكتكين، الذي استطاع إقناعهم بأنه نصيرهم، وظهر في هذه الحرب رأيان للعامة: فئة ترقّ للدين ولما دَهَمَ المسلمين وتستعظم ما جرى، وفئة وجدت فرصتها في العبث والفساد عن طريق التعصب للمذهب[119].

ومما زاد في حدة الصراعات بين صفوف العامة، اتخاذ رجال السلطة من إثارة الخلافات المذهبية وسيلة للتقرب منها. فقد أظهر سبكتكين عطفه على السنة والأخذ بساعدهم، واستغلهم في مقاومة بختيار البويهي وأنصاره، حتى تمكن من طرد البويهيين والديلم من بغداد، وبقيت الساحة فارغة أمام العيارين الذين سيطروا على المدينة[120].

وبعد أن تمكن عضد الدولة من احتلال بغداد التي جاءها لنجدة بختيار، رغب في الاحتفاظ بها، فتمرد القادة عليه ووقف البويهيون ضده، واغتنم العيارون الفرصة وتحركوا، وتجاسروا على عضد الدولة بعد أن ضبط الأمور[121].

وتمكن عضد الدولة من دخول بغداد سنة 368هـ كأمير على المدينة وسيد البلاد. ورأى أهلها وقد هلكوا قتلاً وحرقاً وجوعاً، للفتن المتلاحقة التي نزلت بها، فعمل على وقف الفتن المذهبية، وأمر بعمارة بغداد وأسواقها ومساجدها، وأعاد حفر الأنهار وبناء الجسور، وأجرى مصالحة بين العامة[122].

وفي سنة 370هـ استقبلت العامة عضد الدولة بعد أن أمر بمنعها من استقباله، إلاّ أن صاحب الشرطة هدد العامة وسمح لها باستقبال الأمير، فاجتاز دجلة ورأى من كثرة رجال العامة ما هاله، واعتقد بعد ذلك فيهم اعتقاداً حسناً، فلو أرادوا به سوءاً لما عجزوا عنه[123].

وضجت العامة في السنة 373هـ لغلاء السعر وانتشار المجاعة، فكسرت المنابر ومنعت الصلاة في عدة جمعات، ومات خلق كثير من الفقراء جوعاً[124]. وغلت الأسعار

---

(119) الإمتاع والمؤانسة، ج 3، ص 151.

(120) أنظر، الهمذاني، تكملة الطبري، ص 217، مسكويه، ج 2، ص 327، 328، 337. ابن الأثير، ج 6، ص 50، 51، 53، 56، المنتظم، ج 7، ص 68، 75.

(121) مسكويه، ج 2، ص 348، ابن الأثير، ج 6، ص 59.

(122) أنظر، مسكويه، ج 2، ص 404 ـ 408. ابن الأثير، ج 6، ص 100 ـ 101.

(123) المنتظم، ج 7، ص 104 ـ 105.

(124) المصدر نفسه، ص 121.

مرة أخرى في هذا العام مع بداية إمارة صمصام الدولة، وفرض ضرائب عالية، فتطيرت العامة من عهده ورجموا زبزبه، وشغب الديلم وانتهبوا داره[125].

وكان للعامة ثورة أخرى ضد الضرائب التي همّ صمصام الدولة بفرضها على الثياب الإبريسميات والقطنيات، فاجتمع الناس في جامع المنصور، وكاد البلد أن يفتتن، ولم تهدأ الأحوال إلّا بعد تراجع صمصام الدولة عن قراره[126].

وعرفت بغداد هدوءاً نسبياً في عهد شرف الدولة (376هـ)، الذي أمر برفع المصادرات، فأمن الناس على أموالهم. واجتهد في إنعاش الزراعة، وعمل على خفض الأسعار بنقل الغلات من فارس وغيرها إلى بغداد. فكانت العامة ساكنة، ولم يعرف عهده إلا بعض حركات للجند الذين طالبوا بأجورهم[127].

ومع عهد بهاء الدولة (379هـ) عادت اضطرابات العامة. وتتفق الاضطرابات مع النزاع بين البويهيين على الزعامة، وزاد من أسباب اضطرابات العامة، طغيان ابن الزطي صاحب المعونة في بغداد، فعادت الاضطرابات سنة 380هـ إلى الظهور وزاد أمر العيارين في الجانبين، ووقعت بينهم الحروب، وصار في كل حرب أمير، وفي كل محلة متقدم، ولم تهدأ إلا بعد تعيين «صاحب معونة» جديد أخذهم بالشدة[128].

ويذكر أبو شجاع تكرر الفتن بعد خروج بهاء الدولة من بغداد؛ فهي تارة تجري بين المحال والدروب، وتظهر تارة على شكل حريق ونهب على أيدي العيارين، ومرة على أيدي الولاة، حتى ولي المعونة عدة ولاة فما أغنوا شيئاً. واستمر الاضطراب حتى عودة بهاء الدولة، حيث سكنت الفتنة سنة 381هـ، وجرى تتبع العيارين وأخذوا وقتلوا واطمأن الناس وقامت الهيبة. وكان في جملة العيارين المأخوذين ابن جوامرد أحد وجوههم، وكان قد أبقي في عهد صمصام الدولة وأوكل إليه حراسة الأسواق. وسئل بهاء الدولة في أمره فأمنه[129].

وفي سنة 382هـ نزل الروم في مدينتي خلاط وأرجيش واحتلوهما، وظهرت آثار

---

(125) أبو شجاع، ذيل مسكويه، ج 3، ص 85.

(126) المصدر نفسه، ص 117 ـ 118، المنتظم، ج 7، ص 127، حيث ترد في أخبار سنة 373هـ، انظر أيضاً، ابن الأثير، ج 7، ص 128.

(127) أبو شجاع، ص 136، 137، 138، 151.

(128) المنتظم، ج 7، ص 173.

(129) ذيل مسكويه، ج 3، ص 187، 199.

هذا الاحتلال في اضطرابات العامة داخل بغداد، إلّا أن توقيع الهدنة هدّأ من ثورتهم.
وفي سنة 383هـ شبت الاضطرابات في بغداد لغلاء السعر وفساد النقد، واشترك العامة وجند الديلم في هذه الاضطرابات[130].

في العام 384هـ عاد العيارون إلى الظهور، وبرز منهم العيار المعروف بعزيز، واستفحل أمره والتحق به كثير من الذعار، وطرح النار في المحلات وطارد أصحاب الشرطة، وطالب بضرائب الأمتعة، وجبى واردات الأسواق الباقية[131].

وفي السنة 389هـ وقعت حركة للعامة اثر العزم على وضع ضريبة العشر على المنسوجات من الإبريسم والقطن، فثار العاملون في النسيج من العتابيين وباب الشام، وقصدوا الجامع بالمدينة، ومنعوا الخطبة والصلاة، وضجوا واستغاثوا وطافوا في الأسواق، وهاجموا بعد أيام موظفي الإدارة، وطرحوا النار في الدواوين. ولم تهدأ حركتهم إلا بعد أن قبض على جماعة من قوامهم اتهموا بالتسبب بالحريق، وصلب منهم أربعة، واستقر الأمر على فرض العشر من أثمان الثياب الإبريسمية فقط. ثم لم يلبث أن قتل صاحب المعونة على أيدي العيارين لما ألحق بهم[132].

وجرت في السنة 391هـ حركة للجند الأتراك مطالبين بأجورهم، فقام العامة والعلويون ورموهم بالآجر، ودارت معارك في الأسواق حتى انقلبت الحركة إلى فتنة مذهبية، بعد أن تدخل السنة، وزادت الفتنة وتسلط أهل الذعارة، فتدخلت الشرطة، وقبضت على جماعة من العيارين وأقيمت السطوة والهيبة[133].

وفي شهر ربيع الأول من العام نفسه كبس العيارون أحد المتهمين بالتعامل مع الفاطميين فقتلوه وقتلوا جاريته. وفي جمادي الأخرة قتل العامة العامل على الوقوف بعد أن أثخنوه رجماً بالآجر[134].

وفي ربيع الثاني سنة 392هـ ثار العامة بالنصارى ونهبوا البيعة بقطيعة الرقيق وأحرقوها، فسقطت على جماعة من المسلمين وأودت بحياة العديد منهم[135].

---

(130) المصدر نفسه، ص 247، ابن الأثير، ج 6، ص 38.
(131) المنتظم، ج 7، ص 172.
(132) المصدر نفسه، ص 174.
(133) تاريخ الصابي، ذيل مسكويه، ج 4، ص 336، 338.
(134) المصدر نفسه، ص 387، 389.
(135) المصدر نفسه، ص 391، 402.

واستفحلت عمليات التخريب من قتل ونهب، فقرر بهاء الدولة أن يرسل إلى بغداد عميد الجيوش الذي كان من الشخصيات العسكرية الصارمة.

بادر عميد الجيوش قبل وصوله إلى بغداد، بالكتابة إلى الفقهاء والتجار فيها، يعدهم بتسكين الأمور ورفع المصادرات، وندب عنه من يحفظ المدينة حتى قدومه إليها، وطلب إليه القبض على بعض المتهمين وقتلهم، وجلّهم من السعاة، الذين كانوا يراقبون التجار وأصحاب الثروات؛ فقبض الوكيل على ابن دجيم وقتله وسط الكرخ، وأنذر من كان يعمل على مساعدته في إثارة الفوضى[136].

دخل عميد الجيوش بغداد فهرب الدعار والأشرار، وطلب العيارين من العلويين والعباسيين، وقرن العلوي بالعباسي وأغرقهما في النهر، وأخذ بعض الحاشية من الأتراك المعروفين بالشغب فأغرقهم، وكان ممن قتل من العيارين المعروف بأبي علي الكرامي العلوي، وكان هذا قد ارتكب العظائم وهتك الحريم، ومنهم العيار المعروف بابن مسافر، وتمكن العيار ابن أبي العباس العلوي من الفرار إلى ميافارقين، فطارده، وأهلك بعض الكتاب الظالمين[137].

وبالرغم من هدوء موجات التحرك الشاملة، فقد بقي العيارون ينفذون بعض العمليات المحدودة. من ذلك كبسهم في التاسع من ذي القعدة سنة 392هـ لدار أبي عبد الله المالكي، الناظر في المواريث، وكان سيء السيرة فلم يجدوه، ووجدوا صهره وقتلوه، كما قتلوا في ذلك اليوم حماد الشهروني، وكان من أهل الرفق والعصبية[138].

وفي سنة 397هـ اشتد الغلاء ببغداد، فضج العامة وشغب الجند ووقعت الفتنة[139].

بعد هذا الاستعراض التأريخي لأهم تحركات العامة السياسية، لا بد لنا من تحديد المجالات التي كانت تتحرك فيها العامة وتطور هذا التحرك.

نلاحظ أن العامة في بغداد أصبحت مع مطلع القرن الثالث قوة أساسية في النشاط السياسي والعسكري. وبرز العيارون كقوة كبرى تضم الآلاف، وقد انتظموا في

---

(136) المصدر نفسه، ص 418، المنتظم، ج7 ص 219.

(137) تاريخ الصابي، ص 438 ـ 440.

(138) المصدر نفسه، ص 447.

(139) ابن الأثير، ج 7، ص 228.

وحدات مقاتلة يقودها زعماء منهم.

فمع ظهور العنصر التركي كعامل أساسي في توجيه السلطة، أصبحت العامة القوة الشعبية المعارضة التي يلجأ إليها الخلفاء لاستعادة سيطرتهم، ومنذ عهد المتوكل، أصبح من الطبيعي أن يتجه الخلفاء للاستعانة بقوة العامة، التي أثبتت جدارتها العسكرية. وتأكد هذا الدور في عهدي المستعين والمعتز. كما أن دور العامة كان واضحاً منذ انقلاب ابن المعتز، وأصبحت العامة تدخل في حسابات الوزراء المتصارعين على النفوذ، وصار بعضهم يتوجه إلى العامة متزلفاً، وهذا ما أتاح لها التدخل سنة 318هـ لتأمين سلامة القضاء والإدارة. ومن مظاهر تدخل العامة في السياسة احتجاجها ضد إسراف المقتدر والراضي. ومنها أيضاً، التدخل المباشر لقمع المخالفات التي يرتكبها الموظفون، كقتلها للعامل على الوقوف سنة 391هـ، ومهاجمتها دار الناظر في المواريث.

كانت العلاقة بين عامة بغداد وجندها سيئة في معظم وجوهها، فمنذ دخول العنصر التركي في عهد المعتصم كانت للعامة مواقف معادية منهم. واشتد هذا العداء بعد حرب الخلافة بين المستعين والمعتز التي انتهت بدخول الجند الأتراك بغداد. وتحالفت العامة مع جند بغداد القدماء من الخراسانية والأبناء، وهبوا في سنة 255هـ ضد رجال صاحب الشرطة الذين استقدمهم من الري وأساءوا معاملة البغداديين، واعتدوا على النساء، وكان مثل هذا الموقف يتكرر كلما اعتدى جندي على امرأة. وأصبح العامة في عهد إمارة الأمراء المادة الأساسية في الصراع على الإمارة بين قادة الجيش. وكانت العامة دائماً إلى جانب من لم يسيء معاملتها، فكانت مع ابن رائق ضد بجكم سنة 327هـ، ومع ديلم كورتكين ضد البريدي سنة 329هـ. إلا أنّ نزول الديلم في دور البغداديين من غير أجرة جعلهم يقفون إلى جانب ابن رائق (329هـ)، ووقفوا مع ابن رائق أيضاً ضد البريدي سنة 330هـ. وبعد انتصار البريدي توجه إلى العامة بأقسى أنواع المعاملة، مما اضطرهم لأن يقاتلوه ويخرجوه. وأثبت توزون 331هـ العيارين ضمن رجاله، وكانت سياسة تجنيد العيارين مربحة للطرفين، فهم أرخص الجند أجوراً، وبالنسبة إلى العيارين، فإن قوتهم العسكرية تعطيهم قدرة على التحرك في الإغارة على الأموال.

وعند هجوم معز الدولة البويهي قاتل العامة والعيارون إلى جانب ناصر الدولة الحمداني. وتمكن البويهيون من ضبط الوضع نسبياً، فهدأت حركات العامة بعد إدخال سلسلة من الاصلاحات الاقتصادية. أما حين لم يكن باستطاعة البويهيين ضبط العامة، فإنهم كانوا يلجأون إلى شقها على أسس مذهبية يحد من خطرها العسكري.

ويبـدو لنا أن ظهـور العيارين عـاملاً سلبيـاً في بغداد مـرتبط بقوة السلطة، فكـان العيارون ينشطون كلما أحسوا بفراغ أمني، أو كلما كان صاحب الشرطة ضعيفاً.

فمن حالات الفراغ الأمني، خـروج العيارين سنـة 277هـ وبعد مـوت المعتضد، ومثل ذلك اعتقال الوزير ابن الفرات (299هـ) الحاكم الإداري القوي. وعند اضطراب الجنـد سنة 317هـ حصـل فراغ أمني اغتنمـه العيارون. وكـذلك الأمـر في حـال وجـود صاحب شرطة ضعيف. فنشطوا في سنة 310هـ، ولم يهدأ العيارون سنة 317هـ إلا بعد تعيين صاحب شرطة قوي، واغتنم العيارون فرصة انشغال الشرطة سنة 324هـ فأغاروا ونهبوا. وأدى ضعف صاحب الشرطـة سنة 380هـ إلى أن سيـطر العيارون بقيـادة زعيم لهم وجبـوا بغداد. وكـان طغيان صـاحب الشرطة يؤدي إلى الثـورة ضده. وأدى ضعف الشرطة وقوة العيارين، إلى أن أخذ قادة الشرطة يستعينون بالعيارين، مما تسبب بإحداث قلق دائم في بغداد، وحين تراجعت السلطة عن هذا الإجـراء، كان زعـماء العيارين قـد أصبحوا «شيوخ المحلات» والحكام الحقيقيين فيها.

وكان لعجز الدولة العسكري داخلياً وخارجياً، أثره السلبي على البـلاد، ومناسبـة للعامة للتعبيـر عن استيائهم من التقصيـر المستمر في مجابهة هجـمات القرامـطة والبدو في الداخل، وحماية الثغور ضد هجمات الروم في الخارج.

فقد شن القرامطة حرب استنـزاف طويلة ضـد جيش الخلافـة في العراق وقلصـوا سلطة الخليفة وعائداته المالية، بل شكلت نزيفاً مالياً مستمراً بـاضطرار الـدولة إلى تجهيـز الحملات لمحاربتهم. واتبـع القرامـطة والبدو أسلوبـاً جديـداً، بأن أخـذوا يغيرون عـلى الحجاج ويوقعون بهم وينهبونهم، مما شكل ضربة في صميم واجبات الخليفة الدينية. ومن هنا، فإن حركات العامة التي أعقبت غـارات القرامـطة على الحـاج كانت تتصف بـأقصى درجات العنف. ولعل أهم تحرك للعامة كان في أعقاب هجوم القرامطة عـلى الحاج سنـة 312هـ، ثم هجومهم على قصر ابن هبيرة وتشريد أهله في سنتي 316هـ و319هـ. وزاد في الأمـر سيطرة الـديلم على الـدينور، فخـرجت العامـة تعلن العصيان المـدني ورفضها للسلطة العاجزة عن حماية ممارساتها الدينية، من صلاة وحج وجهاد، بل إنهم رفضوا دفع الضرائب لدولة يعجز جندها عن حمايتها.

وكان تقاعس الدولة وعجزها عن حماية الحـدود مع الـروم مناسبـة لثورات عـارمة ضد السلطة قامت بها العامة في السنوات 316 و319 و361 و364 و382هـ.

ومـما يزيـد في أسباب ثـورة العامـة تقاعس الحكـام ولا مبـالاتهم أمـام مثـل هـذه

الهجمات، حتى اضطر العيارون سنة 364هـ إلى نهب السلاح والتطوع لمحاربة الروم.

وكانت العامة شديدة الحساسية ضد أهل الذمة، فكانوا يثبون بهم لركوبهم الخيل ولوجود عدد من الموظفين الكبار منهم، حتى أن أي اتهام لأي ذمي بالقيام بتصرف محض شخصي، كان سبباً كافياً لتحركهم. ولعل هذا التشدد عائد لإحساس العامة بضعف الدولة الذي ربما اعتبروا أهل الذمة أحد أسبابه.

والسبب الأخير في تحرك العامة هو اضطراب الأوضاع المعيشية للعامة وانتشار الغلاء والتضخم المالي وكثرة الضرائب. ولعل أخطر هذه الثورات تلك التي شبت سنتي 308 ـ 309هـ والتي كانت الإسفين في دك سلطة بني العباس. وبعدها صار المألوف أن نرى تحركات العامة ضد الغلاء والجوع. وزاد في الأمر أن السلطة نفسها كانت تلجأ إلى الضرائب باستمرار لسد عجزها، حتى اضطر الأمر إلى تضمين الضرائب وسك نقود فاسدة، مما كان سبباً أساسياً في ثورات السنوات 372 و383 و389 هـ.

ولكن ما المصير الذي آل إليه العيارون؟

لقد استمر نشاطهم في القرنين الخامس والسادس. ففي رجب من سنة 415هـ، أخذوا يكبسون الناس ليلاً ونهاراً؛ وفي سنة 424هـ ظهر منهم أبو علي البرجمي، الذي لقب بالقائد، وشاع عنه أنه لا يتعرض لامرأة، ولا يمكّن من أخذ شيء معها أو عليها. وقد ثار العوام في جامع الرصافة يوم الجمعة، ومنعوا الخطيب من الخطبة إلاّ للبرجمي، دون الخليفة أو الملك البويهي(141).

وأيد العيارون العهد السلجوقي والتف حوله «الأوباش والأصاغر والأدوان والأرذال». ويعلق منصور بن محمد الكندري وزير طغرل بك على هذا الدعم بقوله: «وتأمل الملك والشرائع ثم الدول من بعدها تجد أوائلها وأحوالها على هذا»(142).

وظهر في هذا العهد محمد بن عبد الباقي الخباز المعروف بابن الرسولي، وعبد القادر الهاشمي البزاز، وقد جعل عبد القادر شيخ من يدخل في الفتوة، وكتب لأنصاره منشورات قلدهم فيها الأصقاع ولقب نفسه «كاتب الفتيان»، وألف ابن الرسولي رسالة في الفتوة يذكر فيها معانيها وفضائلها وقوانينها. ولكن العلاقات بين السلاجقة والعيارين «الفتيان» ساءت بتأثير من عبد الصمد بن عمر الواعظ الشافعي الذي اتهم الفتيان

(140) أنظر، الأب ج. م. فيه، أحوال النصارى، ص 196 ـ 197.

(141) المنتظم، ج 8، ص 21 ـ 22، 54 ـ 55، 62، 72، 75.

(142) المفوات النادرة، ص 295.

بالاتصال بالفاطميين، فصدر الأمر بالقبض على ابن الرسولي والهاشمي[143].

ليس لدينا سوى معلومات غامضة عن العلاقات بين العيارين والفتيان المتأخرين. فالصفات التي تحلى بها العيارون لا تسمح بالقول بقيام علاقة وثيقة بين هاتين الجماعتين.

إلا أننا نرى أنه وجدت دائماً نماذج متفرقة لسلوك نظيف لبعض العيارين وجماعاتهم. من ذلك النظام المتماسك الذي أقامه في سجستان يعقوب بن الليث الصفاري (262هـ)، والذي كان عماده من العيارين والمطوعة. ويتحدث المسعودي بإعجاب عن علاقات يعقوب برجاله[144].

ولدينا مثل آخر في النظام الذي أقامه عمران بن شاهين (339هـ) في البطيحة. وكان عمران هذا من زعماء قطاع الطرق، فتمكن من الاستيلاء على البطيحة وإقامة نظام يسوده العدل. ولدينا على الصعيد الفردي أمثلة تدل على قيام نواميس الفتوة. منها تلك النواميس التي أقامها فاتك الذي لقب بقاضي الفتيان في القرن الثالث، ومنها ما روي عن أبي الهيثم خالد الحداد اللص الطرار، والذي يتحدث عن علاقته بأحمد بن حنبل والمتوكل والفتح بن خاقان وانتهاء هذين الأخيرين إلى الخليدية. وفي هذا يقول ابن الجوزي: «العيارون يسمون بالفتيان ويقولون: الفتى لا يزني ولا يكذب ويحفظ الحرم ولا يهتك ستر امرأة. ومع هذا لا يتحاشون من أخذ أموال الناس ويسمون طريقتهم الفتوة...»[145]. ومثل هذا قصة أسود الزبد في القرن الرابع الذي تحلى بأخلاق حميدة، ومنها القصة التي تروي اجتماع العيارين واللصوص في بغداد والطقوس التي مارسوها في مأكلهم ومشربهم واقتسامهم ما يسلبونه واحترامهم قياداتهم. ومنها ما أورده ابن الأثير عن ظهور أصناف من العيارين من بنوية وفتيان وسنة وشيعة التي لا بدّ أن لها أصولها التاريخية.

هذه الأمثلة تسمح لنا بالظن بقيام علاقات بين العيارة والملامتية والفتوة اللاحقة التي يمكن أن تكون قد صاغت نظرياتها على مرور الزمن، حتى قيض لها من يتبناها رسمياً في نهاية القرن السادس. فيقول ابن المعمار الحنبلي[146]: «لم تزل الفتوة تنتقل إلى

(143) المنتظم، ج 8، ص 326 ـ 7.
(144) مروج الذهب، ج 2، ص 474 ـ 7.
(145) ابن الجوزي، اتلبيس إبليس، ص 392.
(146) .الفتوة، ص 145 ـ 7.

عصرنا هذا حتى تفرعت بيوتاً وأحزاباً وقبائل، كالرهاصية والشحينية والخليلية والبنوية والمولدية، لما حدث بينهم من الاختلاف، وكل منهم ذهب إلى رأي. فلما لم يقضوا في الفتوة بأحكامها كثر الاختلاف بينهم. فلما انتهى ذلك إلى عصر الناصر أمير المؤمنين [توفي في 622هـ]، أنعم نظره في النسب واختار كبيراً في الفتوة هو الشيخ عبد الجبار بن صالح البغدادي لما كان عليه من حسن السيرة والطريقة».

الفصل الثامن عشر

حركات العامة الدينية

أ ـ الحركات السنية

كان اهتمام البغداديين بالمذاهب الدينية شديداً، وكان انضواؤهم تحت ألويتها يسمح لهم بالتعبير عن مواقفهم من الأوضاع العامة. ويبدو أن أكثرية عامة بغداد، في القرنين الثالث والرابع، كانت تنتمي إلى مذهب السنة[1]، مما جعلها تمارس نوعاً من المراقبة لسلوك بعض رجال السلطة تجاه المذاهب.

كان المأمون أول خليفة وضع عقيدة الدولة الرسمية في تناقض مع عقيدة العامة. ففي سنة 212هـ عزم على لعن معاوية من على منابر بغداد، فأعظمت العامة الأمر واضطربت، فأشير على الخليفة بتركه، وألا يظهر أنه يميل إلى فرقة من الفرق[2].

وفي سنة 218هـ أقدم المأمون على محاولة أخرى وهي القول بخلق القرآن، وطلب امتحان العلماء في ذلك[3]. وقامت سلسلة من المحاكمات عرفت بالمحنة، لاقى فيها الاضطهاد العديد من رجال الدين في بغداد، ضمت منهم أكثر من عشرين رجلاً بينهم أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الذي توفي بعد وفاة المأمون سنة 218هـ. وارتبطت هذه الدعوة بتفضيل المأمون لعلي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر[4]، متبنياً بشكل كلي مذهب الاعتزال[5].

(1) أنظر، الخطيب البغدادي، ج 12، ص 464.

(2) مروج الذهب، ج 2، ص 357، طيفور، بغداد، ص 50.

(3) طيفور، ص 187.

(4) الطبري، ج 9، ص 619، 644، 645.

(5) حول مبادىء الإعتزال، أنظر، المسعودي، مروج الذهب، ج 2، ص 173 ـ 74.

كـان مذهب الاعـتزال مذهبـاً وسطاً. إلا أنـه اتفق مع التشيـع في بعض المـواقف السياسية والعقائدية. فالمعتزلة تؤيد وجهة نظر علي في الحرب بينه وبـين معاويـة[6]، وهم كما قال المرتضى «براء من معاوية وعمـرو بن العاص ومن في شقهـما» ويلتقون مـع الشيعة بالأمر بالمعروف[7]، ويقولون بحق الأمة بالثورة تحت راية إمـام عادل[8]. إلا أن المعـتزلة اختلفوا مع الشيعة في مبدأي الوصية للإمام، وعصمته[9].

ولعل الوفاق بين الاعـتزال والتشيع مـرتبط بعلاقـات ثقافيـة وشخصية قـامت بين شيوخ هذين المذهبين. فـالمرتضى يعـود بالأصـول الفكريـة لواصـل بن عطاء وعمـرو بن عبيد، شيخي الاعتزال، إلى محمـد بن علي (ابن الحنفيـة) وابنه أبي هـاشم، و«محمد هـو الـذي ربى واصـلاً وعلمـه حتى تخرج واستحكم»، ومحمـد أخـذ عن أبيـه عـلي بن أبي طـالب[10]، وكان زيـد بن علي الـذي تنسب إليه الـزيديـة، تلميذاً لـواصـل بن عـطاء الغزال، فاقتبس زيد منه الاعتزال وصار أصحابه كلهم معتزلة[11].

كـان موقف المعتزلة من العباسين متفقـاً مع مـوقف الشيعة، فقـد ذكر أن المعـتزلة رفضـوا التعاون مـع العباسـين، فامتنـع أبـو عثـمان عمـرو بن عبيـد أن يـلي للمنصـور ولاية[12]. ورفض أبو حنيفة العمل في إدارة المنصور، لأنه كـان يميل إلى الـزيديـة، على ما قيل، وبايع محمد بن عبد الله (النفس الزكية) الذي ثار على المنصور[13].

ويبدو أن العلاقة بين المعتزلة والزيدية استمرت في النمو حتى ورث الشيعة المعـتزلة سياسياً وفقهياً[14]، فكان عضد الدولة يعمل بمذهب المعتزلة[15]. وفي القرن الخـامس، كانت هجمات السلطة السنية تربط دائـماً بين الشيعـة والمعتزلـة[16]، وذكر الشهـرستاني أن الزيدية في زمانه (479 ـ 548هـ) يرون رأي المعتزلة ويعـظمون أئمـة الإعتزال أكـثر من

(6) أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، ج 3، ص 79.
(7) أحمد بن يحي بن المرتضى، **المنية والأمل**، باب ذكر المعتزلة، بعناية ارنولد، (ليزغ، 1902)ص 6.
(8) محمود اسماعيل، **الحركات السرية في الإسلام**، ص 138، والشيعة تقول بأن الإمام العادل يقود الثورة.
(9) المصدر نفسه، ص 134.
(10) **المنية والأمل**، ص 5 ـ 6.
(11) الشهرستاني، الملل والنحل ج1، ص 155.
(12) الجهشياري، **الوزراء**، ص 112 أيضاً، ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، ج 2، ص 327.
(13) الشهرستاني، ج 1، ص 158.
(14) متز، ج 1، ص 102، 106.
(15) المقدسي، ص 439.
(16) أنظر، **المنتظم**، ج8، ص 39، 41.

تعظيمهم أهل البيت[17].

أثار الموقف الذي اتخذه المأمون من المذاهب بتبنيه الاعتزال حفيظة أحمد بن حنبل ولفيف من علماء السنة، فهبوا لمعارضة الدعوة إلى القول بخلق القرآن. وصمد ابن حنبل بقوة ضد جميع أنواع الضغوط التي تعرض لها[18]. فقد حبس مدة ثلاثين شهراً، وأخضع لمحاكمة تعرض فيها إلى أشد أنواع التنكيل، ونوظر أمام المعتصم ببغداد بعد أن هوّل عليه بإبلاغه بمقتل رجلين من أنصاره، وضرب وعذب أثناء المحاكمة، فلم يقبل بمقالة الخليفة، الذي اضطر إلى الإفراج عنه تحت ضغط العامة التي هددت بالثورة عند أبواب قصره في بغداد[19].

تمكن ابن حنبل من أن يكون لنفسه زعامة دينية داخل بغداد، وكثر أنصاره حتى سيطروا على المدينة مدة طويلة[20]. ويذكر السبكي، أنه أثناء مرض ابن حنبل الأخير، ازدحم الناس في الشوارع والمساجد حتى تعطل الباعة من الازدحام، وجاء العديد من بني هاشم للاطمئنان إلى صحته[21]. وقيل إنه يوم دفنه شهد جنازته عشرات الآلاف من البغداديين، وأظهرت العامة الكثير من الأسى.

وتابع الخلفاء اضطهاد «أهل الحديث»، ونفذ المعتصم وصية أخيه بمتابعة المحنة[22]، حتى أنه أمر بأن لا يفادى إلاّ الأسير الذي يقول بخلق القرآن، وعزل القضاة الذين لا يقولون بخلق القرآن[23].

كانت ردود فعل العامة على موقف السلطة ورجالها متفاوتة. فقد هجمت سنة 227هـ على رجلين من الجهمية[24] في جامع الرصافة، ثم اتجهت إلى بيت القاضي الذي

---

(17) الملل والنحل، ج 1، ص 162.

(18) أنظر، السبكي، طبقات الشافعية، ج 1، ص 210.

(19) أبو نعيم الاصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (القاهرة، 1932 ـ 38)، ج 9، ص 186، 202، 203، 206.

(20) المقدسي، ص 126، 130.

(21) طبقات الشافعية، ج 1، ص203، 204.

(22) أنظر، الطبري، ج 8، ص 648، الخطيب البغدادي، ج 10، ص 74.

(23) الطبري، ج 9، ص 142 ـ 44، الخطيب، ج 7، ص 83.

(24) الجهمية هم أصحاب جهم بن صفوان (ت 124هـ) وكان يتفق مع المعتزلة بنفي صفات الله ويقول بأن الله قادر موجد فاعل وخالق ومحيي ومميت، وهو بذلك يبتعد عن الحنابلة ويختلف معهم، أنظر، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 199 ـ 200.

يقول بخلق القرآن، وأحرقت داره، واتهمته بالتعصب ضد السنة[25].

وتابع الواثق سياسة أبيه المعتصم، فأمر بامتحان الأئمة والمؤذنين[26]. وفي عهده قتل أحمد بن نصر الخزاعي (231هـ) بعد أن دبر حركة للثورة على الخليفة في بغداد. ويذكر الطبري أن أصحاب الحديث وممن ينكر القول بخلق القرآن قصدوا ابن نصر دون غيره، لما كان لأبيه وجده من أثر في دولة بني العباس، ولما كان له من أنصار أثناء حركة سنة 201هـ التي نادت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورجوا بذلك استجابة العامة لدعوته إذا ما تحرك[27].

نظّم أحمد بن نصر دعوته وضم إليها جماعة من القواد، إلا أن أمره افتضح قبل ساعة الصفر بليلة واحدة، فاعتقل قادة الحركة وطوردوا، ووجد في منزل أحدهم علمان أخضران فيهما حمرة[28].

وكان اكتشاف هذه المؤامرة مناسبة للواثق ليشن حملة على «أصحاب الحديث» من الحنابلة، فوضعهم في السجون، ومنع عنهم الصدقة التي تعطى للسجناء، ومنع زيارتهم وأثقلهم بالحديد، وتولى قتل أحمد بن نصر بيده[29].

واتت الرياح مراكب الحنابلة في عهد المتوكل (232 ـ247 هـ)، فقد وجد هذا نفسه أسير السيطرة التركية، وجدّ في التقرب من العامة، فعاد عن القول بخلق القرآن، وأظهر السنة، ونهى عن الجدال في القرآن، ورفع المحنة، وأمر المحدثين أن يجلسوا للناس، فخرج المحدثون من الحنابلة حتى قيل: إن أبا بكر بن شيبة حدّث في جامع الرصافة، فاجتمع إليه نحو ثلاثين ألف نفس، وجلس أخوه عثمان في جامع المنصور فاجتمع إليه نحو ذلك العدد[30].

وازداد نفوذ الحنابلة، ولم يفوتوا أي فرصة ليعبروا عن موقفهم أو قوتهم، فحين أمر المتوكل برد جثة أحمد بن نصر المصلوبة إلى أهلها، اجتمع «الرعاع» و«الغوغاء» إلى

---

(25) الخطيب البغدادي، ج 9، ص 243.

(26) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 367.

(27) تاريخ، ج 9، ص 136، 137.

(28) المكان نفسه.

(29) المصدر نفسه، ص 138، 139.

(30) أنظر، السيوطي، ص 373، الطبري، ج 9، ص 190، الخطيب، ج 10، ص 97.

خشبته وكثّروا وتكلموا، كما اجتمع إلى الجثة ما لا يحصى من العامة وتمسحوا بها[31].

ومارس الحنابلة رقابة فكرية صارمة ضد مخالفيهم في الرأي. فقاطعوا جنازة الحارث بن أسد المحاسبي الزاهد، ولم يصلّ عليه إلا أربعة أنفار، وكان ابن حنبل قاطعه لأجل «الكلام»، فاختفى لتعصب العامة[32]، كما منع الحنابلة تشييع جثمان الطبري نهاراً سنة 310هـ[33]. وكانوا قد قصدوا الطبري فسألوه عن ابن حنبل وعن حديث الجلوس على العرش؛ ويبدو أن جواب الطبري لم يعجبهم، فوثبوا به ورموه بمحابرهم، وقيل: إنها كانت ألوفاً، فقام إلى منزله، وتبعوه إليه ورموه بالحجارة حتى صارت على بابه كالتل المرتفع، واضطر صاحب الشرطة إلى الاستعانة بألوف الجند ليمنع الطبري من العامة[34].

ويبدو أن نشاط العامة الديني تزايد في عهد المعتضد، حتى عمل على لعن معاوية على المنابر سنة 284هـ، فخوفه وزيره مغبة الأمر، وحذره من فتنة تقوم بها العامة. إلا أن المعتضد عمل نسخاً من الكتاب الذي كان المأمون قد أنشأه، قرأت في مساجد جانبي بغداد. ثم منع المعتضد أهل الحلقات والفتيان والقصاصين من القعود في المسجدين، وتقدم إلى العامة بلزوم أعمالهم وترك الاجتماع والعصبية، ومنع القصاص من الجلوس على الطرقات وحرّم المناظرة والجدل[35].

ومنذ مطلع القرن الرابع، أخذت قوة الحنابلة بالازدياد. فاستنجد بهم عبد الله بن المعتز سنة 296هـ وخرج في أسواق بغداد ومعه غلام ينادي: يا معشر العامة، أدعوا لخليفتكم السني البربهاري[36]. وفي سنة 313هـ أثار العامة بتأثير من الحنابلة، موجة من التحريض السياسي ضد الشيعة[37]. وفي سنة 316هـ توفي ابن أبي داود المحدث وحضر جنازته زهاء 300 ألف شخص[38]. وفي سنة 317هـ وقعت فتنة في بغداد بين أصحاب

---

(31) الطبري، المكان نفسه، ابن الأثير، ط. صادر، ج 7، ص 65، ط. مصر، ج5، ص 291.

(32) المنتظم، ج 6، ص 172.

(33) ياقوت، معجم الأدباء، ج 6، ص 436.

(34) أنظر، العيون والحدائق، ج 4، ص 87 ـ 88، المنتظم، ج 5، ص 171.

(35) ابن الأثير، ج 5، ص 85 ـ 87.

(36) المصدر نفسه، ص ج 6، ص 121 ـ 122، والبربهاري هو الحسين بن القاسم بن عبيد الله مقدم الحنابلة والسنة في بغداد وكانوا يكبرونه ويطيعونه.

(37) المصدر نفسه، ص 195 ـ 196.

(38) الخطيب البغدادي، ج 9، ص 468.

أبي بكر المروزي الحنبلي وبين غيرهم من العامة، بسبب الخلاف حول تفسير آية قرآنية[39].

وكانت للعامة ثورة ضد رجال السلطة سنة 321هـ بتحريض من الحنابلة، فقد عمل يلبق حاجب القاهر، والحسن بن هارون الكاتب، على لعن معاوية من على منابر جوامع بغداد، فاضطربت المدينة، وتقدم يلبق بالقبض على البربهاري الذي هرب واستتر[40].

وفي سنة 323هـ أرهج الحنابلة بغداد، وصاروا يكبسون دور القواد والعامة، وخرجوا يريقون الأنبذة، ويضربون المغنيات، ويكسرون آلات الطرب، واعترضوا في البيع والشراء، ومنعوا مشي الرجال مع النساء والصبيان، وشهدوا على الناس بالفاحشة، واستعانوا بعميان المساجد ضد الشافعية، ووقع حريق في الأسواق في نفس العام واتهم به قوم من الحنابلة[41].

وإزاء ازدياد خطر الحنابلة، أمر الراضي بالمناداة في جانبي بغداد بأصحاب أبي محمد البربهاري، ألاّ يجتمع منهم نفسان في موضع واحد، وقبض على جماعة منهم واستتر البربهاري. ولم يكتف الراضي بذلك، بل أخرج منشوراً اتهم فيه الحنابلة بالنفاق، وأخذ عليهم معاداتهم لأهل بيت النبي، كما أخذ عليهم إنكارهم زيارة قبور الأئمة، مع تناديهم لزيارة قبر ابن حنبل[42]. وذكر الصولي أن «أمر الحنبلية زاد في هذه الأيام ونهبوا الدكاكين بباب الشام، لأن البربهاري مضى بعود أحمد بن حنبل، وعاثوا في مربعة شبيب، فأنكر السلطان منهم ذلك، وطلب الدلاء وابن رمضان فلم يوجدا»[43].

وفي سنة 324هـ ضج الحنبلية في أمر ابن شنبوذ الذي اتهم بقراءة القرآن بشكل مختلف، ولم يكفوا إلاّ بعد أن قبض عليه ونوظر وتاب[44].

وفي سنة 326هـ زاد أمر البربهاري وأصحابه، فكتب إليه ابن مقلة يحذره وينذره،

---

(39) ابن الأثير، ج 6، ص 206، والسيوطي، ص 414.

(40) المنتظم، ج 6، ص 249، وابن الأثير، ج 6 ص 233.

(41) ابن الأثير، ج 6، ص 248 ـ 249، الهمذاني، تكملة الطبري، ص 92.

(42) أنظر، مسكويه، ج 1، ص 322.

(43) أخبار الراضي، ص 65.

(44) أنظر، المصدر نفسه، ص 62، 85، أيضاً، الفهرست، ص 53 ـ 54، حيث يورد نماذجاً من قراءة ابن شنبوذ.

فأظهر البربهاري القبول، وتعهد بعدم العودة إلى الاضطرابات[45].

وفي سنة 327هـ خرج جماعة من أهل بغداد لزيارة قبر الحسين في الحائر، فخرج الحنابلة عليهم ونالوا منهم، ووقعت فتنة بين الحنابلة وبين أهل سوقي الضرابين والنحاسين[46]، وهب قائد شرطة بغداد يطارد الحنابلة فقتل منهم وجرح جماعة وأحرق منازلهم، وقبض على جماعة أخرى وضربهم بالسياط، وكبست دار البربهاري فاستتر، وقتل الدلاء صاحب البربهاري وصلب على الجسر، ونودي بالحنابلة بألا يتعرضوا لمن يريد الزيارة، وإلا نالوا عقابهم[47].

وعند موت بجكم سنة 329 هـ ابتهج الحنابلة وهاجوا، وحاولوا هدم مسجد براثا الذي كان بجكم بناه، وحاولوا الإيقاع بالضرابين وأهل درب عون، فأمر المتقي بأخذ قوم من الحنابلة وضربوا ونودي عليهم[48].

وبدخول بغداد تحت السيطرة البويهية سنة 334هـ تمكنت السلطات الجديدة من فرض هيبتها، فتوقفت حركات الحنابلة، وأخذت المذاهب العلوية تنشط تحت رعاية البويهيين الزيدية، مما جعل النصف الثاني من القرن الرابع عصر الصراع المذهبي بين السنة والشيعة، والذي غالباً ما كانت تذكيه أيدي رجال السلطة أنفسهم، حتى أن المصادر لم تذكر إلا حادثة واحدة في سنة 360هـ وثبت فيها العامة بمن تتهمه بالقول بخلق القرآن[49]، وكانت الحركات الأخرى كلها عبارة عن حروب متصلة بين الأحياء السنية والشيعية، كان أبطالها عيارو بغداد وأحداثها من الجانبين.

ب ـ الحركات العلوية

عرف النشاط السياسي العلوي في بغداد مرحلتين: مرحلة العمل السري، وتمتد حتى سنة 334هـ، ثم مرحلة العمل العلني التي تبدأ حيث تنتهي المرحلة الأولى بدخول البويهيين إلى بغداد.

في المرحلة الأولى، كان الحجر السياسي مفروضاً بشكل رسمي على العلويين؛

---

(45) أخبار الراضي، ص 103.

(46) الضرابون: سوق ضرب النقود والعاملون فيها.

(47) أخبار الراضي، ص 135، العيون والحدائق، ج 4، ص 232.

(48) أخبار الراضي، ص 199. وكان الشيعة قد اعتبروا مسجد براثا ذى مكانة خاصة، مما حمل الحنابلة على الدفن في مكانه إمعاناً في مناكاة الشيعة.

(49) المنتظم، ج 7، ص 54.

ففي عهد المنصور كان المطبق يضم العديد منهم، وفي سنة 171هـ أخرج الرشيد الطالبيين من بغداد إلى المدينة المنورة، ومن بقي منهم عاش مستتراً في بغداد حتى لا يكشف أمره[50]. ومع مطلع القرن الثالث بدأ العلويون يردون إلى بغداد، وارتبط نزولهم فيها بنتائج الحروب الداخلية التي كانت تنشب في العراق. من ذلك قدوم جماعة من العلويين من الكوفة إلى بغداد بعد فشل حركة أبي السرايا (199 ـ 202هـ)، فتواروا فيها، وتمكن بعضهم من الالتحاق بديوان الجند[51].

ويبدو أن زعماء الطالبيين حظوا باحترام البغداديين. فقد اضطر الرشيد لأن ينفي عن نفسه اتهامه ببغض العلويين[52]. ولا بد أن هذا العطف قد اكتسب صفة العلنية في عهد المأمون، الذي بايع لعلي بن موسى الرضا بولاية العهد. ولعل ما لقيه الطالبيون من سوء المعاملة كان وراء ازدياد التأييد الأدبي الذي لقوه من البغداديين.

ففي سنة 236هـ ظهرت كتابات على جدران بغداد تندد فيها العامة بالمتوكل الذي أمر بهدم قبر الحسين بن علي[53]. ولاقت حركة يحيى بن عمر العلوي في الكوفة سنة 250هـ تأييداً حماسياً في بغداد. ويذكر الطبري أنه لا يعلم أن البغداديين تولوا من أهل بيته غيره، وأنه عند الظفر به حمل رأسه إلى المستعين في سامراء، ثم حمل إلى بغداد لينصب فيها بباب الجسر، فلم يتم ذلك لكثرة ما اجتمع من الناس، يريدون أخذ الرأس منه ودفنه[54].

كان القرن الثالث عصر التحرك السياسي والعسكري للعلويين الزيدية[55] الذين لاقوا نجاحاً لدى عامة المسلمين بسبب عقيدتهم في الإمامة، فتمكنوا من تنظيم دعوة سرية واسعة حملت في مبادئها الثورة على الحكام الظالمين[56]. ونشطوا بين الناس عند

---

(50) الخطيب البغدادي، ج 7، ص 150، ابن الأثير، ج 5، ص 85، **نشوار المحاضرة**، ج 2، ص 179.

(51) **الفرج بعد الشدة**، ج 2، ص 176، ج 4، ص 113.

(52) السيوطي، ت **تاريخ الخلفاء**، ص 318.

(53) ابن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، ج 1، ص 291 ـ 292.

(54) **تاريخ الرسل والملوك**، ج 9، ص 266 ـ 270، انظر أيضاً، أبو الفرج الاصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، بعناية السيد أحمد صقر (القاهرة، 1949)، ص 641 ـ 44. والمسعودي، **مروج الذهب**، ج 2، ص 235 ـ 38.

(55) انظر عن التحرك الشيعي الزيدي، ناجي حسن، **ثورة زيد بن علي**، (مكتبة النهضة، بغداد، 1966) ص 160، 163، أيضاً: عن MASSIGNON, **Etude sur une Courbe Personnelle de vie, le cas d'Al-Hallaj, in : Opera minora**, T.II. p. 170.

(56) ناجي حسن، المرجع نفسه، ص 170، 173.

كل تحرك سياسي وعسكري يصيب الدولة العباسية.

ففي سنة 252هـ حاول الزيدية الإفادة من تداعي السلطة، الذي أعقب الحرب الأهلية بين أنصار المستعين والمعتز، وتمكنوا من التحضير لحركة عسكرية في الكوفة، وضموا إليها جماعة من الجيش والشاكرية البغداديين وعزموا على نقلهم إلى الكوفة. وبعد اكتشاف أمرهم وجدت لديهم رسائل من الحسن بن زيد.

وفي السنة 255هـ شبت حركة الزنج في منطقة البصرة وادعى صاحبهم نسباً علوياً زيدياً. وكان علي بن محمد قد عاش في بغداد وأنشأ فيها حركة سرية، مكنته من استقطاب جماعة من البغداديين[57].

بعد فشل حركة الزنج استأمن العدبد من رجالها وضمهم الموفق إلى جيش ابنه أبي العباس (الخليفة المعتضد لاحقاً)، ولا شك بأن هؤلاء الجنود المهزومين حملوا معهم عقائدهم إلى بغداد، وعملوا على نشرها بين زملائهم من الجند وبين أهالي بغداد. ويبدو أثر ذلك في قيام جماعة من أنصار العلويين سنة 272هـ بإخراج أحد زعمائهم من السجن مع رفيقين له[58]، إلا أن أبرز نشاط مارسه الزيديون في بغداد، كان تلك الحركة التي نظمها شيلمة ضد الخليفة المعتضد. وكان شيلمة هذا، وهو محمد بن الحسن بن سهل، يعمل مع العلويين المستأمنين في بغداد من عسكر علي بن محمد، وأخذت له أوراق فيها أسماء رجال قد أخذ عليهم البيعة لرجل من آل أبي طالب، وكانوا قد عزموا على أن يظهروا في بغداد في يوم معين. وذكر التنوخي أن أمره قوي في بغداد، وأنه كان في من بايع جماعة من الهاشميين والقضاة والقواد ورجال الجيش، ومن العامة الأحداث وأهل العصبية[59].

ويبدو أن عهد المعتضد الذي وصفه المسعودي بأنه عهد سكنت فيه الفتن وهدأ الهرج وسكنت الحروب، قد شهد نمو حركات سرية وانتشرت فيه المذاهب بين البغداديين، ونشأت فيه العصبية المذهبية[60].

كانت الحلقات السرية في بغداد تعالج مسائل سياسية، في جو مشحون بالأفكار

---

(57) الطبري، ج 9، ص 370، 412.

(58) العيون والحدائق، ج 4، ص 58، الطبري، ج 10، ص 9.

(59) مروج الذهب، ج 2، ص 503 ـ 504، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 145. وأهل العصبية هم نوع من الأشقياء كانوا يدعون لنصرة عصبتهم، وهم عموماً المتعصبون.

(60) مروج الذهب، ج2، ص 49، المنتظم، ج 5، ص 171، الإمتاع والمؤانسة، ص 88 ـ 89.

الزيدية، وتضطرم فيه الدعوة القرمطية وحركاتها داخل العراق والشام. وقد ذكر أبو حيان التوحيدي، أنه رفع إلى المعتضد أن طائفة من الناس يجتمعون بباب الطاق (محلة شيعية) ويجلسون في دكان شيخ تبان ويخوضون في الفضول والأراجيف وفنون من الأحاديث، وفيهم قوم سراة وتنّاء وأهل بيوتات سوى من يسترق السمع منهم من خاصة الناس، ولا بد أن أمرهم تفاقم حتى ضاق بهم الخليفة ذرعاً[61].

ويوضح لنا الثعالبي مدى تغلغل المذاهب داخل الأسرة البغدادية، فيذكر عائلة تألفت من شيعي، وابنة حرورية، وامرأة معتزلية، واخت مرجئية، ورب العائلة سني جماعي. وذكر أيضاً أن رافضياً وامرأة حرورية اضطرا إلى الزواج سراً[62]. وذكر التنوخي أن بعض الرجال من المعتزلة كانوا يذهبون في الفقه مذهب أبي حنيفة[63]. ولعله من المفيد أن نذكر أن الغلاة كان لهم أنصارهم، ففي سنة 286هـ ظهر إسحاق بن محمد النخعي وادعى ألوهية علي بن أبي طالب، وتمكن من أن يضم إليه عدداً كبيراً من الأنصار في بغداد والمدائن[64].

وإلى جانب الزيدية كانت دعوة القرامطة تنتشر شيئاً فشيئاً في العراق. ولعل القرامطة كان لهم في بغداد أنصار منذ بداية دعوتهم. وعندما تحركوا في الشام سنة 286هـ، قبض في بغداد على قوم من العلويين لاتهامهم بأنهم من أنصار القرامطة. وكان عبيد الله المهدي، مؤسس الدولة الفاطمية، يعيش في بغداد لفترة من الزمن، ولا شك أنه كان له نشاطه السياسي فيها. فقد صرح عند استقباله في القيروان 297هـ: «اليوم رأيت وتذكرت أهل بغداد»[65] مما يعني أنه كان له العديد من الأنصار فيها.

وازداد عدد القرامطة في بغداد عن طريق دخولهم كأسرى وقعوا بين أيدي رجال الخليفة. وذكر أن ذكا قائد إحدى الحملات استقدم أربعمائة عائلة قرمطية سنة 298هـ كانوا بحالة سيئة، فأحسنت إليهم السيدة شغب[66].

وما إن أطل القرن الرابع، حت كانت الإمبراطورية العباسية مهددة بالتفكك؛

---

(61) أنظر، الإمتاع والمؤانسة، ج 3، ص 88 ـ 89، ثمار القلوب، ص 313.

(62) ثمار القلوب، 312 ـ 313.

(63) نشوار المحاضرة، ج 1، ص 95، وذكر الطبري أنه سمي للمعتز نحو ثمانية رجال للعمل في القضاء وتبين أنهم رافضة وقدرية وزيدية وجهمية، أنظر، ج 9، ص 371

(64) المنتظم، ج 6، ص 20.

(65) المصدر نفسه، ص 46، العيون والحدائق، ج 4، ص 151.

(66) المصدر نفسه، ج 4، ص 153.

فالزيديون قد نجحوا في إقامة دولتهم في طبرستان، ونجح الفاطميون في إقامة دولتهم في المغرب وهددوا مصر، وكان القرامطة يهددون العراق والشام. في هذا الجو المضطرب الذي يحمل كل شروط التفلت السياسي، ظهر الحلاج.

كان الحلاج، كما وصفه ابن النديم، مقداماً جسوراً على السلاطين، يروم انقلاب الدول[67]. وفي سبيل إقامة حركة واسعة، اتفق مع أبي عمارة الهاشمي الربعي في البصرة، ثم اتجه إلى الشيعة الإثني عشرية في بغداد، فحاول الاتفاق مع أبي سهل النوبختي، إلا أن هذا رفضه[68]. ولكن ظهور الدور السياسي للإسماعيلية، جعل الحلاج ينعطف للتعامل معها، وقد ترك لنا أحد دعاته رسالة وجهها الحلاج إليه ويقول فيها: «وقد آن الآن أوانك، للدولة الغراء، الفاطمية الزهراء، المحفوفة بأهل الأرض والسماء. وأذن للفئة الظاهرة، مع قوة ضعفها، في الخروج إلى خراسان ليكشف الحق قناعه، ويبسط العدل باعه»[69]. ويكشف هذا القول عن مدى علاقة الحلاج بالفاطميين.

وليس عجيباً أن يتوافق خروج الحلاج إلى العمل السياسي مع قيام دولة الفاطميين في المغرب[70] إذ أن العلاقة بين الدعوات الإسماعيلية في المشرق والمغرب ثابتة[71].

ويبدو التشابه دقيقاً بين أسلوب الحلاج الدعائي وأفكاره، وبين أسلوب الإسماعيلية وأفكارهم. فقد اتبع الحلاج طريقتهم في بث الدعاة وتوجيه الرسائل[72]. وكان الحلاج يوصي دعاته النافذين إلى النواحي بأن ينتقلوا بالناس من حال إلى أخرى، ومن مرتبة إلى مرتبة، حتى يبلغوا الغاية القصوى، وأن يخاطبوا كل قوم على حسب عقولهم وأفهامهم وعلى قدر استجابتهم وانقياداتهم. وهو الشيء نفسه الذي كانت جماعة

---

(67) **الفهرست**، ص 283.

(68) **نشوار المحاضرة**، ج 1، ص 161، 173، وكانت العصبية في البصرة بين الربعيين وهم شيعة وبين السعديين وهم سنة، أنظر المقدسي، ص 130.

(69) المصدر نفسه، ج 1، ص 169.

(70) أنظر، **الفهرست**، ص 285.

(71) أنظر، De Goeje, **Memoires Sur les carmathes, p. 18**، أيضاً: برنارد لويس، **أصول الاسماعيلية**، ص 180. وانظر أيضاً، محمد جمال الدين سرور، **النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين 4و5 (دار الفكر العربي، القاهرة، 1964)، ص 72 - 75**.

(72) **أنظر، مسكويه، ج 1، ص 158، أيضاً، أخبار الحلاج**، بعناية ماسينيون وكراوس (باريس، 1936)، ص 102.

إخوان الصفاء توصي به دعاتها[73].

وذكر أبو بكر الصولي أن الحلاج كان في دعاوته معتزلياً مع المعتزلة وإمامياً مع الإمامية وسنياً مع السنة[74]. وإذ اعتقد الصولي أن هذا من خداع الحلاج، إلا أننا نرى أن ذلك كان من عقيدة الحلاج وطريقته الدعائية. وتوضحه لنا رواية عبد الله بن طاهر الأزدي إذ قال: كنت أخاصم يهودياً في سوق بغداد وجرى على لفظي أن قلت له: يا كلب. وصادف مرور الحلاج فاستنكر ذلك، فاعتذرت إليه ثم قال: يا بني، الأديان كلها لله، شغل بكل دين طائفة لا اختياراً فيهم بل اختياراً عليهم، واعلم أن اليهودية والنصرانية والإسلام وغير ذلك من الأديان هي ألقاب مختلفة وأسماء متغايرة، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف. ثم أنشد شعراً في ذلك. وكان الحلاج يقول: ما تمذهبت بمذهب أحد من الأئمة جملة، وإنما أخذت من كل مذهب أصعبه وأشده[75].

ويتوافق موقف الحلاج من الأديان مع موقف إخوان الصفاء والإسماعيلية في شمولية العقيدة والتوحيد. فقد كان الإخوان ينصحون أنصارهم «بأن لا يعادوا علماً من العلوم أو يهجروا كتاباً من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها»[76].

ولعل هذا كان السبب في التفاف جماعات مختلفة حول الدعوة الإسماعيلية من مزدكين ومانويين وصابئة وشيعة وسنّة ويهود ومن كل نوع[77]. حتى أن أحد أغنياء المجوس توسط لدى صديق للحلاج ليقبل منه كيساً فيه ألف دينار[78].

والظاهر أن عدد مؤيدي الحلاج في بغداد كان كبيراً. فقد ذكر أنه خرج إلى الحج ومعه أربعمائة من أنصاره. وكانت حلقاته في جامع المنصور والحلقات الخاصة التي يدعى إليها تضم العديد من المحبذين والمنكرين، مثيراً بذلك عواصف من المناقشات الحادة. وكانت علاقاته مع أهل الأسواق جيدة، فكان يخرج في شوارع بغداد وأسواقها، ويتواجد فيها على طريقة الصوفية فيبكي الناس[79].

---

(73) مسكويه، ج 1، ص 79، رسائل إخوان الصفاء، ج 4، ص 165، 188.
(74) أنظر، المنتظم، ج 6، ص 161ف.
(75) أخبار الحلاج، ص 19، 69 ـ 70.
(76) رسائل إخوان الصفاء، ج 4، ص 167، انظر ايضاً، لويس، أصول الاسماعيلية، ص 194 ـ 197.
(77) أصول الاسماعيلية، ص 194.
(78) أخبار الحلاج، ص 64، 65.
(79) المصدر نفسه، ص 25، 40، 54، 57، 58، 60، 75، 123.

وكانت سنوات سجن الحلاج في بغداد (301 ـ 309هـ) فترة نشاط خصيب، تمكن خلالها من اكتساب عطف رجال الإدارة. فكان منهم نصر القشوري الذي بنى له بيتاً خاصاً في السجن الملحق بدار الخلافة، وجعل له باباً يلج منه الحلاج إلى سجن اللصوص والعيارين ليعظهم. وكان الحسين بن حمدان بين الذين يترددون على الحلاج[80]، وقيل إن المقتدر ووالدته كانا يعطفان عليه[81].

تمكن الحلاج من أن يحشد حوله جمهوراً عريضاً من العامة. ويشهد بذلك الاحتياطات التي اتخذتها الشرطة لمنع خطف الحلاج من قبل أنصاره، والعدد الكبير منهم جاءوا يشهدون إعدام زعيمهم[82]، والذين حاولوا التحرك ضد هذا العمل لولا أن فرقهم الحرس[83].

إن التأييد الواسع الذي لقيه الحلاج، لا بد أن يكون ناتجاً عن دعوة منظمة لها أجهزتها ونشراتها. وبالفعل فإن الشرطة عند مطاردتها لأنصار الحلاج وجدت عند ابن حماد دفاتر فيها أسماء أصحابه ودعاته إلى الأمصار، ناهيك بالأنصار الظاهرين في بغداد مثل حيدرة، والسمري، ومحمد بن علي القنائي، وأبي المغيث الهاشمي، والشبلي الصوفي، وأبي الحسين الواسطي[84]. وتابعت السلطة مطاردة أفكار الحلاج فأحضر الوراقون وأحلفوا ألّا يبيعوا شيئاً من كتب الحلاج أو يشتروها، وأعدم ثلاثة من أصحابه في سنة 312هـ وهم: حيدرة، والشعراني، وابن منصور[85].

كان موت الحلاج قرباناً على مذبح الدولة التي تتوق للاستقرار، فمنذ نهاية سنة 307 هـ كانت بغداد مسرحاً لثورة خطيرة ضد الغلاء، الذي اتهم حامد بن العباس بالتسبب به[86]. في حين كانت مصر تتهاوى تحت ضربات الفاطميين، بينما يعاني العراق والشام من هجمات القرامطة[87].

وفي هذا الوضع المضطرب، كان حامد ، بعد فوات الأوان، يسعى لإثبات مقدرته

---

(80) المصدر نفسه، ص 91، 102، 180، الخطيب، ج 8، ص 126.

(81) أنظر، العيون والحدائق، ج 4، ص 215 ـ 216، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 163 ـ 164.

(82) مسكويه، ج 1، ص 81.

(83) أخبار الحلاج، ص 8.

(84) مسكويه، ج 1، ص 78، أيضاً، أخبار الحلاج، ص 8.

(85) مسكويه، ج 1، ص 82، المنتظم، ج 6، ص 189.

(86) عريب، ص 118، العيون والحدائق، ج 4، ص 209.

(87) العيون والحدائق، ج 4، ص 118 ـ 124، 217.

الإدارية، ورأى أن يتقرب من الخليفة ومن العامة المضطربة التي يسيطر عليها الحنابلة؛ فكان إعدام الحلاج، كما خيل لحامد، مخرجاً من تعقيدات الوضع السياسي، وبخاصة بعد أن انتشر أمر أصحاب الحلاج وانضم إليهم العديد من «الرعاع» والمتمردين[88].

إلا أن تفاقم الوضع، استمر طوال السنوات العشر الأخيرة من حكم المقتدر. ففي سنة 311هـ دخل القرامطة البصرة وهددوا بغداد بعد فترة قصيرة، وأخذوا يغيرون على قوافل الحجاج فيقتلون رجالها وينهبون أموالها، ثم هجموا على مكة (317هـ) واقتلعوا الحجر الأسود وبقي لديهم حتى سنة 329هـ[89]، فظهرت سلطة الخلافة عارية أمام الناس، عاجزة عن حماية الدين والرعايا[90].

وفي هذه الأجواء، نشط الإسماعيلية وتوجهوا إلى الناس يدعونهم إلى الثورة ويبشرونهم بقرب انتهاء «قوة أهل الشر» ويعدونهم بقيام دولة الأخيار الفضلاء[91]، وانتشر القرامطة في بغداد يبثون دعاياتهم بين الجنود والعامة[92]. وعكست التطورات نفسها على علويي بغداد، فاتجهت إليهم أنظار الخارجين على السلطة في المقاطعات، فصاروا يتسابقون في إرسال المخصصات المالية إليهم[93]؛ واكتسب العلويون عطف بعض كبار رجال الإدارة في بغداد وحمايتهم[94]، وتمكن ابن أبي العزاقر، وهو أحد غلاة الشيعة، من أن يتسلم وظيفة مهمة في الإدارة[95].

ولم يلبث أن أصبح علويو بغداد قوة سياسية ضاغطة تمكنت من اجتذاب القادة العسكريين الذين يعود إليهم أمر القرار السياسي في العاصمة. فقد همّ حاجب القاهر علي بن يلبق والحسن بن هارون كاتب علي سنة 321هـ بإعلان موقفهما ضد معاوية[96]. ومال بجكم أمير الأمراء في عهد الراضي إلى علويي بغداد، وتقرب منهم بإعادة بناء مسجد براثا، ثم ضمهم إلى الهيئة التي كلفت باختيار الخليفة بعد موت الراضي سنة

---

(88) انظر الذهبي، تاريخ الاسلام، ق 10 من المنتقى، مخطوطة الأحمدية، حلب.

(89) العيون والحدائق، ج 4، ص 221، 249، 257.

(90) محمد عبد الفتاح عليان، قرامطة العراق في القرنين3و4هـ، (القاهرة، 1970) ص 150.

(91) أنظر، رسائل إخوان الصفا، ج4، ص 187.

(93) أنظر، العيون والحدائق، ج 4، ص 153، الصابي، الوزراء، ص 344، المنتظم، ج 5، ص 150.

(94) أنظر، نشوار المحاضرة، ج 8، ص 81، الصابي، الوزراء، ص 349. تكملة الطبري، ص 66، 83، الصولي، أخبار، ص 136.

(95) العيون والحدائق، ج 4، ص 224 ـ 225.

(96) المنتظم، ج 6، ص 249.

329هـ[97].

وتبدو قوة العلويين في بغداد من ميل بعض العباسيين أنفسهم إلى التشيع، وعلى الأخص طلاب الخلافة منهم. فقد ضبطت مؤامرة سنة 329هـ تزعمها علوي كانت ترمي إلى خلع المتقي وتنصيب عبد الله بن الراضي، وضبطت مؤامرة أخرى سنة 333هـ عمل مدبروها على البيعة إلى عبد الله بن المكتفي الذي قيل إنه كان شيعي المذهب[98].

وفي أرمينية، ظهر عباسي سنة 349هـ يدعو إلى المرتضى من آل الرسول[99].

مرحلة العمل العلني:

تميزت هذه المرحلة بالاضطرابات المذهبية بين السنة والشيعة في بغداد، وزاد من إمكان نشوبها، ارتباط أطراف السلطة بأنصار المذهبين. والواقع أن تقرب السلطة من الشيعة جعل اهل السنة في موقع المدافع، فانكفأت تحركاتهم من مجابهة السلطة إلى الصدام مع الشيعة. وقام الحنابلة بسلسلة من ردود الفعل، فبنوا مسجداً ضراراً أمر علي بن عيسى بهدمه. وزاد أمرهم بأن منعوا الشيعة من النوح على الحسين، ولم يكن النوح بعد إلا مراثي الحسين وأهل البيت. ولم يكتف الحنابلة بذلك، فقاموا يتتبعون النواحين ويطلبونهم بتحريض من البربهاري[100] ومنعوا العلويين من زيارة قبر الحسين في كربلاء[101].

وكان عهد ناصر الدولة الحمداني الشيعي بداية تحرك العلويين مدعوماً برعاية رسمية. ففي شهر شعبان من السنة 330هـ نصبت الأعلام في جامع الرصافة ببغداد إعلاناً لزيارة قبر الحسين[102]. وفي شهر رجب من العام التالي وقت اضطرابات بين الطالبين والعباسيين بسبب طالبي قتيل اتهم العباسيون بقتله[103].

وقد لاحظ ابن الجوزي ظهور العمل العلني الشيعي، فذكر أنه في السنة 331هـ كثر الرفض في بغداد واضطرت السلطة إلى المناداة ببراءة الذمة ممن ذكر أحداً من الصحابة بسوء. ولا بد من أن يكون هذا التحرك العلوي أقلق المتقي، حتى أمر بالقبض

---

(97) الصولي، أخبار، ص 136، 187، أنظر أيضاً، ابن العبري، ص 285 ـ 86.

(98) الصولي، ص 204، الهمذاني، تكملة الطبري، ص 143.

(99) ب01المنتظم، ج 6، ص 395.

(100) نشوار المحاضرة، ج 2، ص 134، 233، الصابي، الوزراء، ص 362.

(101) نشوار، ج2، ص 44.

(102) العيون والحدائق، ج 4، ص 377.

(103) الصولي، أخبار، ص 237.

على ابن عبد المطلب، واتهمه بأنه رئيس الرافضة، فأمر بقتله، وأخذته العامة وكفنته[104].

ومنذ العام 334هـ دخل البويهيون بغداد، وأعلنوا تأييداً صريحاً للشيعة فيها، وقيل إن المستكفي قبض على رجل يعرف بالشافعي وكان رئيس الشيعة، فتشفع فيه اصفهدوست أحد قواد الديلم، فلم يشفعه فكان ذلك سبباً في خلع الخليفة[105].

لقد رغب البويهيون بالظهور بمظهر المتسامحين في العقيدة والترفع عن المذاهب، لكن دورهم في إذكاء الصراع المذهبي أخذ يبرز ويزداد. ففي السنة 335هـ عقدت القباب بباب الطاق لزيارة قبر الحسين[106]. واتخذ معز الدولة السعاة، فاشتهر منهم فضل ومرعوش فتعصب لهما أهل بغداد، فكان فضل ساعي السنة ومرعوش ساعي الشيعة[107]. وظهر بعض الغلاة الذين ادعوا الألوهية، ولم تجر ملاحقتهم خوفاً من الشيعة التي كان لهم فيها بعض المؤيدين[108].

أمام هذه المواقف، رأى المطيع أن يتقرب من الحنابلة وأن يشجعهم ليساعدوه على الوقوف في وجه البويهيين، فاجتمع إليه منهم حوالي ثلاثين ألف رجل[109]، وبدت بغداد على أبواب انفجار وزاد الأمر سوءاً، بعد أن بات كبار العباسيين والطالبيين زعماء الفريقين.

وبالفعل فقد انفجر الصراع المذهبي سنة 338هـ حين نشبت الفتنة بين السنة والشيعة فنهبت الكرخ حيث يتكاثر الشيعة، وفي سنة 340هـ عادت الفتنة لتظهر بشكل أفظع. وفي سنة 346هـ هاج العامة في الكرخ[110] واستمر هياجهم حتى العام التالي، وقيل: إنهم تناولوا بعض الصحابة. وفي سنة 348هـ اتصلت الفتن المذهبية ووقع حريق بباب الطاق. وفي سنة 349هـ وقعت فتنة مذهبية في القنطرة الجديدة وانتشرت بعدها في بغداد وتعطلت الجمعة في جميع المساجد الجامعة من الجانبين، وقبض على جماعة من بني هاشم، لأنهم كانوا سبب الفتنة[111].

---

(104) المنتظم، ج 6، ص 331، الصولي، أخبار، ص 243، 249.

(105) العيون والحدائق، ج 4، ص 433.

(106) الهمذاني، تكملة الطبري، ص 159.

(107) أنظر، الإمتاع والمؤانسة، ج 3، ص 188، ابن الأثير، ج 6، حاشية ص 314.

(108) المنتظم، ج 6، ص 371.

(109) المصدر نفسه، ص 344.

(110) المصدر نفسه، ص 364 ـ 365، 369، 384.

(111) ابن الأثير، ج 6، ص 355، هامش رقم 4، المنتظم، ج 6، ص 390، 395.

وفي السنة 350هـ قامت معركة للعيارين، وأصلها عربدة من رجل عباسي على رجل علوي في خندق طاهر، وكان الرجلان يشربان النبيذ، فقتل العلوي وثار أهله به، واستغاثوا بالعامة الذين دخلوا النزاع، وشبت فتنة اضطرت السلطات إلى إقامة الجنود الديلم في الأرباع. وأثار العباسيون موجة من الفوضى ومنعوا صلاة الجمعة وزادوا من إشعال النائرة. ولم تسكن الفتنة إلا بعد أن قبض المهلبي وزير معز الدولة على أكثر بني العباس ووجوههم المستورين والعيارين منهم، وقبض في جملتهم على قضاة وشهود، وطلب إليهم تسليم المسؤولين منهم من الأحداث وحملة السكاكين ليقبض عليهم ويفرج عن الباقين، وانتهى الأمر بأن جعل المهلبي أهل الذعارة والعصبية وغيرهم من العامة في زواريق، وأطبقها عليهم وسمرها، وأنفذها إلى بصنى وبيروذ، فحبسهم في حبوس ضيقة[112]. ويبدو أن هذا الإجراء ترك آثاراً سيئة، فكثر كلام القصاص في الجوامع، ورؤساء الصوفية، فخاف المهلبي من تجدد الفتنة، فقبض على جماعة من القصاص والصوفية، وأحضر جماعة من القضاة والفقهاء والشهود لمناظرتهم، كما أحضر الشرطة ليأمن المناظرون من أنصار القصاص والصوفية[113].

وفي سنة 351هـ كتبت العامة على مساجد بغداد لعن معاوية ولعن من غصب فاطمة فدكاً ومن أخرج العباس من الشورى، ومن نفى أبا ذر، ولم يمنع معز الدولة من ذلك، وبلغه أن العامة من السنة قد محوا هذا المكتوب في الليل فأراد أن تعاد الكتابة، فنصحه وزيره المهلبي بأن يكتب مكان ما محي بلعن الظالمين لآل رسول الله والتصريح بلعن معاوية فقط[114].

وفي 10 محرم من سنة 352هـ ألزم معز الدولة الناس في بغداد بإغلاق أسواقهم، فتعطل البيع، ولم يذبح القصابون، ولا طبخ الهراسون ولا ترك الناس يستقون الماء، ونصبت القباب في الأسواق وعلقت عليها المسوح، وخرجت النساء منتشرات الشعور، يلطمن في الشوارع ويقمن المآتم على الحسين، وكان هذا أول يوم نيح فيه على الحسين ببغداد. وفي 12 من ذي الحجة من العام نفسه أحيى الشيعة عيد يوم الغدير[115].

وفي العام التالي وقعت فتنة عظيمة يوم عاشوراء في قطيعة أم جعفر وطريق مقابر قريش بين السنة والشيعة، فنهب بعضهم بعضاً، ووقع عدد من الجرحى. وفي سنة

(112) أنظر، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 86 ـ 88، الصابي، الوزراء، ص 358 ـ 59.

(113) نشوار، ج 3، ص 144.

(114) المنتظم، ج 7، ص 7 ـ 8، السيوطي، ص 431 ـ 432.

(115) المنتظم، ج 7، ص 15 ـ 16، السيوطي، ص 432.

354هـ احتفل بيوم عاشوراء كما في السنة الفائتة، وكبس مسجد براثا الخاص بالشيعة، وقتل من قوّامه نفسان، واحتفل بيوم غدير خم بإشعال النار في ليلته، وضربت الدبادب والبوقات وبكر الناس إلى مقابر قريش[116].

ولم تكن السلطة بعيدة عن تحرك العامة من الشيعة سنة 362هـ، وقد اغتنم أحد معاوني قائد الشرطة فرصة اضطراب الأمن في بغداد، وكان هذا المعاون يبغض الشيعة، فأحرق الكرخ من النحاسين إلى السماكين، انتقاماً لصاحب المعونة الذي قتل في حركة للعامة من الشيعة. وأحدث هذا الموقف ردة فعل قوية ضد الوزير الذي دعم موقف الشرطة وعزل نقيب الطالبيين[117].

وأدى النزاع بين بختيار البويهي وقائد جيشه سبكتكين إلى انقسام العامة إلى سنة وشيعة، فأقنع سبكتكين السنّة بأنه ينصر جانبهم، ويقول مسكويه: بأن السنة استضاموا الشيعة وناصبوهم الحرب وكانوا قلة، فتحصن هؤلاء في أرباض الكرخ، واتصلت الحروب حتى سفكت الدماء، واستبيحت المحارم، وأحرق الكرخ ثانية، فافتقر التجار وغلبهم العيارون على أموالهم وبضائعهم ومنازلهم، واحتاجوا أن يتخفروا منهم، وانتشر النظام وانخذل السلطان، وصارت العصبية بين هذين الصنفين في أمر الدنيا والدين، بعد أن كانت في أمر الدين خاصة، وذلك أن الشيعة نادوا بشعار بختيار والديلم، وأهل السنة نادوا بشعار سبكتكين والأتراك؛ ولم تهدأ الاضطرابات إلاّ بدخول أبي تغلب الحمداني الذي قمع العيارين[118].

ويدل على مدى خطورة هذه الفتن ودورها في خراب بغداد، ما رواه ابن الجوزي من أن عضد الدولة دخل بغداد سنة 367هـ وقد هلك أهلها قتلاً وحرقاً وجوعاً، للفتن التي اتصلت فيها بين الشيعة والسنة، ورأى القصاص يغرون العامة بعضهم ببعض، ويحرضونهم على سفك دمائهم وأخذ أموالهم. فنادى عضد الدولة في البلد ألا يقص أحد في جامع ولا طريق، ولا يتوسل متوسل بأحد من أصحاب رسول الله، ومن أراد التوسل قرأ القرآن، فمن خالف فقد أباح دمه[119].

ونشبت الفتن المذهبية من جديد في بغداد سنة 379هـ بعد خروج بهاء الدولة

---

(116) المنتظم، ج 7، ص 19، 23، 24.

(117) انظر، تكملة الهمذاني، ص 211 ـ 212، أيضاً مسكويه، ج 2، ص 306، ويرد الخبر في أحداث سنة 361هـ.

(118) مسكويه، ص 328، 337.

(119) المنتظم، ج 7، ص 88.

عنها، وكثر القتل بين السنة والشيعة، وأحرقت عدة محلات، ونهبت الأموال، وأخربت المساكن، ودام ذلك عدة شهور(120). واتصلت الفتن حتى العام التالي، فقام القتال بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة، وصار في كل حرب أمير، وفي كل محلة متقدم، ووقع حريق في نهر الدجاج فذهب من عقار الناس وأموالهم شيء كثير، واستمرت الفتنة بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة، فاستظهر أهل باب البصرة وخرقوا أعلام السلطان البويهي(121).

وحاول علي بن محمد الكوكبي المعروف بالمعلم (382هـ)، الذي استولى على أمور السلطان، وقف الفتن المذهبية، فمنع الشيعة في الكرخ وباب الطاق من النوح في عاشوراء. ولكن الكوكبي لم يلبث أن قتل بناء على إلحاح الجند، فعادت الفتنة في الكرخ ووقعت في 18 شوال، فركب الحاجب وقتل وصلب، فسكن البلد وقامت الهيبة(122).

وفي سنة 384هـ قوى أمر العيارين بين الكرخ وباب البصرة، وظهر العيار المعروف بعزيز من باب البصرة، واستفحل أمره، والتحق به كثير من الذعار، وطرح النار في المحلات، وطلب أصحاب الشرطة، ثم صالح أهل الكرخ وقصد سوق التمارين، وطالب بضرائب الأمتعة وجبى ارتفاع الأسواق الباقية، وكاشف السلطان وأصحابه، وكان ينزل إلى السفن فيطالب بالضرائب، وأصحاب السلطان يرونه من الجانب الآخر، فأمر السلطان بطلب العيارين، فهربوا من بين يديه(123).

وفي سنة 388هـ أظهر السنة احتفالين مقابل عاشوراء وعيد الغدير، فادعوا أن اليوم الثامن من يوم الغدير كان يوم الغار، وجعلوا بإزاء عاشوراء يوماً بعده بثمانية أيام نسبوه إلى مقتل مصعب بن الزبير وزاروا قبره بمسكن كما يزار قبر الحسين(124).

وأدى الأمر بالتناحر المذهبي إلى أن تصدى «أحداث الشيعة» إلى عمال النسيج الذين تحركوا ضد وضع الرسوم على منسوجاتهم سنة 389هـ ونصروا أبا نصر سابور

---

(120) ابن الأثير، ج 7، ص 145.

(121) المنتظم، ج 7، ص 153 ـ 163، 164.

(122) المصدر نفسه، ص 168 ـ 169.

(123) المصدر نفسه، ص 174، وانظر أيضاً، ابن الأثير، ج 7، ص 168، الهامش رقم 1، ومسكويه، ج 2، ص 261، الهامش رقم 1.

(124) المنتظم، ج 7، ص 206، ويقع هذا الخبر عند ابن الأثير في سنة 389هـ أنظر، ج 7، ص 205، كما ترد لدى الصابي، في أحداث سنة 389هـ، أنظر، ذيل مسكويه، ج 4، ص 339.

نائب الأمير البويهي ببغداد[125].

وفي سنة 391هـ ثار الجند الأتراك بأبي نصر سابور بسبب أجورهم، فهرب منهم ولجأ إلى درب الديزج، وبادر العلويون والعامة إلى حمايته، فدفعوا الجند عن الدار ورموهم بالآجر، فابتعد الأتراك وثارت الفتنة بينهم وبين أهل الكرخ، وتمكن الأتراك من أن يضموا إليهم العامة من السنة، فضعف الشيعة واشتكوا الأتراك إلى زعيم العلويين، فاعتذر بعدم قدرته عليهم، واستمر القتال أياماً، حتى ذهب وجوه العلويين وفقهاؤهم، واجتمعوا إلى قادة الأتراك، وتبرأوا من معرفة أبي نصر، وطلبوا منهم وقف القتال. وبعد أن اختفى أبو نصر وبقي معاونه في بغداد، لجأ الديلم إليه يطالبونه، فمنعهم، فاعتصم بالكرخ والعلويين والعيارين. فزادت الفتنة وتسلط أهل الذعارة، ونزل صاحب الشرطة في دار أبي الحسن محمد بن عمر العلوي، وقبض على جماعة من العيارين وقتلهم وكبس دورهم ومنازلهم، واستعمل السطوة وأقام الهيبة، فاستقام الأمر له، ولكن الأتراك عارضوا بعض ما فعله، فاستعفى وعاد إلى داره[126].

وفي العام التالي سنة 392هـ زاد أمر العيارين والفساد ببغداد، وكان فيهم العباسي والعلوي، فأخذوا الأموال وقتلوا الناس، فبعث بهاء الدولة إلى بغداد بأستاذ هرمز، أحد رجاله، بعد أن لقبه بعميد الجيوش؛ فقام هذا بضبط الأمر، وقبض على مسببي الفتن، فكان يقرن العباسي بالعلوي، ويغرقهما في النهر، وأغرق جماعة من حواشي الأتراك، ومنع السنة والشيعة من إظهار مذهب، ومنع النوح في عاشوراء، ومنع ما تنسبه السنة إلى مصعب بن الزبير[127].

أدت هذه الفتن إلى خراب بغداد، وانتقل أهلها عنها، فمنهم من مضى إلى البطيحة، ومنهم من اعتصم بباب الأزج، ومنهم من ابتعد إلى عكبرا والأنبار. وروى شهود عيان أنهم شاهدوا صينية الكرخ فيما بين طرف الحذائين والبزازين، والفواخت والعصافير تمشي في أرضها في منتصف النهار، وهذه السوق كانت تزدحم بالناس[128].

ويبدو أن إجراءات عميد الجيوش أعطت ثمارها، فسكنت الفتن حتى سنة 398هـ، حين نشبت فتنة جرت بين أهل الكرخ والفقهاء بقطيعة الربيع. وكان السبب

---

(125) تاريخ الصابي، ذيل مسكويه، ج 4، ص 366.

(126) أنظر الصابي، تاريخ، ذيل مسكويه، ج 4، ص 387، 389، ابن الأثير، ج 7، ص 211.

(127) المنتظم، ج 7، ص 220، 222.

(128) الصابي، ذيل مسكويه، ج 4، ص 413.

أن بعض الهاشميين من أهل باب البصرة (سنة) قصدوا فقيه الشيعة أبا عبد الله محمد بن النعمان المعروف بابن المعلم، وتعرضوا له في مسجده بدرب رياح، فامتعض أصحابه من ذلك، وساروا إلى أهل الكرخ واستفزوهم، فصار هؤلاء إلى دار القاضي محمد بن الأكفاني وأبي حامد الإسفراييني فسبوهما، وطلبوا الفقهاء من السنة ليوقعوا بهم، فنشأت عن ذلك فتنة عظيمة. وذكر ابن الجوزي أن الإسفراييني أحضر مصحفاً ذكر أنه مصحف ابن مسعود وهو يخالف المصاحف، فجمع الأشراف والقضاة والفقهاء وعرض المصحف عليهم فأشاروا بإحراقه، فغضب الشيعة لذلك، وجعلوا يدعون ليلة النصف من شعبان على من فعل ذلك ويسبونه، ونشبت الفتنة، ووقع القتال بين أهل باب البصرة وباب الشعير والقلائين، وقصد أحداث الكرخ دار أبي حامد فانتقل عنها إلى دار القطن ورفعوا شعارات الفاطميين ونادوا: «يا حاكم يا منصور»، مما أغضب الخليفة القادر فبعث برجاله لمعاونة أهل السنة، ولم تهدأ الفتنة إلاّ بعد أن اجتمع الأشراف والتجار من الشيعة، واعتذروا إلى الخليفة، وسألوه العفو عما فعله سفهاؤهم[129].

اضطرت الفتنة عميد الجيوش إلى العودة إلى بغداد، فقبض على الفقيه ابن المعلم ونفاه، وقبض على من كانت له يد في الفتنة، فضرب قوماً وحبس آخرين، ومنع القصاص من الجلوس. إلا أن البعض طلب من عميد الجيوش العفو عنهم، ففعل وسمح للقصاصين بالجلوس بعد أن شرط عليهم ترك التعرض للفتن[130].

تقويم:

وخلاصة القول بأن الحركات الدينية التي قادها كل من الحنابلة والشيعة مرت بمراحل كان لكل منها ظروفها الخاصة.

ففي عهد المأمون وخليتفته المعتصم والواثق لاقى ابن حنبل تأييد العامة بوصفه مدافعاً عن السنة ضد الخلفاء الذين دانوا بالاعتزال، وكانت الطريقة التي اختارها هي القبول بأسلوب المعارضة السلمية التي لم يفصلها عن مبدأ طاعة أولي الأمر الذي فرضه الدين، وفي ظروف كانت فيها ثورة بابك الخرمي تهدد بتقويض الدولة، ولذا لم يشارك ابن حنبل في حركة الخزاعي الذي اعتبر أحد رجاله[131].

والمرحلة الثانية تبدأ بتحالف العامة بزعامة الحنابلة مع المقتدر لحماية السنة

---

(129) المنتظم، ج 7، ص 237، 238، السيوطي، ص 445.

(130) المصدر نفسه، ص 238.

(131) انظر: Laoust. Le Hambalisme sous le Caliphat de Baghdad, R.E.I.C, 27 (1959), pp. 72-73.

والخلافة، ضد المعتزلة والسيطرة التركية على الخليفة. ومن هنا كانت حركات الحنابلة في القرن الرابع التي قادها البربهاري ترمي إلى حماية الخلافة وتأييد السلطة إلاّ في ما يخالف القرآن؛ ورفض البربهاري الصراع المسلح، ودعا لخلافة القرشيين وطلب إلى المؤمنين تأييد العباسيين. وبهذه الصورة بدا البربهاري مصلحاً إجتماعياً وسياسياً، فلاقت آراؤه تأييد العامة في مجتمع تسوده الفوضى، وتمكن من أن يقود بنجاح انتفاضات بغداد في سنتي 308ك 309هـ ذات الأهداف الإجتماعية[132].

ويقتضي القول إن الحنبلية لم تظهر مذهباً فقهياً سنياً، ومن هنا تسمية أصحابها بـ«أهل الحديث»، بل كانت تياراً شعبياً ذا أهداف سياسية، أما المظاهر المذهبية فقد أخذت تبرز شيئاً فشيئاً عبر أسئلة توجه إلى ابن حنبل ويجيب عنها، وهو ما سمي بمسائل الإمام أحمد، كما تجلى الموقف الفقهي بمجموعة الأحاديث النبوية التي جمعها ابن حنبل تحت اسم «المسند».

وبالنسبة إلى التيار الشيعي، كان الأمر شبيهاً بالتيار الحنبلي، فالتشيع لم يكن موقفاً فقهياً بقدر ما كان تياراً سياسياً معارضاً. وجاء ضعف سلطة الخلافة وانتشار الزيدية في المشرق، ثم الفاطمية في المغرب، وقوة شوكة القرامطة، وأخيراً سقوط بغداد تحت سيطرة البويهيين، كلها أسباب عملت على دفع الحركات العلوية إلى مسرح الأحداث.

لقد كان العهد البويهي واضح الإنحياز إلى الشيعة في بغداد. ومنذ عهد معز الدولة (334هـ) أصبح إحياء المناسبات الشيعية في بغداد أمراً مألوفاً، وأدى هذا إلى قيام حركات شغب عديدة وسلسلة من المواجهات الشعبية، ظهر فيها العيارون من السنة والشيعة أسياد الموقف في بغداد[133].

وفي مرحلة لاحقة بدأ رد الفعل السني الهاديء الذي قاده الخليفة القادر ابتداء من سنة 381هـ. ويتميز هذا العهد باعتماد أساليب جديدة وهي لجوء أنصار المذهبين إلى استخدام الوسائل الثقافية.

ففي سنة 383هـ أسس سابور بن أردشير دار العلم ببغداد التي كانت بمثابة مدرسة من أغراضها بث الدعاوة الشيعية، فما كان من القادر إلا أن رد بأن دشن جامعاً جديداً في محلة الحربية وخطب فيه[134].

---

(132) H. LAOUST, op. cit. p. 73, 82.

(133) H. LAOUST, **Les Agitations Religieuses à Baghdad**, p. 169.

(134) **op. cit.** p. 170.

وأعقب هذه المواجهة قيام قتال عنيف في شوارع بغداد. وحصلت في سنة 394هـ حادثة مهمة، حين عين الأمير بهاء الدولة الشريف أبا أحمد الموسوي في الوظائف الأربعة التي بقيت من سلطات الخليفة، وهي: إمارة الحج، والمظالم، ونقابة الطالبيين، وقضاء القضاة، فما كان من الخليفة إلّا أن رفض تولية أبي محمد قضاء القضاة، وأجاز الولايات الثلاث الأخرى. وفي سنة 402هـ تمكن القادر من أن يقنع العلويين بإصدار بيان نشر في بغداد، وفيه يطعنون في نسب الفاطميين ويتبرأون منهم[135].

واشتد ساعد القادر بالله فأصدر «الاعتقاد القادري» الذي اعتبره المؤرخون المحدثون بداية الصحوة السنية؛ وبرأينا، فإن هذا الموقف من القادر يدل على شعوره باقتراب حكم بني بويه من نهايته، وقد رأى صراع الأسرة االبويهية، والصراعات اليومية التي تكرر نفسها في بغداد. وهذا ما أشار إليه المؤرخون، وسموه «ابتداء أمر السلاجقة». فقد جعل ابن العبري تلك البداية في العام 1036 للميلاد، أما ابن الأثير فجعلها في العام 432هـ/ 1040- 1041م[136]، ويقترن هذا التاريخ ببداية فتوحاتهم الغربية. وكان لا بد من الانتظار حتى العام 447هـ/ 1055م حتى يدخلوا بغداد، ويؤسسوا لحكم أسرة تركية غزية فيها.

---

(135) op. cit. p. 171.

(136) ابن العبري، تاريخ الزمان (بيروت، 1987)، ص 95 ـ 96، الكامل في التاريخ، (ط. صادر)، ج 9، ص 541 ـ 2، 552.

الخاتمة

لدى تفحص حركات العامة، نجد أنها ترتبط بأصول العيارين الاجتماعية، كما أنها ترتبط بمفاهيم السلطة داخل مجتمع تألف من حكام ومحكومين.

كان العيارون حثالة العامة الذين لم يجدوا عملاً ينخرطون فيه، أو أنهم كانوا من «باعة الطريق وأهل السجون والأوباش وأهل الأسواق» كما كانوا من نزلاء «الحمامات والمساجد والدكاكين». وهم في معظمهم من الجماعات العرقية المسحوقة التي دخلت المجتمع البغدادي عن طريق الفتوح، من الأفارقة والأحباش والسندية والهندية والصقالبة والنوبيين. كما ساهمت الاضطرابات السياسية والاقتصادية في تحويل جماعات أخرى إلى عيارين، ويبدو ذلك جلياً من وجود جماعة من بني العباس بين العيارين، حتى انخرطوا في صفوف «الأحداث وحملة السكاكين»[1].

وتأثرت العلاقة بين الحاكمين والمحكومين باعتبارات عديدة، كان أهمها التطورات الاجتماعية والسياسية داخل بغداد. فقد كانت العلاقة بين الخاصة والعامة سيئة جداً، وكان أحد مساعدي المأمون يعتقد أن بوسع من يلبس سواداً (شعار السلطة) أن يسوق عشرين ألفاً من العامة بعصاه، وكان في ذهن أصحاب السلطة أن الجند إنما يعدون لقمع العامة[2].

وفي غياب وسائل الرعاية الإجتماعية الرسمية لشؤون العامة، اقتصرت وسائل الدولة على الشرطة والحسبة والقضاء، وهي في جوهرها أنواع من الضابطة الادارية

(1) الطبري، ج 9، ص 450، 451، الصولي، ص 218، نشوار المحاضرة، ج 1، ص 86 ـ 87.

(2) طيفور، ص 50، الجاحظ، رسائل، ج 1، ص 43، أنظر أيضاً، ص 25، حيث يتحدث جند الموالي عن معرفتهم بطباع العامة واتقان التعامل معها.

باستثناء القضاء، الذي اكتسب وحده طابعاً شعبياً. من هنا كان على العامة، التي استقرت ضمن وحدات طوبوغرافية على أسس مهنية، أن توجد المؤسسات التي ترعى مصالح السكان ـ أرباب المهن، فكانت وظيفة «شيخ المحلة» ثم «المختار»[3]، وهما وظيفتان كانتا في أساسهما من وظائف الإدارة المحلية، يتولى صاحبهما رعاية أمور السكان؛ إلا أن مهماتهما كانت تتحول إلى سلطة سياسية عند اضطراب حبل الأمن وفقدان السلطة. وبذلك كانت العامة تمارس دوراً سياسياً ما كانت تسمح لها أيام السلم بممارسته. ولعل تلك الفرص الاستثنائية كانت حافزاً للعامة على السعي لكي يكون لها شأن أكبر في إدارة الحكم.

كان بروز الدور السياسي للعامة بعد نجاحهم العسكري في الحرب الأهلية التي خاضوها دفاعاً عن خلافة الأمين. ثم كان عهد المأمون الذي فرض الاعتزال عقيدة رسمية للدولة.

كان الاعتزال ظاهرة اجتماعية ازدهرت في مدن انشئت حديثاً، وعند طبقات معينة من الناس، وبالأخص طبقات أصحاب الحرف وصغار التجار. وتعود أصول القادة الفكريين للمعتزلة إلى «الموالي» الذين حسن إسلامهم، وإلى أصحاب المهن والحرف الذين استقروا في بغداد والبصرة[4]. وقد شكل هؤلاء طليعة ما يسمى بالطبقة «البورجوازية الصغيرة» التي سعت إلى إقامة مجتمع إسلامي يسوده العدل، كما سعت إلى احتلال مركز أسمى في مجال العلاقة بين الحكام والمحكومين.

ولعل المأمون، الذي عانى من حركة العيارين والشطار، أدرك قوة التأييد الذي منحته العامة لأخيه الأمين، وأدرك أيضاً مغزى حركة «المطوعة» التي قادها خالد الدريوش وحركة سهل بن سلامة الأنصاري سنة 201هـ، والتي أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ونجحت في ضبط العيارين بعد أن ضمت الكثير منهم إلى جانبها[5].

ولعل المأمون أيضاً أدرك ما تحتاجه طبقة العامة من تطبيق سياسة العدل، فراح يتقرب منها متبنياً عقيدة الاعتزال، عله يظفر بتأييد العامة بشقيها السني والشيعي داخل

---

(3) الإمتاع والمؤانسة، ج 2، ص 26، وحكاية أبي القاسم، ص 126، التعبير في الرؤيا، ق 57ب، 58آ.

(4) أنظر، طريف الخالدي، دراسات في تاريخ الفكر العربي والإسلامي، (دار الطليعة، بيروت، 1977)، ص 34، أنظر أيضاً، ص 31 ـ 32، حيث راجع المؤلف سيرة ست وعشرين شخصية من قادة المعتزلة فوجد منهم 16 شخصية من أصحاب الحرف وصغار التجار.

(5) الطبري، ج 9، ص 551.

بغداد، ومتوخياً تحقيق التصالح بين مقاطعات الخلافة، ساعياً وراء إقامة علاقات أكثر توازناً بين سائر الفئات الإجتماعية.

كان الجاحظ أبرز ممثلي المعتزلة في موقفها من العامة. فهو يلاحظ أن العامة من شأنها التقلب وإثارة الفوضى، وخاصة حين تضعف السلطة، فيتغلب الرعاع وهمج العوام. لذا فهو يقترح استخدام أهل الصلاح والقدر الذين أثبتوا ـ حسب رأيه ـ قدرتهم على ضبط العامة، ثم إنه يقترح الردع والزجر(6).

ولتحقيق هذين الهدفين، لم يكن الجاحظ يرى استخدام القوة ضد العامة. بل نراه يحاول توضيح موقفها لكي يجعله مفهوماً لدى الخاصة. فيقول: «قد مالت إلينا (العامة) على قدر ما ظهر من ميلها وأصغت لما ترى من استماعها» ثم يدعو إلى مخاطبتها ببساطة تقربها من المعتزلة، ويقترح التعامل معها باللين رجاء صلاح قلوبها. ويعلل الجاحظ ضرورة التعامل مع أهل السنة باللين، بعد أن يلاحظ كثرة عددهم وقوتهم المعارضة فيقول: «إن التشبيه، وإن كان أهله مقموعين ومهانين وممتحنين، فإن عدد الجماجم على حاله، وضمير أكثرهم على ما كان عليه» فهم مضطرون إلى المنازعة بعد أن فقدوا السلطة وتعرضوا للقمع(7).

ولذا فهو يقترح عدم التصدي للسنة بالقوة، ويرى استخدام طريقة الحوار، عبر الحلقات التي يتم فيها إقناعهم بمذهب الاعتزال وضمهم إليه.

والجاحظ هنا يشير إلى فشل المحنة التي تعرض لها أهل الحديث، ويقترح استخدام العقل وإثارة حوارات يمكن أن تنزع تأييد العامة لأهل السنة.

ولعل تبني الدولة مذهباً خاصاً قد فتح الباب واسعاً أمام الآراء المختلفة التي لقي بعضها التأييد الشعبي، حتى شكلت «أحزاباً» داخل بغداد، وكان التأييد السني في بغداد لمعاوية بمثابة رد فعل على المعتزلة الذين أدانوه(8).

وظهر الحنابلة في تيار التف حوله معارضو الاعتزال حتى بدا أنه حزب المعارضة. وقد أدرك المتوكل مدى سيطرة هذا التيار السلفي على الرأي العام البغدادي، فاتجه إليه يحتضنه، ليكون مادة الخلافة في حربها ضد سيطرة الجند الأتراك. وخرج العامة بعد

---

(6) أنظر، رسالة في الجوابات في الإمامة، بعناية يحي الجبوري، م. المورد، م. 7، عدد 4، 1978، ص 223، 228.

(7) رسائل، ج 1، ص 288، 289.

(8) أنظر، المصدر نفسه، ج 2، ص 20.

الحرب الأهلية 250 ـ 251هـ أكثر قوة، بعد أن أكدوا دورهم في حماية بغداد من الجنود الأتراك الذين ساندوا المعتز، كما أنهم خرجوا أكثر تنظيماً، وصاروا قوة سياسية يعتد بها.

وأسهمت الثورات العلوية في السواد والري وطبرستان والمغرب، في دعم الأحزاب الشيعية في بغداد، ولم يكد يبدأ القرن الرابع حتى أصبحت هذه الأحزاب الشيعية من القوى الشعبية الأساسية في العاصمة.

ويبدو أن عهد المعتضد ذي الشخصية القوية الذي استطاع أن يضبط العامة والجند، كان عهد العمل السري، فظهر أهل العصبية والأحداث[9]، كما يبدو أن المعتضد اتبع سياسة حازمة ضد أصحاب الدعوات السرية. فمنع أنصار معاوية والقصاص من السنة من الجلوس في المساجد والطرقات، ولجم الدعوات العلوية السرية. وعلى خط مواز حاول المعتضد معالجة أوضاع عناصر هذه الدعوات بوسائل هادئة، فوجه إليهم من يعرف أحوالهم ليقف على شأن كل واحد منهم في معاشه، فمن كان منهم يصلح للعمل أتاح له فرصته، ووصل من كان سيء الحال ليعيد إليه الطمأنينة، ونصح ولاطف من يحتاج إلى ذلك. «فعادت الحال ترف بالسلامة والعافية»[10].

كان المعتضد ملماً بالتيارات التي تتجاذب الرأي العام البغدادي، كما كان محيطاً بظروف العامة الاجتماعية. وكان يعالجها بإصلاح نفوس الرعية عن طريق تأمين الإشراف الفعلي على أجهزة الدولة والاستماع إلى ظلامات العامة، وتأمين خدمات مياه الري والسهر على استقرار الأوضاع الاقتصادية[11].

وفي عهد المقتدر ظهرت حركات العامة بعد استتار، حتى كانت مدة خلافته التي بلغت 25 سنة فترة فوضى مستمرة. ولم تترك العامة فرصة إلّا عبّرت فيها عن نقمتها على السلطة والتجار، فكثر نهب الأسواق وإحراقها، ولوحق أهل الذمة بعد أن ازداد نفوذهم الاداري والمالي، حتى صدرت أوامر إدارية بالتضييق عليهم إرضاءً للعامة. وكانت للعامة مواقف معينة من رجال الإدارة، فساندت علي بن عيسى وحاولت حمايته من بعض رجال السلطة في القصر والجيش، كما أنها وقفت بحزم ضد الوزير ابن الفرات وابنه المحسن اللذين اتهما باضطهاد خصومهما ومصادرتهم، وكان لموقف العامة منهما أثره في مطاردة المقتدر لهما.

---

(9) أنظر، التنوخي، **نشوار المحاضرة**، ج 1، ص 145 ـ 146.

(10) أنظر، **الإمتاع والمؤانسة**، ج 3، ص 91.

(11) أنظر، **المنتظم**، ج 5، ص 130، 131، 133، 136، 137.

ولم تسكت العامة على تهاون السلطة في الدفاع عن الثغور أمام هجمات الروم المستمرة، كما أن العامة كانت وراء انفجار أحداث سنتي 308 ـ 309هـ ضد الغلاء الذي اتهم القصر ورجل الإدارة بالتسبب فيه. وهكذا فإنا نرى أن العامة كانت المعبر الرئيسي عن اتجاهات الرأي العام في قضايا السياسة العامة.

ولم يكد يدخل عهد الراضي حتى باتت الخزينة خاوية، مما اضطر الخليفة إلى تسليم الحكم إلى أمراء الجيش، فأصبح الجند والعامة وجهاً لوجه. في هذه الأثناء برز الحنابلة كأعتى قوة، فكان زعيمهم البربهاري يختار أهدافه مرة ضد رجال السلطة، ومرة ضد الشيعة، ومرة ضد أهل الذمة. وكان الحنابلة يقفون بالمرصاد لقادة الشرطة والجند الذين انكفأوا على أهل الأسواق والتجار، يفرضون عليهم الإتاوات والمصادرات، حتى اضطر التجار إلى الهرب من بغداد.

ووجد العيارون في اضطراب حبل الأمن فرصاً لا تعوض[12]، فتحركوا مرات، حتى اضطر صاحب الشرطة إلى تجنيدهم ضمن رجاله، فملكوا بغداد، وخرج أنصارهم من العيارين، فأخذوا ثياب الناس من المساجد والطرقات، وكبسوا الحمامات وأخذوا ثياب مشيعي الجنازات.

وفي غمرة الفوضى، ظهر اللصوص بأجلى قوتهم في هذا العهد. وكان ابن حمدي زعيم عصابة كبرى، ورأت السلطة أن توكل إليه جباية اللصوص في بغداد. وزاد أمره حتى اضطرت السلطات لاعتقاله وإعدامه بشقه نصفين تحت تهديد العامة بالثورة. واستمرت كبسات اللصوص على دور الناس، وظهر منهم زعامات، منهم المعروف بابن أبي علي، الذي انضم إلى معز الدولة في الأهواز (332هـ)، واضطر جماعة إلى أن يدفعوا عشرة آلاف دينار مقابل إطلاق لص مشهور. وزاد عدد اللصوص في سنة 333هـ حتى بدوا «كالجيش» عدة وعدداً، فكانوا يغيرون على المقصودين وهم مسلحون بالسيوف والنشاب. ويبدو أن هذه المهنة كانت وفيرة الربح، حتى أن أحد قادة البريدي استأمن إلى الجيش في بغداد، وشكل عصابة ضمت «بطارقة» لصوص بغداد.

وفي العهد البويهي، انقسم عامة بغداد إلى سنّة وشيعة تحت تأثير سياسة السلطة، حتى أصبح كل جانب في بغداد يمثل مذهباً. فتجمع السنة في الجانب الشرقي، فيما كان الجانب الغربي ذي أكثرية شيعية. وأدت الضرورة إلى أن اندمج العمل السياسي

(12) انظر، أخبار الراضي، ص 104، 107، 119، 133، 276، 277.

بالعيارة. فأصبح العيارون وأهل العصبية والأحداث في كل جانب حزباً يقف مقابل حزب الجانب الآخر، وأصبح بالتالي، الرأي السياسي مختلطاً بأعمال انتقامية توجه ضد كل حزب، ومن هنا أصبح العامة وقوداً لحرب أهلية مستمرة، يذكيها رجال السلطة بين حين وآخر.

ويبدو أن تقسيم الرأي العامة كان وسيلة أساسية للسلطة لضمان سيطرتها على مقدرات الشعب، بعد أن أخذ صوت العامة يرتفع في كل مناسبة. فقد كانت مواقف العامة واضحة من ضعف السلطة وسيطرة الجند وسياسة الإنفاق بدون حساب، وعبرت عن موقفها بمنع الصلاة في الجوامع مرات عديدة. وفي عهد الراضي كان موقف العامة واضحاً في إدانة حربه ضد الحمدانيين، واعتبرت أن الخليفة يوجه قواته ضد جيش مسلم طالما دافع عن الإسلام في وجه الروم[13].

وفي العهد البويهي أصبح العمل السياسي من نشاطات العامة العادية. وقد أثار ذلك السلطة البويهية، فذكر أحدهم «أنه ضاق صدره بالغيظ لما يبلغه عن العامة من خوضها في حديث الحاكمين، حتى كأنه من الفرائض المحتومة والوظائف الملزومة»، رغم الزجر المتكرر. وسوغ أبو حيان التوحيدي تطلع العامة لمعرفة سياسة السلطان لأن مصالحها متعلقة به، ويقول عن العامة: ولم لا تتطلع إلى البحث في أمور السلطان وقد ملك نواصيها وسكن ديارها وصادرها وحال بينها وبين ضياعها وقاسمها مواريثها، وأنساها رفاهة العيش وطيب الحياة وطمأنينة القلب، فطرقها مخوفة، ومساكنها منزولة وخراجها مضاعف وجنديها متغطرس وشرطيها منحرف ومساجدها خربة ووقوفها منتهية ومارستاناتها خاوية وأعداؤها مستكلبة[14]. ولقد أقضت سياسية الدولة مضجع العامة، فاغتنمت فرصة هجوم الروم على الموصل في نهاية 362هـ ونشبت ثورة طاحنة داخل بغداد، وتنادى الناس للنفير، وتم توزيع الأسلحة. حتى أن العلماء هبوا غيرة على الدين خوفاً من العامة، وتوجه منهم وفد إلى الكوفة، حيث يقضي بختيار إجازته في الصيد، ودار بين الجميع حوار طريف، أدان فيه شيوخ بغداد سياسة الأمير البويهي وقالوا: لو كان لنا خليفة أو أمير أو ناظر أو سائس، لم يفض الأمر إلى هذه الشناعة[15].

وترك لنا أبو حيان التوحيدي[16] صورة أخرى عن اضطراب الوضع في النصف

(13) أنظر، حمزة الاصفهاني، ص 153، 155، 159.

(14) الإمتاع والمؤانسة، ج 3، ص 85 ـ 88.

(15) أنظر، المصدر نفسه، ص 3، ص 151 ـ 159.

(16) المصدر نفسه، ص 92 ـ 95.

الأخير من القرن الرابع، وهي توضح تأثير الغلاء وتهاوي قيمة النقد واضطراب العامة وانتشار الهوى والعصبية، حتى أن الصوفية والزهاد كانوا يتشوقون لمعرفة ما يجري، ويسعون لمعرفة رأي العامة وما تتهامس به. إذ كانت شغوفة بمعرفة أحوال ساستها لما ترجو من رخاء العيش، وطيب الحياة، وسعة المال، ودرور المنافع، واتصال الجلب، ونفاق السوق، وتضاعف الربح.

قائمة المصادر

1 ـ مخطوط:

أبو سعد، نصر بن يعقوب الدينوري.

التعبير في الرؤيا، أو القادري في التعبير، مخطوط متحف بغداد رقم 598.

2 ـ مصادر مطبوعة:

الأبشيهي، شهاب الدين، محمد بن أحمد بن منصور (ت 850هـ/ 1446م).

المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة 1952، مصطفى البابي الحلبي.

أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم.

عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بعناية نزار رضا، بيروت، 1952، دار مكتبة الحياة. ابن أبي الربيع، أحمد.

سلوك المالك في تدبير الممالك، بعناية ناجي التكريتي، بيروت، 1978، دار عويدات. ابن أبي يعلى الفراء.

طبقات الحنابلة، القاهرة 1952، مطبعة السنة المحمدية.

ابن الأثير، علي بن محمد (555 ـ 630هـ/ 1160 ـ 1233م).

الكامل في التاريخ، ط 2، بيروت، 1967، دار الكتاب العربي، نسخة مصورة عن طبعة المنيرية بالقاهرة.

طبعة بيروت، 1957، دار صادر.

ابن الأخوة القرشي، محمد بن علي (ت 729 هـ/ 1327 م).

ــ **معالم القربة في أحكام الحسبة،** بعناية روبن ليفي، لندن، 1938.

ــ **معالم القربة،** بعناية محمود شعبان وصديق أحمد المطيعي، القاهرة، 1976،

الهيئة المصرية العامة للكتاب.
ابن بسام، محمد بن أحمد (القرن الثامن الهجري).
نهاية الرتبة في طلب الحسبة، بعناية حسام الدين السامرائي، بغداد، 1968، مطبعة المعارف.
ابن بطلان، المختار بن الحسن بن عبدون البغدادي.
رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، بعناية عبد السلام هارون، ضمن نوادر المخطوطات، المجلد الأول، القاهرة، 1972.
ابن البناء، الحسن بن أحمد (369 ـ 471هـ).
يوميات، أنظر: المراجع والدراسات الأجنبية.
ابن تغري بردي الأتابكي، أبو المحاسن يوسف.
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، 1932، دار الكتب المصرية.
ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الأندلسي (ت 614هـ/ 1217م).
رحلة ابن جبير، بيروت، 1964، دار صادر ـ دار بيروت.
ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، (ت 597هـ/ 1201م).
ـ **الأذكياء**، بيروت، 1965، المكتب التجاري للطباعة والنشر.
ـ **أخبار الحمقى والمغفلين**، بيروت، دون تاريخ، المكتب التجاري للطباعة.
ـ **تلبيس إبليس**، القاهرة، 1928، إدارة الطباعة المنيرية.
ـ **مناقب بغداد**، بعناية محمد بهجة الأثري، بغداد، 1342هـ.
ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، حيدر اباد الدكن، 1357، مطبعة دائرة المعارف العثمانية.
ابن الحاج، محمد بن محمد.
المدخل، بيروت، 1972، دار الكتاب العربي.
ابن حجر العسقلاني، أحمد.
بلوغ المرام من أدلة الأحكام، بعناية رضوان محمد رضوان، القاهرة، 1373هـ.
ابن حوقل، أبو القاسم (القرن الرابع الهجري).
صورة الأرض، بيروت، دون تاريخ، دار مكتبة الحياة.
ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله (ت 300هـ).
المسالك والممالك، بعناية دي غويه، ليدن 1889.
ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (ت 808هـ/ 1405م).

المقدمة، القاهرة، 1966، كتاب التحرير.
تاريخ ابن خلدون، أو العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، بيروت، 1957، دار الكتاب اللبناني.

ابن رسته.
الاعلاق النفيسة، بعناية دي غويه، ليدن، 1892.

ابن الزبير، الرشيد أحمد بن علي، (ت 563هـ).
الذخائر والتحف، بعناية محمد حميد الله، الكويت، 1959.

ابن سعد، محمد، كاتب الواقدي.
الطبقات الكبرى، قدم له إحسان عباس، بيروت، بدون تاريخ، دار صادر.

ابن شاكر الكتبي، محمد (ت 764هـ).
فوات الوفيات، بعناية إحسان عباس، بيروت،، 1973، دار صادر.

ابن الشحنة الحنفي، ابراهيم بن محمد.
لسان الحكام في معرفة الأحكام، القاهرة، 1973، مصطفى البابي الحلبي.

ابن الطقطقى، محمد بن علي بن طباطبا، (ت 709هـ/ 1309م).
الفخري في الآداب السلطانية، بيروت، 1966، دار صادر- دار بيروت.

ابن طيفور، أحمد بن طاهر (ت 280هـ/ 1893م).
بغداد في تاريخ الخلافة العباسية، القاهرة، 1968.

ابن عبد الحق، عبد المؤمن (ت 739هـ/ 1337هـ).
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، بعناية علي محمد البجاوي، القاهرة، 1954، دار إحياء الكتب العربية.

ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد، (ت 328هـ/ 939).
العقد الفريد، بعناية أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، ط 3، القاهرة، 1965.

ابن العبري، غريغوريوس الملطي، (ت 685هـ/ 1986م).
تاريخ مختصر الدول، بيروت، 1890، المطبعة الكاثوليكية.
ـ **تاريخ مختصر الدول**، نقله إلى العربية إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت، 1987.

ابن فضلان، أحمد.
رسالة ابن فضلان، بعناية سامي الدهان، دمشق، 1959.

ابن الفقيه الهمداني، أبو بكر أحمد بن محمد (ت 290هـ/ 902م).

بغداد مدينة السلام، بعناية صالح أحمد العلي، باريس 1977، دار الطليعة.

ــ مختصر البلدان، بعناية دي غويه، ليدن، 1302هـ.

ابن قطلوبغا، ابو العدل قاسم.

تارج التراجم في طبقات الحنفية، بغداد، 1962، مكتبة المثنى.

ابن الكازروني، علي بن محمد البغدادي.

مختصر التاريخ، بعناية مصطفي جواد وسالم الألوسي، بغداد، 1970.

ابن المعمار الحنبلي، محمد بن أبي المكارم.

الفتوة، بعناية مصطفى جواد وآخرين، بغداد، 1958، مطبعة شفيق.

ابن المقفع، عبد الله.

رسالة الصحابة، ضمن آثار ابن المقفع، ط 4، بيروت، 1970، مكتبة البيان، دار القاموس.

ابن النديم، محمد بن إسحق (ت 383هـ/ 992م).

الفهرست، القاهرة، دون تاريخ، مطبعة الاستقامة.

ابن هذيل الاندلسي، علي بن عبد الرحمن.

حلية الفرسان وشعار الشجعان، بعناية محمد عبد الغني حسن، القاهرة، 1951، دار المعارف.

ابو بكر الخوارزمي.

رسائل أبي بكر الخوارزمي، بيروت، 1970، مكتبة الحياة.

أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (ت 410هـ).

ــ **الإمتاع والمؤانسة**، بعناية أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت، دون تاريخ، مكتبة الحياة.

ــ **البصائر والذخائر**، بعناية ابراهيم الكيلاني، دمشق 1964، مكتبة أطلس.

ــ **المقابسات**، بعناية محمد توفيق حسين، بغداد، 1970.

أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث.

مسائل الإمام أحمد، بعناية رشيد رضا، القاهرة، 1353هـ.

أبو شجاع الروذراوري، محمد بن الحسين.

ذيل تجارب الأمم، بعناية آمدروز، القاهرة، 1916، مطبعة التمدن.

أبو الفرج الإصفهاني، علي بن الحسين (ت 356هـ/ 967م).

ـ **أدب الغرباء**، بعناية صلاح الدين المنجد، بيروت، 1972، دار الكتاب الجديد.
ـ **الأغاني**، طبعة بولاق، 1284 ـ 1285هـ.
ـ **الأغاني**، القاهرة، 1970 ـ 1974، الهيئة العامة للكتاب.
ـ **مقاتل الطالبيين**، بعناية السيد أحمد صقر، القاهرة، 1949.
أبو نعيم الإصفهاني، أحمد بن عبد الله (ت 43هـ).
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، القاهرة، 1932 ـ 1938، مكتبة الخانجي.
أبو يعلى الفراء، محمد بن الحسين (ت 450 / 1058م).
الأحكام السلطانية، بعناية محمد حامد الفقي، ط 2، القاهرة، 1966، مصطفى البابي.
المعتمد في أصول الدين، بعناية وديع زيدان حداد، بيروت، 1974، دار المشرق، الحلبي.
أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم.
الخراج، القاهرة، 1392هـ، المكتبة السلفية.
أحمد بن يحيى بن المرتضى.
المعتزلة، من كتاب المنية والأمل، بعناية أرنولد، ليبزغ، 1902.
اخوان الصفاء وخلان الوفاء.
رسائل إخوان الصفاء، بيروت، 1957، دار صادر، در بيروت.
الاربلي، عبد الرحمن بن سنبط قنيتو (ت 717 هـ/ 1317 م.
خلاصة الذهب المسبوك، مختصر سير الملوك، بغداد، 1964، مكتبة المتنبي.
أردشير.
عهد أردشير، جمع وتحقيق إحسان عباس، بيروت، 1967، دار صادر.
الأزدي، علي بن ظاهر (ت 613هـ).
بدائع البدائه، بعناية محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، 1970.
الأزدي، أبو المطهر محمد بن أحمد، (القرن الخامس الهجري).
حكاية أبي القاسم البغدادي، بعناية آدم متز، هيدلبرغ، 1902.
الإصطخري، أبو اسحاق، ابراهيم بن محمد، (ت 341هـ/ 952م).
مسالك الممالك، بعناية دي غويه، ليدن، 1927.
ـ **ألف ليلة وليلة**، بولاق، 1352هـ.
ـ **ألف ليلة وليلة**، بيروت، دون تاريخ، المكتبة الشعبية.

الأنصاري، الشيخ مرتضى.
المكاسب، تبريز، إيران، 1375هـ.
البخاري، محمد بن إسماعيل.
صحيح البخاري، القاهرة، 1313هـ.
بزرك بن شهريار.
عجايب الهند، بعناية نقولا زيادة، بيروت، 1974، مؤسسة ناصر للثقافة.
البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، أنظر، الخطيب البغدادي.
البغدادي، عبد القادر.
رسالة التلميذ، بعناية عبد السلام هارون، نوادر المخطوطات، 1972، (ص 221 ـ 223).
البغدادي، عبد القاهر.
الفرق بين الفرق، بيروت، 1973، دار الآفاق الجديدة.
البغدادي،، محمد بن الحسن بن محمد الكاتب.
كتاب الطبيخ، بعناية داود شلبي، أعاد نشره فخري البارودي، بيروت، 1964.
البلاذري، أحمد بن يحيى، (ت 279هـ/ 892م).
ـ **أنسان الأشراف**، ق 3، بعناية عبد العزيز الدوري، بيروت، 1978، فرانتس شتاينر.
ـ **أنساب الأشراف**، ق 4 ـ 5، بعناية غويتن، القدس، 1936.
ـ **فتوح البلدان**، بعناية صلاح الدين المنجد، القاهرة، 1956 ـ 1958، مكتبة النهضة المصرية.
البوزجاني، **الحاوي في الأعمال السلطانية**، نشره كلود كاهن في (B.E.O.D) المجلد 13.
البيروني، محمد بن أحمد (ت 440هـ/ 1048م).
ـ **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، بعناية ادوارد سخاو، ليبزغ، 1923.
ـ **الجماهر في معرفة الجواهر**، حيدر آباد الدكن، 1355هـ.
البيهقي، ابراهيم بن محمد (ت 470هـ/ 1077م).
المحاسن والمساوىء، بيروت، 1970، دار صادر.
التاجر سليمان.
الرحلة، من رحلات العرب، بعناية نقولا زيادة بيروت، 1974، مؤسسة ناصر للثقافة.

التنوخي، أبو علي المحسن بن علي (ت 384هـ/ 994م).
ـ **الفرج بعد الشدة**، بعناية عبود الشالجي، بيروت 1978، دار صادر.
ـ **الفرج بعد الشدة**، القاهرة، 1938.
ـ **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، بعناية عبود الشالجي، بيروت، 1971.
التهانوي، محمد علي الفاروقي.
كشاف اصطلاحات الفنون، بعناية لطفي عبد البديع، القاهرة، 1969، الهيئة المصرية العامة.
التيفاشي، أحمد بن يوسف.
أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، القاهرة، 1977، الهيئة المصرية العامة.
ثابت بن سنان.
تاريخ أخبار القرامطة، بعناية سهيل زكار، بيروت، 1971، مؤسسة الرسالة.
الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت 430هـ/ 1039م).
ـ **الاعجاز والايجاز**، بعناية اسكندر آصاف، بيروت، دون تاريخ، دار صعب.
ـ **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، بعناية أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، 1966، دار نهضة مصر.
ـ **خاص الخاص**، بيروت، 1969، دار مكتبة الحياة.
ـ **لطائف المعارف**، بعناية ابراهيم الابياري وحسن كامل الصيرفي، القاهرة، 1960.
ـ **يتيمة الدهر**، بعناية محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1377.
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ).
ـ **البخلاء**، بعناية طه الحاجري، ط 4، القاهرة، 1971، دار المعارف.
ـ **البيان والتبيين**، بعناية حسن السندوبي، القاهرة، دون تاريخ، المكتبة التجارية الكبرى.
ـ **التاج**، بعناية أحمد زكي، القاهرة، 1914، المطبعة الأميرية.
ـ **التبصر بالتجارة**، بعناية حسن حسني عبد الوهاب، بيروت، 1966، دار الكتاب الجديد.
ـ **الحيوان**، بعناية عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1947 ـ 1969.
ـ **الرد على النصارى**، ضمن ثلاث رسائل، بعناية يوشع فنكل، القاهرة، 1382هـ، المطبعة السلفية.
ـ **الموروث الشعبي في آثار الجاحظ**، نصوص جمعها المركز الفولكلوري العراقي، بغداد، 1976.

ـ **رسائل الجاحظ**، بعناية عبد السلام هارون، جزءان، القاهرة، 1964، مكتبة الخانجي.

ـ **رسائل الجاحظ**، بيروت، 1972، دار النهضة الحديثة.

ـ **رسائل الجاحظ**، بعناية حاتم صالح الضامن ويحيى الجبوري، **مجلة المورد**، المجلد السابع، العدد الرابع، بغداد، 1978، وتتضمن الرسائل التالية:

ـ **الحاسد والمحسود، رسالة في المعلمين، ذم التجار، الشارب والمشروب، في الوكلاء، في الجوابات في الإمامة.**

ب01 ـ **العثمانية**، بعناية عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1955.

كتاب البلدان، بعناية صالح أحمد العلي، **مجلة كلية الآداب**، (بغداد، 1969).

الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس، (ت 331هـ/ 942م).

ـ **الوزراء والكتاب**، بعناية مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة، 1938.

ـ **نصوص ضائعة من كتاب الوزراء**، جمعها ميخائيل عواد، بيروت، 1964، دار الكتاب اللبناني.

ـ **حدود العالم**، نشره مينورسكي، أوكسفورد، 1937، **مجموعة تذكار جب**.

الحريري، أبو القاسم بن علي.

ـ **مقامات الحريري**، بيروت، 1965، دار صادر، دار بيروت.

ـ **درة الغواص في أوهام الخواص**، بعناية هنريك ثوربك، ليبزغ، 1871.

الحسن بن أحمد بن علي الكاتب (عاش في القرن السادس).

كمال أدب الغناء، بعناية غطاس عبد الملك خشبة، القاهرة، 1975.

الحصري القيرواني، أبو اسحاق.

زهر الآداب وثمار الالباب، بعناية زكي مبارك ومحمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، 1972.

الحكيم، علي بن يوسف.

الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، **صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد**، 1951، مجلد 6، عدد 1 ـ 2.

حمزة بن حسن الإصفهاني (ت 360هـ/ 970م).

تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، بيروت، 1961، مكتبة الحياة.

الحلاج، الحسين (ت 309هـ).

أخبار الحلاج، بعناية ماسينيون وكراوس، باريس، 1936، مطبعة القلم ومكتبة لاروز.

ديوان الحلاج، شرح كامل الشيبي، بيروت، بغداد، 1974، دار النهضة.

الحي، جعفر بن الحسن (ت 676هـ).

المختصر النافع في فقه الامامية، القاهرة، 1376هـ، دار الكتاب العربي.

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (463هـ/ 1070م).

- **تاريخ بغداد**، القاهرة، 1931، دار الفكر العربي، بيروت، دون تاريخ.
- **التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم**، عني بنشره القدسي، دمشق، 1346هـ، مطبعة التوفيق.

الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف (ت 407هـ/ 1013م).

مفاتيح العلوم، القاهرة، 1342هـ، إدارة الطباعة المنيرية.

الدمشقي، أبو الفضل جعفر بن علي (ت 570هـ/ 1174م).

الإشارة إلى محاسن التجارة، القاهرة، 1318هـ، مطبعة المؤيد.

- **وباعتناء فهمي سعد، دار ألف باء، بيروت، 1983.**

الدينوري، أبو حنيفة بن داود.

كتاب النبات، بعناية برنهارد لفين، 1974، نشرته دار فرانزشتاينر.

الدينوري، ابن قتيبة عبد الله بن مسلم (ت 276هـ).

- **عيون الأخبار**، القاهرة، 1963، المؤسسة المصرية العامة.
- **المعارف**، بعناية محمد بن اسماعيل عبد الله الصاوي، ط 2، بيروت، 1970، دار إحياء التراث العربي.

الزبيدي، محمد مرتضى بن محمد بن عبد الرزاق (1145 ـ 1205هـ).

معجم أسماء النبات الواردة في تاج العروس، جمع وتحقيق محمود مصطفى الدمياطي، القاهرة، 1966، المؤسسة المصرية العامة.

الراغب الأصفهاني أبو القاسم حسين بن محمد.

محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء، بيروت، دون تاريخ، دار الحياة.

الرفيق النديم، أبو اسحاق ابراهيم (ت 417هـ).

قطب السرور في أوصاف الخمور، بعناية أحمد الجندي، دمشق، 1969، مطبوعات مجمع اللغة العربية.

السبكي، عبد الوهاب بن تقي الدين.

طبقات الشافعية الكبرى، القاهرة، 1324هـ.

الزبير بن بكار.
الأخبار الموفقيات، بعناية سامي مكي العاني، بغداد، 1972.
السرخسي، شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي سهل (ت 483هـ/ 1091م).
المبسوط، بعناية الساسي، القاهرة، دون تاريخ، مطبعة السعادة.
سلار، حمزة بن عبد العزيز الديلمي.
المراسم في الفقه الامامي، بعناية محمود البستاني، بيروت، 1980.
السلمي، أبو عبد الرحمن (ت 412هـ).
طبقات الصوفية، بعناية، نور الدين شربية، القاهرة، 1962، مكتبة الخانجي.
السمرقندي، محمد بن أحمد بن منصور، (ت 540هـ).
تحفة الفقهاء، بعناية محمد المنتصر الكتاني ووهبة الزحيلي، دمشق، 1964، دار الفكر.
السمناني، أبو القاسم علي بن محمد بن أحمد (ت 499هـ).
روضة القضاة وطريق النجاة، بعناية صلاح الدين الناهي، بغداد، 1970، 1972، مطبعة أسعد.
السيرافي، أبو زيد.
من أخبار الصين والهند، بعناية نقولا زيادة، بيروت، 1974، مؤسسة ناصر للثقافة.
سهراب.
عجائب الأقاليم السبعة، بعناية مزيك، فيينا، 1929، مطبعة هولز هوزون.
السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ/ 1505م).
- **المستظرف من أخبار الجواري**، بعناية صلاح الدين المنجد، بيروت، 1976، دار الكتاب الجديد.
- **تاريخ الخلفاء**، بيروت دون تاريخ، دار الثقافة.
الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (ت 388هـ/ 998م).
الديارات، بعناية كوركيس عواد، بغداد، ط 2، 1966، مكتبة المثنى.
الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم.
الملل والنحل، بعناية عبد العزيز محمد الوكيل، القاهرة، 1968، مؤسسة الحلبي وشركاه.
الشيباني، محمد بن الحسن (ت 189هـ).
- **الاكتساب في الرزق المستطاب**، نشره عزت العطار، مطبعة الأنوار، القاهرة، 1938.

ــ الأمالي، حيد آباد الدكن، 1941 .
ــ الجامع الكبير، القاهرة، بعناية أبو الوفا الافغاني، 1356هـ، مطبعة الاستقامة.
ــ السير، بعناية مجيد خدوري، بيروت، 1975 ، الدار المتحدة للنشر.
ــ الخراج، في ذيل كتاب السير.
ــ المخارج في الحيل، بعناية يوسف شاخت، ليبزغ، 1930 .
الشيزري عبد الرحمن بن نصير (ت 589هـ).
نهاية الرتبة في طلب الحسبة، بعناية السيد الباز العريني، القاهرة، 1943 .
الصابي، أبو اسحق ابراهيم بن هلال.
ــ المختار من رسائل الصابي، بعناية شكيب ارسلان، بيروت، دون تاريخ، دار النهضة الحديثة.
ــ المنتزع من كتاب التاجي، بعناية محمد حسين الزبيدي، بغداد، 1977 ، دار الحرية للطباعة.
الصابي، غرس النعمة بن محمد بن هلال (ت 480هـ).
ــ الهفوات النادرة، بعناية صالح الأشتر، دمشق، 1967 ، مطبوعات مجمع اللغة العربية.
الصابي، هلال بن المحسن (ت 448هـ/ 1056م).
ــ الوزراء، أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، بعناية عبد الستار فراج، القاهرة، 1958 ، دار إحياء الكتب الشعرية.
ــ تاريخ الصابي، بعناية امدروز ومرغوليوث، القاهرة، 1919 ، ذيل تجارب الأمم.
ــ رسوم دار الخلافة، بعناية ميخائيل عواد، بغداد، 1964 ، مطبعة العاني.
الصفدي، خليل بن ايبك.
نكت الهميان في نكت العميان، بعناية أحمد زكي، القاهر، 1961 ، المطبعة الجمالية.
الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (335 ـ 946م).
ــ أخبار الشعراء، بعناية هيوارث دن، القاهرة، 1934 ، مطبعة الصاوي.
ــ أخبار الراضي بالله والمتقي لله، بعناية دن، القاهرة، 1935 ، مطبعة الصاوي.
الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/ 922م).

تاريخ الرسل والملوك، القاهرة 1960 ـ 1969، دار المعارف.
اختلاف الفقهاء، بعناية فريدريك كرن، برلين، 1902.

الطرابلسي الحنفي، أبو الحسن علي بن خليل.
معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام، القاهرة، 1973، البابي الحلبي.

الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت 460هـ).
النهاية في مجرّد الفقه والفتاوى، بيروت، 1980، دار الكتاب العربي العامري، محمد بن يوسف (ت 381هـ).
الإعلام بمناقب الإسلام، بيروت، بعناية أحمد عبد الحميد غراب، القاهرة، 1967، دار الكاتب العربي.

عريب بن سعد القرطبي (ت 366هـ/ 976م).
ـ **صلة تاريخ الطبري**، بعناية أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، 1977، دار المعارف.
ـ **صلة تاريخ الطبري**، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1939.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، توفي بعد 400هـ.
الأوائل، بعناية محمد المصري ووليد قصاب، دمشق، 1975، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

عمرو بن متى.
أخبار بطاركة كرسي المشرق، من كتاب المجدل، بعناية جسموندي، روما، 1896.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، (ت 505هـ).
ـ **إحياء علوم الدين**، القاهرة، 1939.
ـ **فضائح الباطنية**، بعناية عبد الرحمن بدوي، القاهرة، 1964، الدار القومية للطباعة والنشر.

الفارابي، أبو نصر.
ـ **الحروف**، بعناية محسن مهدي، بيروت، 1970، دار المشرق.
ـ **رسالة في السياسة**، نشرها الأب لويس شيخو، **مجلة المشرق**، المجلد 28، عدد 4 (ص 648 ـ 700).

القارىء، أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج.
مصارع العشاق، بيروت، د. ت، دار صادر.

قدامة بن جعفر، (ت 320هـ/932م).
نبذ من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، بعناية دي غويه، ليدن 1889 .
ـ وبعناية محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، 1981 .
شرح أسماء العقار، بعناية مايرهوف، القاهرة، 1940 .
القزويني، زكريا.
عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، بعناية فاروق سعد، بيروت، 1973 ، دار الآفاق الجديدة.
القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن.
الرسالة القشيرية في التصوف، القاهرة، 1940 .
القفطي، علي بن يوسف.
تاريخ العلماء، بعناية يوليوس ليبرت، ليبزغ، 1903 .
القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م).
ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، 1963 ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
مآثر الانافة في معالم الخلافة، بعناية عبد الستار فراج، الكويت، ع1964 .
الكاساني الحنفي، علاء الدين أبو بكر بن مسعود (ت 587هـ).
بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، القاهرة، 1910 ، المطبعة الجمالية.
الكتبي، محمد بن شاكر.
فوات الوفيات، بعناية إحسان عباس، بيروت، 1973 ـ 1974 ، دار صادر.
كشاجم، أبو الفتح محمود بن الحسن.
المصايد والمطارد، بعناية محمد أسعد طلس، بغداد، 1954 ، دار اليقظة.
الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت 350هـ/961م).
الولاة والقضاة، بعناية رفن جست، ليدن، 1908 ، مجموعة تذكار جب .
الكرملي، الأب انستاس ماري.
ـ النقود العربية والنميات، رسائل في النقود للبلاذري والمقريزي والذهبي، القاهرة، 1931 .
مالك بن أنس، الإمام.
الموطأ، القاهرة، 1349 ، مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
الماوردي، علي بن محمد بن حبيب (ت 450هـ/1058م).
الأحكام السلطانية، ط 2 ، القاهرة، 1966 ، مصطفى البابي الحلبي.

- أدب القاضي، بعناية محي هلال السرحان، بغداد، 1971، مطبعة الإرشاد.
المجيلدي، أحمد بن سعيد.
التيسير في أحكام التسعير، بعناية موسى لقباط، الجزائر، 1971.
مسكويه، أحمد بن محمد (ت 421هـ/1030م).
- تجارب الأمم، بعناية امدروز، القاهرة، 1914 ـ 1915، مطبعة التمدن، جزءان وملحقان.
- تجارب الأمم، في ذيل العيون والحدائق.
المقريزي، أبو العباس، أحمد بن علي.
- الخطط المقريزية، أو المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، بولاق، 1270هـ.
- اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء، بعناية جمال الدين الشيال، القاهرة، 1967.
مؤلف مجهول.
أخبار الدولة العباسية، بعناية عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، بيروت، 1971، دار الطليعة.
مؤلف مجهول.
العيون والحدائق، ج 3، بعناية دي غويه، ليدن، 1871، وبذيله جزء من تجارب الأمم.
العيون والحدائق، ج 4، بعناية عمر السعيدي، دمشق، 1972، المعهد الفرنسي.
المقدسي، المعروف بالبشاري، محمد بن أحمد (ت 387هـ/997م).
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بعناية دي غويه، ليدن، 1906.
المكي، أبو طالب محمد بن علي بن عطيه.
قوت القلوب في معاملة المحبوب، القاهرة، 1961، مصطفى البابي الحلبي.
ناصر خسرو، (أواسط القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي).
سفرنامة، تعريب يحيى الخشاب، ط 2، بيروت، 1970، دار الكتاب الجديد.
النباهي، أبو الحسن عبي بن عبد الله.
تاريخ قضاة الأندلس، أو المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، بيروت، دون تاريخ، المكتب التجاري.
النرشحي، محمد بن جعفر.

تاريخ بخارى، تعريب أمين عبد المجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي، القاهرة، 1965، دار المعارف.

النويري، أحمد بن عبد الوهاب (677هـ/733م).

نهاية الارب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، القاهرة، دون تاريخ.

الهمداني، محمد بن عبد الملك.

تكملة تاريخ الطبري، بعناية البرت كنعان، ج 1، بيروت، 1961، المطبعة الكاثوليكية.

الهمذاني، بديع الزمان.

مقامات بديع الزمان، بعناية الشيخ محمد عبده، ط 6، بيروت، دون تاريخ، دار المشرق.

الهرثمي الشعراني، صاحب المأمون.

مختصر سياسة الحروب، بعناية عبد الرؤوف عون، القاهرة، دون تاريخ، المؤسسة المصرية العامة.

الوشاء، محمد بن إسحاق بن يحيى.

الظرف والظرفاء، بعناية فهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، 1986.

الوهراني.

منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، بعناية ابراهيم شعلان ومحمد نغش، القاهرة، 1968.

وكيع، محمد بن خلف، (ت 306هـ).

أخبار القضاة، القاهرة، 1947، مطبعة الاستقامة.

ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (626هـ/1228م).

- **معجم الأدباء**، أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، بعناية مرجوليوت، القاهرة، 1923.
- **معجم البلدان**، بيروت، 1957، دار صادر ـ دار بيروت.
- **المشترك وضعاً والمفترق صقعاً**، بعناية وستنفلد، غوتنغن، 1864.

يحيى بن آدم القرشي.

- **الخراج**، بعناية أحمد شاكر، ط 2، القاهرة، 1384، المطبعة السلفية.

اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن واضح (ت 384هـ).

- **البلدان**، بعناية دي غويه، ليدن، 1892.
- **تاريخ اليعقوبي**، بيروت، 1960، دار صادر ـ دار بيروت.

- **مشاكلة الناس لزمانهم**، بعناية وليم ملورد، بيروت، 1962، دار الكتاب الجديد.

3 ـ المراجع والدراسات الحديثة

اسماعيل، محمود.

الحركات السرية في الإسلام، القاهرة، 1973، كتاب روز اليوسف.

الأطرقجي، رمزية محمد.

بغداد في عهد أبي جعفر المنصور، النجف، 1975، مطبعة النعمان.

الأعظمي، علي ظريف.

مختصر تاريخ بغداد، بغداد، 1926، مطبعة الفرات.

أمين، أحمد.

ضحى الإسلام، ط 7، القاهرة، 1964، مكتبة النهضة المصرية.

بابو اسحاق، روفائيل.

أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية، بغداد، 1960، مطبعة شفيق.

باتون، ولتر.

أحمد بن حنبل والمحنة، عربه عبد العزيز عبد الحق، القاهرة، 1958، دار الهلال.

بارتوع، ن.

تاريخ الحضارة الإسلامية، عربه حمزة طاهر، القاهرة، 1958، دار المعارف.

البكري، مهاب درويش.

نفائس من الدراهم العباسية، **مجلة المسكوكات**، العدد الخامس، بغداد، 1974، (صفحات 55 ـ 72).

بلا، شارل.

الجاحظ وبيئة البصرة، عربه، ابراهيم الكيلاني، دمشق، 1961، دار اليقظة العربية.

بلياييف.

العرب والإسلام والخلافة العربية، عربه أنيس فريحة، راجعه محمود زايد،

بيروت، 1972، الدار المتحدة للنشر.

بنعبد العالي، عبد السلام.

الفلسفة السياسية عند الفارابي، بيروت، 1979، دار الطليعة.

بهنسي، عفيف.

جمالية الفن العربي، الكويت، 1979.

بوزورث، س. أي.

التنظيم العسكري عند البويهيين في العراق وإيران، **مجلة المورد**، مجلد 4، عدد 1، بغداد، 1975 (ص 33 ـ 51).

غرونيباوم، غوستاف.

حضارة الإسلام، عربه عبد العزيز رفيق جاويد، القاهرة، 1956، الألف كتاب.

شعراء عباسيون، عربه وراجعه محمد يوسف نجم وإحسان عباس، بيروت، 1959، دار مكتبة الحياة.

الجنابي، أحمد نصيف.

الوزن والقافية بين العربية والفارسية، **مجلة المورد**، المجلد الأول، عدد 3 ـ 4، بغداد، 1972، (127 ـ 135).

جواد، مصطفى.

ـ الفتوة من القرن الأول للهجرة إلى القرن الثالث عشر منها، **مقدمة كتاب**:

ـ **الفتوة**، لابن المعمار الحنبلي.

ـ **في التراث العربي**، المجلد الأول، بغداد، 1975، وزارة الإعلام.

ـ **دليل خارطة بغداد**، قديماً وحديثاً، بغداد، 1958، بالاشتراك مع أحمد سوسه.

جولد تسهير، انياس.

العقيدة والشريعة في الإسلام، عربه علي عبد القادر حسن وآخرون، ط 2، القاهرة، 1959، دار الكتاب العربي.

الجومرد، عبد الجبار.

أبو جعفر المنصور، بيروت، 1963، دار الطليعة.

الحاجري، محمد طه.

الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد 12، بغداد، 1965 (ص 116 ـ 138). م 13، ص 63 ـ 88.

حتي، فيليب.

تاريخ العرب المطول، ترجمة جبرائيل جبور وآخرون، ، بيروت، 1965، دار الكشاف.

الحاني، ناصر.

صور عباسية، (صيدا ـ بيروت) دون تاريخ، المكتبة العصرية.

حسن، محمد عبد الغني.

ملامح من المجتمع العربي، القاهرة، 1951، دار المعارف، سلسلة اقرأ، رقم 102.

حسن، ناجي.

ثورة زيد بن علي، بغداد، 1966، مكتبة النهضة المصرية.

حسين، عبد الرزاق عباس.

نشأة مدن العرق وتطورها، القاهرة، 1973، معهد الدراسات العربية.

الحسيني، محمد باقر.

مدن الضرب على النقود الإسلامية، **مجلة المسكوكات،** العدد الخامس، 1974، 1978، مؤسسة الرسالة.

حمدان، جمال.

جغرافية المدن، ط 2، القاهرة، 1972، عالم الكتب.

مقدمة لترجمة كتاب دزموند ستوارث (القاهرة)، القاهرة، 1969، كتاب الهلال.

حوراني، جورج فضلو.

العرب والملاحة في المحيط الهندي، عربه السيد يعقوب بكر، راجعه يحيى الخشاب، القاهرة، 1968.

الخالدي، طريف.

دراسات في تاريخ الفكر العربي والإسلامي، بيروت، 1977، دار الطليعة.

خطاب، فرات فائق.

الكحالة عند العرب، بغداد، 1975، وزارة الإعلام.

دجيلي، كاظم.

السفن في العراق، **مجلة لغة العرب،** مجلد 2، بغداد، 1912، 1913، ج 2، ص 93 ـ 103.

دوري، تقي الدين.

إمرة الأمراء في العراق، بغداد، 1975.

دوري، عبد العزيز.

تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط 2، بيروت، 1974، دار المشرق.

دراسات في العصور العباسية المتأخرة، بغداد، 1945، مطبعة السريان.

نشوء الأصناف والحرف في الإسلام، **مجلة كلية الآداب**، عدد 1، بغداد، 1959 (ص 133 ـ 169).

نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، **مجلة المجمع العلمي العراقي**، مجلد 20، بغداد، 1970، ص 3 ـ 24.

ـ **مقدمة** لكتاب حسام السامرائي، **المؤسسات الإدارية**، أنظر لاحقاً.

بغداد، دائرة المعارف الإسلامية، **الطبعة العربية الجديدة**، الجزء السابع، ت(ص 386 ـ 433).

دي بور.

تاريخ الفلسفة الإسلامية، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، 1938.

ديماند، م. س.

الفنون الإسلامية، تعريب أحمد محمد عيسى، القاهرة، 1958، دار المعارف.

رسول، فوزي.

ملتقى العصرين في الحجامة والفصد، عرض لكتاب صاحب زيني. **مجلة التراث الشعبي**، السنة الخامسة، عدد 9، بغداد، 1974، (ص 149 ـ 156).

الريس، محمد ضياء الدين.

الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، القاهرة، 1961.

زلهايم، رودلف.

العلم والعلماء في عصور الخلفاء، تعريب عطية رزق، بيروت، 1974، دار الأمانة.

زيادة، نقولا.

الحسبة والمحتسب في الإسلام، بيروت، 192، المطبعة الكاثوليكية.

لمحات من تاريخ العرب، بيروت، 1961، دار الكتاب اللبناني.

زيدان، جورجي.

تاريخ التمدن الإسلامي، بعناية حسن مؤنس، القاهرة، دون تاريخ، دار الهلال.
سامح، كمال الدين.
العمارة الإسلامية في صدر الإسلام، القاهرة، 1964، المؤسسة المصرية العامة.
سامرائي، إبراهيم.
من كتاب البخلاء، **مجلة التراث الشعبي**، م 5، عدد 6 ـ 7، بغداد، 1974، (23 ـ 60).
سامرائي، حسام قوام.
المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية خلال الفترة 247 ـ 324هـ، دمشق 1971، دار الفتح.
سامرائي، عبد الله سلوم.
الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية، بغداد، 1972، دار الحرية للطباعة.
سركيس، يعقوب.
مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد، بغداد، ع1948 ـ 1958.
سرور، محمد جمال الدين.
النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، ط 3، القاهرة، 1964، دار الفكر العربي.
تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ط 3، القاهرة، 1973، دار الفكرالعربي.
سعيد، شاكر حسن.
الخصائص الفنية والاجتماعية لرسوم الواسطي، بغداد، 1972، وزارة الإعلام.
السعيد، لبيب.
دراسة إسلامية في العمل والعمال، القاهرة، 1970، الهيئة المصرية العامة.
سفر، فؤاد.
التحريات الأثرية في منطقة مشاريع الري الكبرى في العراق، **مجلة سومر**، المجلد 16، العدد 1 ـ 2، بغداد، 1960 (ص 3 ـ 12).
سوسه، أحمد.
فيضانات بغداد في التاريخ، ج 1، بغداد، 1963، مطبعة الأديب.
الشالجي، عبود.

الـرواتب في الإسـلام، **مجلة المجمـع العلمي العـراقي**، المجلد 26، بغـداد، 1975.
الشامي، عبد العال عبد المنعم.
جغـرافية المـدن عند العـرب، **مجلة عالم الفكـر**، مجلد 9، العدد الأول، الكـويت 1978 (123 ـ 168).
شبل، يوسف.
أزمة الغلاء، بيروت، 1978، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
الشريف، أحمد، بالإشتراك مع حسن أحمد حمود.
العالم الإسلامي في العصر العباسي، القاهرة، 1966، دار الفكر العربي.
صراف، عبد الأمير.
الفـارابي والآلات الموسيقيـة المشهورة في بغـداد، **مجلة المورد**، مجلد 4، عـدد 3، بغداد، 1975 (ص 89 ـ 95).
الصفار، ابتسام مرهون وبدري محمد فهد.
الأحذية والنعال في الحضارة الإسلامية، النجف، 1973.
عبد النور، جبور.
الجواري، (القاهرة، دون تاريخ)، دار المعارف، سلسلة اقرأ، رقم 60.
العبطة، محمود.
الفولكلور في بغداد، بغداد، 1963.
العزاوي، عباس.
تاريخ الضرائب العراقية، بغداد، 1959، شركة التجارة والطباعة.
العطية، زهير.
العناصر الفنية في البيت البغدادي، **مجلة آفاق عـربية**، مجلد 1، عـدد 4، بغداد، 1975، ص 106 ـ 113.
عكاشة، ثروت.
فن الواسطي من خلال مقامات الحريري، ، القاهرة، 1974، دار المعارف.
علاف، عبد الكريم.
الطرب عند العرب، بغداد، 1963، المكتبة الأهلية.
العلي، زكية عمر.
التزيق والحلي عند المرأة في العصور العباسية، بغداد، 1976، دار الحرية.
العلي، صالح أحمد.

- **التنظيمات الإجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري**، ط 2، بيروت، 1969، دار الطليعة.
- **قضاة بغداد في العصر العباسي**، مستل من المجلد 18 من مجلة المجمع العلمي العراقي.
- ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى، **مجلة المجمع العلمي العراقي**، م 260، بغداد، 1975، (ص 71 ـ 107).
- مقدمة لكتاب **نهاية الرتبة في طلبة الحسبة لابن بسام**، انظر أعلاه، م 270، 1976، (ص 63 ـ 100).

عليان، محمد عبد الفتاح.

قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين، القاهرة، 1970، الهيئة المصرية العامة.

عمر، فاروق.

- **الخلافة العباسية في عهد الفوضى العسكرية، 248 ـ 334هـ**، بغداد، 1973، مطبعة دار السلام.
- **بحوث في التاريخ العباسي**، بيروت، 1977، دار القلم.
- **العباسيون الأوائل**، ج 2، دمشق، 1973، دار الفكر.
- كتاب التاريخ المنسوب إلى ديونيسيوس التلمحري، عرض وتلخيص، **مجلة ما بين النهرين**، عدد 4، 1976، ص 151 ـ 160.

العمري، أكرم ضياء.

موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، بيروت، 1975، دار القلم.

العميد، طاهر مظفر.

- **بغداد مدينة المنصور المدورة**، بغداد، 1967، المكتبة الأهلية.
- المظاهر العسكرية في بناء بغداد المدورة، **مجلة كلية الآداب**، بغداد، 1969، العدد 12، (ص 303 ـ 312).

عواد، كوركيس.

خزائن الكتب القديمة في العراق، بغداد، 1948، مطبعة المعارف.

عون، عبد الرؤوف.

الفن الحربي في صدر الإسلام، القاهرة، 1961، دار المعارف.

غني، قاسم.

تاريخ التصوف في الإسلام، تعريب صادق نشأت، القاهرة، 1970، مكتبة النهضة.

فوزي، حسين.

حديث السندباد القديم، القاهرة، 1943.

فهد، بدري محمد.

— **العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري**، بغداد، 1967.

— **تاريخ الشهود**، مجلة كلية الشريعة، العدد الثالث، بغداد، 1966 ـ 1967، ص 30 ـ 40.

القاضي، وداد.

مجتمع القرن الرابع في مؤلفات أبي حيان التوحيدي، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة إلى الجامعة الأميركية في بيروت، 1969.

قزانجي، فؤاد.

المكتبات والصناعة المكتبية في العراق، بغداد، 1972، دار الحرية للطباعة والنشر.

الكبيسي، حمدان عبد المجيد.

عصر المقتدر بالله، النجف، 1974.

كرستنسن، لرثر.

إيران في عهد الساسانيين، تعريب يحيى الخشاب، القاهرة، 1967.

كونل، أرنست.

الفن الإسلامي، تعريب أحمد موسى، بيروت، 1966، دار صادر.

لسترنج، غي.

بلدان الخلافة الشرقية، تعريب بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد، 1954، مطبعة الرابطة.

لوبون، غوستاف.

حضارة العرب، تعريب عادل زعيتر، ط 4، القاهرة، 1964، عيسى البابي الحلبي.

لويس، ارشيبالد.

القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، عربه أحمد محمد عيسى، القاهرة، 1960، مكتبة النهضة المصرية.

لويس، برنارد.
أصول الاسماعيلية، تعريب خليل أحمد جلو وجاسم محمد الرجب، القاهرة، 1947، دار الكتاب العربي.
النقابات الإسلامية، تعريب عبد العزيز الدوري، **مجلة الثقافة**، القاهرة 1940، الأعداد 355 ـ 357.
متز، آدم.
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، عربه محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط 3، القاهرة، 1957.
المختار، فريد داود.
ـ **المنسوجات العراقية الإسلامية**، بغداد، 1977، وزارة الإعلام.
ـ دور الطراز في مدينة السلام، **مجلة المورد**، مجلد 3، عدد 3، بغداد، 1974 (ص 123 ـ 127).
المدور، جميل نخلة.
حضارة الإسلام في دار السلام، القاهرة، 1935، المطبعة الأميرية.
المنجد، صلاح الدين.
ـ **الحركات التقدمية في العراق**، بيروت، 1962، دار العلم للملايين.
ـ **بين الخلفاء والخلعاء**، بيروت، 1974، دار الكتاب الجديد.
ناجب، عبد الجبار.
تاريخ الطبري مصدراً عن ثورة الزنج، **مجلة المورد**، مجلد 7، عدد 3، بغداد، 1978.
ناجي، هلال.
رسالتان فريدتان في عروض الدوبيت، **مجلة المورد**، مجلد 3، عدد 4، بغداد، 1974، (ص 145 ـ 174).
النخيلي، درويش.
السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الاسكندرية، 1974.
النعيمي، ناهدة عبد الفتاح.
مقامات الحريري المصورة، بغداد، 1979، وزارة الثقافة والفنون ـ دار الرشيد.
النقشبندي، ناصر السيد محمود.
الدرهم الإسلامي، بغداد، 1969، المجمع العلمي العراقي.
النجم، وديعة طه النجم.

ـ الجاحظ والحاضرة العباسية، بغداد، 1975 مطبعة الارشاد.
ـ الشعر في الحاضرة العباسية، الكويت، 1977، دار كاظمة.
هل، ي.
الحضـارة العربيـة، تعريب ابـراهيم أحمـد العـدوي، القـاهـرة، 1956، الألف كتاب.
هنتس، فالتر.
المكـاييل والأوزان الإسـلامية، عـربه كـامل العسـلي، عمان، 1970، الجـامعـة الأردنية.
هونكه، زيغرد.
شمس العرب تسطع على الغرب، عربه فاروق بيضون وكـمال الدسـوقي، ط 2، بيروت، 1969، المكتب التجاري.
هولتكرانس، ايكه.
قاموس مصـطلحات الاتنـولوجيـا والفولكلور، تعـريب محمد الجـوهري وحسن الشامي، القاهرة، 1973، دار المعارف.

الدراسات بغير اللغة العربية:

المصادر الأجنبية

AHSAN, M.M:
— Social Life under the Abbasids, Longman, London-New- York & Librairie du Liban, 1979. **Edited by N.A.Ziadeh.**
Al-ALI, SALEH A:
— Foundation of Baghdad, in Islamic City, Oxford, 1970 Edited by A.M.Hourani & S.M.Stern.
ALLARD.M:
— Les Chrétiens à Baghdad, dans Arabica, 1962, PP. 365-388.
ASHTOR, ELYAHU:
— Histoires des Prix et des salires dan l"Orient Médiéval, Paris. 1969.
— A SOCIAL and ECONOMIC History of the Near East in the Middle Ages, Collins, London, 1976.
BAER
— Guilds in the Middle Eastern History, in, Studies in Economic History of the Middle East, London New-York, 1970, Edited **by M.A.Cook.**
BEG, M.A:
— Al-Khassa Wal-Amma, EI^2, IV, PP. 1128-1130.
BOWEN, Harold:
— The Life and the Times of Ali Ibn ISA, The Cood Vizir, Cambridge, 1928.
— Abd, EI^2, I, 24-28.
BRUNSHWIG. R:
— Métiers Vils en Islam, dans, Studia Islamica, S.I., 16, 1962, PP. 41-60.

— Urbanisme Médiéval et Droit Musulman, dans: Revue des Etudes Islamiques, R.E.I., 1947, PP. 127-155.

CAHEN, Claude:

— L'Islam des Origines au début de L'Empire Ottoman, Paris, Bordas, 1970.

— Les Mouvements Populaires et Autonomisme Urbain dans l'Asie musulmane du Moyen-Age, Arabica, 1958, 225-250.
Djeish, EI[2], II, PP. 517-252.

CRESWELL, K.A.C:

— A Short Account of Early Muslim Architecture, Beirut, 1968, Librairie du Liban.

DOZY. R.P.A:

— Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les Arabes, Amsterdam, 1945, Jean Muller.

— Supplément aux dictionnaires Arabes, Leyde, 1881, et Beyrouth 1968, Librairie.

DOURI. A.A:

— Bagdad, EI[2], du Liban.

EHRENKREUTZ, ANDREW:

— Monetary Aspects of Médieval Near Eastern Economic History, in Studies in the Economic History.

ELISSEEFF, N:

— Thèmes et Motifs des mille et Une nuits, Beyrouth, 1949.

— Encyclopédie de l'Islam. n. edition, EI[2] Paris-La Haye, 1965-, Maisonneuvre et la Rose.

D. GoEJE:

— Mémoires sur les Carmathes de Bahrain, Leide, 1880.

GRUNEBAUM, G.E.VON:

— Mohammadan Festivales, New-York, 1951.

HITTI, PHILIP:

— History of the Arabes, 7° edit., London, 1961, Macmillan.

— Capital Cities of Arab Islam, university of Minesota press, Minneapolis, 1973.

HOURANY, A.M. and S.M:

— The Islamic City, Papers on Islamic History, I, Stern edited, Oxford, 1970.

HUART, Clément. et Delaporte, Louis:

— L'Iran Antique, Paris, 1958, édit. Albin Michel.

IBN AL-BANNA:

— Autograph Diary of an Eleventh- Century Historian of Baghdad,

edited by G. MAKDISI, in bulletin of the School Oriental and African Studies, (B.S.O.A.S). University of London; 19 (1956) PP. 9-31, 239-260. 19 (1957) PP. 13-303, 462-443.

LAOUST, H:

— La pensée et l'Action Politique d'Al- Mawardi, in: R.E.I., 26, (1968) PP. 11-92.

— Le Hanbalisme sous le Caliphat de bagdad, R.E.I 27 (1969), PP. 67-128.

— Les Agitations à Baghdad Au XIV et X siècle de l'Hegire, in Islamic History, III, Editor D.H. Richard, Oxford, 1973.

LASSNER, J:

— The Caliph's Personnel Domain, in: The Islamic City, edited by Hourni Cf. supra.

MASSIGNON. LOUIS:

— L'Islam dans sa première grandeur, Paris, 1971, Flammarion.

MASSIGNON, LOIUS:

— Opera Minora, textes receuillis par Y. Moubarac, Beyrouth, 1963, Dar Al- Maaref, Liban.

MAZAHERI, ALI:

— La Vie quotidienne des musulmans au Moyen Age, Paris, 1951, Hachette.

MUIR, S. W:

— The Caliphate, It's Rise, Decline, and Fall, Beirut, 1963, Khayt's reprint of 1898 Edition.

PELLAT CH:

— Khubs, EI^2 V, 1979, PP. 42-44.

PIGULEVSKAJA:

— Les villes de l'état Iranien aux époques Parthe.et Sassanide, Paris-La Haye, 1963.

PLANHOL, Xavier, de:

— Les Fondements geographiques de l'Histoire de l'Islam, Paris, 1968.

— Le monde Islamique, Paris, 1957.

RICE, D.S:

— DEACON or DRINK: Some Paitings From Samarra re- examined, in Arabica, V, 1958, PP. 16-33.

RODINSON, M:

— Histoire économique et Historie des Classes Sociales dans le monde Musulman, in: Studies in the Economic History of the Middle East, Cp. Supra.

— GHIDHA, E.I^2, i, PP. 1081-1097.
AL-SABI, HILAI:
— Rusum Dar al-Khilafah, Translated from the Arabic by: ELIE A. SALEM, AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT, 1977.
SADAN, J:
— Khamr, E.I^2, IV, PP. 1029-1030.
SAMURRAI, H.K:
— Agriculture in Iraq during the 3rd Century A.H, Beirut, 1972, Librairie du liban.
SERJEANT, R.B:
— Islamic Textiles, Beirut, 1972, Librairie du Liban.
SOURDEL, Dominique:
— Le Vizirat Abbaside, Damas, 1960, Institut Français.
D. ET JANINE:
— La Civilisation de l'Islam Classique, Paris, 1968.
SPULER, B:
— Trad in The Islamic Countries in The Early Century, in, Islamic and the Trade of Asia, Oxford, 1970.
LE STRANGE, GUY:
— Baghdad during the Abbasid Caliphat, Oxford 1900, New-York, 1972, Barnes & Noble.
TYAN, E:
— Histoire de l'Organisation judiciaire aux pays de l'Islam, Leiden, 1960.
UDOVITCH, A:
— Commercial Techniques in The Early Medieval Islamic Trad, in Islamic and Trade of Asia, Cf. Supra.
VAJDA, GEORGES:
— Le Milieu juif à Bagdad, in Arabica 9.(1962) pp. 359-393.
DE VAUMAS, ETIENNE:
— Introduction Geographique à l'Histoire de Bagdad; in Arabica, 1962, pp. 229-247.
WINSINCK, A.J:
— khamr & I^2, IV, 1027-1029.

ملحق رقم - 1 -

لائحة أصناف المهنيين عند اخوان الصفاء كما وردت في رسائلهم ،ج 1 ،ص 280 - 286 .

الملاحون
السقاؤون
الرواؤن
الشرابيون
السباحون
الزمارون
البواقون
النفاخون
الدفافون
حفار الآبار والأنهار والقنى
ناقلو التراب
قالعو الحجارة
النفاطون
الوقادون والمشعلون
الغضارون
الفخارون
القدوريون
ضاربو اللبن

الجصاصون
الحدادون
الصفارون
الرصاصون
الزجاجون
الصواغون
الوزانون
الكيالون
الذراعون
الدلالون
المقومون
الصيارفة
الأطباء
المزينون
المعلمون
النجارون
الخواصون
البوارون
الحصريون

الأقفاصيون
الكتانيون
ومن يعمل في القنب والكاغد
الدقاقون
الرزازون
النوائيون
العصارون
البزارون
الشيرجيون
الحراثون
المساحون
الطباخون
الخبازون
العطارون
البناؤن
النقاشون
الرفاؤن
الندافون

الحلاجون
الخياطون
الحياكون
الغزالون
القصارون
الصيادون
رعاة الغنم والبقر
ساسة الدواب
البياطرة
أصحاب الطيور
القصابون
الشواؤن
الطباخون
الدباغون
الأساكفة
الخرازون
السيوريون
الدنانون
الحذاؤن

ملحق رقم ـ 2 ـ

لائحة نصر بن يعقوب الدنيوري في أصناف المهنيين وهي مرتبة ترتيباً أبجدياً، كما وردت لدى المؤلف في «التعبير عن الرؤيا» ص 76 ب ـ 82 ب

الإسكاف
الأكاف
البناء
الباغبان
البستانبان
البزاز
البطيخي
البقلي
الباقلاني
البيطار
بياع الطيور الملونة
بياع الطيور
بياع الطعام
الترسي
التياس
التاجر
الجصاص
الجوهري
الجوشني
الجواليقي

الجزار
جلاب الصفر
جزاز الشعر
جلاب الأمتعة
جلاب الألبان
جلاب الأغنام
الجمال
الحمال
حفار الجبال والأبار
الحراس
الحمامي
الحفار
حالب اللبن
الحناط
الحداد
الحراث
حكاك الفصوص
الحجام
الحلاق
الحلواني

الحمار
الحطاب
حالب البقر
الحذاء والنعال
الحواء
الخياط
الخباز
الخانبان
الخشاب
الخراط
الخرزي
الخواص
الخزاز
الخمار
الخلالي
الخلقاني
الخياط
الدوغي
الدلال
الداية

الدباغ
الدهقان
الدقاقون
الذباح
راكب العجلة
الراقي
راقي الحيات
الرصاص
الرائض
الريحاني
الرباطي
الرفاء
الراعي
الرواس
الرماح
الزراد
الزجاج
السائل
السقاء
السمسار

السكاكيني
السماط
السماك
السكري
السلاح
السابح
الساحر
السراج
السمان
السائس
السباك
السارق
السقطي
السالخ
الشواء
الشعيري
الشعاب
الشاهد
الشوافي
الصياد
الصائغ
الصيدلاني
الصيقل
الصباغ
الصيرفي
الصفار
الصكاك
الصرّام

ضراب الدنانير
الطبيب
الطباع
الطباخ
الطرار
الطحان
الطرائفي
الطبقي
الطيوري
صانع الطشت والكوز
عصار السمسم
العشار
العراف
العلاف
العطار
العصار
عصار دهن الجوز
الغزال
الغواص
الغضائري
الفصاد
الفلاس
الفيج
الفامي
الفحام
الفلكي
الفقير

الفراش
الفعلة
الفخار
القصار
القواسي
القصاب
قسام اللحوم
القفال
قلاع الجبال
القناء (حافر القنوات)
القراد
القدوري
القطان
القلانسي
قاسم المواريث
الكيال
الكامخي
الكاغدي
الكاهن
الكحال
اللابن
اللص
اللحام
المضحك
المحاكي
المساح

المنحي
الملاح
المشاط
المحبر
المشاطة
المغازلي
المنقاضي
المساميري
المعبر
محيي الموتى
المكاري
المعلم
مصور الحيوان
المشتري والبائع
المختار
النقاش
النحات
النباش
النقاش
النجار
النداف
الناطفي
الناقد
النبلي
الناطور
نقال الموتى
الوراق
الهراس

كشاف أسماء الخلفاء العباسيين في العراق

1 ـ السفاح، عبد الله بن محمد بن علي: 132 ـ 136/ 749 ـ 754
2 ـ المنصور، أبو جعفر، عبد الله بن محمد: 136 ـ 158/ 754 ـ 775
3 ـ المهدي، محمد بن عبد الله: 158 ـ 169/ 775 ـ 785
4 ـ الهادي، موسى بن محمد: 169 ـ 170/ 785 ـ 786
5 ـ الرشيد، هارون بن محمد: 170 ـ 193/ 786 ـ 809
6 ـ الأمين، محمد بن هارون: 193 ـ 198/ 809 ـ 813
7 ـ المأمون، عبد الله بن هارون: 198 ـ 218/ 813 ـ 833
8 ـ المعتصم، إبراهيم (أو محمد) بن هارون: 218 ـ 227/ 833 ـ 842
9 ـ الواثق، هارون بن المعتصم: 227 ـ 232/ 842 ـ 847
10 ـ المتوكل، جعفر بن المعتصم: 232 ـ 247/ 847 ـ 861
11 ـ المنتصر، محمد بن جعفر المتوكل: 247 ـ 248/ 861 ـ 862
12 ـ المستعين، أحمد بن المعتصم: 248 ـ 251/ 862 ـ 866
13 ـ المعتز، محمد بن جعفر المتوكل: 251 ـ 255/ 866 ـ 869
14 ـ المهتدي، جعفر بن هارون الواثق: 255 ـ 256/ 869 ـ 870
15 ـ المعتمد، أحمد بن جعفر المتوكل: 256 ـ 279/ 870 ـ 892
16 ـ المعتضد، أحمد بن طلحة الموفق: 279 ـ 289/ 892 ـ 902
17 ـ المكتفي، علي بن أحمد المعتضد: 289 ـ 295/ 902 ـ 908
18 ـ المقتدر، جعفر بن أحمد المعتضد: 295 ـ 320/ 908 ـ 932
19 ـ القاهر، محمد بن أحمد المعتضد: 320 ـ 322/ 932 ـ 934
20 ـ الراضي، محمد بن جعفر المقتدر: 322 ـ 329/ 934 ـ 940

21 ـ المتقي، إبراهيم بن جعفر المقتدر: 329 ـ 333/ 940 ـ 944

22 ـ المستكفي، عبد الله بن علي المكتفي: 333 ـ 334/ 944 ـ 946

23 ـ المطيع، القاسم بن جعفر المقتدر: 334 ـ 363/ 946 ـ 974

24 ـ الطائع، عبد الكريم بن القاسم المطيع: 363 ـ 381/ 974 ـ 991

25 ـ القادر، أحمد بن إسحاق بن المقتدر: 381 ـ 422/ 991 ـ 1031

26 ـ القائم، عبد الله بن أحمد القادر: 422 ـ 467/ 1031 ـ 1075

27 ـ المقتدي، عبد الله بن محمد بن القائم: 467 ـ 487/ 1075 ـ 1094

28 ـ المستظهر، أحمد بن عبد الله المقتدي: 487 ـ 512/ 1094 ـ 1118

29 ـ المسترشد، الفضل بن أحمد المستظهر: 512 ـ 529/ 1118 ـ 1135

30 ـ الراشد، منصور بن الفضل المسترشد: 529 ـ 530/ 1135 ـ 1136

31 ـ المقتفي، محمد بن أحمد المستظهر: 530 ـ 555/ 1136 ـ 1160

32 ـ المستنجد، يوسف بن المقتفي: 555 ـ 566/ 1160 ـ 1170

33 ـ المستضيء، حسن بن يوسف: 566 ـ 575/ 1170 ـ 1180

34 ـ الناصر، أحمد بن حسن: 575 ـ 622/ 1180 ـ 1225

35 ـ الظاهر، محمد بن أحمد الناصر: 622 ـ 623/ 1225 ـ 1226

36 ـ المستنصر، منصور بن محمد: 623 ـ 640/ 1226 ـ 1242

37 ـ المستعصم، عبد الله بن منصور: 640 ـ 656/ 1242 ـ 1258

كشاف الأعلام

ـ ب ـ

كشاف الأماكن والبلدان

فهرس كشاف حضاري عام

كشاف الموضوعات

الباب الرابع

واقع العامة الاجتماعي

الباب الخامس

حركات العامة

1993/7/9